المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار : (١٠٢)

شِعرُ الحَربِ بين البحتري والمتنبي

تأليف

د/ زيد بن محمد الجهيمي

الجزء الأول

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر الحرب

بين

البحتري والمتنبي

ح الجامعة الإسلاميّة، ١٤٢٧هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النشر

الجهني، زيد بن محمد

شعر الحرب بين البحتري والمتنبي. /زيد بن محمد الجهني.-

المدينة المنورة، ١٤٢٩هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٧-٥٩٥-٠٢-٩٩٦٠-٩٧٨

١-البحتري، الوليد بن عبيد، ت٢٨٤هـ ٢-المتنبي، أحمد بن الحسين، ت٣٥٤ أ. العنوان

ديوي ٨١١،٥٠٠٩ ١٤٢٩/٣٨٢٩

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٨٢٩

ردمك: ٧-٥٩٥-٠٢-٩٩٦٠-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة معالي مدير الجامعة الإسلاميَّة

الحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، والصَّلاة والسَّلام على رسول الهدى الذي أمر بالعلم قبل العمل، فبه ارتفع وتقدّم، وعلى آله وأصحابه ومَنْ بأثره اقتفى والتزم. وبعد:

فإنَّ الاشتغال بطلب العلم والتفقّه في الدّين من أجلّ المقاصد وأعظم الغايات وأولى المهمّات؛ لذلك ندب إليه الشَّارع الحكيم في كثير من نصوص كتابه، وأمَرَ نبيّه ﷺ بالزيادة منه؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقد رتّب النبي ﷺ الخير كلّه على التفقّه في الدّين فقال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقّه في الدين**» متّفق عليه. وقال ﷺ: «**النَّاس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**» متّفق عليه. وهذا مما يدلّ على أهميته وعظم شأنه.

لذلك كان الاهتمام بالعلم الشّرعيّ المستمّد من الكتاب والسنّة وفهمِ السَّلف الصَّالح هو الهدف الأسمى لمؤسس هذه الدّولة المباركة الملك عبدالعزيز –يرحمه الله– وكذلك أبناؤه من بعده الذين كانت لهم اليد الطولى وقَدَمُ السبقِ في الاهتمام بالعلم وأهله؛ فأولوه عنايةً فائقةً، وخصّوه بجهود مباركة، ظهرت آثارها على البلاد والعباد.

وكان لخادم الحرمين الشَّريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز -حفظه الله- جهودٌ واضحةٌ استوتْ على سوقها ووفّقتْ لمقصودها، ومن ذلك أمره بزيادة عدد الجامعات، وفتح جميع الوسائل ذات العلاقة بالتطوير والتنقيح والتأليف والنَّشر كعمادات ومراكز البحث العلميّ في شتّى الجامعات وعلى رأسها الجامعة الإسلاميَّة -العالمية العلمية- التي أولت البحث العلميّ اهتماماً بالغاً وجعلته غاية من غاياتها وهدفاً من أهدافها.

ومن هنا فعمادة البحث العلميّ بالجامعة تهتم بالبحوث العلميَّة نشراً وجمعاً وترجمة وتحكيماً في داخل الجامعة وخارجها؛ من أجل النُّهوض بالبحث العلميّ، والتشجيع على التَّأليف والنّشر، ومن ذلك كتاب:

[شعر الحرب بين البحتري والمتنبي دراسة موازنة]

تأليف: **د/زيد بن محمد الجهني** .

أسأل الله أنْ يوفّقنا جميعاً لما يحبّ ويرضى ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وصلّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

معالي مدير الجامعة الإسلاميَّة

أ.د/ محمد بن علي العقلا

شكر وتقدير

لا يسعنِي -بعد أن مَنَّ الله عليّ بإتْمام هــذا البحــث- إلاّ أَن أتوَجَّه إليه سبحانه وتعالى بالشّكر والثّناء على إعانته وتوفيقه.

واعترافاً بالفضل لأَهله، أتوجّه بالشّكر الجزيــل إلى أَصــحاب الفضيلة القائمين على الجامعة الإسلامية، الذين أتــاحوا لِــي شــرف الانتماء لهذه الجامعة الإسلامية.

كما أتقدّم بالشّكر الجزيل لكلّ مَن كان له فضلٌ في إخراج هذا البحث؛ فجزى الله الجميع خير الجزاء، وجعله في موازين أعمالهم،،،

المُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على نهجه، واتّبع ملّته، واقتفى أثره، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإنّ أدبنا العربيّ زاخر بجواهر من الفن الرّفيع، تستهوى الغائص في بحورها، الملتقط لخيارها، وإنّ العصر العباسيّ لَمن أزهى عصوره، لِمَا كان فيه من نهضةٍ علميةٍ وأدبيةٍ شَمِلَت أرجاء الخلافة، وقد كان يستهوِيني هذا الأدب وأنا أقرأ نَماذجه التِي منها قصيدة أبي تمام في فتح عمورية:

السَّيفُ أَصدقُ إِنباءً من الكتبِ ... في حَدِّهِ الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعبِ[1]

وأبيات البُحتُريّ في وصف الرّبيع:

أتاكَ الرَّبيعُ الطّلقُ يختالُ ضاحِكاً ... من الحسنِ حتَّى كادَ أن يتكلَّما[2]

---

(١) ديوانه بشرح وتعليق د/ شاهين عطية (١٤)، الطبعة الأولى عام ١٣٨٧هـ، نشر مكتبة الطلاب وشركة الكتاب اللّبنانِي- بيروت.

(٢) ديوانه بتحقيق حسن كامل الصّيرفِي (٤/٢٠٩٠)، طبعة دار المعارف الثّانية ١٩٧٧م.

وقصيدة المتنبي في بناء قلعة الحدث:

على قـــدرِ أهلِ العزمِ تأتِي العزائمُ وتأتِي على قـــدرِ الكرامِ المكارمُ[١]

وقصيدة أبي فر اس التِي منها:

ونحنُ أناسٍ لا توسُّط بينَنَا لنا الصَّدرُ دون العالَمينَ أو القبْرُ[٢]

ولَمَّا قدر لِي الالتحاق بالدّراسات العليا كنّا نعـرض بالتّحليـل لنماذج من هذا الشّعر، ومن ذلك تحليل لقصيدة المتنبي السّابقة، كما كنّا نقرأ في كتاب المثل السّائر لابن الأثير، ونقف على ما فيه مفاضلات بين الشّعراء، ومنها تفضيله للشّعراء الثّلاثة الأوّل الذين ذكرهم آنفاً: (أبي تمام والبُحتُرِيّ والمتنبيّ) في قوله عنهم: «وهؤلاء الثّلاثة هم لات الشّعر وعزاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقـد حـوت أشعارُهم غرابة المحدّثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السّائرة وحكمة الحكماء»[٣].

وحينما بدأت أبحثُ عن موضوع أسجّله للحصول على الدّرجـة

(١) ديوانه بشرح عبد الرحمن البرقوقي (٤/٩٤)، نشر دار الكتاب العربي عـام ١٤٠٠هـ - بيروت.

(٢) ديوان بشرح عباس السّاتر (٦٧)، طبعة دار الكتـب العلميـة الأولى عـام ١٤٠٤هـ بيروت.

(٣) المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر؛ لضياء الدّين بن الأثير، تحقيق د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة (٣/٢٦٩-٢٧٠)، الطّبعة الثّانية، -نشر دار الرفاعي ١٤٠٤هـ - الرياض.

العلمية (العالمية)؛ كانت أمنيتي هي دراسة شعر أحد هؤلاء الثّلاثة، وبينما أنا أردّد الفكر وأجيل النّظر؛ إذ بأستاذنا الدّكتور طه مصطفى أبو كريشة يشير إلى موضع: (شعر الحرب عند البُحتُريّ والمتنبّي)؛ فوافق هذا الموضع هوىً في نفسي، فقمت بتسجيله، والحمد لله على توفيقه.

ولهذا الموضوع أهميّةٌ فنّيّةٌ وتاريخيّةٌ ونفسيّةٌ:

فأمّا الفنّيّة؛ فلأنّه يعرض لأقوى أبواب الشّعر وأغراضه؛ لشعر البطولات والمعارك، شعر يستعدي من شاعره فخامة الألفاظ وجزالة التراكيب وقوّة العاطفة ووضوح الفكرة.

وأمّا التّاريخية؛ فلأنّه شعر يصوّر لنا أشهر أحداث العصر العبّاسيّ السّياسية في مدّة قاربت القرن ونصف القرن، في عصر كثرت فيه الفِتَن والمنازعات، وكثر فيه هجوم الرّوم على الثّغور المجاورة لهم، لكنّ الله قد هيّأ مَن وقف إزاء ذلك مجاهداً؛ فقضى على كثيرٍ من الفتن، وردَّ كثيراً من المغيرين على أعقابهم.

وأمّا النّفسية؛ فلأنّه شعر يصوّر لنا معارك الأسلاف، ويرسم لنا أسْمَى صور الجهاد في سبيل الله، مِمّا يدفع الحمية في النّفوس، ويحْيي النّخوة في القلوب شعر يُمثّل الأبطال فيجعلنا نستحضر صور قادة أفذاذ وصناديد أشاوس بذلوا أرواحهم في سبيل الله، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده.

والشّاعران من أشهر مَن صوّر هذا الجانب الحماسيّ، وإن كان شعر المتنبّي فيه أكثر، وشهرته فيه أشهر.

أمّا من حيث الدّراسات السّابقة حول هذا الموضوع؛ فمن جهة دراسة شعر الحرب لدى البُحتُرِيّ؛ فلم تظهر دراسةٌ سابقةٌ على دراستِي فيما أعلم.

وأمّا من جهة دراسة شعر الحرب لدى المتَنَبِّي فقد سبقِني إليها بعض الدّارسين، وأبرز تلك الدّراسات:

١- دراسة د/ محمود حسن عبد ربّه في رسالة الدّكتوراه التِي حصل عليها من كلّيّة اللّغة العربية في جامعة الأزهر، وطبعها فيما بعد عام ١٣٩٨هـ في كتاب عنوانه: (الحرب في شعر المُتَنَبِّي)[١].

٢- دراسة د/ هادي نهر في كتابه (مع المُتَنَبِّي في شعره الحربِي)[٢].

فأمّا الكتاب الأوّل فيتكون من جزأين الأوّل في حياة المُتَنَبِّي وعصره وحديث عام عن الحرب في الشّعر العربِي.

والثّانِي في الحديث عن شعر الحرب عند المُتَنَبِّي، وقد بنَى منهجه على نحو يختلف عن منهجِي حيث عرض لقصائد بعينها وحلّلَها فكرةً فكرةً، ثم تَحدَّث عن الخصاص الفنِّية في الألفاظ والأسلوب الحربِي لدى المُتَنَبِّي بمقابل أسلوبه في الأغراض الأخرى، ثم أتَى بِموازات بين المُتَنَبِّي وغيره من الشّعراء في القديم والحديث.

وأمّا الكتاب الثّانِي فجزء واحد تَحدَّث فيه عن حياة الشّاعر

---

(١) نشرته دار الشّروق بجدّة (الطّبعة الأولى).

(٢) الطّبعة الأولى عام ١٩٧٩م في مطبعة الجامعة المستنصرية ببغداد.

وعصره، وفيه تحليل جيِّدٌ لبعض النّماذج، وحديث عن القائد أو ما سمَّاه البطل في شعر المُتَنَبِّي الحربي، وحديث عن وصف المعارك.

وعلى هذا؛ فإنّ دراستِي التي تجمع بين الشّاعرين الكبيرين في دراسة مزانة لا تلتقي مع أيّ من هاتين الدّراستين إلاّ في بعض الجزئيات الخاصّة بالمُتَنَبِّي، وليس هذا هضماً لحقّهما، فلهما الفضل في السّبق.

وأمّا خطّة دراستِي لهذا الموضوع؛ فلم أهدف من ورائها أن أثبت على جهة الإطلاق تفوق البحتري على المُتَنَبِّي أو العكس، وإنّما سرت فيها على منهجٍ شبيه بِمنهج الآمدي في موازنته بين أبِي تَمام والبُحتُرِيّ، وهو ذكر ما لكلّ منهما في كلّ نقطة تحدّثاً عنها، ومحاولة إبراز وجه التّفوّق لدى كلّ منهما في المعنَى المشترك، أو ما يلحظ فيه اقتفاء المُتَنَبِّي آثار البُحتُرِيّ، مع ذكر ما انفرد به كلّ منهما عن الآخر.

وفي سبيل الوصول إلى هذا الهدف جاءت الخطّة على النّحو التّالِي:

الباب الأوّل: عصر كلّ من الشّاعرين وحياته، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: عصر البُحتُرِيّ وحياته.

وتحدثت فيه عن الحياة السّياسية في القرن الثّالث الهجري بما ينضوي تحتها من خلفاء وفتن وحروب، وعن الحياة الاجتماعية ومظاهرها من أجناسٍ بشريةٍ وطبقاتٍ، وديانات وحياة عامّة، وعن الحياة الثّقافية، وكيفية طلب العلم، وأسباب انتشاره، وأشهر الشّعراء والعلماء في كلّ فنٍّ، وأشهر المذاهب والفرق.

كما تحدّثت فيه عن حياة الشّاعر نفسه، ونشأته ورحلاته ولقاءاته

وشخصيته، وعن شعره وشاعريته.

والفصل الثّاني عن: عصر المُتَنَبِّي وحياته.

وتحدّثت فيه على النّحو التذي عرضت له عند البُحتُرِيّ.

والفصل الثّالث عن: الموازنة بين عصري الشّاعرين، وبين حياهما.

وقد وازنت فيه بين عصري الشّاعرين، ومان فيهما من أحوال سياسيةٍ واجتماعية، وثقافية، كما وازنت بين شخصيّتي الشاعرين، ثم استنتجت عدّة نقاطٍ خرجت بها من دراسة عصريهما وحياهما.

والباب الثّانِي، عنوانه: موضوعات شعر الحرب عند الشّاعرين، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: عن موضوعات شعر الحرب عند البُحتُرِيّ.

أوّلاً: عن وصف القائد والجند.

ثانياً: عن الإعداد للمعركة، ووصف الشّاعر للجيش عامّة، ولأشهر عتاد الحرب.

ثالثاً: التّحرّك إلى ميدان القتال.

رابعاً: في ميدان القتال، وفيه وصف لكثرة الغبار ولبدء القتال، وشدّة الضّرب، والطّعن والرّمي.

خامساً: في أعقاب المعركة، وفيه وصف لكثرة القتلى والدّماء ووقوع الطّير والسّباع على الجثث، ووصف الفرار والفارين والأسرى والسّبْي والسّجن ووصف المصلوبين، وأثر الانتصار أو الهزيمة على نفوس المتحاربين، وبعث البشرى بالنّصر إلى الخلفية.

والفصل الثّاني: عن موضوعات شعر الحرب عند المُتَنَبِّي.

وقد تحدّثت فيه على غرار ما سبق عند البُحتُرِيّ.

الفصل الثّالث: الموازنة بين موضوعات شعر الحرب عند الشّاعرين، وذلك من خلال الجوانب التِي تَمثّل تلك الموضوعات.

أمّا الباب الثّالث؛ فعنوانه:

الخصائص الفنِّية في شعر الحرب عند الشّاعرين، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأوّل: عن الخصائص الفنِّية لشعر الحرب عند البُحتُرِيّ.

وتحدّثت فيه عمّا يأتِي:

أوّلاً: خصائص الشّكل من حيث:

١- الألفاظ والتّراكيب.

٢- الصّورة البيانية من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ.

٣- القيم الصّوتية من وزنٍ وقافيةٍ وموسيقي داخلية.

٤- البناء الفنِّي للقصيدة الحربية.

ثانياً: خصائص المضمون من حيث:

١- التّجربة الشّعرية.

٢- العاطفة.

٣- الأفكار.

والفصل الثّانِي: الخصائص الفنِّية لشعر الحرب عند المُتَنَبِّي.

وتحدّثت فيه على غرار حديثِي عن البُحتُرِيّ.

والفصل الثّالث: عن الموازنة بين الخصائص الفنِّية لشعر الحرب عند الشّاعرين، وقد وازنت فيه بين خصائص الشّكل، ثم بين خصائص المضمون لدى كلّ منهما.

ثم ختمت البحث بِخاتمةٍ بينت فيها أشهر ما عرضت له من نقاط توصلت إليها، خلال الدّراسة والموازنة ثم ذيّلت ذلك بِقائمة للمصادر والمراجع التِي استعنت بها ورجعت إليها في بحثِي.

وبعد؛

فالموازنة بَحرٌ لا ساحلَ له،وفضاءٌ لا نِهايةَ له،تحتاج إلى عدّةٍ وعتادٍ، وزادٍ وأمدادٍ، أرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ فيما تعرّضت له منها هنا.

فإن كان كذلك فبتوفيق الله وتسديده، ثم بتوجيه من فضيلة أستاذي الدّكتور / طه مصطفى أبو كريشة، الذي لازمته مدّة خمس سنين، بذل لِي خلالها أغلى ما يملك وهو وقته، فأفادنِي علماً، أسأل الله أن ينفعنِي به، وأن يجعله شاهداً لِي لا شاهداً عليّ، كما أفدت منه سلوكاً حميداً، وشمائلَ عاليةٍ، لا أستطيع حصرها، أهمّها: الإخلاص في العمل وحسن الخلق، أشكره شكراً ما له مزيد.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيّدنا محمّد، وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الباب الأوّل

عصر كلٍّ من الشّاعرين وحياته

الفصل الأوّل: عصر البُحتُرِيّ وحياته

الفصل الثّاني: عصر المُتَنَبِّي وحياته

الفصل الثّالث: الموازنة بين عصري الشّاعرين وبين حياتهما

الفصل الأوّل: (عصر البُحتُرِيّ وحياته)

- عصر البُحتُرِيّ
  - الحياة السّياسية
  - الحياة الاجتماعية
  - الحياة الثّقافية
- حياة البُحتُرِيّ
  - نسبه وكنيته ولقبه
  - مولده
  - نشأته
  - تعلّمه وثقافته
  - رحلاته ولقاءاته
  - شخصيّته
  - شعره وشاعريّته
  - وفاته وآثاره

أ- (عصر البُحتُرِيّ)

أوّلاً: الحاية السّياسية:

عاش البُحتُرِيّ في القرن الثّالث الهجري من العقد الأوّل إلى منتصف العقد التّاسع، وهو بهذا قد أدرك عشرة من خلفاء بنِي العبّاس، أوّلهم المأمون وآخرهم المعتضد بالله بن الموفّق.

وسأوجز الحديث عن الحياة السّياسية -بحول الله- في ثلاث نقاطٍ هي:

الأولى: خلفاء هذا العصر:

ولِي الخلافة في هذا العصر عشرة خلفاء هم:

١- المأمون -ولي الخلافة سنة: (١٩٦هـ)[1]، ولكن الأمر لم يتمَّ له إلاّ بعد مقتل أخيه الأمين سنة: (١٩٨هـ)[2]، وتوُفّي (٢١٨هـ)[3].

٢- المعتصم بالله -ولِي الخلافة بعد أخيه المأمون، وتوُفّي (٢٢٧هـ)[4].

٣- الواثق بالله -ولِي الخلافة بعد أبيه المعتصم، وتوفّي (٢٣٢هـ)[5].

---

(١) تاريخ الطّبري، بتحقيق: أبو الفضل إبراهيم، ط دار المعارف الثّالثة (٤٢٨/٨).

(٢) المرجع السّابق (٤٧٨/٨).

(٣) المرجع السّابق (٦٤٦/٨).

(٤) المرجع السّابق (١١٨/٩).

(٥) المرجع السّابق (١٥٠/٩).

٤- المتوكّل على الله –ولِي الخلافة بعد أخيه الواثق بالله، وقتل (٢٤٧هـ)[١].

٥- المنتصر بالله –ولِي الخلافة بعد أبيه المتوكّل على الله، وتوفّي (٢٤٨هـ)[٢].

٦- المستعين بالله –ولِي الخلافة بعد المنتصر بالله، وبعد فتنةٍ عظيمةٍ خلع سنة: (٢٥٢هـ)[٣]، ثم قتل في شوال من السّنة نفسها[٤].

٧- المعتز بالله –ولِي الخلافة بعد خلع المستعين بالله، ثم خلع في آخر رجب سنة: (٢٥٥هـ)، ثم مات بعد ذلك بأيامٍ[٥].

٨- المهتدي بالله –ولِي الخلافة بعد خلع المعتز بالله ثم خلع فمات في رجب سنة: (٢٥٦هـ)[٦].

٩- المعتمد على الله –ولِي الخلافة بعد خلع المهتدي بالله، وتوفّي في رجب سنة: (٢٧٩هـ)[٧].

١٠- المعتضد بالله –ولِي الخلافة بعد عمّه المعتمد على الله، وتوفّي في

(١) المرجع السّابق (٢٧٢/٩).

(٢) المرجع السّابق (٢٥١/٩).

(٣) تاريخ الطّبري (٣٤٨/٩).

(٤) المرجع السّابق (٣٦٢/٩).

(٥) المرجع السّابق (٣٨٩/٩).

(٦) المرجع السّابق (٤٥٦/٩).

(٧) المرجع السّابق (٢٩/١٠).

ربيع الآخر سنة: (٢٨٩هـ)[١].

وعندمنا نطالع بعض كتب تاريخ الأدب نجدهم يجعلون نهاية خلافة الواثق بالله نهايةً للعصر الأوّل من الخلافة العبّاسية، ثم يبدأ العصر الثّاني بتولّي المتوكّل إلى سقوط بغداد على أيدي التّتار سنة: (٦٥٦هـ)[٢].

ولعلّ هناك ما يسوغ هذا التّقسيم من الوجهة التأريخية، وهو ما تَميّز به حكّام العصر الأوّل من قوّة واستبداد بالرّأي دون الخول والحشم من الموالي، بينمان نجد الأمر على خلاف ذلك بدءً من عصر المتوكّل؛ إذ تبدّلت الحال، وطغى ولاة الأمر بِما فتح عليهم من كنوز الدّنيا، وما سخر لهم من موالٍ، وكّلوا إليهم أمورهم، مع جهلهم بشريعة الله وأحكامه، فأوردوهم الهلاك، وكان على أيديهم حَيْنُهُم، وبهم فرقتهم واختلافهم، وقد لحظ ذلك العلاّمة ابن خلدون؛ فقال عن هذه الخلافة: «وولِي رجالها الأمر، فكانوا من العدالة بِمكانٍ، وصرفوا الملك في وجوه الحقّ، ومذاهبه ما استطاعوا حتّى جاء بنو الرّشيد من بعده، فكان منهم الصّالح والطّالح، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك والتّرف حقّه، وانغمسوا في الدّنيا وباطلها، ونبذوا الدِّين وراءهم ظهريّاً، فتأذن الله بحربهم، وانتزع الأمر من أيدي العرب جملةً، وأمكن سواهم»[٣].

---

(١) المرجع السّابق (٨٦/١٠).

(٢) تاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، (العصر الجاهلي) (١٤/١)، دار المعارف، ط ١٠، ١٩٨٢م.

(٣) مقدّمة ابن خلدون، ط الرّابعة لدار إحياء التّراث العربِي، بيروت (٢٠٦).

كما أنّ من أسباب ضعف الدّولة العبّاسية استعمالهم للموالي الأتراك مع ما عرف عنهم من عنجهية، وعدم معرفة بالسّياسة، وإدارة الملك؛ فاستبدّوا بالملك، ورُهِبَ جنابهم، وفي أثناء هذا الاستبداد تنبّه بعض الخلفاء لما أحاط بهم، فحاول تغيير ذلك، ولكن دون جدوى، وهذا ما كان بالفعل مع المتوكّل؛ فإنّه قضى على إيتاخ[1]، وبينما هو يدير الحيل للإيقاع بوصيف[2]، وبغا[3] انقلب الرّحى عليه، وهكذا الحال فيمن بعده من الخلفاء؛ فإنّه كلّما تنبّه أحدهم قضى عليه، ولم يفلت من حبائهم إلاّ المعتضد بالله؛ فإنّه شديد الجانب.

(١) إيتاخ من قواد المعتصم العظام، وازدادت مكانته، رفعة في عهدي الواثق والمتوكّل، حتّى صار القائد الأوّل، فخشي المتوكّل شرّه فدبّر حبسه بخدعة، فتمكّن من ذلك إلى أن مات في محبسه، الطّبري (١٦٩/٩).

(٢) وصيف قائد تركي كبير بلغ مَنْزلةً عظيمةً لدى المتوكّل ثم حاول قتله هو وبغا سنة: (٢٤٧هـ)، ولكنّهما علما بذلك فدبّرا قتله.
انظر: الكامل لابن الأثير، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، ١٤٠٥هـ، (٣٠١/٥-٣٠٣)، ثم قتله المعتز سنة: (٢٥٣هـ). انظر: الكامل (٣٣٥/٥).

(٣) بغا: هو بغا (الصّغير) الشّرابي، كان أوّل أمره حاجباً تحت إدارة بغا الكبير أبي موسى، ثم ترقّى إلى أن صارت إليه كثيرٌ من أمور المتوكّل، وكثر أعوانه وهو الذي دبّر مع وصيف قتل المتوكّل فقتلاه سنة: (٢٤٧هـ).
انظر: الكامل (٣٠١/٥-٣٠٣)، ثم قتله المعتزّ سنة: (٢٥٤هـ)، انظر: الكامل (٣٣٨/٥).

الثّانية: الفتن الدّاخلية:

عصفت بالخلافة العبّاسية في هذه الحقبة فِتَنٌ كثيرةٌ أودت بحياة كثيرٍ من الأبرياء، ولعلّ معظم الفتن كان المعنِي بها الخلفاء لاستلاب الخلافة منهم.

وأسباب الخلاف والخروج على الخلفاء كثيرةٌ جدّاً، ولعلّ من أهمّها: طمع الخارج في السّيطرة على الخلافة، إمّا تبعاً لأهواء الموالِي من الأتراك، أو حقداً على العبّاسيّين، وتحيّناً للفرص من أجل الإطاحة بهم، وأكثر المُقْدِمِين على هذا إمّا من الفرس ذوي الأصول المجوسية والنّسب الكسروي، أو من العلويّين صريحِي النّسب، أو مِمَّن شايعهم من الباطنيّين.

بيد أنّ هناك فتْنَةً عمّت وطمت، كان المراد بها الشّعب، والمنفذ لها الخليفة المأمون، ومن بعده المعتصم والواثق، وهي فتنة القول بخلق القرآن الكريم، أو ما عرف بالمحنة؛ فإنّه أجبر العلماء والعامّة على القول بذلك؛ لأنّه دان بمذهب المعتزلة[1].

وقد دامت هذه المحنة من عام: (٢١٨هـ)، إلى خلافة المتوكّل الذي رفع شرّرها عن المسلمين عام: (٢٣٣هـ)[2].

(١) الكامل لابن الأثير (٥/٢٢٢-٢٢٦)، والبداية والنّهاية لابن كثير، ط مكتبة المعارف، بيروت (الرّابعة) (١٤٠٢هـ)، (١٠/٣٢٢)، ضُحى الإسلام: أحمد أمين، دار الكتاب العربِي، بيروت، ط ١، (٣/١٦٣).

(٢) البداية والنّهاية لابن كثير (١٠/٣٠١).

وهناك فتن نجمت عن غفلة الخلفاء عن تدبير أمور الخلافة على أكمل وجهٍ، وسنعرض -بحول الله- لأهمّها:

أ- في عهدَي المأمون والمعتصم:

عَكَّرَ صفو هذا العهد عدّة فتن، لعلّ من أهمّها ظهور أربعة أعداء كان أوّلهم خروجاً نصر بن شبث العقيلي، وكان من قواد الأمين، فلمّا قتل الأمين أظهر الغضب لذلك واجتمع له خلقٌ كثيرٌ عام: (١٩٩هـ).ن

واستمرّت الحروب بينه وبين جند المأمون سجالاً إلى أن أُسِر في صفر سنة: (٢١٠هـ)[١].

وثانيهم: بابك الخُرَّمي صاحب البَذّ الذي خرج بعد (نَصْرٍ) بثلاثة أعوام، وهو من قومٍ وإن ادّعوا الإسلام إلاّ أنّهم على دين المجوس، ولم يزل المأمون يبعث إليه بالجيش، ولكن دون جدوى، فلمّا أفضى الأمر إلى المعتصم، وجّه إليه أبا سعيد الثّغري، فأوقع به أوّل هزيمةٍ، ثم بَعَثَ إليه جيوشاً كثيرةً بقيادة الإفشين، وضمّ إليه أبا سعيد وغيره من القواد، وذلك سنة: (٢٢٠هـ)، من أجل القضاء عليه واستئصال شأفته إلى أن تَمّ ذلك سنة: (٢٢٣هـ)[٢].

وثالثهم: قوم يقال لهم (الزُّطّ) خالفوا على المعتصم في طريق

---

(١) الكامل لابن الأثير (٥/١٧١-١٧٢، ٢٠٧).

(٢) تاريخ الطّبري (٩/١١، ١٣، ٤٥-٥٥)، والكامل لابن الأثير (٥/٢٣٧-٢٤٥).

البصرة، فحاربهم سنة: (٢١٩هـ)، واستسلموا آخرها عن بكرة أبيهم، فحملوا إلى الثّغر من عين زَرْبَةَ فمكثوا هنالك سنين عديدة إلى أن اجتاحهم الرّوم سنة: (٢٤١هـ)[1].

واربعهم: مازيار بن قارن، وهو من ملوك الفرس في ديار طبرستان، وقد خرج على المعتصم واستولى على عددٍ من المدن في ناحيته، فوجّه إليه المعتصم الجيوش من كلّ جهةٍ إلى أن استسلم سنة: (٢٢٥هـ)، فحبس ومات في محبسه[2].

ب- في عهدَي الواثق والمتوكّل:

من أهمّ ما يذكر في عهديهما هو عيث بعض الأعراب في الجزيرة من أمثال بنِي نَمير وكلاب وفزارة، ومُرَّة، وطيء، وذلك في خلافة الواثق؛ فبعث إليهم بغا الكبير، فانقادوا إليه عام: (٢٣٢هـ)[3].

كما خرج في عام: (٢٣٤هـ)، من خلافة المتوكّل محمّد بن المعيث، فاعتصم بمدينة مرو من مدن أذربيجان، بعد أن هرب من سجن المتوكّل؛ فبعث إليه المتوكّل عدّة من القواد حتّى قدموا به في شوّال من عام (٢٣٥هـ)، فعفا عنه، وقيل حبس فمات[4].

(١) تاريخ الطّبري (٩/٨-١٠).

(٢) المرجع السّابق (٩/٨٠-٩٥).

(٣) المرجع السّابق (٩/١٤٦-١٥٠).

(٤) المرجع السّابق (٩/١٧٠-١٧١).

جـ في عهد المستعين بالله وإلى نهاية حياة البُحتُرِيّ في خلافة المعتضد الله:

مرّت السّنتان الأوليان من خلافة المستعين والأمن فيها مستتب لم يعكره إلاّ خروج يحيَى بن عمرو الطّالِبي في الكوفة سنة: (٢٥٠هـ)، فلمّا كثر جمعه فيها وجّه إليه السّلطان مَن حاربه فقتله[١].

ولَمّا تولّى المعتز الخلافة خرج في عهده أشدّ أعداء الدّولة وأشرسهم من أمثال: مساور الشّاري الخارجِي[٢]، ويعقوب الصّفار[٣]، والعلوِيّ قائد الزّنج[٤]، وقد امتدّت فتنتهم وحروبهم إلى زمنَي المهتدي بالله، والمعتمد على الله، فاصطليا بنار حروبهم، وتبلبلت أفكار القادة لولا أنّ الله هيّا أبا أحمد طلحة بن المتوكّل للقضاء على فتنهم، حين تجرّد لحروبهم.

هذا، ولقد ظهر أثر الفتن على الخلافة باستقلال بعض ولاة الأطراف إداريّاً، مع إذهانهم للخلافة دون تنفيذ أوامرها، ومن ذلك:

---

(١) تاريخ الطّبري (٩/٢٦٦-٢٧١).

(٢) انظر ما دار بينه وبين جند الخلافة من معاركَ في: تاريخ الطّبري (٩/٣٧٥-٣٧٦، و٥٣٢، و٥٥١).

(٣) انظر ما دار بينه وبين جند الخلافة من معاركَ في: تاريخ الطّبري (٩/٣٨٢-٣٨٦، و٤٧٦، و٥٠٧، و٥١٤، و٥١٦-٥١٨، وو٥٢٧، و٥٤٤-٥٤٥).

(٤) انظر ما دار بينه وبين جند الخلافة في: تاريخ الطّبري (٩/٤١٠-٤٣٧، و٤٩٢، و٥٠٢، و٥٦٦، و٦٦٣).

الأغالبة في أفريقية[١]، والسّامانيون فيما وراء نهر بلخ[٢].

الثّالثة: الحروب الخارجة:

كان دأب الخلفاء المسلمين منذ أن كانت الخلافة أن يبعثوا الجيوش لنشر دعوة الإسلام، وكان بعض الخلفاء يخـــرج في هـــذه الفتوحـــات، ويسمّونها صوائف؛ لأنّها أكثر ما تكون في وقت الصّيف، وسنتحدّث – بحول الله– عن أشهر الحروب الخارجية فيما يلي:

أ– في عهدَي المأمون والمعتصم:

كان تولّي المأمون الخلافة بقتله أخاه الأمين قد تسبّب في فتنةٍ كُبرى، أكثرت من الخارجيّين بيد أنّه وبعد أن هدأت الفتن سنة: (٢١٥هـــــ)، تجهّز فدخل بلاد الرّوم وافتتح عدّة حصون فيها[٣].

وفي عهد المعتصم وبعد أن قضى على الفتن الدّاخلية، جاءه الخـــبر بإغارات الرّوم على ديار المسلمين مِمّا يليهم، فأمر بالنّفير إليهم وخرّج في جمادَى الأولى سنة: (٢٢٣هــ)، مُتَّجِهاً إلى عمورية، وافتتح عدّة مــــدن

(١) بدأ استقلالهم في عهد الرّشيد واستمرّت دولتهم إلى آخر المائة الثّالثة.

انظر: الكامل لابن الأثير (٥/١٠٤)، وتاريخ ابن خلدون (٣/٢٨٢)، مصوّر عن دار الطّباعة الخديوية ببولاق، مصر.

(٢) بدأ استقلالهم بتولية المعتضد لنصر بن أحمد بن أسد السّاماني، وقد دامـــت دولتهم إلى آخر المائة الرّابعة.

انظر: الطّبري (٩/٥١٤)، وابن خلدون (٣/٢٨١)،وابن الأثير (٦/٣).

(٣) الكامل لابن الأثير (٥/٢٢٠-٢٢١)، وتاريخ ابن خلدون (٣/٢٥٦).

منها: أنقرة، وهو في الطّريق إليها، ثم حاصرها ووزّع قُوَّاه حولها، فتمكّن من هدم سورها ودخولها، وقتل كثيرٍ من أهلها وأسرّ عدد منهم، وحصل للمسلمين غنائمُ وافرةٌ[1].

ب- من خلافة الواثق إلى عام: (٢٥٩هـ)، من خلافة المعتمد على الله:

لم تشر المصادر إلى وقوع تصادم مسلّح بين المسلمين والرّوم، بعد حرب عمورية، ومرجع ذلك إلى ضعف الرّوم، وتأثير عمورية فيهم، وشدّة قهر المعتصم لهم، وهذا ما حدا بالخلفاء بعد المعتصم إلى الخلود إلى الرّاحة، وعدم الخروج بأنسهم مع الغزاة، وإنّما كان همّهم تولية أحد أنجاد القادة على الثّغور[2]، وأمره أن يسيِّر الغزوات أو ما يعرف بالصّوائف إلى بلاد الرّوم مع الدّفاع عن هذه الثّغور وصدّ هجمات المعتدين.

---

(١) تاريخ الطّبري (٩/٥٥، و٦٢، و٧٠)، وتاريخ ابن خلدون (٣/٢٦٣).

(٢) الثّغور، جمع: ثغرٍ، ومن بلدان المسلمين ما ولي بلاد الأعداء مِمّا يخاف هجوم الأعداء منه، فهو كالثّلمة في الحائط، ومن عادة المسلمين أن يبنوا عليهما قلاعاً كالثّكنات العسكرية ليستريح بها الجند.

والثّغور مِمّا يلي الرّوم ثغور الجزيرة، نسبة إلى جزيرة أقور، وهي ما بين دجلة والفرات، وهي الثّغور الشّمالية الشّرقية، ومنها: زبطرة، وملطية، والحدث، ومرعش وغيرها.

وثغور الشّام، وهي الشّمالية الغربية، ومنها: طرسوس، والمصيصة.

=

ومن أشهر الحروب في هذه الحقب محاربة بغا الكبير سنة: (٢٣٨هـ)، لأهل أرمينية، وهم قوم أهل صلح، ولكنّهم غدروا بعامل الخليفة يوسف بن محمّد الثّغري، أوقع بهم فقتل كثيراً منهم، وأحرق مدنهم وسبِي وأسر بطارقتهم، وغنم أموالاً عظيمةً(١).

وكذا غزو محمّد بن عبد الله القمِي للبجاة جنوب مصر بأمرٍ من الخليفة المتوكّل، فحاصرهم إلى أن استأمنوا إليه فوضعوا الجزية صاغرين، وذلك سنة: (٢٤١هـ)(٢).

جـ من عام (٢٥٩هـ)، في خلافة المعتمد إلى نهاية حياة البُحتُرِيّ في عام: (٢٨٧هـ):

لَمّا كانت سنة: (٢٥٩هـ) غزا الرّوم الثّغور، فحاصروا مالطة، فهزموا، ثم عادوا فحاصروا لؤلؤة فأخذواها سنة: (٢٦٠هـ)، وفي سنة: (٢٦٣هـ)، استولوا على قلعة الصّقالبة –أي: لؤلؤة مرّة ثانية–، ولَمّا كثر الاعتداء منهم غزا بالصّائغة عبد الله بن رشيد فغنم وقفل، وفي طريق

انظر: مادة ثغر في: معجم البلدان لياقوت (٢/٧٩، و١٣٤)، وكتاب بلدان الخلافة الإسلامية للمستشرق كي لسترنج (مترجم)، مؤسّسة الرّسالة، ط ٢، ١٤٠٥هـ ص:(١٦٠، و١٦١).

(١) تاريخ الطّبري (٩/١٨٧-١٨٨، و١٩٢-١٩٣)، والكامل لابن الأثير (٥/٢٩٦-٢٩٧، و٢٩٩).

(٢) البجاة، ويسمّيهم الطّبري: البجه، جنس من الحبش، وهم قوم أهل هدنة، الطّبري (٩/٢٠٣-٢٠٦)، والكامل لابن الأثير (٥/٢٩٥-٢٩٦).

عودته حوصر فأسر وحمل إلى القسطنطينية، وذلك سنة: (٢٦٤هـ)[١].

وقد ظلّت تحت ولايتهم إلى عام: (٢٨٤هـ)، ومن أشهر غزواتهم فيا ما كان في الأعوال التّالية: (٢٦٦، و٢٦٨، و٢٧٠، و٢٧٤، و٢٧٨، و٢٨٠، و٢٨١، و٢٨٤هـ)[٢].

ثم ولّى المعتمد ابن الإخشاد عليها عام: (٢٨٥هـ)، فغنم وفتح حصوناً كثيرةً[٣].

كما غزا راغب مولى الموفق في البحر وفتح حصوناً كثيرةً وغنم[٤].

ويقابل هذه الغزوات لدى السّامنيّين فيما وراء غزوهم بلاد التّرك سنة: (٢٨٠هـ)، وافتتاحهم مدينة ملكهم وأسرهم إيّاه وخلقاً كثيراً معه، وقتلوا وغنموا أموالاً عظيمةً[٥].

أمّا الغزوات التِي قام بها ولاة صقلية من قبل الأغالبة في أفريقية

---

(١) انظر: الطّبري (٥٠٦/٩، و٥١١، و٥٣٢، و٥٤٤-٥٤٥)، والكامل لابن الأثير (١٤/٦، و١٦)، وتاريخ ابن خلدون (٣٣٧/٣-٣٣٨).

ولؤلؤة: قلعة قرب طرسوس، معجم البلدان (٢٦/٥)، ولم أجد تاريخ استعادة المسلمين لها أوّل مرّة.

(٢) تاريخ الطّبري (٥٥٣/٩، و٦١٢، و٢٧/١٠، و٣٤، و٣٦، و٦٣)، والكامل لابن الأثير (٦٢/٦، و٧١، و٧٧، و٧٨)، وتاريخ ابن خلدون (٣٣٨/٣).

(٣) الطّبري (٦٩/١٠)، والكامل (٩١/٦)، وفيه: ابن الأخشيد.

(٤) الطّبري (٦٧/١٠)، والكامل (٩١/٦).

(٥) الطّبري (٣٤/١٠)، والكامل (٧٧/٦).

فكثيرةٌ جِدّاً، وكثرتها ترجع لكونها سرايا يبثّها الأمراء بين الفينة والفينـــة، وأشهر غزواتهم ما كان سنة: (٢٦٤هـــ)، حين ملكوا سرقوسه، وهي من أعظم مدن صقلية[١].

ومن غزواتهم ما كان في الأعوام التّاليـــة: (٢٦٧-٢٦٨، و٢٦٩، و٢٧١، و٢٧٢هـــ)[٢].

تلك أهمّ أحداث العصر السّياسية التِي كان البُحتُرِيّ قريباً منـــها، وكان لأغلبها صدى في شعره مِمّا سنبيّنه فيما بعد إن شاء الله.

(١) الكامل (٦/١٩).

(٢) الكامل (٦/٣٦، و٣٩، و٥٠، و٥٩، و٦٠).

ثانياً: الحياة الاجتماعية

تتمثّل مظاهر الحياة الاجتماعية في: الأجناس البشرية وطبقات المجتمع والدّيانات والحياة العامّة.

أ- الأجناس البشرية:

لَمّا اتّسعت رقعة الخلافة الإسلامية اختلط العرب بأهل البلدان التي فتحوها، وكان اعتماد الخلفاء العبّاسيّين أوّل خلافتهم قائماً على الجنسين: العرب والفارس، فلمّا جاء الخليفة المعتصم أضاف إليهم عدداً كبيراً من الرقيق جلبهم من سائر أقطار الخلافة وما جاورها من البلدان، فكان منهم: الأتراك، وهم جُلّة هؤلاء الموالي وهم المسيطرون على الأمور والفراغنة، وهم أهل سمرقند وأشروسنة، والمغاربة، وهم من أهل مصر والمغرب، والرّوم وهم من أهل الثّغور الشّاسية، والصّقالية، وهم أهل صقلية[1].

(١) مروج الذّهب للمسعودي ص:(٥٣/٤)، ط (٥)، عام: (١٣٩٣هـ)، القاهرة، والنّجوم الزّاهرة، لابن تغري بردي، نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب، نشرها المؤسّسة المصرية العامّة، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي ص: (٢٣٢/٢)، وتاريخ الخلفاء للسّيوطي بتحقيق محمّد محيي الدّين بن عبد الحميد (٣٣٤)، الطّبعة الأولى عام: (١٣٧١هـ)، نشر المكتبة التّجارية، مصر، ظهر الإسلام، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، ط (٥)، بيروت، ص :(٣/١).

ب- طبقات المجتمع:

تكون المجتمع العبّاسي من ثلاث طبقات: [1]

١- الطّبقة الخاصّة.

٢- الطّبقة الوسطى.

٣- الطّبقة العامّة.

١- **فأمّا الطّبقة الخاصّة** هي الخلفاء ووزراؤهم وكبار القادة وأمراء الأقاليم، وكبار الكتّاب، ويرقى إليهم مَن يشاركهم في الثّراء؛ فحسب من مشاهير العلماء والتّجار والشّعراء والمغنِّين.

وكان هؤلاء غارقين في النّعيم والملذّات، وسبب ذلك هو وفرة الأموال في أيديهم؛ فإنّها تجيء من كلّ بلدٍ، فيوجّه ما زاد عن حاج البلد -من أرزاق جند وإصلاح مساجد وطرق ومشاريع خيرية- إلى الخليفة، فتودع بيوت المال فيتولّى هو ووزراؤه إنفاقها، فيفوزون منها بِحظٍّ وافرٍ، غير ما يصل إليهم من الغنائم والجزى والمصادرات التِي يوقعونها على كبار التّجار والكتّاب وغيرهم مِمَّن تطوله أيديهم.

٢- **وأمّا الطّبقة الوسطى**؛ فهم الذين يجدون فائضاً من الرِّزق مِمّا يصل إليهم من رواتب الدّولة أو يفرضها لهم الخاصّة مقابل عملٍ أو خدمةٍ أدّوها لهم، أو هم مِمَّن تَمكّن من منادمة أو صحبة بعض الخاصّة من

(١) العصر العبّاسي الثّانِي، د/ شوقي ضيف (٥٣)، دار المعارف، ط (٣)، ١٩٧٧م، مصر.

الوزراء أو القادة، ويدخل في عدادهم العلماء والشّعراء والمغنّون وصغار الكتاب ورؤساء الجند مِمَّن يلون القادة، ومنهم مشاهير الصنّاع والصّيارفة الذين تدر عليهم تجارتهم أموالاً مجزية.

٣- **وأمّا الطّبقة العامّة**؛ فهم عامّة الرّعية (ويقعَ عليها عبء العمل كلّه في الزّراعة والصّناعات الصّغيرة، وفي خدمة أرباب القصور)(١).

ويدخل في عدادهم عامّة الجند وجلّ طلبة العلم، ويدلّ عليه ما اشتهر من ألقاب بعض العلماء، مِمّا لصق بهم من أسماء الحرف التِي امتنهوها أوّل حياتهم مثل: الزّجاج، والنّحاس، وغيرهما كثير.

جـ- الدّيانات في المجتمع العبّاسي:

وجد في المجتمع العبّاسي في هذا العصر دياناتٌ متعدِّدةٌ غير الإسلام، كان من أشهرها: النّصرانية، واليهودية، والمجوسية، والصّائبة، وما ذاك إلاّ لسماحة دِين الإسلام في قبوله الجزية مِمَّن أراد البقاء على دِينه، وكانت ترفع عن ذي العاهات والأطفال والنِّساء والشّيوخ والعبّاد الملازمين لكنائسهم أو صومعاتهم.

وقد كثرت أعداد اليهود والنّصارى في دار الخلافة وسائر أقطارها، لكن النّصارى كانوا يتمتّعون بنفوذ أكثر لِما يعلم النّاس عنهم من تسامح؛ فقرّبهم الخلفاء والوزراء والقادة والولاة، واستخدمهم في الدّواوين، ووجد

(١) العصر العبّاسي الأوّل، د/ شوقي ضيف (٦٢)، ط (٨)، ١٩٨٢م، دار المعارف، مصر.

منهم عددٌ كبيرٌ من العلماء في الطّبّ والتّرجمة وعلوم الطّبيعة والفلك من أمثال: حنين بن إسحاق، وابنه: إسحاق، ومن أمثال: ثابت بن قرّة، وقسطا بن لوقا البعلبكي.

أمّا اليهود فهم وإن كثروا وتمتّعوا بما تَمتّع به النّصارى إلاّ أنّ ما عرف عنهم من عداء الإسلام وأهله لم يسمح لهم بالارتقاء في الحياة العامّة، وقد لحظ ذلك الجاحظ في رسالته (الرّدّ على النّصارى)؛ إذ قال — بعد أن تحدّث عن الأعمال والمهن التي ينهض بها النّصارى-: «لا تجد اليهودي إلاّ صبّاغاً، أو دبّاغاً، أو حجّاماً، أو قصّاباً، أو شَعَّاباً»[1].

د- الحياة العامّة:

تتشكّل صورة الحياة العامّة تبعاً للظّروف التي تَمُرُّ بها الدّولة أيّاً كانت؛ فمَتَى عَمّ الاستقراء والأمن، فقد عمّ الرّخاء وارتقى الشّعب، ومتَى فقد ذلك كثرت الفتن وتعدّدت، فأنتجت قضايا مستعصيةً يتعسر إصلاحها، وسنبيّن هنا —بحول الله- أظهر ما تمخّض عن الحياة العامّة من مشاكل:

١- التّرف:

ليس التّرف بحدّ ذاته مشكلة، إنّما ما ينتج عنه من أضرار هو ما يجعله كذلك، وقد وجد نتيجة لكثرة مصادر الدّخل من خراج وغنائم مع

(١) رسائل الجاحظ (٣١٦/٣)، تحقيق: عبد السّلام هارون، ط الأولى، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، نشر مكتبة الخانجي.

ما لحق بهما من استقرار داخلي وخمود للفتن إثر خلافة الواثق ومن بعده إلى أوّل خلافة المعتز بالله.

ولقد تكدّست الأموال في أيدي الخلفاء ووزرائهم وحشمهم وكبار قادهم وكتّابهم، فلم يكن بدّ من صرفها على ملذاهم وشهواهم(١).

٢- الفقر:

مَن قرأ عن مظاهر التّرف في هذا العصر وعن بعض ما بلغه بعض النّاس فيه، ظنّ أنّ النّاس كلّهم منغمسون في النّعيم والملذّات، بيد أنّ هذه الحياة النّاعمة لم تكن لعامّة الشّعب؛ إذ يقابلها صورة قاتمة، وحياة قاسية مليئة بالبؤس والشّقاء، كانت من نصيب مَن لم يكن متّصلاً بذوي السّلطة والنّفوذ من الخلفاء والوزراء أو القادة والأمراء والكتّاب والأثرياء(٢).

ومن أظهر أسباب البؤس في هذا العصر؛ فساد النّظام الإداري؛ لأنّ سيطرة الكتاب والموالي على السّلطة ومصادر الدّخل مع غفلة الخلفاء ولهوهم كانت سبباً في بلوغ قوم الذّروة في الثّراء، وآخرين الدّرك الأسفل في الشّقاء لتفشّي الفاقة ولقلّة مصادر الدّخل بين أيديهم.

وكذلك ما تترتّب على هذا الفساد من مصادرة الأموال بعض الكتاب أو التّجارة وغيرهم واستلاب ما تحت أيديهم منهم؛ فيصيرون إلى أبأس معيشة(٣).

(١) ظهر الإسلام (١/٩٧، و١١٤).

(٢) المرجع السّابق (١/٩٧-١١٥).

(٣) تاريخ الطّبري (٩/١٢٥، و١٢٨).

ومنها: كثرة الفتن والحروب الدّاخلية التِي أودت بكثيرٍ من مصادر الدّخل مثل الزّراعة والحرف والتّجارة.

ومنها: بُعْدُ بعضِ البلدان عن الكبرى في العراق والشّام ومصر والحجاز، والتِي استأثرت بنصيب الأسد من الثّروات المكدّسة.

وربّما كانت الفقر وكثرة الرّقيق من أهمّ دواعِي تعاظم حركة الزّنج التِي قامت في منتصف هذا القرن؛ فإنّ الدّعي –قائدهم– استغلّ هذين السّببين فنفخ بهما في بوقة على مسامع الموالي إلى السّذح[1].

ونتيجة لقلّة ما في أيدي بعض العلماء وطلبة العلم وكثير من العامّة واحتجاجاً على مظاهر التّرف التِي يعيشها غيرهم فقد ظهر نوعٌ من الزّهد والتقشّف انحرف به بعضهم إلى أن جعله ذلّة ومسكنة.

٣– الرّقيق:

كان لكثرة الفتوحات وانتشارها أثرٌ كبيرٌ في كثرة الرّقيق وتعدّد أجناسهم، وضاعف في ذلك حرص النّاس على اقتنائهم.

ومنذ تولّي المعتصم الخلافة حرص على تكوين جيش يحمِي حوزة الخلافة؛ فأمّر بشراء الرّقيق من كلّ بلدٍ، ومن كلّ جنسٍ، واصطنعهم، وأعتق كثيراً منهم، فأعدّ جيشاً منهم دوّخ به الرّوم، وكلّ مَن أحدث فتنةً داخل بلاد الإسلام[2].

(١) ظهر الإسلام (١/٧٠).

(٢) تاريخ الخلفاء، لجلال الدِّين بن عبد الرّحمن السّيوطيّ، (٣٣٥-٣٣٦).

وقد تسنم عدد كبير منهم أعلى المراتب من وزارةٍ أو قيادةٍ، وكان هؤلاء الموالي –أيضاً– سبباً في كثرة الرّقيق لاستخدامهم في قضاء حوائجهم، وهذا مِمّا أضعف هيبة الخلافة ودعا إلى تسلّط هؤلاء وامتناع جانبهم على من يرومهم.

٤– المجون:

نتيجة للتّرف الذي بلغ الذّروة في هذا العصر؛ فقد عمّت العصر موجة من التّهتك والمجون ظهرت على السّاحة بصورٍ متعدِّدةٍ، تتمثّل في كثرة مجالس اللّهو والطّرب في البيوت والحدائق الخاصّة، وفي الأديرة التِي كان يعمّرها الكتّابيّون من نصارى ويهود، ويعاونهم المجوس، وكان عامّة النّاس وبخاصّة الشّعراء يرتادون هذه الأديرة للتّرويح عن أنفسهم بِما يجدون في داخلها من مسامرات ومنادمات.

وقد صوّر الشّابشتِي في كتابه (الدّيارات) أشهر ما كان يدور فيها.

ومِمّا أعان على هذا المجون كثرة الاختلاط بالأجناس الفارسية والرّومية، وهم حديثو عهدٍ بالإسلام، وكانوا حريصين على بقاء معتقداتهم مع علمهم أنّها تتعارض مع تعاليم الإسلام[1].

٥– الشّعوبية:

تعنى الشّعوبية حقد الموالي على العرب الذين يمثّلون دعوةَ الإسلام؛ لأنّهم –أعنِي يالعرب– قد سلبوهم مجدهم وأفنوا دولهم؛ فجاء هؤلاء

---

(١) العصر العبّاسي الثّانِي، د/ شوقي ضيف (٩١–٩٧).

مريدوين طعن الإسلام، فسلكوا هذا المسلك الغريب مهاجمين لغة العرب وجمالها، وبيان العرب وأخلاقهم، ومن أشهر مَن تصدَّى لهم الجاحظ وابن قتيبة[١]؛ إذ رَدَّا عليهم في رسائل عدة، وما ذكره الجاحظ في كتابه: (البيان والتّبيين) خير دليلٍ على ذلك، وقد بدأ حديثه هناك بقوله: «ونبدأ على اسم الله نذكر مذهب الشّعوبية ومَن يتحلّى باسم الشّعوبية، وبمطاعنهم على خطباء العرب بأخذ المحصرة، عند مناقلة العرب...»[٢].

ونظراً لكثرة الموالي وجد منهم مَن يفاخر بنسبه وبمراتبه العالية التِي تسنمها.

وعصبية الفارسي أشدّ وأقوى، ولذا تجد البُحتُريّ إذا مدح أحداً منهم أَلَحَّ على ذكر أصله، وأنّ ما هو فيه من عظمةٍ ومجدٍ ليس إلاّ امتداداً لِما كان عليه أجداده، ومن ذلك قوله:[٣]

لَهم منتمىً في هاشمٍ بولائهم ... يوازي علاهم في أرومة فارس

(١) أَلّف ابن قتيبة رسالةً سمّاها: (كتاب العرب، أو الرّدّ على الشّعوبية)، انظرها في: رسائل البلغاء، محمّد كرد علي، ط لجنة التأليف والنّشر، (ص ٣٤٤)، وما بعدها.

(٢) البيان والتّبيين، لعمرو بن بحر الجاحظ، نشر مكتبة الخانَجِي، القاهرة، (٥/٣).

(٣) ديونه (١١٢٤/٢)، من قصيدةٍ مدح بها أبا صالح عبد الله بن محمّد بن يزداد أحد الكتّاب.

أو قوله: [١]

إذا ذكرت أسلافه وتشـوهرت   أماكنهم قلت النّجوم قبورهـا
وما المجد في أبناء جرزان إذ رسا   بعارِيّة ينوي ارتجاعـا معيرهـا

تلك هي أبرز الملامح الاجتماعية للعصر العبّاسي في القرن الثّالـث الهجري.

(١) ديونه (٢/١٠٠٠)، من قصيدةٍ مدح بها أبا العبّاس بن بسطام، أحد الكتّاب أيضاً.

ثالثاً: الحياة الثّقافية

يعدّ هذا العصر مفخرةً لأمّة الإسلام بعامّة، والعصر الذّهبي لازدهار علوم العربية كلّها، لكون جلّة علماء الإسلام –في شتّى فنون المعرفة– عاشوا فيه.

وأهمّ ما يمكن التّحدّث عنه ما يلي:

أ– طلب العلم:

لقد وجد في هذا العصر مان يسرّ سبيل العلم أمام الرّاغبين؛ فالكتاتيب منتشرة في كلّ مدينة أو قرية لتعليم صغار السّنّ ما يتحاجون إليه من قراءة وكتابة وحفظ لكتاب الله، واطّلاع على بعض مسائل الفقه والأحاديث النّبويّة؛ فإن برع الطّفل وتمكّن من تحصيل كلّ هذه المبادئ، وجد حلقات العلم في بيوت الله عامرةً، فانخرط في عددٍ منها ليحصل على ما يلقيه العلماء فيها صباح مساء(1).

ب– اهتمام الخلفاء ووزرائهم بالعلم:

ومن أشهر من عني بذلك من الخلفاء المأمون، فقد كان مجلسه ساحةً واسعةً للجدل والمناظرة وعلوم الأوائل في شتّى فنون المعرفة(2).

ومثل صنيعه صنع المتوكّل؛ فقد نشر السّنّة، ودحر البدعة بعد أن

(1) العصر العبّاسي الثّاني، د/ شوقي ضيف (118).

(2) العصر العبّاسي الثّاني، د/ شوقي ضيف (105).

استشرت وساعد على على انتشار مذهب السّلف(١).

وهناك صورٌ كثيرةٌ تدلّ على اهتمامهم بنشر العلم:

منها: إنشاؤهم المكتبات الكبيرة، وأشهرها: (خزانة الحكمة التِي شادها في بغداد هارون الرّشيد، وأقام عليها يوحنا بن ماسويه لترجمة الكتب الطّبّية القديمة ... (وقد) تحوّل بها المأمون إلى ما يشبه معهداً علميّاً كبيراً؛ إذ أَلحق بها مرصداً ضخماً ووظف بها كثيرين للتّرجمة)(٢).

ونتيجة لهذه العوامل، شغف العلماء بطلب العلم والرّحلة من أجله إلى الحواضر؛ كبغداد، والبصرة، والكوفة، ودمشق، والفسطاط، والقيروان، وقرطبة، والمدينة.

ومِمّا يدلّ على ازدهار العلم في هذا العصر؛ كثرة العلماء في كلّ فنٍّ.

ومنهم: في علم الحديث والفقه والتّفسير والقراءات:

١- أحمد بن نصر الخزاعِي توفّي سنة: (٢٣١هـ)(٣).

٢- وبشر الحافي، توفّي سنة: (٢٢٧هـ)(٤).

٣- وأحمد بن محمّد بن حنبل الشّيبانِي، توفّي سنة: (٢٤١هـ)(٥).

---

(١) تاريخ الخلفاء، للإمام السّيوطِي (٣٤٦).

(٢) العصر العبّاسي الثّانِي، د/ شوقي ضيف (١٢٤).

(٣) الكامل لابن الأثير (٥/٢٧٣-٢٧٤).

(٤) الأعلام للزّركلي، ط ٦، دار العلم للملاّيين (٢/٧٤).

(٥) المرجع السّابق (١/٢٠٣).

٤- ومحمّد بن إسماعيل البخاري، توفّي سنة: (٢٥٦هـ)[١].

٥- ومسلم بن الحجاج بن مسلم القشيريّ، توفّي سنة: (٢٦١هـ)[٢].

٦- وابن ماجه؛ محمّد بن يزيد، توفّي سنة: (٢٧٣هـ)[٣].

٧- أبو داود السّجستانِي، توفّي سنة: (٢٧٥هـ)[٤].

٨- والتّرمذِيّ؛ محمّد بن عيسى السّلمِي، توفّي سنة: (٢٧٩هـ)[٥].

٩- وقنبل واسمه: محمّد بن عبد الرّحمن، من أعلام القراءات، توفّي سنة: (٢٩١هـ)[٦].

١٠- وإبراهيم بن عبد الله بن مسلم الكجّي، توفّي سنة: (٢٩٢هـ)، من حفّاظ الحديث[٧].

ومن علماء اللّغة والبلاغة:

١- أبو عبيد القاسم بن سلاّم، توفّي سنة: (٢٢٤هـ)[٨].

٢- وأبو عثمان المازِني، توفّي سنة: (٢٤٩هـ)[٩].

---

(١) المرجع السّابق (٦/٣٤).

(٢) المرجع السّابق (٧/٢٢١).

(٣) المرجع السّابق (٧/١٤٤).

(٤) المرجع السّابق (٣/١٢٢).

(٥) المرجع السّابق (٦/٣٢٢).

(٦) المرجع السّابق (٦/١٩٠).

(٧) المرجع السّابق (١/٤٩).

(٨) المرجع السّابق (٥/١٧٦).

(٩) المرجع السّابق (٢/٦٨).

٣- وأبو حاتِم السّجستانِي، توفّي سنة: (٢٤٨هــ)، وقيــل: ســنة: (٢٥٥هــ)[١].

٤- والجاحظ عمرو بن بحر، توفّي سنة: (٢٥٥هــ)[٢].

٥- وأبو سعيد السّكري عالم بالأدب ورواية بصرى، جمع أشعار كــثيرٍ من الشّعراء، وأخبار كثيرٍ من القبائل، توفّي سنة: (٢٣٠هــ)[٣].

٦- وأبو العبّاس محمّد بن يزيد المبرد، توفّي سنة: (٢٨٦هــ)[٤].

٧- وعبدالله بن مسلم الدّينوري (ابن قتيبة)،توفّي سنة:(٢٧٦هــ)[٥].

٨- ويعقوب بن إسحاق بن السِّكّيت، إمام لغوي أديب مــن كتبــه: إصلاح المنطق، والألفاظ والأضداد، توفّي سنة: (٢٤٤هــ)[٦].

٩- وأبو العبّاس ثعلب أحمد بن يحيَى من كتبه: الفصيح وقواعد الشّعر، ومجالس ثعلب توفّي سنة: (٢٩١هــ)[٧].

ومن أعلام الشّعراء:

١- أبو تَمام حبيب بن أوس الطّائي، توفّي سنة: (٢٣١هــ)[٨].

---

(١) المرجع السّابق (١٤٣/٣).
(٢) المرجع السّابق (٧٤/٥).
(٣) المرجع السّابق (١٨٨/٢).
(٤) المرجع السّابق (١٤٤/٧).
(٥) المرجع السّابق (١٣٧/٤).
(٦) المرجع السّابق (١٩٥/٨).
(٧) المرجع السّابق (٢٦٧/١).
(٨) الأعلام للزّركلِي (١٦٥/٢).

٢- ودعبل الخزاعِي، توفِّي سنة: (٢٤٦هـ)[١].

٣- وعليّ بن الجهم بن بدر القرشي، قتل سنة: (٢٤٩هـ)[٢].

٤- وأبو العيناء البصري الشّاعر الضّرير محمد بن القاسم، توفِّي سنة: (٢٨٣هـ)[٣].

٥- وعليّ بن العبّاس (ابن الرّومِي) مات مسموماً سنة: (٢٨٣هـ)[٤].

٦- وأبو العبّاس النّاشيء عبد الله بن محمّد خرج من بغداد إلى مصر فمات فيها سنة: (٢٩٣هـ)[٥].

ومن علماء التّاريخ والجغرافيا والفلك والتّرجمة والطّبّ والكيمياء والهندسة:

١- حنين بن إسحاق العبادي، طبيب ومؤرِّخ ومترجم نصرانِي، توفِّي سنة: (٢٦٠هـ)[٦].

٢- وأبو معشر المنجم جعفر بن محمّد البلوخي عالِم فلكِيّ، توفِّي سنة: (٢٧٤هـ)[٧].

---

(١) المرجع السّابق (٢/٣٣٩).

(٢) المرجع السّابق (٤/٢٦٩).

(٣) المرجع السّابق (٦/٢٣٤).

(٤) المرجع السّابق (٤/٢٩٧).

(٥) المرجع السّابق (٤/١١٨).

(٦) المرجع السّابق (٢/٢٨٧).

(٧) المرجع السّابق (٢/١٢٧).

٣- وإسحاق بن حنين بن إسحاق العبادي -ابن حنين السّابق-، طبيب مترجم، توفّي سنة: (٢٩٨هـ)[١].

٤- وأحمد بن يحيَى البلاذي مؤرِّخ جغرافي نسابة، توفِّي سنة: (٢٧٩هـ)[٢].

٥- وابن خرداذبة عبيد الله بن أحمد، مؤرِّخ جغرافي، توفِّي سنة: (٢٨٠هـ)[٣].

٦- وأبو جعفر محمّد بن جرير الطّبري، مؤرِّخ مفسِّر، توفِّي سنة: (٣١٠هـ)[٤].

٧- وثابت بن قرّة الحرانِي الصّابِي، طبيب حاسب فيلسوف مترجّم، له مصنّفات عدّة، توفّي سنة: (٢٨٨هـ)[٥].

جـ المذاهب والفرق:

نتيجة للوقوف على حضارات الأمم المجاورة وعلومها عن طريق ترجمة الكتب الفلسفية اليونانية وما شابهها، ولكثرة أعداء الدّولة ذوي النّزعات المتباينة والأفكار المنحرفة المخالفة للفكر السّلفي، نتيجة لذلك كلّه فقد ظهرت عدّة مذاهب من أشهرها ما يلي:

---

(١) المرجع السّابق (١/٢٩٤).

(٢) المرجع السّابق (١/٢٦٧).

(٣) الأعلام للزّركلِي (٤/١٩٠).

(٤) المرجع السّابق (٦/٦٩).

(٥) المرجع السّابق (٦/٦٩).

١- المعتزلة:

عرف المعتزلة قبل هذا العصر بكثيرٍ، ولكن أوج نشاطهم وقوّهم بدت للعيان وباعتناق المأمون والمعتصم والواثق مذهبهم، مِمّا أعان على نُموّ الحركة الثّقافية، والاعتناء بالبيان وحسن الخطاب، وجرت بينهم وبين أهل السّنة المناظرات في إبطال مذهبهم، وألّفت الكتب الكثيرة في الرّدّ عليهم(١).

٢- الشّيعة:

عرف التّشيّع منذ خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد ظهر أثرهم الجلِيّ على الثّقافة باعتناق بعض العلماء والشّعراء خاصّة مذهبهم وميولهم إليه، ومن شعرائهم: دعبل الخزعِي، الذي تصدّى للخلافة، وهجا الخلفاء، وبيَّن بعض أفكار مذهبه، كما كان لانتصارات جيش الخلافة على الخارجين منهم أثر على الشّعر بكثرة ترديد الشّعراء – من أمثال البُحتُرِيّ وابن الرّومِي وعلي بن الجهم- لهذه الانتصارات في شعرهم(٢).

---

(١) مروج المذهب للمسعودِي (٤/٨، و١٩).

(٢) مروج المذهب للمسعودِيّ،(٣/٢٣٦-٢٣٨، و٢٥٢-٢٥٤)، ففيه شرح للمعتقداهم، ولِمَا دار بينهم وبين المعتزلة من مناظرات.

وانظر: دواوين الشّعراء الآنف ذكرهم.

٣- الصّوفية:

بدأت سمات التّصوّف تبرز في هذا العصر لدى كثيرٍ من معتنقيه المغالين الذين تأثّروا بكتب الفلاسفة الفارسيّين والهنود، ومعتقد هؤلاء الغلاة قائم على ما يُسمَّى عندهم بـ: (وحدة الوجود)، والحبّ الإلهِيّ؛ فعبّر بعضهم عن هذا الحبّ بشعرٍ يصوّر عقيدتهم في هذا الحبّ والعشق والغناء.

ومن أشهر المتصوّفة في هذا العهد الحلاج، الذي قتل بعد محاكمته فيما بعد سنة: (٣٠٩هـ)[١].

٤- الزّنادقة:

عنى الزّندقة الخروج على تعاليم الدِّين الإسلاميّ، وقد نشطت حركتها أوّل الخلافة العبّاسية لَمّا ترجمت الكتب الفارسية واليونانية، وقد لحظ الخلفاء العبّاسيّون منذ عهد المهدي خطورة هذه الأفكار الهدّامة والكتب وفساد معتقد مؤلّفيها، فحاربوها أي محاربةٍ، وشدّد المأمون عليهم أيضاً، وتبعه الواثق، وقد تنبّه المعتضد بالله لخطرهم فحلّف الورّاقين بمدينة السّلام في خلافة عمّه المعتمد على الله بألاّ يبيعوا كتب الجدل والفلسفة[٢].

---

(١) انظر ما دار بينه وبين الذين حاكموه في الكامل (٦/١٩٧-١٩٩).

(٢) تاريخ الطّبري (١٠/٢٨).

تلك هي أشهر مذاهب أهل العصر التِي كان لها أثــر في الثّقافــة، وهناك مذاهب أخرى لم يكن لها أثرٌ كبيرٌ مثل الخوارج الذين أبعدوا عن مصادر الإشعاع الفكري وعن أشهر مدن الخلافة لتتبّع السّــلطان لهــم؛ حيث استقرّوا بعمان وأفريقية.

٣- حياة البُحتُرِيّ

نسبه وكنيته ولقبه:

هو: الوليد بن عبيد الله بن يَحيَى بن عبيد بن شملال بن جابر بن سلمة بن مُسْهِر بن الحارث بن خيثم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بُحتُر بن عتود بن عثمة بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جُلْهُمَة (وهو طيء) بن أدد بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[1].

ويُكنَّى أبا عبادة، وأبا الحسن والأوّل أشهر[2].

ويلقّب بالبُحْتُرِيّ، والطّائي، فالبُحْتُرِي نسبةً إلى جدّه الأعلى الذي كان يفخر به دائماً ومن ذاك قوله[3]:

---

(١) الأغانِي لأبي الفرج الأصبهانِي، ط دار إحياء التّراث العربِي (٢١/٣٧).
وهناك شبه اتّفاق على هذا النّسب سوى منا أظنّه تصحيفاً وقع لبعضهم؛ كمَن روى: عبيد الله: عبيد، وشملال: شملان، وخيثم: جشم، وعتود: عنين، وتدول: بَدْل.
انظر: تاريخ بغداد للخطيب، ط دار الكتب العلمية، (١٣/٤٧٧)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، ط دار الفكر الثّالثة، ١٤٠٠هـ (١٩/٢٤٨).

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي (١٩/٢٤٨).

(٣) ديوانه (٣/١٨١٩).

يُسَاجِلنِي حتَّى كَأَنْ ليسَ بُحتُرٌ أبِي، وابنُ هَمَّامٍ بنِ مرَّةَ خالِي

والطّائِيّ نسبةً إلى قبيلة طيّء التِي كان يفخر بها أيضاً، ومن ذلك قوله[1]:

ذهبت طيّء بسابقة المجد على العالمين ناساً وجوداً

معشر أمسكت حلومهم الأر ض وكادت من عزّهم أن تميدا

مولده:

ولد في منبج[2]، وهي بلد من أعمال

(1) ديوانه (١/٥٩٢).

وقبيلة طيّء، قبيلةٌ عظيمةٌ من كهلان القحطانية، خرجت من اليمن ونزلت سميرا فيد في نجد، ثم غلبوا على أجأٍ وسلمَى، ثم كثروا، وقدم وفدهم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وفيهم زيد الخيل سنة: (٩هـ)، فأسلموا وحسن إسلامهم. انظر: معجم قبائل العرب —عمر رضا حالة (٢/٢٨٩).

ومنهم الآن: قبيلة شمر التِي تسكن مدينة حائل، وما جاورها، وهي ديارهم القديمة و الحديثة.المرجع السّابق (٣/٦١٠).

وسميرا فيد بادية جنوب حائل،على طريق القصيم، وتبعد عنه حوالي (٨٠كم).

(2) منبج: بلد قديم، وقد سأل الرّشيد لَمّا مرّ بها عنها عبد الملك بن صالح الهاشمي؛ فقال: طيبة الهواء، وقليلة الأدواء.

قال الرّشيد: كيف ليلها؟

=

حلب[1]، وكانت ودلاته سنة: (٢٠٦هـ)، وقيل سنة: (٢٠٥هـ)، وقيل سنة: (٢٠٠هـ)[2]، والأوّل أصحّ الأقوال لتواتره، ولكونه لَمّا مدح سعيد بن محمّد بن يوسف الثّغري، وعنده أبوه تَمام أعجبا من إحسانه في مدحته مع صغر سنّه[3].

نشأته:

نشأ البُحتُرِيّ في منبج وهي بلد شهرت بجمالها وعذوبة مائها وحسن هوائها، هذا، وتكاد نشاة البُحتُرِيّ فيها تكن مجهولة تَماماً إلاّ ما أشار إليه بعض أهلها بقوله: ((رأيت البُحتُرِيّ هاهنا عندنا، قبل أن يخرج

قال: سحر كلّه، قال: صدقت؛ إنّها لطيبة، قال: بل طابت بك يا أمير المؤمنين، وأين يذهب عنها الطّيب، وهي بُرَّة حمراء، وسنبلة صفراء، وشجرة خضراء، في فياف فيح بين قيصوم وشيح؟!

معجم البلدان (٥/٢٠٥-٢٠٦)، لياقوت الحموي، ط دار إحياء التّراث العربِي، بيروت، ١٣٩٩هـ.

(١) معجم الأدباء لياقوت (٢٤٩/١٩).

(٢) معجم الأدباء لياقوت (٢٨٤/١٩)، ووفيات الأعيان لابن خلّكان، طبعة مكتبة النّهضة المصرية الأولى عام ١٩٤٩م، (٧٤/٥)، معجم البلدان لياقوت (٢٤٠/٢)، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٧٧/١٣).

(٣) القصيدة في ديوانه (١٤٤٦/٣)، والخبر في أخبار أبي تَمام، تحقيق: محمّد عبده عزام وباحثين معه، نشر دار الأفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٠هـ، (١٠٥)، والأغانِي (٤٢/٢١).

إلى العراق، يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب، وأومأ إلى جنبَتي المسجد — يمدح أصحاب البصل والباذنجان، وينشد الشّعر في ذهابه ومجيئه»[١].

تعلّمه وثقافته:

لم تسعفنا المصادر بمعلومات حول طلبه العلم، ولكن من يتصفّح شعره يجد فيه كثيراً من الإشارات العلمية كمعرفة علم النّجوم والفلك واطّلاعه على القصص التّاريخي ومعرفته البلاد والأنهار.

وكان كثيراً ما يذكر في شعره بعض أيّام العرب الجاهلية كيومي دارة، وكثيراً من أيام الإسلام.

كما أنّ تأليفه لكتاب الحماسة يدلّ على كثرة اطّلاعه على شعر السّابقين من جاهليّين وإسلاميّين، ولدق كان لاطّلاعه الكثيرِ أثرٌ في أنّه كان يعيب على مثل أبي العبّاس ثعلب اختياره لبعض الشّعر، ويؤيّد ذلك ما حدّث به عليّ بن العبّاس قال: «لقيِني البُحتُرِيّ يوماً ومعِي دفتر، فقال: ما هذا؟ فقلت: شعر الشّنفرى، فقال: وإلى أين تضمي؟ فقلت: لأبِي العبّاس ثعلب، فقال لي: قد رأيت أبا عبّاسكم هذا منذ أيّام عند ابن ثوابة فما رأيته ناقداً للشّعر، ولا مُمَيِّزاً للألفاظ، وجعل يستجيد شيئاً وينشده وما هو بأفضل الشّعر، قلت: أمّا نقده وتَمييزه فإنّ هذه صناعة أخرى، ولكنّه أعلم النّاس بإعراب الشّعر وغريبه، فما كان ينشد؟ قال: قول الرّبعِي الحارث بن ولعة:

---

(١) وفيات الأعيان (٥/٧٤).

قومِي هُمُ قتلوا أُمَـيْمَ أخـي ... فإذا رميتُ يُصِـيبُني سَـهْمِي
فَلَئِن عفوتُ لأعفُـونْ جَلَـلاً ... ولئِنْ سَطوتُ لأوهنَنْ عظمِـي

فقلت: والله ما أنشد إلاّ أحسن الشّعر في أحسن معنًى ولفظٍ، فقال: فأين الشّعر الذي فيه عروق الذّهب؟ قلت: مثل ماذا؟ قال: قول أبي ذؤيب ربيعة الأسدي:

إن يقتلوكَ فقد ثللتَ عروشَهم ... بعتيبةِ بنِ الحارثِ بنِ شـهابِ
بـأحبِّهِمْ فقـداً إلى أعدائـه ... وأعزِّهِمْ فقداً على الأصـحابِ

قال الصّولي: وهذا التّقسيم كثير في شعر البُحتُـرِيّ، وإذا هو لا يعجبه من الشّعر إلاّ ما وافق معناه لفظه»(١).

ومن ذلك تشبيهه بعض الحوادث الحاضرة بحوادثَ سابقةٍ؛ كقوله من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد يوسف بن محمّد الثّغري(٢):

---

(١) أخبار البُحتُرِيّ، لمحمد بن يحَيى الصّولي (١٣٥)، طبعة المجمع العلمي العربي الأولى، دمشق عام ١٣٧٨هـ.

(٢) ديوانه (١٤١٦/٣).

آصف: هو الرّجل الذي قال لسليمان (عليه السّلام): ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ [النمل آية: ٤٠]، في قصّة سليمان مع بلقيس وعرشها.

وأسودان: جدٌّ أعلى للقائد الثّغري، وهو نبهان بن عمرو.

وكعب بن الأشرف يهودي من طيّء، وله خؤولة فيهم، قتله بعض الأنصار من صحابة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم بأمره سنة: (٣هـ)، لَمّا خاض في أعراض المسلمين.

انظر: سيرة ابن هشام (٨١٧/٢-٨٢٠).

خطبتْ إليك السّلم رَبَّهُ مُلْكِهِمْ لو كانَ يطلبُ نائلٍ من مُسْعِفِ
وكأنَّني بكَ قد أُتِيْتُ بعرشِها والسّيفُ أسرعُ هبةً من آصِفِ
يومٌ محا عن أسودانَ سوادَ ما فعلَ النَّبِيُّ بكعبٍ بنِ الأشرفِ

وقوله هاجياً المستعين[1]:

وكانَ أضرَّ فيهم من سهيلٍ إذا أوبا وأشأمَ من قُدَارِ
تَغَانَى النّاسُ حتَّى قلتَ عاداوا إلى حربِ البُسْوسِ أو الفُجَّارِ
فلولا اللهِ والمعتزِ بُدْنا كما بادت (جَدِيسٌ) من (وَبَارِ)

---

(١) ديوانه (٢/٩٣٧).

سهيل: نجم لامع يطلع آخر الصّيف من أقصى الجنوب الشّرقي.

قدار: هو ابن سالف عاقر ناقة ثمود، لسان العرب، دار صادر، بيروت، (٥/٨٠).

البسوس: حرب دامت أربعين سنة بين بكر وتغلب ابْنَي وائل، وسُمِّيت باسم خالة جساس بن مرّة الشّيباني؛ لأنّها المثيرة لها.

المصدر السّابق (٦/٢٨).

الفجّار: حروب كانت بين قريش ومن معها من كنانة، وبين قيس عيلان وهي أربعة فجارات، وسمِّيت بذلك لكونها من الفجور، وهو ارتكاب المحرم؛ لأنّها قتال في الأشهر الحرم.

المصدر السّابق (٥/٤٨).

وقوله: «لولا الله والمعتزّ»، خطأ في العقيدة، وصحّته: «لولا الله ثم المعتزّ».

رحلاته ولقاءاته:

عاش البُحتُرِيّ في بيئتين رحل خلالهما، وتجوّل في فجاجهما، وهما: البيئة الشّامية، والبيئة العراقية، وسنتحدّث عن أشهر مَنِ اتّصل بهم في كلتا البيئتين:

أوّلاً: البيئة الشّامية

لعلّ أشهر مَنِ اتّصل بهم البُحتُرِيّ في البيئة الشّامية أبناء حميد الطوسي، وأبو سعيد الثّغري وابنه، وأبو تَمام الطّائي، وكلّهم من قبيلة طيّء.

أمّا اتّصاله ببنِي حميد الطّوسي، وبأبِي سعيد وابنه فلكونهم قادة ذاع صيتهم في مدافعتهم عن ثغور الخلافة، ولقمعهم الخارجين عليها من أمثال بابك الخرَّمي، ولِما يصل إلى أيديهم من أموال وثروات؛ فإنّ الشّعراء يقصدونهم ليسطروا بطولاتهم، وليذيعوا أخبارهم، ولينعتوهم بكلّ خلقٍ قويمٍ وصفةٍ نبيلةٍ —وهكذا فعل البُحتُرِيّ مع هؤلاء القادة الطّائيّين.

وقد خُصَّ البُحتُرِيّ بأبِي سعيد الثّغري، وكان مدّاحاً له طوال أيّامه، ولابنه من بعده[1].

واتّصال البُحتُرِيّ به قديم؛ لأنّنا نجده قد عزاه في وفاة الخليفة المعتصم قائلاً[2]:

---

(١) الأغانِي، لأبِي الفرج الأصبهانِي (٤٢/٢١).

(٢) ديوانه (٨٨٢/٢-٨٨٣).

تَعزَّ بالصّبرِ واستبدلْ أُسىً بأسَىً فالشّمسُ طالعةٌ إن غُيِّبَ القمرُ
إيْهاً عزاءَك! لا تغلبْ عليه فما يَسْتعذبُ الصّبرَ إلاّ الحيةُ الذّكرُ
فلم يَمتْ مَنْ أميرُ المؤمنين لــه بقيةٌ وإن استولَى بــه القــدرُ
مضى الإمامُ وأضحى في رعيته إمَامُ عدلٍ به يُسْــتَنْزَلُ المَطَــرُ

وعن طريق أبي سعيد نفسه تعرّف على أبي تَمام كما سيأتي.

ومن خصائص مدائحه لهم: أنّه يركّز على ذكر نســبهم، وربــط حاضرهم بماضيهم، وهذا من أشدّ الدّوافع التي جعلت صلّته بهم قويّــة، وكثيراً منا يشير إلى رابطة القرابة بينه وبينهم، وأنّ نسبهم يلتقي به عنــد أحد أجدادهم.

وأمّا اتّصاله بأبي تَمام الطّائي؛ فقد كان في مجلس أبي سعيد الثّغري، وكثيراً ما كان أبو تَمام يرتاده، وكان البُحتُرِيّ شابّاً حدثاً من مُدَّاح أبي سعيد، فدخل عليه مرّة فلقي أبا تَمام عنده، وكان هذا اللّقاء فاتحة لقاءات كثيرةٍ بعضها في مجلس أبي سعيد، وبعضها عند قصد البُحتُرِيّ أبا تَمــام وهو مقيم في حمص.

وقد أفاد البُحتُرِيّ مِن اتّصاله بأبي تَمام مالاً وعلماً، فأمّا المــال؛ فلأنّ أبا تَمام أثنى عليه وعرّف به وشَهَّرَه عند ممدوحيه.

وأمّا العلم؛ فوصيّة أبي تَمام له في كيفية نظم الشّعر واختيار الأوقات المناسبة خير شاهد على ذلك[1].

(١) انظر: الوصيّة كاملةً في العمدة في صناعة الشّعر ونقده، لأبي عليّ الحسن بن رشيق القيراني، تحقيق: د/ مفيد قميحــه، ط الأولى، دار الكتــب العلميــة، بيروت (٣٣٢).

ثانياً: في البيئة العراقية

تنسم رحلة البُحتُرِيّ إلى العراق إلى قسمين:

الأوّل: رحلته في عهد الواثق، وما تحقّق له فيها من مدح وزيره ابن الزّيات(١)، وكاتبيه وبعض الأعيان، مثل: كاتب ابن أبي داود إسماعيل بن شهاب.

والثّانِي: رحلته في عهد المتوكّل واتّصاله بالفتح بن خاقان، وعليّ بن المنجم، وبعض أبناء الخلفاء، ويدخل فيها ما ترتّب عليها من شهرةٍ مهّدت له الدّخول على مَن أتَى من الخلفاء فيما بعد إلى أن توفِّي الشّاعر.

لم يتكمّن البُحتُرِيّ من نيل شرف مدح الخليفة الواثق، وهو ما كان يأمله من ابن الزّيات وكتابه، فاكتفى بمدح كبار رجال الدّولة، ولكن بعد أن ولِي المتوكّل الخلافة بعد أخيه أعاد الكرّة طمعاً في تحقيق آماله، ومع أنّ ابن الزّيات كان موجوداً؛ إذ ذاك وعلى مكانته في عهد الواثق إلاّ أنّنا لا نجد للبُحتُرِي من اتّصالٍ وثيقٍ به، وكأنّما حدثت بينهما جفوة، جعلت البُحتُرِيّ يبحث عن وجهاء آخرين يحقّقون أمانيه،وكان له ما أراد، وذلك عن طريق اتّصاله بالفتح بن خاقان، ووزير المتوكّل وكبير قواده.

---

(١) ابن الزّيات، هو: محمّد بن عبد الملك أشهر وزراء وكتّاب الدّولة العبّاسية، كان شاعراً مجيداً، ولِي الوزارة آخر خلافة المعتصم واستبقاه الواثق ومن بعده المتوكّل، ثم نكبه عام (٢٣٣هـ)، فعذّبه حتّى مات. الأعلام (٣٤٨/٦).

أمّا عن كيفية إيصال الفتح له؛ فإنّ البُحتُرِيّ قد استدر عاطفته بما أزجاه إليه من قصائدَ صوّر فيها شخصيّته أيَّ تصويرٍ، فوعده الفتح على إثر ذلك بأن يصله بالخليفة المتوكّل إعجاباً بشعره وشاعريته.

ويبدو أنّ الفتح قد ماطل البُحتُرِيّ في هذا الوعد، ويدلّنا على ذلك ما في الدّيوان من قصائدَ عتابيةٍ أشار فيها البُحتُرِيّ إلى تأخّر الفتح في وفائه بوعده، وإلى عدم مسارعته في تحقيق أمنيته الوحيدة، ومن ذلك قوله(١):

وعدتَ فأوشكْ نُجْحَ وعدكِ إنَّهُ ... من المجدِ إعجال المواعيدِ بالنُّجْحِ
وأنتَ ترى نُصْحَ الإمامِ فريضةً ... وإخبارُهُ عنِّي سبيلٌ من النُّصْحِ
له مكرماتٌ يقصُرُ الوصفُ دونَهَا ... وأَبْلَغُ مدحٍ يستعارُ لها مَدْحِي

وقوله(٢):

فهلمَّ وعدَكَ في الإمام فإنَّهُ ... فضلٌ إلى جدوى يديك تُضيفُهُ
وهو الخليفةُ إن أَسِرْ وعطاؤه ... خَلْفِي، فإنَّ نقيصةً تخليفُهُ

فوصله الفتح به بعد عيدٍ من أعياد الفطر، ومدحه البُحتُرِيّ بقوله(٣):

أَبَرَّ على الأنواءِ نائِلُكَ الغَمْرُ ... وبِنْتَ بفخرٍ ما يشاكِلُهُ فَخْرُ

---

(١) ديوانه (١/٤٤٦).

(٢) ديوانه (١٤٢١/٣).

(٣) ديوانه (٩٩١/٢).

فأعجب المتوكّل بشاعريته وأمر له بعشرة آلاف درهم، وصيّره من ندمائه[1].

(١) انظر قصة اتّصاله هذه في: أخبار البُحتُرِيّ للصولِي (٨٤).
وهذه الرّواية هي الرّاجحة، وهناك رواية أخرى مؤدّاها: أنّه تعـرّف عليـه واتّصل به بعد مدحه لأبي سعيد حين سجن على أثر مطالبته بمالٍ بعد غـزاة غزاها، فعُرِضت مدحته على المتوكّل فأفرج عن أبي سعيد وقرّب البُحتُـرِيّ، ولكنّ ذلك لا يثبت أمام النّقد.
فالرّواية الأولى معها دليلٌ ماديٌّ، وهو معاتباته للفتح وإلْحاحه عليه بوصـله بالخليفة، ولوسلمنا جدلاً بأنّ ذلك كان فإنّه اتّصالٌ ضعيفٌ لم يمكّنـه مـن المنادمة.
والملاحظة الجديرة بالاهتمام أنّ القصيدة المذكورة في الرّواية الأولى فيها ذكر لمسير المتوكّل إلى الشّام، وقد ذكر المؤرِّخون أنّ ذلك عـام: (٢٤٣هـــ)، انظر: الطّبري (٩/٢٠٩).
وهذا التّاريخ يتعارض مع التّاريخ المدوَّن في الرّواية، وهي سنة: (٢٣٣هـ).
فالظّاهر من تعارض التّاريخين أنّ أوّل قصيدةٍ مدح البُحتُرِيّ بها المتوكّل هي قوله:

أُخفِي هوىً لكَ في الضّلوعِ وأُظْهِـرُ
وأُلامُ في كَمَـــدٍ عليـــك وأُعْـــذَرُ

وليست القصيدة التي أولها:

(أبــرّ علــى الأنــواء نائلــك الغمــر)

ولعلّ هذا الخلط جاء من الرّاوي نتيجة لاتّحاد موضوعَي القصـيدة، وهـو التّهنئة بالعيد، ووصف موكب الخليفة وخطبته.ديوانه (٢/١٠٧٠).

بعد هذا الاتّصال أكثر البُحتُرِيّ مجالسة المتوكّل ومنادمته والدّخول عليه، وخير دليلٍ على ذلك شعره؛ فقد نظم الشّعر على لسان المتوكّل ليبعث به إلى زوجه قبيحة أمّ بنيه حين صدّت عنه[1].

وكذا وصفه قصوره ومشاركته أفراحه وأتراحه، وله فيه ثلاث وأربعون قصيدة بين مدحٍ وتهنئةٍ ووصفٍ، ورثاء.

كما مدح البُحتُرِيّ المعتزّ بالله، ونال الحظوة لديه حتّى إنّ المعتز قال له يوماً بعد ما أنشده بعض قصائده:

«يا وليد ما أنشدتَنِي قطّ إلاّ أطربتَنِي، ولا رأيتك إلاّ سررتُ للملك ببقائك»[2].

فمدحه في إحدى وثلاثين قصيدة، وصف فيها قصوره وهنّأه وعزاه.

كما مدح المهتدي بالله والمعتمد على الله في بعض قصائدَ، ويلحظ من خلال مدحه لهما عدم قربه منهما؛ وذلك لأنّه بعد وفاة المعتزّ رحل عن العراق واشتغل بضيعاته وأمواله فلا يَمُرّ عليهما إلاّ لَماماً كما كان لاضطراب أحوال الخلافة أثرٌ في هذا البعد وكذا كبر سنّه.

---

(١) انظر: ديوانه (١/١٢٩).

(٢) أخبار البُحتُرِيّ للصّولي (١٠٦-١١٣).

والقصيدة التي مدحه بها وهنّأه فيها ببنائه قصره الكامل هي قوله:

لو كان يُعتبُ هاجر في واصل ... أو يستقادُ لمغرم من ذاهل

(٣/١٦٤٢).

أثر البيئة العراقية على حياة البُحتُرِيّ

حظي البُحتُرِيّ في البيئة العراقية بشرف منادمة الخلفاء ومجالسة الوزراء، والقادة والأعيان، وقد ظهر عليه أثر ذلك معنويّاً وحسّيّاً.

فأمّا الأثر المعنوِيّ؛ فيكمن في فخره بهذه المنادمة على أُترابه ومعاصريه، ومن ذلك قوله مخاطِباً المعتز حين استشفع به على ابنه عبدالله[1]:

مَتَتُّ بأسبابٍ إليه كثيرةٍ ... وقد تُدْرَكُ الحاجاتُ بالسّبب النَّزْرِ
وما نِلْتُ من جدوى أبيهِ وجدِّهِ ... وما رفعا لِي من سناءٍ ومن ذِكْرِ

وليس هذا فحسب؛ وإنّما جعلته هذه المنادمة مَقصِدَ كثيرٍ من أمراء العرب ووجهائهم، فنال بذلك رفعةً وشرفاً عندهم وها هو ذا يفتخر بذلك قائلاً[2]:

وشفعتُ في الأمرِ الجليلِ إليهِمُ ... بعدَ الجليلِ فأنجَحُوا طَلِبَاتِي
وصنعتُ في العربِ الصّنائعَ عندهُمْ ... من رِفْدِ طُلّابٍ وَفَكِّ عُنَاةِ

(١) ديوانه (١٠٠٧/٢).

(٢) ديوانه (٣٦٥/١).

أمّا الآثار الحسّيّة فكثيرةٌ جدّاً، ولعلّ أهمّها

١- أنّه تعرف بكبار رجال الدّولة من وزراء وأمراء وكتّاب وعلماء ووجهاء، وقد أحصيت أشهر ممدوحيه منهم فجاوز عددهم ستّة وأربعين ممدوحاً، عدا مَنِ اتّصل بهم قبل منادمته المتوكّل؛ كابن الزّيات والحسِ بن وهبٍ، والفتح بنِ خاقانَ، ومن هؤلاء الممدوحين ثمانيةُ وزراءَ وعددٌ من القادةِ منهم: صاعدُ بنُ مخلدٍ، ذو الوزراتين، وإسماعيلُ بنُ بلبل، وعبدُ الله بنُ يَحيَى بن خاقانَ، والحسنُ بن مخلدٍ، وكلّهم من وزراء المُعْتَمِدِ على الله.

ومالك بن طوق التّغلبي أبو غانم، والشّاة بن ميكال، وأحمد بن دينار، وأحمد وأخوه إبراهيم ابنا محمّد بن المدير.

٢- أنّه كسب شهرةً ونال حظوةً لدى وجهاء النّاس، ونتيجة عكسية لهذا فقد وجد له أعداء بعضهم من أبناء مهنته، وبعضهم من أبناء قبيلته، وقد أشار إلى ذلك بقوله مخاطباً الفتح[1]:

وكم لكَ من يدٍ بيضاءَ عندي ... لها فضلٌ كفضلِكَ والأيادِي
ومن نعماءَ يُحسّدُني عليها ... أداني أسرتي وذوو ودادي
لقيتُ بها المصافِيَ كالملاحِي ... وألفَيتُ الموالِيَ كالمعادي

---

(١) ديوانه (٢/٣٢٦).

ومثله قوله(١):

إن أبقَ أو أهلِكْ فقد نلتُ التي ملأتْ صدورَ أقـاربي وعِـداتي

٣-كثرة ما وصل إليه من الأموال النّقدية والهدايا العينية الثّمينة والإقطاعات الكثيرة، وشعره خير شاهدٍ على ذلك، كما كان يستهدي الخيل(٢)، والبغال(٣)، والسّلاح(٤)، والغلمان(٥)، والملابس(٦).

٤- كذلك انصافه بصفات الندماء من كثرة الاطلاع على مختلف الفنون و الآداب و أفضل أنواع الطيب وتذوّق الغناء ومعرفة أشهر المغنّين وإجادة اللّعب بالشّطرنج وغيره، فقد أخذ بنصيبٍ من ذلك وشعره مليء بهذه المعارف.

أمّا فنُّهُ؛ فإنّه مال إلى الرِّقّةِ في أغلبه، فقد رقّت ديباجة شعره وسلس قيادها لكونه منشد الخلفاء ومطرب الوزراء؛ فأحسن سبك اللّفظ على المعنَى.

هذا بعض الأثر النّاجم عن دخوله هذه البيئة العراقية.

---

(١) ديوانه (٣٦٥/١).

(٢) انظر: ديونه (٣٩٩/١-١٧٣٧/٣).

(٣) انظر: ديونه (٣٩٩/١).

(٤) انظر: ديونه (١٧٣٧/٣).

(٥) انظر: ديونه (١٠٦٦/٢).

(٦) انظر: ديونه (١٥٠٣/٣-٨٣٧/٢).

شخصيّته

أوّلاً: صفاته:

لكلّ إنسانٍ في هذا الوجود صفات تصطبغ بها حياته الخَلْقية والخُلُقية.

فأمّا صفات شاعرنا الحِسِّيَّة فلم أعثر على ما يبين ملامح هيئته إلاّ نتفاً وشذرات من نصوص متفرقات، جاءت عرضاً، يشير بعضها إلى أنّه كان طويل القامة، طويل اللّحية، أسمر البشرة[1]، وأنّه من أوسخ النّاس ثوباً وآلة[2].

فأمّا الرّوايات التي تسمه باتّساخ الثّوب والآلة، فهي روايات مشوبة بالمبالغة، ويرفضها الواقع؛ لأنّ الوضع الاجتماعي الذي عاشه البُحتُرِيّ بعد اتّصاله بالخلفاء والوزراء وغيرهم من وجهاء المجتمع وضعٌ لا يسمح له أن يكون بهذه الصّورة المزرية، كيف يكون ذلك وقد نادم الخلفاء ومن تمام آلة النّديم الظُّرف، والذّكاء والنّظافة التّامّة، وأمر آخر يستدعي رفض ذلك وهو ما حَصَّل من ثروات وإقطاعات وهدايا ثمينة، جعلته من الأثرياء المعدودين إلاّ أنّ حلمناها على كون ذلك كان أوّلَ حياته قبل منادمته الخلفاء.

(١) أخبار البُحتُرِيّ للصّولي (٤٩-٥٠).

(٢) الأغاني (٢١/٤٣).

وقد رفضها بعض الأدباء منهم بطرس البستانِي في كتابه: أدباء العرب[١].

وأمّا صفاته الخُلُقية:

فقد ذكر له الأدباء عدداً من الصّفات منها:

١- قدرته على فهم نفسية ممدوحيه:

فإنّه إن رأى ممدوحه يحبّ ثلبَ أحد أعدائه، نجده يلح على تصويره أمامه بأبشع الصّور، وإن رأى أنّ ممدوحه يحبّ أن تَعَدَّدَ انتصاراته وإنجازاته عدّدها في كلّ مدحةٍ وكلّ مناسبةٍ، وما أكثر ذلك في قصائده التِي مدح بها المتوكّل وابنيه: المعتزّ بالله والمعتمد على الله[٢].

٢- وفاؤه:

نجد الرّوايات متناقضةً بين إثبات هذه الصّفة له ونفيها عنه، ويحتجّ المثبتون لاتّصافه بها بِما ثبت عنه من إقراره بفضل أبي تَمام حين فضّله بعضِ النّاس عليه؛ فقال: ((كلاّ والله، ذلك الرّئيس، والله ما أكلت الخبز إلاّ به))[٣].

---

(١) أدباء العرب – بطرس البستانِي (٢/٣٤-٣٥)، نشر دار الجيل، ١٩٧٩م، بيروت.

(٢) انظر: ما قاله ابن المعتزّ حول هذا في أخبار البُحتُريّ للصّولي (١٠٥).

(٣) أخبار البُحتُرِيّ للصّولي (٦٠)، والأغانِي (٢١/٤١).

كما عدّ بعض الأدباء حنينه إلى المتوكّل والفتح مع تباعد الزّمن من وفائه أيضاً.

وأمّا ما اتّهم به من عدم الوفاء جاء نتيجة لتحليل بعض المواقف مثل كونه يمدح بعض الشّخصيّات ثم يهجوها بعد ذلك، أو ينقل ما قاله فيهم إلى غيرهم[1]، وكذا عدم ذكره مَن مات من الخلفاء والأصدقاء بعد موتهم.

فأمّا هجاؤه بعض مَن مدحه؛ فإنّ ذلك لا يدلّ على عدم وفائه؛ لأنّه لم يهج إلاّ مَن عاداه أو مَن لم يحقّق له طلبته، وهذا أمرٌ فطرِيٌّ، وكونه يمدحه لا يدلّ على ودّه له، وإنّما مدحه لكَي يحصل على مراده من مالٍ، أو حظوةٍ، أو خشيةٍ من تسلّطه عليه، واعتراضه طريقه إن لم يمدحه.

وأمّا عدم ذكره مَن مات من الخلفاء والأصدقاء؛ فلأنّه (كان يتوقّع أبداً تبدّل الولاة والملوك فصاحبهم على دخل، يمدحهم في عزّهم، ويتنكّر لهم في نكبتهم، وهو إنّما يماشي زمانه في ذلك، وقد وجد في زمن قلّ فيه الوفاء وكثر الغدر والرّياء...)[2].

٣- فخره:

كان البُحتُرِيّ كثير الفخر بثلاثة أشياء:

---

(١) انظر: الموشح للمرزباني، الطّبعة السّابقة، الطّبعة الثّامنة، عام: ١٣٨٥هـ، بإشراف محبّ الدِّين الخطيب.

(٢) أدب العرب- بطرس البستانِي (٢/٢١٥).

بنسبه آباءً وجدوداً، وبصفاته الخُلُقية، وبشعره.

فأمّا فخره بآبائه وجدوده فكان الباعث له مفاخرة أعدائه، وبيان ارتباطه ببعض ممدوحه من الطّائيّين، ومن ذلك قوله(١):

جَدِّي الذي رفعَ الآذانَ بمنجٍ | وأقامَ فيها قِبْلَةَ الصّلواتِ
وأبي أبو حيّانٍ قائدُ طَيِّءٍ | للرّوم تحت لوائه المنصاتِ
وولي فتحِ الجسر إذ أُغْرِي به | عُمَرٌ وفاعل تلكُمُ الفعلاتِ
وخؤولتِي فالحوفزانِ وحاتمٌ | والخالدانِ الرّافدانِ حُمَاتِي

ومن فخره بصفاته الخُلُقية؛ كالشّجاعة والجلد قوله(٢):

يا ابنةَ الدّهر هل رأيتِ كمثلِي | عند دفع المنى ونفيِ الشّكوكِ
أركبُ المهمهَ المهولَ بعزمٍ | وثيابي ظلامةٌ الحُلْكُوكِ
وأشقُّ الجيوبَ من خِلَع اللّيل | بكفٍّ من الزِّماعِ بتُوكِ

---

(١) ديوانه (١/٣٦٦)، ومثله قوله: (٣/١٤٨٥، و٢/١٠٨٢، و١/٥٩٢).

(٢) ديوانه (٣/١٥٨٧).

والحُلْكُوك: الشّديد السّواد.

وخِلَع اللّيل، جمع: خلعة، وهي الثّوب.

والزّماع: المضاء في الأمر والعزم عليه.

والمتبوك: القاطع.

ومن فخره بشعره وسيرورته قوله[1]:

إذا نحنُ كافأناكُمُ عن صَنيعةٍ أَنَفْنا فلا التَّقصيرُ منّا ولا الكُفرُ
بمنقوشةٍ نقشَ الدّنانير ينتقي لها اللّفظُ مختاراً كما ينتقي التِّبْرُ
تبيتُ أمامَ الرِّيحِ منها طليعةٌ وغدوتُها شَهْرٌ وروحتها شَهْرٌ
توفي ديونَ المنعمين ويقتني لهم من بواقِي ما أعاضَتْهُمْ فخر

(١) ديوانه (٢/٨٧٥)، ومثله قوله: (٢/٦٥٥).

ثانياً: تديّنه وعقيدته

لم يكن البُحتُرِيّ أوّل حياته متديِّناً، وإنّما كان مستهتِراً، وشعره مليء بِما يدلّ على ذلك غير أنّه بعد تجاوزه الخمسين لام نفسه على صبابته، وفي شعره بعد هذا السّن شواهدُ على ذلك،جاءت اعتذارات عمّا يرى في شعره من تصابٍ أو ما يؤاخذ عليه من تصرفات ومن ذلك قوله[1]:

وكيفَ تعاطِي اللّهوِ والرّأسُ مُخْلسٌ   مشيباً وشربُ الرّاحِ من بعدِ جعفرِ
قنعتُ وجانبتُ المطامعَ لابِساً   لباسُ محبٍ للبراءَة مؤثّرِ
وآنسنِي علمِي بأنْ لا تقدمِي   مفيدي ولا مزرٍ بِحَظِّيْ تأخّرِي

وأمّا عقيدته فعقيدة أهل السّنة والجماعة المتمثّلة في الاعتقاد بأنّ القرآن الكريم كلام الله مُنَزّل غير مخلوقٍ، والبعد عن التّشيّع، وذمّ الرّافضة، وما شابههم من القدرية والمعتزلة، ويشهد لذلك ما حدّث به هو قال: «أدخلنِي الفتح إلى المتوكّل، وقد اصطبح يوم النّيروز الذي أخّره فأنشدته:

لكَ في المجدِ أوّلٌ وأخيرُ   ومساعٍ صغير هنّ كبيرُ

فوهب له ألف دينار، وقال له الفتح: «شرفه يا أمير المؤمنين في هذا بما هو أخصّ من الصّلة؛ فإنّه شامِيّ سليم من الرّفض...»[2].

(١) ديوانه (١٠٦٣/٢).

(٢) أخبار البُحتُرِيّ للصّولي (٩٥).

كما نجد في شعره تشنيعاً بِمَن يدين ببعض الاعتقادات الباطلة[1].

وأمّا ما اتّهم به من اعتزالٍ لقوله في بيتٍ له عن الجبرية[2]:

يرمونَ خالقَهُمْ بأقبحِ فعلِهِمْ ويحرفونَ كتابَهُ المخلوقا

فقد اعترف بخطئه، وأنّ ذلك جاء منه للمداهنة أيّام الواثق ثم غيره فقال[3]:

... ... ويحرفون كتابَهُ المَنْسُوقا

وعلى هذا فقد كفانا مؤونة الدّفاع عنه.

وكذا اتّهامهم له بالزّندقة لقوله عن الدُّنيا [4]:

ولم أَرَ كالدّنيا حليلةَ وامقٍ محبٌّ متى تَحْسُنْ لعينيهِ تَطْلُقِ

تراها عياناً وهي صنعة واحدٍ فتحسبُها صُنْعَيْ لطيفٍ وأخرقِ

وذلك لسوء فهمٍ من العامّة لهذين البيتين؛ لأنّه «يقرّر أنّ الدُّنيا صنعةَ واحدٍ، وإن خُيِّلَ للمرءِ أنّها من صنعِ اثنين»[5]، لكن فيها ضعفاً في جانب فهمه القدر؛ إذ تدلّ الأبيات على ضجره من انتكاس حظّه، وكثرة نزول البلاء به، وكذا حوادثُها التِي تَحُلُّ بالصّغيرِ والكبيرِ مع إتقان الكونِ.

---

(١) ديوانه (٢/٩٢٣، و٣/١٤٥٠، و٤/٢٢٩٠).

(٢) ديوانه (٣/١٤٥٠).

(٣) أخبار البُحتُرِيّ للصّولي (١٢٣)، الموشح للمرزباني (٣٠٦).

(٤) ديوانه (٣/١٥٤٩)، والموشح (٣٠٧).

(٥) حياة البُحتُرِيّ وفنه، د/ أحمد بدوي (١٢٧)، طبعة مطبعة الأنجلو العصرية، عام ١٣٧٥هـ.

ثالثاً: علاقته مع الآخرين

لقد نادم البُحتُرِيّ الخلفاء بدءً بالمتوكّل ومدحهم وفاز بأعطياتهم، وعن طريقهم اتّصل بكثيرٍ من القادة والأدباء والشّعراء، وذاع صيتُه، واشتهر اسمه، ففخر بذلك على أعدائه الحاسدين له، النّاقمين عليه؛ فقال[1]:

إن أبقَ أو أهلِكْ فقد نلتُ التي ... ملأتْ صدورَ أقاربِي وعُداتِي
وغنيتُ نَدمانَ الخلائفِ ناهاً ... ذكرِي وناعمةً بهم نَشَواتِي
وشفعتُ في الأمرِ الجليلِ إليهمُ ... بعدَ الجليلِ فأنْجَحُوا طَلَباتِي
وصنعتُ في العربِ الصّنائعَ عندهُمْ ... من رِفْدِ طلابٍ وفَكٍّ عُنَاة

ولا نجد سبباً يغادي من أجله إلاّ بلوغه أعلى المراتب من الشّرف والرّفعة، وكثرة ما وصل إليه من خيرات، وقد أشار هو إلى ذلك بقوله[2]:

فالآن إذ ناصيتُ أعنانَ العلاَ ... ورقيتُ منها أرفعَ الدّرجاتِ
يجرِي ليدخُلَ في غبارِ تسرُّعِي ... من ليسَ يَعْثُرُ في الرّهانِ أناتِي

وقوله مخاطباً الفتح[3]:

وألبستَنِي النّعمى التِي غيرْت أخِي ... عليّ فأضحى نازِحَ الودِّ أجنبا

---

(١) ديوانه (١/٣٦٥).

(٢) ديوانه (١/٢٠١)، وشواهد ذلك كثيرةٌ.

(٣) انظر: القصيدة رقم: (٢٨٥)، (٢/٧٢٦).

وأعداء البُحتُريّ صنفان أقارب وأباعد:

فأمّا الأقارب فقد أشار إلى عداوتهم له بقوله[(١)]:

ومن الأقاربِ مَن يسرُّ بميتتِي سَفَهاً وعــزُّ حيــاتِهِمْ بحيــاتِي

وأمّا الأباعد فأعداؤه منهم كثيرٌ، كلّهم نافسٌ عليه ما وصل إليه من رتبةٍ وجاه، وهم بين شاعرٍ أو وزيرٍ أو قائد، أو كاتب.

فأمّا عداوة الشّعراء له؛ فلأنّه قد حجب أكثرهم عن الوصــول إلى الخلفاء لِما له لديهم من حظوة، وقد قيل: إنّه هو وأبو تَمام قد أخمــلا – في زمانهما– ذكر خمسمائة شاعر[(٢)].

ومن أشهر هؤلاء الشّعراء ابن الرّومِي الذي كان ينفس عليه مكانه الأدبية[(٣)]، وقد دلّل على ذلك بقوله[(٤)]:

الحظُّ أعمَى ولولا ذاك لم ترهُ للبُحتُرِيِّ بلا عقــلٍ ولا أدب

وأمّا الوزراء والقادة والكتاب فقد هجا عدداً منهم، إمّا لأنّــه لم يحظ بصلات جمّةٍ منهم جزاء مدحه لهم، أو لأنّه ترفــع عــن مــدحهم فتعرضوا له والأمثلة على هذا كثيرةٌ[(٥)].

---

(١) ديوانه (٣٦٥/١).

(٢) الموزانة بين شعرَي أبي تَمام، والبُحتُرِيّ للآمدِي (١٢/١)، ط دار المعــارف الثّانية عام ١٣٩٢هــ، القاهرة.

(٣) ديوان البُحتُريّ (٢٤٦٥/٤).

(٤) ديوان ابن الرّومِي (٢٦٩/١)، تحقيق: حسين نصار، نشر الهيئــة العصــرية العامّة للكتاب، منطبعة دار الكتب ١٣٩٣هــ.

(٥) ديوانه (٢٢٧٩/٤)، والقصائد رقــم: (٦٣٨، و٥٩٣، و٨٩٥)، في هجــاء أحمد بن الخصيب، وأحمد بن طولون، ويحَيى بن أكثم.

شعره وشاعريّته

أوّلاً: شعره:

شعر البُحتُرِيّ غزيرٌ، متعدّد الأغراض، وقلما تجد له قصيدة تحدث فيها عن غرض بعينه لا تتجاوزه إلى أغراض أخر -خاصّة قصائد المدح التي تغلب على ديوانه-، وذلك لسلوكه طريقة الأوائل، فهو وإن مدح إلاّ أنّه يبدأ بالنّسب والغزل، وينتقل منه إلى وصف بُعْدِ الشَّقة بينه وبين ممدوحه، ثم ينتقل منه إلى مدح ممدوحه ببيان صفاته من شجاعةٍ وجودٍ وعراقة نسبٍ.

وبدراسة شعره ظهر أنّ أشهر أغراض شعره ما يلي:

١- المديح:

مدح البُحتُرِيّ الخلفاء والملوك والوزراء والأمراء والقادة والكتّاب، وكان يجعل لكلّ مقامٍ مقالاً، ولكلّ ممدوحٍ ما يناسبه من الشّعر، ولم يفطن لهذا إلاّ بعد أن نبّهه عليه الفتح بقوله: ليس بك حاجة في مدح أمير المؤمنين إلى مثل هذا، ليِّن كلامك حتّى يفهم؛ فإنّه يلذ ما يفهم...[(١)].

وقد لحظ أثر هذه النّصيحة ابن رشيق فقال -بعد أن تحدّث عن سبيل الشّعراء في المدح: «ورأيتَ عملَ البُحتُرِيّ إذا مدح الخليفة كيف يُقِلّ الأبيات ويبرز وجوه المعانِ»، فإذا مدح الكتّاب عمل طاقته وبلغ

(١) أخبار البُحتُرِيّ (٨٦).

مراده»[1]، وهذا من المحمود له.

كما كان كثير التّصرّف عند المدح خاصّة؛ فإنّه يطرب سامعه لِما ينتقل بين الأغراض، قال ابن المعتزّ: «كان مِمَّا حبّب إليّ الشّعر أنّي سمعتُ البُحتُرِيّ ينشد الماضي -والده- شعراً تشوّفه النّاس واستحسنوه ووصّفوه، تصرّف فيه بغزلٍ ووصفٍ ومدحٍ وشكرٍ وَعَدَّدَ أصنافَ ما أخذ، وطلب خاتم ياقوت»[2].

كما كان شديد الملاحظة لهوى ممدوحه؛ فإن رآه يحبّ ذكر مآثره وأعماله وانتصاراته هو وجيوشه على الأعداء ذكر ذلك وأشاد به[3]، وإن رآه يبغض أحداً هجاه وصرّح في ذمّه أمامه وعرّض فيه أخرى[4].

٢- الغزل:

للبُحتُرِي غزلٌ عذبٌ جميلٌ، وهو: «في أكثره لطيفٌ ناعمٌ يزداد بحسن الوصف، وفيه ما يستأسر القلوب، ويثير العواطف في النّفوس»[5].

لكن القائم بنفسه منه لا يعدو أن يكون مقطوعاتٍ قال أكثرها في ميعة الصّبا وريعان الشّباب لا تتحدّث إلاّ عن شدّة الوجد، وشكوى الهجر، وعتاب على التّقاطع، وبلغ عددها مائة ونيفاً.

---

(١) العمدة لابن رشيق (٢/٣٤٣).

(٢) أخبار البُحتُرِيّ (١٠٨).

(٣) من ذلك كثرة تعداده لأعمال المتوكّل وقصوره وانتصاراته على أعدائه، وانظر أيضاً: مدائحه في ابنته (المعتزّ).

(٤) انظر: ص (٥١)، من الرّسالة، وأخبار البُحتُرِيّ للصّولي (١٠٥).

(٥) أدباء العرب بطرس البستانِي (٢/٢٢٧).

وأمّا غزَلُه في افتتاحيات مدائحه فكثير لنهجه منهج الأوائل في ذلك.

ومن خصائص غزله حسن العتاب، وبراعة الوصف، وذكر الطّيفِ والخيالِ، والاعتذارِ عن الشّيب وتقدمِ السّنّ مع لزوم التَصابِي له.

والبُحتُرِيّ قد عرف الحبّ ومارسه، واشتهر بتشبيبه بصاحبته عَلْوة بنت زُريقة الحلبية، لكنّه لم يكن شديد اللّوعة عند الفراق أو القلـــى، ولا أدلّ على ذلك من هجائه لها بعد أن تزوّجت مؤثرة العفاف والحشمة[١].

٣- الوصف:

أُوتي البُحتُرِيّ حسّاً مرهفاً، جعله صادقَ الوصف، دقيقَه، وقـــد جاءه ذلك نتيجة لنشأته في مَنْبِج التِي تغنِي الشّعراء بِجمالهـــا وحســـن طبيعتها، أضف إلى ذلك معاشرته الخلفاء ووزرائهم ،ومشاهدته ما هم فيه من عيشةٍ مترفةٍ، فصوّر كلّ ذلك تصويراً أنبأ عن قـــوّة مخيلتـــه وروعـــة تصويره، فارتقى بذلك إلى ما بلغه من مَنْزلةٍ.

وصف البُحتُرِيّ الطّبيعة وما فيها من جمالٍ: من ربيعٍ[٢]، وغيثٍ[٣]، ورياضٍ[٤]، وجنان، ووصف القصور[٥]، وما فيها من رفيع البناء وبـــديع

(١) ديوانه (١/٣٧٦).

(٢) ديوانه (١/٦، و٣٣٨، و٤١١).

(٣) ديوانه (١/٥٦٧، و٤/٢٤٤٤).

(٤) ديوانه (٢/٨٤٠).

(٥) ديوانه (٢/١٠٣٩-١٠٤٣، و٤/٢٤١٤).

التّصاوير، وما فيها من برك، وما شُقّ خلالها من أنهار، وما جمع فيها من حيوانات، ووصف المدن(١).

كما وصف المعارك الحربية وهي موضوع بحثنا.

وقلّما يأتِي الصف عنده منفرداً، وذلك منهج الأوائل؛ فإنّه إذا مدح أحد ممدوحيه وَصَفَ ما أراد وصفه.

٤- الهجاء:

لم يكن البُحتُرِيّ من الهجائين المعدودين في عصره مع أنّ له كثيراً من المقطوعات التي تدلّ على ظاهرتين اثنتين(٢).

إحداهما: قصر نَفَسِهِ وليس قصر نَفَسِهِ وحده كافياً للدّلالة على ضعفه في هذا الفنّ، بل يضاف إليه قلّة المعانِي التي يحويها هجاؤه...

وثانيهما: صراحة هجائه وبذاؤه ألفاظه، فهو يدعو مَن يهجوه بأبشع الأسماء، ويصفه بأقبح الصّفات؛ كأن يجعله مخنثاً فاقد النّخوة والرّجولة.

ويبدو أنّ عدم ملاحاته الشّعراء المشهورين بالهجاء في عصره من أمثال: دعبلٍ، وابنِ الرّومِي نابعٌ من اعتزازه بقبيلته، واعتداده بنفسه، وحرصه على نقاوة عرضه، وكراهته توريث أسرته عاراً يبقى إلى الأبد من جرّاء بيتٍ يهجى فيه، وقد أفصح عن ذلك بقوله(٣):

---

(١) ديوانه (٢/٩٨٠، ٣/١٥٦٠).

(٢) الأغانِي (٢١/٣٨)، فقد لحظ أبو الفرج هاتين الظّاهرتين.

(٣) ديوانه (٣/١٣٩٦).

أبى لي العُبَيْدونِ الثّلاثــةُ أن أُرَى رَسِيْل لَئِـيمٍ في المبــاذاة والقــذفِ
وأجبنُ عن تعريضِ عرضِي لِجاهلٍ وإن كنتُ في الإقدام أطعنُ في الصّفِّ
وإنّي لئمٌ إن تركـــتُ لأســرتِي أوابدَ تبقى في القراطيسِ والصُّــحْفِ

وليس له في الهجاء قصيد جيّد إلاّ اثنتان سلمتا من الفحش والبذاء، وعمد فيهما إلى السّخريةِ من الممدوح عن طريق ذمِّهِ في ادّعائــه مــا لا يعرف[1].

هذا، وهناك رواية في الأغاني[2] أفادت بأنّ البُحتُريّ قد عمــد إلى احتراق ما له من الهجاء كراهة توريث أبنائه أحقاداً لا تُمحَى، وفي شعره ما يؤيّدها.

٥- العتاب:

اشتهر البُحتُريّ في العتاب وبرع فيه، وقد شهد له بذلك عبــد الله بن المعتزّ في معرض حديثه عن فضل البُحتُــرِيّ، وأنّــه لــيس للعــرب اعتذارات بعد اعتذارات النّابغة مثلُها[3].

---

(١) الأولى في ديوانه (٤١٩/١)، والثّانية (١٤٠٢/٣).

(٢) الأغانِي (٣٧/٢١).

وممّا يؤيّدها من شعره قصيدته رقم: (٥٥٢)، و(١٣٩٤/٣)، ففيها أبيــات تدلّ على كراهته الهجاء، وأن يبقى له أو عليه منــه شــيءٌ في القــراطيس والصّحف.

(٣) أخبار البُحتُرِيّ للصّولِي (٧٢).

وقال عنه ابن رشيق: «وأحسن النّاس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصّناعة وسيّد الجماعة أبو عبادة البُحتُرِيّ»[١].

٦- الرّثاء:

رَثَّى البُحتُرِيّ وجهاء عصره وبعض أقاربه، ومن أشهر مَن رثّاهم: المتوكّل[٢]، وأبو سعيد الثّغري وابنه[٣]، وأبناء حميد الطّوسيّ[٤]، وله تعاز في بعض أقارب ممدوحيه[٥]، وله تَفَجُّعٌ يفيضُ حزناً على قومه[٦]، وعلى بعض أصدقائه ومواليه[٧].

والبُحتُرِيّ في كلّ هذا لم يكن مِمَّن اشتهر بالرِّثاء، مع أنّ بعض قصائده قد بلغت ذروة الرّوعة والجمال، وصوّرت عواطفه الحزينة أيّما تصوير.

ولَمَّا سُئِلَ عن أسبابِ كون مراثيه في أبِي سعيد وابنه أجود من مدائحه فيهما، قال: «مِن تَمام الوفاء أن تفضّل المراثِي المدائح»[٨].

---

(١) العمدة لابن رشيق (٣٧٠).

(٢) ديوانه (١٠٤٥/٢).

(٣) ديوانه (١٧٢٧/٣، و١٩٤٥، و٢١٨١/٤).

(٤) ديوانه (١٩٤٠/٣).

(٥) ديوانه (٢٥١٨/١، و٩٦٢/٢).

(٦) ديوانه (١٨٤٤/٣).

(٧) ديوانه (٢٥٥/١).

(٨) الأغانِي (٤٢/٢١).

٧- أغراضٌ أخر:

هناك أغراض أخر ذكرها البُحتُرِيّ في شعره، لكنّها لا تبلغ مبلغ الأغراض السّابقة من حيث الكم والكيف فمنها:

الفخر: وله فيه ثمانِي قصائد جلّها مِمّا قاله في شبابه، لِما يبدو فيها من الاعتزاز بفتوّته، والنّعت لها بِما يتناسب وصفات الصّعاليك من جلد وسهر وعدم خوفٍ، وهجر للنّدماء، واستعاضته عنهم بصحبة اللّيل والبِيْدِ والعيسِ والسّيفِ والرّمح.

ومنها ما قاله حين اكتهل أو حين شاخ[١].

وكثيراً ما يفتخر بآله وعشيرته (بُحتُر) خاصّة، وقبيلة (طَيِّء) بعامّة، ناعتاً لهم بالكرم والشّجاعة والكثرة والحصانة[٢].

وكان كثيراً ما يفتخر بشعره مُمتنّاً بذلك على ممدوحيه[٣].

ومنها: التّوديع، وله فيه عشر قصائد يغلب عليها غرضُ المـدحِ؛ لأنّها قيلت في الرّاحلين من الخلفاء أو الأمراء[٤].

ومنها: التّهنئة، وله فيها أربع قصائد، وهي إمّا تهنئة في عيدٍ، أو في بلوغ ابن الخليفة سنّ الحلم، أو في بناء قصر، أو سلامة من حادثٍ، كاد

---

(١) (١/٣٦٣).

(٢) (١/٥٩٠، و٢/١٠٨١).

(٣) (٢/٨٢٦، و١١٧٤).

(٤) ديوانه (٢/١١٢٩، و١١٤١، و١٢٥٧).

يُوْدِي بحياة محبوبٍ، ويكثر فيها من المديح والوصف(١).

ومنها: **ذم الزّمن**، وله فيه عدّة مقطوعات، وبعض أبياتٍ من قصائد مدح يخرج من ذمّه للزمن فيها إلى استعطاف ممدوحِهِ(٢).

ومنها: **الزّهد، والتّرَفُّعُ**، وله فيه أبياتٌ من قصائد، بيد أنّ أبيات زهده فيها لا تبدو بيِّنة الدّلالة إلاّ حين ييأس من الحياة لفقر حلَّ بـه، أو ضائقة أَلَمَّت به(٣).

أو حينما يريد أن يُضَمِّنَ قصيدَتَهُ شيئاً من الحكمة في ذمّ الدّنيا والتّقليل من شأنها(٤).

وله في الإخوانيات قصائد كثيرة تدور حول وصف مجلس، أو اعتذار من هفوة أو عدم حضور دعوةٍ أو ما يشابهها(٥)، وفي شعر الإخوانيات -لديه- طرافة وسهولة وعدم تكلّف.

---

(١) ديوانه (١/٢٠٣، و٢/٦٩٢، و٧٠٢، و٩٩١، و١٠٣٩، و١١٣٤، و١١٤١).

(٢) ديوانه (١/٥٣، و٧٨، و٢/١٣٣١، و٣/٢٠٣٣).

(٣) ديوانه (٢/٨٢١، و١٠٢٦).

(٤) ديوانه (١/٥٣، و٢/١٠٦١).

(٥) ديوانه (١/١٣٢، و٢/١١٥٠، و١١٨٢، و١٢٠٣، و١٢٢١).

محاسن شعره وما عيب عليه

أوّلاً: محاسنه:

عدد العلماء من محاسن شعره، رِقَّتَهُ وحسنَ ديباجتـــه[(١)]، وحســـنَ سبكهِ اللّفظَ على المعنَى[(٢)]، وجمالَ موسيقاه[(٣)]، وحسنَ استهلاله[(٤)]، وعدمِ إطنابه[(٥)]، وإبداعَهُ في ذكر طيفِ الخيال[(٦)].

ثانياً: ما عيب عليه:

عاب عليه بعض النّقاد عدمَ تنسيق أفكـــارِه[(٧)]، وعـــدمَ إحســـانه

---

(١) المثل السّائر لضياء الدّين بن الأثير، تحقيق: د/ أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانة، ص:(٣/٩٣/٢٧٠)، نشر دار الرّفاعي بالرّياض، الطّبعة الثّانية ١٤٠٣هـــــ، ووفيّات الأعيان لابن خلّكان (٥/٧٦، و٧٧).

(٢) أسرار البلاغة لعبـــد القـــاهر الجرجـــاني (١٢٤)، دار المعرفـــة، بـــيروت ١٤٠٢هـــ، والمثل السّائر (٣/٢٧٠).

(٣) المثل السّائر (٣/٢٧٠)، والعصر العبّاسي الثاني، د/ شوقي ضيف (٢٨٨).

(٤) الوساطاة (٤٨).

(٥) حياة البُحتُريّ وفنه، د/ أحمد أحمد بدوي (١٥١-١٥٢).

(٦) الموازنة (٢/٧٠)، وأمالي المرتضى (غرر الفوائد ودور القلائد)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم للشّريف المرتضى الموسوي علي بن الحســـن، دارالكتـــب العربية، الأولى ١٣٧٣هـــ - ١٩٥٤م، ص:(١/٥٤١-٥٤٢).

(٧) الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربي، د/ شوقي ضيف ص:(١٩٧-١٩٩)، ط دار المعارف، التّاسعة، القاهرة، عام ١٩٧٦م.

التّخلّصَ والخروجَ[١]، والسّرقة من شعر من سبقه، وبالأخصِّ من شعرِ أبي تَمام[٢].

(١) إعجاز القرآن، لأبي بكر محمّد بن الطّيب الباقلانِي، تحقيق: عماد الدِّين أحمد حيدر، مؤسّسة الكتب الثّقافية، بيروت، ط ١، عام: ١٤٠٦هـ، ص:(٢٣٧).

(٢) الموازنة (١/٣١٢)، وديوانه (٢/٧٤٠).

ثانياً: شاعريّته

إذا أردنا إن نتحدّث عن نظرة النّقاد إلى شاعريّتِهِ، وجدنا إعجابَ أكثرِهِمْ بشعرِهِ وشاعرِيَّتِهِ واضحاً، وخاصّة الجانبُ الغنِي بموسيقي الشّعرِ.

والبُحتُرِيُّ أمامَ هذا هو الفنّانُ المقدَمُ، ممّا جعل له طريقةً تنسب إليه، بدأت منذ ظهوره مخالفاً بها طريقَةَ بعضِ شعراءِ عصرِهِ، وعلى رأسهِمْ إمامُهُمْ أبو تَمامٍ.

وقد بيَّن الآمديُ أسسَ هذه الطّريقةِ البُحتُريّةِ فقال:

«وليس الشّعرُ عندَ أهلِ العلمِ به إلاّ حسنُ التّأتِي، وقربَ المأخذ واختيارَ الكلامِ، ووضعَ الألفاظِ في مواضعها، وأن يوردَ المعنَى باللّفظ المعتادِ فيه، المستعملِ في مثله، وأن تكون الاستعاراتُ والتّمثيلاتُ لائقةً بما استعيرت له، وغيّر منافرةٍ لمعناه؛ فإنّ الكلامَ لا يكتسي البهاءَ والرّونقَ إلاّ إذا كان بهذا الوصفِ وتلك طريقةُ البُحتُريّ»[(١)].

وتَتَمَيَّزُ طريقةُ البُحتُرِيِّ باعتمادها على الموروثِ، وما انطبَعَ من آثاره في ذهنِ الشّاعرِ، مِمّا يعرف بالفطرةِ أو الطّبع الذين يخالفانِ التّكلّفَ المصنوعَ.

ولقد شهدَ للبُحتُرِيِّ في هذا علماءُ الأدبِ من أمثال: المبردِ الذي كان إذا أَنْشَدَ شعراً للبُحتُرِيِّ قال: «أنشدنا شاعرُ دهره، ونسيجُ وحدهِ؛

(١) الموازنة للآمدِي (٤٢٣/١).

أبو عبادة البُحتُرِيّ»[١].

وكان ابنَ المعتزّ من المعجبَين بشاعريته وقد قال:

«لو لم يكن للبُحتُرِيّ من الشّعر إلاّ قصيدةُ السّينيةُ في وصفِ إيوان كسرى، فليس للعرب سينيةُ مثلُها، وقصيدتُهُ في وصف البركة...

واعتذاراته في قصائده إلى الفتحِ بن خاقانَ التي ليس للعرب بعد اعتذارات النّابغةِ إلى النّعمانِ مثلُها، وقصيدَتُهُ في ابن دِينارٍ التي وصف فيها ما لم يصفه أحد قبلَهُ...، لكان أشعرَ النّاسِ في زمانه، فكيف إذا أضيفَ إلى هذا صفاءُ مدحِهِ، ورقّةُ تشبيهِهِ في قصائده...»[٢].

وقال عنه أبو الفرج الأصبهانِي: «شاعرٌ فاضلٌ، فصيحٌ، حسنُ المذهبِ، نَقِيُّ الكلامِ، مطبوعٌ، كان مشايخُنا –رحمهم الله– يختمون به الشّعراء، وله تصرّفٌ حسنٌ نَقِيٌّ في ضروبِ الشّعرِ سوى الهجاء...»[٣].

وقال القاضي الجرجانِيُّ –في معرضِ حديثِهِ عن الطّبع والصّنعة–: «ومتَى أردت أن تعرفَ ذلك –أي: الطّبع المهذبَ– عياناً، وتستثبتهُ مواجهةً فتعرفَ فرقَ ما بينَ المصنوعِ من المطبوع، وفضلَ ما بين السّمحِ والمنقادِ، والعصِيِّ المستكرِهِ، فاعمدْ إلى شعرِ البُحتُرِيِّ، ودعْ مايُصدِّرُ به

(١) شذرات الذّهب في أخبار مَن ذهب، لابن العماد الحنبلِي، المكتبة التّجارية، بيروت، (١٨٦/٢).

(٢) أخبار البُحتُرِيّ للصّولي (٧٢–٧٣)، وصف البركة بالقصيدة رقم: (٩١٥)، وقصيدته في ابن دينار رقم: (٣٨٧).

(٣) الأغانِي (٣٧/٢١).

الاختيار، ويعدّ في أوّل مراتبِ الجودة، ويتبيّنُ فيه أثرُ الاحتفالِ، وعليك بِما قاله عفوَ خاطرِهِ، وأوّلَ فكرَتِهِ»[١].

وفاته:

تُوُفّي البُحتُرِيُّ في مسقط رأسه منبِج عام: (٢٨٤هـ)، على الأرجح عن عمر يناهز خمسة وثمانين عاماً[٢].

وكان من المنتظر أن يكون لوفاته دوي بين أقاربِهِ ومحبِّيهِ من شعراء عصره وأبدائه، مِمَّن ربطته بهم علاقة واداد، بيد أنّ كتب الأدب لم تحفظ لنا شيئاً من رثائهم له -فيما أعلمُ-، إلاّ ما وجدتُهُ في معجم الأدباء من قصيدة لأبي القاسم جعفر بن محمّد الموصِلي[٣]، لم يذكر لنا ياقوت منها إلاّ ثلاثة أبياتٍ هي[٤]:

---

(١) الوساطة بين المتنبِّي وخصومه، للقاضي الجرجاني، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعليّ محمّد البجاوي (٢٥)، دار القلم، بيروت.

(٢) هناك روايات قالت إنّه توفّي في حلب، وهناك روايات عدّة في سنة وفاته، منهم مَن قال: إنّها عام: (٢٨٣هـ)، ومنهم مَن قال (٢٨٥هـ)، وقيل: حين مات وعمره (٨٣) سنة، وقيل: (٨٤).
انظر: أخبار البُحتُرِيّ (١٩١)، ووفيّات الأعيان، لابن خلّكان (٥/٨١)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي (١٩/٢٥١).

(٣) أبو القاسم: محمّد بن حمدان الموصِليّ، من علماء عصره الأفذاذ، أنداد المبرد، وثعلب، ومن ندمائهما، وله شعر حسن، معجم الأدباء (٧/١٩٢).

(٤) معجم الأدباء (٧/٢٠٣).

تعولتِ البـــدائعُ والقصـــيدُ وأودَى الشّعرُ مذْ أودى الوليدُ
وأظلمَ جانبُ الدّنيا وعادتْ وجوهُ المكرماتِ وهـــنَّ ســـودُ
فقلْ للدّهرِ يَجْهَدُ في الرّزايـــا فلـــيس وراءَ فَجْعَتِـــهِ مَزيـــدُ

آثاره:

للبُحتُرِيّ ديوانه المطبوع بطبعاتٍ مختلفةٍ، من أفضـــلها: طبعـــةُ دارِ المعارفِ، بِتحقيقِ وشرحِ: حسن كامل الصّيرفي، وقد جمعه قديماً أبو بكر الصّولي، ورتّبهُ على حروف المعجم، وعلـــيّ بـــن حمـــزة الأصـــبهانِي الإخباري، ورتّبه على الأنواع، أي: على الأغراض[1].

لم يجد شعر البُحتُرِيّ عنايةً من العلماء وشرحاً كما لقي شعر غيرِهِ، إمّا لسهولةِ ألفاظه وقرب معانيه، وإمّا لغزارته وكثرته، إلاّ أنّ ياقوتاً ذكر أنّه اطّلع على شرحٍ له من تصنيف الأديب الشّاعر محمّد بـــن إســـحاق البحاثِي لم يصل إلينا[2].

كمايعدُّ شرحُ المعرِّيِّ المعروف بـــ: (عبث الوليد) نوعاً من النّقـــد للرّوايات المختلفة والمفاضلة بينها، وإعرابِ ما أُشْكِلَ من أبياتهِ المنتقاة من ديوانه.

هذا من جهةِ العناية بالدّيوان كاملاً.

---

(١) معجم الأدباء (١٩/٢٥١).

(٢) معجم الأدباء (١٨/٢٢)، والأعلام للزّركلي (٦/٢٦).

أمّا أفراد شعره فقد عني بها علماءُ البلاغةِ والأدبِ المتقدِّمون فأكثروا من الاستشهادِ له، ومن هؤلاءِ: أبو هلالٍ العسكريُّ، وعبدُ القاهر الجرجانيُّ، وابنُ سنانٍ الخفاجيُّ،و ابنُ الأثيرِ.

هذا، وللبُحتُريّ تأليفان:

أوّلهما: (الحماسة)، على غرار حماسة أبي تَمام، جمعه من شعر أكثر من ستّمائة شاعر جاهلِي وإسلامِيّ، وهو مطبوع[1].

والثّانِي: معانِي الشّعر لم يصل إلينا فنعرفه.

(١) طبع عام ١٩٢٩م، في المكتبة التّجارية، بتعليق: كمال مصطفى بالقاهرة.

الفصل الثَّانِي: (عصر المُتَنَبِّي وحياته)

- عصر المُتَنَبِّي
  - الحياة السّياسية
  - الحياة الاجتماعية
  - الحياة الثّقافية
- حياة المُتَنَبِّي
  - مولد - نسبه - كنيته - لقبه
  - نشأته وثقافته
  - رحلاته ولقاءاته
  - شخصيّته
  - شعره وشاعريّته

١- عصر المُتَنَبِّي

أوّلاً: الحالة السّياسية

عاش المُتَنَبِّي في النّصف الأوّل من القرن الرّابع، وكانت الحالة السّياسية في هذا العصر مضطربةً لكثرة الفتن والمخالفين على الخليفة، والحديث عن الحالة السّياسية في هذا العصر سيكون في ثلاث نقاطٍ:

أ- الخلفاء:

كانت الخلافة تتأرجح ضعفاً وقوّةً، بسببِ الفتنِ والحروبِ التي يشنّها عليها أعداؤها من كلّ صوبٍ، مِمّا كان سبباً في تصرّفِ الوزراءِ، والأمراءِ في الخلفاءِ، وخلعِ مَن شاؤوا، وتنصيبِ مَن أرادوا، فتعاقب عليها خلال هذه الحقبة ستة خلفاء هم:

المقتدرُ باللهِ(١)، والقاهرُ باللهِ(٢)، والرّاضي

(١) المقتدر بالله هو: أبو الفضل جعفر بن المعتضد بويع سنة: (٢٩٥هـ)، وقتل سنة: (٣٢٠هـ).

انظر: الكامل لابن الأثير (١١٩/٦، و١٢٢، و٢١٨، و٢٢٢).

(٢) القاهر بالله، وهو: أبو منصور محمّد بن المعتضد، بويع بعد قتل أخيه سنة: (٣٢٠هـ)، ثم خلع سنة: (٣٢٢هـ).

انظر: الكامل لابن الأثير (٢٢٢/٦)، والفخري في الآداب السّلطانية (٢٢٣)، لمحمّد بن عليّ المعروف بابن الطقطقي، نشر مكتبة محمّد عليّ صبحي القاهرة ١٣٨٤هـ.

بالله[١]، والمتّقي لله[٢]، والمستكفي بالله[٣]، والمطيع لله[٤].

ب- الإمارات:

كثر الذين استهانوا بأمر الخلافة لَمّا ضعف الخلفاءُ عن تصريفِ أمور البلادِ الإسلاميّةِ، ولكن أشهر ما تكوَّن مِن إماراتٍ في هذا العصر خمسُ إمارتٍ هي:

الحمدانيّون، والبويهيّون، والإخشيديّون، والفاطميّون، والسّامانيّون.

---

(١) الرّاضي بالله هو أبو العبّاس محمّد بن المتقدر، بويع بعد خلع عمّه القاهر سنة: (٣٢٢هـ).

انظر: الكامل لابن الأثير (٦/٢٣٧)، والفخري (٢٢٦).

(٢) المتّقي لله، وهو: أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، بويع بعد وفاة أخيه سنة: (٣٢٩هـ)، وخلع سنة: (٣٣٣هـ).

انظر: التّكملة (ذيول الطّبري) (١/٣٤١، و٣٤٧)، والفخري (٣٤٧)، والكامل لابن الأثير (٦/٣٠١).

(٣) المستكفي بالله، هو: أبو القاسم بن المتكفي بن المعتضد، بويع له سنة: (٣٣٣هـ)، وخلع سنة: (٣٣٤هـ).

انظر: ابن الأثير (٦/٣٠١، و٣١٤)، والتّكملة (٣٥٤)، والفخري ()٢٣١، و٢٣٢).

(٤) المنطيع لله، هو: أبو القاسم الفضل بن المقتدر، بويع له سنة: (٣٣٤هـ)، وخلع نفسه، لمرضٍ أصابه سنة: (٣٦٣هـ).

انظر: ابن الأثير (٦/٣١٥)، والفخري (٢٣٢).

أمّا الحمدانيّون:

فينسبون إلى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب العربية الأصيلة التِي كانت بضواحِي مدينة الموصل، وكان أوّل ظهورهم بتحالف حمدان بن حمدون مع هارون الشّاريِّ الخارجِيِّ سنة: (٢٧٢هـ)، فحاربه الخليفة المعتضد سنة: (٢٨١هـ)، واستولى على قلعة ماردين، ثم انقلب ابنه الحسين بن حمدان على الشّاّرِي فحاربه إلى أن هزمه، فخلع عليه المعتضد، ومنذ ذلك الوقت بدأت شهرة الحمدانّيينَ مستقلّينَ بإمارة الموصلِ وحلبٍ وجزءٍ كبيرٍ من الشّامِ،والثّغورِ عن الخلافة، يناوشونها العداء أحياناً، خاصّة بعد استيلاء البويهيّون على مقاليدِ الحكمِ بالعراق(١).

وأمّا البويهيّون:

فكان أوّلَهم عمادُ الدّولةِ؛ حيثُ تَوَلّى الكَرْجَ، ولاّه إيّاه مرداويجُ الدَّيلمَيُّ، ثم تنقلَ منها إلى غيرها، حتّى تملّك قطعةً من أعمالِ فارس، ثم عَرُضَتْ مملكتُهُ حتّى كتبَ إلى الخليفةِ الرّاضي بالله، يسأُلُهُ أن يقاطعه على أعمال فارسَ بما يحمله إلى دار الخلافة من مالٍ، فبعث إليه الخليفة بكلّ ما

(١) انظر: ابن الأثير (٥٩/٦، و٦٠، و٧٧-٧٨، و٨١، و١٠٨، و١٢١، و٢٢٢، و١٥٠-١٥١)، وحاشيته (١٦٢)، والنّجوم الزّاهرة فيمَن ولي مصر والقاهرة (١٩٤/٣-١٩٥)، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن (١١٥/٣-١١٧)، طبعة مكتبة النّهضة المصرية السّابعة ١٩٦٤م، القاهرة.

أراد فكان هذا هو أوّل أمرهم[١]، وذلك سنة: (٣٢٢هــ).

وفي سنة: (٣٣٤هــ)، استولَى معزّ الدّولة على بغداد، فصار إليهم جزءٌ كبيرٌ من العراق وفارسَ[٢].

وأمّا الإخشيديّون:

فإنّهم ينسبون إلى محمّد بن طُغْجٍ بن جُفٌ من أولادِ ملوكِ فرغانَــةَ، وقد تقلّب في خدمةِ الخلافَةِ، وإماراتها، فكان في خدمةِ أمراءِ مصر من آل بسْطَامٍ، الذين ولّوا مصر في العقدِ الأخيرِ من القرن الثّالث.

وكان أيضاً في قيادة (تكين) الذي حاربَ الفاطميّينَ فــأبلى بــلاءً حسناً، ثم ولي إمرة عمانَ وجبل الشّراة، وفي هذه الأثناء زاد أمير المؤمنين الرّاضي بالله لقب (الإخشيد) في اسمه، ولِمَا أبلاه في حروبِهِ مع الفاطميّين ما بين عام (٣٢١هــ إلى ٣٢٤هــ)، وولي مصر في عهد القــاهر، فلــم يدخلها سنة: (٣٢١هــ)، ثم ردّ إليها مرّةً أخرى عام: (٣٢٣هــــ)، ثم سار إلى الشّام فضمّ دمشق إليه سنة: (٣٣٠هــ)، ثم عاد إلى مصر، وفي هذه الأثناء أقرّ على أعماله مِمّن ولي الخلافة هو وأبنــاؤه إلى أن دخــل الفاطميّون مصر عام: (٣٥٧هــ)[٣].

---

(١) انظر في ابتداء دولتهم: ابن الأثير (٦/٢٣٠)، وما بعدها.

(٢) ابن الأثير (٦/٣١٤)، والتّكملة (٣٥٣).

(٣) النّجــوم الزّاهــرة (٣/٢٥٢-٢٥٦، و٣/٢٩١، و٢٩٣، و٣٢٦، و٤/٩، و٤/٢٢)، وابن الأثير (٦/٢٥٦).

وأمّا الفاطميّون:

فكان ابتداء دولتهم حين ظهر أوّل أمرائهم والمسمَّى بالمهـدِيِّ، في المغربِ سنة: (٢٩٦هـ)، حين أَعلن أَمْرُهُ، وسُلِمَ عليه بها بالخلافة، وقويتْ شوكَتُهُ وعَظُمَ حَالُهُ، ثم بنَى مدينةَ المهديةِ في القيروانِ، وملكَ أفريقيةَ وبلادَ المغربِ، وجرتْ في عهدِهِ حروبٌ مع الإخشيدِ حاكمِ مصرَ، ثم توفِّي سنة: (٣٢٢هـ)، فتولَّى بعده ابنُهُ القائمُ بالله أبو القاسم، وهو الذي دخلَ مصر سنة: (٣٥٨هـ)، وكان على أيديهم انقراض دولة الإخشيديّين، ثم استولوا على الشّام سنة: (٣٦٥هـ)[1].

وأمّا السّامانيّون:

فهم سُكَّانُ بلادِ ما وراء النّهر من أصولِ فارسيّةٍ عريقة، وكان بدايةُ ظهورهم في عهدِ المأمون، فرفع من شأنِهِمْ، وأقرَّهُمْ الخلفاءُ على ما بأيديهم، وكانت العلاقة بينهم وبين العبّاسيّين قائمةً على المودّة، ومن أشهر أمرائهم في هذا العصر: نصرُ بن أحمد السّامانِيُّ، وابنُهُ نوحُ بن نصرٍ[2].

---

(١) انظر: الأثير (١٢٤/٦)، وما بعدها، والفخري (٢١٢/٢١١)، والنّجوم الزّاهرة (١١٢/٤)، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن (٢٧/٤).

(٢) ابن الأثير (١١٧/٦، و١٤٤، و٢٩٢، و٣٤٦)، وتاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن (٧٣/٣-٧٥).

جـ- الحروب:

كثرت الفِتَنُ والحروبُ في هذا العصر، لضعفِ سلطةِ الخلافةِ، وتمكّنِ المخالفينَ وقوّةُ شوكَتِهِمْ، إضافةً إلى قوّةِ لإفرنجٍ وإغاراتهم على البلادِ الإسلاميةِ، وعلى هذا؛ فقد كانت مناك حروبٌ داخليةٌ وأخرى خارجيةٌ.

١- الحروب الدّاخلية

أمّا الحروبُ الدّاخليةُ؛ فإنّها كانت بين الخلافةِ والخارجينَ عليها من أمثال: القرامِطَةِ الذين خرجوا في ريفِ العراقِ، فقوي أمرُهُم بـه، وقد دخلوا البصرةَ والكوفةَ مراراً، فأخافوا النّاس وقطعوا السّبل[١].

والحمدانيّينَ كان أوَّلُ حروبِهِمْ في هذا العصر حين خرجَ أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان على الخليفة المتقدر بالموصلِ سنة: (٣٠١هـ).

وحَصَلَت بعضُ المناوشاتِ بينهم بعد سنة: (٣٠٣هـ) إلى سنةِ (٣٠٨هـ)، وبعدَها صَلُحَ حالُهُمْ مع الخلافةِ و لم يقعْ بينهم وبينَ الخلافة حروبٌ إلاّ ما كان بينهم وبين البويهيّينَ بعد استيلائهم على الخليفة ببغداد[٢].

ومرداويجُ الذي تغلّب على بلادِ الجبلِ وما جاورها فَكَثُرَ جُنـدُهُ، وبعدَ حروبٍ عديدةٍ اصطلَح هو والمقتدرُ على أن يدفعَ للخلافةِ شيئاً من

(١) انظر: ابن الأثير (٦/٩٢، و٩٤، و١٠٠، و١٠٤، و١٠٨، و١١٥، و١١٦، و١٧٥، و١٧٧، و٦/١٨٣، و١٨٦-١٨٩، و٢٠٣، و٢٤٩، و٣٦٨).

(٢) صلة تاريخ الطّبري (٤٤، و٥٥-٥٦، و٧١)، وتاريخ ابن الأثير (٦/١٦٦، و٢٤٩).

المالِ كلّ سنة[١].

والفاطميّينَ حين بعثَ المهديُّ بالله جيشاً كثيفاً إلى مصر فدخلوا الإسكندية، فأنهض المقتدرُ إليهم مُؤنِساً، ثم حدثت عدةُ مناوشاتٍ بينهم وبين الإخشيديّين فيما بعد، بعد إمرهم مصر وبعضَ الشّامِ[٢].

وابن أبي السّاجِ الذي استولَى على الرِّيِّ، وكان قبلها أميراً على أذربيجانَ وأرمينيةَ سنة: (٣٠٤هـ)، فتولَّى مؤنسٌ المظفرُ محارَبَتَهُ، ثم عفي عنه سنة: (٣١٠هـ)، وولي الرَّي وقزوينَ وما جاورها[٣].

والبَرِيْدِيِّ الذي كان أوّل أَمره كاتباً لياقوتٍ أحد أمراءِ الدّولةِ ومواليها، فدبّر خطّةً لقتلِه، فَتَمَّ له الاستيلاءَ على ما بِيَدِه، فصَالَحَ الخليفةَ على مالٍ يدفعه إليهِمْ، وذلك سنة: (٣٢٢هـ)، فلَمّا منعَ حملَ المالِ حاربَهُ الرَّضِي بالله، وحصلت بعدها عدّةُ مناوشاتٍ بينه وبينَ الخلافةِ إلى أن أضمحل أمرُهُ ومات سنة: (٣٣٣هـ)[٤].

وإلى جانب حروبِ الخلفاءِ مع غيرِهِم، فقد كانت هناك حروبٌ داخليةٌ بين الدّويلاتِ، ومن أشهرها: الحروبُ التِي قامت بينَ البويهيّين والحمدانيينَ بعد استيلاءِ البويهيّينَ على بغداد

---

(١) ابن الأثير (١٥٥-١٥٦، و١٧١).

(٢) صلة الطّبري (٥١-٥٢)، وابن الأثير (١٤٧/٦، و١٦١، و٢٣٨).

(٣) ابن الأثير (١٥٥/٦-١٥٦، و١٧١).

(٤) المرجع السّابق (٢٤٧/٦-٢٥١-٢٥٤، و٢٥٧-٢٦١، و٢٧٩، و٢٨٣، و٢٨٥، و٢٩٦، و٣١١).

سنة: (٣٣٤هـ)[١].

وبين البويهيّينَ والسّامانيّين سنة: (٣٣٩هـ، و٣٤٢، و٣٤٣، و٣٥٥هـ)[٢].

وبين الحمدانيّين والإخشيديّين سنة: (٣٣٤هـ)[٣].

٢- الحروبُ الخارجيةُ

بدأت هجمات الفرنجةِ تشتدُّ في هذا القرنِ فلم يَمُرَّ عامٌ أو بضعةُ أعوامٍ إلاّ ولَهُمْ فيه عدّةُ هجماتٍ قويّةٍ على الثّغورِ الجَزَرِيَّة[٤]، أو الثّغورِ الشّامِيَّة[٥]، ساعد على ذلك كثرةُ الخلافاتِ، واستيلاءُ الرّوافضِ أو مَن فيهم ميل إليهم على البلادِ، فالبويهيّونَ في فارسَ ثم في العراقِ، والحمدانيّون في الشّامِ، والفاطميّون في المغرب، ثم في مصر.

قال ابن كثير في حديثه عن البويهيّين والحمدانيّين وميلهم إلى الرّفض: «لا جرمَ أنّ الله لا ينصرُ أمثالَ هؤلاءِ بل يُديلَ عليهم أعداءَهم لمتابعتهم أهواءهم، وتقليدهم ساداتهم وكبراءهم، وتركِهِمْ أنبياءهم

(١) ابن الأثير(٦/٣١٦-٣١٧،و٣٢٦،و٣٢٩،و٧/٩،و١٠،و٥١،و٩٢).

(٢) المرجع السّابق (٦/٣٣٥-٣٣٦، و٣٤٤، و٣٤٦، و٣٤٨، و٧/١٨-١٩).

(٣) النّجوم الزّاهرة (٣/٢٥٥-٢٥٦، و٢٩١، و٢٩٢).

(٤) تبدأ من الإسكندرية إلى مرعش، ومن أشهر مدنها: بياس، والمصيصة، وعين زربة، وأذنة، وطرسوس، والجوزات، وأولاس، والكنيسة السّوداء، والهارونية.

(٥) من أشهر مدنِها: مرعش، وأنطاكية، وبغراس.

معجم البلدان مادة ثغر (٢/٧٩).

وعلماءهم، ولهذا لَمّا ملك الفاطميّونَ بلادَ مصرٍ والشّامِ وكان فيهم الرّفض وغيرُه، استحوذ الإفرنجُ على سواحلِ الشّامِ وبلادِ الشّامِ كلّها، حتّى بيتِ المقدسِ، ولم يبقَ مع المسلمين سوى حلبٍ وحمصٍ وحماةٍ ودمشقَ وبعضِ أعمالِهَا، وجميعِ السَّوَاحِل وغيرِها مع الفرنج، والنّواقيسُ النّصرنيّةُ والطّقوسُ الإنجيليةُ تضربُ في شواهقِ الحصون والقلاعِ وأهل هذه البلادِ التي في يدِ المسلمينَ في خوفٍ شديدٍ في ليلِهِمْ ونهارِهِمْ من الفرنج؛ فإنّا لله وإنا إليه راجعون»[1].

ومقابلُ ذلك ضعفت هجماتُ المسلمينَ وقلّتْ غزواتُهُمْ لبلادِ الرّومِ خلالَ هذا القرنِ، وقلّتِ الصّائفاتُ، وإن حصلتْ هَجَمَةٌ أو غزوةٌ للمسلمين على بلادِ الرّومِ، هاجَمَهُمْ الرّومُ بعدها، وقد يدركونَهُمْ قبلَ دخولِهِمْ فيهلكوهم أو يثأرون ببلدان أُخَرَ.

ففي عامِ (٣٠٣هـ)، كان للرّومِ عدَّةُ هجماتٍ على الثّغورِ الجَزَرِيَّة وطَرَسُوسَ ومرعشٍ، فأكثروا القتلَ والأسرَ وليس للمسلمين صائفةٌ، والجندُ مشتغلون بِحروب الخوارج[2].

وفي عام: (٣٠٤هـ)، سار مؤنِسٌ لغزوِ الصّائفة، فافتتحَ صوناً كثيرةً، فأكرمه الخليفة[3].

---

(١) البداية والنّهاية لابن كثير (٢٤١/١١).

(٢) ابن الأثير (١٥٣/٦).

(٣) المرجع نفسه (١٥٧/٦).

وفي عــام: (٣٠٥هــ)، حصل فــداء بــين المســلمين والــرّوم ومهادنَةٌ[١].

وفي عام: (٣٠٦هــ)، غزا بشرٌ الأفشيني بلادَ الرّومِ، فافتتح عــدّةَ حصونٍ، وغَنِمَ وسبيَ.

كما غزا ثِمَالٌ في بحرِ الرّوم فغَنِمَ وسَبِيَ وعادَ، كما دخل جنِّــيٌّ الصّفوانيُّ بلادَ الرّوم فنهب وخرب وفتح وعاد[٢].

وفي سنة: (٣١٠هــ) غزا المسلمونَ البرَ والبحرَ فغنموا وســلموا، كما غزا محمَّدٌ بن نصرٍ الحاجبُ بأهلِ الموصلِ قاليقلا فدخلواها، كما أهل طَرَسُوسَ مَلَطِيَّةً فظفروا ثم عادوا[٣].

و في سنة: (٣١١هــ) غزا مؤنس المظفر بلاد الروم، فغنم و ســبى وفتح حصوناً.

كما غزا ثمالٌ-أيضاً- في البحر،فغنم و سبى شيئاً كثيراً.

وفي سنة: (٣١٣هــ) دخل الرّوم مَلَطِيَّةَ[٤]، ثم أعادوا عليها الكرّة عام: (٣١٤هــ)، فخرجوا سورها وأقاموا فيها ستة عشر يوماً[٥].

وفي سنة: (٣١٥هــ)، دخل الــرّوم شِمِيْشَــاطَ وأقــاموا فيهــا

(١) المرجع نفسه (١٥٨/٦)، والصّلة (٦٢).

(٢) ابن الأثير (١٦١/٦).

(٣) المرجع نفسه (١٧٣/٦).

(٤) التّكملة (٢٤٨).

(٥) ابن الأثير (١٨٥/٦)، والتّكملة (٢٤٩).

صلواتِهِم[١]، ودخلوا دَبِيلَ لكن أهل البلد صبروا لهم فأخرجوهم منـــها، وأكثروا القتل فيهم.

وفيها عاد ثِمَالٌ إلى طرسوس من الصّائفة فلقي جمعاً مـــن الـــرّوم فاقتتلوا فانتصر عليهم وغنموا كثيراً من الأموال[٢].

وفي سنة: (٣١٦هـــ) غزا الدُّستقُ أرمينيةَ وحاصرها وأخاف مـــا حولها[٣].

ومن عام: (٣١٧هـــ)، بدأت هجماتُ الرّومِ تشتدّ وكثر إيقاعهم بالمسلمين واستيلاؤهم على كثيرٍ من القلاعِ والحصونِ، فضعفت الثّغـــورَ الجزرية عن دفعهم، منها ملطيةٌ وميّافـــارقين وآمـــد، وأرزن، وغيرهـــا واستنجدوا بالخليفة فلم ينجدوا[٤].

وفيها التقى مفلحٌ السّاجِيُّ بالدّمستق، فهزمه مفلح ودخـــل وراءه بلاد الرّوم[٥].

وفي سنة: (٣١٩هـــ) غزا ثَمال والي طرسوس بلاد الرّوم في ربيـــع الأوّل فغنم وسبِي وقتل ثم رجع، ثم عاد إليها في رجب فبلغوا عمرويـــة فدخلوها وأوغلوا فيها فغنموا كثيراً ثم عادوا، فلحقهم الـــرّوم، فخريـــوا

---

(١) التّكملة (٢٥١).

(٢) ابن الأثير (١٨٩/٦).

(٣) المرجع نفسه (١٩٨/٦-١٩٩).

(٤) المرجع نفسه (٢٠٦/٦).

(٥) المرجع نفسه (٢٠٧/٦).

كثيراً من الدّيار فسار إليهم مفلح-غلام يوسف بن أبي السّاج- فأخذ بثأرهم[١].

وفيها سارت عساكر من الرّوم إلى شُمَيشَاط، فهب لنجدة أهلها سعيدَ بن حمدانٍ فهربوا ثم غزا بلادَ الرّوم بعدها[٢].

وفي سنة: (٣٢٢هـ)، سار الدّمستق في خمسين ألفاً من الرّوم فنَزل ملطية وحصرها ثم ملكها وملك شُميشاط[٣].

وفي سنة: (٣٢٦هـ)، حصل فداء بين المسلمين والرّوم على نهر البدندون فَفُدِيَ من المسلمينَ ستةُ آلافٍ وثلاثمائة[٤].

وفي سنة: (٣٣٠هـ)، دخل الرّوم إلى قريب حلبٍ، ونهبوا وخربوا وسبوا نحو خمسة عشر ألف إنسان.

وفيها دخل الثِّمْلِيُّ من ناحية طرسوس إلى بلاد الرّوم فقتل وسبِي ثم عاد[٥].

وفي سنة: (٣٣٢هـ)، هاجَم الرُّوسُ مدينةَ بَرْدَعَةَ فلم يثبت لهم المسلمين فاستولوا عليها ولكن كثرة قتال أهل البلد لهم جعل الرّوس يقتلون أكثرهم ويأسرون بعضهم ويسبون من أراداو، فقاتلتهم الجيوش

---

(١) ابن الأثير (٦/٢١٦-٢١٧).

(٢) المرجع و الصفحة نفسها .

(٣) المرجع نفسه (٦/٢٤٣).

(٤) المرجع نفسه (٦/٢٦٨).

(٥) المرجع نفسه (٦/٢٨٨).

بقيادة المرزبانِ وبعد قتالٍ مريرٍ، استطاعوا الانتصار عليهم، ثم حاصرهم في المدينةِ إلى أن هرب بعضهم منها مع، ما أصابهم من الأمراضِ والأوبئـــةِ، فأراح الله منهم[١].

وفيها دخل الرّومُ رأسَ العينِ فنهبوا وســبوا، فقاتلــهم الأعــرب ففارقوها[٢].

وفي سنة: (٣٣٥هــ)، كان الفداءُ بالثّغور بّين المسلملينَ والــرّومِ على يد نصر الثّملِي أميرِ الثّغورِ لسيف الدّولة[٣].

وفي سنة: (٣٣٩هــ)، غزا سيفُ الدّولةِ بلادَ الــرّومِ بــإذن مِــن الخليفة، فغزا وغنم وأوغل وفتح حصوناً كثيرةً؛ فلمّا أراد العودَ أخذ الرّومُ عليهم المضايق، فهلك مَن كان معه من المسلمين أسراً وقــتلاً، واســتردَّ الرّومُ ما أخذ منهم[٤]، وقد سجل المُتَنَبِّي هذه الغزوة بقوله[٥]:

قل للدّمستق إنّ المسملين لكم   خانوا الأمير فجازاهم بِما صنعوا

(١) المرجع نفسه (٦/٢٩٧-٢٩٨).

(٢) ابن الأثير (٦/٢٩٩-٣٠٠).

(٣) ابن الأثير (٦/٣٢٤).

(٤) ابن الأثير (٦/٣٣٤)، والتّكملة (٣٧٢).

(٥) ديوانه (٢/٣٣٨)، من قصيدةٍ مطلعها:

غيري بأكثر هذا النّـــاس ينخـــدع   إن قاتلوا جنبوا أو حدثوا شجعوا

كما غزا أهل طرسوس في البرّ والبحر(١).

وفي سنة: (٣٤٠هـ)، حاربَ أهلُ صقليةَ -وهم خاضعون للفاطميّين- الرّومَ وحاصروا مدنَهم وقلاعهم، فاستغاث الرّومُ بملك القسطنطينيّة، لكن المسلمين كسروهم فصالَحَهم الرّومُ على أموالٍ يدفعونها إليهم(٢).

وفي سنة: (٣٤١هـ)، غزا الرّوم مدينةَ سروجٍ، وسبوا أهلها وغنموا أموالَهم وخربوا مساجدَها(٣).

وفي السّنة نفسها بنَى سيفُ الدّولةِ قلعةَ مرعشٍ فقال أبو الطّيب يمدحه(٤):

فديناكَ من ربعٍ وإن زدتنا كَرْبَاَ   فإنّكَ كنتَ الشّرقَ للشّمسِ والغَرْبا

وفي سنة: (٣٤٣هـ)، غزا سيفُ الدّولةِ بلادَ الرّومِ فقتل وأسر وسبِي وغَنِمَ، وقَتَلَ ابنَ الدّمستق، ثم جمع الدّمستقُ عساكِرَهُ فعادَ، فالتقوا عند الحدثِ، فنصر الله المسلمينَ وأسر صهرَ الدّمستق وابن ابنته وكثيراً من بطارقته وعاد منهزماً(٥).

---

(١) حاشية الكامل لابن الأثير، رقم (١) في (٣٣٤/٦)، نقلاً عن تاريخ الإسلام للذّهبي.

(٢) ابن الأثير (٣٣٩/٦).

(٣) ابن الأثير (٣٤٢/٦).

(٤) التّكملة (٣٧٥)، وديوانه (١٨٢/١).

(٥) ابن الأثير (٣٤٦/٦-٣٤٧).

=

وفي سنة: (٣٤٥هـ) غزا سيفُ الدّولةِ بلادَ الرّومِ حتّى وصل خرشنةَ وصارِخَةَ، وفتح عدّةَ حصونٍ وسَبِيَ وأسر وأحرقَ، فلمّا عاد خَلَفَهُ الرّوم على ميافارقنَ فأحدثوا بها[1].

وفيها سار الرّومُ بالبحر فأوقعوا بأهل طَرَسُوْسَ، فقتلوا وأسروا وأحرقوا القرى حولها[2].

وفيها سار الحسنُ بن عليٍّ صاحِبُ صِقِلّيَةِ إلى بلادِ الرّوم[3].

وفي سنة: (٣٤٨هـ)، غزتِ الرُّومُ بلادَ طرسُوسَ، والرُّها، فقتلوا وسبوا وعادوا غانمين[4].

وفي التّكملة: أنّ لقاء الأوّل كان في سنة: (٣٤٢هـ)، و لم يقتل فيه ابن الدّمستق وإنّما أسره، وذكر أنّ المُتَنَبِّي قال في تسجيل هذه الحادثة قصيدَتَهُ التي مطلعها:

ليالي بعد الظّاعنين شكول — طوال ليل العاشقين طويل

ثم سجل اللّقاء الثّاني في حوادث سنة: (٣٤٣هـ)، وذكر أنّ المُتَنَبِّي سجل ذلك بصيدته التي مطلعُهَا:

ذى المعالِي فليعلون من تعالَى — هكذا وإلاّ فلا لا

انظر: التّكملة (٣٧٦، و٣٧٨)، والقصيدة الأولى في ديوانه (٣/٢١٧)، والثّانية فيه: (٣/٢٥٤)، وذكر شارح الدّيوان أنّها سنة: (٣٤٤هـ).

(١) ابن الأثير (٦/٣٥١).

(٢) المرجع و الصفحة نفسها.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) المرجع السّابق (٦/٣٥٦).

وفي سنة: (٣٤٩هــ) غزا سيفُ الدّولةِ بلادَ الرّوم فغنم وفـــتح، ثم أخذ عليه الرّومُ المضايقَ فاستردّوا ما كان معه، وقتلوا أكثـــر أصـــحابه وأسروا عدداً منهم وتخلّص هو في ثلاثمائة رجلٍ(١).

ولي سنة: (٣٥٠هــ)، أوقع الرّومُ بِقَفْلٍ من أهلِ أنطاكية فأخـــذوا من كان فيه من المسلمين وقتلوا أكثرهم.

وفي رمضان دخل نجا غلامُ سيفِ الدّولةِ بلادَ الرّوم غازياً فغنم وأسر وسَبِي ورجع سالِماً(٢).

وفي سنة: (٣٥١هــ) دخل الرّومُ عين زربِيٍّ وفتحوا حولها أربعـــةً وخمسين حصناً، وأسروا كثيراً من الرّجال وسبوا كـــثيراً مـــن النِّســـاء والصّبيان، ثم عدلوا إلى مدينة حلبٍ فخرّبوها، فالهزم سيفُ الدّولةِ وظفر الدّمستق بداره فغنم أمواله وخرب البلد وقتل أهلها وأسر كـــثيراً منـــهم وسبي النّساء والأطفال، وكان من جملة مَن أسر في هذه الحـــروب: أبـــو فراسٍ فكانت خسارةٌ عظيمةٌ(٣).

---

(١) المرجع السّابق (٦/٣٥٨)، والتّكملة (٣٩١).

(٢) ابن الأثير (٦/٣٦٠).

(٣) ابن الأثير (٧/٢، ٣)، والتّكملة (٢٩٣، و٢٩٤)، والبداية والنّهاية ابن كثير (١١/٢٣٩).

وفي سنة: (٣٥٣هـ)، غزا أهلُ طرسوسَ بلادَ الرّوم، ودخلها أيضاً نجا غلامُ سيفِ الدّولة، ولم يذهب سيف الدّولة معه لمرضه[1].

وإلى هنا ضعف شأنُ سيفِ الدّولةِ بعد غزاتٍ كثيرةٍ وبداية قوّة الرّوم واستيلائهم على أكثر الشّامِ في عهد الفاطميّين كما أسلفنا.

(١) ابن الأثير (٧/٧)، والتّكملة (٣٩٧)، وفيها: أنّ سيفَ الدّولة غزا بنفسه وغنم.

ثانياً: الحياة الاجتماعية

ملامح الحياة الاجتماعية: أجناس الشّعب، وطبقاتهم، الحياة العامّة.

أمّا أجناس الشعب؛ فتتكوّن من:

١- العرب:

وقد قوِي نفوذهم -في هذا العصر- لسببين:

أوّلهما: ضعف سلطة الخلافة عن السّيطرة على البلاد، لكثرة الفتن والاضطرابات.

وثانيهما: كثرَتُهُم وقوّتُهُم واجتماعُهم وعصبيّتُهُم على أمرائهم.

وكانت قوّتهم ظاهرةً في الشّامِ حيث بقائلَ تغلبٍ وربيعةٍ وكلبٍ وبنِي النَّفِيسِ.

وكانت العصبيَّةُ تجمعهم حيناً على قتال الأتراك، وغيرهم من الأجناس وتفرّقهم القبليةُ فيقتتلون فيما بينهم.

وأقوى قبيلةٍ عربيةٍ ظهرت في هذا العصر -بنو تغلبٍ، وأمراؤهم بنو حمدان، وإليهم السّيطرة على الموصل وميّافارقين، وبعض الشّام، منذ أن خالف الحسين بن حمدان على الخلافة سنة: (٣٠٣هـ)، واجتمعت إليه ثلاثون ألفاً من العرب(١).

(١) الكامل لابن الأثير (١٥٠/٦)، وتكملة الطّبري (٢٠٨).

٢- التّرك:

بدأ هذا العصر، والسّيطرة بيد الأتراك -كسابقه وهم قِوَامُ جندِ الخلافة، وإليهم مقاليدُ الحكمِ، يولّون مَن يشاؤون، ويخلعون مَن يريدون، ومن أشهر قوادِهِمْ مؤنِسٌ المظفرُ الذي تسبّب في مقتلِ الخليفةِ المقتدر، هو وجنده عام: (٣٢٠هـ)، وانتهت صولَتُهم بتولّي الدّيلمِ الأمورَ دونَهُم حين دخول البويهيّينَ بغدادَ سنة: (٣٣٤هـ)[١].

٣- الفرس:

بدأ ظهور الفرس في هذا العصر، مُمَثّلين في ظهور إماراتهم التي استقلّت عن الخلافة مثل: إمارات السّامانيّينَ، والبويهيّينَ، ووالبريديّين، ومرداويجَ، وأخيه وشكمير، وغالبيةُ جندِها من الفرسِ الدّيلميّين، فقوي أَمْرُهُم، وضايقوا سائرَ الجندِ، حتّى إنّه كانت تقع بينهم وبين الجند الآخرين مذابحُ، كما وقع لهم مع الأتراك لاحتقارهم إيّاهم، مِمّا كان وراء تدبيرهم قتل مرداويج سنة: (٣٢٣هـ).

ويَتميّز نفوذ كثيرٍ من الفرس بالعداء الشّديد للعرب، وعدم خضوعِهِم لِتَعاليم الإسلام، وحبِّ الزّعامة والاستقلالية، وانتحال المذاهبِ الهدّامةِ؛ كالحلوليةِ والرّفضِ الذي كان دين أكثرهم، كالبويهيّين، الذين استلوا على أكثر فارس والعراق فيما بعد[٢].

(١) الكامل لابن الأثير (٦/٢٢٠-٢٢١)، وانظر أشهر أحداثهم في الخلافة في: المرجع السّابق (٦/٢٢٩، و٢٥٤، و٢٦٦، و٢٩١، و٣١٣، و٣١٤).

(٢) المرجع السّابق (٦/٢٤٤-٢٤٦).

ويُستثْنَى من ذلك السّامانيّون لِما أُثُرَ عنهم من التّديّين وحبٍّ الخير والصّلاح.

٤- الزّنج والبربرُ أو الأفارقة:

لم يكن للزّنج أو البربر دور في الخلافة، وإنّما كانوا جنداً في مصر والمغرب، وأكثر الزّنج في جندِ الإخيشيّين، وأكثر البربرِ في جندِ الفاطميّين، وليس لهم أيّ أثرٍ على السّياسة، وقد كان قلّة منهم جنداً في دار الخلافة، وقد أحدثوا حدثاً عام (٣١٨هـ)، فأوقع بهم مؤنسٌ فلم تقم لهم قائمةٌ بعدها[1].

وبقيّتُهُمُ عبيدٌ في دورِ النّاس ومزارعهم في أرجاء البلاد الإسلامية.

أمّا طبقات الشّعب فتتكوّن من:

١- الطّبقة الخاصّة:

وهم: الخلفاءُ والوزراءُ والأمراءُ، وكبارُ القادة، وبيدهم مصادرُ الأموال، وفي خزائنهم تصبُّ الجباياتُ التِي تصل من سائرِ الولايات.

---

(١) الكامل لابن الأثير (٦/٢٠٨).

٢- طبقة الوسطى:

وهي طبقة صغارِ القادة وعامّة الجند؛ إذ يصل إليهم المال مِمّا يدفع كرواتبَ جزاءً لخدمتهم، وتفانيهم في الحروب، وكثيراً ما تضيق عليهم الأمور، وتقلّ في أيديهم النّفقات؛ فيطالبون بأرزاقهم، ويثورون من أجلها، ويَشْغَبُونَ على القائمين على الأمور بسببها، وكثيراً ما تَسبّب شغبُهُم بإقالةِ الوزراء، وقتل القادة أو خلع الخليفة[١].

ومن هذه الطّبعة -أيضاً- صغار التّجّار مِن بَزّازين وأساكفةٍ وباعة طعامٍ وغيرهم مِمَّن لم تكن متاجرُهم تَدِرُّ عليهم إلاّ قليلاً من المال.

٣- طبقة العامّة:

وهم: فقراء المدن، وأهل الأرياف والبوادي، ويمثّلون السّواد الأعظم من الأمّة الإسلاميّة، وسبب غلبة الفقر والفاقةِ عليهم هو قلّة الموارد في أيديهم، لاستِنْزَاف الحروب لها ولإرهاق الولاةِ لهم بالضّرائبِ والجبايات؛ لأنّه كلّما استولى على البلد والٍ جنَى خراجه، وتشدّد في طلبه، وأرهق النّاس بسبب ذلك، كما قد تُنْهَبُ أموالُهُم عند حدوث الفتن[٢].

وأمّا الحياة العامّة:

فقد لا تختلف مشاكلُها عمّا كانت عليه من قبل في القرن الثّالث، وهي وإن لم تزد سوءً فإنّها لم تتحسّن، ومن أهم المشاكل ما يلي:

---

(١) المرجع السّابق (٦/٢٠٨، و٢١١).

(٢) الكامل لابن الأثير (٦/٢٨٤).

١- الترف:

وسبق عرض أسبابه وأهمّها: فساد النّظام الإداري، وتسلّط الوزراء والكتّاب والأمراء واستيلاؤهم على خزائن الدّولة، فيعيثونَ بها ويتصرّفونَ كما يريدون، وكذا لهو الخلفاء أنفسِهِم، وعبثُهُم في خزائن الدّولةِ، وتمكينُ خاصّتهم منها لضعف سياستهم(١).

ومن أسباب التّرف أيضاً استلالُ أمراءِ الأطرافِ بلاياتِهِمْ، مِمّا كدّس الأموالَ لديهمْ، فكان سبباً في طمع بعضهم في بعضٍ(٢).

ومظاهر هذا التّرف تتمثّل في كثرة النّفقاتِ والإسرافِ في أنواعِ الأطعمة والولائمِ والإكثار من الخدمِ والجواري(٣).

ومن مظاهر -أيضاً- كثرةُ مجالسِ الشّربِ والغنَاء واللّهوِ، وقد بالغوا فيها، كما أنّ لكلّ خليفةٍ أو أميرٍ ندماءَ يتعاهدون زيارته(٤).

٢- الفقر:

ومقابل هذا التّرف فإنّ هناك الكثيرَ مِمَن عاشَ معيشةً البؤسِ والفقرِ مِمَّن ليسوا قريبينَ من الخليفة أو الوزاء.

---

(١) المرجع السّابق (٦/٢٢٢).

(٢) المرجع السّابق (٦/٢٣٥).

(٣) تاريخ بغداد (١/١٠٠-١٠٥).

(٤) انظر مثالاً على ذلك: يتيمة الدّهر، لأبي منصور الثّعالِبي (٢/٣٣٥-٣٣٦)، ط. دار الكتب العلمية الأولى، عام ١٩٧٩م، بيروت.

وأسباب الفقر كثيرةٌ منها: مصادرة الأمـــوال[١]، وكثـــرةُ الفِـــتَنِ والحروبِ؛ فقد يتعاقبُ على البلدِ الواحدِ خصمانِ، فالقرامطة –مـــثلاً- كثيراً ما يتجاحون البصرةَ، فينهبونها، ويقتلون ويأسرون، ويخرِّبون، كما فعلوا ذلك بالكوفة سنة: (٣١٢هـــ)[٢].

ومن أسبابه –أيضاً-: الغلاءُ الفاحشُ الذي يعمّ الدّيارَ أحياناً كمـــا حدثَ في بغدادٍ سنة: (٣٠٧هـــ)[٣]، وكما حدث فيها –أيضاً- حـــين نزول البريديِّ بها عام: (٣٣٠هـــ)، وما ترتّب على ذلك من فِتَنٍ[٤].

ونتيجةً لهذا البؤس فقد كثر التّسوّل في هذا العصر، وعرف أناسٌ به يُسَمَّونَ السّامانيِّين، أو أهلَ الكُديةِ، وقد مثّل أدبهم أبو دلف الخزرجـــي، والأحنف العبكري، وابن حجاج[٥]، فَأَثْروا الأدبَ بزيادة غـــرض مـــن أغراض الشّعرية، وقد صوّر حياة هؤلاء السّامانيّين بديعُ الزّمانِ الهمـــذانِيُّ والحرِبيُّ في مقاماتهما.

كما ازدادت حدّة التّصوّفِ، وَكَثُرَ مدّعو الزّهدِ، من أهلِ البطالـــةِ والكسلِ، وأصبحوا يعيشون على ما يصلهم من أيدي الوجهاء والأغنياء.

---

(١) الكامل لابن الأثير (١٧٦/٦، و٢٠٩).

(٢) المرجع السّابق (١٨٠/٦)، ومثله (١٧٥).

(٣) المرجع السّابق (١٦٣/٦).

(٤) المرجع السّابق (٢٨٤/٦).

(٥) انظر ترجماهم في يتيمة الدّهر (٣٠/٣، و١١٧، و٣٥٣).

ثالثاً: الحياة الثّقافية

كان عصر المُتَنَبِّي وقت قطاف ثمار العلوم التِي غرست أصـــولها، وأسّست قواعدها في القرن الثّالث، فسهل طلبُ العلمِ على مبتغيه، وكثر العلماء في المساجد والبيوتات، وتعدّدت مجالسهم ومنتدياتهم.

وأعان على نشرِ المعرفةِ استقلالية الدّويلات الخلافة، فهناك الشّـــامُ حيثُ بنو حمدان، وفارسُ حيثُ بنو بويـــه، ومـــا وراء النّهـــر حيـــثُ السّامانيّون، كلٌّ منهم يستقطِبُ إلى حضرته العلماء والأدباء والشّـــعراء، يجزل لهم الصّلات، ويكثر لهم الهبات، هذا إلى جانب مصر وبغداد.

والذي أعان على نشر العلمِ؛ أنّ أمراء هذه الدّويلات الخمس، كان أكثرهم شداةً للأدبِ محبِّين للعلم، وإن لم يكن الأميرُ نفسُهُ، فقد هُيِّئَ لهم وزراء من ذوي الموهبة العريقة في الأدب، فـــبرز مـــن هـــؤلاء الأمـــراء والوزراء، سيفُ الدّولة،وأبو فراس في الشّام، وابنُ العميد، والصّاحبُ بن عباد، والمهلبيُّ في العراقِ، وفارسَ وابنُ الفرات في مصر(١).

ولإيضاح معالمِ هذه الحياة الثّقافية؛ فإنّنا سنتحدّث عن الآتِي:

١- طلبُ العِلْمِ:

المكان على عادته في المساجد والمكتبات والمنتديات التِي تكـــون في

(١) انظر ترجماهم وما لهم من شعر في: يتيمة الـــدّهر (١/١٥، و٣٥، و٣/١٥٤، و١٨٨، و٣٣٣)، وترجمة ابن الفـــرات في: النّجـــوم الزّاهـــرة (٤/٣٠٣)، والأعلام (٣/١٣٦).

مجالسِ الأمراءِ والوزراءِ والعلماءِ.

واشتهر من المساجد: مساجدُ بغداد، وحلبٍ، ومصرَ، ومن المكتبات: مكتبةُ سيفِ الدّولة التي كان الخالديان[١] يشرفان عليها.

ووجد هناك طريقةٌ جديدةٌ للتّعلّمِ هي: التّعليمُ في الحدائقِ الغنّاءِ المحيطةِ بالبلد، كما كان الفارابي[٢] يعلّم تلاميذَهُ -علوم الفلسفةِ والمنطقِ، والإلهيّاتِ، وعلوم السّياسةِ، والرّياضةِ، والكيمياءِ، والموسيقي في حدائق حلبٍ.

كما كان هناك -على النّهج القديم- معلّمون للخاصّة ومعلّمون للعامّة، فمعلّوا أبناء الخاصّة يذهبون إلى دور الخلفاء والوزراء والأمراء وكبارِ القادة والتّجّار، لتعليم أبنائهم فيها، ومن أشهر مَن عرف بذلك: أبو بكر محمّد بن يَحيَى الصّوليّ.

وغيره كثيرٌ، منهم: أحمد بن محمّد العروضي، واليزيديان: إسحاق وعليّ ابنا إبراهيم، وكانا يعلّمان الخطّ، والعروضيَّ مرسوماً بتأديب أبي إسحاق المتّقي لله أميرَ المؤمنين[٣].

(١) الخالديان: هما: سعيد ومحمّد ابنا هاشم الخالدي شاعران أديبّان بصريّان، توفّي سعيد عام: (٣٧١هـ)، ومحمّد عام: (٣٨٠هـ)، الأعلام (١٠٣/٣).

(٢) الفارابي هو: أبو نصر محمّد بن نصر أكبر المشتغلين بعلم الفلسفة، توفّي بدمشق سنة: (٣٣٩هـ)، كان مطعوناً في ديانته.
البداية والنّهاية (٢٢٤/١١)، والأعلام (٢٠/٧).

(٣) أخبار الرّاضي والمتّقي لله، من كتاب الأوراق للصّولي (٨)، نشر ج – هيورث– ط دار المسيرة الثّالثة، عام: ١٤٠٣هـ، بيروت.

٢- العلماء والأدباء والشّعراء:

لقد كثر العلماء المتخصّصون في شتّى فنونِ المعرفة، وسنذكر هنا أشهر هؤلاء العلماء في كلّ فنٍّ:

أ- في القرآنِ الكريمِ والسّنةِ النّبويّةِ والفقهِ والحديث، منهم:

١- محمّدُ بن إسحاق بن خزيمةَ إمامُ الأئمة في الحديث، تُوفّي (٣١١هـ)(١).

٢- والقاضي أبو عمر محمّد بن يوسف المالكي قاضي القضاة في بغداد، توفّي سنة: (٣٢٠هـ)(٢).

٣- والحسينُ بن صالِح بن خيران الفقيه الشّافعي توفّي سنة: (٣٢٠هـ)(٣).

٤- وأبو الحسن الأشعري، عليّ بن إسماعيل من أئمّة أهل السّنة، توفّي سنة: (٣٢٤هـ)(٤).

٥- وأبو بكر بن زياد النّيسابوريّ الفقيه الشّافعي، توفّي سنة: (٣٢٤هـ)(٥).

---

(١) البداية والنّهاية (١٤٩/١١).

(٢) المرجع نفسه (١٧٢/١١).

(٣) المرجع نفسه (١٧١/١١).

(٤) المرجع نفسه (١٨٧/١١)، والأعلام (٢٦٣/٤).

(٥) البداية والنّهاية (١٨٦/١١).

٦- وأبو محمّد بن عبد الرّحمن بن أبي حاتِم محمّد الرّازيّ محدِّثٌ مفسِّرٌ، توفِّي سنة: (٣٢٧هـ)(١).

٧- وأبو بكر أحمد بن عليّ الرّازيّ الحنفي، توفِّي سنة: (٣٧٠هـ)(٢).

٨- والقاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني، فقيهٌ مفسِّرٌ، مؤرِّخٌ، أديبٌ شاعرٌ، له كتاب الوساطة بين المُتَنَبِّي وخصومه، توفِّي سنة: (٣٩٢هـ)(٣).

ب- في الكلام والفلسفة والطّب والتّأريخ، منهم:

١- أبو القاسم عبدُ الله بن أحمد الكعبِي المعتزِلي إليه تنسب الطّائفة الكعبية منهم، توفِّي سنة: (٣١٧هـ)(٤).

٢- وعبد السّلام بن محمّد أبو هاشم بن أبي عليّ الجبائي، مُتكلِّمٌ معتَزِليٌّ، توفِّي سنة: (٣٢١هـ)(٥).

٣- وقدامة بن جعفر أبو الفرج الكاتب أديبٌ ناقدٌ، متكلِّمٌ فيلسوفٌ، توفِّي سنة: (٣٣٧هـ)(٦).

---

(١) المرجع نفسه (١١/١٩١)، والأعلام (٣/٣٢٤).

(٢) البداية والنّهاية (١١/٢٩٧)، والأعلام (١/١٧١).

(٣) البداية والنّهاية (١١/٢٣١)، والأعلام (٤/٣٠٠).

(٤) تاريخ بغداد (٩/٣٨٤)، والبداية والنّهاية (١١/١٦٤).

(٥) البداية والنّهاية (١١/١٧٦).

(٦) المرجع نفسه (١١/٢٢٠)، والأعلام (٥/١٩١).

٤- وأبو نصر محمّد بن نصر الفارابِي، فليسوف موسيقيّ، توفّي سنة: (٣٣٩هـ).

٥- وعليّ بن الحسين بنعليّ أبو الحسن المسعوديّ، مؤرِّخٌ، توفّي سنة: (٣٤٦هـ)[١].

٦- وثابت بن سنان بن قرّة الصّابِىء، طبيبٌ أسلم على يدي القاهر، له كتبٌ في الطّبّ، والتّاريخ، توفّي سنة: (٣٦٥هـ)[٢].

٧- وأبو الحسين عبد الرّحمن بن عمر الصّوفيّ، عالِمٌ باللّغة، توفّي سنة: (٣٧٦هـ)[٣].

جـ في اللّغة والأدب:

كثر الكتاب واللّغويّون في هذا العصر، وجلّهم مخضرمون عاشوا أواخر القرن الثّالث، ومنهم:

١- أحمد بن الحسنِ، أو محمّد بن الحسين أبو بكر بن دريد الأزديُّ الّغويُّ النّحوِيُّ الشّاعرُ من أهل عمانَ نشأ بالبصرة، وتوفّي ببغداد سنة: (٣٢١هـ)[٤].

---

(١) فوات الوفيّات، والذّيل عليها، لابن شاكر الكتبِي، د/ إحسان عبّاس (١٢/٣)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.

(٢) البداية والنّهاية (٢٠٦/١١)، والأعلام (٩٨/٢).

(٣) الأعلام (٣١٩/٣).

(٤) البداية والنّهاية (١٧٦/١١)، والأعلام (٨٠/٦).

٢- وإبراهيم بن محمّد بن عرفة المهْلَبِيُّ الأزديُّ المعروف بنفطويه، نحوِيٌّ محدِّثٌ شاعرٌ، توفّي سنة: (٣٢٣هـ)[١].

٣- وأبو بكر محمّد بن القاسم الأنبارِيُّ لغوِيٌّ مفسِّرٌ محدِّثٌ من أهل السّنة، مؤدِّبٌ، توفّي سنة: (٣٢٨هـ)[٢].

٤- وأبو بكر محمّدُ بن يحَيَى الصّولِي، أديبٌ شاعرٌ، توفّي سنة: (٣٣٥هـ)[٣].

٥- وعبد الرّحمن بن إسحاق الزّجاجِيُّ نحوِيٌّ، توفّي سنة: (٣٣٧هـ)، وقيل: سنة: (٣٤٠هـ)[٤].

٦- وعبد الله بن جعفر بن درستويه النّحوِيُّ، توفّي سنة: (٣٤٧هـ)[٥].

٧- وعليّ بن الحسين الأموِيُّ الأصبهانِيُ أبو الفرج صاحبُ الأغانِي، توفّي سنة: (٣٥٦هـ)[٦].

---

(١) البداية والنّهاية (١١/١٨٧)، والأعلام (١/٦١).

(٢) البداية والنّهاية (١١/١٩٦)، والأعلام (٦/٣٣٤).

(٣) تاريخ بغداد (٣/٤٢٧).

(٤) البداية والنّهاية (١١/٢٢٥)، والأعلام (٣/٢٩٩).

(٥) البداية والنّهاية (١١/٢٣٣)، والأعلام (٤/٧٦).

(٦) البداية والنّهاية (١١/٢٦٣)، والأعلام (٢/٢٧٨).

٨- وأبو سعيد الحسنُ بن عبد الله السّيرافِيُّ، نحوِيٌّ عالِمٌ بالأدب، توفِّي سنة: (٣٦٨هـ)(١).

٩- والحسينُ بن خالويه، نحوِيٌّ عهد إليه سيفُ الدّولةِ بتربية أبنائه، له مجالسُ مع المُتَنَبِّي، توفِّي سنة: (٣٧٠هـ)(٢).

١٠- والخالديان: سعيد ومحمّد ابنا هاشم الخالدِيّ.

١١- وأبو عليّ الحسنُ بن أحمد الفارِسِيُّ، نحوِيٌّ، توفِّي سنة: (٣٣٧هـ)(٣).

١٢- وأبو أحمد الحسين بن عبد الله العسكرِيّ، فقيهٌ أديبٌ لغويٌّ نحوِيٌّ، توفِّي سنة: (٣٨٢هـ)(٤).

١٣- وأبو عليٍّ محمّد بن الحسنِ الحاتَمِيُّ أديبٌ ناقدٌ، نَاظَرَ المُتَنَبِّي حين وصوله بغداد، فأرّاً من مصر، توفِّي سنة: (٣٨٨هـ)(٥).

١٤- وعثمان بن جنِّي الموصلِيُّ أبو الفتح، لغوِيٌّ نحويٌّ أديبٌ، صديق للمُتَنَبِّي، وشارحُ ديوانه، توفِّي سنة: (٣٩٣هـ)(٦).

---

(١) البداية والنّهاية (٢٩٤/١١)، والأعلام (١٩٥/٢).

(٢) البداية والنّهاية (٢٩٧/١١)، والأعلام (٢٣١/٢).

(٣) البداية والنّهاية (٣٠٦/١١)، والأعلام (١٧٩/٢).

(٤) البداية والنّهاية (٣١٢/١١)، والأعلام (١٩٦/٢).

(٥) الأعلام (٨٢/٦).

(٦) البداية والنّهاية (٣٣١/١١)، والأعلام (٢٠٤/٤).

د- الشّعراء:

وجد في هذا العصر كثيرٌ من الشّعراء الذين من أشهرهم بعد شاعرنا المُتَنَبِّي:

١- ابن العلاف، وتوفِّي سنة: (٣١٨هـ)(١).

٢- وجحظة البرمكِي، وهو نديمٌ شاعرٌ أديبٌ أخبارِيٌّ مغنٍّ، توفِّي سنة: (٣٢٤هـ)(٢).

٣- وأبو الحسن القطان المعروف بالزّاهيّ عليّ بن إسحاق بن خلف البغداديُّ، توفِّي سنة: (٣٥٢هـ)(٣).

٤- ومحمّد بن الحسين بن عليّ الوضّاحِيُّ، شاعرٌ من الأنبار وسكن نيسابور، توفِّي سنة: (٣٥٥هـ)(٤).

٥- وأبو فراسٍ الحارثُ بن سعيدٍ بن حمدانَ أميرٌ شاعرٌ فارسٌ، بينه وبين المُتَنَبِّي عداء، قتل في تدمَر سنة: (٣٥٧هـ)(٥).

٦- والسّرِيُّ أحمدُ بن السّرِيّ الكندي الرّفا، شاعرٌ أديبٌ من شعراء سيف الدّولة، توفِّي سنة: (٣٦٠هـ)(٦).

---

(١) البداية والنّهاية (١١/١٦٦)، والأعلام (٢/٢٠١).

(٢) البداية والنّهاية (١١/١٨٤-١٨٦)، والأعلام (١/١٠٧).

(٣) الأعلام (٤/٢٦٣).

(٤) البداية والنّهاية (١١/٢٦١)، والأعلام (٦/٩٧).

(٥) البداية والنّهاية (١١/٣٧٨)، والأعلام (٢/١٥٥).

(٦) البداية والنّهاية (١١/٢٧٠)، والأعلام (٣/٨١).

٧- ومحمّد بن الحسين أبو الفتح الرّملِيُّ المعــروف بكشــاجم، شــاعرٌ متفنِّنٌ، أديبٌ كاتبٌ مغنٍّ، توفِّي سنة: (٣٦٠هـــ)[١].

٨- وعليّ بن عبد الله بن وصيف أبو الحسن الحلاء المعروف بالنّاشـــي الأصغر، توفِّي سنة: (٣٦٦هـــ)[٢].

٩- وأبو العبّاس أحمد بن محمّد الدّارمِي المصيصِيُّ المعروف بالنّامِي، توفِّي سنة: (٣٩٩هـــ)[٣].

٣- المذاهب والفِرَقُ:

لم تزد الفرق عمّا هي عليه في العصر السّابق، وإنّما قــوِي نفــوذُ بعضها وانحسر نفوذُ بعضها الآخر، ومن أهمّ هذه الفرق:

أ-أهل السّنة:

الذين ظلّت شوكَتُهُم قويَّةً أوّل هذا العصر، امتداداً لارتفاع شأنهم بعد نصرة الخليفة المتوكّل لهم، فكثر علماؤهم ومفكّروهم، ومن أشهرهم مَن ذكرنا آنفاً:

١-محمّد بن إسحاق بن خزيمة.

٢-ابن جرير الطّبري، وأبو الحسن الأشعري.

٣-ابن أبي حاتِم الرّازِي.

---

(١) الأعلام (١٦٧/٧-١٦٨).

(٢) الأعلام (٢٠٤/٤).

(٣) الأعلام (٢١٠/١).

ب-المعتزِلة:

ضعف أمر المعتزلة واندرحت شوكَتُهُم بعد إخماد المتوكّل لِشِرَّتِهِمْ وإعلانه لمذهب أهل السّنة، إلاّ أنّ مذهبهم لم يختف من الوجود، فقد بقي لهم علماء ومفكّرون وكتّاب، يتمثّلون في علماء اللّغة والأدب، ويتميّزون بمعرفتهم للفلسفة وحبّهم الجدل، ومن أشهرهم:

١-أبو هاشم الجبائي، الذي تنسب إليه الهاشمية منهم.

٢-أبو القاسم الكعبِي الذي تنسب إليه الكعبية منهم.

٣=أبو سعيد السّيرافي.

وغيرهم إلاّ أنّه لم يكن لهم تأثيرٌ على السّياسة.

جـ الشّيعة:

قويت شوكةُ الشّيعة في هذا العصر، وصاروا فرقاً وأحزاباً، فمنهم الاثنا عشريةِ، ويتمثّلون في بنِي بويه، ومنهم: الباطنية، والإسماعيلية، ويتمثّلون في الفاطميّين والقرامطة، ومنهم مَن كان غير مغالٍ في تشيّعه وإن كان يميل إلى الرّفض وهم بنو حمدان.

هذا، وللشّيعة أعمالٌ شنيعةٌ أظهروا فيها مذهبهم(١).

---

(١) من ذلك: احتفالهم بعيدي عاشوراء وخُمّ وسبّهم الشّيخينِ، وعدداً من الصّحابة، ومن أجل ذلك كثيراً ما وقعت بينهم وبين أهل السّنة مصادمات.

انظر: تكملة الطّبري (٣٩٧)، وابن الأثير (٣١٧/٦) حاشية رقم: (١)، و(٣٣٩/٦، و٣٥١)، والنّجوم الزّاهرة (٣٣٢/٣، و٥٥/٤، و٥٧)حوادث سنة: (٣٦٠)، وما بعدها من السّنين، وابن الأثير أيضاً (٤/٧، و١٢/٧).

د- الخوارج:

اندحرت شوكَةُ الخوارجِ من الشّام، بسبب محاربة المعتضدِ لَهُــم؛ فكوَّنوا دولةً لَهم في عمانَ، جنوبِ شرقِ الجزيرة العربية، ظلّت مسـطيرةً عليها إلى أن أذعنوا لعضد الدّولة بن بويه سنة: (٣٦٣هـــ)[١]، ولكــن شيوع مذهبهم فيها لم يندحر.

كما ظهر لهم فرقةٌ أقلقت الدّولةَ الفاطميةَ عدّةَ سنواتٍ اســتولت على أكثر أفريقية، وكان خروجها سنة: (٣٣٣هــ)، ولم يقضً عليهم إلاّ أوائل سنة: (٣٣٦هــ)[٢].

هــ الصّوفية:

كان لظهور التّصوّف وقوّته في القرن الثّالث أثرٌ كبيرٌ على أهل هذا العصر، فكثر فيهم، وادعاه عدّد من علماء هذا العصر.

وكان منهم المعتدلون الذي لا يرون معنًى للتصوّف إلاّ الزّهــد في الدّنيا، مثل:

١- أبي محمّد جعفر المرتعش أحد مشـائخ بغــداد، المتــوفّى ســنة: (٣٢٨هــ)[٣].

(١) ابن الأثير (٧/٥٧).
(٢) المرجع نفسه (٦/٣٠٢-٣١١).
(٣) البداية والنّهاية (١١/١٩٢).

٢- وعليّ بن محمّد أبو الحسن المزين الصّغير، توفّي سنة: (٣٢٨هـ) أيضاً[١].

ومنه مَن انحرف عن طريق الزّهد فجرّت منه أحوالٌ غريبةٌ وادَّعَى الكشفَ وعلمَ الباطنِ، مثل:

الحلاجُ الذين قتل سنة: (٣٠٨هـ)[٢]، وإليه ينتسب أقوامٌ غَرَّهُمُ ما صدر منه.

وقد كان لظهور التّصوّف أثرٌ في الأدب، بظهور الشّعرِ الصّوفِيِّ الرّوحانِيِّ الذي أثّر عن بعضهم، وإن كان ضعف كما أثر عن الشّبليِّ المتوفّى سنة: (٣٣٤هـ)، فله ديوان شعر كلّه حول هذا المعنَى[٣].

---

(١) المرجع نفسه (١١/١٩٣).

(٢) انظر ترجمته وقصّة قتله في: المرجع نفسه (١١/١٣٢)، والتّكملة (٢١٩)، وحوادث سنة: (٣٠٩هـ)، في أغلب التّواريخ.

(٣) البداية والنّهاية (١١/٢١٥).

٣- حياة المُتَنَبِّي

أوّلاً: مولده ونسبه وكنيته ولقبه:

من المرجّح عند المؤرِّخين أنّ المُتَنَبِّي ولد سنة: (٣٠٣هـ)، في الكوفة[١].

وهو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصّمد الجعفِي، وهنالك أكثر من رواية في سلسلة نسبه بعد أبيه[٢].

ويبدو أنّ المُتَنَبِّي كان وراء هذا الاختلاف فقد قال: «أنا رجلٌ أحيط القبائل وأطوى البوادي وحدِي، ومتَى انتسبت، لم آمن أن تأخذنِي بعض بعض العرب بغائلة بينها وبين القبيلة التِي أنتسب إليها، وما دمتغير منتسب إلى أحدٍ فأنا أسلم على جميعهم، ويخافون لسانِي»[٣].

والذين نسبوه إلى جعفِيٍّ إنّما نسبوه إلى جعفيٍّ بن سعدِ العشيرة بن مذجحَ من اليمن عربِ الجنوب[٤].

---

(١) تاريخ بغداد (١٠٢/٤)، الأعلام (١١٥/١).

(٢) تاريخ بغداد (١٠٢/٤)، والصّبح المُنَبِّي عن حبثية المُتَنَبِّي، يوسف البديعي، تحقيق: مصفطى السّقا، ومحمّد شتا، وعبده زيادة، ط دار المعرفة الثّانية، ١٩٧٧م، (٢٠)، تاريخ عساكر حرف الألف، بواسطة (المُتَنَبِّي)، محمود شاكر (٣١٣/٢)، مطبعة المدنِي القاهرة، والكامل لابن الأثير (١٦/٧).

(٣) تاريخ بغداد (١٠٣/٤).

(٤) تاريخ الأدب العربِي د/ عمر فروح (٤٥٧/٢)، طبعة دار العلم للملايّين، الرّابعة، عام ١٩٨١م، بيروت.

والذين نسبوه إلى كندة إنّما نسبوه إلى حيٍّ في الكوفة كان أكثرُ قطانه من بنِي كندة[١].

هذا، وقد ذكر بعض أهلِ الكوفة أنّ أباه كان معروفاً بالكوفة بعيدانِ السّقا؛ لأنّه كان يستقي على بعيرٍ له، وكان جُعْفِيّاً صحيحَ النّسب[٢].

أمّا نسب أمّه فمجهول أيضاً؛ لأنّها إمّا توفِّيتْ وهو صغيرٌ، أو اختفت على إثر إغارات القرامة على الكوفة، فوقعت ضمن السّبِي الذي يقع تحت أيديهم، أو طُلِّقت فلم يعرفها، والأوّل أقرب إلى الواقع.

ومسألة إثبات النّسب لم تكن تعنِي المُتَنَبِّي في شيءٍ؛ لأنّها لا تعنِي إلاّ مَن كان عارياً من المجد الحاضر، كمايظهر من قوله[٣]:

أنا ابنُ مَن بعضُهُ يفوق أبا البا ... حثِ والنّجلُ بعضُ مَن نَجَلَهْ
وإنّما يَذْكُرُ الجدودَ لَهُمْ ... من نفّروه وأنفذوا حِيَلَهْ

وقوله[٤]:

لا بقومِي شرفتُ بل شرَّفوا بِي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودي
وبِهم فخرُ كلِّ مَن نطقَ الضّا ... دَ وَعَوْذُ الجانِي وغَوْثُ الطّريدِ

---

(١) المرجع نفسه (٢/٤٥٧).

(٢) تاريخ بغداد (٤/١٠٤)، في كثيرٍ من المصادر: عيدان، بكسر العين، وباء بعدها، وفي تاريخ بغداد: (عبدان) باء موحّدة.

(٣) ديوانه (٣/٣٨٣).

(٤) ديوانه (٢/٤٦).

أمّا كنيته:

فقد عرف بأبي الطّيِّب.

وأمّا لقبته:

فقد لُقِّبَ بــ"المُتَنَبِّي"، وشاع هذا اللّقبُ حتّى غلب على اسمه، وقد ثار جدلٌ كبيرٌ حول سبب إلْصَاق هذا اللّقبُ به، وللباحثين في سبب هذا اللّقب عدّة آراء هي:

١- منهم مَن يذكر أنّه ادّعَى النّبوّة حَقّاً(١).

٢- ومنهم مَن ينفي هذه التّهمة ويعلّل التّسمية بأنّ هذا جاء من قوله(٢):

أنا تربُ النّدى وربُّ القـوافِي وسِمَامُ العِدَا وغـيظَ الحسـودِ
أنـا في أمـةِ تـداركها الله م غريـبٌ كصـالِحٍ في ثمـودِ

٣- ومنه مَن علّلها تعليلاً لغويّاً فقال: إنّها من النّبوّة أي: المرتفـع مـن الأرض(٣).

وأيّاً كان سبب التّسمية؛ فقد بقيت الكلمة لاصقةً به، لا يعرف إلاّ بها، ولم يقدر على الامتناع عنها، كما أخبر المُتَنَبِّي بذلك(٤).

---

(١) تاريخ بغداد (١٠٤/٤)، والمُتَنَبِّي مالئ الدّنيا وشاغل النّاس، د/ محمّد التونجي (٤٠)، الطّبعة الأولى عام: ١٩٧٥م.

(٢) يتيمة الدّهر (١١٣/١)، والبيتان في ديوانه (٤٨/٢).

(٣) رسالة الغفران لابن العلاء المعرّي، تحقيق: د/ عائشة عبد الرحمن بنت الشّاطيء، ط دار المعارف السّادسة، ١٩٧٧م، ص:(٤١٨).

(٤) تاريخ بغداد (١٠٤/٤).

ثانياً: نشأته وثقافته:

ولدَ أبو الطّيّب في الكوفة، وأكثر النّصوص التِي بأدينا تدلّ على أنّه تعلّم فيها ودرس في كتاب لأبناء الأشراف[١].

وقد كان يخرج بين الحين والحين إلى البادية لمخالطة الأعرابِ واكتساب الفصاحة منهم.

وفي يتيمة الدّهر[٢]، وتاريخ بغداد[٣] ما يفيد أنّه نشأ بالشّام لكن ذلك مردودٌ بنصوصٍ كثيرةٍ دلّت على أنّ تعلّمه كان في الكوفة وبغداد[٤].

وقد صبّغته نشأتُهُ الكوفة بالثّوريَّةِ والحقد على النّاس، واحتقارِهِمْ والفخرِ عليهم، وشعره في صباه ناطقٌ بذلك، وذلك لَمّا اتّسم به جوُّ الكوفة –إذ ذاك– من فتنٍ وحروبٍ، فَرَّقَتِ الأُسَرَ ودُمِّرَتْ حياةَ الكثير.

لقد لاقى أبو الطّيّب فيها عنت الأعداءِ، وحسدَ الحسّادِ، وما تَقَوَّلُوا به عليه من أباطيلهم، وما رموه به من العيوب، وقد عبّر عن ذلك بأبياتٍ عدّة من شعره، منها قوله –وهي في أنطاكية– معبِّراً عمّا يلقاه فيها من حسدٍ كما كان يلقي في الكوفة[٥]:

(١) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، للبغدادي، (١/٣٨٢)، طبعة دار صادر الأولى، بيروت، المُتَنَبِّي لمحمود شاكر (٢/٢٥٦-٢٤١).

(٢) يتيمة الدّهر (١/١١١-١١٢).

(٣) تاريخ بغداد (٤/١٠٢).

(٤) تاريخ بغداد (٤/١٠٢).

(٥) ديوانه (٤/٣٥٤).

أبدو فيسجدُ من بالسّوء يذكرني ... فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني ... إنّ النّفيسَ غريبٌ حيثما كانا
مُحسَّدُ الفضلِ مكذوبٌ على أثرِي ... ألقى الكميّ ويلقاني إذا حانا

وقوله لبعضهم —وقد بلغ كلاماً منهم—(١):

أنا عينُ المسوَّدِ الجحجاحِ ... هيجتنِي كلابُهُمْ بالنُّبَاح
أيكونُ الهِجَانُ غير هِجَان ... أم يكون الصُّراح غير صُراحِ
جهلونِي وإن عَمَرت قليلاً ... نستبتنِي لهم رؤوسُ الرِّماحِ

ثقافته:

سبق القول بأنّه تعلّم في ديوانٍ للأشراف العلويّين،إبان وجوده في الكوفة، فقد تعلّم فيه مبادىء القراءة والكتابة، ثم تَمَكّن من الخروج إلى أطراف بوادي الكوفة لتعلّم اللّغة الفصحى مشافهةً من أفواه الأعراب.

كما رحل إلى بغداد، وحضر دروس علمائها في المساجد، كما خرج إلى الشّام وشافه الأعراب أيضاً.

وكان كثيراً ما يلازم الورّاقين، ويكثر القراءة من كتبهم وعلومهم(٢).

وقد كان لملازمته سيفَ الدّولة ثم كافوراً أثرٌ في تَبَحُّرِهِ بالعلم لكثرة

---

(١) ديوانه (١/٣٦٤-٣٦٥).

(٢) تاريخ بغداد (٤/١٠٣).

العلماء لديهما، ولِمَا كان يدور في مجالسهما من مناقشات[١].

كما روى أنّه يحضر مجالس العلماء في مسجد الفسطاط وجامع عمرو بن العاص بمصر، وأنّه يتردّد على أسواق الورّاقين[٢].

وممّا يدلّ على عظم ثقافته اللّغويّة ما روى أنّ ابن العميد كان يجلسه في دسّته ويقعد بين يديه، فيقرأ عليه كتاب الجمهرة لابن دريد؛ لأنّ المُتَنَبِّي كان يحفظها عن ظهر قلبٍ[٣].

كما كان يدلّ عليه ما في شعره من غريب اللّغة والتّراكيب، واستدلاله على ذلك حين مناقشة أحدٍ له عن ذلك بشيءٍ عن العرب[٤].

وفي شعره ما يدلّ على ضعف عقيدته من مبالغاته المذمومة كمدحه بدرَ بن عمار بقوله[٥]:

يا بدرُ إنّك والحديثُ شجونُ ... من لم يكن لمثاله تكوينُ
لعظمت حتّى لو تكون أمانةً ... ما كان مؤتمناً بها جبرين

وقوله[٦]:

---

(١) الصّبح المُنبّي (٨٦-٨٧، و١٤٣)، واليتيمة (١/٤١٧)، ومعجم الأدباء (١٢/٢٢٥-٢٢٦).

(٢) أبو الطّيب المُتَنَبِّي في مصر والعراقين، د/ الشّكعة (٣٠٧-٣٠٨)، ط. عالم الكتب الأولى، بيروت ١٤٠٣هـ.

(٣) المُتَنَبِّي محمود شاكر (٢/٢٧٥)، عن ابن العديم في بغية الطّلب.

(٤) الصّبح المنبّي (١٤٣).

(٥) ديوانه (٤/٣٤٠).

(٦) ديوانه (٢/٤٠).

يترشفنَ من فمِي رشفاتٍ هن فيه أحلى من التّوحيد

وقوله[١]:

أيُّ محلٍّ أرتقي أيَّ عظيمٍ أتَّقي

وكلُّ ما خلقَ اللهُ وما لم يَخْلُقِ

محتقرٌ في همتِي كشعرةٍ في مفرقِي

وقد تتبّع قوم هفواته في شعره، فانتزعوا أبياتاً زعموا أنّها تدلّ على فساد اعتقاد[٢].

ولعلّ ما رُمِي به من فسادٍ في الاعتقاد كان في مرحلة شبابه وتهورِه، ولنشأته الكوفية دورٌ في هذا الفساد، وهذا الضّعف، فقد نشأ يتيماً في بلدٍ كثيرِ الفِتَنِ والقلاقل.

وانطلاقاً من هذه النّشأة واستناداً على بعض ما جاء في شعره من ثوريةٍ، وحقدٍ على النّاس رماه بعض الأدباء باعتناق مذهب الباطنية (القرامطة)[٣] أوّل شبابه، وهذا ما حدا بالدّكتور طه حسين إلى القول بأنّ أحد أسباب قتله تركه هذا المذهب، وأنّ قتلته هم أعراب قرمطيّون[٤].

---

(١) ديوانه (٣/٨١).

(٢) البُحتُرِيّ محمود شاكر (٢/٢٧١-٢٧٣)، عن ابن العديم في بغية الطّلب.

(٣) أبو الطّيّب المُتَنَبِّي – بلاشير، طبعة دار الفكر الثّانية، ١٤٠٥هـ، سوريا، ص:(٨١)، مع المُتَنَبِّي، طه حسين ص:(٤٣، و٤٧، و٥٤، و٥٧)، طبعة دار المعارف الثّانية عشر ١٩٨٠م.

(٤) مع المُتَنَبِّي د/ طه حسين ص:(٣٧٢-٣٧٣-٣٧٥).

ثالثاً: رحلاته ولقاءاته

شملت رحلاتُ المُتَنَبِّي الشّامَ ومصرَ والعراقَ وفارسَ.

١- أبو الطّيّب في الشّام:

مِن الممكن أن نقسّم رحلاته إلى الشّام إلى قسمين:

أ- ما قبل اتّصاله بسيف الدّولة:

الذي تدلّ عليه النّصوص هو أنّه وصل الشّام بعد العشرين والثّلاثمائة؛لأنّه وصل أقصى الشّام واللاذقية، بعد نيف وعشرين وثلاثمائة[(١)].

وفي هذا الطّور من حياته شيءٌ من الغموض؛ إذ لا نراه مستقرّاً في مكانٍ خاصّ ،فتارةً في المدن، وطوراً بين قبائل البادية، ولَمّا لم يجد فيمَن مدحه من يحقّق رغباتِه الطّامحةَ إلى العلوّ، حاول التّأثير على بعض أعراب بادية بنِي كلبٍ وكلابٍ، فثار بهم في بادية حمصٍ والسّماوةٍ، لكن والِي حمصٍ بعث من ألقي القبض عليه وسجّنه[(٢)].

وكان ذلك منه –حسب آراء الباحثين- آخر سنة: (٣٢١هـ) أو أوائل سنة: (٣٢٢هـ)، إلى سنة: (٣٢٣هـ)، أو أواخر سنة: (٣٢٤هـ)[(٣)].

(١) الصّبح المُنَبِّي للبديعي (٥٢)، ورسالة الغفران للعمري (٤٢٥).

(٢) تاريخ بغداد (١٠٤/٤).

(٣) أبو الطّيّب المُتَنَبِّي بلاشير (١٢٠)، والمُتَنَبِّي محمود شاكر (١٠٤/١-١٠٥).

وترجع المصادر القديمة سبب سجنه إلى ادّعائه النّبوّة[١]، وبعضها إلى طمعه بالولاية وحبّ الرّياسة، كما ذكر ذلك الثّعالبِي[٢].

وبعد خروجه من السّجن عاد إلى الكوفة لزيارة جدّته التِي طال غيابه عنها[٣]، وتمكّن من الزّواج فيها أيضاً[٤].

بقي أبو الطّيّب في الكوفة إلى سنة: (٣٢٦هـ) ثم عاد أدراجه إلى الشّام مرّةً أخرى[٥].

وقد تنقل في عوده الثّانِي إلى الشّام بين مدنن وريفه وبواديه يمدح صغارَ الأمراء إلى أن تمكّن من مدح الأمير القائد بدرِ بن عمارٍ الأسدِيّ[٦]، الذي أقام عنده حوالي سنتين كما يرى بلاشير[٧]، أو أربع سنين كما يرى محمود شاكر[٨].

(١) تاريخ بغداد (١٠٤/٤)، والصّبح المُنَبِّي (٥٢-٥٤)، ويتيمة الدّهر، بصيغة التّضعيف (١١٢/١).

(٢) يتيمة الدّهر (١١٢/١)، ورسالة الغفران (٤١٨-٤١٩).

(٣) المُتَنَبِّي محمود شاكر (١١٢/١)، وتاريخ بغداد (١٠٣/٤).

(٤) المُتَنَبِّي محمود شاكر (١٢٠/١).

(٥) المرجع نفسه (١٢٠/١١).

(٦) بدر بن عمّار، هو: أبو الحسين بدر بن عمّار الأسديّ الطّبرستانِي، التّكملة للهمذانِي (٣٢٢)، (ذيول الطّبري)، المُتَنَبِّي، محمود شاكر (١٣٩/١).

(٧) أبو الطّيّب المُتَنَبِّي بلاشير (١٥٠).

(٨) المنبي محمود شاكر (١٤٠).

وقد أثرت مصاحبته لهذا الأمير على ارتقاء شعره في نظر الجمهور ونوع المعيشة التِي كان يحياها في وسط مترفٍ(١).

لكنّ الحسادَ قد نغصوا عليه مكثه في هذا الكنف الحامِي للأدب والأدباء، فترك صحبته بحثاً عن ملجأ يلجأ إليه من حسد الحاسدين، ويلحظ ذلك من شعره خلال هذه الفترة؛ إذ به بيدي تصجّره مِمّا يلاقي ومن ذلك قوله مخاطِباً بدرَ بن عمار(٢):

لا تنكرنَّ رحيلي عنك في عجلٍ فإنَّنِي لرحيلي غير مختارِ
وربّما فارقَ الإنسانُ مهجتَهُ يوم الوغى غيرَ قالٍ خشية العارِ
وقد منيتُ بحسادٍ أُحارِبهُم فاجعل نداك عليهم بعض أنصارِي

وبعد تطواف في البوادي كاد يعيده إلى حياته الأولى من الحقد على كلّ النّاس، التجأ إلى الأخشيديّين، وكانت إليهم إمرة الشّام ومصر، فظلّ يمدح بعض أمرائهم وقوادهم، وخصّ منهم أمير الرّملة ابن عمّ الإخشيد أبا محمّد الحسن بن عبيد الله.

وقد ظلّ متنقِّلاً تحت ولايتهم منذ سنة: (٣٢٩هـ)، إلى أوّل سنة: (٣٣٦هـ).

ثم انتقل إلى بلاط الحمدانيّين؛ إذ وصل إلى أنطاكية شمال سوريا، فبدأ بمدح أميرها أبي العشائر من قبل سيف الدّولة.

---

(١) أبو الطّيّب المُتَنَبِّي بلاشير (١٣٨).

(٢) ديوانه (٢/٢٤٥).

ومكث فيها إلى أواسط سنة: (٣٣٧هـ) إلى حين زيارة سيف الدّولة لها ومدحه إيّاه فيها[١].

ب- ما بعد اتّصاله بسيف الدّولة:

سبق أن أشرنا في أعلى الصفحة إلى أنّ اتّصال أبي الطّيّب بسيف الدّولة كان حين زيارة سيف الدّولة لابن عمّه أبي العشائر أمير أنطاكية من قِبَله، وذلك في شهر جمادى الأولى سنة: (٣٣٧هـ)، ومدحه بأوّل قصيدةٍ له في هذا اللّقاء، وهي قوله[٢]:

وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسِمُهْ   بأن تَسْعَدَا والدّمعُ أشفاه ساجِمُهْ

وقد صحب المُتَنَبِّي سيفَ الدّولة تسع سنين أو ما يقرب منها، كان آخرها سنة: (٣٤٥هـ)، حين مدحه بالميمية التِي أوّلها[٣]:

عقبى اليمينِ على عقبى الوغى ندمٌ   ماذا يزيدُك في إقدامِكَ القسمُ

والظّاهر من شعره في سيف الدّولة إخلاصه له في المحبّة، وإبداعه في تصوير شجاعته وحروبه.

والغريب أنّه لم يتخلّل ديوانه منذ بدء مدحه سيف الدّولة إلى حين رحليه عنه أيّ نظم في ممدوحٍ غيره.

(١) أبو الطّيّب المُتَنَبِّي بلاشير (١٧٨).

(٢) ديوانه (٤/٤٣)، والخبر في الصّبح المُنَبِّي (٧١).

(٣) ديوانه (٤/١٢٩).

وقد نظم فيه خلال هذه المدّة اثنتين وأربعين قصيدة واثنتين وثلاثين مقطوعة.

وقد كان لنفسيه المُتَنَبِّي العجيبة الملتحفة بـرداء الكبرِ، والمليئةِ بالغطرسة، أثرٌ كبيرٌ في إثارةِ حفيظةِ حاشيةِ سييفِ الدّولةِ عليه، وحسدِهم له على الحظوةِ التِي لقيها لديه، وكان هو مِشْعَلُ آوارِ هذه الحفائظ من أوّل قصيدةٍ نظمها فيه وذلك بقوله[1]:

غضبتُ له لَمّا رأيت صفاته بلا واصفٍ والشّعرُ تهذي طماطمُهُ
وكنتُ إذا يممت أرضاً بعيدةً سريتُ فكنت السّرَّ واللّيل كاتمُهْ

لكن هذه العداوة –مع استمرارها– لم تؤثّر في سيف الدّولة إلاّ بعد سنين عدّة، وحين استشعر المُتَنَبِّي جفوة سيف الدّولة عاتَبَهُ بقصيدته التِي اشتكى وتظلّم من التّقصير في حقّه، ومطلَعُها[2]:

واحرَّ قلباه مِمَّن قلبُهُ شَبِمُ ومَنْ بِجسمِي وحالِي عنده سَقَمُ

وبعدها لم يطب له المقام، وذلك لأنّ[3]:

شرُّ البلاد بلادٌ لا صديقَ بها وشرُّ ما يكسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

(١) المرجع نفسه (٤/٥٨-٥٩).

(٢) ديوانه (٤/٨٠)، وانظر ما دار بينه وبين أبي فراس حين إنشاده هذه القصيدة في: الصّبح المُنَبِّي (٨٧-٩١).

(٣) ديوانه (٤/٨٩)، من القصيدة السّابقة.

ولما عزم على الرّحيل من حلبٍ سار إلى دمشق سنة: (٣٤٦هـ)، وألقى بها عصا تسياره ولكن مكثه لم يطل بها، فانحاز إلى الرَّملة، وكان أميرها الحسين بن طغج، فكتب كافور بطلبه منه، فسار إليه(١).

والواقع أنّ المُتَنَبِّي وإن فارق سيفَ الدّولة إلاّ أنّه كان يَحِن إليه دائماً ويتذكّره، والشّوق بينهما متبادل، وقد طلب منه سيفُ الدّولة العودَ إليه، ولكن أنفته منعته من ذلك(٢).

وكان وعده أن يبلغه ما في نفسه فأنشده قصيدته الثّانية التِي أوّلها(٣):

مَنِ الجآذرُ في زِيِّ الأعاريبِ حمرُ الحُلَى، والعطايا، والجلابيبِ

وقد مكث عنده إلى آخر عام خمسين وثلاثمائة، وعدد ما مدحه به من القصائد عشر قصائد ومقطوعتان.

والملاحظة على المُتَنَبِّي خلال مدحه كافوراً أنّه واقع تحت تأثير عاطفتين تتنازعانه:

الأولى: ما كان يشعر به من الحزن لِما أصابه في حلبٍ.

والثّانية: رغبته أن يحصل بواسطة كافور على ولايةٍ.

---

(١) الصّبح المُنَبِّي (١١٠)، ديوانه (١/٢٢٥)، وذلك بصيدته البائية: فهمت الكتاب... .

(٢) ديوانه (٤/٤٠٧)، والخبر في الصّبح المُنَبِّي (١١١).

(٣) ديوانه (١/٢٨٨).

فأمّا العاطفة الأولى؛ فإنّه لم يصرّح بها تصريحاً قويّاً، وإنّما عرض بها تعريضاً من مثل قوله(١):

حببْتُك قلبِي قبل حبِّكَ من نأى ... وقد كان غداراً فكن أنت وافيـــا
أَقِلَّ اشتياقا أيّها القلبُ ربَّمـــا ... رأيتك تصفي الودَّ مَن ليس جازيا
قواصدَ كافور تــوارِكَ غــيره ... ومَن قصدَ البحرَ استقلَّ السّواقيا
فجاءت بنا إنسانَ عينِ زمانِــهِ ... وخلَّتْ بياضاً خلفهـــا ومآقيـــا

وأمّا العاطفة الثّانية وهي رغبته في الإمارة، فكان يلحّ إليها تلميحاً، لم يخف على أحد كقوله(٢):

وما رغبتِي في عسجدٍ أستفيدُهُ ... ولكنّهـــا في مفخـــرٍ أســـتجدُّهُ

وقوله(٣):

قالوا هجرتَ الغيثَ قلت لهـــم ... إلى غيـــوث يديـــهِ والشّـــآبيبِ
إلى الذي تَهَبُ الدّولاتِ راحتُه ... ولا يَمُنُّ على آثـــارِ موهـــوبِ

فلمّا لم ير لدى كافور رغبةً في تحقيق أمانيه قـــال يائســـاً معاتِبـــاً متملِّقاً(٤):

إذا لم تنطْ بِي ضيعةً أو ولايـــةً ... فجودك يسكونِي وشغلك يُسْلَبُ

---

(١) المرجع نفسه (٤/٤١٨-٤٢٤).

(٢) المرجع نفسه (٢/١٣٠).

(٣) ديوانه (١/٢٩٦).

(٤) المرجع نفسه (١/٣٠٧).

ثم لَمّا رأى إعراضه الكُلّيَ قال(١):

رضيتُ بِما ترضَى به لِي محبّةً وقدتُ إليك النّفسَ قودَ المسلِّمِ
ومثلكَ مَن كان الوسيطَ فؤادُهُ فكلمه عنِّي و لم أتكلّم

وقال في آخر قصيدةٍ له فيه(٢):

وفي النّفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتِي بيانٌ عندها وخطابُ

ولَمّا لم يلبِّ طلبه بعد هذه القصيدة، مكث لديه أكثر من سنةٍ لعلّه يغيّر رأيه؛ فلمّا عيل صبره أزمع الرّحيل.

ومن أسباب رحيله-أيضاً-: كراهية حاشية كافور له، وفيهم وزيره ابن حنْزابه، فقد كان مبغضاً له، لعدم مدحه إيّاه، وعدم تنازله له.

ولَمّا ضاقت الأمور عليه، أعدّ كلّ ما يحتاج إليه بلطفٍ ورفقٍ، مع إظهاره الرّغبة في المقام، فلَمّا كان يوم عرفه لحجّ عام (٣٥٠هـ)، وكان من رسم كافور الاستعداد للعيد والغفلة عمّا سواه –انتهز المُتَنَبِّي ذلك، ففرّ فيه بعد أن أملى قصيدته على مَن يأمنه ومطلعُها(٣):

عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ بِما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ

فرّ المُتَنَبِّي من مصر هارباً، وأخفى طريقه، وبذل كافور في طلبه ذخائر الرّغائب، لكنّ أبا الطّيّب عمي خبر سيره على عيون كافور؛ لأنّه

(١) المرجع نفسه (٢٧٢/٤).
(٢) المرجع نفسه (٣٢٤/١).
(٣) ديوانه (١٣٩/٢).

لم يَسِرْ على الطّريق المعتادة، وكان في منعةٍ من عبيده، يَنْزل بهم على الأعراب، وكلّما ورد على قومٍ أكرموه[١].

وقد وصل الكوفة بعد أربعة أشهرٍ من سفره، وله قصيدةٌ راقصةٌ من المتقارب مطلعُهَا[٢]:

ألا كُلُّ ماشيةِ الخيزلى فدى كلّ ماشيةِ الهيذبَى

وصف فيها رحلته وعدد الدّيار التِي مرّ بها.

وللمُتَنَبِّي في كافور عدّةُ قصائدَ هجائيةٍ مقذعةٍ، تَنَمُّ عن أنّ مودّتَهُ لم تكن خالصةً في قصائد مدحه.

٢- بين الكوفة وبغداد:

دخل أبو الطّيّب الكوفة في شهر ربيع الآخر سنة: (٣٥٠هـ)[٣]، ولم يدم مكثه فيها كثيراً، وقد اختلف في مقداره؛ فقيل إنّه مكث فيها أيّاماً[٤]، وقيل: سنة[٥]، ثم غادرها إلى بغداد.

وبعد دخولها حفَّ به مريدوه، فاستقبلوه أحسن استقبالٍ.

---

(١) الصّبح المُنبّي (١٢٤-١٢٥).

(٢) ديوانه (١/١٦٠)، والخبر في الصّبح المُنبّي (١٢٥-١٢٧).

(٣) الصّبح المُنبّي (١٢٧).

(٤) سرح العيون بشرح رسالة ابن زيدان، لجمال الدِّين بن نباته المصري، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط المكتبة العصرية، صيدا، (ص ٤٠).

(٥) أبو الطّيّب المُتَنَبِّي بلاشير (٣١٣).

وتتّسم هذه الفترة التي قضاها في بغداد بحدَثَين بارزَين:

أوّلهما: اجتماع شداة الأدب حولَهُ، وروايتهم شعرَهُ[(١)].

وثانيهما: ما وقع له مع الحاتَميِّ الأديبِ البغداديِّ حين أعرض أبو الطّيّب عن مدح الوزير البويهيّ-المهلبي-، ولكراهة معزّ الدّولة له، فإنّ الحاتَميَّ ندب نفسه ليشفي غليلهما، فدارت بينه وبين المُتَنَبِّي محاوراتٌ كانت بمحضر عددٍ من علماء بغداد، وشداة الأدب فيها، وبإشراف الوزير المهلبي نَفْسِهِ[(٢)].

وعلى أثر هذه المجالس خرج أبو الطّيّب من بغداد مغاضباً بعد أن ألْحفَ عليه شعراؤها بالهجاء[(٣)].

وكان المثيرُ لهم هو الوزيرُ المهلَبيُّ غيظاً وحنقاً من المُتَنَبِّي،والغريب أنّ أبا الطّيّب لم يجبهم، فقيل له في ذلك فقال:

«إنّي فَرَغْتُ من إجابتهم لقولي لِمَن هو أرفع منهم:[(٤)]

أرى المتشاعرينَ غُرَو بذَمِّيْ ... ومَن ذا يحمدُ الدّاءَ العُضَالا

ومَن يكُ ذا فمٍ مُرٍّ مريضٍ ... يجدْ مرّاً به الماءَ الزّلالا

---

(١) الرّسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطّيب، وساقط شعره لأبي عليّ محمّد الحاتِمي، تحقيق: محمّد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ (ص: ٩) ، وانظر: أبو الطّيِّب المُتَنَبِّي بلاشير (٣٢٦).

(٢) الرّسالة الموضحة (٩٧).

(٣) يتيمة الدّهر (١/١٢٠-١٢١)، والصّبح المُنَبِّي (١٤٣-١٤٥).

(٤) ديوانه (٣/٣٤٤).

. . .)[١] وذكر أبياتاً أُخَرَ في هذا المعنَى.

ومِمّا أفاده المُتَنَبِّي من إقامته ببغداد ذيوعُ الصّيتِ، وتسابقُ الأمراء والسّادة إليه، وحرصهم على أن يحظو بمدحه، ومنهم الصّاحب بن عبادٍ، لكنّ أبا الطّيّب لم يجبه، فكان سبباً في مكاشفته له بالعداوة، وابن العميد الذي أجابه المُتَنَبِّي بعد حين[٢].

وقد اتّجه إلى الكوفةِ؛ فبقي فيها إلى أن توجّه صوبَ ابن العميد في أَرَّجَانَ، فأقام فيها بقية عام (٣٥٢) و عام (٣٥٣هـ).

٣- في فارس:

أ- في أَرَّجَان:

وصل أبو الطّيّب إلى أَرَّجَان حيث وزيرُ ركنِ الدّولة أبو الفضل محمّد بن الحسين المعروف بابن العميد، وكان بعث رسالة إلى أبي الطّيّب يستزيره فيها.

وكان وصوله في شهر صفر من عام (٣٥٤هـ)[٣]، وقد صحبه عدد من الأدباء منهم عليٌّ بن حمزةَ البصريّ وابنُ جنِّي.

---

(١) - الصبح المنبي : (١٤٣-١٤٤).

(٢) اليتيمة (١/١٢٢)، و الصّبح المُنَبِّي : (١٤٥-١٤٦)، و المتنبي لمحمود شاكر : (١/٢٧٣)، و بلاشير (٣٢٩)، و مع المتنبي لطه حسين : (٣٥٦).

(٣) الصّبح المُنَبِّي (١٤٧).

وقد احتفى به ابن العميدِ حاوةً عظيمةً، فمدحه بثلاثِ قصائدَ ومطقوعتين، ومكث عنده إلى آخر أيّام ربيع الثّانِي من السّنة نفسه؛ حيث ورد عليه خطاب عضد الدّولة من شيراز يستزيده، فرحل عن ابن العميد بعد أن ودَّعه بقصيدة مطلعها[1]:

نسيتُ ولا أنسَى عتاباً على الصّدِّ ولا خَفَراً زادت به حمرة الخَدِّ

وقد أعجب المُتَنَبّي بثقافة ابن العميد، الذي كان كثيراً ما ينتقد عليه شعره ويحاوره فيه[2]،وقد أشار المُتَنَبّي إلى هذا الإعجاب بقوله فيه[3]:

من مبلغُ الأعرابِ أنّي بعدها شاهدتُ رسطاليسَ والإسكندرا

وقد أفاد المُتَنَبّي منه على قصر مكثه عنده مالاً عظيماً.

ب- في شيراز:

رحل أبو الطّيّب عن ابن العميد إلى عضدِ الدّولة، فوصل شيرازَ في شهر جمادى الأولى سنة: (٣٥٤هـ)، فاستقبله عضدُ الدّولة أحسنَ استقبال، ومكثه لديه إلى أيّامٍ من شعبان[4]، مدحه خلالها بسبع قصائدَ ومقطوعةٍ واحدةٍ، وقد غنم منه مالاً عظيماً كان من أسباب طمع الأعرابِ فيه.

---

(١) ديوانه (٢/١٦١).

(٢) الصّبح المنبّي (١٤٧).

(٣) ديوانه (٢/٢٧٦).

(٤) أبو الطّيّب المُتَنَبّي بلاشير (٣٦١)، والمُتَنّي محمود شاكر (١/٢٨٧).

خرج أبو الطّيّب من شيراز مختاراً، بعد أن استأذن عضدَ الدّولة على أن يعود إليه، ومدحه مودِّعاً له بقصيدةٍ مطلَعُها(١):

فدىً لك من يقصرُ عن مداكا فــلا ملــكٌ إذن إلاّ فــداكا

رابعاً: مقتله:

حتّى إذا شارف بغدادَ هجم عليه قومٌ من الأعرابِ؛ فقتلوه، هــو وابنُهُ وغلمَانُهُ واستلبوا أمواله، وجميع ما حمله من رحلته هذه، التِي أثْرِيَ بها، وذلك لليلتين بقينا من شهر رمضان عام: (٣٥٤هـــ).

والذي قتله هو فاتك الأسدي مع جماعةٍ من بنِي عمّــه، في ديــر العاقول، بالقرب من بغداد بينها وبين واسط(٢).

وقد رثاه عددٌ من الشّعراء، ذكر البديعيُّ ثلاثةَ منهم، كــان مــن أبرزهم: أبو الفتح عثمان بن جنِّي، صديقه الحميمُ، وأطول النّاس ملازمةً له، فقد رثّاه بقوله(٣):

(١) ديوانه (٣/١٢٣)، وفي القصيدة أبياتٌ ينعِي فيها نفسه وإن لم يقصده.
انظر: اليتيمة (١/٢٢٢)، الصُّبْحُ المُنَبِّي (١٦٦-١٦٧).
(٢) الصُّبْحُ المُنَبِّي (١٧٠-١٧١).
وانظر الخلاف في أسباب قتله: الصُّبْحُ المُنَبِّي (١٧٠-١٧٤)، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، للسّيوطِي (١/٥٦٠)، تحقيق: محمّد أبــو الفضــل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٧م، المُتَنَبِّي، محمود شــاكر (١/٢٨٧-٢٨٨)، ومع المُتَنَبِّي طه حسين (٣٧٥).
(٣) الصُّبْحُ المُنَبِّي (١٧٥-١٧٧).

سُلِبْت ثوبَ بهاءٍ كنــتَ تَلبَسُــهُ كما تَخَطَّفُ بالخطيــةِ السَّــلْبُ
ما زلت تصحبُ في الجلي إذا نزلت قلباً جميعاً وعزماً غــير منشــعِبِ
وقد حلبتَ لعمري الدَّهرَ أشــطَرَهُ تمطو بهمــةٍ لا وانٍ ولا نَصِــبِ
مَنْ للهواجل يُحْيِيْ مَيْتَ أَرْسُــمِهَا بكلّ جائلةِ التّصــديرِ والحقــبِ
قباءَ خوصــاءَ محمــودٌ علالتــها تنبو عريكتها بــالحلسِ والقتــبِ
أم من لسرحانها تقريــه فضــلته وقد تضور بين البأس والسّــغبِ
أم من لبيض الظُّبــا توكــافهنّ دم أم من لسمر القنا والزّغف واليلب
أم للمعارك يذكي جمــر جاحمهــا حتّى يعرِّيَها عن ساطع اللّهــب
أم للمحافــل إذ تبــدو لتعمرهــا بالنّظم والنّثر والأمثال والخُطَــب

خامساً: شخصيّته

من خلال مطالعاتنا ما ذكره المؤرِّخون عن شخصية المُتَنَبِّي نستطيع أن نخرج بمجموعةٍ من الملامح لهذه الشّخصية، ومن ذلك:

أنّه كان ذكيّاً مشهوراً بقوّة الحافظة(١)، وكانت له قدرةٌ على تحمّل الشّاقّ والاغتراب، عبَّر عنها بقوله(٢):

وفي الجسمِ نفسٌ لا تشيبُ بشيبِه ... ولو أنّ ما في الوجهِ منه حِرابُ
لها ظُفُرٌ إنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّه ... ونابٌ إذا لم يبقَ في الفمِ نابُ
يُغَيِّرُ مِنّي الدّهرُ ما شاء غيرَها ... وأبلغُ أقصى العمرِ وهي كَعَابُ
وإنّي لنجمٌ تهتدي بِيَ صحبتي ... إذا حال من دون النّجومِ سحابُ
غنِيٌّ عن الأوطانِ لا يستفزّني ... إلى بلدٍ سافرْتُ عنه إيابُ

وقد ساقه هذا الاعتدادُ بنفسه إلى الطّموح إلى أعلى مراتب المجد، لكن طموحه قد تحوّل إلى خلقٍ ذميمٍ جعله يستهين بالورى كلّه(٣):

أيُّ محلٍّ أرتقي ... أيُّ عظيمٍ أتّقي
وكلُّ ما خَلَقَ اللّهُ م ... وما لم يَخْلُقِ
محتقرٌ في همّتِي ... كشعرةٍ في مفرقِي

(١) تاريخ بغداد (١٠٣/٤).

(٢) ديوانه (٣١٦/١).

(٣) ديوانه (٨١/٣).

وقد دعاه هذا الطّموحُ إلى التّعاظم والغرور حتّى على الأمراء والملوك، وشعره بذلك، ومنه قوله في مجلس سيف الدّولة[(١)]:

سيعلمُ الجمعُ مِمَّن ضَمَّ مجلسُنَا بأنَّنِي خيرُ مَن تسعَى به قدمُ

وقد كان تعاظمه سبباً في كثرة أعدائه -كما ذكرنا آنفاً-، من أمثال: الوزير المهلبي، والصّاحب بن عباد، وعددٍ كثيرٍ من الشّعراء[(٢)].

ومع أنّه قضى أغلب عمره مغترباً عن بلده ومسقط رأسه، غير مستقرٍّ في بلدٍ ما؛ فإنّنا لا نجده يحن إلى مثوى صباه، ولعلّ مرد ذلك إلى نشأته الغامضة؛ فليس له أقاربُ يحن إلى لقائهم، أو له، ولكنّه تناساهم، وقد أفصح عن ذلك فقال[(٣)]:

وحيدٌ من الخلانِ في كلّ بلدَةٍ إذا عظمَ المطلوبُ قلَّ المساعدُ

وقال[(٤)]:

غَنِيٌّ عن الأوطانِ لا يستفزّني إلى بلدٍ سافرتُ عنه إيابُ

ومِمّا ذكر له أنّه كان يترّفع عن صغائر الأمور وسفسافها، وأنّه كان عفيف النّفس، فلم يخرج في شعره إلى حديثٍ خارجٍ حدود الأدب والأخلاق وديوانه شاهدٌ على ذلك.

---

(١) ديوانه بشرح اليازجي (٣٤٢)، المُسَمَّى: العرف الطّيّب بشرح ديوان أبي الطّيّب للشّيخ ناصيف اليازجي.

(٢) الرّسالة (١١٤-١١٥).

(٣) ديوانه (٣٩٣/١).

(٤) ديوانه (٣١٦/١).

كما كان كثير الاعتزاز بعربيته ومن ذلك قوله(١):

وإنّما النّاسُ بالملوك وما تفلحُ عربٌ ملوكها عَجَمٌ

ولذا أحبّ سيفَ الدّولة، فقد جعله أميراً للعرب؛ لأنّه يرى أنّهم بحاجّة إلى أميرٍ يجمع كلمتهم في وقتٍ ضعفت فيه شوكَتُهُم؛ فقال في مطلَعِ قصيدةٍ أجاب بها عن كتاب أرسله سيفُ الدّولة إليه(٢):

فهمتُ الكتابَ أبرّ الكتب فسمعاً لأمر أميرِ العربْ

ويدلّ على اعتزازه بعربيّته فخره بالأعرابيات من قصيدته التِي مدح بها كافوراً ومطلَعُها:

مَنِ الجآذر في زِيِّ الأعاريبِ حمرُ الحُلَى والمطايا والجلابيبِ

وفيها يقول(٣):

ما أوجهُ الحَضَرِ المستحسناتُ به كأوجهِ البدوياتِ الرّعابيبِ

حسنُ الحضارةِ مجلوبٌ بِتطْرِيَةٍ وفي البداوةِ حسنُ غير مجلوبِ

وقد رأى بعض الأدباء أنّه تحوّل عن هذا الاعتزاز بعربيّته لَمّا رحل إلى بلاد فارسَ؛ لأنّه قال مخاطِباً ناقته: (٤)

---

(١) ديوانه (١/١٧٩).

(٢) ديوانه (١/٢٢٥).

(٣) ديوانه (١/٢٨٨-٢٩١).

(٤) ديوانه (٢/٢٧٦).

انظر: أبو الطّيّب المُتَنَبِّي في مصر والعراقين، د/ مصطفى الشّكعة (٤٥٦).

تَرَكَتْ دخانَ الرِّمْثِ في أوطانِها طلباً لقومٍ يوقدون العنبرا

ثم تحدّث عن ممدوحه مخاطِباً لعرب:

من مبلغُ الأعراب أنِّي بعدها شاهدتُ رسطاليسَ والإسكندرا
ومللتُ نحرَ عشارِها فأضافَني من ينحرُ البِدَرَ النُّضَارَ لِمَن قرى

ولكن الواقع أنّ قوله هذا جاء في مقام إبراز خصائص ممدوحه، ويدلّ عليه أنّه لِمَّا تعمّق في بلاد فارسَ —وهو في طريقه إلى عضد الدّولة، وقد مرّ بشِعب (بَوّان)، فلم ير عربيّاً– قال(1):

مغانِي الشِّعب طيباً في المغاني بِمَنْزلة الرّبيع من الزّمان
ولكن الفتَى العربِيَّ فيها غريبُ الوجهِ واليدِ واللّسانِ

وقد كان المُتَنَبِّي في حياته قليلَ الأصدقاءِ، سيِّءَ الظَّنِّ بالاختلاط بالنّاس، مِيَّالاً إلى أن تكونَ علاقَتُهُ في أضيقِ نطاقٍ.

وقد عبّر عن قلّة أصدقائه في كثيرٍ من قصائده، ومنها قوله في مصر(2):

بم التّعللُ لا أهلٌ وطنٌ ولا نديمٌ ولا كأسٌ ولا سكنُ

---

(1) ديوانه (٤/٣٨٣-٣٨٤).

(2) ديوانه (٤/٣٦٣)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

وقال معبِّراً عن حاجته إلى مَن يودُهُ ودّاً صافياً[١]:

إذا نلتُ منك الودَّ فالمال هــينٌ وكلُّ الذي فوقَ التّرابِ شرابُ
وما كنتُ لولا أنتَ إلاّ مهــاجِراً له كلَّ يوم بلــدةً وصــحابُ

وعبّر عمّا يلاقيه مِن مجاملاتٍ زائفةٍ، وابتساماتٍ خادِعةٍ بقوله[٢]:

ولَمّا صــار ودُّ النّــاسِ خَبّــاً جزيتــهم ابتســاماً بابتســامِ

والأصدقاء الأوفياء –في نظره– قليلٌ، فها هو ذا يشبه ندرةَ جيــادِ الخيل بندرة الصّديق الحقّ[٣]:

وما الخيلُ إلاّ كالصّــديقِ قليلــةٌ وإن كثرتْ في عينِ مَن لا يجرّبِ

ولو تتبّعنا أسماء أصدقاء أبي الطّيّب لوجدناهم من غير ذوي المنصبِ والجاه، فهم بين عالِمٍ نزيهٍ؛ كابن جنِّي، أو طالــبِ علــمٍ، أو ورّاقٍ، أو شاعرٍ ،قد اعترف له بالفضل؛ كأبِي الفرج الببغاء[٤].

(١) المرجع نفسه (٣٢٧/١).
(٢) المرجع نفسه (٢٧٤/٤)، من قصيدةٍ يصف بها الحمى التِي نزلت به في مصر.
(٣) المرجع نفسه (٣٠٤/١)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.
(٤) أبو الفرج الببغاء، هو: عبد الرّحمن بن نصر المخزومِي، شاعرٌ شهيرٌ، وكاتبٌ مجيدٌ، من كتّاب سيف الدّولة، وشعرائه، توفّي سنة: (٣٩٨هـ).

سادساً: شعره وشاعريَّتُهُ

أولاً–شعره:

يُعدّ المدحُ محورَ أغراضه الذي بنَى عليه آماله، متنقِّلاً من مكانٍ إلى مكانٍ (وكان قبل اتّصاله بسيف الدّولة يمدح القريبَ والبعيدَ، ويطصاد ما بين الكركيِّ والعندليب)[١]، ولكنّه بعد اتّصاله به لم يمدح إلاّ الملوك من أمثال: كافور، وعضد الدّولة عدا ابن العميد، وأبِي شجاع فاتك المجنون.

هذا، وشخصيّة الممدوح قد تعدّدت؛لكن ملامحه التِي هي الفروسية والكرم لم تتبدّل في صوره الشّعرية.

وأصدق مدائحه وأعمقها ما كان في سيف الدّولة؛ لأنّ سيف الدّولة كان أديباً، شاعراً، ناقداً، كريماً، سخيّاً، معطاءً، وأمراء أسرته أدباء شعراء،وبلاطه مليءٌ بالعلماء، فكان يعنِي بشعره من أجل هذا، وقد اعترف هو بذلك[٢].

وكان كثيراً ما يخلط مدحُهُ بفخرٍ بنفسه أو شكوى من الدّهر، وقد لحظ ذلك فقال[٣]:

ألا ليت شعري هل أقولُ قصيدةً فلا أشتكي فيهـا ولا أتعتَّـبُ

(١) يتيمة الدّهر (١/١١٦).

(٢) انظر: الصُّبْحُ المُنَبِّي (٩٨-٩٩).

(٣) ديوانه (١/٣٠٤).

كما قد عرف بظاهرة المدح الموجه؛ إذ تراه يأتِي بأبياتٍ تحتمل المدح والذّمّ حسب تفسير مَن فسّرها، وأكثر هذا النّوع في قصائده التِي مدح بها كافوراً[1].

ومن أغراض شعره:

١- الفَخْرُ: وقد وزعه على أبواب شعره، فإنّ مدح افتخر، وإن وصف عبّر عن نفسه المحبّة للقوّة.

وقد كان يقسّم القصيدة في بعض الأحايين بينه وبين ممدوحه؛ فيصف نفسه، ثم يصف ممدوحه، حتّى إنّه ليرفع نفسه فوقه، فلا يبقى له شيئاً.

كما يفختر بشعره، ويرى أنّه هو الشّعر[2]:

ما نال أهلُ الجاهليةِ كُلُّهُم   شعرِي ولا سمعت بسحرِي بابلُ

وافتخاره بشعره عند سيف الدّولة أكثر منه عند غيره؛ لأنّه قمةُ اشتهاره ومبلغ تجويده، ولكثرة منافسيه لديه.

---

(١) انظر: المثل السّائر (١/٩٢-٩٥)، والصُّبْحُ المُنَبِّي (١١٩-١٢٠)، والرّسالة المسمّاة: (قلب كافرويات أبي الطّيب المُتَنَبِّي من المديح إلى الهجاء)، للأديب التّركِيّ عبد الرّحمن بن حسام الدّين زاده الرّومِي، تحقيق: د/ محمّد يوسف نجم، ط دار الأمانة ومؤسّسة الرّسالة، بيروت عام: ١٣٩٢هـ.

(٢) ديوانه (٣/٣٧٦)، من قصيدةٍ يمدح بها القاضي أبا الفضل أحمد بن محمّد الأنطاكِي.

وشعره الفخريّ عنوانٌ للنّفس الأبيةِ التِي تترّفعُ عن الدّنايا، وتطمح إلى معالِي الأمور.

وفخره آخر حياته بعد تجاوز مرحلة الشّباب أصدق من فخره في شبابه؛ لأنّه أدقُّ في إبراز خلاله وصفاته ومحاس أخلاقه، كما ظهر فيه الافتخار بشعره كثيراً.

٢-شعر الوصف: الذي جاء عرضاً في قصائد المدحِ والفخرِ والهجاء، إلاّ ما ندر، وينقسم إلى قسمين:

وصف مشاهد الطّبيعة ووصف المعارك الحربية.

ووصفه مشاهد الطّبيعة، فإنّه قليلٌ على كثرة تجواله،ومن أكثر ما أطال فيه وصفه شعبَ بَوَّان[١]، وبُحيرة طبرية[٢]، ووصف ظبيٍ وكلبِ صيدٍ، من قصائدَ طرديةٍ رجزيةٍ[٣]ووصف الأسدو منه قوله فيه[٤]:

وَرْدٌ إذا وردَ البحيرةَ شارِباً ... وردَ الفراتَ زئيرُهُ والنّيلا

متخضبٌ بدمِ الفوارسِ لابسٌ ... في غيلِه مِن لِبْدَتَيْه غِيْلا

ما قوبلتْ عيناهُ إلاّ ظَنّتا ... تحتَ الدُّجَى نارَ الفريقِ حلولا

في وحدةِ الرّهبانِ إلاّ أنّه ... لا يعرفُ التّحريمَ والتّحليلا

---

(١) ديوانه (٣/٣٨٣)، من قصيدةٍ يمدح بها عضد الدّولة.

(٢) ديوانه (٤/١٨٧-١٨٩)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِي.

(٣) ديوانه (٢/١١٤).

(٤) ديوانه (٣/٣٥٤-٣٥٧)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

والشّعر الذي وصف به مشاهد الطّبيعة على قسمين:

و ينقسم إلى قسمين:

١-**قسم اقتفى** به آثار الأعراب من حيث الصّور وغرابة اللّغة، وهذا في طرديّاته.

٢-**قسمٌ غنائيٌّ** خالِصٌ كوصفه شعب بوّانَ وبحيرةِ طبرية، وهو ما أبدع فيه وظهرت فيه سماته وملامحه الشّعرية.

و وصف المعارك الحربية، و هو ما سأتحدث عنه فيما يأتي بحول الله.

٣- **شعر الغزلُ**: الذي لا يدلّ على أنّ المُتَنَبِّي أحبّ يوماً، وإن رأى بعض الباحثين أنّه أحبّ خولة الأخت الكبرى لسيف الدّولة[1]، فليس في شعره ذكر لِمحبوبٍ يردّدُ اسمَهُ ويتشوّق إليه.

وهو ينظر إلى المرأة على أساس أنّها غدارة لا تفي بحقّ أحدٍ، وقال قال[2]:

إذا غدرتْ حسناء وفَّتْ بعهدها فمن عهدِها أن لا يدوم لها عهدُ

وهو يرى العشق خداعاً وتعريضاً النّفسَ للتّهلكة[3]:

وما العشقُ إلاّ غِـرَّةٌ وطَمَاعـةٌ يُعَرِّضُ قلبٌ نفسَـهُ فيصـابُ

(١) المُتَنَبِّي، محمود شاكر (١/٢٢٧-٢٥٠).

(٢) ديوانه (٢/١٠٤).

(٣) ديوانه (١/٣١٨).

وقد ثار على الشّعراء الذين يتغزلون في مقدمّات قصائدهم؛ فقال[١]:

إذا كان مدحٌ فالنّسيب المقدَّمُ أكُلُّ فصيحٍ قال شعراً مُتَيَّمُ

ومع هذا كلّه؛ فإنّ له غزلاً جاء في بعض مقدّمات قصائده؛ لكنّه غير كثيرٍ، ولم يفرد لذلك قصائدَ أو مقطوعاتٍ بعينها.

ومَن يمعن النّظر في غزل أبي الطّيّب يره لم يختلف كثيراً عن شكل الغزل التّقليدي في الشّعر العربي.

وهو كثير النّسيب بالأعرابيّات يفضلهنّ على الحضريات بسذاجتهنّ وعفّتهنّ[٢].

ولغزل أبي الطّيّب صفةُ العفّةِ والبعدِ عن المجون، فإن نسب أبرز أسمَى ما بالفتاة العربية من صفات الطّهرِ والنّقاء؛ كقوله[٣]:

هامَ الفؤادُ بأعرابيةٍ سكنتْ بيتاً من القلبِ لم تَمْدُدْ له طُنُبا
بيضاءُ تُطْمِعُ فيما تحتَ حلّتِها وعزَّ ذلك مطلوباً إذا طلبا

٤-شعر الهجاء: وقد جاء عنده في قصائدَ ومقطوعاتٍ مستقلّة نظمها بقصد الهجاء، دون اختلاطٍ بغرضٍ من الأغراض، أو مُكَمِّلاً وتابعاً لأغراضٍ أخر في عددٍ من قصائده، ويكثر الهجاء في صباه وفي آخر حياته

---

(١) ديوانه (٤/٦٩).

(٢) انظر: يتيمة الدهر (١/١٧٧-١٧٨)، فقد عدّ هذا من محاسن شعره.

(٣) ديوانه (١/٢٣٨-٢٣٩).

في هجائه كفاوراً.

وقد يهجو هجاءً عامّاً لا يقصد به فرداً بعنيه، فيهجو النّاس، والدّهر الذي أتى به بينهم؛ كقوله[١]:

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ وإن كانتْ لهم جثثٌ عظامُ
وما أنا منهم بالعيشِ فيهم ولكنْ معدنُ الذّهبِ الرّغامُ
أرانبُ غير أنّهُمُ ملوكٌ مفتحةٌ عيونُهُمُ نيامُ

ومبعث هجائه العامّ هو الاعتداد بنفسه، والفخر بها على كلّ مَن لقي، وأنّه لم يلق في زمنه ما يستحقّه من تقديرٍ واحترامٍ.

أمّا هجاؤه لأشخاصٍ معيّنين؛ فيعود إلى أنّهم قصروا بحقّه، ولم يكرموه أو منعوه حقّه وبغيته كهجائه كافوراً وابن كيغلغ[٢].

كما كان يهجو الشّعراء هجاءً عامّاً فينسب الشّاعرية إلى نفسه، ويجرّدهم منها، وأشدّ قصائد الهجاء وأطولها ما كان في كافور، فقد أَلَحَّ على هجائه وذمّه.

٥-**شعر الرّثاء**: وللمُتَنَبِّي منه عشرةُ قصائدَ، من أشهرها ثلاث قصائدَ، بدأ فيها اتّقاد العاطفة والحزن على المرثِيِّ، أولاها: في جدّته[٣]،

(١) ديوانه (٤/١٩٠-١٩١)، من قصيدةٍ يمدح بها المغيث العجلي.

(٢) ابن كيغلغ، هو: إسحاق بن كيغلغ ويبدو أنّه أحد الأمراء في الشّم و لم أجد له ترجمة.

(٣) ديوانه (٤/٢٢٦).

والثّانية: في فاتك المجنون[١]، والثّالثة: في أخت سيف الدّولة[٢].

ومراثيه –عامة– لا تثير عاطفةً يقدر ما تُنبئ عن عظمة المرثَى لدى الشّاعر بِما يصوّر من جلالة قدره وعظم الحادث ومكانة الفقيد[٣].

ويحشد في مراثيه الحكمة والنّظرات الفلسفية في مثل قوله في فاتك[٤]:

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ ... عمّا مَضَى فيها وما يتوقّعُ
ولِمَن يُغالِطُ في الحقيقةِ نَفسَهُ ... ويسومُهَا طلبَ المُحَالِ فتطمعُ
أين الذي الهرمانِ مِن بنيانِهِ ... ما قومُهُ ما يومُهُ ما المصرعُ

كما أنّه قد يفختر في رثائه، مع أنّ هذا غير مقامه، مثل قوله في رثاء جدّته[٥]:

ولو لم تكوني بنتَ أكرمِ والدٍ ... لكانَ أباكِ الضّخمَ كونكِ لِي أُمّاً
لئن لذَّ يوم الشّامتين بيومها ... لقد ولدت منِّي لأنفهم رغما
تغربَ لا مستعظماً غير نفسِهِ ... ولا قابلاً إلاّ لخالقه حُكْما

---

(١) ديوانه (٣/١٢).

(٢) ديوانه (٢/٢٤٢).

(٣) أبداء العرب لبطرس البستانِي (٢/٣٥)، و(المُتَنَبِّي) ضمن الموسوعة الأدبية الميسّرة لخليل شرف الدِّين، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت (١٣٢).

(٤) ديوانه (٣/١٣).

(٥) ديوانه (٤/٢٣٢).

٦-شعر الحكمة: التي كان لحياة المُتَنَبِّي أكبر الأثر في كثرتها، وقد وزّعها أبو الطّيّب في سائر أغراض شعره.

ولكثرة الحكمة في شعره اتَّهَمَه الأدباء بالاطّلاع على كتب الفلاسفة، وقد ألّف الحاتِمي رسالةً في ذلك، مع أنّه لم يجزم بأنّ أبا الطّيّب قد أخذها منها؛لكنّه معجبٌ بها، ويرى أنّه إن لم يأخذها منهم، فقد فاقهم بوقوعه عليها دون درسٍ أو تحصيلٍ، وإن أخذها؛ فقد فاقهم في الإيجاز والبلاغة[1].

هذا، وقد وقف الثَّعَالَبِيُّ عندَ محاسنِ شعر المُتَنَبِّي فعدّ منها:

حسن المطلعِ، وحسنَ التّخلّصِ، وحسنَ التّشبيهِ، بغير أداةٍ، وحسنَ التّقسيم، وإرسالِ الحكم والأمثال[2].

كما وقف عند عيوب شعره التِي عدّ منها:

التّعمية والتّفاوت بين الجيّد والرّديء والإتيان بالشّاذّ في اللّغة والغريب الوحشي والمبالغة الممقوتة[3].

---

(١) الرّسالة الحاتِمية، لأبي عليّ محمّد بن الحسين بن المظفر الحاتمي، ضمن: (كتاب التحفة البهية والطّرفة الشّهية)، تحقيق: لجنة التّراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الأولى عام ١٤٠١هـ.
(١٤٤-١٤٥).

(٢) يتيمة الدّهر (١/١٧٤، و١٧٥، و١٨٠، و١٩٤، و١٩٨، و٢٠١، و٢٠٣).

(٣) المرجع السّابق (١/١٤٧، و١٥٣، و١٥٤، و١٥٧، و١٦٠، و١٦٤).

ثانياً- شاعريّته:

لم يلق شاعرٌ من شعراء العربية ما لقيه أبو الطّيّب من اهتمام العلماء بشعره ودراستهم له بين حفظٍ أو شرحٍ، وما ذاك إلاّ لجودة جلّ شعره، ولإلقاء الضّوء على ذلك ننقل بعض ما قاله العلماء عن شاعريّة هذا الرّجل:

قال أبو منصور الثّعَالِبي: «هو... نادرةُ الفلك، وواسطة الدّهر، في صناعة الشّعر... حتّى سار ذكره مسير الشّمس والقمر، وسافر كلامه في البدوّ والحضر، وكادت اللّيالي تنشده والأيام تحفظه»[(١)].

وقال عنه ابن رشيق -بعد حديثه عن شهرة أبي نواس وحبيب والبُحْتُرِيّ-: «ثم جاء المُتَنَبِّي فملأ الدّنيا وشغل النّاس»[(٢)].

وقال عنه ابن شرف القيرواني: «وأمّا المُتَنَبِّي فقد شغلت به الألسنُ وسهرت في أشعاره الأعين، وكثر النّسّاخ لشعره، والآخذ لذكره والغائص في بحره، والمفتّش في قعره عن جمانه ورده، وطال فيه الخُلْفُ وكثر عنه الكشفُ، وله شيعة تغلو في مدحه، وعليه خوارج تتعايا في جرحه»[(٣)].

وقال عنه ابن الأثير: «وعلى الحقيقة؛ فإنّه خاتم الشّعراء، ومهما

(١) المرجع السابق:(١/ ١١٠).

(٢) العمدة لابن رشيق (٧٦).

(٣) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسامن الشّنتريني (٧/ ٢١٠)، طبعة الدّار العربية للكتاب عام ١٣٩٥هـ، تونس.

وصف به فهو فوق الوصف، وفوق الإطراء، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح سيف الدّولة:

لا تطلبَنّ كريماً بعد رؤيَتِه   إنّ الكرامَ بأسخاهم يداً ختموا
ولا تبال بشعرٍ بعد شاعرِه   قد أُفْسِدَ القول حتّى أُحْمِدَ الصّمُ

...»[1].

ومع كلّ هذه الأقوال؛ فإنّ هناك مَن طعنَ في شاعريّة أبي الطّيّب المُتَنَبِّي؛ فأَلّفَ الكتبَ الكثيرةَ في الطّعنِ عليه، ومن أشهر ذلك:

١- الإبانة عن سرقات المُتَنَبِّي، لأبي سعيد العميديّ.

٢- والكشف عن مساوئ المُتَنَبِّي، للصّاحب بن عباد.

٣- والرّسالة الموضِحَة للحاتمِي، وكلّها مطبوعة.

ولوقوف الأدباء منه هذا الموقف بين مبالغٍ في وُدِّهِ، ومتعاديٍّ في جرحه كما ابن الأثير: «ومع هذا؛ فإنّي ريت النّاس عادلين فيه عن سنن التّوسّط؛ فإمّا مُفَرِّطٌ في وصفه، وإمّا مُفْرِطٌ»[2].

فقد وجد من أنصف من نفسه، فوقف نفسه حكماً عدلاً بين الطّائفتين، فتحدّث عن حسنات شعره، ومعائبه، ومن أشهر مَن عمل ذلك: القاضي الجرجانِي في وساطاته، ومثله: الثّعَالَبِي في يتيمته.

وبهذا نأتِي إلى نهاية الحديث عن عصر المُتَنَبِّي وحياته.

(١) المثل السّائر لابن الأثير (٢٧١/٣)،والبيتان في ديوانه (١٤٢/٤).

(٢) المثل السّائر (٢٧١/٣).

الفصل الثَّالث:

الموازنة بين عصري الشّاعِرَين وبين حياتهما

- بين العصرَين
- بين الحياتَين.
- نتائِجُ

الموازنة بين عصري الشّاعِرَين وبين حياهما

أوّلاً: بين العصرَين:

أ- الحياة السّياسية.

١- الخلافة والخلفاء.

ولي الخلافة في عصر البُحْتُرِيّ عشرة من الخلفاء، بينما وليها في عصر المُتَنَبِّي ستّة خلفاء ،و كلاهما في مدة نصف قرنٍ.

والخلفاء في عصر البُحْتُرِيّ أقوى شكيمة منهم في عصر المُتَنَبِّي، كما كان للخلافة هيبَتُهَا إذ لم يسيطر عليها أحدٌ من أهل الولايات المجاورة؛ فكلٌّ أمراء المناطق المجاورة خاضعون لهيمنة الخلافة، بينما ضعف شأن الخلافةِ والخلفاءِ ووزرائهم في عهد المُتَنَبِّي، لكثرة الولاياتِ الشافةِ عصا الطاعةِ، ولسيطرةِ البويهيّين على الخلافة فيما بعد.

وإذا كان البُحْتُرِيّ قد اتّصل بالخلفاء العبّاسيّين؛ فإن المُتَنَبِّي لم يتّصل بأحدٍ منهم، وإنّما كانت اتّصالاته مع الأمراء والولاة.

٢- الإمارات:

لم يكن هنالك في عصر البُحْتُرِيّ إماراتٌ وولاياتٌ مستقلّةٌ ذات شأنٍ، فكلّها خاضعةٌ لسلطانِ الخلافة، وأشهر ما وجد في ذلك العهد ولاية أحمد بن طولون على مصر.

أمّا الولايات في عصر المُتَنَبِّي فقد كان لها الشّأن الأكبر؛ إذ تــوزّع الأمراء الدّيارَ الإسلاميّةَ فيما بينـــهم، فلـــم يبـــق للخليفـــة إلى ســـنة: (٣٣٣هـــ)، سوى العراقِ، أمّا فارسُ فكان بيد البويهيّين، وبلاد التّرك في بيد السّامانيّين، ومرداويج، والشّـــام بيـــد الحمـــدانيّين، ومصـــر بيـــد الإخشيديّين، والعراق لم يكن للخليفة منه سوى الاسم، فالأمور بيد أمير الأمراء وهو منصب طغى على الوزارة، فصار بيده كلّ أمور الخلافة، مِمّا كان سبباً في تنافس الأمراء والقادة عليه، وبعد استيلاء البـــويهيّين علـــى العراق صار إليهم أمر الخلافة ممثّلة في إقليم العراق وفارس.

٣- الحروبُ والفِتَنُ الدّاخليةُ:

لَمّا كانت السّلطة في عصر البُحْتُرِيّ بيد الخليفة كانـــت الحـــروبُ الدّاخليةُ تعدّ فتناً قام بها بعض الخارجين على الخلافة، وقد تبـــدأ حينـــاً وتشبّ حيناً آخر، ومن أشهر تلك الحروب: حروبهم مع بابك الخرّمـــي وعلويِّ البصرة قائدِ الزّنج، ويعقوبِ الصّفار، وحروبِ المستعين مع المعتزّ، وفتن الخوارج، والقرامطة في آخر الأمر مع المعتضد.

أما عهد المُتَنَبِّي فالحروب تختلف فيه عن السّابقة، فليست بين الخلافة والخارجين عليها إلاّ في فترةٍ وجيزةٍ كحروبهم مع القراطمة في أوّل القرن —وإنّما هي حروبٌ بين أمراء الدّويلات فيما بينهم؛ كحروب البـــويهيّين مع السّامانيّين والحمدانيّين، أو حروب الحمدانيّين مع الإخيشـــيديّين، أو حروب الإخشيديّين مع الفاطميّين.

٤- الحروب الخارجية (الجهاد):

كانت الحروب الخارجية في عهد البُحتُرِيّ موكولةً إلى بعض القواد؛ كالإفشين، وأبي سعيد الثّغري، وابنه وغيرهم، إلاّ إذا استثنينا خروج المعتصم لفتح عمورية، وما جاورها من بلاد الرّوم.

هذا، وقد مرّ على هذه الحروب فتراتٌ هدأت فيها أو بالأحرى توقّفت منذ خلافة المعتزّ بالله إلى آخر القرن، وذلك لانشغال الخلفاء عنها بالفِتَن الدّاخلية.

وأمّا الحروب الخارجية في عهد المُتَنَبِّي فقد ولى أمرَها أصحابُ الإمارات التي وليت الثّغور؛ كالحمدانيِّين الذين ولوا ثغور الجزيرةِ والشّامِ، والسّامانِيّين الذين ولوا ثغور التّرك، والإخشيديّين الذين ولوا حروب البحر.

بيد أنّ معظم هذه الحروب كانت في ثغور الشّام والجزيرةِ بقيادة أبي العشائر وسيف الدّولة، وقد اشتُهرَت حروب سيف الدّولة لكثرتها، ولتسجيل المُتَنَبِّي لها، وكانت بين مدٍّ وجزر، فمرّة يغلِبُ سيفُ الدّولة الرّومانَ، ومرّة هم يغلبونه.

ب- الحياة الاجتماعية:

كانت الحياة الاجتماعية متشابهةً في أكثر أحوالها في كلا العصرَين، إلاّ أن سيطرة التّرك، كانت على عصر البُحتُرِيّ أكثر من سيطرة سواهم، وسيطرة الفرس على عصر المُتَنَبِّي أكثر، نظراً لتولِّيهم مقاليد الأمور، و لم تظهر سيطرة الفرس إلاّ بعد سيطرة البويّهيّين على العراق.

ومن جهة التّرف؛ فكان مرتكزه في عهد البُحْتُرِيّ في بغداد وما جاورها، لسطيرة الخلافة على المواد الاقتصادية، أمّا مراكزه في عهد المُتَنَبِّي فقد تعدّدت نظراً لتعدّد الولايات الخمس المشهورة في العراقِ، وفارسَ-فيه دولتان-، ومصرَ، والشّامِ.

وأمّا الفقر والبؤس فقد كثر في آخر عصر البُحْتُرِيّ أو بالأحرى في النّصف الثّانِي من القرن الثّالث، نظراً لكثرة الفِتَن الدّاخلية، ولمصادرة أموال الوجهاء من وزراء وقادةٍ وتجّار.

وأكثر المواطن التِي يشتدّ فيها الفقر: جنوبُ العراقِ، وأطرافُ الشّامِ لضعف السّلطان فيها، وكثرة الإغاراتِ على المدن والقرى، ونهب أموال النّاس فيها، وقد استمرّت هذه الشّدّة إلى أوائل القرن الرّابع في هذين الإقليمين أيضاً.

جـ الحياة الثّقافية:

نشطت الحاية الثّقافية والعلميّة في عصر البُحْتُرِيّ في شتّى المجالات، وخاصّة مجال اللّغةِ والفلسفةِ، وعلوم الفلك، والتّرجمةِ، لاهتمام المأمون في ذلك بإنشائه دار الحكمة.

وكانت الدّروس تقام في أشهر مساجد بغدادَ والبصرةِ والكوفةِ ودمشقَ والفسطاطِ والحرمَين، لكن جلّة العلماء مقيمون في بغداد؛ حيث القربُ من الخلافة مصدرُ الإشعاع وتوافر الأمن فيها عمّا في سواها.

وإذا ما جئنا إلى عصر المُتَنَبِّي وجدنا الحركة العلمية كما هي عليه من حيث النّشاط والقوّة، بيد أنّ مصادر إشعاعها قد تعدّدت؛ فبدلاً من

أن تكون فقط في بغداد ، نجدها شملت حلب، حيث سيف الدّولة الحمدانِي، وأرّجان حيث ابن العميد، وشيراز حيث عضد الدّولة، والفسطاط حيث كافور.

وأمّا من جهة العلماء فالعصران مليئان بمئات من العلماء المحقّقين الذين أرسوا قواعد الفنون.

وكذا كثرة الشّعراء، لكن شهرة البُحْتُرِيّ في عصره أخفت ذكر خمسمائة شاعرٍ من شعراء عصره[١]، وشهرة المُتَنَبِّي غطت على مَن سواه من الشّعراء سوى أبي فراس[٢].

ومن حيث المذاهب والفرق فأشهرها في كلا العصرَين أهلُ السّنة، والشّيعة، وةالباطنيّون، -ويمثّلهم القرامطة والفاطميّون-، والمعتزلة، والخوارج، والمتصوّفة.

وفي عهد المتوكّل علا سلطان أهل السّنة، واندحر سلطان المعتزلة.

وفي خلافة المعتضد اندحر الخوارج إلى عمّان، وقد ظهر القرامطة في آخر القرن الثّالث، واستمرّت شرهم إلى العقد الرّابع من القرن الرّابع، وظهر الفاطميّون في أوّل القرن الرّابع، وبثّوا دعاتِهم في مصر والشّام، ولكنّهم لم يسيطروا إلاّ على مصر في أوّل النّصف الثّانِي من القرن الرّابع، كما ازدادت حدّة التّصوّف في عهد المُتَنَبِّي، وظهر ما عرف بالشّعر الصّوفي، كما ازداد نفوذ الشّيعة في عصر المُتَنَبِّي على إثر استيلاء البويهيّين والفاطميّين السّلطَة في هذا العصر.

---

(١) الموازنة للآمدي (١/١٢).

(٢) العمدة لابن رشيق (٧٧).

ثانياً: بين الحياتين

أ- حياتهما:

نشأ البُحتُرِيّ في بادية الشّام في منبج وما جاورها بين أهليه وعشيرته، بيما نشأ المُتَنَبِّي في الكوفة والفتن عاصفة بها، والفقر ضارب بها جرانه، لا أهل له ولا عشيرة، فالتّاريخ لم يذكر لنا سوى أباه (السّقا) وأمّه التِي توفّيت وهو في صغره، وجدّته التِي كفلته وربّته.

ولَمّا بلغ الشّاعران مبلغ الفتيان رحل البُحتُرِيّ في طلب الرّزق تجاه الشّام أوّلاً، ثم تجاه العراق آخراً، ورحل المُتَنَبِّي في طلب الفصاحة أوّلاً في بادية الكوفة، ثم في طلب المجد ثانياً، ضارباً في وهادِ أرضِ الشّام خاصّة.

وقد وفّق البُحتُرِيّ في رحلاته، ووجد كلّ احترامٍ وتقديرٍ من ممدوحيه، خاصّة أبو سعيدٍ وابنه وبنو حميد الطوسيّ والفتح بن خاقان، الذي وصله بعدُ بالخليفة المتوكّل فَعَلا نَجْمُهُ بعدئذٍ وأثرى من هذا الاتّصال.

بينما لم يفلح المُتَنَبِّي في رحلاته الأولى مع مدحه عدداً من الأمراء والوجهاء، مِمّا كان سبباً في حقده وثورته عليهم بإثارة حفائظ الأعراب، مِمّا كان سبباً في إيداعه السّجن، ولكن سجنه هذا قد صار نقطة تحوّل في حياته، دعته إلى التّعقّلِ والبحثِ عمَّن يَحتضنه من الأمراء، فهيّء له بدرُ بن عمارٍ فمكث لديه سنيناً، ثم ارتحل عنه فلقي أبا العشائر، ومنه تعرّف على سيف الدّولة، فقرّ قراره لديه ووجد لديه كلّ تقديرٍ واحترامٍ، فأثرى

واستشهر من بعد ذلك.

ظلّ البُحْتُرِيّ محتفظاً بمكانته لدى الخلفاء إلاّ أنّ أمور الخلافة قد ضعفت فكان قليل المجالسة لهم فكان يفد إليهم ويمدحهم ووزراءهم ويعود إلى بلده، إلاّ ما كان منه مع المعتزّ؛ فإنّه كان حظيّاً لديه وظلّ هذا شأنه إلى أن توفّي.

أمّا المُتَنَبِّي فبعد أن لقي سيفَ الدَّولةِ اختصّ بمدحه وترك مدح مَن سواه، لكن نفسيّته وما جبل عليه من كبرٍ وغطرسةٍ كان وراء إثارة أعدائه حفيظة سيفِ الدّولة عليه، ففارقه بعد مكث تسع سنين، فانتقل إلى مصر تجاه كافور، فمكث لديه حوالي أربع سنوات ثم هرب منه إلى العراق؛ حيث الكوفةُ مسقطُ رأسِهِ ومنها انتقل إلى بغدادَ ثم عاد إليها، ومن ثم توجّه إلى ابن العميد ثم إلى عضد الدّولة، ولكنّه لم يطل المكث لديهما، فعاد أدراجه، فلمّا قارب بغداد قُتِلَ.

ب- أخلاقهما:

اتّصف الشّاعران بالكبر، لكن كبر البُحْتُرِيّ أقلّ من كبر المُتَنَبِّي، و لم يك بمنعه من الاختلاط بالنّاس أو عدم مدحه صغار الوجهاء، بينما كبر المُتَنَبِّي منعه مدح سوى الملوك والولاة وأصحاب الشّأن، فظهر أثر ذلك عليه في حياته بكثرة أعدائه.

جـ ثقافتهما:

يُعدُّ البُحتُرِيّ أقلّ ثقافةً من المُتَنَبِّي، وخاصّة في مجال اللّغة والفلسفة؛فالمُتَنَبِّي قد درس النّحو، وفي شعره حِكَمٌ اتّهم باطّلاعه على كتب اليونان وأخذه منها.

د- عمرهما:

عاش البُحتُرِيّ حوالي (٨٥) سنة، بينما عاش المُتَنَبِّي حوالِي (٥١) سنة، ولكن ليس للعمر هنا أثرٌ في كثرة شعر الحرب أو قلّته؛ إذ نلاحظ قلّة إنتاج البُحتُرِيّ من شعر الحرب مع طول عمره وزيادة المُتَنَبِّي عليه في ذلك مع قصر عمره، ويبدو أنّ الزّيادة كانت بسبب تفرّغه لسيف الدّولة في كلّ وقائعه الحربية خلال الفترة التِي مكثها معه.

ثالثاً: نتائج

وبعد هذا العرض الموجز نستخلص من ذلك ما يلي:

١- أنّ المُتَنَبِّي أشدّ تأثّراً من البُحْتُرِيّ في الجوانب الأدبية والعلمية، لاطّلاعه على كثيرٍ من العلوم التِي ظهر أثرها على شعره، ومن ذلك تدقيقه الفلسفي، وعوصُهُ على المعانِي الدّقائق، وتفتيقُ المعنَى الواحد، واستخراج عدّة صورٍ منه.

٢- أنّ نفسية البُحْتُرِيّ نفسية مسالِمٍ، راضٍ بتحصيل المال، أمّا نفسية المُتَنَبِّي فنفسية ثائرٍ، محبّ للقوّة والحرب، ولذا لَمّا وجد قائداً وملكاً كسيف الدّولة المحبّ للحروب تفانَى في تصور حروبه.

٣- أنّ المُتَنَبِّي أكثر ترحالاً من البُحْتُرِيّ، فليس للبُحْتُرِيّ سوى عددٌ من الرّحلات بين الشّام موطنه، وبين العراق موطن أكثر ممدوحيه، وما كان منه في مشاركته القليلة في الجهاد مع أبي سعيد الثّغري وابنه.

أمّا المُتَنَبِّي فقد طاف البلاد شامَها وعراقَها وشرقَها وغربَها باحثاً عن الرّزق، راغباً في تحصيل ولاية وعلوّ مكانة، وهذا يفسّر لنا ما لاحظه الأدباء على شعره من كثرة شكوى الدّهر وقلّة الصّديق.

٤- أنّ البُحْتُرِيّ كان قليلَ الأعداء، مداهناً لكلّ مَن يخشاه، مع ما هو فيه من منعة قومه وعشيرته، الذين كثيراً ما افتخر بهم.

وأمّا المُتَنَبِّي فبخلاف ذلك، كثير الأعداء، قليل المداهنة مع ما هو فيه من عدم العصبة له، وإنّما كان معتدّاً بنفسه وبمواليه.

٥- أنّ المُتَنَبِّي لم يمدح أيّ خليفةٍ في عصره بخلاف البُحْتُرِيّ؛ فإنّه مدح كلّ خلفاء عصره بعد أن اتّصل بهم، وهذا عائد إلى احتقار المُتَنَبِّي للخلفاء المعاصرين له، ورؤيته إيّاهم أنّهم أقلّ مِمّا هم فيه من ملكٍ لضعفهم، وسيطرة الفرس عليهم، وسبب هذه الكراهة أمران:

أوّلهما: ما جبل عليه من كبرٍ؛ إذ يرى أنّه أكبر منهم.

وثانيهما: ثقته أنه لن يجد لديهم ما يغنيه، فالخلافة قد ضعفت، والأموال في أيديهم قد قلّت، وسيطر عليها الأتّراك أوّلاً ثم البويهيّون ثانياً.

٦- أنّ هنالك فرقاً في المكانة القيادية بين مَن مدحهم البُحْتُرِيّ ومَن مدحهم المُتَنَبِّي؛ فالبُحْتُرِيّ مدح خلفاء لم يباشر أحدٌ منهم الحروب إذا استثنينا الموفّق بالله وابنه المعتضد بالله، وقد كانت صلته بهم ليست وثيقةً، كما مدح وزراء شأنهم تصريف أمور البلاد لا الحروب وخوض غمراتهما، و لم يمدح من القادة سوى أبي سعيد وابنه وأبي مسلم وأبي نهشل ابنَي حميد الطوسي، ومدّته لم تطل معهم مع انشغالهم عنه بالمرابطة في الثّغور، كما مدح الفتح بن خاقان، و مالك بن طوق، وإبراهيم، وأخاه أحمد ابنَي محمّد المدبر، وكانوا أمراء أقاليم أكثر من كونهم قادة محاربين.

أمّا المُتَنَبِّي فقد مدح أمراء محاربين وقادة مغاوير كبدر بن عمار، وأبي العشائر، وسيف الدّولة، ويكفيه وجود قائدٍ كسيف الدّولة، ولهذا كثر شعر الحرب عند المُتَنَبِّي.

٧- أنّ هنالك فرقاً بين مدح البُحْتُرِيّ ومدح المُتَنَبِّي؛ فالبُحْتُرِيّ أكثر مدحه في الخلفاء، وليس لديهم قدرةٌ على فهم شعره، مِمّا كان سبباً في نُزوله فيه إلى مستواهم، ونظمه على أخفّ البحور، واختيار أرقّ الكلمات.

بينما نجد المُتَنَبِّي لم يمدح -في الأغلب- إلاّ قادة أدباء شعراء، كبدر بن عمار، وأبي العشائر، وسيف الدّولة، وكافور، وابن العميد، وعضد الدّولة، فترتّب على ذلك ما كان في أسلوبه من القوّة والعمق والإدلال بالمعرفة اللّغويّة.

٨- أنّ المُتَنَبِّي هيّء له مَنِ احتضنه وأكرمه -وهو سيف الدّولة-، بخلاف البُحْتُرِيّ؛ فإنّه لم يجد ذلك إلاّ في فترتَي المتوكّل والمعتزّ، ولكنّهما ليسا كسيف الدّولة خبرةً في الشّؤون الحربية، وهذا يعلّل لنا قلّة قصائد البُحْتُرِيّ الحربية.

٩- أنّ المُتَنَبِّي كان إذا مدح أحداً لزمه وأقام عنده حتّى ييأس منه، فيفارقه فراقٍ غير وامقٍ، لا رجعة فيه، وهذا ما يستدعيه تسجيل كلّ ما يفعله هذا الممدوح، وظهر ذلك جليّاً في مدّة بقائه لدى سيف الدّولة؛ فإنّه لازمه وصوّر حربَهُ موقعةً موقعةً.

أمّا البُحْتُرِيّ؛ فإنّه لا يمكث كثيراً، إنّما يبقى عند ممدوحه مدّة ثم يرجع إلى وطنه، وكان لا يقتصر على ممدوحٍ واحدٍ، فكان يمدح في آنٍ واحد أبا سعيد، وأبا مسلم، والفتح بن خاقان، ثم مدح الفتح والخليفة المتوكّل، ثم مدح المعتزّ وابنه وهكذا، ويظهر أثر ذلك في عدم تسجيله كلّ

أعمال هؤلاء، وفي قلّة أعداد قصائده فيهم.

١٠- أنّ المُتَنَبِّي قصَر قصائده على الحديث عن حروب سيف الدّولة في مدّة إقامته، ولم يخطلها -في الأغلب- بغرضٍ آخــر؛ كالوصــف والهجاء، إلاّ ما كان من ذلك -بغير قصــدٍ- كالــذي يــأتِي في المقدّمات.

أمّا البُحتُرِيّ فكان ينشيء قصائده في وصف قصورهم ويشاركهم في أفراحهم وأتراحهم، وليس شعر الحرب هَمَّه.

١١- أنّنا قد نعذر البُحتُرِيّ في قلّة تصور الحروب الخارجية خاصّة بعد اتّصاله بالمتوكّل بالله لقلّتها وعدم اشتهار القائمين عليها وعدم أهميّة ما حدث فيها، وأكثر ما له من ذلك كائن في فتــرةٍ مدحــه لأبي سعيد، وابنه، فلو بقيا لرأينا منه الكثير من الشّعر الجيّد، وهذا بخلاف المُتَنَبِّي الذي أكثر شعره الحربِيّ في وصف الحروب الخارجية.

١٢- أنّننا نعذر المُتَنَبِّي في قلّة الشّعر الذي يصف الحروب الدّاخلية وما فيها؛ لقلّة هذه الحروب الدّاخلية في عصره، خاصّةً بين سيف الدّولة وغيره، ولبعده عن مركز الخلافة الذي يجد المناهضة من كلّ صوب ويكثر الخارجون عليه، وهذا يعلّل لنا عدم وصفه لمصلوبٍ مثلاً؛ فإنّ المصلوبين لا يكونون عادةّ إلاّ من خارجين على الخلافة.

لكنّنا هنا لا نعذر البُحتُرِيّ في عدم تتبّعه للحروب الدّاخلية بدقّةٍ مع أنّ أكثر شعر الحرب لديه فيها؛ فإنّه لا يقدم لنا متابعةً دقيقةً لأحــداثها،

فلو استغلَّ كثرتَهَا في عصره وتتبّعها بدقّةٍ لأنتج نتاجاً عظيماً فهو أكثر ما عني بحروبِ بابك، وخاصّة الحرب التِي سقط فيها وبعض حروب الصّفار والعلويّ قائد الزّنج.

ولعلّنا بهذه الاستنتاجات نلاحظ فرق ما بينهما في المادة الحربيـــة، وتأثّر كلّ واحدٍ منهما بما حوله بقدر ما جبل عليه وما تهيّأ له.

الباب الثّانِي

موضوعات شعر الحرب عند الشّاعِرَينِ

الفصل الأوّل: موضوعات شعر الحرب عند البُحتُرِيّ

الفصل الثّانِي: موضوعات شعر الحرب عند المُتَنَبِّي

الفصل الثّالث: الموازنة بين موضوعات شعرالحرب عندالشّاعِرَينِ

الفصل الأوّل:

موضوعات شعر الحرب عند البُحتُرِيّ

- وصف القائد.
- وصف الجند.
- الإعداد للمعركة.
- التّحرّك إلى ميدان القتال.
- في ميدان القتال.
- في أعقاب المعركة.

تَمهيدٌ

لا تخلو أمّةٌ من الأمم من فِتَنٍ وقلاقلَ واضطراباتٍ داخليةٍ أو حروبٍ وغزواتٍ خارجيةٍ، وقد سبق في الباب الأوّل عند الحديث عن الحالة السّياسية لعصر شاعرنا البُحتُرِيّ[١]، بيانُ ما كان يسود تلك الحقبة من فتنٍ وحروبٍ، سجّلت لنا كتب التّاريخ جلّ ما دار فيها، ولم يفت الشّعراءُ تسجيلُ أكثرِ تلك الوقائعِ، إمّا لكونهم شاركوا فيها، أو جاءهم الأنباءُ بِما دار فيها من قتالٍ، ويكفينا دليلاً على ما للشّعراء في هذا المجال تصفّح دواوين مشاهيرهم، ومنهم أبو عبادة البُحتُرِيّ الذي سَجَّلَ حروبَ أبي سعيد محمّد بن يوسف الثّغري، وانتصاراته القديمة والحديثة جميعاً، مجسّماً بأس جيوشه، وكيف كانوا يتهافتون على الوغى، كما يتهافت الفراش على النّار، وله في تجميد شجاعته أشعارٌ وقصائدُ كثيرةٌ[٢].

ولم يقتصر البُحتُرِيّ على الاتّصال بهذا القائد ووصف حروبه، بل سَجَّل كثيراً من الوقائع في الشّمال والجنوب والشّرق والغرب، وقد شارك بنفسه في بعض تلك الحروب فها هو ذا يخاطب أصدقاءَه قائلاً[٣]:

---

(١) انظر: (ص: ١٥-٢٢).

(٢) العصر العبّاسي الثّانِي، د/ شوقي ضيف (٢٩١).

(٣) ديوانه (٣/١٦٠٠)، من قصيدة يمدح بها أبا سعيد.

تَذُورة: ملكة الرّوم، وتوفل: زوجها، وصدوده عنها كان بوفاته، أي: نُزورها وابنها بعد ترك زوجها لها.

سلامُ على الفيانِ بالشّـرق إنّنـي إلى الجانبِ الغربي يممتُ واغِلا
مع اللّيث وابن اللّيث أضحَى مغاوراً حماةَ الضّواحِي ثم أمسَى مقاتلا
نزور –بلا شوقٍ– (تَذُور) وابنـها وقد صدَّ عنها (توفل بن مخايلا)
كأصحاب ذي القرنين حيث تبوأوا وراء مغيب الشّمس تلك المنازلا

وشعر البُحتُرِيّ شعر متعدّد الجوانب، نرى فيه تسجيلاً أميناً للخطوات التي تسبق قيام المعارك الحربية، ثم وصفاً حيّاً للمعارك عند تشوّبها، حتّى إذا هدأ أوارها كان للشّعر وقوف متأن، عند بيان نتائجها نصراً أو هزيمةً، وفيما يلي عرض بالشّاهد والمثال لكلّ خطوةٍ من خطوات الحرب وما يتّصل بها:

أوّلاً: القائد والجند:

أ– القائد:

لا بدّ لأيّ حربٍ من قائدٍ يجمع شمل جنوده، يخطّط لهم ويختار لهم الأمكنة المناسبة وزمان الهجوم المناسب، فعليه مدار رحى المعركةِ وهو قطبُها، ولا يجيء اختيار السّلطان له –عفواً– إلاّ بعد دراسةٍ لشخصيّته ومعرفة أهمّ صفاته، ولقد أفاض البُحتُرِيّ في بيان أشهر صفات القائد الخَلْقية والخُلُقية، والتي سنعرض لها فيهما يلي:

أمّا الصّفات الخَلْقية التي يمكن أن تبدو جليّةً يف شخصية القائدة فأربع صفات هِي:

١- طول القامة:

ومنه قول البُحْتُرِيّ في الفتح بن خلقان[1]:

مُنِيْفٌ على هامِ الرّجالِ إذا مشى   أطال الخطى بادي البسالةِ رائـعُ

وقوله فيه أيضاً[2][3]:

ومستشرفُ بين السّماطينِ مشرفٌ   على أعينِ الرّائينَ يعلـو فيرتبِـي

وقد يبدو طول القائد واضحاً للعيان حتّى في ميدان القتال، وهو على الخيل وفي لباس الحرب، فطوله يتجاوز سنان الرّمح، والدّرع الطّويلة لفرط طوله تقصر عنه.

إذا استقلّتهُ جردُ الخيـل أقـدمها   سبطاً يفوت سنان الصّعدةِ العالِي

وإن مشى في فضولِ الدّرع قلّصَهَا   مُبَجَّلٌ بـين تشـميرِ وإسـبالِ

ولطول القائد طالت حمائل سيفه[4]:

بدا لِيَ محمودُ السّجيّة شَمرت   سرابيلُهُ عنه وطالـت حمائلُـه

---

(١) ديوانه (٢/١٣٠٤).

(٢) ديوانه (١/١٩١).

(٣) ديوانه (٣/١٧١٩)

(٤) ديوانه (٣/١٦٠٩)، من قصيدةٍ يمدح بها الفتح بن خاقان.

ولطول أحد القواد إن ركب فرسه مست قدماه الأرض، فــاحترز البُحْتُرِيّ لذلك ببيان أنّ طوله هذا لم يكن لقصر الخيل التــي يركبــها؛ فقال[١]:

تــدنو ركابــاه لمــس الحصـــى والطِّرف مســتعلٍ قــراه تليــع

ويؤكّد البُحْتُرِيّ بأنّ طول ممدوحه غير عادي؛ إذ لوجود له نظــير لقيست الدّروع على ممدوحه، وكفى الصّناع مشقّة البحث عــن مثــال يصوغون عليه دروعهم[٢]:

وبسطةٌ مــن طولِــهِ لــو خــلا شِبْهٌ لها صيغتْ عليه الــدّروعْ

٢- البهاء والجمال:

ومنه قوله[٣]:

بَهِــــيٌّ في حمائِلِـــهِ جميـــلٌ وفَخــمٌ في مفاضَــتِهِ جهــيرُ
يجلي ســدفَةَ الهيجــا بوجْــهٍ يضيءُ على العيــونِ ويســتنيرُ

---

(١) ديوانه (١٢٥٩/٢)، من قصيدةٍ ودع بها إبراهيم بن الحسن بن سهل، وقيل: أبا غانم الشّاه بن ميكال.
الطّرف: الجواد الأصيل، قراه: ظهره، تليع: طويل العنق.

(٢) ديوانه (١٢٥٨/٢)، من القصيدة السّابقة.

(٣) ديوانه (٩١٥/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا الصّقر إسماعيل بن بلبل.

ومنه قوله(١):

جدير بأن تنشقَّ عن ضوءِ وجهِهِ ضبابةُ نقعٍ تحتها المــوت نــاقعُ

وهذا الجمال لا يتغيّر حتّى في المواقف التِي يسود فيها وجه الشّجاع لِما يتّصف به من ثباتٍ وقوّة جنان(٢):

ويضيءُ من خلفِ السّنان إذا دَجَا وجهُ الكمِيِّ على الكمِّي الأروعِ

٣- الهيبة له:

لقوّة شخصية القائد يهابه جلساؤه وجنده وقد أشار البُحتُــرِيّ إلى ذلك، ومنه قوله(٣):

يبجل إجــلالاً ويُكْبَــرُ هيبــةً أصيلُ الحجَى فيه تقىً وتواضــعُ

ومن مظاهر تبجيله تنكيس الرّؤوس إذا صمت، وعدم النّظر إليــه وخضوع الأعناق وميل الرّؤس إذا نطق(٤):

إذا ارتد صمتاً فالرّؤوس نواكسٌ وإن قال فالأعناق صورٌ خواضِعُ

ومن أسباب هيبة النّاس له طوله الذي يبهرهم إذا طلع عليهم وبدا

(١) ديوانه (١٣٠٤/٢) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح بن خاقان.

(٢) ديوانه (١٢٨٨/٢) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد الثّغرِي.

(٣) ديوانه (١٣٠٣/٢) من قصيدةٍ يمدح فيها الفتح.

(٤) ديوانه (١٣٠٣/٢) من قصيدةٍ يمدح فيها الفتح.

صور: مائلة.

لهم[١]:

مهذبٌ تغمرُ الأقــوامُ بســطَتُهُ والنّاسُ من غامرٍ سَرْواً ومغمورِ

فَتَشْدَهُ العيونُ لذلك، فينظرون إليه نظر المحبّ لحبيبـه، وتعظمـه الصّدور لِما ترى فيه من بَهِيِّ الطّلعةِ[٢]:

تــراءاه العيــونُ بلحــظِ ودٍّ لطلعتــه و تكــبره الصــدورُ

و من ثمرت هذه الهيبة حبُّ القريب له، و بغض العدو إياه:

تراءاه موداتِ الصّــدور وأعطيــتْ يداه على الأعداء نصراً مؤزرا

ومنها رهبتهم له حين إبداء رأيه في قضية طال عراك القوم في إيجاد الحلولِ المناسبةِ لها، فكثر بذلك لَغَطُهُمْ، مِمّا اضطرَّه إلى التّخفيف من هذا اللّغطِ بكلمةٍ لا تتجاوز ثلاثة أحرفٍ، فترى القوم حينئذٍ وكــأنّ علــى رؤوسهم الطير[٣]:

وإذا خطاب القوم في الخطب اعتلى فصل القضيةَ في ثلاثة أحــرفٍ

---

(١) ديوانه (١٠٢٧/٢) من قصيدةٍ يمدح بها حَمْد بــن محمّــد بــن أبي نصــر (الكاتب).

(٢) ديوانه (٩١٥/٢) من قصيدةٍ يمدح بها أبا الفضل إسماعيل بن بلبل.

(٣) المرجع نفسه (١٤١٥/٣) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد الثّغري.

٤- عراقة النّسب:

كثيراً ما يكون القائد من ذوي الأنساب العريقة، وهذا ما اتّصف به كثيرٌ من القادة في عصر البُحْترِيّ، وقد أَلَحَّ هو على إبراز هذه العراقة في شعره في كثيرٍ من قصائده ليبرهن على أنّ شجاعة ممدوحه وراثةٌ متأصّلة في جدوده، كمثل قوله(١):

تنازعْتهُ ملوكُ السُّغْدِ وارثَةً عن(شِمْرِ يَرْعَشَ)فخراً جِدُّ مذكورِ
من كلّ أشوسٍ لقَّتْه أصالَتُهُ مَواقعُ الحزمِ من رأى وتدبيرِ
مرددٌ في قديم في نباهتهم كالمشترِي لم يكن مستحدَثَ النّورِ

ومثل قوله في عبد الله بن دينار(٢):

له سَلَفٌ من آل فيروزَ برزوا على العُجْمِ وانقادت لهم حَفْلَةُ العربِ
يَكبُّونَ مِنْ فوق القرابيس بالقنا وبالبيض تلقاهم قياماً على الرُّكْبِ

وأمّا الصّفات الخُلُقيّة:

فهناك صفاتٌ خُلُقِيّةٌ كثيرةٌ ينبغي أن يتّصف بها القائد ، منها ما يكون ملازماً للقائد حال السّلم؛ كالحلم والكرم، ومنها ما يكون ملازماً

(١) ديوانه (١٠٢٧/٢) من قصيدةٍ يمدح بها حَمْد الكاتب بن محمّد بن أبي نصر.
(٢) ديوانه (١٠٧/١).
وحَفْلَة العرب: جَمْعُهُم.
والقرابيس: مفردة: قربوس، وهي: أحناء السَّرْج.

له في حال الحرب قبل بدء المعركة وحينها؛ كالحزم والعزم وسداد الرّأي، ومنها ما يكون بعد انتهائها وحين العودة، والقفول؛ كالعدل في القسمة، والرّأفة بالجيش.

وقد كشف البُحْتُرِيّ عن كثيرٍ من هذه الصّفات فِمَن أشـــهر مـــا ذكره:

١- الكرم:

كان البُحْتُرِيّ كثير الإشادة بكرم معدوحيه ومن ذلك قوله عن جود أبي سعيد(١):

كيف نُثْنِي على ابن يوسف لا كيـــ ـــف سَرَى مجدُهُ ففات الثّنـــاءَ
جادَ حتّى أفنَـــى السّـــؤالَ فلَمّـــا باد منا السّؤالُ جـــادَ ابتـــداءَ
صـــامتي يمـــد في كـــرم الفعـــ ـلِ يداً منـــه تَخلُـــفُ الأنـــواءَ
فهو يعطي جـــزلاً ويثنِـــي عليـــه ثم يعطِي علـــى الثّنـــاء جـــزاءَ
نعـــم أعطـــتِ العفـــاةَ رضـــاهم مـــن لهاهـــا وزادت الشّـــعراءَ

٢- الشّجاعة:

الشّجاعة صنو الكرم، ولذا نجد الشّعراء في مدحهم القادة يقرنـــون بينهما كثيراً، وأبو عبادة مِمّن يكثر المزاوجة بينهما في عددٍ من قصائده، ومن ذلك قوله أبي سعيد(٢):

---

(١) ديوانه (١/١٥).

(٢) ديوانه (١/٨).

قسمت يداه ببأسـه وسماحـه   في النّاسِ قسمِي شدّةٍ ورخـاءِ
ملئت قلوب العالمين بفعله المحمـ   ـود من خوف لـه ورجـاءِ

وقال في محمّد بن حميد أبي نشهل[1]:

تبسمٌ وقطوبٌ في ندى ووغـى   كالبرق والرّعد وسطَ العارضِ البَرِدِ

وكان كثيراً ما يجعل من هذه الصّفات تقسيماً بديعاً كقوله[2]:

غيث العفاةِ وفكّاك العناةِ وقتّـ   ـالُ العُدَاةِ غداةَ الرّوعِ والوَهَـلِ

كما صوّر كرمَ ممدوحه بالرّوح التِي تبعث الحياة مـا وجـدت في الجسم[3]:

حياتـك أن يلقـاك بـالجود راضـياً   ... ...

ولتمكّن الجود منه وتأصّله فيه يكاد يشـمل بـه الأعـداءَ وهـو يقاتلهم[4]:

وصاعقةٍ في كفّـه ينكفِـي بهـا   على أَرْؤسِ الأقرانِ خمسُ سحائبِ
يكاد النّدى منها يفيضُ على العدَى   مع السّيف في ثنِيي قناً وقواضبِ

---

(١) ديوانه (٥٧٥/١).

(٢) ديوانه (١٩٠٤/٣).

(٣) ديوانه (١٩٨/١) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح.
وشطره الثّانِي:
... ...   وموتـك أن يلقـاك بالبـأس مغضـباً

(٤) ديوانه (١٧٩/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

وفي هذا الجانب يقدّم البُحْتُرِيّ دلائل صفة الشّجاعة عند القائد ومن ذلك:

حبّه الغزو والإكثار منه:

فلا يرى إلاّ غازياً كأن لم يكن له أهلٌ ولا وطنٌ(١):

لا يجذبُ الوطنُ المألوفُ عزمتَهُ ... ولا الغزالُ الذي في طرفه كَحَلْ
مسافرٌ ومطاياه محلّلةٌ ... غروضُها، ومقيمٌ وهو مرتَحِلُ
يَهَشُّ للغزوِ حتّى شكَّ عسكرُهُ ... فيه وقالوا: أَغَزْوٌ ذاك أم قَفَلُ

وكأنّه لكثرة غزواته كَـ"كُثَيِّرِ عَزَّة" في تردّده على رباع محبوبته وأطلال ديارها(٢):

ووصلت أرض الرّومِ وصل كُثَيِّر ... أطلالَ عَزّةَ في لوى تيماءِ
في كلّ يومٍ قد نَتَجْتَ منيةً ... لِحُمَاتِها مِن حربك العُشَراءِ
سَهَّلْتَ منها وعرَ كلّ حزونة ... وملأت منها عَرَضَ كلّ فضاءِ
بالخيل تحمل كلَّ أشعثَ دارعٍ ... وتواصِلُ الإدلاجَ بالإسراءِ

وهو في حبّه الغزو كمَن هو على موعدٍ مع أحبّةٍ له طال فراقه لهم(٣):

---

(١) ديوانه (١٧٦٠/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٢) ديوانه (١١/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٣) ديوانه (١٧٨/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

تَسَرَّعَ حتَّى قال مَنْ شَهِدَ الوَغَى لقـــاء أعـــادٍ أم لقـــاءُ حبائـــبِ

ومن الدّلائل على شجاعته خوف الأعداء منه:

فهو شغلهم الشّاغل خوفاً من أن يباغتهم على غرَّةٍ(١):

فترى الأعداءَ مـــا لهـــم شُـــغُلٌ إلاّ تـــوهُّمُ موقِـــعِ يَقَعُـــهُ

فقولهم منه في وجلٍ، وأفئدتهم هواء، يحسبون كلّ صحيةٍ عليهم(٢):

وملأتَ أحشاءَ العـدوِّ بلابـلاً فارتد يَحْسُدُ فيـك لم يَحْسُـدِ

وقد تجاوز خوف الأعداء منه الكبارَ إلى الصّغارَ؛ فإن بكى الطّفـلُ ذكروا له اسم هذا القائد فهدأ(٣):

فَزَّعوا باسمكَ الصَّبِيَّ فعـادت حركاتُ البكاءِ منـه سـكونا

ومنها تسخير الحِمَامِ له:

وهذه كناية عن بطشه بالأعداء وإبادته لهم وكثرة قـتلاهم، فبـدا كالشّفيع إلى الموت بقبض النّفوس حين يسير إلى حرب أعدائه(٤):

كنت السّبيلَ إلى الرّدى إذا كنت في قبضِ النّفوسِ إلى الحمامِ شـفيعا

---

(١) ديوانه (٢/١٢٥٠) من قصيدةٍ يمدح بها أبا عامرٍ الخضر بن أحمد.

(٢) ديوانه (١/٥٤٩) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد الثّغري.

(٣) ديوانه (٤/٢١٦٦) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٤) ديوانه (٢/١٢٥٦) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

أو كأنّه المتصرّف به يوزّعه على أنفس أعدائه فيتهاوون بين مجـدل بسيفٍ أو مطعون برمحٍ(١):

الهزبرُ الذي إذا التفتِ الحربُ بـهِ   به صَرَّفَ الرّدى كيف شاء
تتدانَى الآجالُ ضرباً وطعناً حـين   يدنو فيشهد الهيجاء

وقد تصاحبه المنايا بصورة شخوص حيّةٍ متحرّكةٍ تجول بين راياته وبنوده(٢):

يغتدى جيشُـهُ فتغدو والمنايا   بين راياته وبين البنودِ

عند ذلك يكون الرّدى قريباً من الأعداء(٣):

رأيتُ الرّدى سهلَ السّبيلِ إلى العديّ   وقد رُفعَت للنّاظرين قساطِلُه

ومنها رباطه جأشه والطّمأنينة في ميدان الحرب والصّبر على شدّهّا:

ومن ذلك قوله(٤):

لقد كان الجـأشُ جـأشَ مسالِمٍ   على أنّ ذلك الزَّيَّ زِيُّ محاربِ
تَسَرَّع حتّى قال مَنْ شَـهِدَ الـوغى   لقاءُ أعادٍ أم لقـاءُ حبائـبِ

---

(١) ديوانه (١/١٥) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٢) ديوانه (٢/٨١٠) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشَّلْمغان.

(٣) ديوانه (٣/١٨٧٦) من قصيدةٍ يمدح بها طغج بن جف مولى خمارويه بن أحمد.

(٤) ديوانه (١/١٧٨) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

فقد صوّر ممدوحه برجلٍ بعيدٍ عن روعات الحروب، وأهوالها مطمئن البال، منع أنّ هيئته هيئة محاربٍ، قد خاض غمرات الحروب ومارسها، وهذا ناجمٌ عن هذه التّجربة المتكرِّرة التي جعلت من قلبه صخرةً لا تتزلزل؛ فشجاعته متناهية، يقبل على خصومةٍ في ميدان الوغى بلهف واندفاع كمَن هو على موعد بلقاء أحبّته.

كما عدد رباطة الجأش من صفات القائد الفذّ فقال من أخرى[1]:

مدبَّرُ حربٍ لم يَبِتْ عندَ غِرَّةٍ ولم يَسْرِ في أحشائِهِ وَهَلُ الرّعبِ
ويقلقله شوقُ إلى القِرْنِ معجِلٌ لدى الطّعنِ حتّى يستريحَ إلى الضّربِ

ووصف ممدوحه من أخرى ببرود الحشا، وهذا كناية عن عدم فزعه في مثل هذه المواقف[2]:

بَرْدُ الحشا وهَجيرُ الرَّوعِ محتفِلُ ومِسْعَرٌ وشهابُ الحربِ مستعِرُ

وعن صبرِهِ في ساحةِ القتال قال[3]:

إذا ما الهجيرُ اشتدَّ أسندَ نفسه إلى الصّبرِ في وقع الظّبا والسّمائمِ

وقد يلاقي في صبره على شدّة الحرب الموتَ؛إلاّ أنّه يرى أنّ الصّبر خيرٌ من الفرار، ولأن يقتل مقبلاً خيرٌ من أن يقتل مدبِراً[4]:

---

(١) ديوانه (١٠٦/١) من قصيدةٍ يمدح بها عبد الله بن دينار بن عبد الله.

(٢) ديوانه (٩٥٦/٢) من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن مُرّ الطّائيّ.

(٣) ديوانه (١٩٦٧/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا مسلم بن حميد الطّائيّ.

(٤) ديوانه (٢١٨٥/٤) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد الثّغري.

رأى الموتَ رَأْيَ العينِ لا ستر دَونه وما موتُ شكٍّ مثلُ موتِ يقـينِ
وقيل انج من غمائها فَأَبَتْ لـه سجيةُ شكسٍ في اللّقاء حـرونِ
ولَمّا استخفوا للنّجـاء تـوقّرت جوانب ثبتٍ للسّـيوف ركـينِ
وقَى كتفيـه والرّمـاح شـوارع بثغـرة نحـر واضـح وجـبينِ

هذا، وللصّبر عاقبة محمودةُ الأثر فمَن يقاتل بقلب هَمُّـه الحصـول على إحدى الحُسْنَيَين، إمّا النّصر، وإمّا الشّهادة، فسينال أحدهما لا محالة؛ لأنّ قلبه موحّد الاتّجاهات لا تنازعه الأهواء، وقد أشار البُحْتُرِيّ إلى ذلك عند مدحه أبا سعيد بقوله(١):

مزقتَ أنفَسَهُمْ بقلـبٍ واحـدٍ جُمِعَت قواصِيْهِ وسيفٍ أوحـدِ

فصموده وعدم وجله مليان بأن يدفعا به إلى تقنّص أعدائه، لا يثنيه عنهم كثرة السّيوف وتثنيها أو تراكم القنا وتكسّره(٢):

مَلِيٌّ بأن يغشى الكَمِي ودونـه ظُبـاً تتثَّـى أو قنـاً يَـتحطّم

٣- سداد الرّأي:

لا يمكن لأيّ قائدٍ أن يكون مظفراً ما لم يكن ذا رأيٍ سديدٍ؛ كأنّما يكشف له سدف الغيب، وعلى ضوئه يضع الأمـور في نصـابها كمـا

(١) ديوانه (٥٤٨/١) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد الثّغري.
(٢) ديوانه (١٩٢٦/٣) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح.
ومليّ: بمعنى: جدير.

قال البُحتُرِيّ[1]:

مدبرُ رأيٍ ليس يوردُ عزمَهُ فيقرعَ في إصدارِهِ سنَّ نادمِ
أدلاؤه في الخطب إن كان مشكلاً بديهاتُ عزمٍ كالنّجومِ العواتِمِ

وقد صوّر البُحتُرِيّ سداد الرّأي في أبياتٍ أخر بصورة خيول غرّ بدت في الظّهور من على شرفٍ فتلمحها العين لأوّل وهلةٍ، كذلك آراء ممدوحه يعرف نجاحها حين خطورها في ذهنه، ثم بيّن أنّه لم ينل ذلك إلاّ بعد تجربةٍ طويلةٍ تدلّ على مراسٍ لصعاب هذه الحياة، ولا يلزم من ذلك كبر سنة[2]:

مستظهرٌ بذخيرة من رأيه يَمْضِي الأمورَ وبَحْرُها لَم يَنْزُفِ
إلاّ يكنْ كَهْلَ السّنينَ فإنّه كهلُ التّجاربِ في ضحاجِ الموقفِ
تبدو مواقع رأيه وكأنّها غررُ السّوابقِ من يفاعٍ مشرفِ
وإذا استعانَ بخطرة من فِكْرِهِ عننٍ، فسترُ الغيبِ ليس بمسجفِ

وقد تقوم الآراء الحسنة مقام الجند الأشاوس ذوي البأس والنّجدة كما قال[3]:

وهو المرء ماغزا بلداً بالرّأ ي إلاّكفاه غزَو الجنودِ

---

(١) ديوانه (١٩٦٧/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا مسلم الطّائيّ.

(٢) ديوانه (١٤١٥/٣) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد الصّامتي الثّغريّ.

(٣) ديوانه (٨١٠/٢) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز بن الشّلمنان.

هذا، وقد جسّد البُحْتُرِيّ آراء ممدوحه جنـــداً يقـــاتلون الأعـــداء ويفعلون ما لا يفعله الجيشُ بعدده، وعتاده، حتّى تمنّى الأعداءُ صرفَ هذه الآراء عنهم وأن يوجّه إليهم بدلاً عنها الجند(١):

يومَ فرَّقت من كتائبِ آرائكَ جن ـــــداً لا يأخـــذون عطـــاءَ
وبودِّ العدوّ لو تُضْعِفُ الجيــــ شَ علـــيهم وتصـــرف الآراء

٤- الكيد وكتمان السّرّ وحسن التّدبير:

القائد النّاجح هو مَن يخطّط ويصنع الحيلَ والخدعَ التِي تأتِي ثمرتهـــا جادّة مستعيناً عليها بكتمان خبرها حتّى لا تتسرّب، فتضـــحى خطّتـــه مكشوفةً قد علم بها أعداؤه، وقد أشاد البُحْتُرِيّ بِمَن هذه صـــفته مـــن القادة؛ فقال(٢):

---

(١) ديوانه (١/١٨-١٩) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٢) ديوانه (٢/٩١٤-٩١٥) من قصيدةٍ يمدح بها أبا الصّقر إسماعيل بن بلبل.

وقصير، هو: ابن سعد اللّخمِي، صاحب حذيمة الأبرش، وقد شـــهر بجـــودة الرّأي، وفيه جاء قول العرب: «لأمر ما جدع قصير أنفه»، و«لا يطاع لقصير أمر».

وقصته مع الزّباء مشهورة.

لسان العرب (٥/٩٦)، ومجمع الأمثال للميدانِي، تحقيق: محيي الـــدِّين عبـــد الحميد، (١/٢٣)، دار المعرفة، بيروت.

يدبّرها وشـيكُ العـزمِ تلقـى إليه-كـي ينفـذها- الأمـورُ
بعيدُ السِّرِّ لم يقربْ ببحثٍ الـ منقِّب ما كمَى عنـه الضّـميرُ
مكايـدُ لا تخـل بهـا أنـاة وإن عجـل المحـرِّض والشّـيرُ
بوالغُ لـو يطالعهـا (قَصِـيْرٌ) لقصـر عـن مبالغهـا قَصِـير

وقال أيضاً[1]:

بعيدُ مقيلِ السِّـرِّ لايقبـل التِـي يحاولها منه الأريـبُ المخـادِعُ
ومكتَتِمُ التّـدبيرِ لـيس بظـاهر على سِرِّهِ الرّأيُ الذي هو تـابعُ

وقد يقوم الكيد مقام الجند فيردهم غانمين آئبين بسرعة ودون عناء لِما أوقع في نفوس الأعداء من رعبٍ وجزعٍ وخوفٍ وهلعٍ[2]:

وبعثت كيدك غازيـاً في غـارةٍ ما كان فيها السّيفُ غير مشـيَّعِ
كيدٌ كفى الجيشَ القتالَ وردَّهُـمْ بين الغنيمةِ والإيـابِ المسـرِعِ
جزعتْ له أم الصَّليبِ ومن يَصُبْ بحريمـه وبـلُ المنيـةِ يجـزعِ

٥- العزم والحزم:

كثيراً ما تُشَبَّهُ عزيمةُ القائد التي تدفعه إلى الحرب فلا يتردّد دون نيل مرامه بالسّيف، ومن ذلك قول البُحْتُرِيّ[3]:

(١) ديوانه (١٣٠٥/٢) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح بن خاقان.

(٢) ديوانه (١٢٩١/١) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد.

(٣) ديوانه (٨٨٠/٢) من قصيدةٍ يمدح بها يوسف بن محمّد.

حسامٌ وعزمٌ كالحسام وجحفـــلٌ شِدادٌ قواه محصـــداتٌ مرائـــرهْ

وقوله(١):

جردتْ فيهم حساماً صارماً ذكراً وعزمةً كشباةِ الصّـــارِمِ الخـــذمِ

ولو كانت هذه العزيمة سيفاً فضرب به الصّخر لأثرت فيه ولو شهر في وجهِ السّباع الضّواري لخشيته فذلت لحامله و لم تؤذه(٢):

ونفاذٌ يفـــلّ مستصـــعَبَ الخـــطـ ـبِ بعـــزمٍ يَخُـــدّ في الجلمـــودِ

لو تلاقِي بـــه الأســـودَ لأعطـــتْ طاعة المستكينِ غلـــبُ الأســـودِ

وهذه العزيمة القويّة لم تجيء عن تكلّفٍ إنّما هي سجيّةٌ فيه جاءتـــه عن أصالةٍ وطبعٍ صادقٍ(٣):

أميرٌ يكون الجَـــدُّ منـــه ســـجيّةً إذا ضيع التّدبيرَ في الرّأيِ هازِلُهْ

وليس كمسبوتِ الضّحَى من خماره إذا راح كانت للمدام أصـــائلُهْ

وفيه حزمٌ في الوقت الحزم، لينٌ في وقت اللّين(٤):

---

(١) ديوانه (٤/٢١٢٩) من قصيدةٍ يمدح بها مالك بن طوق.

والخَذِم: القاطع.

(٢) ديوانه (٢/٨٠٧) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز بن الشّلمغان.

(٣) ديوانه (٣/١٦٨٢) من قصيدةٍ يمدح بها الموفّق، ويذكر تولّيته لسيما الطّويـــل الشّام.

(٤) ديوانه (٤/٢١٨٥) من قصيدةٍ يرثي فيها يوسف بن محمّد.

وسائس جيش يرجع الحزمُ والحجَى إلى شدّةٍ مـــن جانبيـــه ولـــينِ

لكن حزمه يبلغ الكمال في كلّ حاليه إن أقام أو ارتحل[١]:

لا يبرحُ الحزمُ يســتوفِي عزيمَتَـــهُ أقامَ مبتدئاً أم ســارَ معتزِمـــاَ

وهو حزم يستعين على صرامته بالعزيمة القويّة والرّأي السّديد[٢]:

تركَ الهوادة حينَ كــرّ يريـــدُكُم بعزيمةٍ فَصْـــلٍ وطــرف ســامِ

٦- خشونة العيش وقلّة النّوم:

من عادة العرب إذا أقبلوا على الحروب ألاّ يحملوا معهم من الزّاد إلاّ أقلّه كي يكونوا خفيفي الحملة سريعي الإغارة، وأعـــانهم علـــى ذلـــك معرفتهم الدّيار ومصادر الماء، وقد وصف البُحْتُـــرِيّ ممدوحـــه بـــذلك؛ فقال[٣]:

قليلُ فضولِ الزّادِ إلاّ صـــواهلاً ظهاري طعنٍ أو حديداً يظـــاهرهْ

فإن هَمَّ بغزوٍ هَجَرَ رقيق العـــيش ولذيـــذه، ومـــن ذلـــك قـــول البُحْتُرِيّ[٤]:

يجفو رقيقَ العيشِ حتّى تنجلِـــي شَبَهُ الشّكوكِ وســـدفةُ الإظـــلام

(١) ديوانه (٣/٢٠٤٦) من قصيدة يمدح بها أبا يوسف رافعاً الطّائيّ.

(٢) ديوانه (٣/٢٠١٧) من قصيدة يمدح بها المعتزّ.

(٣) ديوانه (٢/٨٨٠) من قصيدة يمدح بها يوسف أبا محمّد.

(٤) ديوانه (٣/٢٠١٦).

كما يوصف القائد بقلّة النّوم وصبره على السّهرِ عند إرادة الحرب(١):

جافِي المضاجعِ لا ينفكّ في لَجِب   يكاد يُقْمِرُ في لألائه القمرُ

٧- عَدْلُ القائد بين جنده:

عند تقسيم الغنائم(٢):

تجري على سورةِ الأنفالِ قسمتُهُ   إذا توافَى إليه الغُنْم والنَّفَلُ

ب- الجند:

إنّ قوّة الجيش في فرسانه الأقوياء وجنده البواسل، وللجند صفات حِسّيّةٌ وخُلُقيّةٌ كانت سبباً في شجاعتهم واستبسالهم.

فأمّا الصّفات الحِسّيّة فمنها الخلْقِي ومنها المكتسب:

---

(١) ديوانه (٢/٩٥٨) من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن مُرّ الطّائيّ.
قال المحقّق في الحاشية: (٣٥)، من الصّفحة نفسها: «والشّاعر يريد أن يقول: إنّ ممدوحه لا تمنعه ظلمة اللّيل عن مصارعة خصومه حتّى ليكاد القمر يستمدّ نوره من لمعان سيفه وغرّة وجهه».

(٢) ديوانه (٣/١٧٦٠).

١- صفاتهم الخَلْقيّة:

من صفات جندِ ممدوحِي البُحتُرِيّ الخَلْقيّة قوّة أجسادهم؛ فهم جندٌ أقوياء يتمتّعون بطول القامة وبعد ما بين المنكبين، وانظر إليه كيف يفتخر بفرسان قبيلته الذين يتمتّعون بهاتين الصّفتين[١]:

ويومَ القرينينِ انتصرنا ولم نخفْ بكلِّ طويلِ الباعِ منفسحِ الصدرِ

وكرّر الصّورة مرّة أخرى بكنايةٍ بديعةٍ وهي ضيق الدّروع التُّبعيّات عنهم، لانفساح صدورهم، وأضاف مع هذه الصّفة صفتين أخريين هما: رحابة الباع وطول الأنامل، ففيهما الدّلالة على ضخامة أجسادهم وقوّتها[٢]:

تضيقُ الدّروعُ التّبعيّاتُ منهم على كلّ رحبِ الباعِ سبطِ الأناملِ

وهم بيضُ الوجوهِ في المواقعِ التي تسوَدُّ وجوهُ الفرسانِ وتَكْلَحُ[٣]:

زهر إذا التهبت بهم شعل الظبا عطفوا على أولى القنا المتعطفِ

(١) ديوانه (١٠٨٤/٢)

(٢) ديوانه (١٨٦١/٣).

في حاشية المحقّق: (سبط الأنامل): سَخِيّ؛ فجعلها كناية عن الكرم وقد جاء في اللّسان (٣٠٩/٧)، رجل سبط الأصابع طويلهما، وهو المناسب للمقام هنا.

(٣) ديوانه (١٤١٣/٣).

٢- الصّفات المكتسبة:

فَمِنْهَا: الدّربة على القتال:

وهذا من عوامل الانتصار في المعارك، وقد أشار البُحْتُرِيّ إلى هذه الدّربة في فوارس بنِي تغلب بقوله(١):

إذا ما أخٌ جرَّ الرّماحَ انبرى له أخٌ لا بليدٌ في الطّعانِ ولا وَغْــلُ

كما نجده يفتخر بقومه الذّين إذا اشتعلت نيران الحرب وعلا ميدان المعركة الغبارَ؛ فأظلم الجوّ و لم تنره إلاّ السّيوف بلمعانها؛ فإنّهم لبسالتهم ودربتهم وخبرتهم باللّعب بالرّماح، وعدم خشيتهم المــوت لا يطعنــون أبطالَ أعدائهم إلاّ في نحورهم(٢):

قومِي الذين إذا المنــونُ تفرســتْ يوم الوغى في أوجــهِ الفرســانِ
واسودَّ وجهُ الشّمس واحمرّتْ ظُبَا بيضُ الصِّفاحِ وبَلَّــدَ الــبطلانِ
فالنّقعُ ليلٌ والسّــيوفُ كواكــبٌ تنقضُّ فــوقَ جمــاجمِ الأقــرانِ
نحروا الأســنَةَ بــالنّحورِ تهاونــاً بالموتِ بل مَرَنا عَلَــى العَــرَّانِ

ومن مظاهر دربتهم على القتال: إحسانهم الكرَّ وصــبرهم علــى الطّعن، مع أخذهم الأُهبة الكاملة من العدّة والعتاد، ومِمَّن هذه صــفتهم

(١) ديوانه (١٦١٤/٣)

البيد: ضدّ الذّكِي، والمتحيّر والوغل النّذل السّاقط، اللّسان (٩٦/٣).

(٢) ديوانه (٢٣٨٠/٤-٢٣٨١).

موالِي الخليفةِ المعتزّ؛ إذ قال فيهم(١):

تورّدوا النَّقعَ لا حِيدٌ ولا كُشُفٌ وباشروا الموتَ لا مِيلٌ ولا عُـزُل
يواترون تباعَ الكَـرِ إن ركبـوا ويصدقون دِرَاكَ الطَّعنِ إن نَزَلـوا

كما أنّهم فرسان ماهرون بالطّعان؛ إذ لا تقع رماحهم إلاّ في قلوب أعائدهم(٢):

قومٌ ترى أرماحَهم يوم الـوغَى مشـغوفة بمـواطن الكتمـانِ

وهم لفرط شجاعتهم لا يرون الرّماح لمهـارتهم باسـتخدامها إلاّ كالعِصِيِّ، وقد يكون ذلك لتفضيلهم السّيوفَ عليهـا؛ لأنّ اسـتخدام السّيف يدلّ على شجاعةٍ أكثر؛ حيث لا يستخدم إلاّ إذا تلاحم الجيشان، وهذا موضع لا يثبت له إلاّ ذو الجنان، كما يرون الـدّروع كالألبسـة الرّقيقة فستحيون من لُبْسِها، ولأنّهم محبّون للموت لا يرون حاجـة لهـا لاقتناعهم بأن لَنْ يحمِي الفارس إلاّ شجاعته ومهارته وسيفه(٣):

ملوكٌ يعدّون الرّمـاحَ مخاصِـراً إذا زعزعوا والـدُّروعَ غلائـلا

وقد كرّر المدح بعدم لبس الدّرع في غير ما موضعٍ، منه قوله عنـد

(١) ديوانه (١٧٢٣/٣).
(٢) ديوانه (٢٣٦٥/٤).
(٣) ديوانه (١٦٠٢/٣).

وصفه قبيل الحسن بن وهب[١]:

صناديدُ يَلقونَ الأســـنَةَ حُسَّـــراً   رجالاً ويخشـــون المذلَّـــةَ دُرَّعـــاَ

ومنه في مقام فخره بقوله؛ إذ استغنوا بالأســـنة والمرهفـــاتِ عمّـــا سواها؛ فكانت لهم سربالاً، ولكنّها سرابيل لا تقي متسربلها المـــوتَ ولا يرضى بها إلاّ البواسلُ[٢]:

يتسربلون أســـنةً وصـــفائِحَا   والموتُ بين صـــفيحةٍ وســـنانِ

وهذا لا يتنافى مع وصفه قوماً آخرين بلبسهم الدّروع؛ لأنّ كثـــرةَ الدّارعين من دلائل قوّة الجيش، ولبس الدّروعِ في المعارك الكبيرة محمودٌ، وأمرٌ لا بدّ منه، ليحتمِي الفارس به من سهم طائشٍ أ، رمـــحٍ عـــائرٍ، أو غدرة غادرٍ، لاختلاط الفوارسِ، ومن ذلك وصفه لجند موسى بـــن بغـــا الكبير[٣]:

ولم يأتِ موسى في الموالِي عليهم   سرابيل من نسجِ الحديدِ الموشَّـــحِ

أو قوله في جند أبي الصّقر[٤]:

وعلـــى خيلـــه أســـوَدٌ عليهـــا   حَلَـــقٌ يـــدأ السّـــلاحَ مَـــدَارهْ

(١) ديوانه (٢/١٢٦٥).

(٢) ديوانه (٤/٢٣٦٦).

(٣) ديوانه (١/٤٥٢).

(٤) ديوانه (٢/٩٠٨).

ت- ومنها: (الرّوح القتالية العالية):

والمتمثّلة في اشتعال قلوبهم حقداً على أعدائهم من مثـــل وصـــفه لفرسانِ بنِي تغلب(1):

وفرسانُ هيجاءٍ تجيشُ صــــدورُهَا   بأحقادها حتّى تضيقَ دروعُهَـــا

وفي أخذهم بالثّأر عدم تركة، فلا يغمضون عيناً على وَتْرٍ ولا جفناً على سيفٍ إلا بعد الأخذ به(2):

سَمونا لهم في عصـــبةٍ بِحتريَّـــةٍ   يَكرونَ ليسوا يَعْرِفُونَ سوى الكرِّ
إذا وتروا خلوا جفون سيوفِهِمْ   خلاءً ولا يُغْضُونَ جفناً على وُتْرِ

وفي احتراقهم أسًى وغيظاً إذا عادوا برماحٍ لم تتحطّم في صـــدور أعدائهم(3):

قومٌ إذا جروا الرّماحَ تكســـروا   غيظاً إذا رجعتْ ولم تنكســـرِ

جـــ ومنها: إجادتهم الرّماية:

وهم رماة حازقون موفقون لا تقع نبالهم إلاّ في صدور أعدائهم، ولا نيران نَفْطِهِم إلاّ في أجساد أعدائهم وممتلكاتهم(4):

إذا رشقوا بالنّارِ لم يكُ رشقُهُمْ   ليقلعَ إلاّ عـــن شـــواءٍ مُقَتَّـــرِ

(1) ديوانه (٢/١٢٩٩).
(2) ديوانه (٢/١٠٨٣).
(3) ديوانه (٢/٩٥١).
(4) ديوانه (٢/٩٨٤).

وأمّا الصّفات الخُلُقيّة؛ فأشهرها:

١- الشّجاعة:

ولشجاعة جندِ ممدوح البُحْتُرِيّ نجده مرّة يشبّههم بالأسود كمثل قوله في أبي مسلم وإخوانه[١]:

أسودٌ يفرّ الموتُ منهم مهابةً إذا فرَّ منه كلّ أروعَ صارِمِ

وقوله مفتخراً[٢]:

وإنا ليوثٌ حين تشتجرُ القنا غيوثٌ إذا ضَنَّ السّحائب بالقطرِ

ومظاهرها كثيرةٌ أبرزها:

حبُّ القتال والإقبالُ على المعارك دون رهبة على أيّ هيئةٍ كانت، منهم: الدّارعُ والحاسرُ والفارِسُ والرّاجلُ[٣]:

وحولك رَكّابونَ للهولِ عاقروا كؤوسَ الرّدى من دارعينَ وحُسّرِ

وقوله[٤]:

يتسرعونَ إلى الحتوفِ كأنّها وَفْرٌ بأرضِ عدوِهِم يُتَنَهَّبْ

فقلوبهم مَرِنت على الحروب وويلاتها، فقست كأنّما هي قطعةٌ من الصّخرِ[٥]:

---

(١) ديوانه (١٩٦٨/٣).

(٢) ديوانه (١٠٨٣/٢).

(٣) ديوانه (٩٨٣/٢).

(٤) ديوانه (٧٥/١).

(٥) ديوانه (١٠٨٣/٢).

أشدّاءُ ما شدوا كأنّ قلــوبَهُمْ وآراؤهم في الحربِ يُنْحتن من صخرِ

ولعدم وجلهم من الموت يحتمونت بسيوفهم فيقدمون عليه وهذا أمرٌ مشهودٌ لهم به[١]:

وإنّا لمشاؤونَ تحــت ســيوفِنَا إلى الموتِ معرفون بالبأسِ والنّصــرِ

وهم في حبّهم للقتال وإقدامهم ينالون ما يريدون ويحصــلون مــا يتمنّون دون مكرٍ أو خداعٍ إنّما عن تطولٍ واقتدارٍ[٢]:

فندركَ بالإقدامِ بغيتنــا الّتــي نطالبــها لا بالمكيـــدةِ والمكـــرِ

يتسابقون إلى الموت صغاراً وكباراً، مرداً وشيباً، بيد أنّ الشّيبَ لهم الفضل في التقدّم لطول خبرتهم ولمراسهم الحروب وويلاتها[٣]:

خلا أنّ الكبيرَ يــزادُ فضــلاً كفضل الرّمحِ زيدَ من الكعوبِ

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) ديوانه (١٠٢/١).

وقد كرّر البُحْتُرِيّ الإشارة إلى فضل الشّيب على الشّباب بعدّة قصائد منــها وصفه جند أبي محمّد الثّغري:

وجحاجح الأزد من غوث حولــه فِرَقــا يهــزون اللّحــاء الشّــيْبا

(١٨٧/١).

ومنه قوله في وصف بعض حروب بنِي تغلب:

يهال الغلامُ الغــرّ حتّــى يَــرُدَّهُ على الهول من مكروهها الأشيب الكهل

(١٦١٤/٣).

ومن أسباب هذا التّقدّم أمورٌ منها: اكتمال العدّة وأصالة الأحساب التي يخشى عليها العار بالتّأخّر بَلْهَ الفرار[1].

تحثُّهُم البيضُ الرّقاقُ، وضمرٌ عتاقٌ، وأحسابٌ بها يدركُ التّبْلُ

كما كرّر ذلك في قصيدةٍ أخرى فجعل سبب تقدّم في أصالة أعراقِهِم[2].

تبالوا صادقَ الأحسابِ حتّى نفوا خَوَرَ الضّعيفِ عن الصّليبِ
صريحُ الخيلِ والأبطالِ أغنَى عن الهُجُنات والخَلَطِ المشوبِ

ومنها: اعتقاد الفارسِ بأنّ الموت في الحرب هو الغنيمة التي يشرف بها فيحصل بها العلا، ويبتعد بها عن مذلّة هذه الحياة أنفة وعزّة، وقد أشار إلى هذا السّبب في قوله من قصيدةٍ يرثي بها حميداً الطّوسي وأبناءه[3]:

أبا غانِم أردى بنيك اعتقادُهُم بأنّ الرّدى في الحربِ أكرمُ مغنمِ
مضوا يستلذون المنايا حفيظةَ وحفظاً لذاك السّؤددِ المتقدّمِ
ولَمّا رأوا بعضَ الحياة مذلّةً عليهم وعزُّ الموتِ غيرُ محرّمِ
أبوا أن يذقوا العيشَ والذّمُّ واقعٌ عليه وماتوا ميتةً لم تُذَمَّمْ

(١) ديوانه: (٣/١٦١٤)، من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان، و يذكر حرب بني تغلب.

(٢) ديوانه: (٢/١٠٠).

(٣) ديوانه (٣/١٩٤٢).

ولحبّهم القتال وحرصهم على العلا، كانت قبورهم بطون السّباع وأجواف النّسور[1]:

مصارُعُهُم حول العلا وقبورُهُم مجامعُ أوصالِ النّسورِ الحوائمِ

ونجد الشّاعرُ يجعل فرسانَ جيشِ ممدوحه لِحبّهم الحرب أبناءً لها لا يتركون غريمهم حتّى يستأصلون شأفته[2]:

سيأتِي به مستأسِراً أو برأسه بنو الحرب والغالون في طلبِ الوِتْر

وجعلهم في قصيدةٍ أخرى أبناء للموتِ، يرتمون بأحضانه في كلّ معركٍ دون خشيةٍ أو رهبةٍ[3]:

أبناء موتٍ يطرحون نفوسَهُم تحتَ المنايا كلَّ يومِ لقاءِ

ثانياً: الإعداد للمعركة:

قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾[4].

---

(١) ديوانه (١٩٦٨/٣).

(٢) ديوانه (١٠٠٦/٢) من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ.

(٣) ديوانه (١١/١).

(٤) الأنفال آية: (٦٠).

ففي هذه الآية حَثٌّ على أخذ كامل العدّة والعتاد لملاقاة أعداء الله، ونشر دينه، وحضٌّ على الإكثار من الخيل المرابطة دوماً في سبيل الله، وعلى الثّغور لِما لها من أهميةٍ، وهذا من قبيل عطف بعض أفراد العام عليه، كما حثّ على الإنفاق من أيّ شيءٍ كان فيه خدمة للمجاهدين وعون على إعلاء كلمة الله ونشر دِينه.

وها هنا سنعرض لأشهر عتاد الحرب في عصر شاعرنا مستنبطين ذلك من شعره:

أ-الجيش:

كثيراً ما يُشَبّه الجيش كثرة بالجبال، وجيش ممدوح البُحتُرِيّ جبال يبدو لمعان الحديد -بِيْضه ورماحه ودروعه- بين وهادها متجاوزاً فمصها[١]:

لم يقم صفرُهُم عشيةَ زارته جبا ... لٌ يضيء فيها الحديدُ

ولكثرة جند هذا الجيش وكثافته اسودّت الأجواء من حوله فيراها الرّائِي عن بعد كأنّها اللّيل قد أقبل مريداً التهام الصّبح، فيظلم الأفق ويذهب ضوء الشّمس حتّى كأنّها كسفت[٢]:

لَيُصَبِّحَنَّ الرّومَ جيشٌ مَغْمِدٌ ... للصّبح في رَهَجَانه المتلفّفِ
يسود منه الأفق إن لم يَنْسَدِدْ ... وتمور منه الشّمس إن لم تنكسفْ

(١) ديوانه (٥٠٣/١).

(١) ديوانه (١٤١٣-١٤١٢/٣).

وله من أخرى[1]:

غزاكُمُ بقلوبٍ مـــا لهـــا خَلَـــلٌ ... من خلفها وسيوفٌ ما لها خلَـــلِ
قد كان ناراً وَعُظْمُ الجيشِ مفترقٌ ... بالثّغرِ إلاّ أصـــيحابٌ لـــه قُلُـــلُ
فكيفَ وهو يسوقُ اللّيلَ في زَجَلٍ ... من عسكرٍ ما لشيءٍ غيرُهُ زَجَـــلُ

فقد وصف جيشه ممدوحه بأنّه جيشٌ كبيرٌ ذو سرعان وهم الأوائل من القوم أو الخيل، وذو جلبةٍ وضوضاء، وعدتــه السّــيوف والرّمـــاح، وحسن التّخطيط وفرسان لا يعرف الوهن إلى قلوبهم طريقاً، وسيوف قد هجرت الأجفان، فهو جيش كاللّيل لكثرة الجند والغبار، إلاّ أنّ من عادة اللّيل السّكون، ولكن هذا اللّيل المقبل ذو ضوضـــاء وهـــي ألـــذّ في أذن سامعها من الطّرب والغناء.

ولكون الجيش يتكوّن من كتائبَ قد تتباعد عن بعضها؛ فإنّ غبـــار كلّ كتيبةٍ جعل الشّاعر يصوّر ضوء النّهار -لقلّته بينها- قبيلـــةً واحـــدةً والظّلام النّاجم عن الغبار المغطّي الأفق قبائل[2]:

وسُقْتَ الذي فوق المعاقل منهُمُ ... فلم يبق إلاّ أن تسوق المعـــاقلا
بجمعٍ ترى فيـــه النّهـــارَ قبيلـــةً ... إذا سار فيه والظّـــلامُ قبـــائلا

---

(٢) ديوانه (١٧٥٥/٣).

(٣) ديوانه (١٦٠٢/٣).

هذا، وقد وصف البُحْتُرِيّ بعضاً من هذه الكتائب ومن ذلك وصفه لكتيبة مِن كتائب أحمد بن بِسْطام بقوله(١):

وما برحَ الأعداءِ حتّى بدهتَهُمْ بظلماءَ زحفٍ بِيْضُها تتلهبُ
إذا انبسطتْ في الأرضِ زادت فضولُهَا على العينِ حتّى العينُ حسرى تَذبذبُ

فهي كتيبةٌ لكثرة جندها وارتفاع غبارها أفزعت الأعداء لِما بدت لهم، وسيوف جندها تتلألأ، حتّى إذا استقرّوا في قرارة أرض تشعبت فلم تحطّ العين بأطرافها.

أو قوله في وصف كتيبة صَاعِد بن مَخْلَد(٢):

فكم فرجُوا من كربةٍ وتغولتْ مشاهدُهُم من طَخْيَةٍ وَضَابِها
بملعومةٍ تحتَ العجاجِ مضيئةٍ تحوزُ الأعادِي خطفةً من عقابِها

فهي كتيبةٌ مجتمعةٌ قد ارتفع غبار خيلها ورَجْلِها حتّى أظلم الأفق، ولكن سيوف هؤلاء الفرسان ولمعان بِيضها، قد أضاء ففرج هذه العتمة،

---

(١) ديوانه (١٣٦/١).

(٢) ديوانه (٢٣٤/١).

الطخية: الظّلمة.

لقد فسّر المحقّق قول الشّاعر (تحوز الأعادِي...) بقوله: يقصد الشّاعر أنّ العقاب تحوم على ساحة القتال فتخطف القتلى من الأعداء.

وفي رأيِي: أنّ هذا وإن كان واقعاً إلاّ أنّه بعيدٌ؛ لأنّ ذلك لا يكون إلاّ بعد انتهاء المعركة، والبيت يدلّ على أنّ هذا الفعل يكون والمعركة دائرة؛ إذ يجمع الأعداء ويسترقون، وهذا لا يكون إلاّ للخيل التِي كثيراً ما تشبه بالعقبان.

فلن يتمكّن الأعداء من الوقوف أمام خيلها المغيرة، التي تشبه العقبان في انصبابها عليهم فتحوزهم وتجمعهم ولن يفلت منهم أحدٌ.

ومن حرص البُحْتُرِيّ على إبراز شجاعة ممدوحه ذكره لكثرة جيش أعدائه ووصفه لشجاعتهم ومن ثم إبرازه لشجاعة ممدوحه، في كونه تغلّب على أعدائه مع كثرة جيوشهم، وبسالة فرسانهم، فهم أكثر عدداً من الحصى، قد ملأوا جبال قَرَّان، فكانوا كالسَّيل المتدفّق من الجبال على الأودية، وكالعشب أيّام الرّبيع وفرةً، يغطّي كلّ نجد ووهد(١):

والخَرِّميةُ إذ تجمع منهُمُ   بجبال قَرَّانَ الحصَى والأثلبُ
جاشوا فذاك الغور منهم سائلٌ   دفعاً وذاك النّجدُ منهم مُعْشِبُ

وفي صورٍ أخرى جعل من كثرة جيش أعدائه والتحامهم أرضاً أو سقفاً، لو أراد أحدٌ أن يمشي عليه فوق رؤوسهم لاستطاع ذلك، ولم يكن ليسقط؛ لأنّه لا فرجة بينهم(٢):

لَمّا أتاك يقودُ جيشاً أرعناً   يُمْشَى عليه كثافةً وجموعاً

كما شبّه جيش الأعداء البحريِّ لكثرة سفنه بسحب الصّيف التِي لا تخلو منها السّماء، منها ما يمرّ سريعاً، ومنها ما يمرّ على مهلٍ، ومنها بيضاء نقيّةٌ، ومنها سوداء مدلهمة؛ فقال(٣):

يسوقون أسطولاً كأنّ سفينَهُ   سحائِبُ صيفٍ من جَهَامٍ وممطرِ

---

(١) ديوانه (٧٥/١).

(٢) ديوانه (١٢٥٥/٢).

(٣) ديوانه (٩٨٤/٢).

ب-الخيل:

الخيل هي أهمّ عدّة الحرب في القديم وأداة التّوجّـــه إلى الأعـــداء، ووسيلة اللّحاق بالفارِّين، بها يكرّ الفارس على الأعداء، ولذا كثر وصف الشّعراء للخيل التِي تصلح لميادين القتال، ومن حديث البُحْتُرِيّ عن أمثال هذه الخيل، قوله مخاطباً أحد ممدوحيه(١):

فَأَعِنْ على غزو العــدوِّ بمنطــوٍ أحشاؤه طَيَّ الكتــاب المــدرجِ

فقد أخذ في بيان صفات هذا الجواد وأهمّها: «الصّــفات الحسّــيّة الخَلْقيّة التِي تبدو في عدم ترهل الجسمِ، وفي ضمور الأحشــاءِ ضــموراً، يجعل الجواد، مشوّق الظّهرِ، خفيف الحركة، حسن الامتطاء، وقد شــبّه البُحْتُرِيّ، طيَّ الأحشاء بطيّ أوراق الكتاب، حين تتضامّ وتتلاصق بــين دفتيه لا يكون هنالك فراغ بينها»(٢).

ثم وصف البُحْتُرِيّ في هذه القصيدة أنواعاً من الخيل التِي يودّ مــن ممدوحه أن يختار له نوعاً منها؛ فقال(٣):

إمّا بأشقرَ ساطعٍ أغشى الــوغى منه بمثــل الكوكــبِ المتــأججِ
متسربلٍ شــيةٌ طَلَــتْ أعطافَــهُ بدمٍ فما تَلْقَــاه غــير مضــرجِ

(١) ديوانه (١/٤٠٢) من قصيدةٍ يمدح بها أبا نهشل بن حميد الطّوسي.

(٢) الخيال الشّعري، في شعر الوصف البُحْتُرِيّ (١٣٧)، تــأليف: د/ طــه أبــو كريشه، الطّبعة الأولى ١٩٨٣م، توزيع مكتبة الملــك فيصــل الإســلامية، القاهرة.

(٣) ديوانه (١/٤٠٣-٤٠٥).

فهو يريده إمّا فرساً أشقر، جامعاً بين البياض والحمرة، تكثر الحمرة في جوانبه، حتّى يبدو لعين النّاظر ملطّخاً بدماء الأعداء، وهو فرسٌ مدرَّبٌ صافِي الشّقرة، إذا خاض بها غمرات المعركة بدا وكأنّه كوكبٌ متوهّجٌ منقضٌ من علٍ:

أو أدهمٍ صافِي السّوادِ كأنّه ... تحت الكَمِيِّ مُظَهَّرٍ بِيَرَنْدَجِ
ضَرِمٍ يهيجُ السّوطُ من شؤبوبِهِ ... هَيَجَ الجنائبِ من حريقِ العرفجِ
خَفَّتْ مواقعُ وطئِه فلو انّه ... يجري برملةِ عالِجٍ لم يرهجِ

وإمّا فرساً أدهم شديد السّواد وصافيه، لا تعلوه كدرة يبدو لعين النّاظر إذا رآه وقد امتطاه فارس، حسبه لشدّة سواده مطلياً بصبغ اليرندج، «أمّا كفاءته القتالية؛ فإنّها تبدو في نَهَمِه وشغفه بالحركة السّريعة النّشيطة بحيث لو همز بالسّوط همزاً لهاج، وتأججت فيه حميا الاندفاع والطّراد»[(١)].

تأجّج شجر العرفجِ حين يهمز بالسّوط يهب مسرعاً، فتسمع لصفق الهواء في جوانب أديمه الصّافي حفيفاً، وهو فرسٌ خفيف وطء الحوافر على الأرض، فلا يثير غبار الأرض —ولو دقّ ترابها- لسرعته.

أو أشهبٍ يقِقٍ يضيءُ وراءه ... متنٌ كمتنِ اللُّجَّةِ المترجرجِ
تخفى الحجولُ ولو بلغنَ لبانَهُ ... في أبيضٍ متألقٍ كالدُّمْلُجِ
أوفى بعرفٍ أسودٍ متغربِبٍ ... فيما يليه، وحافرٍ فيروزجِي

(١) الخيال الشّعري في شعر الوصف عند البُحتُريّ، د/ طه أبو كريشه (١٣٩).

فهو يريده فرساً أشهب قد اختلط سواده ببياضه النّاصع المتألق من بعيدٍ، وبخاصّة بياض كاهله، الذي يبدوا كأنّه لجة بحرٍ رجراج قد خبطتها الرّياح، فازداد بياضها مع ارتفاعها عن مستوى البحر قليلاً، ولشدّة بياض قوائمه تعذر ظهور التّحجيل فيها، فقوائمه إلى لبانه كأنّها قد أحيطت بسوار فضّة،ومِمّا زاد جمالَه اسوداد شعر عرفه الحالك على البياض النّاصع، كما أنّ لون حافره كلون الفيروزج، ((وهو حجر كريم شفاف معروف بلونه الأزرق كلون السّماء، أو أميل إلى الخضرة يتحلّى به))[1].

أو أبلقٍ يلقى العيون إذا بدا — من كلّ لونٍ مُعجبٍ بنموذجِ
جذلانَ تحسِدُهُ الجيادُ إذا مشى — عَنَقاً بأحسنِ حُلَّةٍ لم تنسجِ
أرمِي به شوكَ القنا وأردُهُ — كالسِّمعِ أثّر فيه شوكُ العوسجِ

وهذا وصف لرابع نوع من الخيول التِي خيّر ممدوحه بين إهداء أحدها إليه، ووصف هذا الجواد، بأنّه حصانٌ أبلق فيه ألوان كثيرةٌ مختلطةٌ تسرّ النّاظر إليها بحسن تصاويرها، وهو فرسٌ نشيطٌ إذا مشَى خيل إليك أنّ الجياد الأُخَر تنظر إليه بعين الحسد، لو كنَّ يعقلن، ومِمّا يدلّ على نشاطه سيره العنق، وهو ضربٌ من السّير السّريع الخفيف، وهو فرسٌ لخفّته وتمايله في ميدان القتال لا تصيبه الأسنة إلاّ كما يصيب الذّئبَ حين عدوه مسرعاً بين أشجار العوسجِ.

---

(١) المعجم الوسيط، ط الثّانية، لعدّة مؤلّفين، ط دار إحياء التّراث العربِي (٢/٧٠٨).

وأَقَبَّ نَهْدٍ للصّواهلِ شطرُهُ ... يوم الفخارِ وشطرُهُ للشُّحَّجِ
خَرِقٍ يتيهُ على أبيهِ ويدّعي ... عصبيةً لبني الضُّبيبِ وأعوجِ
مثل المُذَرَّعِ جاء بين عمومةٍ ... في غافقٍ وخؤولةٍ في الخزرجِ
لا دَيْزَجٌ يصف الرّمادَ ولم أجدْ ... حالاً تحسنِ من رواءِ الدّيزجِ
وعريضُ أعلَى المتنِ لو علَّيتَهُ ... بالزّئبقِ المنهالِ لم يترجرجِ
خاضت قوائِمُهُ الوثيقُ بناؤها ... أمواجَ تحنيب بهنّ مدرجِ

فهو يريده حصاناً دقيق الخصر ضامر البطن، إن أردت أن تفاخر به أصائل الخيل حاز قصب السّبق لعراقة نسبه، وإن أردت أن تفاخر به البغال فضلها لارتفاع هيكله وشدّة قوائمه، وهو من شرفه يفخر على أبيه؛ لأنّه جمع عراقة النّسب من طرفيه، مع شرف نسب أمّه على أبيه، ولذا فهو يفخر عليه، وكلا النَّسَبَيْنِ من خيول معروفة بالأصالة لدى العرب.

ولونه بين لونين، يقارب لون الرّماد، وهيكله مرتفع، عريض أعلى المتن والظّهر، لو سكب عليه الزّئبق لم يسقط من على متنه لعرضه، وله قوائم قويّة كأنّها أعمدة هيكل، فيها تحجيل يشبه الموج، مع إنحناء لسعة ما بينها[1].

---

(١) هذا وللبُحتُريّ قصائد أكثر فيها من أوصاف خيلٍ بعينها، كالقصيدة السّابقة إلاّ أنّه أطال الوصف فيها، ولا بأس أن نذكر منها وصفه لجواد أهدى إليه: =

فنلاحظ أنّه ركّز في وصفه على جمال الهيئة والشّكل الخارجِي مع وصف بمجملٍ لقوّة هذه الخيل، والمتمثّل في ضخامة الهيكل وسرعة الجري.

أمّا وصفه للخيل المجاهدة فعلاً، والتِي غبَّرَتْ في السّرايا وخاضت الحروبَ، فنجده متمثّلاً في مثل قوله(١):

أمّا الجواد فقد بلونا يومه ... وكفى بيوم مخبراً عن عامه
جارى الجياد فطار عن أوهامها ... سبقاً وكاد يطير عن أوهامه
جذلان تطلمه جوانب غرّة ... جاءت مجيء البدر عند تمامه
وأسودّ ثم صفت لعينِي ناظر ... جنباته، فأضاء في إظلامه
مالت جوانب عُرفه فكأنّها ... عذبات أثل مال تحت حمامه
ومقدم الأذنينِ تحسب أنّه ... بهما يرى الشّخص الذي لأمامه
يختال في استعراضه ويكب في استدبا ... ره، ويشبّ في استقدامه
إذا التقى الثّفرُ القصير وراءه ... فالطّول حظّ عنانه وحزامه
وكأنّ فارسه وراء قذاله ... ردف فلست تراه من قدامه
لانت معاطفه فخيل أنّه ... للخيزران مناسيب بعظامه
في شعلة كالشّيب لاح بمفرقَي ... غَزِلٍ لها عن شيبه بغرامه
ومردد بين القوافي يجتنِي ... ما شاء من ألف القريض ولامه
وكأنّ صهلته إذا استعلى بها ... رعد يقعقع في ازدحام غمامه
مثل العقاب انقض من عليائه ... في باقر الصّمان أو آرامه
أو كالغراب غدا يباري صحبه ... بسواد نقبته وحسن قوامه

انظر: ديوانه (١٩٨٥/٣-١٩٨٨).

(١) ديوانه (٢١٦٦/٤-٢١٦٧).

وتوافتْ خيلاك من أرض طَرْسُو سَ وقاليقلا بأردندونا
عابساتٌ يحملن يوماً عبوساً لأناس عن خطبه غافلينا
قد طواهنَّ طيهُنَّ الفيافِي واكتسين الوجيفَ حتّى عرينا
كوعولِ الهضابِ رُحْنَ وما يَملّكن إلاّ صُمَّ الرّماح قرونا
جلنَ في يابسِ التّرابِ فما ر منَ طعاناً حتى وطئن الطّينا

فخيول ممدوحه خيول علاها العبوس والوجوم لهول ما عانت من مشاق الطّريق ولأوائه، وما كابدت من ويلات الحروب ومضائقها، فكانت في عبوسها عوناً على اشتداد الحرب على الأعداء، فزادت الحرب عبوساً، وزادت أيام من فاجأهم بؤساً، بعد أن كانوا في دعة ونعمة آمنين غافلين، وهي خيل قد ضمرت ضموراً شديداً، فلا يرى عليها غير غشاء الجلد ،و هو يغطّي الضّلوع التي أشبهت قرون وعول الجبال في تحنيها، وصلابتها وتشابكها، «وإنّها لخيل لها قدرةٌ كبيرةٌ على العدوِ السّريع، حتّى كأنّها قد اتّخذت منه لباساً ترتديه لا يفارقها لحظةً من اللّحظات، بعد أن عريت أجسادها من كساء الشّحم،الذي ذاب لطول ما قطعت من فياف وقفار، واكتسين الوجيف حتّى عرينا، وإنّ هذه لصورة متخيّلة يتخيّلها النّاظر إليها وهو يراها في عدوٍّ دائمٍ، ولا يرى فيها ما يراه في الخيول التي دامت إقامتها، فترهلت أجسادها واكتَنَزت شحومها حتّى غدا ثوباً تلبسه وترتديه»[1].

---

(١) الخيال الشّعري في شعراء الوصف عند البُحتُرِيّ، د/ طه أبو كرشيه (١٤٥).

كما كرّر بعض هذه الصّورة في قصيدةٍ أخرى فقال[١]:

ستأتيكُمُ الجردُ الخناذيــذُ تقتــري جنوبَ سهولِ في الفلا وحــزونِ
عوابس تغشى الرّوع في كلّ ماقط مناقلـــة فيــه بأســد عــرينِ

فهي خيل قصيرة الشّعر، طويلة، صلبة قويّة البنية، قد أَلِفَت حزون الأرض وسهولها، لكثرة ما سارت عليها، كما ألفت الحروب، فتغشى كلّ مكان في ميادينها، دون رهبة لمضائقها حاملة على ظهورها الفرسان الشّجعان.

وقد شبّه الخيل لضمورها بالرّماح، ومن قوله[٢]:

خيلٌ كأمثــالِ الرّمــاحِ وفتيــةٌ مثلُ السّيوفِ إذا دعينَ لَمشْرَفِ

وقد شبّهها لتعطّفها بالعقبان حين انقضاضها على فرائسها[٣]:

بفوارسٍ مثلُ الصّــقورِ وضُــمَّرٍ مجدولــةٍ ككواســرِ العقبــانِ

كما شبّهها لتتابعها حين الاتّجاه إلى الغزو وكونها تــأتِي أرســالاً بالقطا وقت وروده المياه[٤]:

لقد بَعَثْتَ عتاقَ الخيــلِ ســاريةً مثلَ القطا الجونِ يتبعنَ القطا الجونِ

---

(١) ديوانه (٤/٢١٨٤).

(٢) ديوانه (٣/١٤١٣).

(٣) ديوانه (٤/٢٢٥٣).

(٤) ديوانه (٤/٢٢٠٠).

ج- السّفن الحربية:

لم أجد للبُحْتُرِيّ في وصف السّفن الحربية إلاّ سبعة أبياتٍ وصف فيها مركب أحمد بن دينار الذي (اتّخذه وهو والِي البحر وغزا فيه الرّوم)[1].

وهي قوله[2]:

أطلَّ بعطفيه، ومرَّ كأنّما ... تشوفَ من هادِي حصان مشهرِ
إذا زمجر (النّوتيُّ) فوق علاتِه ... رأيتَ خطيباً في ذؤابةِ منبرِ
بغضونُ دون الاشتيام[3] عيونَهم ... وفوقَ السّماطِ للعظيمِ المؤمَّرِ
إذا عصفتْ فيه الجنوبُ اعتلى لها ... جناحا عقابٍ في السّماء مهجِّرِ
إذا ما انكفا في هبوة الماءِ خلتَهُ ... تلفَّعُ في أثناءِ بردٍ محبَّرِ
وحولك ركابونَ للهولِ عاقروا ... كؤوسَ الرّدى من دارعينَ وحسَّرِ

فهذه الأبيات في وصف هذا المركب الحربِي المسمَّى (الميمون) تَيَمّناً وتفاؤلاً، وفي وصف رئيسه وملاّحيه وركابه.

(١) ديوانه (٢/٩٨٠).

(٢) ديوانه (٢/٩٨٢-٩٨٣).

(٣) الاشتيام رئيس المركب، قيل: عربية، وقيل: أعجمية.

انظر: ديوانه (٣/٩٨٣)، حاشية (٢٣)، وعبث الوليد في الكلام على شعر أبي عبادة الوليد بن عبيد البُحْتُرِيّ الطّائيّ، لأبي العلاء المعرِّي، تصحيح: محمّد عبد الله المدنِي، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٥هـ، دار الرّفاعي بالرّياض (١٠٣).

وقد وصف المركب بأنّه مرتفع المقدمة والمؤخّرة، كما هي عـــادة السّفن البحرية، وهما مرتفعان جدّاً وخاصّة المقدمة، ويتفنّن الصّناع فيهـــا فيضعون لها امتداداً لطيفاً في آخره استدارة بإمالة، ولهذا شبّهه البُحْتُـــرِيّ بـــ: (هادي حصان مشهّر)، ووصف نوتيه وبين موقعه الذي يجلس فيه، وهو أنّه يجلس فوق علاته، أي: في برج عالٍ لينظر مسيره وليأمر ملاّحيه بتحريك أشرعته.

ثم وصف تعرضه للرّياح، وأنّهم يحرّكون أشرعته حسب الرّيح إقبالاً وإدباراً أو يميناً أو شمالاً، وخصّ الجنوب؛ لأنّها هي التي تدفعه في تلـــك اللّحظة إلى الأمام فيحرّك الملاّحُ الشّراعَ باتّجاه الرّيحِ، فتدفعه للجهة التي يريد، فشبّه البُحْتُرِيّ شراع هذا المركب حين استدبرته الجنوب بجنـــاحي عقابٍ محلقٍ في السّماء.

ثم وصف حالة دفع الرّيح له بقوّة مع تصامده بالموج وحال وقوعه في هبوة الماء وهي «ما ارتفع ودقّ من الماء كالملاءة عند هبوب الرّياح أو انكباب السّفينة في البحر»[(١)]، فجعله ملتفاً ببرد محبرٍ؛ حيث شبّه الماء الذي أحاط به حينما انكفأ به بالملاءة.

ونلاحظ أنّ وصفه هذا، وصف حسّيٌّ لهذه السّفينة حال اتّجاههـــا للأعداء، أمّا حال التّلاحم أو حال العودة وهي محملـــة بالأســـرى فلـــم يتعرّض له بشيءٍ، ومثل وصفه هذا وصف لسفن الأعـــداء بقولـــه مـــن القصيدة السّابقة:

---

(١) ديوانه (٢/٩٨٣) حاشية (٢٥).

يسوقون أسطولاً كأن سفينَهُ سحائبُ صيفٍ من جهامٍ وممطرِ

وهو وصف موجز لسفنهم قبل التحامها بسفن ممدوحه.

هذا، ونجد له وصفاً حسّيّاً آخر لسفينةٍ غير حربيةٍ، وفائدته لنا هنا في معرفة هيئات السّفن الخارجية؛ لأنّها متقاربة سواء الحربِي منها أو غير الحربِي؛ فقد قال(١):

وَرَمَتْ بنا سمت العراق أيانقٌ سحمُ الخدودِ لغامُهنّ الطّحلُبُ

من كلّ طائرةٍ بخمس خوافقٍ دعجٍ، كما ذعرَ الظّليمُ المُهذِبُ

فقد شبّه هذه السّفن بالنّوق بجامع الحركة والحمل بهنّ جميعاً، وجعل من صفاهّنّ أنّهن سحمُ الخدودِ، أي: الجوانب، وجعلها سحماً لأنّها تطلى بالقار، ولَما جعلها أيانق وكان من لازم النّوق إذا سارت أن يتطاير على أشداقها زبدٌ أبيضُ يعرف باللّغام، جعل لغام هذه النّوق ما علق بها من الطّحلب، وهو الخضرة التي تعلو الماء الآسن، وتكون في السّفن لطول وقوفها في الماء.

ثم جعل لهنّ خوافق تطير بهنّ كالأيدي والأرجل، وهذه الخمس هي: (أربعة مجاديف، وقائم الشّراع)(٢).

وشبّهها بسيرها السّريع بذكر النّعام إذا تفزع وأسرع.

(١) ديوانه (١/٧٣-٧٤).

أيانق، جمع: نوقٍ، لغامهن: زبدهن، دعج: سود من القار، الظّليم: ذكر النّعام، المهذب: المسرع.

(٢) ديوانه (١/٧٤)، حاشية (١٧).

د-السّيوف:

السّيف عدّة الإنسان القديم وملاذه الذي لا يفارقه في حَلّه وترحاله، وبخاصّة الفارس العربِي الذي يعيش حياة قلفة، الأمن فيها مضطرب، و قد ضرب الخوف فيها خيامه، والقى الرّعب عليها جرابه، ولهذه الصّحبة بين العربِي وسيفه رأيناه كثير التّغنِّي فيه بشعره، ومن ذلك ما قالــه بعــض فرسان العرب عن ملازمته سيفه وكثرة احتضانه له وحمله إيّاه[١]:

وطال احتضانِي السّيفَ حتّى كأنّما يلاط بكشحي جفنُه وحمائِلُــهْ

فكأنّه لطول حمله إيّاه قطعةٌ من جنبه وضلعٌ من ضــلوعه، وقــد وصف البُحتُرِيّ أحد القادة بقوله[٢]:

ولقد يبيت اللّيلَ مــا يلقــى لــه إلاّ الحسامَ المشــرفيَّ ضــجيعاً

هذا، ولم أجد للبُحتُرِيّ وصفاً دقيقاً للسّيف، إلاّ في مواضعَ قليلــةٍ أبدع فيها في الوصف وأغرب فيهما بالنّعت، أحدها: في قصــيدته التِــي طلب من محمّد بن عليّ القمِّي إهداءَ سيفٍ نعته له، والآخــر: وصــفه لسيوف ممدوحه التِي شهّرها دون الخلافة مدافعاً عنها، وسأعرض لها بَعْدُ إن شاء الله.

وهذا لا يعنِي أنّه لم يذكر السّيف مطلقاً، إنّما ذكره دون وصــفٍ كأ، يشبّه به الفرسان كقوله[٣]:

---

(١) الأشباه والنّظائر للخالدين (١/١١٩).

(٢) ديوانه (٢/١٢٥٥).

(٣) ديوانه (٣/١٤١٣).

خيلٌ كأمثـال الرّمـاح وفتيـهٍ   مثل السّيوفِ إذا دعينَ لمشـرفِ

وقوله[١]:

فَلفضةِ السّيفِ المحلـى حسـنُهُ   متقلّـداً ومضـاؤه لحديـدهِ

وقوله[٢]:

ناهضـتهم والبارقـاتُ كأنّهـا   شُعَلٌ علـى أيـديهِمُ تتلـهبُ

وقوله[٣]:

حمرُ السّيوفِ كأنّما ضربت لهم   أيدي القيونِ صفائحاً من عسجدِ

أمّا الموضوع الذي وصف فيه السّيف الذي رجا من ممدوحـه أن يهديه إليه فقوله[٤]:

قد جدت بالطرّفِ الجوادِ فثنِّـه   لأخيك مـن أُدَدٍ أبيـك بمُنْصُـلِ

يتناول الـرّوحَ البعيـدَ منالُـهُ   عفواً ويفتحُ في القضـاءِ المقفـلِ

بإنارةٍ في كـلِّ حتـفٍ مظلـمٍ   وهدايةٍ في كلّ نفـسٍ مَجْهَـلِ

ماضٍ وإن لم تضمه يدُ فـارسٍ   بطلٍ، ومصـقولٍ وإن لم يصـقَلِ

يغشى الوغى فالتّرسُ ليس بِجُنَّةٍ   من حدِّه، والدّرعُ لـيس بمعقِـلِ

مصغٍ إلى حكم الرّدى فإذا مضى   لم يلتفتْ، وإذا قضـى لم يعـدلِ

(١) ديوانه (٢/٦٩٤).

(٢) ديوانه (١/٧٥).

(٣) ديوانه (١/٥٤٧).

(٤) ديوانه (٣/١٧٤٦-١٧٤٨).

أُدَد: هو يشجب جدّ يجتمع به الشّاعر وممدوحه.

متوقـدٍ يـبرى بـأوّل ضـربة ... ما أدركتْ ولـو انها في يـذبلِ
وإذا أصابَ فكلّ شـيءٍ مقتـلٌ ... وإذا أُصَيبَ فماله مـن مقتَـلِ
وكأنّما سودُ النِّمـالِ وحمرِهـا ... دبـتْ بأيـدٍ في قـراه وأرجُـلِ
وكأنّ شاهرَهُ إذا استعصى بـه ... في الرّوع يعصِي في السّماكِ الأعزلِ
حملت حمائلُـهُ القديمـةُ بقلّـةٌ ... من عهدِ عـادٍ غضـةً لم تـذبلِ

فبعد أن ذكر أنّ ممدوحه أهدى إليه جواداً طلب منه أ، يثنيه بسيفٍ أبدع في صفته وتحديد مميّزاته، فذكر منها:

١- أنّه يرهب الفرسان بريقه، فتخرج أرواحهم عند رؤية لمعانه أو لحدته يقضى على الفارس بسرعة؛ فيستل روحه دون عناء وتعزير.

٢- ثم ذكر أنّه سيف شديد المضاء يكاد يقطع ضريبته إذا لامسها، ولم يحتج إلى يد فارس تعينه، مع أنّ يد الفارس وقلبه من أهـمّ مضـاء السّيف، كما قال هو[1]:

وما السّيف إلاّ برُ غادٍ لزينـة ... إذا لم يكن أمضى من السّيف حاملِهْ

وقوله[2]:

فلا تُغْلِيَنْ بالسّيفِ كلَّ غَلائِـهِ ... ليمضِي فإنّ القلبَ لا السّيفَ يقطعُ

(١) ديوانه (١٦٠٨/٢).

(٢) ديوانه (١٢٧١٠/٢).

وهو سيفٌ مصقولٌ باترٌ وإن لم يصقل لجودة حديده، وصفاء معدنه، كما أنّه سيفٌ إذا استخدمه الفارسُ في المعركة وغشي به الوغى لم يقف أمامه ما يمنعه عن القطع، فالترس بصلابته إذا وقع عليه غدا غير واق حامله لاختراقه إيّاه، وكذا الدّرع لا يمنع لابسه إذا أصابه هذا السّيف.

٣- وهو سيفٌ منفِّذٌ لأحكام الرّدى والهلاك؛ فإذا وجّهه حامله إلى خصمه أصابه حتفه؛ لأنّه بتوجّهه إلى الخصم تحقّق هلاكه، وإذا التقى الخصمان وحكماه بينهما لم ينصف في حكومته فمال وعدل بالحق عن خصم حامله، فظلمه لقضائه عليه بالهلاك، وقد يراد بقوله: (لم يعدل) لم يمل لحدّته وكونه يخترق الضّريبة فينفذ منها وهو على استقامته.

قال الباقلانِي: «وقوله: "مصغٍ إلى حكم الرّدى" إن تأملته مقلوبٌ، كان ينبغي أن يقول يصغى الرّدى إلى حكمه، كما قال الآخر: "فالسّيفُ يأمرُ والأقدارُ تنتظرُ"»[1].

٤- وهو سيفٌ شديد اللّمعان كالشّعلة في تلهبه، قاطعُ الشّفرة لأوّل ضربةٍ، ويقطع ما يقع عليه ولو كان صخراً من خصر يذبل.

٥- كما أنّه لا يستدعِي أن يقع على أماكنَ معيّنة، فهو سيفٌ قاتلٌ ولو وقع على غير مقتلٍ، وحديده ذَكَر قوِّي لا تؤثّر فيه سيف آخر ولا جُنةٌ.

---

(١) إعجاز القرآن، للباقلانِي، ط الأولى ١٤٠٦هـ، تحقيق: عماد الدِّين أحمد حيدر مؤسّسة الكتب الثّقافية، بيروت.

٦- ثم وصف نقاء حديدِه وصفاء إفرندِه، بأنْ لو نظرت إليه وإلى ما فيه من خطوط لظننتها آثار نملٍ جرى فوقه.

٧- ثم شبّهه بالسِّمَاك -وهو نجم لامع- شبّهه فيه لشدّة لمعانه حين حَمْلِ الفارسِ له وشهرِه في وجوه أعدائه.

٨- كما أنّه سيفٌ قديمٌ جدّاً من حديدٍ قديم الاستخراج مِمّا يدلّ على أصالته، حديدُهُ أخضرٌ كالبَقْلَة، وهذا يدلّ على عدم استخدام أحدٍ قبله له.

وهناك موضعٌ وصف فيه سيوفَ ممدوحِهِ التي شهرها دون الخلافة، وهو قوله(١):

شاهرٌ دون حقّها عزمات ... تتحامى مكروهَهَا الأبطالُ

وسيوفاً إيماضها أوجالٌ ... للأعادي ووقعها آجالُ

موهفاتٌ لها إذا أظلم النّقـ ... ـعُ عليها تَوَقُّدٌ واشتعَالُ

أبداً يستجدّ منها حديثا ... ن: دمٌ من عدوِّه، وصقالُ

فهو يصف هذه السّيوف بأنّها لحدّتها إذا برقت في أيدي الفرسان وَجَلَ منها فرسانَ الأعداءِ، وإذا وقعت كانت نتيجة وقعِها تسابق الحتوفُ على الأعداءِ وكثرةُ الموت فيهم.

وهي سيوفٌ حادّةٌ إذا غشيها الغبار في المعرك وتلاقى الأبطالُ رُئِيَ لتقارعها نور ونار تنقدحُ فتنيرُ جو المعركة، وتزيل عنها الظّلمة، وفي كلّ وقتٍ لها حالان:

---

(١) ديوانه (١٨٠٩/٣).

إمّا أن ترعف دماً من دماء الأعداء لكثرة من قتل.

وإمّا أن يسمع صوهّا عند إعمال القيون معاولهم فيها لصقالها كي يعيدوا لها رونقها وبهاءها ومضاءها.

هذا، وكثيراً ما يشير البُحْتُرِيّ إلى كثرة سيوف ممدوحه وكونها من عتاد الحربِ التِي تمنعُ جانب صاحبِها[1]:

وإذا عِزَّ معشرٌ زال يوماً منعَ السّيفُ عزَّهم أن يزولا

وهي من الأسباب التِي تحثّ الفرسان على القتال والاستبسال، ومن ذلك قوله[2]:

تحثُّهُم البيضُ الرّقاقُ وضمرٌ عتاقٌ وأحسابٌ بها يدركُ التَّبْلُ

وقوله[3]:

أطلَّ على الأعداءِ من كلّ وجهةٍ وشارفَهم من كلّ غربٍ ومشرقِ
ببيضٍ متَى تشهر على القوم يُغْلَبُوا وخيلٍ متَى تُرْكَنْ إلى النّصر تسبقِ

هـ - الرّماح:

الرّمح سلاحٌ خفيف الحمل سهلُ الصّنعة، عودٌ لدنٌ وحديدةٌ توضع في أعلاه تدعى النّصلَ أو السّنانَ، يستخدم عند تقارب الزّحفين، وقبل التحامهما، ولتناول الفارس عن بعد أو الطّعن في أكفالِ خيلِ الأعداءِ

---

(١) ديوانه (٣/١٧٦٥).

(٢) ديوانه (٣/١٦١٤).

(٣) ديوانه (٣/١٥٠٨).

ونحورِهَا، يحمله الفارسُ والرّاجلُ، ولخفّته لا يمنع عن حملِ غيره، ولـبعض الأعراب معبِّراً عن طول حمله الرّمح[(١)]:

وطال احتضانِي الرّمحَ حتّى كأنّما على منكِبي غصنٌ من الأثلِ نابتُ

وقد يشبه القائد لاتّباع الجنود له بالرّمح كما قال البُحْتُرِيّ[(٢)]:

كالرّمحِ فيه بِضْعُ عشـرةَ فِقْـرَةً منقادةٌ خلف السّـنانِ الأصـيدِ

ومهمّة الرّمح في الحرب لا تُنْكَرُ ومَنْزِلَتُهُ لا تُحْقـرُ، وقـد أثنَـى البُحْتُرِيّ على شجاعة قوم ممدوحه، ووصفهم بأنّهم يتّخـذون الرّمـاح، ويتناولون أعداءهم من فوق صهواتِ جيادِهِم فيوقعوهُم أرضاً فقال[(٣)]:

يُكِبُون مَنْ فوق القرابيسِ بالقنا وبالبيض تلقاهم قياماً على الرُّكْبِ

على رواية فتح الياء.

ولكثرة الرّماح شبّهت مرّةً بالأجمِ، وهي الهضاب، وأخرى بالغابِ فمن الأوّل والثّاني قوله[(٤)]:

قائدُ الخيـلِ مسـتقلٌّ عليهـا أَجَمُّ الخَـطِّ في الحديـدِ وفابُـهْ

ومن الثّاني قوله متحدِّثاً عن شجاعة الفرسان[(٥)]:

إذا بـدا في حرجـاتِ القنـا حَسِبْتَ أسدَ الغـابِ في غليِهَـا

---

(١) الأشباه والنّظائر للخالدين (١٢٠/١).

(٢) ديوانه (٥٤٨/١).

(٣) ديوانه (١٠٧/١).

(٤) ديوانه (١١٦/١).

(٥) ديوانه (١٧٨٢/٣).

ومنه قوله[1]:

حشدتْ حولها سباغُ المــوالِي والعوالي غابٌ لتلــك السّــباعِ

وقوله يصف هتك نحور الفرسان[2]:

ترى واشجَ الخِرْصَانِ يَهْتِــكُ نحورَ الأسودِ أو تُــرَوَّى ثعالبُــهْ

و قوله[3]:

أجلبوا تحت غابة من قنا الخطّ وزغف مــن الحديــد مفــاضِ

إذ جعل كثرة الرماح كالوشيج، وهو ما التف من القنا والقصب.

هذا ورأس الرمح يسمى السنانَ، و يوصــف بــالقوة، ويصــوب الفرسان أسنة رماحهم إلى الرؤوس و الوجوه والصدور والكواهــل، وإن كان حامله قوياً لم يمنع خصمه منه بيضة ولا درع[4]:

أمطرت أرؤسهم ضرباًتركت به مأثورة السمر منآداً و منقصــفا

يستترل القونس المحبوك منبتــراً من وقعه و يخوض النثرة الزغفــا

ومما يدل على شجاعة الفرسان اختيارهم النحور والأوجه والصدور مواقع تستكن بها رماحهم، ومن ذلك قوله[5]:

بــاتوا و بــات الخطــي أونــة منشبةً في صــدرورهم قِصــدهْ

(١) ديوانه (٢/١٢٤٤).

(٢) ديوانه (١/٢٢٢).

(٣) ديوانه (٢/١٢١٠).

(٤) ديوانه (٣/١٤٣٥).

(٥) ديوانه (٢/٧٣٨).

وقوله(١):

تغدوا أســـنته زرقـــاً فيكحلـــها يوم الكريهة في الأحداق و الكحلِ

ومما يدل على قوة المعركة تقصدُ الرماحِ وتثنيها، وقد شبه البحتري تثني الرماح بالضلوع فقال(٢):

في معرك ضَنكٍ تخال بـــه القنـــا بين الضلوع إذا انحنين ضـــلوعا

ومن تعليله التخييلي أن جعل تثني الرماح لما خالطها من سكرٍ جراء شربها من الدماء(٣):

يتعثـــرن في النحـــور و في الأو جه سكراً لمـــا شـــربن الـــدماءَ

كما يرون أن هذه الدماء تروي الأسنة، فيمدحون بذلك، ومنـــه قوله(٤):

حيث لم تورد السيوف على خمـــ ـــسٍ و لم تصدر الدماء ظماءَ

وقوله(٥):

ترى واشجَ الخِرْصَانِ يَهْتِـــكُ نحورَ الأسودِ أو تُـــرَوَّى ثعالبُـــهْ

كما يمدحون الفارسَ الذي يقوِّم ما انثنَى من رماحه بظهور أعدائه ومنه، قوله(٦):

فإن تأوّلتِ الأرمـــاحُ ثَقَّفَهَـــا بكاهلٍ بطلٍ من فـــارسٍ بطـــلِ

(١) ديوانه (١٩٠٣/٣).
(٢) ديوانه (١٢٥٦/٢).
(٣) ديوانه (١٨/١).
(٤) السابق و نفس الصحفة.
(٥) البيت تقدم : (٢٣٨).
(٦) ديوانه (١٩٠٣/٣).

أمّا حال الأعداء إذا استخدمت الرّماحَ في حربِهِم، فقد ذكر لهم عدَّةَ صفات منها، وصف كونِهِم صرعَى بين ساجد قد سقط على وجهه، أو راكعٍ قد اندق الرّمح في صدره، ويبقى منه قَصْدَةٌ ارتكزت في الأرض، فبقيت حاملةٌ له كهيئة الرّاكع[١]:

غادرتْهُمْ يدُ المنيةِ صُبْحاً بالقنا بين رُكَّعٍ وسجودِ

ومنه مَن بقوا صرعى مُلْقَيْنَ على ظهورهم، وفي صدورهم بعض كِسَر الرّماح[٢]:

باتوا وبات الخطيُّ آونةً مَنْشَبَةً في صدورهم قِصْدُهْ

هذا، وممّا يحمد في الرّمح صلابَتُهُ مع لين يعين على تثنيه وطوله، قال أوس بن حجر[٣]:

أصمّ ردينياً كان كعوبَهُ نوى القَسْبِ عرَّاصاً مُزَجّا مُنَصّلا

«وقد أخذت الشّعراء من أوس معنًى بيته هذا؛ فقال بضعهم[٤]:

ومطَّرِد لدن الكعوب تخاله نوى القَسْبِ قد أربَى ذراعاً على العَشْرِ

وهذا الذي ذكره الشّاعر من طول الرّمح هو الذي يحمد ومنه أخذ البُحْتُرِيّ[٥]:

كالرّمح أذرعه عشرٌ وواحدةٌ فليس يرزي به طولُ ولا قصر

وقوله[٦]:

---

(١) ديوانه (٢/٨٠٨).
(٢) ديوانه (٢/٧٣٨).
(٣) الأشباه والنّظائر للخالدين (٢/٤٨).
(٤) المرجع نفسه (٢/٤٩).
(٥) الأشباه والنّظائر للخالدين (٢/٤٩)، والبيت في ديوانه (٢/٩٥٧).
(٦) ديوانه (٢/٨٠٩).

وكذا الكُرْدُ سنَّ للموتِ فيهم بطوالِ الرّماحِ طــولَ الخلــودِ

ز-النّبالُ والقسِيّ:

القَسِيّ من أدوات الحرب التي تستخدم لنيل الأعداء عن بعد، وقد عنِي العرب بالقسي، وأوتارها، فاختاروها من أصلبِ عيــدانِ الشّــجرِ وألينها، كي تتفاعل مع الرّامِي حينما يشدُّ وترُهَا فلا تنكسر، ولأوس بن حجر وغيره من شعراء الجاهلية أوصافٌ بديعةٌ، ولم أجد للبُحْتُرِيّ وصفاً للقسِيّ لا للسّهام إلاّ قليلاً من الأبيات لا تعدّ وصفاً جاء بعضها لمضرب المثل، مثل قوله(١):

يَقِلُّ غَنَاءُ القوسِ نبعٌ نجارُهَــا وساعِدُ من يرمِي عن القوسِ خِرْوَعُ

فقد جاء مبيناً أنّ جودة القوس في كونها مصنوعةً من أجود أنواع الشّجر وأصلبه -وهو شجر النّبع-، لا تكفي لإجادة الرّمية وإصابة المقتل إن كان الرّامِي ضعيفاً هزيل الذّراع، وشبّه ذراعه بعيدان شجر الخِــرْوع لضعفها وعدم تحمّلها.

ومن قبيلِ هذا قوله(٢):

كالسّهمِ لا يكتفــي بوحدتِــهِ القانصُ حتّــى يعينَــهُ وتــرُهْ

فقد جاء به مدلّلاً على أنّ السّهم وإن كان قويّاً صلباً،إلاّ أنّه لا يؤثّر إن لم يكن الوتر من جلد مرنٍ، يعينه على الانفلات بسرعةٍ تجاه غرضه.

ح-الدّروع:

الدّروع حَلَقٌ صغيرٌ مدارٌ، يعمل كالنّسيجِ علــى بعضــه يلبســه الفارس، منها الطّويل، والقصير منها ما تغطّي كلّ موضع مــن الفــارس

(١) ديوانه (١٢٦٩/٢).

(٢) ديوانه (١٠٣٦/٢)، من قصيدةٍ يمدح خمارويه بن أحمد بن طولون.

فيحتمي بها من السّيوف المصلّتة والنّبال المرسلةِ والرّماح المشرعةِ كما قال البُحتُرِيّ(١):

وعلى خيله أُسُودٌ عليها حَلَقٌ يدرأ السّلاحَ مُدَارُهْ

وقد وصف البُحتُرِيّ الفرسان وقد لبسوا دروعاً لينةً، كأنّ أطراف حَلَقها المتراصّ حافّاتُ ماءٍ طرقته الرّياح، فبدا متدرّجاً، وهذه الدّروع واسعةٌ فضفاضةٌ تتحرّك فتلمع على لابسها عن بعده، كتلألؤ السّراب في بيداء من الأرض، ولقوّتها وحصانتها إذا صوبت إليها الأسنة لم تؤثّر فيها وانعكست عليها منها صورةٌ جميلةٌ؛ لأنّ بريق حَلَقها الذي بدا كالسّرابِ قد انعكس عليه الرّمح فبدت الصّورة كالشّهاب مَرَّ على ماء(٢):

يشمون في زَغْفٍ كأن متونَهَا في كلّ معركةٍ متون نَهَاءِ
بيضٍ تسيلُ على الكماةِ فضولُها سيلَ السّرابِ بقفرةٍ بيداءِ
فإذا الأسنةُ خالطتها خلتَهَا فيها خيالَ كواكبٍ في ماء

وكون حلق الدّرع يتلألأ صفةٌ محمودةٌ، ومنها تشبيه البُحتُرِيّ لون فرسٍ وصفَهُ بحسنِ الصّورة ووضاءتها ونقائها، بدرٍ على فارسٍ شجاعٍ، قد أضاء قتيرُها كالموج(٣):

يختال في شية يموجُ ضياؤها موجَ القتيرِ على الكمِيّ الرّامحِ

هذا، وكثرة الدّارعينَ عنوانُ قوّةٍ، ودليلُ منعةٍ يمدح بها، ومن ذلك

---

(١) ديوانه (٩٠٨/٢).

(٢) ديوانه (١١/١).

الزّغف، جمع: زغفة، وهي الدّرع اللّينة الواسعة المحكمة، والنّهاء. الشية: كل لونٍ يخالف لون الفس.

(٣) ديوانه (٤٦٩/١).

عرض البُحْتُرِيّ لقوّة جيش أحد الخارجين على الخليفة؛ إذ وصفهم بقوله(١):

أجلبوا تحت غابةٍ من قنا الخَطّ وَزَغْفٍ من الحديدِ مفاضِ

ومثله وصفه لجند موسى بن بغا الكبير مولى الخليفة المعتزّ بقوله مُتَحدِّثاً عن هرب أحد النّاكثين، مع أنّه لم يلاقه من جند الخلافة إلاّ بعضهم فكيف لو انتظر حتّى مجيء جند موسى(٢):

ولم يأت موسى في الموالي عليهمُ سرابيلُ من نسجِ الحديدِ الموشحِ

بينا نجد في موطنَ أخرى يثني على مَن يخوض غمرات القتال وهم حسّرٌ يرون المتعةَ في أسلحتهم لا في الدّروع وغيرها، ومن ذلك وصفه لقوم الحسن بن وهب من قصيدة مدحه بها(٣):

صناديدُ يلقونَ الأسنة حسَّراً رجالاً ويخشون المذلّة دُرَّعاَ

ومثله وصفه قوم أبي سعيد بأنّهم لا يرون الرّماح إلاّ كالعصيِّ ولا الدّروعَ إلاّ كالغلائلِ استهانةً بهما لشجاعتهم(٤):

ملوكٌ يعدونَ الرّماحَ محاضِراً إذا زعزعوها والدّروعَ غلائلا

ط-التّروس:

التّرس صفحةٌ من الفولاذ مستديرةٌ تحمل للوقاية ممّا وجه إلى المحارب من سيف ونحوه، ويسمّى التّرس لهذه الحماية مجناً؛ لأنّه يَجُنُّ صاحبه ويقيه ممّاً يصوب نحوه.

---

(١) ديوانه (١٢١٠/٢).
(٢) ديوانه (٤٥٢/١).
(٣) ديوانه (١٢٦٥/٢).
(٤) ديوانه (١٦٠٢/٣).

وليس في التّروس ما يدعو إلى وصفها، ولذا لم أجد لها في شعر البُحْتُرِيّ وصفاً، إنّما ذكرها في مواضعَ منها موضعٌ وصفه للصّورةِ التي رآها في ديونِ كسرى من قصيدته التِي مطلَعُها[1]:

صنت نفسِي عمّا يدنس نفسِي وترفعت عن جدا كلّ جِبْسِ

قال فيها[2]:

وعِراكُ الرّجالِ بين يديه في خُفُوتٍ منهم وإغماضِ جَرْسِ

من مُشِيحٍ يهوي بعاملِ رمحٍ ومُلِيحٍ من السّنانِ بِتُرْسِ

فبيّن مهمّة التّرس وأنّه الدّفعُ لكلّ عادية من الأسنة.

ومنها بيانه أنّ الجُنَنَ تقي من السّهام في معرض الحديث عن الدّهر ومصائبه،واستفهامه استفهاماًإنكاريّاً عَمَن لم تصبه هذه المصائب فقال[3]:

مَن ذا مِن الدّهر بات مسْتَتِراً أم مَنْ وَقَتْهُ سهامَهُ جُنَنُهْ

وله بيتٌ آخر شبّه فيه السّيف وهو يلمع وسط غبار المعركة ببرق لاح على صفحة فولاذ التّرس، وهو قوله[4]:

والموتُ يأشرُ في السّيوفِ كأنّها برقٌ يلوحُ على ظهورِ تِرَاسِ

ي-البَيْضُ:

البَيْضُ جمعُ: بَيْضَة، وهي حديدةٌ من الفولاذ توضع غطاء على الرّأس، وتُسَمَّى (التُّرِيْكَةَ) وجمعها: تَرَائِكُ، ومن دلائل الفروسية وملازمة الحروب تساقط شعر فروةِ الرّأس من طولِ لبسِ التّريكة، وهذا ما وصف به البُحْتُرِيّ فرسانَ بنِي تغلب من قصيدةٍ مدح بها مالك بن طوق

(١) ديوانه (٢/١١٥٢).
(٢) ديوانه (٢/١١٥٧).
(٣) ديوانه (٤/٢٣٨٧).
(٤) ديوانه (٢/١١٧٢).

ومطلَعُهَا[١]:

رحلوا فأيَّةُ عــبرةٍ لم تكســبِ أســفاً وأيِّ عزيمــةٍ لم تغلــبِ

وقال فيها[٢]:

حصَّ التّريكُ رؤوسَهُم فرؤوسُهُم في مثلِ لألاءِ التّريكِ المُـذْهَبِ

فقد غدت رؤوسهم صلعاً تتلألأ، وجاء بوصف للتّريك، وهي أنّها تكون مذهبةً، وكرّر معنَى صلع الرّأسِ بفعل التّرائك لِمَا يدلّ على شجاعة الفارس وحبّه للغزو —من قصيدته التِي مدح فيها أبا سعيد، فقد وصــفه بقوله[٣]:

حَلّيَتُــهُ بشــعاعِ رأسٍ ردَّه لُبْسُ التّرائِــكِ للــهياجِ صــليعا

والضّمير في (حليته) يعود إلى (معرك) من قوله قبله[٤]:

في مَعْرِكٍ ضَنْكٍ تخالُ به القنــا بين الضّلوعِ إذا انحنينَ ضــلوعا

هذا، ومع صلابة حديد البَيْضِ إلاّ أنّ شدّة الضّرب في الحراب قــد تؤثّر فيه، وقد ذكر البُحْتِريّ لهذا التّأثير صورتين:

إحداهما: قوله في وصف إحدى المعارك[٥]:

ما إن ترى إلاّ توقدَ كوكــبٍ في قونسٍ قد غارَ فيــه كوكــبُ

والقونُسُ أعلى البيضة، وفي هذه الحــرب لا تشــاهد إلاّ لمعــان السّيوف وانقضاضها كالشّهب، وقدحها للنّار حين إصابتها القــوانسَ، وأحياناً تجد السّيوفَ لقوّة الضّــرب بهــا قــد غــارت كالكواكــب

---

(١) ديوانه (١/٧٨).

(٢) ديوانه (١/٨٢).

(٣) ديوانه (٢/١٢٥٦).

(٤) المرجع نفسه.

(٥) ديوانه (١/٧٥).

في هذه القوانس.

والصّورة الثّانية: لرمحٍ صلبِ السّنانِ، يقطع لقوّة ضربتِهِ القونسَ جزلتين فيوقعه أرضاً، وهي قوله(١):

يستَنْزِلُ القونسَ المحبوكَ منبتراً من وقعهِ ويخوضُ النّثرةَ الزّغَفَا

ك-الرّيات:

الرّايات هي الأعلام التي تحملها الكتائب، وكثيراً ما تشبه الرّاية بجناحِ العقابِ المنقض من علوّ، ومن ذلك قول البُحْتُريّ(٢):

وعلى (قُذَاذِيَة) انحطَطْنَ برايةٍ أوفتْ بقادمَتِي عُقَابٍ مُنْكِفِ

وتعدّ الرّاية كالدّليل الهادي للجيش تنتظم خلفها صفوفه، ويقوم القائد بالإشراف عليهم وصفهم، ولقد رسم البُحْتُريّ لنا هذه الصّورة حين رؤيته للصّورة المعلّقة في مجلس إيوان كسرى؛ فقال(٣):

والمنايا مواثل وأنوشروانَ يُزْجِي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفْسِ

أمّا ألوانُ راياتِ ممدوحي البُحْتُرِيّ فإنّي لم أره يشير إلاّ إلى لونٍ واحدٍ، وهي الرّايات الصّفر، وهذا يخالف ما هو معروفٌ من لون رايات العبّاسيّين السّود، فلعلّ الخلفاء غيّروها في المدّة التي عاشها البُحْتُرِيّ، أو لعلّ هذا من قول العرب للأسودِ: أصفر، وهذا أرجح، فمن إشارات البُحْتُرِيّ هذه قوله(٤):

---

(١) ديوانه (٣/١٤٣٥).

(٢) ديوانه (٣/١٤١٦).

(٣) ديوانه (٢/١١٥٦).

(٤) ديوانه (٣/١٧٥٨).

تهفو به راية صفراء تَحسَبُها أزديةً صبغتها الهُون والشّللُ

فهي رايةٌ صفراء إذا رأيتها ظننتها ثياباً أزديةً صفراء، والهُون والشّللُ قبيلتان من الأزد أهل البحرين.

وهذه الرّايات الصّفر راياتٌ للموت منصورة(١):

وأبطالِ هَيْجٍ في اصفرارِ بنودِها ضروبُ المنايا وابيضاضِ حرابِهَا

ومنه قوله(٢):

لقد نُصِرَتْ راياتك الصّفرُ إذ قنا بما احمرَّ من لون الدِّماءِ جَسِيدُها

وهي رايات مشبّهة لراية الإسلام في يومَي بدرٍ وأحد(٣):

نُصِرَتْ راياتُهُ أو ناسبتْ رايةَ الدِّينِ ببدرٍ وأُحُدْ

ومبالغة منه في كونها منصورةً أن جعل رؤس الأعداء تتساقط لرؤيتها، فكأنّها لم تُرَكَّبْ، وجعلها رايات مغموسةً بالنّصر(٤):

عقادُ ألويةٍ تظلّ لها طلَى أعدائه وكأنّها لم تعقدِ

مغموسةٍ في النّصر تشدو عن يدِ مملوةٍ ظفراً تروح وتغتدى

هذا، وقد تعقد على الرّماح خِرق كالأعلام تسمَّى ألوية، وقد أشار البُحتْريّ إلى ذلك بقوله(٥):

يعملُ الهندِي محمرَ الظّبا فيه والخَطِيّ مصفرَ الخِرَقْ

(١) ديوانه (٢٣٤/١).

(٢) ديوانه (٥٣٣/١).

(٣) ديوانه (٦٦٨/٢).

(٤) ديوانه (٥٤٥/١).

(٥) ديوانه (١٤٧٤/٣).

ل-المنجنيق:

المنجنيق آلةٌ حربيةٌ تُرْمَى بها القذائف فتهدم القلاع وتدك الحصون ولم أجد في شعر البُحْتُرِيّ وصفاً لهذه الآلة، إنّما ذكرها في معرض التّشبيه مرّة، والتّحذير أخرى، والمداعبة ثالثةً.

ففي مجال التّشبيه شبّه صوت الفارِّ من شدّة الفزع مع سرعته وجَدّه في الهرب بانطلاقة حجرِ المنجنيق الصّلدِ؛ إذ لقوّة انطلاقه وسرعته يسمع له صوت مخيف[١]:

خاضَ الحتوفَ من الحتوفِ معانقاً زَجِلاً كفهرِ المنجنيـق عتيقـاً

وفي معرض التّحذير حذر الظّالم له من دعوته عليه، ولعلّه يقصد هجاءَه له فكيف لا يخافه ويتّقيه اتّقاؤه لِحجر المنجنيق إذا أقبل عليه[٢]:

هلا اتّقى الظّالمُ مِـن دعـوتِي تقـاه مـن أُثْفِيَـةُ المنجنيـقْ

وفي معرض الهجاء ذمّ رجلاً على كثرة أكله وكبر لقمه التِي تعجز المنجنيق، وفيها إشارة إلى أنّ المنجنيق يرمى بالأحجار الثّقال، وإن كان الثّقل له حجم مقدور[٣]:

ويدٌ لا تزال ترمِـي بأحجـار من اللّقْمِ تعجـزُ المنجنيقـا

وبهذا يقف بنا الحديث عمّا في شعر البُحْتُرِيّ من حديث عن العدّة والعتاد في الحرب.

(١) ديوانه (١٤٥١/٣).

(٢) ديوانه (١٤٦١/٣).

(٣) ديوانه (١٥٣٧/٣).

ثالثاً: التّحرّك إلى ميدان القتال

بعد إعداد العدّة من خيلٍ ورجلٍ وذخيرةٍ وزادٍ يتوجّه هذا الجيش العرمرم بقيادة بطلٍ مغوارٍ، معروفٍ بالبأس والنّجدة والحزم والشّدّة، يكون في مقدمة الجيش، يدبر أمورهم، ويخطّط لهم، لا يتخلّف عنهم طرفة عينٍ(١):

يدبّرهُم مسترعِفُ السّيفِ فارساً بحيث الوغى مستحصِدُ الرّأيِ راجلا
طليعَتُهُمْ إن وجهَ الجيشَ غازياً وساقُتُهُمْ إن وجهَ الجيشَ قافلا

أمّا وقت التّحرّك الفعلي فأكثر منا يكون في اللّيل، وفي ذلك فوائدُ عدّة، منها:

الرّأفة بالجيش وتعمية خبر قدومه على الأعداء، ودليله في السّري النّجومُ اللّوامعُ.

سار يسترشدُ النّجوم إليهمْ في سواد الظّلماء حتّى طفينا
مارقاً من جوانحِ اللّيل يبغي عُصْبَةً من حُمَاتِهِمْ مارقينا(٢)

ولحرصهم على السّرى ليلاً؛ فإنّ القائد لا يرى اللّيل وإن طال

---

(١) ديوانه(٣/١٦٠٣)،من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد محمّد بن يوسف الثّغري.

(٢) ديوانه (٤/٢١٦٤)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد محمّد بن يوسف.

طويلاً[١]:

يستقصرُ اللّيلَ التّمامَ إذا انتحى   بالخيلِ ناحيةُ العدوِّ الأبعدِ
لا ناهلُ الأجفانِ إن كان الكرى   خِمْساً لصاديةِ العيونِ الورَّدِ

يفعل ذلك كي يباغت الأعداءَ فيحيط بهم، وهم في نومهم يغطون وفي سكرهم يعمهون[٢]:

لما استرابَ بِما استرابَ به انبرى   بمهندِ الحدَّينِ غيرِ كَهَامِ
فسرى بعينٍ ما تنامُ على القذى   لهلاكِ صرعى بالحجولِ نيامِ

وقد يغدو إلى الأعداء فيبادرهم قبل شروق الشّمس كما قال[٣]:

نلناهُمُ قبلَ الشّروقِ بأذرعٍ   يَهْزُزْنَ في كبدِ الظّلامِ شُروقاً

أو قوله[٤]:

فله كلُّ صباحٍ في العدى   وقعةٌ تثلمُ فيهم وتَهُدُّ

هذا، وإن سار في أي وقتٍ؛ فإنّه يسير إليهم بفرسان أشداء يحملون من السّلاح-بَيضه وبِيضه ورماحه ودروعه ونباله وقسيه -ما يغطّي رؤوسهم حتّى بدو كماشٍ تحت سقفٍ من زجاجٍ للمعان كلّ ذلك[٥]:

حمرَ السّيوفِ كأنّما ضَرَبَتْ لهم   أيدي القيونِ صحائفاً من عسجدِ

(١) ديوانه (٤٥٦/١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد محمّد بن يوسف.
(٢) ديوانه (٢٠١٦/٣-٢٠١٧)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا المعتزّ.
(٣) ديوانه (١٤٥٤/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.
(٤) ديوانه (٦٩٩/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ.
(٥) ديوانه (٥٤٧/١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد يوسف بن محمّد الثّغري.

وكأنّ مَشيَهُم وقد حملوا الظُّبا   من تحتِ سقفٍ بالزّجاج مُمَـرَّدِ

وشبّه مشيَهُم إلى المعركة، وقد حملوا السّيوف وأصلتوها مع السّرعة في المشي يتسابق عِطَاشٍ إلى عين ثرّةٍ باردةٍ، ليرتووا منها فتشفي غلّتهم، فقال(١):

يمشون تحت ظبا السّيوف إلى الوغى   مشى العطاش إلى برودِ المشربِ

كما شبّههم في ذلك -من قصيدةٍ أخرى- باليراعِ -وهو حشرات صغيرة تضيء كأنّها شعلة من نارٍ، إذا رأت الضّوء ارتمت عليه-؛ فقال(٢):

وعصائبٌ يتهافتونَ إذا ارتَمى   بهمُ الوغَى في غمرةٍ هيجاءِ
مثل اليراع بدتْ له نارٌ وقد   لفتهُ ظلمةُ ليلةٍ ليلاءِ

وللجيش -إذا سار- صوت وجلبة يتردّدُ بين شوامخِ الجبال، أشبه زئير الأسود كما قال(٣):

إذْ مضى مَجْلباً يقعقعُ في الدّربِ   زئيراً أنسى الكلابَ العواءَ

وإذا تحرّك القائد بجيشه صوب الأعداءِ كانت المنايا عوناً له، تسابقه إلى الأعداء فتسبقه وتزرعُ في قلوبهمُ الخوفَ والهلعَ، كما قال(٤):

---

(١) ديوانه (١/٨٢)، من قصيدةٍ يمدح بها مالك بن طوق.
(٢) ديوانه (١/١١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.
(٣) ديوانه (١/١٦)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.
(٤) ديوانه (٣/١٩٠٣)، من قصيدةٍ يمدح بها خالد بن يزيد الشّيباني.

إذا اغتدى اغتدت الآمالُ تقدُمُهُ إلى نفوسِ العدى بالخَيْلِ والوَجَلِ

ومثله قوله(١):

يَغْتَدِي جَيْشُهُ فتغــدو المنايــا بــين راياتــهِ وبــين البنــودِ

وذكر من صفات الخيل وهيئاتِها حين الاتّجاه للأعداءِ أنّها تســير مسرعةً تسابق الأسنةَ المسندةَ على رقابها، وقد جــاوزت هــذه الأســنةُ رؤوسَها؛ فقال(٢):

بطلٌ يخوضُ الخيلَ وهي شوائلٌ خلفَ الأسنَّةِ وهو غيرُ مــدجَّجِ

---

(١) ديوانه (٢/٨١٠)، من قصيدة يمدح بها أحمد الشّلمغان.

(٢) ديوانه (١/٤٠٢)، من قصيدة يمدح بها أبا نهشل.

رابعاً: في ميدان القتال

١- كثرة الغبار:

فإذا أقبل الجيشان وزحف كلّ منهما نحو الآخر ارتفع غبار كلّ جيشٍ فوقه فظلّله كالسّحاب، فإن كان الجيش من كتائبَ تباعدت عن بعضها في سيرها فإنّ الغبار سيكون كتلاً مثلها، فشبه البُحتُرِيّ هذه الصّورة بالقبائل أغنِي صورة انتشار الظّلام النّاجم عن الغبار فجعل الظّلام قبائل متعدّدة والنّور قبيلةٌ واحدةٌ، فقال(١):

بجمع ترى فيه النّهارَ قبيلةً إذا سار فيه والظّلامَ قبائلا

هذا، وكثرة الغبار دليلٌ على كثرة الجيشِ وقوّتِه، مِمّا يجعل قلوبَ الأعداءِ ترجُفُ لرؤيته كقوله(٢):

لَمّا رأووا وهجَ الكتائبِ ساطعاً قالوا الأمانَ ولاتَ حين أمانِ

وقوله(٣):

أرسالُ خيلِ إن أطلَّ بها على أقاصِي ثغرٍ دنا أمدُدْ
إن رُفعتْ للعَدا قساطلُها أَنْجزَ صرفَ الزّمان ما يَعِدُهْ

(١) ديوانه(٣/١٦٠٢)من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد محمّد بن يوسف الثّغري.

(٢) ديوانه (٤/٢٢٥٣) من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل.

(٣) ديوانه (٢/٧٣٧) من قصيدةٍ يمدح بها عبيد الله بن يحيَى بن خاقان.

فإن كان للجيش غبارٌ يُرهِب قبل التحام الجيشِ والتقاؤهما، فما بالك بما يحدث من غبار حين تعاركهما؛ إذ تتوارى فيه الشّمسُ، إن لم تنكسف ويضحي النّهار -لأسوداده واشتداده ظلماته- ليلاً مُدْلَهِمًّا.

زعزعَ الغربَ ذكرُ يوم توارتْ　　　شمسُهُ واكتسى سوداً نهارُهُ[1]

فكأنّه لاستلابه ضوء النّهار جَفْنٌ أُغْمِدَ فيه سيفه:

لَيُصبِّحَنَّ الرّومَ جيشٌ مغمِدٌ　　　للصّبحِ في رَهَجَانِهِ المتلفِّفِ

يَسْوَدُّ منه الأفقُ إن لم ينسَدِدْ　　　وتمورُ منه الشّمسُ إن لم تَكْسِفِ

فإذا أغمد فيه النّهار حلَّ مكانه اللّيلُ، بيد أنّ ليلَ الحب، ليس ليلاً يضيء فيه بدرٌ وتلمع فيه نجومٌ، فتخفّف من شدّة ظلمائه، فكيف يسيرون؟ إنّ كثرة الغبار ناجمةٌ عن كثرةِ عراكِ وشدّةِ تضراب، ممّا ينجُمُ عنهما عند تقارع الفرسانِ بالسّيوف قدحٌ وضياء، ولكثرته وتواليه تَمَكَّنَ الفرسانُ من السّير به، كما قال[2]:

إذا ارتدّ يوم الحربِ ليلاً رددتَهُ　　　نهاراً بلألاء السّيوفِ الصّوارمِ

ولقد كرّر هذا المعنَى في أبياتٍ كثيرةٍ، منها قوله[3]:

مُدَّ ليلاً على الكماةِ فما يمشو　　　نَ فيه إلاّ بضوءِ السّيوفِ

(١) ديوانه (٣/٩٠٨) من قصيدةٍ يمدح بها أبا الصّقر إسماعيل بن بلبل.

(٢) ديوانه (٣/١٩٦٨) من قصيدةٍ يمدح بها أبا مسلم الطّوسي.

(٣) ديوانه (٣/١٣٦١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا إبراهيم بن الحسن بن سهل.

وقوله(١):

في نهارٍ من السّــيوفِ مضــي مِ ءٍ تحتَ ليلٍ من مُسْتثارِ الصّعيدِ

وقد يكسو الغبار ما سار تحته، كما ترى في هذه الصّــورة التــي يصف فيها فرساً قد غطّاه الغبار، فصار له جُلاًّ وبُرْقُعــاً، جُــلاًّ يغطّــي جسده، وبُرْقَعاً يغطّي رأسه، بقوله(٢):

شهدتَ على عبلِ الجزارة سابحٍ كساه دقاقُ الرّملِ جُلاًّ وبُرْقَعا

وقد يَحْجُبُ الغبارُ لكثرته النّسرَ عن الطّيران، وقد طلعت الشّمس ووصل إليه بعض شعاعها داعياً له إلى الرّزق، فيحاول الطّيران، ولكنّه لا يستطيع؛ فيظلّ يخفق بجناحيه، كما قال في وصف شجاعة قوم ممدوحه(٣):

قومٌ إذا أخذوا للحربِ أُهْبَتَهــا رأيتَ أمراً قد احمرتْ عُواقــبُهُ

يرنِّقُ النّسرُ في جوِّ السّماءِ وقد أو ما إليه شعاعُ الشّمس يادِبُهُ

بيد أنّ هذا الغبار لا يكون إلاّ في المعارك البرية، أمّا البحريةُ منــها؛ فلا غبارَ فيها، وقد لحظ ذلك في قصيدته التي وصف فيها حربــاً بحريــة فقال(٤):

علبى حينَ لا نَقْعٌ يطوِّحُهُ الصَّبَا ولا أرضَ تُلْفَى للصّريعِ المقَطَّــرِ

---

(١) ديوانه (٢/٧٧٠) من قصيدة يمدح بها أبا نهشل.

(٢) ديوانه (٢/١٣٣٣) من قصيدة يمدح بها أبا الحسن بن عبد الملك الهاشميّ.

(٣) ديوانه (١/٢٢٨) من قصيدة يمدح بها أبا العبّاس محمّد بن بدر.

(٤) ديوانه (٢/٩٨٤) من قصيدة يمدح بها أحمد بن دينار.

٢- بَدْءُ القتال:

بعد أن تُضْرَبَ طبولَ الحرب، وتشبُّ نارَها، ويَقْسِمُ كلُّ قائدٌ على جنده منازلَهُمْ، وتسوى الصّفوف، وترفع الأعلامُ؛ فالمتحاربون عند ذلك بالخيار بين طريقتين لبدء الحرب:

إمّا زحفاً، كلّ فريقٍ يتقدّم إلى خصمه.

وإمّا حَمْلَةً، يحمل جانبٌ من الجيشين على آخر، حتّى إذا أحدثوا فيهم فرجةَ كان ذلك أوّل خللٍ فيهم، ونجد البُحْتُرِيّ يفضل الحملَة على الزّحفِ، ومبيناً فائدتها، وهي تفريق صفوفُ جيشِ الأعداءِ والإخلال بنظامه، ودليلُ شجاعةِ القائدِ وفرسانه[1]:

صاحبُ الحملةِ التِي تَنْقُضُ الزّحـ ـفَ بحمل الصّفوفِ فوقَ الصّفوفِ

هذا، ومن صفات حربِ الزّحف التّدرّجُ في استخدامِ السّلاحِ وتأخُّرُ النّتيجةِ، فقد تطولُ مدّتُهَا، فلا تظهرُ نتيجةٌ لها إلاّ بعد أيّامٍ، وأوّل ما يستخدمُ بها من السّلاحِ النّبل، حتّى إذا قربوا استخدموا القنا، حتّى إذا التحم الجيشانِ استخدموا السّيوف، حتّى إذا اختلطوا واشتدّت بهم الحرب، ولم يجدوا مكاناً لاستخدامِ السّيوف تطاعنوا بالخناجر، ومن لا يجد خِنْجراً أو قد أنحطم سيفه عافَسَ وصارَعَ بيده، فهي صورةٌ مفزعةٌ لدلالتها على شدّة الحرب وعظم هولِهَا[2]:

(١) ديوانه (١٣٦١/٣) من قصيدةٍ يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل.

(٢) ديوانه (١١٧٢/٢) من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبد الله بن طاهر.

ولقد لَبَسْتَ عسـاكراً بعسـاكرٍ   بالغورِ فيهم سادَةُ الوسـاسِ
فرموا وجـالُوا بالقنـا وتثـاقفوا   بسيوفِهِمْ من بعد طُوْلِ دِعاسِ
وتعافسُوا من كان طاحَ سـلاحُه   والنّفسُ تتلفُ عند كلِّ عِفاسِ

أمّا نتيجة حرب الزّحف فتتأخّرُ لتأخّرِ كثيرٍ من الفرسانِ فيها، فمرّةً يحملون، ومرّةً يتراجعون، ومرّةً يكرّون، ومرَّةً يتقهقرون، ولذا قد تستمرّ أيّاماً دون نتيجة، وقد صوّر البُحْتُرِيّ حربَ الزّحفِ في معركـةٍ بحريّـةٍ بصورةٍ تدلّ على صعوبةِ هذه الحرب في البحر لتلاطم أمواجه، واضطراب مائه، وارتفاع عُبَابِه، فشبّهَ محاولةَ القائدِ في الاقتراب بجنـده مـن جنـد الأعداء وهم على سفنهم، كَمَن يحاول أن يؤلّف بين أعناق وحش نوافرٍ؛ فقال[1]:

تُقَارِبُ من زَحْفَيْهِمُ فكأنّمـا   تؤلِّفُ من أعناقِ وحشٍ منَفَّرِ

٣- شدّة الحرب:

وصف البُحْتُرِيّ شدّة الحرب في أبياتٍ كثيرةٍ متفرّقةٍ بما يدلّ علـى خوضه غمراتها ومرافقته أبطالها، ومن ذلك قوله في مدح أبي نهشل[2]:

أَسَدٌ يَرْكَبُ النّفـوسَ إذا مـا   قَلَّ تحتَ السّيوفِ صبرُ الأسودِ

(١) ديوانه (٢/٩٨٤) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن دينار.
(٢) ديوانه (٢/٧٦٩).

ثم أخبر بأنّ هذه الحرب لشدّها ولكثرة الكرِّ والفرِّ فيها، ينحلّ عقدُ حزامِ الفارسِ الشّجاعِ مع اعتنائه به، ولكنّه منشغلٌ عنه لهول ما يرى[1]:

وعوانٍ تُحَــلُّ تحــتَ وغاهــا عقدةُ الفارسِ الشّجاعِ النّجيــدِ

ولشدّها يَخْرَسُ فيها الأبطالُ ولا يتكلّمون، فلا تسمعُ إلاّ زمجــرةَ الحديدِ وتقارُعَهُ[2]:

يَخْرَسُ الدّارعونَ فيها فما يســـمعُ فيها إلاّ كــلامُ الحديــدِ

وقلّما يتكلّم في هذا الأوانِ غيرُ الأبطالِ من مثل قوله[3]:

إذا خَرِسَ الأبطالُ في حُمْسِ الوغَى علتْ فوقَ أصواتِ الحديدِ زماجِرُهْ

هذا، وميدان الحرب مهمّا كان واسعاً؛ فإنّه يصيرُ ضنكاً ضيِّقاً مَزَلَّةً لتشابك القنا فيه، ولكثرة ما يعوق الفارسَ عن الحركةِ من قتلى وجرحى ودماء؛ فإنّ الرّاجل لا يتمكّن من التّحرّك بحرّيّةٍ، وكذلك الفارس لعــدم استطاعة الخيلِ الجولانَ لغوصِ أقدامِها في الدّماء كما قال[4]:

في موضعٍ ضَنْكٍ تخالُ به القنــا بين الضّلوعِ إذا انحنينَ ضــلوعا

(١) المرجع نفسه و الصفحة (٧٧٠).

(٢) المرجع نفسه و الصفحة (٧٧٠).

(٣) ديوانه (٢/٨٧٨) من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد يوسف بن محمّد.

(٤) ديوانه (٢/١٢٥٦) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

أو كقوله[١]:

وإذا ما تشنعت حومُـــةُ الحَــر ب وكان المقامُ بالقوم دحضـــا
ورأيت الجيادَ تحت مثارِ النَّقْـــ ـــع نهضن بـــالفوارس نهضـــا

وجعل من قصيدةٍ أخرى ما يحتمي به الفارسُ من ســيوفٍ ودروعٍ ورماحٍ كالعُقُلِ؛ لأنّها تعوقه عن الحركة أو الفرار، إذا اشتدّت الحـــرب لشدّة التّلاحم؛ فقال[٢]:

في موضع ضَنْكِ تُمْسِي معاقِلُهُ إذا اسبطرَّ شهابُ الموتِ كالعُقْلِ

وله من أخرى في وصف شجاعة ممدوحه في أحلـــك الأوقـــات، قوله[٣]:

يتخطّى الرّدى فيملأ صدر السّيـــ ـــف من جانب الخميس الكثيفِ
حيث لا يهتدي الجبانُ إلى الفـــرّ وحيث النّفوسُ نصـــبَ الحتـــوفِ
في لفيـــفٍ مـــن المنايـــا يمزقـــ ـــن غداةَ الهيجاء كـــلّ لفيـــفِ
ومقـــام بـــين الأســـنةِ ضَـــنْكٍ وهشيمٍ مـــن الظُّبَـــا مرصـــوفِ

وكدليلٍ على شدّة الحرب يجعل المنايا شخوصاً بارزةً تقف بـــإزاء الجند تتحيّن بدءَ المعركة فتنقضُ على الأعداء؛ فقال[٤]:

---

(١) ديوانه (١٢١٥/٢) من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل على الله.

(٢) ديوانه (١٩٠٣/٣) من قصيدةٍ يمدح بها خالد بن يزيد الشّيباني.

(٣) ديوانه (١٣٦١/٣) من قصيدةٍ يمدح بها إبراهيم بن الحسن بن سهل.

(٤) ديوانه (١١٥٦/٢) من قصيدةٍ وصف بها إيوان كسرى.

والمنايـــا مواثـــلٌ وأنوشِـــرْ   وإن يزجي الصّفوفَ تحت الدِّرَفسِ

ولشدّة بعض الحروب وكثرة القتل فيها تغلو قيمـــة الأرواح علـــى حامليها، ولا تهون إلاّ على فارس بطلٍ، روحه في مأمنٍ مـــن أن تنـــال، فسوق الموت قائمةٌ لكنّها على أعدائه، ومنه قوله(١):

وإن غلتِ الأرواحُ أرخصتَ سومَها   هنالك في سوقٍ من الموتِ قـــائمِ
بضربٍ يُشيِّد المجدَ في كلّ موقـــفٍ   ويُسْرِعُ في هدمِ الطُّلَى والجماجمِ

فإذا كان حال الحرب هكذا؛ فإنّه لن يصبر عليها، ولن يقـــف في حومتِهَا إلاّ الأبطالُ الذين مارسوها، أمّا الأغرار فيفرّون منها، لهول مـــا يسمعون من قراعٍ وما يرون من صراعٍ، سيوفٌ تتحطّم، وقناً يـــتقطم، وطلى تتساقط، وجثث تتهاوى، وقد أشار البُحْتُرِيّ إلى ذلك مبيِّناً أنّ أشدّ الفرسان صبراً هُمُ الذين مارسوا ويلات الحروب؛ فقال(٢):

يهال الغلام الغرُّ حتى يـــردَّهُ   على الهول من مكروههاالأشيب الكهل

٤- الضّرب بالسّيف:

يهتمّ الأبطال بالسّيوف؛ لأنّها لا تبقي ما وقعت عليه، ولأنّها تعمل في أعسرِ أوقات الحرب، وقد ذكر البُحْتُرِيّ فائدة السّيف في مثل قوله(٣):

وَلأَّكُمُ البغيَّ ثم انساب نحـــوكم   بالمشرفية فيهـــا الثُّكـــل والهَبَـــلُ

(١) ديوانه (١٩٦٨/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا مسلم الطّوسي.
(٢) ديوانه (١٦١٤/٣) من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل ويذكر حرب بنِي تغلب.
(٣) ديوانه (١٧٥٦/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

فهي تخيف الأعداءَ وتبيدُهُم، كما في وصفه لسيوف ممدوحه التِـــي شهرها دون الخلافة، دفاعاً عنها، والتِي قال فيها[(١)]:

شـــاهرٌ دون حقّهـــا عزمـــات   تتحـــامى مكروهَهـــا الأبطـــالُ
وســـيوفاً إيماضُـــها أوجـــالٌ   للأعـــادى ووقعهـــا آجـــالُ

وقد أشار البُحْتُرِيّ إلى أنّ استخدام السّيفِ في الوغَى من صـــفات القائد التِي يمدح عليها، ومن ذلك وصفه لعبد الملك بن دينار بأنّه يظلّ في قلق واشتياق شديدين حين طَعْنِه بالرّمح، لا يذهبهما عنه إلاّ تقارعُ سيفه بسيوف خصومه، عند ذلك تشفى غلّتُهُ ويجلب له السّيفُ راحتَهُ، كمـــا قال[(٢)]:

ويُقْلِقُهُ شوقٌ إلى القِرْن معجِـــلٌ   لدى الطّعن حتّى يستريحَ إلى الضّربِ

هذا، وللبُحْتُرِيّ أبياتٌ وصف فيها شدّةَ الضّرب وشـــبّهه بأشـــياء محسوسةٍ، ومن ذلك قوله متحدِّثاً عن تقارع سيوف التّغلبيّين[(٣)]:

فمن يسمعْ وغى الأخوين يذعَرْ   بصكٍّ من قراعِهِمـــا عجيـــبِ

وقوله في حديث عن حرب قادها أبو الحسين العقيليّ[(٤)]:

كأن وقعَ سيوفِ الهندِ ســـابحةً   في هامِهِمْ حَشُّ نارٍ تحتها ســـعَفا

(١) ديوانه (١٨٠٩/٣) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح بن خاقان.
(٢) ديوانه (١٠٦/١) من قصيدةٍ يمدح بها عبد الله بن دينار.
(٣) ديوانه (١٠١/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا المعمر الهيثم بن عبد الله.
(٤) ديوانه (١٤٣٥/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا الحسين العقيليّ.

فقد شبّه سرعةَ الضّرب وأطاحته للرؤوس وما يسمع من صوتٍ له حين مروره على الأوداج وعظام الرّقبة وصوت فورانِ الدّمِ، شبَّه كلّ ذلك بِما يُرَى ويُسْمَعُ لنارٍ اشتعلتْ، وكان وقودُها سعفَ النّخلِ؛ إذ يَبيدُ بسرعةٍ ويسمعُ له صوت مفزعٍ.

ومثله قوله في وصف تضراب فرسان البحر(١):

صَدَمْتَ بهم صهبَ العَثَانينِ دُونَهم ضرابٌ كإيقادِ اللّظى المستعِرِ

كما شبّه ما يسمع للسّيوف أثناء تقارعها أو أثناء قطعها للأعضاء بصوتِ فحولِ الإبلِ الكبيرةِ، وقد قِيدت بعد ربط أنوفها بحبالٍ تسمَّى الخُزُم (واحدها: خزام)، وما أكثر زغاءها حين تقاد على هذه الهيئة!(٢):

بطعن يَكُبّ الدّارعين ادِّرَاكُهُ وضرب كما ترغو المُخَزَّمَةُ البُزْلُ

أمّا هيئة الفارس الضّارب من على جواده فقد ذكر البُحتُرِيّ في بيتٍ له أنّه يقف على الرّكاب مصلِتاً سيفه على رؤوسِ أعدائه، وهو قوله(٣):

يُكِبُّونَ مِنْ فوقِ القرابيسِ بالقنا وبالبيضِ تلقاهُمْ قياماً على الرُّكْبِ

(١) ديوانه (٢/٩٨٣) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن دينار.

(٢) ديوانه (٣/١٦١٤) من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل، ويذكر حرب بنِي تغلب.

(٣) ديوانه (١/١٠٧) من قصيدةٍ يمدح بها عبد الله بن دينار.

كما وصف البُحْتُرِيّ التفح بأنّه قوي الضّربة، إذا أمسك السّيف بيدِه، لم يتردّد في ضربته فتهوى على خصمه بضربةٍ واحدة، لا ينبو فيها السّيف إمّا أن يَلِجَ نصابه كلّه في ضريبته، وإمّا أن يقطعها لا يردّه شيءٌ حتّى ينفذ منها، وذلك في قوله[1]:

حملتَ عليه السّيف لا عزمك انــثنى ولا يدكُ ارتدتْ ولا حــدُّه نبــا
وكنت متى تجمعْ يمينك همتك الضَّــــم ـــريبة أو لا تبقِ للسّيف مضرِبا

أمّا هيئة السّيوف في ميدان القتال؛ فإنّها تطفو وترســب وتعلــو وتسفل فــي أيدي الفرسان مع لمعان وبريق واشتعال ومــيضٍ كمــا قال[2]:

ناهضـــتهم والبارقــاتُ كأنّهـــا شُعَلٌ علــى أيــديهِمُ تَتَلَهَّـــبُ
ووقفت مشكورَ المكانِ كريمُـــهُ والبيضُ تطفو في الغبارِ وترسُبُ

ولها هيئةٌ أخرى صوَّرها بها فجعلها كالرّاكع والسّاجد؛ لأنّ السّيف وهو في يد حامله مرّة يرفعه ومرّة يخفضه، فقال[3]:

في مقام تخِرُّ في ضنكه البِيـــــ ـــضُ على البيضِ ركعاً وسجودا

كما يحمد لها تلطّخها بالدّماء فيقول مفتخِراً[4]:

---

(١) ديوانه (٢٠١/١) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح، ويذكر منازلته الأسد.

(٢) ديوانه (٧٥/١) من قصيدةٍ يمدح بها إسحاق بن إبراهيم المصبعي.

(٣) ديوانه (٥٩٣/١).

(٤) ديوانه (١٠٨٣/٢).

غدت بيضُنَا مثلُ اللّجينِ ابيضَاضِهَا فراحتْ من التّضرابِ كالذّهبِ التِّبْرِ

وكقوله[١]:

إذا انتضى السّيفَ يوم الرّوعِ أغمَدَهُ مخضباً من دم الأعداءِ في القُلَلِ

أمّا مواضع الضّرب فمتعدّدةٌ، وأكثر هذه مواضع الهامُ، ومن ذلك وصفه لسيفِ أبي سعيد بقوله[٢]:

ما انفكّ سيفُكَ غادِياً أو رائحاً في حصدِ هَامَاتٍ وسفكِ دماءِ

أو قوله في بيان فعلِ سيوفِ أبِي نهشل[٣]:

إذا افترقتْ أسيافُهُ وسطَ جحفلٍ تفرق عنه هامُهُ وسواعدُهْ

أو قوله[٤]:

فَرَّ عنه جيشُهُ حيثُ الظُّبَا شُرَّعٌ تفري طُلاهُمْ وتقُدّْ

أو قوله[٥]:

ما إن تنِي فيه الأسنةُ والظُّبا لطُلَى الفوارسِ سُجّداً وركوعاً

وقد يكون الضّربُ موجّهاً إلى الأعناقِ مقطّعاً للأوردةِ كما قال[٦]:

---

(١) ديوانه (١٩٠٣/٣) من قصيدةٍ يمدح بها خالد بن يزيد الشّيبانِي.

(٢) ديوانه (٩/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد محمّد بن يوسف الثّغريّ.

(٣) ديوانه (٥٨٦/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا نهشل محمّد بن حميد الطّوسيّ.

(٤) ديوانه (٦٦٩/٢) من قصيدةٍ يمدح بها المعتمد على الله.

(٥) ديوانه (١٢٥٦/٢) من قصيدةٍ يمدح بها سعيد الثّغريّ.

(٦) ديوانه (٨٠٩/٢) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن الشّلمغان.

مِثْلَما سنَّ للسّيوفِ بقزويـــــ ن وجرجانَ قطعَ حبلِ الوريدِ
عانقتهم ظبا السّـــيوفِ فـــلا مُنصلٌ إلاّ مغيـــبٌ في جيـــدِ

وقد يتجاوز الضّرب الطّلي فيزيل الرّؤوسَ ويبتُرُ السّواعِدَ، فتضحي الأبدانُ بلا رؤوسَ والسّيوفَ بلا جفونٍ، كما قال(١):

نصرت على الأعادِي بالأعادي غداة الرّومِ تحت رحًى طحونِ
يقتلُ بعضُهُم بعضــاً بضـــربٍ مُبينٍ للسّـــواعدِ والشّـــؤونِ
إذ الأبـــدانُ ثَـــمَّ بـــلا رؤوسٍ تهاوى والسّيوفُ بلا جفـــونِ

٥- الطّعن بالرّمح:

يعدّ التّطاعُنُ بالرّماح هو البداية الفعلية لرحى الحـــرب الطّحـــون، ولبيانِ شدّة هذا الطّعنِ فقد وصفه بعد أبياتٍ من قصائدَ متفرِّقـــة منـــها وصفه لشدّة تضراب فرسان قوم ممدوحه، وآثار طعانِهِم الشّديدِ المُصَوَّبِ إلى الرّؤوس المحمية بالبَيْضِ وإلى الأجسادِ المحاطة بسياج الدّروع، ولكنّـــه لشدّته يستَنْزل هذه الخوذاتِ من أعلى الرّؤوس محطّمة ويفرق حلقَ الدّرعِ الحصينة، وقد يتثنّي بعد ذلك أو ينقصف فلن يضيرَهَا ذلك، وقـــد أودت بالفرسان صرعى كما قال(٢):

أَمْطَرْتَ أَرْؤُسَهُم ضرباً تركت به مأثورةَ السُّمْرِ مُنآداً ومنقصـــفا
يستَنْزل القونسَ المحبوكَ منبتـــراً من وقعهِ ويخوضُ النّثرةَ الزّغَفا

---

(١) ديوانه (٢٢٦٨/٤) من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٢) ديوانه (١٤٣٥/٣) من قصيدةٍ يمدح بها أبا الحسين العقيليّ.

وهو طعنٌ متتابعٌ يفرق الأعداء ويشتّت صفوفَهم فيولّون زرافات ووحداناً، كما قال[1]:

أزالَ خمسين ألفاً فانثنوا عُصُباً والطّعنُ يَزْعجُ منهم أيَّ إزْعَاجِ

ولكثرته وتتابعه لا يتمكّن الفارس الدّارع من الوقوف على قدميه له، كما قال[2]:

بطعنٍ يَكُبُّ الدّارعينَ ادِّرَاكُهُ وضربٍ كما ترغو المُخَزَّمةُ البُزْلُ

و هو طعنٌ ما أسرع أن تظهر نتيجته ،فيكون النصر حليف ممدوحه فيه ،فيفرج شدَّة الحرب لإيقاعه بالأعداء كما قال[3]:

بين ضربٍ يفلّقُ السّهامَ أنصاماً وطعنٍ يُفَرِّجُ الغَمَّاءَ

والفارس البطل مَن ليس له عند الطّعان إلاّ طريقان، إمّا أن يقضي على خصمه بطعنته، فيطرحه صريعاً، وإمّا أن يحطم القناة عنه كما وصف بذلك يوسف بن محمّد في قوله[4]:

أَلْوى إذا طعن المدججَ صَكَّه ليديهِ أو نثرُ القناةُ كعوبا

كما شبّه هيئة الفارسِ بعد طعنه وقد قارب السّقوط بهيئة الثَّمِلِ الذي لعبت الحُمَيّا في رأسه واثقَلَتْ قديمه، فلا يستطيع المَشْيَ إلاّ تَهادِياً،

(١) ديوانه (٤١/١) من قصيدةٍ يمدح بها إسحاق بن كنداج.

(٢) ديوانه (١٦١٤/٣) من قصيدةٍ يمدح بها الفتح بن خاقان.

(٣) ديوانه (١٩/١) من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن يوسف الثّغريّ.

(٤) ديوانه (١٨٤/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد الثّغريّ.

فقال[١]:

بطعنِ دَرَاكٍ في النّحور يحطَهُمْ نشاوى وضربٍ في جماجِمِهِمْ هَبْرِ

هذا، ولم تكن شِدَّة الطَّعْنِ مخيفةً للفارسِ فحَسبُ، بل تجاوزته إلى الخيل، فصدّها عن التّقدّمِ في ميدان القتال، لانغماسِ الرّماحِ في لَبَّانِها، كما قال[٢]:

غشى الدّارعينَ ضرباً هَذَاْذَيْكَ وطعناً يُوَرِّع الخيلَ وَخْضَا

كثرة الرّماح:

أمّا كثرة الرّماح فإنّها لكثرتها لا ترى إلاّ متثنية أو مضطربة كما قال[٣]:

مستقلاًّ في رها رجراجةٍ للقنا فيها أعتدالٌ وأَوَدْ

أو كقوله[٤]:

تتثنّى الأرماحُ والحرب مشبو مٌ لظاها تثني الخيزرانِ
كلّما مال جانب من خميسٍ عدَّلته شواجرُ الخُرْصَانِ

(١) ديوانه (١٠٠٦/٢) من قصيدة يمدح بها المعتزّ بالله.
(٢) ديوانه (١٢١٦/٢) من قصيدة يمدح بها المتوكّل على الله.
(٣) ديوانه (١٨٧٥/٣) من قصيدة يمدح بها طغج بن جف.
(٤) ديوانه (٢٢٧٣/٤) من قصيدة يمدح بها المعتزّ بالله.

وشبّه البُحتُرِيّ كثرةَ الرّماح في الميدان وتعاقبها بين الفريقين بسعفِ نخلِ حائطين تقابلا فمالَ سعف أحدهما على الآخر، فقال[١]:

تُصَوِّبُ فوقهم حِزَقُ العــوالي وغابُ الخطّ مهزوزُ الكعــوبِ
كنخلٍ سميحةٍ استعلى ركيــبٌ تكفيه الرّياحُ علــى ركيــبِ

وللتعاقب الفرسانِ بالقنا وتطاعنهم به كان لهذا التّكــرار صــورةً واقعيّةً أشبهت حبال بئر كثر وُرَّادها كما قال البُحتُرِيّ[٢]:

والخيلُ تَجْمُرُ بالفوارسِ، والقنــا يَخْلُجْنَ خَلْجَ البئر بالأَمْرَاسِ

أمّا عن حال الأعداء حين دوران رحى الحرب، فقد تركتهم الرّماحُ بين راكعٍ قد انكسر الرّمح في كاهله أو صلبه، فهــو إلى الأرضِ فصــار الرّمحُ ركيزةً له، فبقي كهيئة الرّاكع، أو بين ساجدٍ قد سقط على وجهه لقوّة الطّعنةِ واستلالِ الفارسِ رمحه منه، فغدا كهيئةِ السّاجد كما قال[٣]:

غَــادرتْهُمْ يــدُ المنيــةِ صِــبحاً بالقنا بــين ركــعٍ وســجودِ

وفي صورةٍ أخرى جعل كثرةَ القتلى من أعداء ممدوحــه بســبب الطّعانِ سُنَّةً للقائد لا يحيد عنها، وطريق هذه السُّنَّةِ هو استخدامه للرّماح فيها التي منحتمهم الخلودُ الأبدي، كما قال[٤]:

وكذا الكردُ سنَّ للموتِ فــيهم بطوالِ الرّماحِ طــولَ الخلــودِ

(١) ديوانه (١٠١/١) من قصيدةٍ يمدح بها أبا المعمّر الهيثم بن عبدالله.
(٢) ديوانه (١١٧٢/٢) من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبد الله بن طاهر.
(٣) ديوانه (٨٠٨/٢) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز بن الشّلمغان.
(٤) ديوانه (٨٠٩/٢) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

أمّا مواقع رماح ممدوحي البُحْتُرِيّ؛ فإنّها في الأغلب في الأوجه والنّحور، كقوله(١):

يتعثــرن في النّحــورِ وفي الأو جه سكراً لما شربنَ الــدّماءَ

وقوله(٢):

وأنا النّذير لِمَن تغطرسَ أو طغى من مارق يدع النّحورَ جيوبا

وقوله(٣):

ترى واشجَ الخرصانِ يهتكُ بينَهُم نحورَ الأسودِ أو تروى ثَعالبُهْ

ومن المواقع التِي يحرص الأبطال على إصابتها الصّدور؛ لأنّها مواضع الأفئدة الحاوية للغلِّ والبغضاء والأحقاد؛ فكأنّه بإصابتها قد أخــذ منــها بالثّأر، كما قال(٤):

قومٍ ترى أرماحَهُمْ يوم الــوغَى مشغوفةً بمــواطنِ الكِتْمــانِ

هذا، وأفضل مواقع الطّعنِ التِي تدلّ على الحذقِ إصابةُ الفارسِ عينَ خصمه، كقوله في مدح خالد بن يزيد الشيباني(٥):

تغدو أســنتُهُ زرقــاً فيكحلُهــا يومَ الكريهةِ في الأحداقِ والكَحَلِ

(١) ديوانه (١/١٨) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد محمّد بن يوسف الثّغري.

(٢) ديوانه (١/١٨٦) من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد بن يوسف بن محمّد يوسف الثّغري.

(٣) ديوانه (١/٢٢٢) من قصيدةٍ يمدح بها الموفّق بالله.

(٤) ديوانه (٤/٢١٦٥).

(٥) ديوانه (٣/١٩٠٣).

أمّا أبشع مناظر الطّعن فهي في مثل قوله(١):

فإن تأودتِ الأرمــاحُ ثَقَفَّهَــا بكاهلِ بطلٍ من فــارسٍ بطــلِ

فإنّ شدّة الطّعن بالرّماح تجعلها عوجاً مُثنّاة، ولحاجة الفرسان إليها؛ فإنّهم يعدّلونها بإدخالها بكواهل الفرسان الأقوياء، فتعتدل كمــا كانــت قبل، فتصوّر بشاعة هذا المنظر والفارس يقوم بتثقيف رمحه المعوجِ بكاهلِ فارسٍ آخر.

٦- الرَّمْيُ بالنّبل:

للبُحتُرِيّ بيتان يصف فيهما إجادةَ ممدوحيــه الرّمايــةَ في ميــدان المعركة، ومن ذلك مدحه ليوسف بن محمّد، في كونه يجيدُ إصابة الأعداء بسهامٍ لا تقع إلاّ على أجسادهم، فتخوض دم خصــمه، فتوقعــه علــى الأرض(٢):

ورمى العدوَّ فلم يقصِّرْ ســهمُهُ حتّى تخضخَضَ في رَمِيٍّ مُقْصَدِ

وقوله في مدح محمّد بن عبد الله بن طاهر، وكونه مجيــداً للرّمايــة إجادة تامّة، بحيث لا يقع سهمه إلاّ في مقتل، فسهامُهُ لم تُعَدَّ للعب بهــا، وإصابة ما يتسلّى برميه من الأهداف والأغراض(٣):

يرمِي فما يشوي ويقتل من رمَى بسهام لا هدف ولا برجــاسِ

(١) ديوانه (١٩٠٣/٣).

(٢) ديوانه (٥٤٥/١).

(٣) ديوانه (١١٦٥/٢).

وله بيت يصف فيه رميه ذئباً هاجه[١]:

فأوجرته خرقاء تحسِبُ ريشَـــهَا على كوكبٍ ينقضُّ واللّيلُ مسودُّ

فقد وصف سهامَهُ بأنّها خرقاءُ، تشبيهاً لها بالرّياح التِي يقال لهـــا: (الخرقاء)، وهي الرّيح الشّديدة[٢]، وإذا أبصرت هذه السّـــهام المنطلقـــة حَسِبْتَ ريشها شهاباً منقضاً في ليلة مظلّة.

كما وصف موقع الرّمي المفضلِ لدى الفرسانِ فقال من القصـــيدة السّابقة[٣]:

فأتبعتُها أخرى فأضللتُ نصلَها بحيثُ يكون اللّبُّ والرّعبُ والحقدُ

وله بيتٌ وصف فيه هيئةَ المستعدِّ للرّمي، فقال[٤]:

القوسُ منِّـــي إليـــكَ مـــوْتَرَةٌ والسّهمُ ألقمـــتُ فوقـــه الـــوترا

ويقصد منه استعداده لهجائه استعداد من تأهّب لإصابة غرض، فلَمّا عاينه شَدَّ ووضع الوتر فوق السّهم لتحين فرصة الانطلاق.

---

(١) ديوانه (٢/٧٤٤).

(٢) القاموس منادة (خ ر ق).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ديوانه (٢/١١٠٢).

خامساً: في أعقاب المعركة

١- كثرة القتل:

من البدهِي تصور آثار أي معركة تدور رحاها بين فرقتين متناحرتين؛ فإنّها لا تعدو أشلاء متناثرة ودماء سائلة ورماحاً منقصفةً وسيوفاً منحطةً، وجنوداً جرحَى وآخرين أسرى ونساء سباياً، بيد أنّ هول الصّورة يظهر حين يصوّرها شاعرٌ كالبُحتُرِيّ في عددٍ من قصائده مُبْرِزاً ما حَلَّ بالأعداء من ذلٍّ وإهانةٍ وضعفٍ واستكانة، فقتلاهم كُثُرٌ و أسراهم يعجزُ عنهم الحصرُ، وشوكتُهُمْ مخضودةٌ وشرِّهم مدحورَةٌ، ويبدو هذا في الصّورة التِي رسمها لِما أحدثه ممدوحه مالك بن طوق في بعض الخارجينَ على حوزةِ الخلافةِ، فقد فصّل ما حَلَّ بهم في تقطيعٍ موسيقي بديع؛ إذ جعل إكثاره القتل منهم كَمَن أدلَى دلواً في بئر جَمّةٍ فامتلأت من مائهَا فانغمست فيها[1]:

سائلْ بأيامِه عنه الأولَى اجترموا ... ماذا بهم صنعتْ عواقبُ الجَرمِ؟
لما طغوا وبغوا جهلاً عباهمُ ... حرباً تغصُّهم بالبارد الشّبمِ
أعذرتَ بالسّلم حتّى ظنَّ جاهلُهُم ... أن قد لهوتَ وقد أغضيتَ من صَممِ
حتّى إذا ما الشّقاقُ المَحْضُ أشعَثُهم ... لَمَمْتَ بِالسّيفِ منهم شعثةَ اللِّمَمِ
جردت فيهم حساماً صارماً ذكراً ... وعزمة كشباة الصّارِمِ الخَذِمِ

---

(١) ديوانه (٤/٢١٢٨-٢١٣٠).

سُدّتْ وجوهُ فجاج الأرض دونَهُمُ   حتّـى كـأنّهُمُ في حـيرةِ الـرَّدَمِ
باتوا يشبّون نـارَ الحـربِ بينـهم   فأصبحوا بين ظفـرٍ للـرّدى وفـمِ
شـفيت سـقمُهُمْ لِمـا لقيـتَهُم   بسُقمِ ملحمةٍ تشـفي مـن السَّـقَمِ
أرسلت من عارض الآجالِ فـوقَهُم   طيراً أبابيلَ لم تنسـب إلى الـرَّخَمِ
أدليت دلـو المنايـا في نفوسـهم   فأغرقتـها إلى الأكـراب والـوذمِ
حطّمت منكبهم لِما حللـت بهـم   بمنكبٍ منك أضحى غـير مـنحطمِ
غادرتهم بـين مجـروح ومُقْتَسَـرٍ   عانٍ، ومُطَّرَحٍ لحمـاً علـى وضـمِ
أسرى وجرحى وقتلَى في ديـارِهِمِ   كأنّمـا لبسـوا قمصـاً مـن الأُدَمِ

وفي هذه الأبيات من الصّور والمعاني ما يأخذ بلب اللّبيب فمنها:

قوله في بيته الأوّل: «ماذا بهم صنعت عواقب الحرم»؛ إذ جعل فعل النّدم على الجرم أشدّ من فعل العقاب الذي لحقه، وهذا حقٌّ، فالعذاب النّفسيّ أشدّ من الجسميّ؛ لأنّ الأخير يبرأ، والأوّل يبقى ويزداد.

وقوله في بيته الثّاني: «حرباً تغصهم بالبارد الشّبم»، بيانٌ لشدّة الحرب، وأنّهم لِمَا لَحقَهم من الخوف والفزع، ولِمَا شاهدوه من هول المعركة، لا يستسيغ شارِبُهُمُ الماءَ الباردَ، بل يَغَصُّ فيه مع برودته وعذوبته.

وقوله:

سُدَّتْ وُجُوه فجاجِ الأرض دونَهُمُ   حتّى كأنَّهُم في حـيرةِ الـرُّدَمِ

بيانٌ لِحالهم عند دوران الحرب وعمل السّيوف فيهم، فلمّا لم يستطيعوا الدّفاع عن أنفسهم، ولّوا بالفرار، جعلهم وكأنّهم يأجوج

ومأجوج، لا حول لهم ولا طول في الخلاص الآن من السّدِّ الذي بناه عليهم ذو القرنين[١].

وفي قوله في البيت السّابع: (فأصبحوا بين ظفرِ للرّدى وفم)، تصويرٌ بديعٌ لإحاطة الهلاك بهم، بعد أن كنت شوكَتُهُم قويّةٌ، وكانوا مصدر الفتَنِ فشبّه الرّدّى بوحشٍ مفترس على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله:

أرسلت من عارض الآجال بينهم طيراً أبابيل لم تنسب إلى الرّخَمِ

تصوير لكثر من قتل منهم، وأنّه قد سلط المنايا عليهم، منايا كالمطر كثرةً وكالطّير الأبابيل ضراوة.

وفي قوله في البيت الثّاني عشر: (مُقْتَسَرٍ عانٍ، ومُطَّرَحٍ لَحماً على وضم)، بيانٌ لذلة المأسور منهم، ولشدّة إصابة المقتول منهم حيث غدا كومة من اللّحم هامدة لا حراك بها.

وفي قوله في البيت الثّالث عشر: (في ديارهم) بيانٌ لذلّتهم وكون ذلك وقع لهم وهم في ديارهم.

وقوله في أيضاً: (كأنّما لبسوا قمصاً من الأَدَم)، تصويرٌ لهم، (وهم غارقون جميعاً في دمائهم التِي غطت أجسادهم، وجفت على ثيابهم التِي يرتدونها، فأصبحوا كأنّهم يلبسون ثياباً من جلود حمراء)[٢].

---

(١) هو سدّ يأجوج ومأجوج. (القاموس المحيط مادة (ر د م).

(٢) الخيال الشّعري في شعر الوصف عند البُحْتُرِيّ، د/ طه أبو كرشيه (١٤٩).

وحينما نتجول في ميدان المعركة؛ فإنّنا نرى منظراً شنيعاً، أُناساً صرعى، منهم مَن تلطّخ في دمائه بأرض المعركة، ومنهم مَن كساه الدّم، ومنهم مَن أصاب بعض جسده، وقد سلبوا فغدت الدّماء بعد جفافها أكسية حمراً لهم فكأنّهم لم يسلبوا؛ كما قال(١):

ما إن ترى إلاّ توقدَ كوكبٍ ... في قونسٍ قد غار فيه كوكبُ
فَمَجَدَّلٌ ومَرَمَّلٌ ومُوَسَّدٌ ... ومُضَرَّجٌ ومُضَمَّخٌ ومُخَضَّبُ
سلبوا وأشرقت الدّماء عليهِم ... مُحْمَرَّةٌ فكأنّهم لم يسلبوا

أو كما قال في وصف يومٍ لجند المعتزّ بالله معن الخوارج من جند عبدوسٍ(٢):

لئن كان مستغوى ثمودَ لقد غدتْ ... على قومه بالأمس راغيةُ البكرِ
فلست ترى إلاّ رؤوساً مطاحةً ... يجيدُ الموالي نحرها أو دماً يجري

كما أنّ منظر ميدان المعركة —وقد تناثرت فيه الأشلاء وسقطت في جنباته الخيل عقرى في شكائمها، وكامل عدّتها- منظرٌ مفزعٌ ينبئ عن ضراوة الحرب(٣):

لقد كان في يوم الثّنيةِ منظرٌ ... ومستمتعٌ ينبي عن البطشةِ الكبرى
وعطفِ أبي الجيشِ الجوادَ يكرُّهُ ... مدافعةً عن (ديرِ مُرَّانَ) أو (مقرى)

(١) ديوانه (١/٧٥-٧٦) من قصيدةٍ يمدح بها إسحاق بن إبراهيم المصعبي، ويذكر حربه للخُرَّمية.

(٢) ديوانه (٢/١٠٠٥-١٠٠٦).

(٣) ديوانه (١-٥٩-٦٠) من قصيدةٍ يمدح بها خمارويه بن أحمد بن طولون.

فكائن له من ضربةٍ بعد طعنـةٍ وقتلى إلى جنبِ الثّنيةِ أو أسـرى
فوارسُ صرعى من تُؤامٍ وفاردٍ وأرسالِ خيلٍ في شكائِمِها عقـرى

هذا، وفرسانُ أعداء ممدوحه لا يَعْدُون حين لقائه بهم حالين إمّا قتلى وإمّا أسرى، كما قال(١):

فَهُـمْ فرقتـان: بـين قتيـلٍ قُنصَتْ نفسُهُ بحـدِّ الحديـدِ
وأسيرٍ غدا لـه السّـجنُ لحـداً فهو حيٌّ في حالـةِ الملحـودِ
فرقـةٌ للسّـيوفِ ينفـذُ فيهـا الحكمُ قصْداً وفرقةٌ للقيـودِ

أو كقوله من أخرى بيد أنّه زاد في أنّ هؤلاء الأسرى قد لا ينجون من القتلِ أيضاً(٢):

فَلَجَتْ حُجَةُ المـوالِي ضـراباً وطعاناً كما التقى الخصـمانِ
فقتيلٌ تحت السّـنابك يـدمى وأسيرٌ يراقـب القتـلَ عـانِي

وقد كرّر هذا المعنَى في قصيدةٍ أخرى فقال(٣):

شرقوا بالحديدِ إمّـا سـيوف أثخنت فـيهِمُ وإمّـا قيـودُ
يرقب القائمُ المؤجّـلُ منـهم ما ابتـداه المعجـلُ المحصـودُ

أمّا كثرة القتلى فمرّةً شبّههم البُحتُريّ بالبُدْنِ المنحورة بمعَنى يـوم

---

(١) ديوانه (٢/٨٠٨-٨٠٩) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبدالعزيز الشّلمغان.
(٢) ديوانه (٤/٢٢٧٣) من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.
(٣) ديوانه (١/٥٠٤) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

النّحر؛ فقال[١]:

كأنّهُم تحت السّيوفِ غرائــبٌ   من البدنِ سيقت يوم عيد إلى نّحرِ

ومرّةً شبّههم بأكداس الرّمالِ في الصّحاري وقد بدت لعين النّــاظر أكواماً؛ فقال[٢]:

فقتلتَ جيشَهُمُ وجئتَ بسيبِهِم   وتركتَهُمْ بالغَورِ كالأكــداسِ

وهي لكثرتها واتّصالها ملأت سهولَ الأرض وحزونَهــا ووهادَهــا وجبالَها؛ كقوله[٣]:

وفي (أرض الديالِمِ) هامُ قتلــى   نظامُ السّهل منــها والحــزونِ

كما جعل كثرتهم وكون جثثهم قد ملأت وهاد وســفوحَ جبــالِ الطّيّب مِمّا يغص هذه الجبال، فقال[٤]:

وقد شرقت جبالُ (الطّيب) منهُم   بيومِ مثــلِ يــوم (النَّهَــروانِ)

٢- كثرة الدّماء:

ولكثرة الدّماء وسيلانها في ميدان المعركة شبّهها البُحْتُرِيّ بالسّيل في قوّته وإندفاعه، فقال في مدح أبي محمّد الثّغرِي[٥]:

أدْمَى فجاج الرّوم حتّى مالَهــا   سيل سوى دُفَعِ الدّماء الهمــعِ

---

(١) ديوانه (١٠٨٤/٢) من قصيدةٍ فخريّة.

(٢) ديوانه (١١٧٢/٢) من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبد الله بن طاهر.

(٣) ديوانه (٢٢٦٨/٤) من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٤) ديوانه (٢٢٧٨/٤) من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٥) ديوانه (١٢٨٨/٢).

ولسيلانها في الميدان لا يتمكّن الفرسانَ مِـن السّـير أو التّحـرّك والتّجوال بحريّة تامّة؛ لأنّ المكان غدا دَحِضاً وزَلِقاً، كما قال[١]:

وإذا مـا تَشَـنَّعَتْ حومـةُ الحـر بِ وكان المقامُ بالقومِ دَحْضـا

ولكثرة الدّماء -أيضاً- لا تستطيع الخيلُ السَّيرَ بسرعةٍ وخفّةٍ، إنّما ترفع حوافرها رفعاً، لِمَا غاصتْ به من الدّماء، ولِما تحتها من الطِّين، كما قال[٢]:

ورأيت الجيادَ تحتَ مُثارِ النّقـ ـعِ ينهضْنَ بـالفوارسِ نَهْضَـا

وهي دماء تجعل يابِسَ التّراب طيناً لدناً، كأنّما صبّت عليـه ميـاهٌ غزيرةٌ – كما قال في وصف الخيل[٣]:

جَلْنَ في يابسِ التّرابِ فما رُمْـ ـنَ طعاناً حتّى وطئن الطّينا

ولكثرة الدّماء وتلطيخها الفرسانَ وبعد أن يُسْلَبُوا؛ فإنّها سـتجفُ على جلودهم، فتكون بِمثابة ما نزع عنهم من ثيابٍ؛ ولكنّها ألبسة حمـر كما قال[٤]:

سلبوا وأشرقت الـدّماءُ علـيهِمُ محمـرةً فكـأنّهم لم يسـلبوا

هذا، ومِما يدلّ على شجاعة الفارس وما يزيد في جمـالِ فرسـه

(١) ديوانه (١٥١٥/٢) من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل.

(٢) ديوانه (١٢١٥/٢) من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل.

(٣) ديوانه (٢١٦٧/٤) من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٤) ديوانه (٧٦/١).

وطؤها في الدّماء كما قال في وصف خيلِ ممدوحه(١):

كلّما احمرَّ لهـــا البـــأسُ ثَنَـــتْ   وهي مِمّا وَطِئَتْ حمـــرُ الثُّـــنَنْ

أو كما قال في مدح أبي الصّقر وأنّه يوطئ خيله الدّماءَ فيحليها بها فتكون لها كالحجول(٢):

إذا أوطأ الشّقرَ الدّماءَ مشـــايِحاً   أعاد إلى تلك الجياد حجولهـــا

ولهذا نجدهم يفضّلون الفرس ذا اللّون الأشقر الذي ازدادت حمرتـــه في لَبَّته وأعطافه وأرساغه، وكأنّ هذه الحمرة من كثرة وطئه الدّماءَ كما قال في وصف أحد الخيولِ التي وَدَّ من أبي نهشل إهداء أحدها إليه(٣):

متسربلٌ شـــيةً طَلَـــتْ أعطافَـــهُ   بدمٍ فما تَلْقَاه غـــير مضـــرجِ

أمّا المعاركُ النّهريَّة أو البحريّةُ فإنّ الدّماء فيها تختلط بالمـــاء، حتّـــى يعافَ الماءَ شاربه لتغيّر طعمه ولونه من كثرتها، كما قال في بيان ما أنزل الموفق بالزّنج الذين خرجوا في البصرة وما جاورها، وكانت أكثر حروبهم في الأنهار(٤):

يغالب طعمَ الماء في ملتقـــاهم   حُسَى الدّمِ حتّى يلفظَ الماءَ شاربُهْ

---

(١) ديوانه (٢١٥٦/٤) من قصيدة يمدح بها أبا جعفر أحمد بن محمّد الطّائيّ.

والمثنن، جمع: ثُنّه، وهي شعرات في مؤخّرة رسغ الدّابة.

لسان العرب مادة (ث ن ن) (٨٩/١٣).

(٢) ديوانه (١٧٩٣/٣).

(٣) ديوانه (٤٠٣/١).

(٤) ديوانه (٢٢٢/١).

أو كقوله في بيان مآل جموعِ الشّراة الذين خرجوا في عهد المعتمد على الله فولّى حروبهم ودبرها وزيره عبيد الله بن يحيَى بن خاقان[(١)]:

يختلط (الـزّابُ) في دمـائِهِمُ حتّى غدا (الزُّابُ) مُشْرَباً زَبَدُهْ

فلكثرة الدّماء زاد مدَّ النّهر، كأنّ سيلاً صبَّ فيه فأحدث له رغوةً وزبداً.

٣- وقوع الطّير والسّباع على الجثث:

فإذا كثر القتل وسالت الدّماء وتناثرت الأشلاء؛ فإنّ الطّير تفرح بوقوعها على الجثث، وهذا المظهر مِمّا يمدح به القائد لِما يدلّ على قوّة بطشه وشدّة بأسه، كما قال في وقعةٍ لمحمّد بن يوسف أوقعها في الرّوم[(٢)]:

في وقعةٍ أبقى علـيهم غِبّهـا رَخَمُ الفيافي والنّسورَ وقوعـا

وقد شبّه هذا المنظرَ من قصيدةٍ أخرى بِما يشاهده الحجيجُ في أيام التّشريقِ من وقوع الطّيرِ وبِخاصّةِ النُّسورُ بكثرة على ما ذبح من الهدي؛ فقال[(٣)]:

كأنّ النُّسورَ الواقعاتِ عشـيةً على نَقَدٍ حولَ الجِمارِ مُـذبَّحِ

وكثيراً ما يوصف القائد بأنّه مشبع سباع ومضيف طيورٍ، وذلك لإكثاره القتلَ من أعدائه، وكأنّه بهذا يكرمُ السّباعَ الضّـواريَ ويضـيفُ

---

(١) ديوانه (٢/٧٣٨).

(٢) ديوانه (٢/١٢٥٦).

(٣) ديوانه (١/٤٥١) من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

الطّيورَ الحوائِمَ، كما قال البُحتُرِيّ في وصف الهيثَمِ الغنوي[١]:

قاري سباعٍ قد لَغِبْن حوائِمٍ في نقعِهِ، ومضيفِ طيرٍ حُوَّمِ

والفارس الشّجاع يمدح إذا كان قبره في بطنِ سبعٍ أو جوفِ نسرٍ، كما قال في رثائه بني حميد[٢]:

مصارِعُهُم حولَ الملا وقبورُهُم مَجَامِعُ أوصالِ النّسورِ الحوائمِ

وقد يكون هذا شماتةَ بالأعداءِ لِما يدلّ على كثرة القتلى منهم وعلى عجزهم دفنهم، كما قال[٣]:

فكفتْ منهم بطونَ سباعٍ قبروا جوفَها بطونَ لُحودِ

٤- الفرار والفارّون:

وعندما تشتدّ الحرب وتتشنّع حومتُها، تزيغُ الأبصارُ وتذهلُ العقولُ، فلا يصبر على هولها إلاّ فُحولُ الأبطالِ، فالأنفسُ تؤامرُ أصحابُها بالفرارِ وتحذّرُهُم مبغةَ الإقامةِ، وما أشدَّ حديثَ النّفسِ في مثل هذا الأوان! لأنّه لا مجال للخيار، فالنّتيجة بينةُ المعالم واضحةُ القسمات، ومِمَّن حدَّثَتْهُ نفسُهُ بذلك؛ قَطَرِيُّ بن الفجاءة الخارِجيُّ[٤].

---

(١) ديوانه (٢٠٨٣/٤).

(٢) ديوانه (١٩٦٨/٣).

(٣) ديوانه (٨٠٨/٢) من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

(٤) قَطَرِيُّ بن الفجاءة أبو نعامة، واسمه: جعونة بن مازن الكناني المازِني التَّميمي من رؤساء الأزارقة، من الخوارج من أهل قطر، كان خطيباً فارساً وشاعراً، =

حيث قال[١]:

أقولُ لها وقد طارتْ شعاعاً من الأبطالِ ويحكِ لن تُراعي
فصبراً في مجال الموتِ صبراً فما نيلُ الخلودِ بمستطاعِ

وقد صوّر لنا البُحْتُرِيّ حديثَ النّفسِ في مثل هذا المقام في بيتين؛ لكنّه حديث نفسٍ خوّارةٍ لعدوٍ من أعداء ممدوحه، وقد آذنته بالفرار كما قال[٢]:

لَمَّا تضايقَ بالزّحفين قَطْرُهُمَا فضاربٌ بغرارِ السّيفِ أو واجِ
قالتْ له النَّفْسُ:لا تألوه ما نصحت والخيلُ تخلطُ من نقعٍ بإرهاجِ
إنّ المقيم قتيلٌ لا رجوعَ له إلى الحياةِ وإنّ الهاربَ النّاجِي

ثم وصف فرار صاحب هذه النّفسِ ،وشبّه سرعته بالرّيحِ في هبوبِها، وأعانه على الفرارِ استواءُ الأرض وظلمةُ اللّيل، بقوله[٣]:

استفحل أمره زمن مصعب بن الزّبير، لَمّا ولي العراق نيابةً عن أخيه، وبقي ثلاثَ عشرةَ سنة يقاتل وسُلّمَ عليه بالخلافة، سَيَّرَ إليه الحجاجُ جيوشاً كثيرةً كان آخرها سنة (٧٨هـ)، حيث وجد مقتولاً في إحدى هذه المعارك.

انظر: الأعلام (٥/٢٠٠).

(١) الحماسة لأبي تمام (١/١٦١)، الطّبعة الأولى، منشورات جامعة الإمام، ١٤٠١هـ، الرّياض.

(٢) ديوانه (١/٤١٢-٤١٣) من قصيدةٍ يمدح بها إسحاق بن كنداج، ويصف هرب إسحاق بن أيوب.

(٣) المرجع و الصفحة نفسها.

فَمَرَّ يهوي هُوِيَّ الرّيحِ يسـعِدُهُ خَرْقٌ بسيطٌ وليـلٌ مظلـمٌ داجِ

أمّا عن جبنِ هذا الفارّ وحالته النّفسيّة، فقد صوّرها البُحْتُرِيّ بعدّة صورٍ بشعة، منها:

١- وصفه لفرار لؤلؤ حين فَرَّ من أمام مولاه أحمد بن طولون، بأنّه قد تجاوز ما استطاع من الأرضِ العريضة على غير هدى، ودون معرفة بتلك الدّيار، وإنّما هَمّه أن يمتنع بالبعد عمّا سيحصل له لو كان قريباً من القتل أو الأسر، وأحبُّ البلاد إليه ما كانت شرقاً عنه؛ لأنّها تبعده عن عدوّه وخصمه، حتّى إذا جاوزها وغدت غرباً له فزع منها وأبغضها؛ لأنّها في جهة عدوه الذي فرَّ منه، و كرر هذه الصورة في بيت آخر من القصيدة بتخصيص جزء معيّن من البلادِ وهو السّهول، فقال: إنّ هذا الفارَّ كان يحبّ السّهولَ ما دامت أمامه؛ لأنّها مِمّا تعينه على الفرار من عدوّه لسهولتها، وإمكان السّير فيها بسرعةٍ، فإذا ما جاوزها؛ فإنّها ستكون من أعدائه لقربها من عدوّه ولسهولتها على الخيل التي تطارده، ولأنّها قد تكشفه لهم، كلّ ذلك من خشيته لحاقه به، كما قال(١):

ولو لم يحـاجز لؤلـؤ بفـراره لكان لصدر الرّمحِ في لؤلؤ ثقـبُ
تخطأ عرضَ الأرضِ راكبَ وجههِ ليمنعَ منه البعدُ ما يبـذلُ القـربُ
يحبّ البلادَ وهي شرقٌ لشخصهِ ويُذْعَرُ منها وهي من فوقه غَـربُ
إذا سارسهباً عاد ظَهْراً عـدوّة وكان الصّديقَ غُدْوَةً ذلك السَّهْبُ

(١) ديوانه (١/١٢٦).

٢- وصفه لفرار أحمد بن طولون أمام جيش الموفّق، وما بلغ به من شدّة الجبن والخوف حتّى كأنّ المراحل تطوى له، فيقطعُ منها ما يقطع بأيام بيومٍ واحدٍ مثلاً، ولشدّة فزعه إن سار حنا ظهره ظنّاً منه أنّ رماح خصمه الملاحق له ستصيبه، وإذا سار أكثر من الغبار،و سار في وسطه ليحتَمِي به، ولئلاّ ترى مقاتِلُهُ، ولا يسير إلاّ في أرضٍ مستويةٍ خاليةٍ من الحجارة أو الشجر، ليسهل عليه الفرار، ولفزعه من شخوصها؛ فإنّه إذا رآها الأرض التي بها حجارة و أشجار مال عنها ظنّاً أنها خيلٌ وقفتْ له بالمرصادِ، كما قال[1]:

كما انهزَم المغرورُ من (مَرْجِ دابقٍ) وخيلُكَ في جنبي (قويق) تحاوِلُهْ
تأوب من "حَموّص"أبواب "بالس" مسيراً بفرطِ الذّعرِ تُطْوَى مراحلُهْ
يقوسُ من حدِّ الأسنة ظهرَه وقد بلَّ منها منكباهُ وكاهلُهْ
يحيط عليه جانبُ النّقعِ مَوعِثاً لكي تتغطى في العجاج مقاتِلُهْ
إذا مَرَّ بالشَّجْرَاءِ جانبَ قصدَهَا يرى أنّها أرسالُ خيلٍ تقاتِلُهْ

وقد كرّر البُحْتُرِيّ الصّورة التي يمثّلها البيت الأخير في بيت فردّ من قصيدة يمدح بها أبا جعفر الطّائيّ، ويصف فرار العجلي، وهو قوله[2]:

يسحِبُ الأرطى زها الجيشِ ومنْ تنهشُ الحيةُ يفزعُهُ الرَّسَنْ

---

(١) ديوانه (١٦٨٣/٣).

(٢) ديوانه (٢١٥٧/٤).

٣- وصفه فرار ابن جستانَ، أمام جيش أذكوتكين، أحد القادة الأتراك، بأنّه قد تعود الفرارَ في كثيرٍ من حروبه، ولطالما تمَنَّى وهو فارٌّ أن يجعلَ ما ارتفعَ من الأرض أغواراً وأديةً، ينخرطُ فيها فتخفيه عن عدوِّه، أو أن تنقلبِ به الأرضُ فيضحى ظهرها بَطْناً، فلا يُرَى أبداً، وإذا رأى أمامهُ عدداً قليلاً من الفوارسِ صدَّ عنهم، ظنّاً منه أنّهم كثيرو العددِ، وهو في سيره لا يسيرُ معتدلاً، إنّما يميلُ يمنةً ويسرةً، ظنّاً منه أنّ ذلك سينجيه من الرّماحِ المشرعةِ في ظهره حيثما وجه، كما قال(١):

ولم يَنْجُ ابن جُستانٍ لشيءٍ سوى الأقدارِ غالبتِ المنونا
وكم من وقعةٍ قد رامَ فيها ظهورَ الأرضِ يجعلُها بطونَا
يصدُّ عن الفوارسِ صدَّ قالٍ عن العشرات يَحسِبُها مئينا
يلاوذُ والأسنةُ تَدَّريه شِمالاً حيثُ وجه أو يمينا

٤- وصفه فرار قائد الرّوم في البحر أمام أحمد بن دينار؛ فإنّه ولّى هارباً على زورق خاصّ به، مستعيناً بالرّيح التِي أسعفته بهبوبِها، فصار كأنّه عبد لها، لكبرِ فضلِهَا عليه، ولِمُنّتِها التِي أسدت له حين أعتقته من الموت المحقّق، فإن كان دَفْع الموجِ ضعيفاً لا يعينُ على الإسراعِ؛ نظر إليه نظراً شَزْراً كلُّه شَرٌّ وحقدٌ، لعلّه أن يزيدَ من دفعه لزورقِهِ، ليبلِّغَهُ مَدَّ بصره، حتّى إذا تعلّق بالأرض الواسعة، فرحَ بِنجاتِه،

(١) ديوانه (٤/٢٢١٠).

بعد أن قارب الهَلَكَةَ، كما قال[١]:

وكنت ابنَ كسرى قبلَ ذاك وبعده مليّاً بأن توهي صفاةَ ابنَ قيصرِ
جَدَحَتْ له الموتَ الذّعافَ فعافَهُ وطارَ على ألواح شَطْبٍ مُسَمَّرِ
مضى وهو مولى الرّيحِ يشكرُ فَضْلَهَا عليه ومن يولَ الصّنيعةَ يشكُرِ
إذا الموجُ لم يَبْلُغْهُ إدراكَ عينه ثنَى في انحدارِ الموجِ لحظةَ أخزرِ
تلعّق بالأرضِ الكبيرةِ بعدما تَقَنَّصَهُ جرى الرّدى المُتَمَطِّرِ

٥- ومنها وصف حرارة نَفَسِ الفارّ وارتفاعه، وأنّه قد بلغ به مبلغاً عظيماً حتّى لو ابتلع حديداً أذابه، كما قال في وصف أنفاس أحد قادة الرّوم[٢]:

حتّى لو ارتشفَ الحديدَ أذابه بالوقدِ من أنفاسِهِ الصُّعَدَاءِ

٦- ومنها تشبيهه لأحد الفارّين أمام جيشِ أبي محمّد الثّغريّ بأنّ الخوف قد بلغ منه مبلغاً حتّى لو أنّه عَيْنٌ لم تطرِفْ ولم تتحرّك أهدابُها، فقد غدا كالجثّةِ الهامدةِ لا حراك به، ولم يبق فيه روحاً كما قال[٣]:

بَهَتَتْهُ أهوالُ الوغَى فلو انّه عينٌ لشدّةِ رعْبِهِ لَمْ تَطْرِفِ

ذاك عن فرار الأفراد.

(١) ديوانه (٢/٩٨٥).
(٢) ديوانه (١/١٢).
(٣) ديوانه (٣/١٤١٦).

أمّا عن فرار الجيش فمنه قوله في انهزام جيش أبي الصَّهباء لَمّا قتل(١):

فرّ عنْهُ جيشه حيث الظّبا شرعٌ تَفْرِي طلاهُمْ وتَقُدْ

من قَرَيَّاتِ "بلاسٍ" ينتهى بِهِمُ الرّكض إلى حيطانِ (لُدْ)

فكلّ وقتهم ركض صبروا فيه على طِيٍّ المراحل البعيدة، وخيلُ ممدوحه تطارِدُهُمْ وتقتلُ منهم، فغدوا صرعى في كلّ صُقْعِ.

كما قال في مطاردة خيلِ مفلحٍ لبعض فلولِ الأعداءِ المنهزمة(٢):

وقد طارَدَتْهُم بالثّديَين خيلُه فباتَ حماةُ الكفرِ صرعَى طِرادِها

ومن صور فرار الجيش تشبيه البُحْتُرِيّ لبعض الأعداءِ، وقد فرّوا مسلمينَ بنتَ قائدهم للأعداء بالسّحاب تجلى عن قمرٍ ساطع الضّياء، كما قال(٣):

كأنّهُمْ إذا أسلموا بنتَ شيخِهِمْ سحابٌ تجلَى عن سنا قمرٍ بدرِ

أمّا آثار هذا الفرارِ على نفوسِ الفارِّين، فهي الخزيُ والعارُ والذّلُّ والهوانُ الذي يحلقهم حيثما حلّوا وارتحلوا، وكذا الخوفُ من تعقبِ من فرّوا منه؛ كقوله مُهنّئاً الموفق بالله بمآل أحمد بن طولون، وبيان حالته النّفسية، حينما فَرَّ من أمامِه(٤):

---

(١) ديوانه (٢/٦٦٩).

(٢) ديوانه (٢/٦٧٩).

(٣) ديوانه (٢/١٠٨٤).

(٤) ديوانه (٣/١٦٨٤).

ليهنِكَ أن أمسى بدارِ خزَايَــةٍ وأن باتَ مشغولاً وخوفُكَ شاغِلُهْ

أو كقوله في بيان نفسية أحدِ ملوكِ الرّومِ الفارِّين أمــام يوســف الثّغرِيّ(١):

أَئكَلْتَــهُ أشــياعه وتركتَــهْ للموت مرتقبــاً صــباحَ مســاءِ

- الأسرى والسَّبْيُ والسّجون:

أمّا حديثه عن الأسرى فهو حديث مقتضبٌ بيد أنّه أشــار إلى أنّ أسرى ممدوحه صنفان: ملوكٌ وجندٌ، فأمّا الملوك فهو أشــرف الصّــنفين وأسرُهُم يدلّ على قوّة القائدِ الذي أسرهم، وبذلك مدح الهيثم الغنــوِيّ، فقال(٢):

وأزارَ أرضَ الرّومِ أطرافَ الظّبــا حتّى أقامَ ملوكَها في المَقْسَــمِ

وأمّا الجندُ فيؤتَى بهم مقيّدين قد شدَّتْ أيديهم إلى أذقانِهم كما قال في حديثه عن مآل الجند الذين خرجوا على الخليفة المتوكّل(٣):

جاءتك أسرى في الحديدِ أذلّــةٍ مشدودةَ الأيدي إلى الأذقــانِ

(١) ديوانه (١/١٢).

(٢) ديوانه (٤/٢٠٨٢).

(٣) ديوانه (٤/٢٢٥٤).

وقد توضع في أعناقهم مُثَقَّلاتٌ من الحديدِ تعوقهم عن الحركةِ، وصنعُ لهم من الحديدِ قيودٌ للأيدي أشبهت الأسورةَ، وأخرى للأرجالِ أشبهت الخلاخلَ، كما قال[1]:

تَضَمَّنَهُ ثُقْلُ الحديدِ فأُحْكِمَتْ خلاخِلُهُ عن صوغِهِ وأساوِرهْ

ومصيرُ هؤلاء المأسورين أحدُ أمرين: القتلُ أو السّجنُ.

فأمّا القتلُ: فيدلُّ عليه قوله عن مصير أعداء ممدوح[2]:

شَرِقُوا بالحديدِ إمّا سيوفٌ أثخنتْ فيهِمُ وإمّا قيودُ
يرقبُ القائمُ المؤجَّلُ منهمْ ما ابتداه المعجَّلُ المحصودُ

أو قوله[3]:

فقتيلٌ تحت السّنانِكِ يدمى وأسيرٌ يراقبُ القتلَ عانِ

وأمّا السّجن: فحالهم فيه أبأس من حال القتلى، فالقتلى قد ارتاحوا من العذاب والقهر والهوان، بيد أنّ هؤلاء يموتون موتاً بطيئاً في سجونِ كاللّحودِ ،كما قال في بيانِ مصيرِ أعداءِ ممدوحه[4]:

فهم فرقتانِ بين قتيلٍ قُنِصَتْ نفسُهُ بحدّ الحديدِ
وأسيرٍ غدا له السّجنُ لحداً فهو حَيٌّ في حالةِ الملوحدِ

---

(١) ديوانه (٣/٨٧٩).

(٢) ديوانه (١/٥٠٤).

(٣) ديوانه (٤/٢٢٧٣).

(٤) ديوانه (٢/٨٠٨)، من قصيدة يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

هذا،وقد وصف البُحْتُرِيّ أحدَ السّجونِ بأنّه يقع تحتَ الأرضِ، ليس فيه فُرَجٌ يدخل منها ضوء الشّمس أو الهواءِ،وحين يطلعُ عليهم النّهار يتطلّعون إلى السّماء، فلا يرون إلاّ سقفاً مربّعاً فوقهم، وظلمةٌ تحجبُ عنهم الشّمسَ المشرقةَ وهم في سجنهم قابعونَ، وقد تَمنّوا أنّهم قتلوا؛ لأنّهم وإن كانوا على الأرضِ إلاّ أنّهم غائبون عن الأنظار، فلا أحدَ يستطيعُ أن يَصِلَ إليهم، ولا سيلةَ إلاّ الكتُبَ والرّسائلَ، وإنّي لأظنّها محالةٌ أيضاً، كما قال: [١]

ذاك ابنُ عمروٍ أميرُ المؤمنين كما ... قال الخوارجُ إذا ضلّوا وإذ جهلوا
سما له حَابِلَ الأسادِ في لُمَةٍ ... من المنايا فأمسى وهو محتَبَلُ
حالي الذّراعين والسّاقين لو صدقت ... له المَنَى لتمنَّى أنّه عُطُل
من تحتِ مُطْبَقِ بابِ الشّامِ في نفرٍ ... أسرى يودون وُدّاً أنّهم قتلوا
غابوا عن الأرض أنأى غيبةٍ وهُمُ ... فيها فلا وصلُ إلاّ الكُتُبُ والرُّسُلُ
تغدوا السّماء فتلقاهم مرْبعةٌ ... وتُقْطَعُ الشّمسُ عنهم حين تتّصلُ
ذمّوا محمّداً المحمودَ إذ نشِبوا ... في مُصْمَتٍ ليس في أرجائه خَلَل

وأمّا حديثه عن السّبْي فقد ذكر البُحْتُرِيّ السّبايا، وأشادَ بجمالهنّ ومن ذلك قوله في مدح طُغْجَ بن جفٍّ مولَى خمارويه[٢]:

وأُصْفِيَ من برغوثَ (سبْي) كأنّما ... عقابيلُ أسرابِ الظّباء عقابلُهْ

(١) ديوانه (٣/١٧٥٩-١٧٦٠).

(٢) ديوانه (٣/١٨٧٥).

فهنّ مِمَّن إذا نظر إليهنّ اللّبيبُ اختلبن لُبّه لما علق فؤاده من جمالهنّ، وقد عدّ بعض أوصافهنّ من قصيدة أخرى، فذكر أنّ سبايا يوسف بن محمّد حسانُ الوجوهِ حورُ العينِ حوّ الشّفاه، مؤنساتٌ يبعثنَ غيره نساء جندهِ، وهنّ لكثرتهنّ قد وكل بهنّ جنده لسوقهنّ إلى المقسم حتّى ينال كلّ منهم سهمَهُ، كما قال(١):

وجلبتَ الحسانَ حُـوّاً وحـوراً آنسات حتّى أغـرتَ النّسـاءَ

وللبُحتُرِيّ قصيدةٌ دَافَعَ فيها عن ابن المدير لما أسرَ، وكان من قادة إحدى الغزوات في حرب الزّنجِ ودفاعه عنه بحجّة أنّه لما كثر الأعداء لم يُوَلِّهِم دبرَهُ، وإنّما صبر على جلادهم حتّى أسروه، بعد أن ضربوه على وجهه ضربةً قويّة قال فيها(٢):

من مخبري بـابن المـدير والـوغَى تزجِي أواخرَ قسطَلٍ مِنْجَابِ
غضبانَ تجلى عـن وقـائعِ سيفهِ عكراتُ حُمْسٍ في الحديدِ غضابِ
خِرْقٍ تَغَيَّبَ ناصـروه وأحضـرت أعداؤه واليـوم يـومَ غِـلابِ
آساه نصلُ السّيفِ لا صدرُ الفتَـى حَرِجاً ولا صدرُ الحسامِ بنابِ
لـو أنّـه اسـتام الحيـاة لنفسـه وجدَ النّجاةَ رخيصةَ الأسبابِ
ولـو أسـعدته خيلُـهُ لتتابعـت آلاف قتلـى بـذةُ الأسلابِ
إنّ المشـيَّع لا يُبِيْـرُ عـدوَّهُ حتّى يكونَ مشيعَ الأصحابِ

(١) ديوانه (١/١٨).
(٢) ديوانه (١/٢٩٠-٢٩٢).

نصبتَ جينَك للسّـيوفِ حفيظـةٌ جرَّتْ عليـك نفاسـةَ الهـرابِ
وأبيـتَ إعطـاءَ الدّنيـة دونَهُـمْ إنّ الأبِـيّ لأنْ يُعَيَّـرَ آبِ
ومبينـةٍ شـهرِ المُنَـازِلُ وسمهـا والخيلَ تكبو في العجاجِ الكـابي
كانت بوجهكَ دون عرضكَ إذ رأوا أنّ الوجوهَ تصـانُ بالأحسـابِ

ثم ذكر كيف تخلصَ من الأسرِ بالهربِ من سجنه عن طريق سِرْبِ إلى بيت مجاور للبيت الذي سجن فيه[1]:

لو كان غيرُك كان منخزِلَ القوى عمّا مضى باك ضيِّق التّلبـابِ
نامَ المَضَلَّلُ عن سراكَ ولم يخـفْ سِنَةِ الرَّقيبِ ونشـوةَ البـوابِ
ورأى بأنّ البابَ مذهبُك الـذي يخشى، وهمّك كان غيرَ البابِ
فركبتها هولاً متّى تُخْبِـرْ بهـا يَقُلِ الجبانُ: أتيتَ غيرَ صـوابِ
ما راعهم إلاّ امتراقـك مصـلتاً من مثل بُرْدِ الأرقمِ المُنْسَـابِ
تحمى أغيلمةً وطائشـةً الخطـى تصل التّلفتَ خشيةَ الطُّـلاّبِ
ترتاع من وَهَل وتأنسُ أن تـرى قمراً يَنُـوءُ بِبَاتِـكِ قَضّـابِ

- **وصف المصلوبين:**

وصف البُحتُريّ عدداً ممَّن صلبَ في عهده، فأجاد في وصفهم، وله في ذلك مقاطع فَذَّة، فيها من التّصوير والخيال ما يدلّ على سعة خيالـة وبديع تصويره.

---

(١) المرجع و الصفحة نفسها.

وأكثر من يصلبُ قادةُ ورؤساء مِمَّن خرجوا على الدّولة، ممَّن يكون في صلبهم ردعٌ لغيرهم عن العيثِ والفسادِ، وشفاءٌ لما في صدور النّاس من غلٍّ وحقد عليهم، لكونهم قد أكثروا من قتل الأبرياء وسفكِ دمائهم، وترويعِ الآمنين، وتخريب الدّيار وسبْي النّساء والأطفال، فإذا قبض عليه حيّاً أحيطَ بحراسةِ مشدّدةٍ وأرسل إلى دار الخلافة بأقصى سرعةٍ، كما قال(١):

وما صليبُ بن آشوطٍ بأمنع من | صليبِ برجانَ إذ خلوه وانجفلوا
تحمله البُرْدُ من أقصى الثّغورِ إلى | أدنَى العراق سراعاً ريثُها عجلُ
تهفو به رايةُ صفراءَ تَحسَبُهَا | أزديةً صبغتها الهُوْن والشَّلَلُ

أمّا كيفية الصّلب فإنّها تكون بوضع المصلوب مادّاً يديه، بعد تثبيتِ أعضائه على عود مركبٍ فوق عودٍ، كما قال(٢):

كم عزيزٍ أباده، فغدا راكـ | ـب عُودٍ مركبٍ فوق عودِ
مطلقٍ لم تَحُزْه ساحةُ حبسٍ | حبسُهُ في شريطةِ الممدودِ
أسلمته إلى الرّقادِ رِجالٌ | لم يكونوا عن وترِهِمْ برقودِ

وهو في هذه الحالة وعلى هذه الهيئة كالشّاعر إذا استرخى مفكّراً في بيتٍ يريد صياغته، فيظلّ يبحث عن معنًى شرد عنه(٣):

فهو كالشّاعر استبدت به الفكـ | ـرةُ فيما أَضَلّ بعد الوجودِ

---

(١) ديوانه (١٧٥٨/٣) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد.

(٢) ديوانه (٨١٠/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

(٣) ديوانه (٨١٠/٢).

أو كالطّير وقد ارتفع الفضاء فأمن السّقوط فأراح جناحيه بمـدّهما وعدم تحريكهما:

وكأنّ امتدادَ كَفَّيهِ فـوق الجـذ ع في مَحْفِلِ الرّدَى المشـهودِ
طائرٌ مَـدَّ مسـتريحاً جناحيـه استراحاتِ متعبٍ مكـدودِ[١]

وإذا رأيته فوق الجذع ظننته خطيباً مصقعاً، فإذا أُنْزل مـن عـوده اختقرته واستهنت به:

أخطب الخلقِ راجلاً فإذا رُجِّـلَ خاطَبتَ منه عـينَ البليـدِ[٢]

وقد يشبّه في هيئته بالحرباءِ، وقد انتصبت على عـودٍ أو حجـرٍ، وعرّضت نفسها للشّمس دون خشيةٍ من حرارها، كما قال[٣]:

مستشرقاً للشّمس منتصِـباً لهـا في أخرياتِ الجذعِ كالحِرْبـاءِ

كما يشبّه بالعلم لارتفاعه عن الأرض واشتهاره، فكلّ النّاس يرونه كما في صلب بابك مخاطباً أبا سعيد[٤]:

أخليتَ منه البَذَّ وهـي قـرارُهُ ونصـبتَهُ علمـاً بسـامراءِ

وكان الولاة إذا صلبوا جماعةً شَهَّروا بكبيرهم، فوضع على خشـبةٍ أعلى منهم، وقد وصف البُحْتُرِيّ جماعةً من النّصارى صلبوا على درجاتٍ

(١) ديوانه (٨١١/٢).
(٢) ديوانه (٨١١/٢).
(٣) ديوانه (١٠/١).
(٤) ديوانه (١٠/١).

متفاوتةٍ من حيث الارتفاع والانخفاض، فشبّه أعلاهم وهو زعيمهم بالبَنْد، وهو العلم الكبير في المعركة، وشبّه إحاطتهم به بإحاطة الجند بها العلم؛ فقال(١):

كأنّهم ركبوا للحربِ وَهْوَ لَهُمْ بَنْدٌ فما لُفَّ مذ أوفى لا نَزلوا

تفاوتوا بين مرفوعٍ ومنخفضٍ على مراتبَ ما قالوا وما فعلوا

وليس من الضّروريّ أن تصلب الجثّة مع الرّأس، فقد يكفي صلب الرّأس وهو خير ما يحرص عليه، وقد لا يتمكّنون من الحصول على جثّةٍ كاملةٍ للعدوّ المراد صلبه، إمّا لتمزّقها في الميدان وتلفها، أو لبعد موقع المعركة عن مقرّ الخلافة أو المدينة التي ينوى صلبه فيها، فتتلف الجثّة وتتعفن قبل وصلوها، وممّن نصب رأسه دون جثّته صاحب الزّنج، وقد وصف البُحْتُرِيّ رأسه بعد صلبه بأشنع وصفٍ، أبان فيه عبوس وجهه وإطراق عينيه مع ميلان في وجهه عمَّن ينظر إليه؛ كأنّ به غيظاً وحنقاً عليهم، وأشار إلى فرح النّاس بمآله، وتفديتهم بآبائهم من صنع به ذلك، وأشار إلى حسرته لأنهم لم يتمكّنوا من إيجاد جثّةٍ كاملةٍ له؛ فقال مخاطِباً للموفّق بالله(٢):

وكان شفاءً صلبُهُ لو تألَّفَتْ له جثّةٌ يُرْضِي بها العينَ صالِبُهْ

تعجّلَ عنه رأسُهُ وتخلَّفَتْ لِطِيَّتِها أو صالُهُ ومناكِبُهْ

(١) ديوانه (١٧٥٩/٣).

(٢) ديوانه (٢٢٣/١).

فأصبح منصوباً على النّاس يفتدى بآباءِ مَن أوفى على النّاس ناصِبُهْ

يجاهم رائيـه بـإطراق عـابسٍ شهيٌّ إليهم سخطُهُ وتغاضُـبُهْ

ينكـبُ في إشـراقه وهـو آزمٌ أُزُومَ الخليعِ أزورَّ عمَّن يعاتِبُـهْ

ومن الأوصاف التِي عدّها البُحْتُرِيّ للمصلوبين:

١- تغيّر ألوان شعورهم لشدّة الحرارة من الحمرة إلى السّواد لسيلان ما ذاب من شحومهم عليها، كما قال(١):

ردّ الهجيرُ لحاهُم بعد شعلتِهَا سُوداً فعادوا شباباً بعـدما اكتـهلوا

٢- فرح الطّير بنصيبِهِمْ وحسدِ السّباع لهم في ذلك لبعدهم عنها وعـدم قدرتها على نيلهم، كما قال(٢):

يحسدُ الطّيرَ فيه ضَـبْعُ البـوادِي وهو في غير حالـةِ المحسـودِ

ولكنّه في بيتٍ آخر أشار إلى أنّ خوف المصلوب قبل صـلبه مـن ممدوح الشّاعر لم يبق فيه طعماً لطير أو غيره؛ فقال في وصف بابك(٣):

لم يبق منه خوف بأسِك مطمعاً للطّـير في عَـودٍ ولا إبـداءِ

٣- وصفه لظلّ المصلوب إذا ارتفعت الشّمس بالقِصر في قوله(٤):

وله صـاحب يخاطـبُ عنـه من نأى عنه فوقَ شبرِ الوليدِ

(١) ديوانه (١٧٥٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد ويصف صلبه لقوم موسى ابن زراره الأرمينيّين.

(٢) ديوانه (٨١٠/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

(٣) ديوانه (١٠/١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٤) ديوانه (٨١١/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.

٤- ومنها فقدانه النّاصر والمعين، وألاّ مدافع عنه، لا أبَ يحميــه، ولا أمَّ تحضنه، غير ما سال منه من حميمٍ، فهو أشدّ حماية له من الأبِ؛ لأنّ خطره أعظم، فالقَطْرة منه كفيلة بهلاك أشجع الفرسان، فهو سُــمٌّ ناقعٌ، كما قال[1]:

ما لــه والــدٌ يُعَــدُّ ســوى المــا ءِ، ولا أمَّ غيرَ حــرٍّ الصّــعيدِ
وعلى ضعف جمسه تفتك القطـــ ـــرة من فيه بالشّجاع النّجيدِ

أمّا ما يعقب المعركة من عفوٍ عن المشاغبين في بعــض الحــروب الدّاخلية مِمَّن لم يستشر شرّهم؛ كقوله لأبي سعيد[2]:

ونفستَ عن نفس الظّلومِ وقد رأت منيتها بين السّيوفِ اللّواعــبِ
مننــتَ عليــه إذ تقلبــتَ الظُّبَــا عليه و(زَيْدٌ) من قتيلٍ وهــاربِ
وتعتعتَ عنه السّيفَ فارتدَّ نَصْــلُه كَلِيْلَ الشّذّ عنه حرونَ المضاربِ

ومنه قوله في استسلام موسى بن زرارة الرّومِي وعفــو أبي ســعيد عنه[3]:

وأصعد موسى في السّماء فلم يجدْ بها مهرباً منه فأقبــل نــازلا
ونَجَّاه من وافي الحمائِــلِ أنَّــهُ تلقاكَ غضباناً فألقى الحمائلا
أحطتَ به قهراً فلمّات ملكتَــهُ أحطتَ به منّاً عليــه ونــائلا

(١) ديوانه (٨١١/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.
(٢) ديوانه (١٨٠/١-١٨١).
(٣) ديوانه (١٦٠٣/٣).

وقد يطلب هو العفو عن بعض هؤلاء؛ كقوله للمتوكّل(١):

لك في بنِي غُنْم بن تَغْلبِ نعمـــةٌ فهلمَ أخرى في بنِي شـــيبانِ

بيد أنّه قد يَتَمَنٌّ في بعض قصائده على مَن عفا الخليفة عنهم محـــذّراً لهم مغبّة مقابلة عفوه بالمكر والخيانة مرّةً أخرى، وأن لا يغترّوا بسماحته وكرمه، فمعاقبته إن أحدثوا ذلك ستكون صارمةً؛ كقوله لبنِي تغلب حين عفا عنهم أبو سعيد(٢):

أسال لكم عفواً رأيـــتم ذنـــوبَكُم غُثاءً عليه وهو(٣) ملءُ المـــذانبِ
ولم يفترضْ منكم فرائضَ أهـــدفَتْ لبطشةِ أظفـــارٍ لـــه ومخالـــبِ
وقد كان فيما كان سُخْطاً لساخطٍ وهَيْجاً لمهتاجٍ وعتبـــاً لعاتـــبِ
وفي عفوه لـــو تعلمـــون عقوبـــةٌ تَقَعْقَعُ في الأعراضِ إن لم يعاقبِ
ولو داسكم في الخيل دوسةَ مغضبٍ لِطِرْتُمْ غباراً فوقَ خُرسِ الكتائبِ

أثر الانتصار أو الهزيمة على نفوس المحاربين:

هذا، ولنشوة الانتصار أو الغلبة والقضاء على الأعداء دَوِيٌّ يظهـــر صداه في الشّعر، وخير دليلٍ عليه ما بين أيدينا من أمثال هذه القصـــائد، كما يظهرأثره وصداه في استعادة الدّولة مكانتها وخشية الأعـــداء لهـــا ولرجالاتها، كقوله في مدح الموفّـــق بـــالله بعـــد قضـــائه علـــى فِتْنَـــةِ

(١) ديوانه (٤/٢٢٥٤).

(٢) ديوانه (١/١٨٢).

(٣) هكذا في الديوان ،و أظنه تصحيف عن "هي"،لأنها تتناسب و الذنوب، أما الضمير هنا يتناسب والعفو، و الله أعلم. قلته بعد المناقشة.

الزِّنْجِ(١):

فلم يَبْقَ في الآفاقِ خالعُ رِبْقَـــةٍ من الدِّين إلاّ فادحاتٍ مصـــائبُهْ
جبابرةُ الأرضِ استكانتْ لضربةٍ أرت قيِّم النّهج الذي ذاق ناكبُهْ
وكان على أشرافِ كلّ ثنيـــةٍ سنا فتنة يدعو إلى الغَـــيِّ ثاقبُــهْ
فعاد بنو العبّاس عِـــمُّ محمّـــدٍ وشاهدُ عزِّ النّاسِ فيهم وغائبُــهْ
يبيتون والسّلطانُ شاكٍ سلاحُهُ بعقوَتِهِمْ والموتُ سَـــودٌ ذوائبُــهْ

ومثله قوله لأبي سعيد(٢):

دفعتَ عن الإسلام ما لو يصـــيبُهُ لما زالَ شخصاً بعدها متضـــائلا

وقد تتغيّر حال الأعداء فيصلحون وتستقيم أمورهم، فيؤمن شرُّهم؛ كقوله في استقامة حال قوم موسى بن زرارة خوفاً من أبي سعيد(٣):

وَزَرَّ فروجَ المرهفاتِ على بنِـــي زُرارَةَ فاختاروا عليها السّلاســـلا
فأصلح منهم كلَّ ما كان فاسداً وقَوَّمَ منهُمْ كلّ ما كـــان مـــائلاً

ومثله قوله لمالك بن طوق وإشادته بقضائه على الفتن والقلاقل(٤):

وقائعٌ وَسَمَتْ أنفَ الشّقاقِ وقد عاشَ الشّقاق زماناً غير مؤتَسمِ
كأنّما كان في عرنينِـــهِ شَـــمَمٌ فعادَ أجدعَ بعد الطّولِ والشَّمَمِ

---

(١) ديوانه (٢٢٣/١).
(٢) ديوانه (١٦٠٤/٣).
(٣) ديوانه (١٦٠٣/٣).
(٤) ديوانه (٢١٣٠/٤).

كما أنّ للهزيمة أثراً على نفوس المنهزمين، يورثهم النّدم والحزن على ما بدر منهم من شقاقٍ، هذا إذا تُركت لهم نفوسٌ تشعر بالنّدم، ولم يخيّم عليها الذّلّ والهوان، كقوله في مدح مالك بن طوق وبيان نتائج حروبه لبعض أعدائه(١):

أورثتَهُم ندماً عن غِبٍّ ما فعلوا إن كنت أبقيت فيهم موضعَ النَّدمِ

- **بعث البشرى بالنّصر إلى الخليفة:**

ذكر البُحتُرِيّ وصولَ أخبار انتصارات جند الخليفة من شتّى الآفاق عن طريقين:

١- عن طريق البريد، وهم قوم أعدّوا لنقل الأخبار من بلدٍ إلى آخر، ومنهم: مَن يخصّص لنقل الأخبار بين الولاة ومقرّ الخلافة عن طريق الخيل والإبل، فقد قال البُحتُرِيّ(٢):

تتابعت الفتوحُ وهنَّ شتّى الـ أماكنِ في العدى شتّى الفُتُونِ

فما تنفكُّ بشرى عن تردي عدوٌّ خاضعٍ لك مستكينِ

وقال(٣):

لقد جاء البريدُ يَنُثُّ قولاً شهِيَّ اللّفظِ مفهومَ المعاني

إذا الخبرُ استخفّكَ من بعيدٍ نثاه، فكيف ظنُّكَ بالعيانِ

(١) ديوانه (٤/٢١٣٠).

(٢) ديوانه (٤/٢٢٦٧)، من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٣) ديوانه (٤/٢٢٧٧-٢٢٧٨)، من قصيدةٍ يمدح بها المعتزذ بالله.

أُبيــــدَ المـــــارقونَ ومـــــزقْتَهُمْ سيوفُ اللهِ من ثـــاوٍ وعـــانِي

٢- عن طريق الحمام الزّاجل وهو حمام مدرَّب على نقل الرّسائل مـــن مكانٍ إلى آخر؛ فقد قال البُحْتُرِيّ(١):

ففتوحٌ يَقْصُصْـــنَ في كـــلّ يـــومٍ شأنَ قاصٍ من الأعادِي ودانِي

كلُّ رَكّاضةٍ من البُرْدِ يغـــدو الـــرّ م يـــشُ أولَى بها مـــن العنـــوانِ

قد أتانا البشير عـــن خـــبرٍ (الخـــا م بور) بالصّدقِ ظاهراً والبيـــانِ

وقال(٢):

توالى سوادُ الرِّيشِ من عندِ صالحٍ إليـــك بأخبـــارٍ يَسُـــرُّ قُـــدُومُهَا

محلّقةً ينبي عن النّصـــرِ نطْقُهَـــا وقبلَكَ ما قد كان طـــالَ وجومُهَـــا

يخبر عن تلـــك الخـــوارجِ أنّـــه هوى مكرُها تحت السّيوفِ عظيمُها

وإلى هنا نأتي إلى نهاية الحديث عن موضوعات شعر الحرب عـــن البُحْتُرِيّ.

(١) ديوانه (٢٢٧٢/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٢) ديوانه (٢٠٢٠/٣-٢٠٢١)، من قصيدةٍ يمدح بها المهتدِي بالله.

وصالح بن وصيف أحد كبار القادة في عهد المهتدي بالله، قتله المعتمد علـــى الله.

الفصل الثّانِي:
موضوعات شعر الحرب عند المُتَنَبِّي

- وصف القائد.
- وصف الجند.
- الإعداد للمعركة.
- التّحرّك إلى ميدان القتال.
- في ميدان القتال.
- في أعقاب المعركة.

تَمهيدٌ

من يقرأ شعر أبِي الطّيِّب يرى فيه صوراً حيّةً لمعارك عاشها، خاضّها بسنانه ووصفها بلسانه، وقد أشار إلى خوضه هذه الحروب، والسّير بين الجحفلين مبرهناً بذلك على شجاعته[1]:

ومرهفٍ سرتُ بين الجحفلين به حتّى ضربتُ وموجُ الموتِ يلتطمُ
فالخيلُ واللّيلُ والبيداء تعرفُنِي والسّيفُ والرّمحُ والقرطاسُ والقلمُ

وقوله[2]:

طوالُ الرّدينياتِ يقصِفُها دمِي وبيضُ السّريجياتِ يقطعُها لحمِي

وهو مقدامٌ في حروبه كما يدَّعِي[3]:

محرمةٌ أكفالُ خيلِي على القنا محلّلةٌ لَبّاتُها والقلائدُ
وأوردُ نفسي والمهندُ في يدي مواردَ لا يُصْدِرنْ من لا يجالِدُ

وقوله[4]:

يَحَلُّ القنا يومُ الطّعانِ بعقوتِي فأَحْرِمُهُ عرضِي وأطعمه جلدِي

(١) ديوانه (٤/٨٥) من قصيدةٍ يعاتب بها سيفَ الدّولة.
(٢) ديوانه (٤/١٧٠).
(٣) ديوانه (١/٣٩٣-٣٩٤).
(٤) ديوانه (٢/١٦٣).

وشعر المُتَنَبِّي مليء بوصف المعارِك قائدِهَا، وفرسانِهَا، وعدِّتــهَا وعتادِهَا، وأرضِهَا، وسمائِهَا، نصرِ مَمْدُوحِهِ وهَزِيْمَــةِ أعدئــه، غنائمِــه وخسائرِ أعدائِه، هربِهِم ومُلاَحَقَتُهُ لَهُم.

وأكثر شعر الحرب لديه في سيف الدّولة بن حمدانَ؛ إذ وصفه كقائد فذٍّ، ووصفَ حروبَهُ الرّوميَّةَ والدّاخليَّةَ، ورافقه في أكثرها، ومــن ذلــك قوله[1]:

نُزُورُ دياراً ما نحبُّ لها مغــنى ونسألُ فيها غيرَ ساكنها الأذنا
نقودُ إليها الآخذاتِ لنا المــدى عليها الكماةُ المحسنونَ بها الظّنا

ثم يليه شعره في بدر بن عمّار الأسدي، وأبي العشائر الحمداني، فقد وصفهما كقائدين ووصف حروبَهُما.

والواقع أنّه لم ينتقلِ إلى مدح سيفِ الدّولة إلاّ بعــد أن نَضِــجَتْ شاعريَّتُهُ من جرّاءِ مدحه لهما؛ فإنّهما كانا قائدين محاربين.

هذا، ولأبي الطّيّب شعرٌ حربيٌّ في غير هؤلاء الثّلاثة، لكنّه في أغلبه من باب تخيّلات الشّاعر لشجاعة مَن يمدحه، لا باب الواقع والحقيقة من مثل مدحه للقاضي التّنوخِيّ الذي قال فيه[2]:

إذا بيَّت الأعداءَ كان استماعُهُم صريرَ العوالي قبلَ قعقعةِ اللُّجْمِ
مُذِلُّ الأعزاءِ المعــزُّ وإن يــئِنْ به يتمهم، فالموتم الجابرُ اليُــتْمِ

---

(١) ديوانه (٤/٢٩٩).

(٢) ديوانه (٤/١٧٢-١٧٣).

وإن تمسِ داءً في القلوبِ قناتُــهُ فَمُمسْكها منه الشّفاءُ من العُدمِ
مُقلَّدُ طاغِي الشّفرتينِ محكَّــمٌ على الهامِ إلاّ أنّه جائرُ الحكــمِ

وفيما يلي عرضٌ بالشّاهد والمثال لكلّ خطوةٍ من خطوات الحرب، وما يتّصل بها مِمّا ورد في شعر أَبِي الطَّيِّب:

أوّلاً: القائد والجند

١- القائد:

القائدُ قُطْبُ رحَى المعركةِ الذي به تدور، فهو المخطِّطُ، وهو المقدَّمُ الذي يقتدى به الجندُ، وقد أبرز المُتَنَبِّي أشهر صفاتِ هذا القائد:

والغريب أنّه لم يركّز إلاّ على الصّفات الخُلُقيّة و لم ينظر إلى الصّفات الخَلْقيّة، كطولِ القامة وبهاءِ الطّلعة وجمال الوجه، وعراقة النّسب.

ومن أشهر الصّفات الخُلُقيّة التِي أبرزها ما يلي:

١- الكرم:

من صفاتِ القائدِ العربيِّ الكرمُ، فلا يكونُ شجاعاً مَن لا يكونُ كريماً، ولذا؛ فهم يقرنونون بينهما، ويروون أنّ الشّجاعة صنوُ الكرمِ، وقد أَلَحَّ المُتَنَبِّي على وصفِ قادته بهذه الصّفة، وقد قرن بينه وبين الشّجاعة كثيراً؛ كقوله(١):

ودَعَوهُ من فرطِ السّخاءِ مُبذراً ... ودعوهُ من غَضْبِ النّفوسِ الغاضبا
هذا الذي أفنَى النّضار مواهباً ... وعِداهُ قتلاً والزّمانَ تجاربا

وهو فتىً أمواله قصيرةُ الأعمار، فما أن تحييها له الصّوارم، والقنا حتّى يجلبها إليه من الأعداء إلاّ ويفنيها بكرمه، وبشره وحسن استقباله:

(١) ديوانه (٢٥٦/١)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن منصور الحاجب.

وتحيي له المالَ الصّوارمُ والقنـــا ويقتُلُ ما تحيي التّبَسُّمُ والجِـــدا[(١)]

ومن ذلك قوله[(٢)]:

عُمْرُ العدوِّ إذا لاقاه في رَهَــجٍ أقلُّ من عمر ما يحوى إذا وهبـــا

فهو ما أن يصله المال إلاّ ويفرقه بين عفاته.

وهو كثير الإنفاق لا يرضى بأن تمتليء خزائنُهُ[(٣)]:

مَلِـــكُ إذا امـــتلأتْ خزائِنُـــهُ أذاقها طعـــمَ ثُكـــلِ الأمِّ للولـــدِ

وقوله[(٤)]:

مرجوُّ منفعة، مخـــوفُ أذبَّـــة مغبوقُ كأسِ محامـــدٍ مصـــبوحُ

حنقٌ على بدرِ اللّجينِ وما أتَتْ بإساءة وعن المســـيءِ صـــفوحُ

لو فُرِّقَ الكرمُ المفـــرِّقُ مالَـــهُ في النّاس لم يكُ في الزّمانِ سَخِيُّ

٢- الشّجاعة:

سبق القولُ بأنّ الشّجاعة صنو الكرم وكثيراً مـــا يقـــرب بينـــهما الشّاعر، ومن ذلك قوله[(٥)]:

(١) ديوانه (٤/٢)، من قصيدة يمدح بها سيف الدّولة.

(٢) ديوانه (٢٤٢/١)، يمدح المغيث العجلي.

(٣) ديوانه (٧٢/٢)، يمدح أبا عبادة بن يحَيى البُحْتُرِيّ.

(٤) ديوانه (٣٧٤/١)، يمدح مساور بن محمّد الرّومِيّ.

(٥) ديوانه (٢٥٣/١)، يمدح عليّ بن منصور الحاجب.

ملكٌ سـنانُ قناتـهِ وبنانـهِ يَتَبَارَيَانِ دماً وعَرْفـاً سـاكِبا

وقد يجعل من هذا القرانِ تقسيماً بديعاً؛ كقوله(١):

إنّمـا بـدرٌ رزايـا وعطايـا ومنايـا وطعـانٌ وضـرابْ

ما يجيل الطّـرف إلاّ حَمْدتْـهُ جهدها الأيدي وذمته الرّقـابْ

وشجاعة ممدوحه شجاعةٌ شاع ذكرها، حتّى إنّ الجبان إذا سمع هذا الذّكر ترك الجبنَ(٢):

لأبي الحسينِ جَدَىً يضيقُ وعاؤه عنه ولو كان الوعـاءُ الأزمُنـا

وشجاعةٌ أغناه عنـها ذكرُهـا ونهَى الجبانَ حديثُها أن يجْـبُنا

وهي شجاعةٌ لا حدود لها؛ لأنّ ممدوحه لو أتَى بنهايتها لقضى على مَن على الدّنيا جميعاً(٣):

لو استفرغَت جهـدَك في قتـالٍ أَتَيْتَ به علـى الـدّنيا جميعـا

ولعظم شجاعته لو مثلت له المنيةُ يوم الوغَى رجلاً، فالتقت بـه في ميدان الحرب لهمتْ بالهربِ، مع أنّها تشكّ في النّجاة؛ لأنّهـا لا شـكّ مقتولةً إن أقدمت أو هربت(٤):

---

(١) ديوانه (٢٦١/١).

(٢) ديوانه (٣٣١/٤)، يمدح بدر بن عمار.

(٣) ديوانه (٣٦٥/٢)، يمدح الحسين بن إسحاق التّنوخِيّ.

(٤) ديوانه (٢٤٦/١)، يمدح المغيث العجليّ.

إنّ المنيَّةَ لـو لاقتـهُمُ وقفـتْ   خرقاءَ تـتّهِمُ الإقدامَ والهربـا

وله صورةٌ أخرى عن طريقِ الحصر، أفادت إثبات الشّجاعة لـه ونفيها عن غيره في أحلك المواطن في ميـدان المعركـة بعـد تلاحُـمِ العسركرين وتساقُطِ الأشلاء بين الصّفّين، وكثرةِ الجرحَى من الفـريقين، والخيلُ لا تطأ إلاّ على أرضٍ مليئةٍ بذلك، ومـا خالطهـا مـن سـلاحٍ مُحطَّمٍ[١]:

أنت الشّجاع إذا ما لم يطأ فرسٌ   غيرَ السَّنَوَّرِ والأشلاءِ والقُلَـلِ

وقد استغلّ المُتَنَبِّي لقب عليّ بن حمدان "سيف الدّولة" فجعله عنوان شجاعته الذي به يستغنِي عن السّيوف، فلو خاض غمراتِها بدونـه لَمـا أثرت به؛ لأنّها تتأثّر وهو لا يتأثّر، وتسأم وهو لا يسـأم، ومـا ذاك إلاّ لِجلده وقوّة بأسه[٢]:

عيبُ عليك تُرى بسيفٍ في الوغَى   ما يفعلُ الصّمصامُ بالصّمصـامِ

وقوله[٣]:

كلّ السّيوف إذا طال الضّرابُ بها   يَمَسُّهَا غيرَ سيفِ الدّولةِ السّأمُ

---

(١) ديوانه (٣/٢١١)، يمدح سيفَ الدّولة.
السَّنَوَّر: الدّروع.

(٢) ديوانه (٤/١٢٤).
وهذا من أسلوب المدح بِما يشبه الذّمّ.

(٣) ديوانه (٤/١٣٠).

ثم يرى بأنّ لقبه أقلّ مِمّا يستحقّه؛ لأنّ مَنْزلته أعلى وأرفع من ذلك؛ لأنّ سيوفَهُم –وهي جمادٌ– إذا سَمَّوهُ لها ابتسمتْ وهـــي في أغمادهـــا، وافتخرتْ به ظنّاً منها أنّه من أصلها(١):

أتحسبِ بيضُ الهندِ أصلَكَ أَصْلَهَا وأنَّكَ منها؟ ســاءَ مــا تتــوهَمُ

إذا نحنُ سّميناك خلنــا ســيوفَنَا من التيــهِ في أغمادِهــا تتبسّــمُ

و لم نرَ مَلْكاً قطُّ يــدعى بدونِــهِ فيرضَى ولكن يجهلــون وتحلُــمُ

ومن شجاعة هذا القائد؛ أفادَ الجندُ الشّجاعةَ، كما قال(٢):

تُطَاعِنُ كلُّ خيلٍ كنــتَ فيهــا ولو كانوا النّبيطَ على الجحَــاشِ

ومن معانيه التي اخترعها مِمّا يدلّ على شجاعةِ القائدِ أنّ فرســانَ الأعداءِ يتشرّفون بقتله لهم، وبطعنه إيّاهم، لَمّا علموا من شجاعته، كمــا قال(٣):

ومن شرفِ الإقدامِ أنّك فَــبِهِمُ على القتلِ مومُوقٌ كأنّكَ شاكِدُ

وأنّ دماً أجريتَــهُ بــك فــاخرٌ وأنّ فؤاداً رعتَــهُ لــك حامِــدُ

أو كقوله(٤):

مباشــراً بنفســه شــؤونَهُ مشــرِّفاً بطعنــه طعينَــهُ

---

(١) ديوانه (٤/٧٩).

(٢) ديوانه (٢/٣٣٢).

(٣) ديوانه (١/٣٩٩).

(٤) ديوانه (٤/٣٠٦).

وفي هذا الجانب يقدّم المُتَنَبِّي دلائلَ صفة الشّجاعة عند القائد ومن ذلك:

- حبُّه الغزوَ:

تبدو هذه الصّفة أكثر ما تبدو في سيف الدّولة الذي صوّر المُتَنَبِّي حبَّهُ الغزو بأن جعلَهُ يَمَلُّ مقامَ أيّ يوم ليس فيه قتال وجهاد، ومع أنّه ملك، والملوكُ تُحِبُّ الخلودَ إلى الرّاحة، إلاّ أنّ سيفَ الدّولةِ لا يحبُّهَا ويضيقُ ذَرْعاً بجلوسه على الحشايا، فلا يجد راحةً له إلاّ بالحروب، وبالأخصّ أوقات الإغارة على خيلٍ، قد ثار الغبار من شدّة جريها، حتّى كاد يغطّيها لملازمته لها وقد دخلت أرض العدوّ؛ فاستباحتها، والرّماح مشروعةٌ في مناحرها وجنوبها[1]:

مللتَ مقامَ يومٍ ليس فيه ... طعانٌ صادقٌ ودمٌ صَبِيبُ
وأنتَ المَلْكُ تمرضُهُ الحشايا ... لِهِمَّتِهِ وتشفيهِ الحروبُ
وما بكَ غير حُبِّكَ أن تراها ... وعِثْيَرُها لأرجلها جَنيْبُ
مُجَلِّحَةً لها أرضُ الأعادي ... وللسّمرِ المناحِرُ والجُنُوبُ

وهو رجلُ حربٍ مُمَارِسٌ لها، حتّى صارت أحبَّ إليه من الغزل والتّشبّب؛ إذْ فقدُ سيوفه أشدُّ عليه من فقد أحبّته، وزادة في إثبات هذا الحبّ وصف سيوفَهُ بأنّها فاقدةٌ لِجفونِهَا؛ لأنّها أبداً مستعملةٌ

(١) ديوانه (١/٢٠٢).

مجلحة :مصممة، ويرى: محللة، أي: أنّ أرض العدوّ لها جلال.

في الحروبِ(١):

وأمرَّ من فقدِ الأحبّـةِ عنـدَهُ فقدُ السّيوفِ الفاقداتُ الأجْفُنا

ولهذا فهو دائماً غازٍ لا يدرري متَى قُفُوله(٢):

أنتَ طولَ الحياةِ للـرّومِ غـازٍ فمتَى الوعدُ أن يكونَ القُفُـولُ

ولكثرة غزواته فقد اتّخذها عادّةً لا يصبر عنها، كما قال(٣):

لكلِّ امرءٍ من دهره ما تعـودا وعادةُ سيفِ الدّولةِ الطَّعْنُ في العدا

وقد كرّر هذا المعنَى في أخرى، فقال(٤):

قادَ الجيادَ إلى الطّعانِ و لم يقـدْ إلاّ إلى العـاداتِ والأوطـانِ

وقد جعل المُتَنَبِّي بين ممدوحه وبين غزواته الكثيرة نسـباً لكثرتهـا وتتابعها؛ فقال(٥):

أخو غزواتٍ ما تَغِبُّ سـيوفُهُ رقابَهُمُ إلاّ (وسـيحانُ) جامـدُ

(١) ديوانه (٤/٣٣٢).

(٢) ديوانه (٣/٢٧٧).

(٣) ديوانه (٢/٣).

(٤) ديوانه (٤/٣٠٩).

(٥) ديوانه (١/٣٩٨).

سيحانُ أو سيحون : نهر كبير فيما وراء النّهر، بعد سمرقند، يجمد في الشّتاء حتّى تجوز على جمده القوافل). معجم البلدان (٣/٢٩٤).

فإنّه لا يفارق ديار أعدائه إلاّ إذا كان كثر الـثّلج في ديـارهم، وجمدت مياه أنهارهم؛ فإنّه يمنعه ويمنعهم من الحركة وتسلَّم رقابهم مـن القتل، وجعل سلامتها غِبّاً فقط؛ لأنّه سيعود إليها مسرعاً كعادة مَن يزور غِبّاً.

هذا، وقد عكَس المُتَنبّي صورةَ حُبٍّ بطلِه للحربِ بأن جعل الحربَ هي المحبّةُ له، حتّى صار عشيقاً لها، تفديه بكلّ ما فيها من خيلٍ ورجـلٍ ومالٍ[1]:

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشقةٌ له   إذا زارها فدّته بالخيل والرَّجْـلِ

- رعب الأعداء منه:

لا يخافُ الأعداءَ إلاّ من قائدٍ كثرتْ غزواتُهُ، واشتهرتْ وقائعُهُ؛ فإنّ مَن فعل ذلك خيف منه، وذلّ له، خافه صغيرُ القومِ، وخضع له كبيرُهُم، ذَكَرُهُم وأُنْثَاهُم، وقد يتجاوزهم الخوفُ إلى مَن خلفهم[2]:

وأشقى بلادِ اللهِ ما الرّومُ أهلُهـا   بهذا، وما فيها لِمجدكَ جاحـدُ
شننتَ بها الغاراتِ حتّى تركتَهـا   وجفنُ الذي خلفَ الفرنجة ساهدُ

فصيته قد شغَلَهُم، وسراياه قد أرهَقَتْهُم، وحروبُهُ أشابَتْ الرَّضـعَ منهم[3]:

(١) ديوانه (١٤/٤).

(٢) ديوانه (٣٩٦/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣٦٠/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنُوخِيّ.

بعيدُ الصّيتِ مُنْبَثٌ السّرايا   يُشَيِّبُ ذكرُهُ الطّفلُ الرّضيعا

لقد فرّقهم شذّر مذر، فالأعراب-الذين عادوه-يعيشون أنكد عيشة مع الكُدْريّ-وهو نوعٌ من القطا في المفاوز والقفار-؛ لأنّها ديارهم التِي يلجأون إليها كلّما دهمتهم الحروب.

والرّوم مع الحجل، أيّ في الجبال؛ لأنّ ديارهم كثيرةُ الجبال؛ فيمتنعون بها منه، ولكنّ ذلك لن يمنعهم منه؛ فإنّه ملاحِقٌ لهم فيها؛ لأنّ خيله مدرّبة حتّى على صعود الجبال معقلِ الوعولِ، وهو وإنْ عاد عنها، إلاّ أنّ خوفه باقٍ فيها، مخيّم على قلوبهم(١):

فالعربُ منه مع الكدريِّ طائرةٌ   والرّومُ طائرةٌ منه مع الحجلِ
وما الفرارُ إلى الأجبالِ من أسدٍ   تمشي النّعام به في معقلِ الوَعَلِ
جاز الدّروب إلى ما خلف (خَرْشَنَةٍ)   وزال عنها وذاك الرّوعُ لم يَزلِ

وهذا الرّعبُ لم يقتصر على عامّتهم، لكنّه عمّهم جميعهم حتّى فرسانهم وأبطالهم؛ فإنّهم يخشون أن يأخذهم بغتةً، ويهجم عليهم على حين غرّةٍ، فيظلّ أحدهم لابساً كفنه، توقّعاً لبغتاته، وتأهّباً للموت، كما قال(٢):

يتفزّع الجبّارُ من بَغَتَاتِهِ   فيظلُّ في خلواتِهِ متكفّنا

---

(١) ديوانه (٣/٢٠٧).

(٢) ديوانه (٤/٣٣٢)، من قصيدةً يمدح بها بدر بن عمار.

ولقد استقرّ هذا التّفزّع في قلوبهم، وخالط عقولهم الباطنة –كمان يقول علماء النّفس– فكلّما نام الرّجلُ منهم حلم بسيوف ممدوحه تصيبه ورماحه تَنوشُهُ، فَيَفِرُّ من نومه فزعاً، حتّى تركَ بعضهم المنامَ فزعاً من هذه الأحلامِ التِي تعاوده حتّى غدتْ كشوكِ القتادِ لا يلائمُهُ جنبٌ[1]:

وكيفَ يبيَتُ مضطجعاً جَبَانٌ فرشتَ لجنبِهِ شوكَ القتادِ
يرى في النّومِ رِمحَكَ في كلاهُ ويخشى أنْ يراهُ في السّهادِ

كلّ يحلم بما سيصير إليه أمره، فالفتاة أو المرأة مُطْلَقاً من شدّة ما اعتراها من الخوف والفزع من هذا القائد، لا تحلم إلاّ بالسّبْي وبالجمل الذي ستحملُ عليه[2]:

وكلّما حَلَمَتْ عَذْراءُ عندهم فإنّما حلمتْ بالسَّبْيِ والجَمَلِ

لقد صارت حروب هذا القائد شغلهم الشّاغلُ، يشقّون بها؛ لأنّ كلّ ما أنتجوه عائدٌ إلى هذا القائد وإليه مصيرُهُ[3]:

حتّى أقامَ على أرباضِ (خَرْشَنَةَ) تشقى به الرّومُ والصّلبانُ والبِيَعُ
للسّبْي ما نكحوا والقتلِ ما ولدا والنّهبِ ما جمعوا والنّارِ ما زرعوا

فنساؤهم مصيرهنّ السّبْيُ، وأبناؤهم مصيرهم القتلُ، وأموالهم مصيرها النَّهْبُ، وزروعهم مصيرها التّحريقُ، وإضرامُ النّيرانِ بها.

---

(١) ديوانه (٢/٨٤) من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِيّ.
(٢) ديوانه (٣/٢٠٧)، يمدح سيف الدّولة.
(٣) ديوانه (٢/٣٣٤).

ولذا، فهم لا يلامون حينما يطلبون الهدنةَ، والكفَّ عن قتالهم، فقد استَحَرَّ بهم القتل فأفناهم، والأسر ففرَّقَهم، وطلبهم للهدنة أو السّلمِ نهاية ما يراد بهم من القتل، ومبلغ ذِلَّةٍ حتّى لا يراد لهم أسر بعده(١):

فإن كان خوفُ القتلِ والأسرِ ساقَهمْ فقد فعلوا ما القتل والأسر فاعلُ
فخافوكَ حتّى ما لقتلٍ زيادةٌ وجاؤوك حتّى ما تراد السّلاسلُ

وهناك صورةٌ أخرى تُعبِّر عن مدى خوفهم من القائد، وذلك أنّهم قد ينهزمون قبل وصول ذكره، لَمّا بلغهم عن شجاعته وبطشه(٢):

فإنْ تَكُ من بعدِ القتالِ أتيتنا فقد هَزَمَ الأعداءَ ذِكْرُكَ من قَبْلُ

وقد كرّر هذا المعنَى مراراً؛ فمنه قوله(٣):

إذا ما لم تُسرْ جيشاً إليهمْ أسرتَ إلى قلوبِهِم الهُلُوعَا

أي إنّك وإنْ لم تُسرِ الجيوش إليهم لنفنيهم، فقد أسرت بقوّة بأسك وشدّة بطشك الرّعبَ والهلعَ إليهم؛ فامتلأت به قلوبُهُم، لِما سمعوا عنك من أخبارٍ شائعة، وما شاهدوا لك من معاركَ سابقةٍ.

وقد يُفتِّقُ أبو الطّيّب من المعنَى الواحدِ عدّةَ معانٍ، فيكرّره مراراً ويلحّ عليه، فقد ذكر خوفَ الأعداءِ منه بعدَ أبياتٍ متتاليةٍ مصوّراً حال

(١) ديوانه (٣/٢٣٥-٢٣٦)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٢) ديوانه (٤/٩)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا الفوارس دلير بن لشكروز.
(٣) ديوانه (٢/٣٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخيّ.

الرّومِ لَمّا نزلوا على حصنِ الحَدَث، وكان قد وقعت لهم فيه مع سيف الدّولة موقعةٌ عظيمةٌ خسروا فيها الرّجالَ والأموالَ، فلَمّا عادوا إليها مرّةً ثانيةً، صوّر المُتَنَبِّي ما وقع عليهم من الرّعبِ، لَمّا رأوا ما خَلَّفتِ الموقعةَ السّابقةَ من أعضاءٍ متناثرةٍ، وشعورٍ قد كست الأرض -في عدّة صورٍ:

أوّلها: أنّ هذه الشّعور المتناثرة والعظام البالية والمنتشرة فوق تراب هذه الموقعة، تنذرهم الإقامة فيها، وتريهم لكلّ عضو منهم عضواً من المقتولين، وتحذرهم أن تصير حالُهم كحالها[1]:

نزلوا في مصارعٍ عرفوها ... يندبون الأعمامَ والأخوالا
تحملَ الرّيحُ بينهمْ شعرَ الهام ... مِ وتَذْرَى عليهم الوصالا
تُنْذِرُ الجسمَ أن يقيمَ لديها ... وتريهِ لكلّ عضوٍ مثالا

وثانيها: أنّهم تخيّلوا ما كان لسلفهم قديماًمن الطّعن بالرّماحِ والقتلِ بالسّيوفِ، فخافوا وجزعوا منه، وهم لم يروا الرّماح حقيقةً[2]:

أبصروا الطّعنَ في القلوبِ دِرَاكا ... قبلَ أنْ يُبصروا الرّماح خيالا

وثالثها: أنّ فرسانهم إذا حالوا طعانِ ممدوحهِ خَيَّل إليهم الرُّعْبُ وشدّةُ الخوف أنّ الذّراعَ من رماحِهِ ميلٌ، فتوقعوا أنْ تدركهم رماحُهُ ولو كانوا على أميالٍ[3]:

(١) ديوانه (٣/٢٦٠).
(٢) ديوانه (٣/٢٦٠).
(٣) ديوانه (٣/٢٦١)، والحاشية رقم: (١).

وأذا حاولـت طعانَـك خيـلٌ أبصـرتْ أذرعَ القنـا أميـالا

وهناك تفسيرٌ آخر لهذه الحالة –ولكنّه غريبٌ–، وهو أنّهم كلّما حاولوا طعان ممدوحه برماحهم استطالوها، فرأوا أذرعها أميالاً، فثقلت عليهم جبناً وخوفاً(١).

ورابعها: أنّ الرّعبَ قد شاع فيهم وعَمَّهُم حتّى كأنّه بسط يَمينه في ميمنة جيشهم، وشمالَه في ميسرته؛ فولّوا هاربينَ(٢):

بسطَ الرّعبُ في اليمينِ يمينـاً فتولّـوا وفي الشّـمال شِـمَالا

وخامسها: أنّ الخوفَ قد أثّر فيهم حتّى ارتعدت أيديهم فلا تقـدر على الضّرب، كأنّ السّيوف التي في أيديهم أغلالٌ لها(٣):

ينفضُ الرّوعُ أيدياً لس تدري أسـيوفاً حَمَلْـنَ أم أغـلالا

وسادسها: أنّ وجوههم قد تغيّرت ألوانها إلى الصّـفرة، امتقعـت وكَلَحَتْ وذهب بِجمالها الذّعرُ، أخافها منك وجهٌ طليقٍ نضـيرِ أحـرز غايات الحسن، وسلبها الخوف حسنها، فانحاز إلى حسـنك فتضـاعف جمالُكَ ونضرتُكَ(٤):

ووجوهاً أخافها منـك وجـهٌ تركتْ حسنها لـه والجمـالا

---

(١) ديوانه (٣/٢٦١)، والحاشية رقم: (١).

(٢) ديوانه (٣/٢٦١).

(٣) ديوانه (٣/٢٦١).

(٤) ديوانه (٣/٢٦١).

ومن صوره أن جعل الأعداءَ لشدّة خوفِهم يتصوّرون أنّ أشخاصَ خيلِ ممدوحه تجري في قلوبِهم، مع أنّها واقفةٌ أمام أبوابِ قبابِه[١]:

صيامٌ بأبوابِ القابِ جيــادُهُم وأشخاصُها في قلبِ خائفِهمْ تعدو

ومن معانيه في ذلك أن جعل ذكر ممدوحه يفعل في الأعداءِ مــا لا يفعله النّصلُ، وأنّ اسمه أنفذ من النّبل[٢]:

ظَلِلْنَا إذا أنبَــى الحديــد نصــولنا نجردِ ذكراً منك أمضى من النّصلِ

ونرمي نواصيها من اسمكَ في الوغَى بأنفذَ من نُشَّــابِنا ومــن النّبــلِ

- تسخير المانيا له:

كثيراً ما يوصف القائد بتسخير المنايا له دلالةً على قوّة بأسه وشدّة بطشه، وأنّ قتلاه كُثُر، كما قال[٣]:

يكادُ من طاعــةِ الحمــامِ لــه يقتلُ من مــا دنــا لــه أجــلُ

فهو يرى أنّه لطاعة الحمامِ له وتسخيرهُ في يده، يكاد يقتل مــن لم يقترب أجله لتسلّطه، وهو متصرّف بهذه المنايا، آمراً لها بِما يريد، وهــنَّ مطيعاتٌ له؛ لأنّه مطيعٌ للرّحمن مجاهدٌ في سبيله[٤]:

ومهذبٌ أَمْــرَه المنايــا فــيهِمُ فأطعنــــه في طاعــــة الــــرّحمن

---

(١) ديوانه (١٠٧/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها السين بن عليّ الهمذانيّ.

(٢) ديوانه (٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها الفوارس دلير بن لشكروز.

(٣) ديوانه (٣٢٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٤) ديوانه (٣١٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

فإذا ما توجّه إلى معركةٍ من المعارك وقفت هذه المنايا معه في ميدان الوغى، فيأمرها وينهاها، حتّى إذا أثخن قتلَ الأعداءِ واستحرَّ بهم -وأراد رَدَّها- أطاعته فعادت واندفعت[(١)]:

تغدوا المنايا فلا تنفــكُّ واقفــةً حتّى يقولَ لها عــودِي فتنــدفعُ

ومن باب إطاعة المنايا له، إطاعة دمائهم له، لعلمها أنّها لا تمتنع منه كلّما أراد سفكها، حتّى لو دعاهم للقتــال، ولم يضــربهم بالسّــيوف ويطعنهم بالرّماح، لسالت دماؤهم قبل الضّرب إجابةً له[(٢)]:

ألقتْ إليك دماءُ الرّومِ طاعَتَهَــا فلو دعوتُ بلا ضربٍ أجابَ دَمُ
يسابِقُ القتلُ فيهم كــلّ حادثــةٍ فما يصــيبُهُم مــوتٌ ولا هَــرَمُ

«فهو سابقٌ لأحداث الزّمان فيهم فيقتلهم مسابقاً كلّ حادثةٍ، فمــا يترك أحداً منهم يموت حتفَ أنفه ولا يدعه حتّى يكبرَ ويهرمَ»[(٣)].

- رباطة الجأش والطّمأنينة والثّبات:

من صفات القائد الدّالّة على شجاعته رباطة جأشه وثباتــه عنــد ملاقاة الأعداءِ، ما ذكره في قوله حين وصف سيفِ الدّولة[(٤)]:

---

(١) ديوانه (٣٣٨/٤).

(٢) ديوانه (١٤١/٤)، والحاشية رقم: (٣).

(٣) ديوانه (١٤١/٤)، والحاشة رقم: (٤).

(٤) ديوانه (٦٦/٤).

والذي يشهد الوغى ساكنَ القلـــــبِ كأنّ القتـــالَ فيـــه ذمـــامُ

«فهو يحضر الحربَ رابطَ القلبِ غير مضطربِ الجأش، وكأنّ القتالَ عاهده على أن لا يُقْتَلَ، فهو يسكن إلى القتال سكونه إلى الذّمامِ»[١].

وأحسن منه قوله في سيفِ الدّولة أيضاً[٢]:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقف كأنّكَ في جفنِ الرّدى وهو نائِمُ

تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كلْمَى هزيمـــةً ووجهُكَ وضّاحُ وثغرُكَ باسِـــمُ

يقول: «وقفت في ساحة القتال حين لا يشكّ واقفٌ في الموت لشدّة الموقف، وكثرة المصارع فيه، حتّى كأنّك في جفنِ الرّدى، وهو نائِمٌ عنك فلم يبصرك، وغفل عنك بالنّوم فسلمت»[٣].

كما «تَمُرُّ بك الجرحى من الأبطال منهزمين، وكلْمَى مستسلمين، وذلك لا يثنِي عزمك ولا يضعف نفسك، بل كنت حيئنذٍ وضّاحاً غـــير متخوّفٍ، وبسّاماً غير متضجّرٍ، واثقاً من الله بنصره، متيقّناً بِما وصلك من جميل صنعه»[٤].

ولشدّة رباطة جأشه وثباته تراه دائماً مُقْدماً لا يعرف الكرَّ؛ لأنّه لم يَفِرَّ قطُّ، وكأنّه فـــي إقدامه الدّائم كهـــارب مـــن عـــدوّه أن يطعنـــه

(١) ديوانه (٦٦/٤)، والحاشية (٢).

(٢) ديوانه (١٠١/٤-١٠٢).

(٣) ديوانه (١٠١/٤)، والحاشية (٣).

(٤) ديوانه بشرح العكبري، بتحقيق: عددٍ من المحقّقين، ط مكتبة الرّياض الحديثة، بالرّياض (٣٨٧/٣).

من خلفه(١):

نيطتْ حمائِلُهُ بعاتِقِ مِحْرَبٍ ما كَرَّ قطُّ وهلْ يَكِرُّ وما انثَنى
فكأنَّهُ والطّعنُ مِنْ قدامِهِ متخوِّفٌ من خلفِهِ أنْ يطعنا

حتّى صار في إقدامه كالمجنون الذي فقد عَقْلَهُ، وقد لقبه حُسّادُهُ بذلك فعلاً، وما ذاك إلاّ لفرط شجاعَته التي تشبه الجنون، وهو جنونٌ محمودٌ في هذه الحال، إن كان ثَمَّة جنونٌ؛ لأنّ العقلَ قد يمنع صاحبه — والحالة هذه- من الإقدام(٢):

وقدْ يلقّبُهُ المجنونَ حاسدُهُ إذا اختلطنَ وبعضُ العقل عُقّالُ

وقد صار لشدّة إقدامه هولاً عند الحرب في أعين الأعداءِ، نَمَتْهُ أهوالُ الحربِ؛ لأنّه نشأ فيها فصارت له كالغذاءِ، أو قد صار ينسب إليها ويعرف بها(٣):

أبو شجاعٍ أبو الشّجعانِ قاطبةً هولٌ نَمَتْهُ من الهيجاءِ أهوالُ

---

(١) ديوانه (٤/٣٣١).

(٢) ديوانه (٣/٤٠٣).

وقوله: «إذا اختلطن»، يعني: به البيض والسّمبر، وقد مرَّ ذكرهما في بيت قبله، وهو:

أمضى الفريقين في أعدائِهِ ظبةً والبيض هادية والسّمر ضلال

والأبيات من قصيدةٍ مدح بها فاتكاً الأخشيدي الملقّب بالمجنون.

(٣) ديوانه (٣/٤٠٥)، انظر: الحاشية رقم: (١).و الهل: ما أخاف و أفزع من دواب الأرض ، و منه الهول حيوان متخيل .

- هيبة الفرسان له عند لقائه:

وذلك لِما اتّصف به من صفات الفرسانِ التي تُخيفُ وتفزِعُ من شاهدها، ومن ذلك: أنّ الفارسَ الشّجاعَ إذا نظر إليه في ميدان الوغَى تحيَّر واضطرب ولم يستطع الفرارَ على فرسه فزعاً منه، وهيبةً له، بل يُلْقى مُتخبِّطاً متحيِّراً حتّى عن الفرار على رجليه[1]:

إذا ما نظرتَ إلى فارسٍ   تحيَّرَ عن مذهبِ الرّاجلِ

ولشدّة هيبةِ النّاس له لا يستطيعون النّظرَ إليه ولو من بعيد، ومَن لاستطاعَ ذلك فقد استطاع شيئاً عظيماً، ومَن شكّ في ذلك فليركبْ حصانَهُ وليتمثّل نفسه في حومة الوغى، وقد وقف أمامه؛ فإنّه إن فعل ذلك خَرَّ صريعاً على وجهه، لِما اعتراه من هذا التَخيُّلِ، فكيف لو كان الأمر حقيقةً وواقعاً[2]:

إن استجرأتَ ترمقُهُ بعيداً   فأنت اسطعتَ شيئاً ما استطيعا

وإن مارَيتني فاركب حصاناً   ومَثّلْهُ تَخِرُّ له صريعا

ولهيئته لا يتمكّن الأعداءُ من الإغارة على إبله التي ترعى في الفيافي بدون راعٍ يحرسها، وكلّما حاول قومٌ ذلك هزموا؛ لأنّ هيبته تُغَيِّرُ عليهم فتصدُّهُم عن ذلك فلا يتمكّنون مِمّا أرادوا[3]:

---

(١) ديوانه (٣/١٥٨)، من قصيدةٍ يمدح بها عضد الدّولة.

(٢) ديوانه (٢/٣٦٣)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخيّ.

(٣) ديوانه (١/٣٩٩)، من قصيدةٍ يمدح بها فاتكاً المجنون.

تغيرُ عنه على الغاراتِ هيبتُـهُ   ومالُهُ بأقاصي الأرضِ أهمالُ

ومن آثار هذه الهيبةِ ما ذكر من أنّ درعَ ممدوحه، -هي المصنوعة من صلب الحديد- لو نظر إليها هو وحدّق فيها بعينه،لسالت و ذابت و جرت كالماء ،لما عراها من هيبته، و الخوف منه والرّهبةُ ،له من غير نارٍ تُحرقُهَا أو فحمٍ يلتهبُ تحتها، فكيف لو نظر إلى مَن يشعرُ ويحسُّ؟[١]:

وأرهبَ حتّى لو تأمّلَ درعَــهُ   جرتْ جزعاً من غير نارٍ ولا فحمِ

٣- سداد الرّأي:

أشار المُتَنَبِّي إلى مكانةِ الرّأي في الحربِ بقوله في مطلع قصيدةٍ مدح بها سيفَ الدّولة[٢]:

الرّأيُ قبل شجاعةِ الشّجعانِ   هو أوّلٌ وهي المحلُّ الثّاني

فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مِرَّةٍ   بلغتْ من العلياءِ كلَّ مكانِ

ولربّما طعنَ الفتى أقرانَهُ   بالرّأي قبلَ تطاعنِ الأقرانِ

وسداد الرّأي من صفات القادة، وهو أثر للذّكاءِ والفطنةِ وحدةِ الذّهن، كما قال[٣]:

تعرف في عينه حقَائِقها   كأنّه بالذّكاء مكتحلُ

(١) ديوانه (١٧٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها الحسين بن إسحاق التّنوخِيّ.

(٢) ديوانه (٣٠٧/٤-٣٠٨).

(٣) ديوانه (٣٢٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

ولقوّة ذكائه وشدّة إعماله فكره يخشى عليه منهما، كما قال(١):

أُشفقُ عندِ اتقادِ فكرتِهِ   عليه منها أخافُ يشتعلُ

فهو مشفقٌ عليه أن يشتعل بنار فكرته هذه لشدّة اتّقادها، وذكاء حدّها فيصير ناراً متوقدة.

٤- العزم وعدم التّردّد:

من صفات القادة في الحرب الإقدامُ وعدمُ التّردّد لحظةً واحدةً، إذا استقرّ الرّأيُ على إنفاذ خطة ما، وقد لَمح المُتَنَبّي ذلك في القادة الذين مدحهم، وسجّله صفةً من صفاتهم التي يحمدون عليها، وقد عبّر عن ذلك في صورٍ متعدّدةٍ منها: تشبيهه العزائمَ بالسّيوف النّافذةِ، كقوله في وصف عزم سيفِ الدّولة(٢):

قبائِعُها تحت المرافقِ هيبةً   وأَنفذُ مِمّا في الجفونِ عزائمُهُ

ومنها أنّ ما يفعله ينفعل قبل فعله؛ لأنّه لا يعزم على شيءٍ إلاّ بعد التّروِّي فيه والقطع بقضائه، كما قال(٣):

يكادُ من صحّةِ العزيمة ما   يفعلُ قبل الفعالِ ينفعلُ

---

(١) ديوانه (٣/٣٢٩)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٤/٥٤)، والضّمير في: (قبائعها)، عائدٌ إلى الملوك من أعداء سيف الدّولة.

والقبائع، جمع: قبيعةٍ، وهو ما على طرف السّيف من فضّةٍ أو حديدٍ. القاموس مادة (ق ب ع).

(٣) ديوانه (٣/٣٢٩)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

ولهذا المضاء إذا أراد شيئاً مِمّا يقال فيه: (سوف يكون)، يقول عنه: (قد كان)، والبعيدُ عنه قريبٌ منه، لقوّة عزمه، فما يقال فيه: (ثَمَّ) —أي: هناك- يقال: -(هو (هنا)) كما قال[١]:

أمضى إرادته فــ (سوف) له: (قد) واستقربَ الأقصى بــ: (ثَمَّ) له (هنا)

أي: ما يكون من العزائم مستقبلاً عند غيره، بعده حاصلاً بين يديه، ثقة منه بأنّه لا يفوته[٢].

٥- الجند:

الجند هم عدةُ المعركة الذين بمهارهم تتحدّد الغلبةُ —بعد توفيق الله ونصره-، وقد أشار المُتَنَبِّي إلى ذلك؛ فقال[٣]:

وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لم يكن فوقَ الكرامِ كرامُ

فأذا ما جئنا نستقرئ صفاتِ هؤلاء الجندِ، لا نجده يذكر من صفاقم الحِسِّيّة سوى صغر السّنّ، فهم فتيان مُرْدٌ شجعانٌ وغلمة بواسل[٤].

(١) ديوانه (٤/٣٣٢)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه ح ٢ (٤/٣٣٢).

(٣) ديوانه (٤١/١١٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيف الدّولة.

(٤) نجده حينما كان في صباه لم يذكر من صفات الفرسان الذين سيخرج بهم على الممالك صغر السّنّ، بل ذكر أنّهم شيوخٌ مارقون عن الدّين يتركون الصّلوات ويقتلون الحجيج، فقال:

شيخٌ يرى الصّلوات الخمس نافلةً ويستحلّ دم الحجاج في الحرم
=

ومن ذلك قوله(١):

وكلّ فتًى للحرب فوق جبينِــهِ من الضّربِ سطرٌ بالأسنةِ معجمِ

أمّا صفاهم المعنويّة، أو القتالية التي استحقّوا بها أن يكونوا فرســاناً بواسلَ فقد ذكر الكثيرَ منها، ومن ذلك:

أنّهم فرسانُ يتمتّعون بعقولٍ وافرةٍ، تحثّهم على معالِي الأمــور، و أشرفها، ومن ذلك إجادة الطّعان:(٢):

لولا العقولُ لكانَ أدنَى ضَــيغمٍ أدنَى إلى شرفٍ مــن الإنســانِ

ولَما تفاضلتِ النّفوسُ ودَبَّــرَتْ أيدي المكــاةِ عــوالِيَ المُــرّانِ

وهم فوارسُ شَجعانٌ وتتمثّل شجاعتهم في:

ثباهم وعدم الهزامه ولو الهزمنت خيولهم؛ فإنّهم يردّونها ويمنعونهــا الفرارَ، وإن تُرِكَ الواحد منهم وحيداً لم يقلق لشجاعته، ولم يغضب فيُكْثِر الشَّتْمَ لبقائه وحده(٣):

وفارِسُ الخيل من خفّت فوقّرهــا في الدّربِ والدَّمُ في أعطافها دُفَعْ

وأوحدتْهُ ومــا في قلبــه قلــقٌ وأغضبته ومــا في لفظــه قَــذَعْ

ديوانه (١٥٩/٤)، بينما نجده لم يذكر هذه الصّفة في مدائحه الأخرى.

ولعلّ في هذا تأييداً لِمَن رأى أنّه اعتنق مذهب القراطمة أوّل شبابه، وهو ما تَخلا عنه فيما بعد.

(١) ديوانه (٧٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣٠٨/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣٣٣/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر.

وهم يرون في الموت غايةً ومطلباً شريفاً، ولذا فهم يقدمون عليه مبتسمين في نشوةٍ وطربٍ ومرحٍ غير جزعينَ، كما قال[١]:

بكلّ أشعثَ يلقى الموت مبتسماً حتّى كأنّ له في قتله أربا
قُحٌّ يكادُ صهيلُ الخيلِ يقذِفُهُ عن سَرجِهِ مَرَحاً بالغزوِ أو طربا

كما يرون في الموت حياةً لهم وكأنّهم ليسوا من الحيوان؛ لأنّ الحيوان لا يحيا بهلاكه، وما ذلك إلاّ أنّهم غزاة مجاهدون في سبيل الله مؤمنون بأنّ مَنِ استشهد في سبيل الله منهم صار حيّاً عند الله، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[٢].

ولذا قال[٣]:

وفوارسٌ يحيَى الحِمامُ نفوسَهَا فكأنّها ليست من الحيوانِ

ولإقدامهم السّريعِ إذا رأيتهم ظننت أنّهم يسْقَون من دماء الأعداءِ ويطعمون من لُحومهم؛ فهم يقدمون عليهم، ويحرصون على لقائهم بحبٍّ وشرّه؛ لأنّهم يحرصون على تناول ما يحفظ حياتهم من الطّعام أو الشّراب[٤]:

---

(١) ديوانه (٢٤٨/١)، من قصيدةٍ يمدح بها الميث العجليّ.

(٢) آل عمران (١٦٩).

(٣) ديوانه (٣١٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٧٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

على كلّ طاوٍ تحت طاوٍ كأنّـه   من الدّمِ يُسقَى أو من اللّحمِ يُطعَمِ

وهم فرسانٌ حاذقون بآلات الحرب مدرَّبين على القتال، فمن حذفهم آلات الحرب إجادتُهُم الطّعنَ بالرّماح، وكأنّ أكفَّهُم عرفتها قبل أن تشدَّ هذه الأكفَّ على سواعدهم، أي: منذ طفولَتِهِم، كما قال[1]:

وطعنَ غطاريفٍ كأنّ أَكُفَّهُم   عرفْنَ الرّدّينياتِ قبل المعاصِمِ

ومن دربتهم على القتال أنّ آثار خوضهم الحروب ظاهرةٌ عليهم، بَاديَةٌ في وجوههم، فضرب السّيوفِ في وجوهِهِمْ كالسّطور؛ لأنّه يأتي عَرْضاً وطعن الرّماح لهم فيها كالنُّقطِ فوق هذا السّطرِ وتحته[2]:

وكلّ فتًى للحربِ فوقَ جبينِهِ   من الضّربِ سطرٌ بالأَسِنَّةِ معجمِ

أي: حوالِي سيفِ الدّولة فتيانٌ على وجوههم آثارُ الضّرب والطّعن، فهم رجالُ حربٍ مدرّبون، ناشتهم السّيوفُ ووخزهم الرّماحُ، وهذه الآثار وثيقةُ ثباهم واستبسالهم، وهم فوارسُ قد تَزَيَّوا بلباس الحرب من دروعٍ تُغَطّي أجسادَهم، حتّى بدوا فيها كالأسود وعليهم التّرائك، وقد غطت رؤوسهم، واتّصلت بالدّروعِ فبدت عين أحدهم تحتها تلمع، وكأنّها عينُ ثعبانٍ عظيمٍ[3]:

(١) ديوانه (٤/٢٤١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد الحسين بن عبيد الله بن طغج إلى الرّحلة من قبل الإخشيديّين.

(٢) ديوانه (٤/٧٥).

(٣) ديوانه (٤/٧٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيف الدّولة.

يمدّ يديه في المُغَاضَـةِ ضَـيغَمٌ وعينَيه من تحتِ التّريكـةِ أرقـمُ

وهم مخيفون للأعداء ما إنْ يروهم إلاّ ويولّـون الـدُّبُرَ، وكـأنّهم قاتلوهم، وما ذاك إلاّ لشدّة خوفهم منهم قبل اللّقاء(١):

بعثوا الرّعبَ في قلوبِ الأعادي فكأنّ القتـالَ قبـلِ التلاقِـي

و من صوره البديعة في إثبات كفاءهم القتالية وكثـرة حـروبهم وضربهم أعناق الأعداء بالسّيوف، أن جعل السّـيوفَ توشـكُ إذا رأت أعناقَ الأعداء أن تخرج من أغمادها وتجعل أعناق الأعداء أغماداً لها، دون أن يستلّها أحدٌ؛ لأنّ الاستلال والإغماد صارا عادةً لها(٢):

وتكادُ الظّبا –لِما عودوها- تنتضي نفسـها إلى الأعنـاقِ

ومنها أيضاً في إثبات بسالتهم وخشيتهم العارَ من الفـرارِ حـين اشتداد وقع القنا، أن جعلهم يخافون من الخوف، ومن ثَمَّ لا يكاد الخوف يلمُّ بهم(٣):

وإذا أشفق الفوارسُ من وقْـعِ القنا أشـفقوا مـن الأشـفاقِ

وقوله عن الفارس الشّجاع(٤):

جاعِـلٌ درعَـهُ منيتَـهُ إن لم يكن دونَهَا من المـوتِ واقِ

---

(١) ديوانه (١٠٦/٣)، من قصيدة يمدح بها أبا العشائر.

(٢) ديوانه (١٠٦/٣)، من قصيدة يمدح بها أبا العشائر، ويصف شجاعة قومه.

(٣) ديوانه (١٠٧/٣)، من قصيدة يمدح بها أبا العشائر، ويصف شجاعة قومه.

(٤) ديوانه (١٠٦/٣)، من قصيدة يمدح بها أبا العشائر، ويصف شجاعة قومه.

أي: أنّ خشية هذا الفارس من العار، وكراهته الفرار، إذا لم يجد ما يحتمي به، جعل الموتَ درعاً له، فاحتمى به وفرَّ إليه، ولاذ به؛ لأنّه هـــو الواقي من العارِ.

ثانياً: الإعداد للمعركة

سنتحدّث خالال هذا المبحث عن أشهر ما أعدّه ممدوحو المُتَنَبِّي للحروب، ومن ذلك:

١- الجيش:

يتكوّنُ الجيشُ من سرايا وكتائبَ متعدّدةٍ، هذه السّرايا والكتائب لا تعدّ شيئاً يذكر بجانب جيشٍ الممدوح، وقد وصف المُتَنَبِّي هذه الكتائب فقال(١):

ومَلمومـــةٌ ســـيفيةٌ ربعيـــةٌ ... يصيحُ الحصا فيها صياحُ اللّقالقِ
بعيدةُ أطرافِ القنا من أصـــولِهِ ... قريبةُ بين البَيْضِ غبرُ اليلامـــقِ
نَهَاها وأغناها عن النّهبِ جهودُه ... فما تبتغي إلاّ حمـــاةَ الحقـــائقِ

أي لهذا القائد الماجد أبي العشائر بكلّ فلاةٍ كتيبةٌ مجتمعةٌ منسوبةٌ إلى سيفِ الدّولة، ووقبيلته ربعية؛ لأنّ أكثر جندها من عبيده الذين ربـــاهم فنسبوا إليه أو من قبيلته ربيعةٌ أهلُ الشّجاعةِ والنّجدةِ، ولشدّة وطء هـــذه الكتيبةِ بعدتِها وعتادِها وفرسانِها ورجالِها إذا وطؤوا أرض هذه الفـــلاة صاحَ حصاها لتطايره واحتكاكه ببعضه كصياح اللّقالِقِ، وهـــي طيـــورٌ

---

(١) ديوانه (٣/٦٧-٦٨).

وملوّمة عطف على: ظعائن، من قوله:

بكلّ فلاةٍ تفكر الإنـــس أرضـــها ... ظعائن حمر الحلـــى حمـــر الأيـــانق

اليلامق: الأقبية جمع يلمق.

كثيرةٌ، ذات صوتٍ رنّانٍ تكثر في العراق، ومع فرسانِ هذه الكتيبة رماحٌ طويلةٌ، وهم متضايقون، مجتمعون ذوو كثافةٍ شديدةٍ؛ بحيث تراصّ بَيْضُهُم فلم يترك فرجةً بينه، وقد اغبرت ثيابهم لكثرة ما أثارته خيولهم من غبار، وهي كتيبةٌ هَمُّها قتلُ الفرسانِ الأباطلِ، لا نهبَ الأسلابِ والأموالِ؛ لأنّ جود هذا القائد قد أغنَى جندها عن ذلك،وهي كتائبُ منتشرةُ الرّايات دلالةً على كثرة عددِ مَن فيها، وجندها منصورون، وللمعانِ السّيوف في حافاتِهاوكثرة الغبارِ النّاجمِ عن إثارة الخيل له تتغيّرُ ألوانُ اللّيالي على مَن فَاجَأَتْهم؛ فأنّ كثرة الغبارِ تزيدُ في ظلمة اللّيل، ولمعانَ السّيوف يزيدُ في ضيائها أو يكشف الظّلمة عنها[1]:

يغيّر ألوان اللّيالي على العدى بمنشورة الرّياتِ منصورةِ الجندِ

أمّا دأب هذه الكتائب؛ فإنّه مفاجأة الأعداءِ قبل الصّبح، وقبل انبثاق الضّوء؛ فإنّهم وهم يرتقبون الصّبح، يفاجأون بخروجها عليهم مغيرة قبل ضوئه، وذلك أنّها أشدّ إسراعاً من الصّبح في طلوعه، وفيها دلالةٌ؟ على أنّها تسري إلى الأعداء آخرَ اللّيل[2]:

---

(١) ديوانه (١٦٩/٢، و١٧٠).

ومبثوته معطوفة على كتائب في البيت قبله.

والأبيات من قصيدة يمدح بها عضد الدّولة.

والبيت الثّاني ورد في الدّيوان محذوف لام (يردى) لغير ما عِلّة. والصّحيح إبقاؤها خطّاً وحذفها لفظاً.

(٢) ديوانه (١٦٩/٢، و١٧٠).

إذا ارتقبوا صبحاً رأوا قبل ضوئه ... كتائبَ لا يردي الصّباح كما تردي

ومن وصفه السّرايا قوله(١):

ومبثوثـــةً لا تتّقـــى بطليعـــةٍ ... ولا يحتمي منها بغـــورٍ ولا نجـــدِ

يَغُضْنَ ذا ما عدنَ في متفاقـــدٍ ... من الكُثْرِ غانٍ بالعبيدِ عن الحشدِ

أي: إنّ ذلك سراياً مبثوثةٌ في كلّ ناحيةٍ طلباً للإغارة، لا يســـتطيع العدوّ توقيها بالطّلائعِ؛ لأنّهم لا يشعرون إلاّ وقد دهمتهم، ولا أن يحترزوا منها بمنخفضٍ من الأرض أو مرتفعٍ(٢).

وهذه السّرية تعدُّ جزءْ من جيشٍ كثيرِ العدد يفقد بعضـــه بعضـــاً لكثرته واضطِرابه، وهي بهذه القوّة فكيف لو دهم الأعداءَ الجيشُ كلُّه.

وقد أشار المُتَنَبِّي إلى أن تكونَ الجيش من سرايا عديـــدةٍ لا يضـــرّ خروج بعضها إلى الإغارة؛ لأنّ كثرته مانعة من الشّعور بنقصه أو زيادته، فقال من قصيدةٍ يمدح بها ابن العميد ويصف سرية من سراياه باغتت أحد أعدائه، فقضت عليه ثم عادت منتصرةً غانمةً دون أن يشعر بها أحدٌ مـــن بقية جيشه لكثرتهم(٣):

فأتوك ليس بمـــن أتـــوا قبـــلٌ ... بهِمُ، وليس بمـــن نـــأوا خلـــلُ

لم يدر مـــن بـــالرّي أنّهـــمُ ... فَصَلوا ولا يـــدري إذا قفلـــوا

---

(١) ديوانه (١٦٩/٢، و١٧٠).

(٢) ديوانه (١٦٩/٢)، حاشية (٥).

(٣) ديوانه (٢٣/٤-٢٤).

أمّا عدّة الجيش فهي الخيولُ والعرابُ الأصيلةُ والرّمــاحُ اللّينــةُ و السّيوفُ المرهفةُ، ومن ذلك قوله(١):

وربّ جوابٍ عن كتابٍ بعثتَه وعنوانُـــهُ للنّـــاظرينَ قَتَـــامُ
تضيقُ به البيداءُ من قبل نشـــرِه وما فُضَّ بالبيداءِ عنـــه ختَـــامُ
حروف هجاء النّاسِ فيه ثلاثةٌ جوادٌ، ورمحٌ ذابلٌ، وحســـامُ

ومثله قوله مادِحاً كافوراً الأخشيديّ(٢):

وما كنتَ مِمَّن أدرك الملكَ بالمَنى ولكـــنْ بأيـــامٍ أشـــبنَ النّواصـــيا
وقدتَ إليها كلَّ أجـــرد ســـابحٍ يؤدِّيك غضباناً ويثنيـــك راضـــيا
ومخترطٍ ماضٍ يعطيعـــك آمـــراً ويعصي إذا استثنيت لو كنت ناهيا
وأسمرَ ذي عشرين ترضـــاه وارداً ويرضاك في إيراده الخيـــلَ ســـاقيا
كتائبَ ما انفكّتْ تجوسُ عمائراً من الأرضِ قد جاستْ إليها فيافيا

فقد قاد كافور إلى الحربِ كلّ فرسٍ قصيرِ الشّعرِ سريعِ العدوّ، كأنّه يسبحُ في جريه، وكلَّ سيفٍ مسلولٍ، مطيعٍ لك، إذا أمرته بالقطع أطـــاعٍ لك،و إن هُيته بعد أو لم تنهه لم يمتثل لك، فهو مبيدٍ مقنٍ، وكلّ رمحٍ أسمر

---

(١) ديوانه (١١٣/٤).

القتام: الغبار، وأراد بالجواب الجيش والذّابل اللّين.

(٢) ديوانه (٤/٢٤٩-٤٣٠).

تجوس: تدوس – العمائر: جمع عمارة، والعمارة أصغر من القبيلـــة، وقيـــل: الحيّ العظيم الذي يقوم بنفسه، والأصل فيه: (الصّدر) من الإنسان.

كعباً أو ذراعاً أهل لوورده الدّماء، وأنت أهل لإيراده، وكذا الكتائب التِي تدوس بها القبائل التِي تسكن أقاصي الدّيارِ وقفارِها.

وهناك عدةٌ أخرى ذكرها في بعض أبياته، وهي كثرة الطّيورِ التِي تصاحبه حتّى صارت من عسكره، ومن ذلك قوله(١):

له عسكرا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى ... بها عسكرا لم يبقَ إلاّ جماجِمُهْ

حتّى إنّها لتكاد تقع على الأحياء منهم كما قال(٢):

يطمعُ الطّيرَ فيهم طولُ أكلهمُ ... حتّى تكادَ على أحيائهم تقعُ

ومن حديثه عن كثرة جيش ممدوحه، قوله في سيفِ الدّولة(٣):

حواليه بحرٌ للتّجافيفِ مائجٌ ... يسيرُ به طردٌ من الخيل أيهمُ

تساوت به الأقطار حتّى كأنّهُ ... يُجَمِّعُ أشتاتَ الجبالِ وينظّمُ

فإنّ جيشه المحبط به يشبه بحراً مائجاً، ولكنّه ليس بحراً من مياه، إنّما هو بحرٌ من تَجافيف –وهي ما جلل به الفرس أو الفرسان من سلاح وآله

---

(١) ديوانه (٤/٥٤).

عاب عليه ابن وكيع أحد شراح الدّيوان تخصيصه الجماجم بالبقاء دون سائر العظام. ديوانه :ح ٢ (٤/٥٤).

(٢) ديوانه (٢/٣٣٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدولة.

(٣) ديوانه (٤/٧٤).

الضّمير في حواليه عائدٌ إلى الفارس الذي ذكره في البيت قبله:

ولَمّا عرضت الجيش كان بهاؤه ... على الفارس المرضى الذّؤابة منهم

والمقصود به سيفُ الدّولة.

تقيهم السّلاح- أشبه ببريقه ولمعاه بحر المياه، ثم جعل الخيــل تســير بــه وكأنّها طودٌ عظيمٌ، وهو تخيُّلٌ بديعٌ.

ولَمّا جعل خيله جبلاً عظيماً، قال إنّها حَلّت بين الجبالِ فمــلأت فجوةً ما بينها، فساوت بها أقطار الأرضِ، كأنّه جمع جبالها المتفرّقة، ونظم بعضها إلى بعضٍ.

وقوله[1]:

رميتــهم ببحــرٍ مــن حديــدٍ له في الــبرِّ خلفهــم عبــابُ

فقد شبّه كثرةَ جيشه بالبحر، ولم يكتف بذلك، بل جعلــه بحــراً متحرِّكاً، ومطارداً لهم في القفار وله عبابٌ، فــ: «نراه يسلّط خياله على الحركة المتموجة الكثيفة، فيأتِي بكلمة عباب لتبرز في جانب المشبَّهِ هــذه الصّورة المحسوسة»[2].

وقوله[3]:

فكانَ الغَرْبُ بحــراً مــن مِيــاهٍ وكانَ الشّرقُ بحراً من جيــادِ

فقد حصر العدوّ بين بحرينِ حقيقيٍّ وخيالِي، الحقيقي: بحر اللاذقية (البحر الأبيض المتوسّط)، والخيالي: بحر الجياد، ولكثرتها واختلاطها ولمعان أسلحتها.

(١) ديوانه (٢١٣/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) الخيال الشّعري في شعر أبي الطّيّب المُتَنَبِّي، د/ طه أبو كريشه (٥٩).

(٣) ديونه (٨١/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِيّ، عند إيقاعــه بناسٍ من أهل اللاذقية.

ولَمّا جعله بحراً جعله مغرقاً لأعدائه بمدهم وقراهم، فقال[١]:

فَغَــــرَّقَ مُـــدْنَهُم بـــالجيو م شِ وأخفَت أصواتهم باللّجَــبْ

وجعل حركة الخيل فيه سباحةً؛ فقال[٢]:

أفرسُ من تسبحُ الجيــادِ بــه ولــيس إلاّ الحديــدُ أمــواهُ

هذا، وقد شبّه جيشه مرّةً بالسّحب لكثرتــه وانتشــاره، ولكنّهــا سحبُ نِقَمٍ وعذابٍ، ولهذا لَمّا مرّت على عملٍ من أعمال سيف الدّولة لم تمطرْ، لا من بخلٍ، ولكن رأفةً بأهله؛ فإنّها لا تمطر ما فيها من الــنِّقَمِ إلاّ على الأعداء؛ فقال[٣]:

سحبٌ تَمرُّ بحصنِ الرّانِ ممسكةٌ وما بها البُخلُ لولا أنّهــا نِقَــمُ

وكرّر هذا المعنَى مرّةً أخرى فقال[٤]:

سحائبُ يمطرنَ الحديدَ علــيهِمُ فكلَّ مكانٍ بالسّيوفِ غســيلُ

«جعل خيله كالسّحائب لِما فيها من بريــق الأســلحة وصــياح الأبطال، وجعل مطرَها الحديدَ؛ لأنّها تنصب عليهم بالسّيوف والأســنة، ولَمّا جعل السّيوف مطراً، جعل إفناءهــا لهــم بِمَنْزلــة غســل الأرض منهم»[٥]، أو أنّ السّيوف بما تسفكه من الــدّماء تغســل كــلَّ مكــانٍ

(١) ديونه (١/٢٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديونه (٤/٤٠٢)، في مدح أبي العشائر الحمدانيّ.

(٣) ديونه (٤/١٣٣).

(٤) ديونه (٣/٢٢٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٥) ديونه ح ١ (٤/٢٢٣).

سالت فيه.

وشبّهه بالجبل؛ فقال[١]:

همامٌ إذا ما هَمّ أمضى همومه بأرعنَ وطءِ الموتِ فيه ثقيلُ

شبّه الجيشَ برعنِ الجبل وهو أنفه الذي يتقدّمه، وفيه دلالةٌ على أنّ له فضولاً كرعان الجبل، وهي ما فضل عنه يمنةً ويسرةً، ثم جسد الموت فجعل له وطأً ثقيلاً، أي: أنّ أخذه الأعداء أخذٌ شديدٌ.

كما ذكر لِهذا الجيش صفاتٍ وأحوالاً تدلُّ على كثرته منها قوله[٢]:

خميسٌ بشرقِ الأرض والغربِ زحفُهُ وفي أذنِ الجوزاءِ منه زمازمُ
تَجَمَّعُ فيه لكلّ لِسْنٍ وأمَّةٍ فما تُفْهِمَ الحُدَّاثَ إلاّ التّراجُمُ

وهما في وصف جيش الأعداء وأنّه جيشٌ لكثرته طبقِ الأرضِ وبلغت أصواتُهُ السّماء.

---

(١) ديونه (٣/٢٢٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديونه (٤/١٠٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

الخميس الجيش العظيم، الجوزاء عدة نجوم في السّماء وخصّها بالذّكر؛ لأنّها في مجموعة الجبار، وهي مجموعة على هيئة إنسان، ولذا سُمِّي بالجبار.

الزّمازم: الأصوات التي لا تفهم لتداخلها.

لِسْن: لغة ولسان الحداث: جمع حادث، بِمعنَى: متحدِّث.

التّراجم، جمع: ترجمان، بالفتح أو الضّمّ.

قال الشّارح: «ولم يسمع في وصف جيشٍ مثل هذا»[(١)].

«وقد اجتمع فيه كلّ جيلٍ من النّاس، وأهل كلّ لغةٍ من اللّغات، إذا كلّم جيلٌ منهم مَن ليس من أهل لغته، احتاج إلى مترجمٍ يترجم له»[(٢)].

ومنها قوله[(٣)]:

وإذا نظرتَ إلى الجبالِ رأيتَهَا فوقَ السّهولِ عواسلاً وقواضبا
وإذا نظرتَ إلى السّهولِ رأيتَهَا تحتَ الجبالِ فوارساً وجنائبا

فإنّ جنوده قد عمّت السّهل والجبل، فإذا نظرت إلى الجبال رأيتَها رماحاً وسيوفاً، وإذا نظرتَ إلى السّهول رأيتَها فوارس وجنائب، أي: غصَّت بهم[(٤)].

وخصّ الجبال بالرّماح والقواضب؛ لأنّها مرفوعةٌ على أيدي الفرسان كالجبال أو بمستواها، وخصّ السّهول بالفرسان والجنائب؛ لأنّها باتّصالها وانخفاضها عن الرّماح والقواضب كالسّهول.

ومنها قوله في وصف جيشِ الرّوم بقيادةِ الدُّمستقِ لَمَّا هاجم أحد الثّغور[(٥)]:

(١) ديونه (٤/١٠٠)، حاشية (١، و٢).
(٢) ديونه (٤/١٠٠)، حاشية (١، و٢).
والجيل، بِمعنَى: الصّنف من النّاس. اللّسان مادة (ج ي ل).
(٣) ديوانه (١/٢٥٥)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن منصور الحاجب.
(٤) ديوانه (١/٢٥٥)، حاشية (١، ٢).
(٥) ديوانه (١/٢٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

أَتَاهُمْ بأوسعَ مــن أرضــهِمْ   طوالَ السَّبيبِ قصــارَ العُسُــبْ
تغيبُ الشّــواهِقُ في جيشِــه   وتبــدو صــغاراً إذا لم تَغِــبْ
ولا تعــبرُ الــرّيحُ في جــوِّه   إذا لم تَخَــطَّ القنــا أو تَثِــبْ

فقد جعل جيوشَ الدّمستقِ أكثر انتشاراً وسعةً من الأرض التِي يريد غزوها، فالجبال الشّامخة لا ترى إذا علاها؛ لأنّها تغيب فيه، وإذا أحاط بها وتخلّلها بدت صغاراً بالإضافة إليه وإلى سعته وانتشاره حولها.

ولكثرة رماحِهم وتضايقُ ما بينها غصَّ الهواء بها، فصار كالسَّــدِّ لا تجد الرّيح منفذاً منه إلاّ أن تتخطّى الرّماح وتثِبَ من فوقِهَا.

ووصف جيش سيف الدّولة بأنّ الأرض الواسعةَ تحارُ فيه لكثرتــه وإحاطته بها(١):

وجيشٍ كلّما حــاروا بــأرضٍ   وأقبــلَ، أقبلــتْ فيــه تحــارُ

فهو جيشٌ ملاحِقٌ للهرابِ من الأعداءِ، وكلّما دخلوا أرضاً وحاروا فيها لسعتها وأقبل عليهم هذا الجيش، احتارت تلك الأرض الواسعة فيــه لسعته وكثرته.

ومثله قوله(٢):

تضيقُ عن جيشِهِ الدّنيا ولو رحبَتْ   كصدرِهِ لم تَبِنْ فيها عساكِرُهُ

---

(١) ديوانه (٢/٢١٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٢/٢٢٣)، من قصيدةٍ يمدح بها جعفر بن كيغلغ.

وقوله[١]:

جيشٌ كأنّــك في أرضٍ تطاوِلُــهُ   فالأرضُ لا أَمَمٌ و الجيشُ لا أَمَمٌ

فقد جعل الأرضَ تغالبُهُ طولاً، ولكن الواقع أنّ كليهما طويل بعيد الأطراف لا قرب بينها، وقد بين هذا المعنَى في البيت التّالِي؛ فقال[٢]:

إذا مضى علمٌ منــها بــدا علــمٌ   وإنْ مضى علمٌ منْهُ بدا علــم

فكلّما مضت كتيبةٌ براياهَا، جاءت كتيبةٌ أخرى، وكذا الأرض التِي هو فيها، كلّما مضى منها جبل بدا جبل آخر، فــلا الأرض تفنِــى ولا الجيش يفرغ[٣].

٢- الخيل:

حظيت الخيل بكثيرٍ من الوصف عند المُتَنبِّي، وذلك لِما لها من أهمية في حياة الفارس العربِي، فهي حصنه الذي يلتجيء إليه عنــد الأزمــات، ومورد رزقه في الضّحى والعشياتِ، ومركبه السّريعُ في حــزونِ الأرض والفلواتِ، والواقع أنّنِي لم أجد للمُتَنَبِّي وصفاً جسديّاً للخيل في عــرض قصائده الحربية؛ لأنّ المقام مقامَ حديثٍ عن المعاركِ وأهمِّ ما فيهــا؛ فــإنْ

(١) ديوانه (١٣٣/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
الأمم: القرب.

(٢) ديوانه (١٣٣/٤).

(٣) ديوانه (١٣٤/٤)، حاشية (١).

وصف الخيل فلا يصف جسدَها إلاّ بصفاتٍ قليلةٍ يلحظُ منها ما تَرمزُ إليه من إبراز كفاءتها القتالية، ولذا؛ فإنّني سأتحدَّث عن هاتين الكفاءتين:الجسديّة، والقتالية؛ لكنِّي سأستشهد للأولى بقصائدَ وصفيةٍ خاصّةٍ بغرضِ الوصف فقط، وذلك لأنّ الصّفات الجسديّة التي ذكرها للخيول العربية صفاتٌ دالّةٌ على الجوادِ الذي يحبُّهُ العربيُّ ويحافظ عليه، ذلك الذي يركبه ويقاتلُ عليه، ويخوضُ به غمراتِ الحروبِ، فيقاسي ويلاتها ويصبر على لأوائها، فهي صفاتٌ جسديّةٌ للخيولِ التي تصلح لميدانِ الحروب، وإن كانت في قصائدَ غير حربيةٍ، ثم أعقّبها ببعض أبياتٍ جاءت عرضاً غير مقصودةٍ لذاتها في بعض قصائده الحربيّة.

هذا، ومع إيمان المُتَنَبِّي بِما ينبغي أن تكون عليه الخيلُ من كرمٍ وعتقٍ وأصالةٍ إلاّ أنّه يرى أنّ ذلك وحده ليس كافياً، إذا لم يكن فوق تلك الخيول الأصلية فرسانٌ أشاوسُ، ولذا قال[1]:

وما تنفع الخيلُ الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوقَ الكرامِ كرامُ

أ- كفاءتها الجسديّة:

ليس للمُتَنَبِّي وصفٌ تفصيليٌّ للخيل إلاّ قصيدةٌ واحدةٌ رَجَزِيَّةٌ في مهرِهِ (الطّخرور)[2]، وهو مَهرٌ قد أعدَّهُ للحروب كما قال فيها:

(١) ديوانه (٤/١١٠).

(٢) ديوانه (٣/٩٢-٩٨).

أعـــدّه للطّعـــنِ في الفيـــالِق والضّربِ في الأوجهِ والمفـــارِقِ
والسّيرِ في ظِلِّ اللّواءِ الخـــافقِ يحمِلُنِيْ والنّصلُ ذو السّفاسِـــقِ
يقطـــر في كمِّـــي علـــى البنَـــائق

ومطلَعُ هذه القصيدة:

ما للمروجِ الخضرِ والحـــدائِقِ يشكو خلاها كثـــرةُ العوائِـــقِ

وسبب نظمها أنّ الثّلج قد أقام بأنطاكية، فتعذّر المرعى على المهـــر فنظّمها كالمتحسر على حال هذا المهرِ الذي لا يجد شيئاً يأكله، من وصفه له:

أنّه فرسٌ يدُهُ اليمنَى غير محجلةٍ وإنّما التّحجيل في قوائمه الأخرى -كما يجيء- وهو طويلَ مَغْرزِ الرّأسِ في العنقِ كناية عن طول العُنُقِ ضخمِ الأطرافِ، متقارِبُ المرافِقِ، وهذا أمدح له:

بمطلقِ اليمنَى طويـــلِ الفـــائقِ عَبْلِ الشّوى مقـــاربِ المرافِـــقِ.

وهو واسعُ الصّدرِ والجلدِ، ليكون أقدرَ على توسيع الخطا، وكـــثير لَحمِ الكِفْلِ وعالِي المتن، وواسع المَنْخِرِ مِمّا يعينه على التّنفّس، وضـــامر الخاصرة:

رحبِ اللّبـــانِ نائِـــهِ الطّرائِـــقِ ذي مَنْخِرٍ رحب وأَطْلٍ لاحِـــقِ

وهو فرسٌ محجّلُ القوائِمِ الثّلاث: اليد اليُسرَى والـــرّجلين، عـــالِي الجسم، مشرف الكاهلِ، كميتُ اللّون، يضربُ إلى سوادٍ، زاهقٌ، لـــيس سميناً ولا مهزولاً، له غرّة تملأ وجههُ، وتمتدُّ سُفْلاً كالشّمسِ عند مشرقها، وكأنّه في لونه الآخر كَسَحابٍ ذي بَرْقٍ:

مَحَجَّلٍ نهدٍ، كُمَيْتٍ زاهقٍ شَادِخَةٌ غَرَّتُهُ كالشّارِقِ
كأنّها من لونِهِ في بارِقِ

وهو فرسٌ صبورٌ على الشّدّة، ثابتٌ على السّير في السّهل والحزن والحرِّ والقرِّ:

باقٍ على البوغاءِ والشّقائقِ والأبردينِ والهجيرِ الماحقِ

وإذا عدا بالفارسِ الواثق بفروسيّته أخذه منه خوفٌ شديدٌ، كأنّه خوفُ الجبان إذا حلّ في فؤاد ضعيف كفؤاد العاشق الخافق المضطرب دائماً لشوقه إلى محبوبه:

للفارس الرّاكض منه الواثقِ خوفُ الجبانِ في فؤاد العاشِقِ

ولِعَظَمِ ارتفاعه كأنّ فارسَهُ على جبلٍ عالٍ، ولسرعة جريه يسابق الصّوتَ، فيسبقه ولو سابَقَ الشّمس لسَبَقَهَا:

كأنّه في رَيْدِ طودٍ شاهقٍ يشأى إلى المِسْمَعِ صوتَ النّاطقِ
لو سابَقَ الشّمسَ من المشارِقِ جاء إلى الغربِ مجيء السّابِقِ

وإذا مشى؛ فإنّه لشدّة حوافره يترك في الأرض البرقاء -وهي التي بها حجارةٌ وطينٌ- آثاراً كآثار الحَلْي إذا قلع من المِنْطَقَة بعد أن تحلّى به، أمّا إن عدا فإنّه يترك في الأرض حفراً أكبرَ كالخنادقِ الكبيرةِ التي لو صبّ بها ماءُ سحابٍ قوي المطر لكان فيها من الماء ما يكفي إبلاً عطاشاً ترد الخِمْسِ:

يتركُ في حجارةِ الأبارِقِ آثار قلع الحلي في المناطِقِ

مشياً، وإنْ يعـدُ فكالخنـادقِ لو أوردتْ غِبّ سحابٍ صـادقِ
لأحْسَبَتْ خوامسَ الأيانقِ

وهذا كنايةٌ عن صلابة حوافره وقوّتها، وقد كرّر هـذا المعنَى في وصفه خيوله التِي قصد عليها كافوراً(١):

تماشى بأيدٍ كلّما وافتْ الصَّفا نَقَشْنَ به صدرَ البـزاةِ حوافيـا

فإنّ لها أيدياً قويّةً وحوافرَ صلبةً إذا وقعت على صخرٍ تركته مُنَقَّطاً منقوشاً كصدر البازيِّ، وجعلها تعمل هذا وهي حافية غير مُنْعَلةٍ، مبالغةً في إثبات القوّة لها.

ومع قوّة هذا المهرِ إلاّ أنّه مطيعٌ لفارسِه، إذا جاء يلجمه ليلاً فـتح فاه، ليدخل فيه اللّجامُ، لا يؤخّره، مع سعة في شدقيه:

إذا اللّجـام جـاءه لطـارقِ شَحَا لَهُ شحوَ الغـرابِ النّـاعِقِ

وناهقاه عاريانِ من اللّحمِ لعتقهِ، فجلدُهُما رقيقٌ كأنّه جلـدُ وتـرِ قوسٍ مشدودٍ عليها:

كأنّما الجلدُ لِعُـرْيِ النّـاهِقِ منحدِرٌ عن سـيتِي جُلاَهِـقِ

---

(١) ديوانه (٤/٤٢٢).

ومثله قوله عمّا قاده دَلَيرٌ لبنِي كلابٍ:

وكلّ جوادٍ تلطـم الأرض كفـه بأغنَى عن النّعل الحديد من النّعـل

أي: قاد لها كلّ جوادٍ شديد الخلق يضرب الأرض بحافر مستغنٍ عن النّعـل بصلابة خلقته كما يستغنِي النّعل عن النّعل. ديوانه (٤/١٢).

ومع أنّه مهرٌ صغيرٌ إلاّ أنّه سبق في عدوّه قُرَّح الخيل، ولـــه ســـاقٌ طويلةٌ فاقت ساق النّعام طولاً وصلابةً، وصوت حوافرِه أشدّ من صـــوت الصواعقِ إذا وقع بهما على صُمِّ الجنادل، أو ما ينقدح من حوافره إذا وقع بهما على صُمِّ الحجارة أشدّ من البرقِ، وله أذنٌ تسمع خَفِيَّ الجرسِ أشدّ من سمعِ الأرنب، أو أنّ طولها ودقّتها تزيد عن آذان الأرانب، وإن كـــان مراده الأخيرُ فقد عيب عليه ذلك، وزاد في حذره على الغربانِ:

بزَّ المذاكِي وهـــو في العقـــائِقِ ... وزاد في السّاق علـــى النّقـــانِقِ

وزادَ في الوقع على الصّـــواعِقِ ... وزادَ في الأذنِ علـــى الخرانِـــقِ

وزاد في الحَـــذْرِ علـــى العقـــاعِقِ

وفيه ذكاءٌ عجيبٌ يفرِّق به بين ما يريده راكبه من هزلٍ أو جـــدٍّ، أي: هل يريد الميدان أو الغارة، ويعرف به من طرق ليلاً مـــن عـــدوٍّ أو سارقٍ؛ فيصهل لتنبيه النّاس، وليحذروهم منه، وليعلم مكانه من يريد أن يركبه:

يميـــزّ الهـــزلَ مـــن الحقـــائِقِ ... وينذر الرّكـــبَ بكـــلّ ســـارقِ

ولشدّة جريه تظنّه أخرق قد أتَى بكلّ ما عنـــده حتّـــى إذا أردت استزادة جريه زاده، وهذا عين الحذْق:

يريك خُرْقـــاً وهـــو عـــين الحـــاذقِ

وهو لين المعاطف يحكّ ما شاء من جسده وأنّى شاء، حتّى أشـــبه بذاك الباشِقَ الذي يحكّ أي عضوٍ من أعضائه برأسه ومخالبه:

يَحُكُّ أنَّى شاء حَكَّ الباشِقِ

وهو مهرٌ كريمُ الأمِّ والأبِ:

قوبلُ من آفِقةٍ وآفِقِ بين عتاقِ الخيلِ والعتائقِ

وله عنقٌ طويلٌ يزيد على جذوعِ النّخل طولاً، وهذا من عتقه -أيضاً-، وأعلى حلقه دقيق حتّى لو أراد الخانِقُ أن يطوقه بِفتْرِه لأمكنه ذلك:

فعنقُهُ يربِي على البواسِقِ وحلقُهُ يمكِنُ فِتْرَ الخانِقِ

وبعد: فإنّ وصفه هذا هو الوصف الوحيد الذي جاء في ديوانه على هذه الشّاكلة؛ لأنّه لم يتّخذ ذلك غرضاً، وما جاء له غير ذلك من وصفٍ؛ فإنّما هو في الأبيات القليلة، ومنه ما جاء في قصائدَ غيرِ حربيةٍ؛ كقوله في وصف الفرسِ التِي هجم بها بدرُ بن عمارٍ على الأسد(١):

في سرج ظامئةِ الفصوصِ طمرةٍ يأبَى تفردها لها التّمثيلا
نيالةِ الطّلِبَاتِ لولا أنّها تعطِي مكانَ لِجامِهَا ما نيلا
تندى سوالِفُها إذا استحضرتَها ويُظَنُّ عقدُ عنانِها محلولا

فقد وصفها بأنّها دقيقةُ المفاصل، ليست رَهْلَة رخوة، متفرّدة بالكمال، يأبَى كمالها أن يكون لها نظير، فلا تمثّل بغيرها من الخيل، ثم فصّل بعد إجمالٍ فذكر: أنّها طويلةُ العنق، مشرفة الرّأس، لعلوّه ولقوّتها، وإذا جرت عَرِقَ عنقُها وما حوله، وإذا ما جذبتَ عنانَها أطاعتك حتّى

(١) ديوانه (٣/٣٥٧-٣٥٨)، الطّمرة: الوثابة.

تظنّ أنّ عنانها محلولٌ؛ لأنّها كلّما رفعت رأسها -إطاعة لك- طال عنانها.

وكقوله(١):

ويومٍ كليلِ العاشقينَ كمنتُهُ　　أراقبُ فيه الشّمسَ أيانَ تغربُ
وعيني إلى أُذْنَيْ أغرَّ كأنّه　　من اللّيلِ باقٍ بين عينيهِ كوكبُ
له فضلةٌ عن جسمه في إهابِهِ　　تجيءُ على صدرٍ رحيبٍ وتذهب
شققت به الظّلماء أُدْنِي عنانه　　فيطغى وأرخيه مراراً فيلعبُ
وأصرعُ أيَّ الوحش قَفَّيْتُهُ به　　وأنزل عنه، مثلُهُ حين أركب

فهو يصف ليلةً من لياليه التي سراها متخفيّاً عن الأعداء مستعيناً بفرسٍ ذي حسٍّ مرهفٍ، وقد أشار إلى مراقبته أذُنه لهذه الخاصية؛ لأنّ الخيول الأصلية إذا أبصرت شيئاً تحت دجَى اللّيل البهيم أو أحسّت به، نصبت آذانها حِيَاله، فيعلم الفارسُ أنّها أبصرت شيئاً، وهذا الفرس ذو غرّةٍ في وجهه، ككوكب من كواكب اللّيل في لَمعانِها، وهو فرسٌ رحيبُ الصّدر واسعُ الإهاب، ومن ثَمَّ كان فسيحَ الخطوِ، سريعَ العدوِ؛ إذ لو كان ضيقَ الصّدر لكان خطوه قصيراً، وكذا لو كان ضيق الجلدِ لضاق جلده عن مدّ يديه(٢).

وهذا فرسٌ نشيطٌ لا يملّ السُّرى بل يفرح به، فإذا أدنَى الفارسُ لِجامه وجذبه إليه وثب وطغى، وزاد في جريه، وإذا ما أرخى لِجامَهُ لعب برأسه.

---

(١) ديوانه (١/٣٠٣)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً الإخشيديّ.

(٢) ديوانه (١/٣٠٣).

وهو فرسٌ سريعُ العدو لا يفوته أيّ وحش كان، وكذلك لا يضرّه الجريُ، ولا ينقص من نشاطه؛ لأنّه حينما يَنْزل عنه بعد رحلة صيد طويلة، يَنْزل عنه وهو بكامل نشاطه كوقت ركوبه له أوّل مرَّة.

وكثيراً ما يشير إلى قوّة بصرِ خيوله وحدة سمعها، كقوله(١):

وتنظر من سودِ صوادِقَ في الدُّجَى ... بَرَيْنَ بعيدات الشّخوصِ كماهيا
وتنصبُ للجرسِ الخفِي سوامعاً ... يخلنَ مناجاةَ الضّمير تناديا

يصفها بأنّها ترى الأشياء على حقيقتها في ظلمة اللّيل، حتّى إنّها ترى الشّخصَ البعيدَ كهيئته من القرب، وهذا بخلاف العادة، ويصفها بحدة السّمع وصدقه، وإذا ما أحسّت بجرسٍ خفيٍ نصبت له آذانها، حتّى إنّها لكتاد تسمع ما يناجي به الإنسان ضميرَهُ؛ فكأنّه عندها كالمناداة.

ومنه ما جاء في قصائدَ حربيةٍ كوصفه خيل سيفِ الدّولة التي قادها إلى الطّعان بقوله(٢):

قاد بالجيادِ إلى الطّعانِ ولم يقدْ ... إلاّ إلى العاداتِ والأوطانِ
كلَّ ابنِ سابقة يُغِيْرُ بحسنِه ... في قلبِ صاحبِه على الأحزانِ

فهي خيولٌ أصائلُ معتقةٌ ذات حسنٍ وبهاءٍ، إذا نظر إلى أحدها صاحِبُهُ راقه وسَرَّه بحسنه، وبدّد عنه أحزانَهُ.

وهذا إيجازٌ في الوصف، وأشدّ إيجازاً منه قوله(٣):

---

(١) ديوانه (٤/٤٢٢)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

(٢) ديوانه (٤/٣٠٩).

(٣) ديوانه (١/٣٩٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وتسعدُني في غمرةٍ بعد غمـــرةٍ　　سبوحٌ لها منها عليها شـــواهدُ

فهي فرسٌ تعينه في خوض غمراتِ الحرب، الغمرة بعد الغمرة مـــع سرعة في العدو، كأنّها تسبح إذا عدت، ولها من دلائل الحسن والعتق من حسن الجسم والدّربة على القتال، عليها شواهدُ بيّنةٌ.

ومن وصفه الذي يميل إلى التّفصيل شيئاً ما قوله(١):

جرداءُ مثل الحـــزامِ مُجْفَـــرَةٍ　　تكون مِثْلَي عســِيْبِها الخُصَـــلُ

إن أدبرتْ قلتَ لا تَلِيْـــلَ لهـــا　　أو أقبلتْ قلتَ ما لَهـــا كَفَـــلُ

فهي فرسٌ قصيرةُ شعرِ الجلد، تملأ حزامها لسعة جنبها، واســـتدارة بطنها، وشعرُ ذنَبِهَا طويلٌ يبلغ ضِعْفَيّ عَسِيبها، وهذا مِمّـــا يســـتحبّ في الخيل.

كما أنّها فرسٌ مشرفةُ الكفلِ، عريضةُ الصّدرِ، فإذا مان أدبرت منع إشرافُ كِفْلِهَا من رؤيةِ عِنقِهَا، وإذا ما أقبلتْ منعَ عرضُ عُنقِهَا من رؤية كِفلها، فـــ: ((من حيث تأملتَها وجدتَها مشرفةً عند إقبالها بعنقها، وعند إدبارها بعجزها))(٢).

ومن أوصافه المقدرة قوله في وصف العيون(٣):

والقـــومُ في أعيـــاهم خَـــزَرٌ　　والخيـــلُ في أعيانِهـــا قَبَـــلُ

---

(١) ديوانه (٣/٣٣٠)، من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه ح ٤، (٣/٣٣٠)، وهذه العبارة للواحدِي.

(٣) ديوانه (٤/٣٣٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

وصف خيل ممدوحه بأنّها قُبْل العيون أي: تقبل بإحدى عينيها على الأخرى وذلك لعِزّتها.

وقوله في وصف بطونِهَا بالضّمورِ الشّديدِ(١):

قائدو كلّ شطبةٍ وحصانٍ قد براها الإسراجُ والإلْجَامُ

فهي خيولٌ ضامرةٌ لكثرة ما أسرجتْ وألْجَمتْ للحروب، وجعلها مبريَّةً تشبيهاً لها بالأقلامِ التِي تبرى مرّةً بعد أخرى، وكذلك هي كلّما طالت شقتها وكثر إسراجها وإلْجَامها اشتدّ ضمورها.

ومثل قوله(٢):

وخيلٍ يراها الرّكضُ في كلّ بلدةٍ إذا عرسَتْ فيها فليس تَقِيلْ

فالرّكض قد يراها برى السّهام والنّبال.

ومنه قوله(٣):

على كلّ طاوٍ تحت طاوٍ كأنّه من الدَّمِ يُسْقَى أو من اللّحم يُطعمُ

فالفرس لضموره يوحي لرائيه كأنّه يسقى من دمه ويطعم من لَحمه، فليس له غذاء ولا شراب إلاّ من جسمه، فهو يزداد كلّ يومٍ ضموراً، وهذا على وجهٍ من أوجه تفسير البيت.

(١) ديوانه (٤/٢٢٢)، من مدح أبي الحسين عليّ بن أحمد المرّي.

(٢) ديوانه (٣/٢٢٢)، في مدح سيف الدّولة.

(٣) ديوانه (٤/٧٧)، في مدح سيفِ الدّولة.

ب- كفاءتها القتالية:

تكون الكفاءة القتالية لأمرين:

أوّلهما: الكفاءةُ الجسديّةُ؛ لأنّه لا يمكن لِخيلٍ ما أن تكون خيلَ قتالٍ إلاّ إذا اتّصفت بصفات الكمال الجسديّ -كما تقدّم-.

وثانيهما: الدّربة على القتال.

وخيول ممدوحي المُتَنَبِّي ذات كفاءةٍ قتاليّةٍ عاليةٍ، وذلك أنّ مُمَارستها للقتال طالتْ، فتأدَّبتْ بآداب الوغى، لا تحتاج إلى الأرسانِ لتنقادَ بها، إنّما تدعى فتجيبُ، ولا تبرحُ أماكنها التي تركت فيها كما قال[1]:

إن خلّيتْ ربطتْ بآدابِ الوغىَ فدعاؤها يغنِي عن الأرسانِ

وهي مرهفة الحسِّ تفهم إشارةُ فارسها بطرفه، لا تحتاج إلى زجر أو ضرب بسوطٍ أو جذبٍ بالأرسانِ:

وأدّبَها طولُ القتالِ فطرفُهُ يشيرُ إليها من بعيدٍ فتفهمُ

وقد كرّر هذا المعنَى مرّةً أخرى وزاد في إيضاحه؛ فقال بعده[2]:

تَجاوِبُهُ فعلاً وما تعرفُ الوحى ويُسْمِعُهَا لَحْظاً وما يتكلّمُ

أي لأدبها تجاوبه بفعلها من غير أن يسمعها صوته، ويفهما مراده باللّحظّ من غير أن يتكلّم.

(١) ديوانه (٣٠٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٧٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ومن أدبها: أنّها تركب في أيّ وقتٍ دون لِجامٍ، تقادُ بِمعارفِها بدلاً من الأعنة والأرسان، وتَزَجُرُ بالكلام بدلاً من السِّياط[1]:

حذاراً لَمعرروي الجيادِ فجـــأة إلى الطّعنِ قُبْلاً ما لَهُنَّ لِجـــامُ
تُعَطَّفُ فيه والأعنـــةُ شـــعرها وتُضربُ فيه والسّياطُ كـــلامُ

ولكثرة قتالِها؛ فإنّها تنظر من عيون قد أدْمَى أَحِجَّتَها قرعُ الفوارس إيّاها بالرّماح، وفيه زيادة وصفٍ لها بالإقدام، والهجوم على الأعداءِ طاعةٌ لفرسانها المقدمين دائماً، كما قال[2]:

ينظرنَ من مُقلٍ أدْمَى أحجَّتَهَا قرعُ الفوارس بالعَسَّالة الـــذُّبُلِ

ولكثرة تدريبها وخبرتها القتالية؛ فإنّها تبلغنا آمالنا وغاياتنـــا التِـــي نصبو إليها من الوصول إلى أقصى ديار الأعداء، وهي لِمَا عودتنا ذلـــك فنحن نسحن الظّنّ بها[3]:

نقودُ إليها الآخذاتِ لنا المدى عليها الكماةُ المحسنونَ بها الظَّنا

(١) ديوانه (١١٠/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيف الدّولة وقبله:
تنام لديك الرُســـل أمنـــاً وغبطـــةً وأجفان ربّ الرُّسْل لـــيس تنـــام

(٢) ديوانه (١٦٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدولة، وقبله:
أجرِ الجيادِ على ما كنت مجريهـــا وخذ بنفسك في أخلاقـــك الأوَّلِ

(٣) ديوانه (٢٩٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ووصف خيلِ أعداء سيفِ الدّولة من بنِي كلابٍ بأنّها خيلٌ تعودت قطع المفاوز على غير علفٍ وماء، حتّى كأنّ غـداءها الـرّيح، وماءهـا السّرابُ؛ لأنّها عِرَابٌ مُضَمَّرة، معودة قلة العلفِ والماء[1]:

وخيلاً تعتدِي ريــح المـوامِي ويكفيها من المـاء السّـرابُ

وهي خيلٌ محبّة للحرب لكثرة ما خاضت مـن غمراتها، تلقاهـا مسرعة إليها، كما ترد القطا الصُّمُّ الماءَ، مسرعةً في الورود، وجعل القطا صُمّاً كي لا تسمع شيئاً تتشاغل به عن الطّيرانِ، فيكون عوناً لهـا علـى الإسراع[2]:

وتلقى نواصيها النايا مشـيحَةً ورودَ قطاً صُمٌّ تشايحن في وِرْدِ

ومثله قوله[3]:

ملاقيـةً نواصِـيها المنايـا معـوَّدَةً فوارسَـهَا العناقـا

فهي تلقى بنواصيها المنايا مقدمة مسرعة.

ونتيجة لإقدامه هذا؛ فإنّ النّبل يَنْصَبُّ على صدره كأنّه وَبْلٌ، ومع ذلك فهو لا ينالي له، ويمضي قدماً[4]:

---

(١) ديوانه (٢١٢/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة، وقبله:

ولاقـى دون ثـأيهم طعانـاً يلاقي عنـده الـذّئبَ الغـرابُ

(٢) ديوانه (١٦٧/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عضد الدّولة، وتشايحن من شـايح في الأمرإذا جدّ وأسرع.

(٣) ديوانه (٤٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٣٠٣/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها شجاع بن محمّد الطّائِيّ.

على سابحٍ موجُ المنايا بنحــرِهِ غداةَ كأنّ النّبلَ في صدره وَبْلُ

ومن كفاءهَا القتالية: خِفَّتُهَا ولينُ مفاصِــلَهَا، وإطاعَــةُ فارِسِــهَا يُصَرِّفُها، كيفما شاء، تتثَنّى معه على قدر حاجته، فكلّما عطفها يمنــةً أو يسرةً من أجل الطّعن بالرّمح أطاعته، وكأنّ مفاصلها مِرْوَدٌ، حرُّ الحركــة يتحرّكُ في كلّ جهةٍ[1]:

تثَنَى على قدرِ الطّعان كأنّمــا مفاصِلُهَا تحتَ الرّماح مــراوِدُ

ومن كفاءهَا القتالية: قدرهَا على السّير في ظلمةِ الغبارِ الكثيــفِ، الذي يحجب الرّؤية، وكأنّها لذلك تبصر بآذانها، والواقعُ أنّها تمكنت من ذلك لِحدّة نظرها مستعينةً بآذانها في دقّة الحسّ[2]:

في جَحفلٍ سترَ العيونَ غبــارُهُ فكأنمــا يبصــرنَ بــالآذانِ

ومن كفاءاهَا القتالية: أنّها خيول مقدمة تهجم بفارسها على الأعداء فيأخذ طَلِبَتَهُ منهم تَهجُمُ به عليهم، وهو غضبانُ محنقٌ، فتعود بــه، وقــد رضي بِما حقّق من الانتصاراتِ، وما أبدت هي من المهــارة في ميــدان المعركة.

وقدّت إليهم كلّ أجرد ســابحٍ يؤدّيك غضباناً ويثنيك راضيا[3]

---

(١) ديوانه (١/٣٩٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والمراد: جمع مرود، وهو: حديدة تدور في اللّجام.

(٢) ديوانه (٤/٣١٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة، وهو متعلّق بقوله:

قاد الجياد إلى الطّعان ولم يقــد إلاّ إلى العــادات والأوطــان

(٣) ديوانه (٤/٤٢٩)، من أوّل قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

ومن كفاءتها القتالية: استطاعتها عبور الأنهارِ والخلجانِ سبّاحةً، وهي حاملة فرسانها، تقسم الموج بصدرها قسمين؛ فينجفل الموج أمامها كتجفّل النَّعَم من غنمٍ وإبلٍ وبقرٍ، عن الغارّة المصبوبة عليه، كما قال عن خيل سيفِ الدّولة[1]:

وجاوزوا (أرسناساً) معصمين به ... وكيف يعصمهم ما ليس ينعصمُ
وما يصدُّكَ عن بحرٍ لهم سعةٌ ... وما يردُّكَ عن طودٍ لهم شممٌ
ضربتَهُ بصدورِ الخيلِ حاملةً ... قوماً إذا تلفوا قدماً فقد سلموا
تَجَفَّلَ الموجُ عن لباتِ خليهِمُ ... كما تجفلَ تحتِ الغارةِ النَّعَمُ

ومثله قوله[2]:

حتّى عبرنَ ب"أرسناسَ" سوابِحاً ... ينشرنَ فيه عمائمَ الفرسانِ
يقمصن في مثل المدى من باردٍ ... يذرُ الفحول وهنّ كالخصيانِ
والماءُ بين عجاجتينِ مُخَلِّصٌ ... تتفرقانِ به وتلقيانِ

وقوله[3]:

يا ربَّ لُجٍّ جُعِلَتْ سفينَةً ... وعازبُ الرّوضِ تَوَفَّتْ عونَهْ

وقوله[1]:

---

(١) ديوانه (٤/١٣٦).

(٢) ديوانه (٤/٣١٠-٣١١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٤/٣٠٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

عازب الرّوض: بعيدة، توفت: أهلكت أو أخذتها وافية، وعونه: جمع عانه، وهي حمر الوحش.

... ... وهنّ مع النّينـــانِ في المـــاء عُـــوَّمُ

ومن كفاءها القتالية: صعودها الجبال لا تخشى وعورَها ولا يمنعهـــا عن تسلّقها ارتفاعُها، كما قال[٢]:

... ... وهنّ منع العقبانِ في النِّيْـــقِ حُـــوَّمُ

فهي تتبّع الأعداءَ في رؤوسِ الجبالِ؛ حيث وكور جوارح الطّـــير، فتقتلهم هناك، حتّى تكثر مطاعهم الطّير حول وكورها[٣]:

تدوسُ بك الخيلُ الوكورَ على الذّرى وقد كثرت حول الوكورِ المطاعمُ

حتّى إنّ فراخ إناث العقبان تظنّ أنّ خيلك أمّاها، لَمّا رأها صعدتْ هذه الجبالَ الشّاهقةَ وبلغتْ وكورها[٤]:

---

(١) ديوانه (٤/٧٢).

وصدره:

فهنّ مـــع السّـــيدان في الـــبر عســـل ... ...

من قصيدةٍ يمدح ها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٤/٧٢).

وصدره:

وهنّ مع الغزلان في الـــوادِي كُمَّـــنٌ ... ...

(٣) ديوانه (٤/١٠٤)، من قصيدةٍ يمدح ها سيفَ الدّولة.

الوكور: جمع: وَكْرٍ، وهو موضع بيضِ الطّير.

(٤) بعد البيت السّابق، (٤/١٠٥).

الصّلادم، جمع: صُلْدم، وهي الفرس الشّديدة.

تَظُنُّ فراخُ الفُتْخِ أنّك زرتَهَـــا بأمّاتها وهي العتاقُ الصّـــلادمُ

وصوّر مهارتها بأنّها تزحف على بطونها، كلّما تعثرتْ في الصّخور الصّمّ، فشبّهها في ذلك بالحيّاتِ العظامِ الزّاحفةِ على الأرض، وفيه بيـــانُ سهولةِ هذا الزّحفِ على الخيلِ لحركتها الإنسيابيّة في يسرٍ وخفّةٍ(١):

إذا زَلِقَتْ مشـــيتَهَا ببطونِهَـــا كما تمشي في الصّعيدِ الأراقـــمُ

وهي خيلٌ قد ألفت القتال ودوس جماجمِ الأعداء، لا تنفـــر مـــن ذلك، حتّى كأنّها كانت تسقى اللّبن قديماً في هذه القُحوف(٢):

كأنّ خيولَنَـــا كانـــت قـــديماً تُسَـــقّى في قُحُـــوفِهم الحليبـــا

فَمَرَّتْ غـــير نـــافرةٍ علـــيهم تدوس بنا الجمـــاجمَ والتّريبـــا

٣–السّفن الحربية:

لم أحد للمُتَنَبِّي وصفاً للسّفن والزّوارق البحرية إلاّ بضع أبياتٍ من قصديتين مدح بهما سيفَ الدّولة، وعَدَّ عتاده الحربـــي، وفيـــه السّـــفن والزوارقُ.

---

(١) بعد البيت السّابق، (١٠٥/٤).

الأراقم: الحيات فيها سواد وبياض.

(٢) ديوانه (٢٦٥/١).

القحوفُ، جمع: قُحْفٍ، وهو العظم الذي فوق الدّماغ.

التّريبا: عظم الصّدر.

من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد بن سيار التّميميّ.

الوصف الأوّل: شبّه فيه هذه السّفن –عن طريق الألغاز– بالخيل فجعلها تعدو مسرعة ولكنّها خيلٌ لا قوائمُ لها، ولا تلد، وألوانها سودٌ؛ لأنّها مقيِّرة، وتحمل في بطونِها ما سبتْ الخيول من نساءٍ وأطفالٍ، والنِّساءُ فيها كأنّهنّ المها، وهي لَهنّ مرابضٌ:

وحشاهُ عاديةً بغير قوائمٍ ... عُقْمُ البطونِ حوالكُ الألوان
تأتِي بِما سبت الخيولُ كأنّها ... تحت الحسانِ مرابضُ الغزلانِ

والوصف الثّاني: شبّهها فيه أيضاً بالخيول الكريمة التي يُعتَنى بها، وتُقَرَّب من أهلها، وجعل زبد الموج المتعلّق بمقدمتها كالبياض في جحفل الفرس، وهي جيادٌ دَهْمُ الألوان، وفرسانُها يركبون بطونها، ومع أنّها مجهدة بسرعة السّير إلاّ أنّ التّعب والكدّ واقعٌ على ملاّحيها لا عليها فهي لا تشعر به، وهي جيادٌ كادَ العدّوُ بها مراراً، لكنّها لا تشبه جياد الخيل لا في الخَلْق ولا في الخُلْق[1]:

تلقى بهم زبدُ التّيار مُقْرَبَةٌ ... على جَحَافِلِها من نضحه رَثَمُ
دَهْمٌ فوارسها ركاب أبطنِها ... مكدودة وبقوم لا بِهَا الألم
مِنَ الجيادِ التِي كدت العدو بها ... وما لها خِلَقٌ منها ولا شِيَمُ

---

(١) ديوانه (١٣٨/٤).

والضّمير في (هم) يعود إلى الأطفال الحُرْمُ الذين سبوا، وقد ذكرهم في البيت قبله:

قاسمتها تلَّ بطريقٍ فكان لها ... أبطالُها ولك الأطفالُ والحُرَمُ

يعنِي: قاسمت السّيوفُ مَن في الميدان من النّاس، فلها الأبطالُ ولك السّبْيُ.

٣- السّيوف:

يرى المُتَنَبِّي أنّ في السّيوف استدامة النّعم؛ لأنّها مُنَبِّتَةٌ للأمن، ومُخْضِعةٌ للأعداء خاصّة إذا اجتمع معها الشّكر، ولذا قال مُخاطِباً سيفَ الدّولة(١):

مُقَلَّداً فوقَ شكرِ اللهِ ذا شُطَبٍ ... لا تستدامُ بأمضى منهما النَّعَمُ

وهي إمّا دواءٌ أو داءٌ، دواء لِمَن أدرك بها طَلِبَتَهُ من ملكٍ أو انتصارٍ على الأعداء؛ لأنّها تشفي ما يجد في نفسه من غيظٍ وحنقٍ، و داء لِمَن لم يجد بها طَلِبَتَهُ، و لم يحقّق فيها أُمْنِيَّتَهُ، فبقتل دون ذلك أو أو يقتل نفسه بها(٢):

والمَشْرِفيَّةُ لا زالت مُشَرَّفَةً ... دواءُ كلّ كريمٍ أو هي الوجعُ

ولهذا؛ فقد فضّلوا استخدامَ السّيوف على الرّماح، واحتقروا الرّماحَ لها، ولأنّ السّيف أدلّ على الشّجاعة، وأشفى لقلب الفارس، وأوجعُ في الأعداء، كما قال مُخاطِباً سيفَ الّدولة(٣):

حقرت الرُّدَينيّاتِ حتّى طرحتَها ... وحتّى كأنّ السّيفَ للرّمحِ شاتِمُ

ومن طلبَ الفتحَ الجليلَ فإنّما ... مفاتيحُهُ البيضُ الخفافُ الصّوارمُ

ولأنّها أكثر إفناء لَهم من غيرها، كما قال(٤):

---

(١) ديوانه (١٤١/٤).

(٢) ديوانه (٣٣٢/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها يسفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (١٠٤/٤).

(٤) ديوانه (٦٦/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها والياً بالشّام.

يَقُدْنَ الفنــاءَ غــداةَ اللّقــاءِ إلى كلِّ جيشٍ كــثيرِ العَــدَدْ

والسّيوف لا تعملُ وحدَهَا ما لم تكن في يد بطلٍ شجاعٍ صــنديدٍ مغوارٍ، ويصبحُ حَدُّهُ وهو في يد الجبان كالجبان الذي لا يستطيع أحيانــاً حتّى الفرار[1]:

إنّ السّيوفَ مع الذين قلــوبُهُمْ كقلوبِهِنَّ إذا التقــى الجمعــانِ
تلقى الحسامَ على جراءةِ حَدِّه مثلَ الجبانِ بكفّ كلِّ جَبَــانِ

ولَمّا جعل للفرسان قلوباً جعل لها-أيضاً- قلوباً، فإذا صار قلــب الفارس كقلب السّيف، كان النّصر حليفَ حاملِها.

ومثله قوله عن كافورٍ[2]:

إذا ضَرَبَتْ في الحربِ بالسّيفِ كَفُّه تَبَيَّنْتَ أنّ السّيفَ بالكفِّ يضــربُ

هذا، وقد شبّه الُمتَنَبِّي السّيفَ بعدّة أشياء فمرّةً بالنّار؛ فقال[3]:

وفي أكفّهم النّارُ التِي عُبِــدَتْ قَبْلَ المجوسِ إلى ذا اليوم تضطرمُ

وتشبيهه لها بالنّار لإهلاكها الأعداء، أو لِما فيهــا مــن اللّمعــانِ والبريق، وهي نارٌ تحرقُ جماجمَ الأعداء وتقُطعُ أيديهم، وشبهَ أيديهم حال

(١) ديوانه (٣١٦/٤-٣١٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣٠٦/١).

(٣) ديوانه (١٣٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

تقطيعه إيّاها بالفراشِ الذي يتهافَتُ على النّار، كما قال(١):

كأنّ على الجماجمِ منــه نــارٌ   وأيدي القومِ أجنحةُ الفــراشِ

وشبّهها وهي في أيدي الفرسان بالبرق يلوحُ في متــون الغمــامِ؛ فقال(٢):

وكأنّ برقاً في متــون غمامــه   هنديــةٌ في كفّــه مســلولا

ويقصد بالغمام الغبار المتراكب فوق بعضه، فشّه البرق بين الغمــام بلمعان السّيوف فيه، وشبّهها حال خروجها من الغُمُــود وانغمادهــا في هامات الأعداء بالشّموسِ تَخرج من مشــارقها، وتغيــب في مغاربهــا؛ فقال(٣):

طلعنَ شموساً والغُمُودُ مشارقٌ   لَهنَّ وهاماتُ الرّجالِ مغــاربُ

وشبّهها -وهي مصلّتةٌ حال الاّتجاه إلا الأعداءِ والرّماحُ محطيةٌ بها- بالشّعل؛ فقال(٤):

وَرَدَتْ بلادَك غــيرُ مغمــدةٍ   وكأنّهــا بــين القنــا شُــعَلُ

(١) ديوانه (٣١٨/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر الحمداني.
(٢) ديوانه (٣٥٣/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.
(٣) ديوانه (٢٣٥/١)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد يوسف التّنوخِيّ.
(٤) ديوانه (٢٣/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها عضد الدّولة، والخطــاب لوهشــوذان عدوّ عضد الدّولة.

وشبّهها بالألسنة وجعل رؤوس الأعداءِ أفواهاً لها، فهي تتحـــرَّكُ في تلك الرّؤوسِ تحرُّكُ الألسنةِ في الأفواه؛ فقال(١):

ولّى صوارمَهُ إكذابُ قـــولِهِمُ   فهنَّ ألســـنةٌ أفواهُهَـــا القِمَـــمُ
نواطِقٌ مخـــبراتٌ في جمـــاجمِهِمْ   عنه بِما جهلوا منه وما علمـــوا

وجعلها تخبر عن سيف الدّولة إذا وقعت في رؤوسهم بِما جهلوا منه وما علموا من إقدامٍ وشجاعةٍ.

وهي سيوفٌ قويّةٌ تفري الدّروعَ على مَن تحصنَ بها كما قال عـــن بنِي حمدان(٢):

والمخفِرِينَ بكلّ أبـــيضَ صـــارمٍ   ذِمَمَ الدّروعِ على ذوي التّيجانِ

فإنّه لَمّا جعل الملوك في ذمم الدّروعِ؛ لأنّهم تحصنوا بها، وهي وقاء لهم، فكأنّهم في خفارَتِهَا، جعل سيوفَ بنِي حمدان تنقضُ تلـــك الـــذّممَ بهتكِ دروعِهِمْ والوصول إلى أرواحهم(٣).

وهي سيوفٌ لها غرامٌ بالدّماءِ والرّقابِ، وقد صوّر هذا الغرامَ بعـــدِ صورٍ منها:

أنّ مَن رآه يُغْرِقُ في سفكِ الدّماء ظَنَّهُ يفعل ذلك عطشاً، وظَـــنَّ أنّ أرواح الأعداء ماءً نميراً صافياً، فهو يُسْرِعُ إلى ارتشافهِ بقطعِ الرّقابِ(٤):

---

(١) ديوانه (٤/١٣١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٤/٣١٢).

(٣) ديوانه ج ٢ (٤/٣١٢).

(٤) ديوانه (٢/٣١٨)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر.

كأنّ جوارِيَ المُهَجَاتِ مـــاءٌ　　بعاودها المنهدُ مـــن عطـــاشِ

وممّا يدلّ على كثرة ما شربه أنّه لو قذف ما شرب من هذه المهـــجِ لسالت منه كبحر مزبد[1]:

ريّانَ لو قذفَ الذي أســـقيتَهُ　　لجرى من المّهَجَاتِ بحرٌ مزبـــدُ

ومنها قوله[2]:

رَقّتْ مضاربةٌ فهـــنّ كأنّمـــا　　يُبْدِينَ مِنْ عشقِ الرّقابِ نُحولا

فقد جعل مضارب سيوفِهِ رقيقةً ماضيةً، وعلّل سبب هذه الرّقبـــةِ بأنّها لعشقها رقابَ الأعداءِ، فنحلت كما ينحلُ العاشقُ من جرّاء العشق، والواقع أنّ الرّقّة ناجمةٌ عن كثرةِ القطعِ به وبَرَي حَدِّه، وفي هذا دلالةٌ على شجاعة الممدوح.

ومنها قوله[3]:

كأنّ الهامَ في الهيجـــا عيـــونٌ　　وقد طُبِعَتْ سيوفُكَ من رقـــادِ

فلإنّ سيوفَهُ لا تقع إلاّ على الهامِ، ولا تَحُلّ إلاّ على الرّؤوس، جعل الرّؤوس كالعيون والسّيوفَ كالرّقادِ، والرّقادُ لا يحلّ إلاّ في العيون؛ فهذه السّيوف لا تحل إلاّ بالرّؤوس.

---

(١) ديوانه (٣/٦٠)، من قصيدةٍ يمدح بها شجاع بن محمّد الطّائيّ.

(٢) ديوانه (٣/٣٥٤)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٣) ديوانه (٢/٨٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

كما جعل سيفه مبصراً حديدَ البصرِ لا يقع إلاّ في مقتلٍ، فهو يصلُ إلى قلبِ الفاسِ في المواضعِ التِي لا يرى الفارس فيها نفسه، من كثرة الغبار، وذلك لوقوعه في هذه القلوب أيضاً(١):

يرى حَدُّهُ غامضاتِ القلوبِ   إذا كنتُ في هَبْوَةٍ لا أراني

وسيوف ممدوحه مطيعةٌ له، تطيعه إذا أمرها بطقع رقاب الأعداء حتّى إذا طلبها الكفّ عن القتل والقطع، أو ضَنَّ بأحدٍ ما عن القتل؛ فإنّها لا تطعيه، بل تعصيه، ولا تبقى أحداً أمامها لشدّة مضائها، وفيه دلالةٌ على غرامها بهذا، فهي كالعاشق الذي لا يسمع ملام لائمٍ أو عذل عاذلٍ، بل يقدم على لقاء محبوبه كلّما سنحت له فرصة(٢):

ومُختَرطٍ ماضٍ يُطِيعُكَ آمراً   ويَعْصِي إذا استثنيتَ لو كنت ناهيا

وسيوف ممدوحه مانعةٌ للأعداء عن العَودِ؛ لأنّهم رأوها قد أكثرت القتل فيهم، ولم تبق منهم من يجرح ولا يموت فؤسر(٣):

هيهات عاقَ عن العِوَادِ قواضبٌ   كثر القتيلُ بها وقلّ العانِي

ومن صورة البديعةُ التِي أبرز بها عمل هذه السّيوف وكثر عِيَاثِها بالأعداء، قوله(٤):

(١) ديوانه (٣٢٤/٤)، فخر على لسان أحد التّنوخيّين.

(٢) ديوانه (٤٣٠/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

(٣) ديوانه (٣١٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (١٣٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وأصبحتْ يَقْوَى هنْزيطَ جائلة ترعى الظّي في خصيبٍ نبتُهُ اللِّمَمُ

فإنّه جعل قطع السّيوف للرّؤوس كأكل المهائمِ لمرعَى خِصْب.

هذا، وأطول وصف له في السّيفِ وصفه لسيف أهداه ابن العميد ومنه قوله:

قَلَّـــدَتْني يمينـــه بحســـامٍ أعقبتَ منـــه واحـــداً أجـــدادُهْ

فهو سيفٌ قاطعٌ، لم يطبَعْ مثله، ولا نظيرَ له؛ لأنّ أجداده من الحديد لم تلدْ غيرَه.

كَلَّما استَلَّ ضـــاحَكَتْه إيّـــاة تـــزعم الشّـــمس أنّهـــا أرْآدهْ

فكلّما جُرِّدَ من غمدِهِ برقت في صفحته إيّاه الشّمس وهي ضوؤها وشعاعها ونورها وحسنها، ولشدّة هذا البريق ظنتِ الشّمس أنّها تِرْب له، أي مثله، أو أنّه شمسٌ أخرى، فهي مقاربةٌ لها بالضّياء، فضوؤها كضوئه، والمراد أنّه شديدُ التّلألؤ والبريقِ واللّمعانِ.

وهو سيفٌ حادٌّ إذا ضرب به الفارسُ المقنّع في سلاحه قطعه نصفين من فوقه إلى أسفل منه، وقطع السّرج أيضاً، فلا يســلم منــه إلاّ جانبــا السَّرج لانحراقها على الجانبين[1]:

يقسم الفارسَ المدجحَ لا يَسْلَـــمُ من شـــفرتيه إلاّ بِـــدَادُهْ

---

(١) ديوانه (٢/١٥١-١٥٢).

٤- الرّماح:

الرّماح من عدد الحرب التي يكثر منها الجند حتّى تكون لهم كالدّروع يعتصمون بها كما قال[١]:

صفوفاً لِلّيْثِ في لُيُوثٍ حصونُها   متونُ المذاكي والوشيجُ المقوّمُ

وفائدها أنّها تُذْهب الغيظ وتَشْفي غِلّ الصّدرو، كما قال[٢]:

فرؤوس الرّماحِ أذهبُ لِلْغَيْـ   ـظِ وأشْفَى لِغِلِّ صدرِ الحقودِ

وقد تصير هذه الرّماح للدّروع كالخَمَل للثّياب، وذلك إذا كانت كثيرةً وحملها الفرسان المتدرّعون في نطاقٍ حول دروعِهِم؛ كقوله[٣]:

ومَلمومةٌ زَرَدٌ ثوبُها   ولكنّه بالقنا مُخْمَلُ

ويرى المُتَنَبِّي أنّ الرّماح لا تغنِي شيئاً إذا لم تكن في أيدي أبطال كرام، ولذا قال[٤]:

وما تنفع الخيلُ الكرامُ ولا القنا   إذا لم يكن فوق الكرامِ كرامُ

---

(١) ديوانه (٤/٢١١)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

وصفوفاً؛ حال من تاء الفاعل في الفعل برزت في قوله قبله:

ومن عاتقٍ نَصْرانةٍ برزت له   أسيلَةِ خدٍّ عن قريبٍ سَتُلْطَمُ

(٢) ديوانه (٢/٤٦)، من قصيدة يمدح بها حاله في صباه.

(٣) ديوانه (٣/١٩٥)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

الملمومة: كتيبةٌ مجتمعةٌ.

(٤) ديوانه (٤/١١٠)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

ولكثرة استعمالهم الرّماحَ أرهبوا الأعداءَ، فجازوا أرضهم دون أن يعترضهم معترضٌ، كما قال[١]:

إذا لم تُجزْهُم دارَهُم عن مودَّةٍ أجازَ القنا، والخوفُ خيرٌ من الوُدِّ

ومن إخافتها لهم أنّ بعضهم يحلُمُ بها في منامه، فيرى الرّمح قد وَلَجَ جوفه وانغمس في كلاه؛ فكيف لو رآها عياناً بياناً؟![٢]:

وكيف يبيتُ مُضطجِعاً جبانٌ فَرَشْتَ لجنبِهِ شوكَ القَتَادِ

يرى في النّومِ رمحَكَ في كُلاَهُ ويخشى أن يراهُ في السُّهَادِ

ومن ثمرات إكثار ممدوحه من الرّماح حيازتُها الأموالَ له وكسبها من الأعداء كما قال[٣]:

وتحيي له المالَ الصّوارمُ والقَنَا ويقتل ما تحيي التّبسمُ والجدا

ويفضلُ الفرسانَ من الرّماحِ ما كانت ليِّنةً طويلةً رُدَيْنِيَّة، كما قال[٤]:

وسمراءَ يستغوي الفوارسَ قدُّها ويُذْكِرُها كراتِها وطعانَها

رُدَيْنِيَّةٌ تَمَّتْ فكاد نباتُها يُرَكِّبُ فيها زُجَّها وسِنَانَها

---

(١) ديوانه (٢/١٦٤)، من قصيدة يمدح بها ابن العميد.

(٢) ديوانه (٢/٨٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٢/٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٤/٣٠٣)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

فهي من نبات حسن، وحسنُهُ كاد يُرَكِّب فيها زُجَّها وسنانَها لتبلغ ذروة الكمال.

أمّا من حيث طولُها فهم يفضّلون ما تتابعتْ أكعبُهُ وسلمتْ من الإعواج، كما قال(١):

وحماها بكلّ مطـردِ الأكعـب جـور الزّمـانِ والأوجـالا

وقد ذَكَرَ أنّ كافوراً بلغ المجدَ بعدّة أشياء، منها: الرّماح الطّويلة ذات العشرين كعباً، فهي التي يرضاها للولوغِ في دماء الأعداء، كما أنّها ترضاه لأن يكون هو مَورِدَها؛ فقال(٢):

وأسمر ذي عشرينَ ترضاه وارداً ويَرْضاك في إيراده الخيلَ ساقيا

أمّا مواقع هذه الرّماح من أجسادِ الأعداءِ فكثيرةٌ؛ لأنّ كلّ الأجسادِ حلالٌ لها تتخيَّرُ منها منا تريدُ، ولكنّها لا تختارُ إلاّ المواقعَ القاتلةَ؛ لأنّها قد ضمنتْ مُهَجَ الأعداءِ لِحاملِها، كما قال عن سيفِ الدّولة(٣):

فقد ضَمِنَتْ له المُهَجَ العـوالي وحَمَّلَ همَّـه الخيـلَ العتَاقـا

ووفاء منها بهذا الضّمان؛ فإنّها لا تقـع إلاّ في مقتـلٍ؛ كـالقلوب مثلاً(٤):

(١) ديوانه (٣/٢٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٤/٤٣٠).

(٣) ديوانه (٣/٤٤).

(٤) ديوانه (٢/٢٨)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبيد الله العلوي (المشطّب).
والجارر والمجرور متعلّقٌ بقوله عن الصّحراء قبله:

=

إلى فتًى يُصْدِرُ الرّمــاحَ وقــد أَنهَلَهَا في القلــوبِ موردُهــا

وأدلّ منه قوله الخيالي(١):

وقد صُغْتَ الأسنةَ من هُمُــومٍ فمــا يَخْطُــرْنَ إلاّ في فــؤادِ

فإنّه لَمّا أراد أن يثبت أنّها لا تقع إلاّ في القلوب جعله صائغاً لها من الهموم ولا محلّ للهموم إلاّ القلوب فهي تأوي إليها.

أو في اللّغاديد كما قال(٢):

قد ماتَ من قَبْلِهــا فأَنْشَــرَهُ وَقْعُ قنــا الخــطِّ في اللّغاديْــدِ

أو في المناحِرِ والجيوبِ، كما قال(٣):

مُجَلِّحَةٌ لهــا أرضُ الأعــادِي وللسّــمرِ المنــاحِرُ والجيــوبُ

أو في اللّبّاتِ والصّدورِ، كما قال(٤):

مرتميات بنا إلى ابــن عبيــد الله غيطانَهــا وفــدفــدها

(١) ديوانه (٢/٨٠)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبدي الله العلوِي (المنشطب).

(٢) ديوانه (١/٣٨٧)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا وائل بن عمّ سيفِ الدّولة.

والضّمير (مات) عائدٌ إليه.

ومراده في البيت: أنّه أُسر قبل هذا فاستنقذه سيفُ الدّولة بالقوّة.

واللّغاديد: لحمات بين الحنك وصفحة العنق. القاموس مادة (ل غ د).

(٣) ديوانه (١/٢٠٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ومُجَلِّحَةً: حالٌ من الخيل في قوله قبله:

وما بك غــيرُ حبِّــك أن تراهــا وعِثْيَرُهــا لأرجلــها جَنِيْــبُش

(٤) ديوانه (٢/٢٠٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

يُغَــادِرُ كــلَّ ملتفــتٍ إليــه ولَبَّتــهُ لثعلَبــهِ وُجَــارُ

أو في الأحداق يَميناً وشِمالاً، كما قال[1]:

طَاعِنُ الأعداءِ في الأحداقِ شَزْراً وعجاجُ الحربِ للشّمسِ نِقَابُ

ومنه قوله[2]:

وكم عينِ قِرْنٍ حَدَّقَتْ لِنزَالــه فلم تُغْضِ إلاّ والسّنانُ لها كُحُلُ

فقد جعل الرّمحَ كالكُحْلِ لا يوضع إلاّ في العين.

أمّا مواقعها من الخيل؛ فإنّها تقع في أَحِجَّتِها وعيونها، والوجه عامة، كما قال[3]:

ينظرونَ من مُقَلٍ أَدْمَى أَحِجَّتَها قرعُ الفوارس بالعَسَّالةِ الذُّبُلِ

أي: إنّ خيولك تنظر من عيونٍ قد دَمِيَتْ أَحِجَّتُها من جَرَّاءِ قَــرعِ الفوارسِ لها بالرّماح اللّيِّنة المضطربة.

أو في صدورها، كما قال عن خيل سيف الدّولة[4]:

إذا جلبَ النّاسَ الوشيجَ فإنّمــا بِهــنَّ وفي لبّــاتِهِنَّ يُحَطَّــمُ

وفي هذين البيتين دلالةٌ على إقدامِ هذه الخيل، وعلى شجاعة فرسانها أيضاً.

---

(١) ديوانه (٢٦٢/١)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٣٠٤/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها شجاع بن محمّد الطّائيّ.

(٣) ديوانه (١٦٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولــة، و الأحجــة: جمــع حجاج، و هو العظم الناتيء فوق العين. القاموس مادة: (ح ج ج).

(٤) ديوانه (٧٢/٤).

ولهذا؛ فهِيَ مغرمةٌ بسفكِ الدّماء كما قال(١):

وكـــلَّ خَطِّيَّـــة مثقفـــة يهزّهـــا مـــارِدٌ علـــى مَـــارِدْ
سوافكُ مـــا يـــدعنَ فاصـــلةً بين طَرِيٍّ الـــدّماءِ والجاســـدْ

فقد جعل الرّماحَ الخطِّيّةَ القويّةَ المستويةَ خليفةً عنه حينما غـــاب، وهي رماح سوافكُ للدّماء ما إن يَجفَّ دمٌ إلاّ وتُرْدِفُهُ دماً طَرِّياً.

حتّى اكتست هذه الرّماح بالدّماء فسالت مِنْ على كَعْبَيْ كلّ منها، كما قال(٢):

وكلُّ أَصَـــمّ يَعْسِـــلُ جانبـــاهُ على الكعبينِ منه دمٌ مُمَـــارُ

ومثله قوله(٣):

وَيُرْجِعُها حمراً كأنَّ صحيحَها يُبَكِّي دماً من رحمة المُتَـــدَقِّقِ

أي: ويَرَدُّ سيف الدّولة الرّماح من القتال متلطّخةً بالدّماء، تقطـــر منها؛ كأنّ صِحَاحَها تبكي على ما تكسر منها من شدّة الطّعنِ رِثَاءً لهـــا ورحمةً(٤).

---

(١) ديوانه (٢/١٧٨-١٧٩)، من قصيدةٍ يمدح بها عضدَ الدّولة، والبيتان عطـــف على قوله:

ولم يُغِـــبْ غائـــبٌ خليفَتُـــهُ جـــيشُ أبيـــه وجـــدِّهِ الصّـــاعِدْ

(١) ديوانه (٢/٢٠٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٢) ديوانه (٣/٥٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٣) ديوانه ح ٢ (٣/٥٤).

ولقوّة ضربهم بالرماح، فإنّ الدّروعَ أمَامَها كبيت العنكبوتِ، فهي تُمَزِّقُ الدّروعَ والجَوَاشِنَ، وتَهُدُّ الأسوارَ والخنادقَ على مَن بهـا، كمـا قال[1]:

قواضٍ مواضٍ نسجُ داودَ عندها ... إذا وقعت فيه كَنَسْجِ الخَـدَرْنَقِ
هوادٍ لأملاك الجيوشِ كأنّهـا ... تَخَيَّرُ أرواحُ الكمـاةِ وتنتقـي
تَقُدُّ عليهم كُلَّ درعٍ وجوشنٍ ... وتفري إليهم كلّ سُورٍ وخندقِ

ولها صوتٌ عند الطّعن بها كما قال عن غِلْمَانه[2]:

ناشوا الرّماحَ وكانت غيرَ ناطقةٍ ... فعلموها صياحَ الطّيرِ من البُهَمِ

ورماحُ سيفِ الدّولة قصيرةُ الأعمار، لكثرة حروبه؛ فإنّها تتكسّرُ في صدور الأعداء، وأكثر منا تبقى لديه سنةً كاملةً، وذلك حينما يكون بينه وبين الرّوم هدنةٌ، كما قال[3]:

وإن طال أعمار الرّماح بهدنـةٍ ... فإنّ الذي يُعْمَرْنَ عندك عـامُ
وما زِلْتَ تفنِي السّمرَ وهي كثيرةٌ ... وتفنِي بِهنّ الجيش وهو لُهـامُ

هذا، وقد شبّه هذه الرّماح بعدّة أشياء:

فمرّةً شبّه سنانَها بالنّار، وجعل القناةَ شمعاً له؛ لأنّه محمولٌ عليهـا؛ فقال[4]:

---

(٤) ديوانه (٣/٥٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٥) ديوانه (٤/٢٨٩)، من قصيدةٍ يمدح بها رحلته وخروجه من مصر.

(١) ديوانه (٤/١١٤).

(٢) ديوانه (٢/٣٣٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة أيضاً.

تَهْدِي نَواظِرَها والحربُ مظلمــةً   من الأسنةِ نارٌ والقنــا شُــمَعُ

فهي نارٌ ملتهبةٌ تضيء ليل المعركة، وتزيل ظلمتها، فتهدي الخيل به إذ ذاك.

ومرّةً بالكواكب، كما قال(١):

يزورُ الأعادِي في سماءِ عجاجــةٍ   أسنَّتُهُ في جانبيهــا الكواكــبُ

فقد جعل الغبارَ المرتفعَ في الهواء سماءً، وجعل الأسنّةَ لامعةً فيهــا؛ كالكواكب.

ومرّةً بالفَتيلِ، كما قال عن خيل بدر بن عمار(٢):

جَوَائِــلُ بــالقِنِيِّ مثقفــاتٍ   كأنّ على عوامِلِهَــا الــذُّبَالا

٥- النّبال والقسي:

لم أجد من شعر المُتَنَبِّي في وصف النّبال والقسي إلاّ بضعةَ أبيــاتٍ منها وصف النّبالِ بأنّها مُقَوَّمةٌ، أي: معتدلةٌ ومصنوعةٌ صَنْعَةً حاذقةً، وأنّها مطيعةٌ للرّامِي بها، تتّجه أنَّى شاء؛ فكأنّها تمتلك عقلاً كاملاً ولبّاً وفِطْنَــةً؛ فقال(٣):

بكلّ مُقَــوَّمٍ لم يعــصِ أمــراً   لــه حتّــى ظَنَنّــاه لبيبــاً

(٣) ديوانه (١/٢٣٥)، من قصيدة يمدح بها محمّد بن يوسف التّنوخِي.

(١) ديوانه (٣/٣٤٥)، من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (١/٢٧٠)، من قصيدة يمدح بها علي بن محمّد بن سيار التّميمي.

ووصف كثرها، وقوّة صوت القوسِ الذي يشبه الرّعـد، ولكنّـه وصف لها في مجال التّدرُّب واللّهو، لا مجالَ الحربِ والمجالدة، قال(١):

ونُمْتَحِنُ النُّشَّابَ في كلّ وابلٍ دُوىً القِسيِّ الفارسيةِ رعـدُهُ

٦- الدّروع:

لم أجد للمُتَنَبّي وصفاً للدّروع إلاّ ثلاثة أبياتٍ مُؤدَّاهـا وصـفها بالطّولِ والقوّةِ وإحكامِ الصّنعةِ، وإنّما ذكرها على اعتبار أنّها من عُـدَدِ الحرب التي يحتمي بها الأوّلون، منها قوله(٢):

تردُّ عنه قنا الفرسـانِ سـابغةٌ صوبُ الأسنّة في أثنائها دِيَـمُ

تخطُّ فيها العوالِي ليس تنفُـذُها كأنّ كلَّ سنانٍ فوقَهَا قَلَـمُ

فإنّ ابن شُمَشْقَيقَ، وهو أحدُ بطارقة الرّوم، قد انهـزم، ولاحقـه الفرسانُ يطعنونه بالقنا، ولكنّه قد احتمي منهم بدرعٍ طويلـةٍ محكمـةِ الصّنعة، فمع انصباب الرّماح عليها وتتابعها إلاّ أنّها كَدِيْمَـةِ المطـرِ في التّتابع وعدم التّأثير؛ فإنّ الدِّيمة لا تؤثّر في الأرض ولا تَجْرَحُها، فكـذلك هذه الرّماحُ مع كثرة انصبابها عليها، وإصابتها لها إلاّ أنّها لم تؤثّر فيهـا شيئاً يذكر، وقد أكّد هذا المعنَى في البيت التّالِي؛ فقال: إنّ صدور الرّماح لم تتمكّن من نفاذها، وهي وإن خدشتها إلاّ أنّ ذلك ليس شيئاً في الواقعِ، وما هو إلاّ كخطوطِ القلمِ على الورقة.

---

(٣) ديوانه (١٢٤/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

(٤) ديوانه (٤٠/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والثّالث قوله في أبي العشائر بن حمدان[1]:

كأنّ تَلَــوِّيَ النّشــاب فيــه　　　تلويَّ الخوص في سَعَفِ العِشَاشِ

فإنّ درعه لصلابتها وإحكامِ صنعتها لا تخترقها سهامُ الأعداء، فإذا ما أصابتها تثنت فيها، كما يثني خوص النّخلةِ الكبيرةِ لضعفه ولينه.

(١) ديوانه (٢/٣١٩).

والعِشَاشُ؛ جمع: عَشَّةٍ، وهي النّخلة إذا قَلَّ سَعَفُها وَدَقَّ أسلفها.

ثالثاً: التّحرّك إلى ميدان القتال

يرى المُتَنَبِّي أنّ خير ما يواجه به الأعداء قَبْلَ الفرسانِ المغاوير هو الرّأي المحكم السّديد، الذي يوقع بالعدوّ النّكالَ الشّديدَ؛ فإذا ما اجتمعا الرّأي والشّجاعة، نال بهما القائدُ مُنْيَتَهُ وحَصَّلَ بهما بغيَتَهُ.

وبالرّأي يُهْزَمُ الأعداء قبل الالتحام أحياناً؛ لأنّه يدلّ على حسنِ تدبيرٍ وتخطيطٍ، كما قال(١):

الرّأيُ قبلَ شجاعةِ الشّجعان ... هو أوّلٌ وهي المحلُّ الثّاني
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ حَرَّةً ... بلغت من العلياءِ كلَّ مكانِ
ولربّما طعنَ الفتى أقرانَهُ ... بالرّأي قبلَ تطاعنِ الأقرانِ

أمّا أنسب الأوقات في الاتّجاه إلى الأعداء؛ فإنّه السُّرَى ليلاً وتصبيحهم نهاراً، ومنه قوله(٢):

لبسنَ الدّجى فيها إلى أرضِ مرعشٍ ... وللرّوم خطبٌ في البلادِ جَلِيْلُ

أي: سارت خيلنا في تلك الأودية إلى أرض مرعشٍ ليلاً، فكأنّها ليست الدّجى حين سارتْ في الظّلام.

---

(١) ديوانه (٤/٣٠٧-٣٠٨)، مطلعُ قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٢٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ونون النّسوة تعود إلى الخيل والضّمير في (فيها) يعود إلى الأماكن التي ذكرها في البيت قبله، هو قوله:

ودونَ سَمَيْسَاطَ المطاميرُ والملا ... وأودبةٌ مجهولةٌ وهجولٌ

وهم يواصلون السّير لا يقيمون في مكانٍ أكثر من وقت الرّاحة فقط، فإذا باتوا فيه لا يقيلون، وإذا قالوا لا يبيتون، كما قال(١):

وخيلٍ يراها الرّكضُ في كلِّ بلدةٍ إذا عَرَّسَتْ فيها فليسَ تَقِيلُ

فإذا ما هجمت على الأعداء صباحاً أعملت السّيوف في رؤوسهم، كما قال(٢):

وأصبحت بقرى هنْزيطَ جائلةً ترعى الظّبى في خصيبٍ نبتُهُ اللّمَمُ

وإذا ما صَبَّحَتْ الحيّ كانت ثقيلةَ الوطء عليه، لِما تلحقه من أذى، كما قال(٣):

وقائدُها مسومَةً خفافا على حيٍّ تصبِحُهُ ثِقَالا

ومع ذلك؛ فإنّها خيلٌ معلّمةٌ خفافٌ في الرَّكضِ إلى الأعداء؛ لأنّها مضمّرةٌ مدرَّبةٌ، ومن هذا قوله(٤):

فلم تُتِمَّ سَرُوجٌ فتحَ ناظِرِهَا إلاّ وجيشُكَ في جفنيه مزدحِمُ

أي لم تُصْبِح سروجٌ إلاّ وخيلك مزدحمةٌ عليها؛ فإنّها سارت إليها

(١) ديوانه (٣/٢٢٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والعطف على أرعنَ في قوله قبله:

همام إذا ما هم أمضى همومَه بأرعنَ وطء الموت فيه ثقيلُ

(٢) ديوانه (٤/١٣٥).

(٣) ديوانه (٣/٣٤٥)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٤) ديوانه (٤/١٣٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدولة.

ليلاً وباغتتها مباغتةً قبل الصّباح، وقد جعل الظّلمةَ وسكونَ اللّيل عيناً لها لكنّها عينٌ مَغَمَّضَةٌ نائمةٌ، والصّباح بما فيه من ضياء هو نورُ هذه العـــين وضياؤها الذي به تبصر فهم هجموا عليها قبل أن تفتح عينها.

وهم يسيرون إلى الأعداءِ في جيشٍ كثيفِ العُدَدِ إذا جاور جبلاً صار به جبلين، ولقوّته يعصف بالأعداءِ، كما تعصف الرّيحُ بالأغصان، ولهذه القوّة؛ فإنّ نجومَ اللّيل تخافه، فتستعينُ بما أثار من غبارٍ كثيـــفٍ، فتجعلـــه حجاباً لها عنه، كما قال[1]:

وجيشٍ يُثَنّي كلّ طودٍ كأنَّـــهُ ... خريقُ رياحٍ واجهت غُصُناً رَطْبا
كأنّ نجومَ اللّيلِ خافت مُغَـــارَةَ ... فمدّت عليها من عجاجَتِهِ حُجْبا

ومثل معنَى البيت الثّاني قوله عن الشّمس، وقد تحيرت من كثـــرة غبار جيشِ سيفِ الدّولة[2]:

ينالُ أبعدَ منها وهـــي نـــاظرةٌ ... فمـــا تقابلـــه إلاّ علـــى وَجَـــلِ

وغباره إذا سار غبارٌ كثيفٌ يصير له كاللّباس، ويحجب الشّمسَ عن الأرض، كأنّما قد أغمضت جَفْنَها؛ لأنّه وقع فيها منه ما آذاها، أو فعلت ذلك حياء منه، وإجلالاً له، كما قال[3]:

---

(١) ديوانه (١٩٤/١-١٩٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة

(٢) ديوانه (٣-١٦٥).

(٣) ديوانه (١٨٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والعطف على قوله قبله:

حتّى إذا فني التّراثُ سوى العـــلا ... قصد العداة مـــن القنـــا بِطوالِـــهِ

وبأرعنٍ لبس العَجَاجَ إليهمُ فوقَ الحديدِ وجَرَّ من أذيالِهِ
فكأنّما قُذِي النّهار بنقعِهِ أو غَضَّ عنه الطّرفَ من إجلالِهِ

فقد نقص ضوء الشّمس لكثرة غباره الذي انبعث منه لسيره الحثيث، ومثله قوله(١):

والباعثُ الجيشَ قد غالتْ عجاجَتُهُ ضوءَ النّهارِ فصارَ الظُّهْرُ كـ"الطّفَلِ"
الجوُّ أضيقُ ما لاقاه ساطعها ومقلة الشّمس فيه أحيرُ المُقَلِ

أي: أنّه يبعث إلى أعدائه الجيش الكثيف، الذي يستر ضوءَ الشّمس بغباره، حتّى يصيرَ وقتُ النّهار كوقت غروبِ الشّمس، وما سطع من غبار هذا الجيش قد ملأ كلّ فضاء حتّى ضاق به الجوُّ، وحتّى تحيّرت عينُ الشّمس؛ لأنّ أحاط بها.

ولو أرادت الخيلُ أن تسير على هذا الغبار لكثافته؛ لأمكنها ذلك، كما قال(٢):

عقدت سنابِكُها عليها عِثْيراً لو تبتغي عَنَقاً عليه لأمكَنا

ولكثرته قد خفيتْ ألوانها، ونسج عليها يُراقِعَ غطتْ به رؤوسها، وجِلالاً غطّت به ظهورها وجنوبها، كما قال(٣):

خافياتُ الألوانِ قد نسجَ النقـ ـعُ عليها براقعاً وجِلالاً

(١) ديوانه (١٦٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٢) ديوانه (٣٣٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.
(٣) ديوانه (٢٥٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وللجيشِ إذا سار كثافةٌ عظيمةٌ تغطِّي السّهول حتّى تصبحَ الأرضُ كلُّها جبالاً، ومع الكثافة شدّة تضابق وازدحام لتقارب سلاحه بِيْضِه وبَيْضه ورماحه ودروعه، حتّى لو أنّ مطراً أُسْقِطِ عليه لَما تمكّن من مساسِ الأرض، كما قال(١):

سار لا قَفْرَ من مواكِبِه | كأنّما كلّ سَبْسَبٍ جَبَلُ
يمنعها أن يصيبَها مَطَرٌ | شدّةَ منا قد تضابَقَ الأَسَلُ

وقد نقل هذا المعنَى إلى صورةٍ أخرى، وذلك أنّ الجيش إذا سار رافقته الطّيرُ عقبانُها ونسورُها، وزادحمت فوقه طمعاً بِرِفْدِهِ، حتّى حجبت لكثرها ضوء الشّمس، حتّى إذا لاقى ضوؤها فُرْجة، سقط منها على البَيْضِ منه بقدر الدّراهم، وذلك قوله(٢):

تَمُرُّ عليه الشّمسُ وهي ضعيفةٌ | تطالُعُهُ من بين رِيْشِ القَشَاعِمِ
إذا ضوؤها لاقى من الطّير فرجةً | تَدَوَّرَ فوق البَيْضِ مثل الدّراهم

كما أنّ للجيش إذا سار، سار و له حركةٌ وتموجٌ، كما قال(٣):

يهزُّ الجيشُ حولَكَ جانِبَيْهِ | كما نفضتْ جناحيها العُقَابُ

فقد شبّه سيفَ الدّولة وهو في قلب جيشه والجيش حوله –يضطرب

---

(١) ديوانه (٣٣١/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٢٤٠/٤)، من قصيدةٍ يَمدح بها أبا محمّد الحسين بن عبدالله بن طفج.

(٣) ديوانه (٢٠٥/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

للسّير- بعقاب تهزّ جناحيها، وتحرّكهما لدى طيرانها[١].

وإذا سار الجيش حاول أن يمسك ويأسر كلّ مَن وجده أمامه من أعدائه، حتّى لا تصل الأخبارُ إلى عدوّه بقدومه، كما قال في وصف جيش الأعداء[٢]:

أخذوا الطُّرْق يقطعونَ بها الرُّسْـ ـلَ فكان انقطاعُها إرسالاً

لأنّهم كانوا يباغتون مباغتةً، لا يعلم بهم، لِحَذَرِهِم وخوفهم من أن يعلم بهم سيف الدّولة.

أمّا إذا سارت الخيلُ إلى الأعداء؛ فإنّها تكون عابسةً مكفهرةَ الوجوه لطول السّير، وشعثُ النّواصي معقدةَ السّبائب، كعادتهم عند الحروب والغارات، كما قال[٣]:

ويوم جلبتَهَا شعثَ النّواصِي معقدةَ السّبائبِ للطِرادِ

كما أنّهم يُجَلِّلُونها بالدّروع، ويكسونها بها، كما قال[٤]:

أقبلتَ تبْسمُ والجيادُ عوابسٌ يَخْبُبْنَ بالحَلَقِ المضاعَفِ والقنا

ومثله قوله[٥]:

لها في الوغى زيُّ الفوارسِ فوقَها فكلُّ حصانٍ دارعٌ مُتَلَثِّمُ

---

(١) ديوانه ح ٣ (١/٢٠٥).

(٢) ديوانه (٣/٢٥٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٢/٨١)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِيّ.

(٤) ديوانه (٤/٣٣٦)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٥) ديوانه (٤/٧٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ثم علّل حمايتهم لها بذلك؛ فقال(١):

وما ذاك بخلاً بالنّفوسِ على القنا ولكن صَدْمَ الشّرِّ بالشّرِّ أحـــزمُ

وإذا ما اتّجهت إلى الأعداء لم يُحْمَلْ فوقَهَا إلاّ السّلاحُ والفرســانُ كما قال(٢):

فأتتهمْ خوارقُ الأرضِ ما تحـــ ـــملُ إلا الحديــدَ والأبطــالا

ومن عادة الفرسان أن يضعوا الرّماحَ على كواهلــها وهواديهــا، وأسنتُهَا مجاورةٌ آذانَهَا، وقد يتجاوزْهَا السّنانُ قليلاً، فتظلّ الخيل في سباقٍ معها مريدةً اللّحاقَ بها، كما قال(٣):

وَجُرْداً مددنا بين آذانها القنا فَبِتْنَ خفافــاً يَتَّــبِعْنَ العواليــا

أو كما قال(٤):

تبيت رماحُهُ فوق الهــوادِي و قد ضربَ العجاجُ لها رُوَاقــا

ولإدَامَةِ السّير تعرق جنوبُها وييبس هذا العرق حتّى يصير كالمناطِقِ على أوساطها، كما قال(٥):

عوابسُ حَلّى يابسُ الماء حُزْمَها فَهُنَّ على أوساطِهَا كالمنــاطِقِ

---

(١) ديوانه (٤/٧٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٥٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٤/٤٢١)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

(٤) ديوانه (٤/٤٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٥) ديوانه (٣/٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

رابعاً: في ميدان القتال

من أشهر ما يمكن أن يوصف في ميدان المعركة ما يلي:

١- شدّة الحرب:

أوّل ما يُبْدَأُ به عند تلاقي القبيلينِ على أرضِ المعركةِ هو ترتيب المقاتلينَ في مواضعهم يتقدّمهم القائدُ، وقد أشار المُتَنَبِّي إلى هذا بقوله[١]:

عرفتكَ والصّفوفُ معبّآتٌ وأنتَ بغيرِ سيفِكِ ما تَعِيْجُ

فإنّ سيفَ الدّولة قد صَفَّ جيشه وعَبَّأَهُ كُلٌّ لِما يخصّه مقابلاً بهم الأعداء، وتقدّمهم هو غير محتفلٍ إلاّ بسيفه، إدلالاً بشجاعته.

وفي هذا الموقف تخفق القلوبُ، وتضطربُ الأرض، فالنّاس بين متوقعِ القَتلَ، وبين مؤملِ الظّفرَ، كما قال عن بدر بن عمار[٢]:

والأمرُ أَمْرُكَ والقلوبُ خوافقٌ في موقفٍ بينَ المنيّةِ والمُنَى

فهو موقفٌ شديدُ الهولِ، قلّما تخلّص منه مَن وقع فيه، ولا يصيرُ فيه ويَقْسِرُ نفسه عليه غير الأبطالِ المغاوير، كما قال عن بدر أيضاً[٣]:

باعث النّفسِ على الهول الذي ليس لنفسٍ وقعت فيه إيابُ

---

(١) ديوانه (٣٦٠/١).

(٢) ديوانه (٣٣٦/٤).

(٣) ديوانه (٢٦٢/١).

ولذا؛ فإنّه لا يثبت فيه إلاّ ذوو الشّجاعة المتأصِّلة في النّفوس من الفرسان، وحسن السّبك من الحديد، كما قال[(١)]:

فَلِلَّه وقت ذَوَّبَ الغِشَّ نارُهُ فلم يبقَ إلاّ صارمٌ أو ضُبَارِمُ
تَقَطَّعَ ما لا يَقْطَعُ الدِّرْعَ والقنا وَفَرَّ من الأبطالِ مَن لا يُصَادِمُ

فكلّ ما كان مموهاً مغشوشاً هلك وتلاشى لردائه، كأنّه ذابَ بنار الحرب و لم يبق إلاّ كلُّ سيفٍ صارمٍ ورجلٍ شجاعٍ.

ومِن صور الحرب أنّ حامل الرّمح لا يستطيع أن يجد له مداراً يتحرّك فيه لشدّة المجالدة وقرب الفريقين من بعضهما وتداخلهما، وكذلك الحصان لا يجد مجالاً للحركة، كما قال[(٢)]:

وَلَتَمْضِنَّ حيث لا يجِدُ الرّمـ ـحُ مداراً ولا الحصانُ مجالاً

فالأمرُ جِدُّ عصيبٍ ومرهبٍ لكلّ شيءٍ، حتّى إنّ الأرضَ تضطربُ وتتحرّكُ كأنّ في قلبها وهلاً، مِمّا يتحرّك فوقها، ويَدُكُّ صعيدها،

---

(١) ديوانه (١٠١/٤)، من قصيدةٍ وصف بها موقعةَ الحدث، ومدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٢٥٦/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والواو واو العطف، واللام لام القَسَم، ونون النّسوة تعود إلى صدور الخيل والسّيوف في البيت قبله؛ فإنّها حالفت سيف الدّولة بأن تخوض دونه الأهوال، وأن تتقدّم في أضيق الأماكنِ وهو قوله:

حالفتهُ صدورها والعوالِي لتخوضَنَّ دونه الأهوالا

كما قال(١):

الطعنُ شزرٌ والأرضُ واجفــةٌ كأنّمـــا في فؤادهـــا وَهَـــلُ

٢- كثرة الغبار:

نتيجةً لِحركة المقاتلين وكَرِّهم وفَرِّهم يثورُ غبارٌ كثيفٌ، وقد صوّر المُتَنَبِّي هذه الكثافةَ بعدّة صورٍ منها قوله(٢):

طاعنُ الفرسان في الأحداق شَزْراً وعجاجُ الحربِ للشّمسِ نِقــابُ

فكثرة الغبار كأنّها نقابٌ للشّمس يسترُهَا، وقد تسفرُ من تحتِ هذا النِّقابِ أحياناً، كما قال(٣):

والنّقعُ يأخذُ حَرَّاناً وبقْعَتَهَــا والشّمسُ تسفر أحيانــاً وتلتــثم

ومن ذلك أنْ جعلَ العقبانَ المحلّقةَ في كبدِ السّماء حــال مرافقتــهاً الجيش تكادُ تعثُرُ في الغبار، فتسقطُ إلى الأرضِ، ولا تتمكّن من الطّيران، لكثافة هذا الغبار، فكأنّ الجوَّ أرضٌ لَيِّنَةٌ، تغوص فيها أرجل الطّيرِ، كمــا قال(٤):

(١) ديوانه (٣/٣٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (١/٢٦٢)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار أيضاً.

(٣) ديوانه (٤/١٣٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٢/٢٠٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وعجاجاً منصوبةٌ على البدلية من: (مُسْبَطِراً) في قوله قبله:

تثيرُ علــى سُــلَمِيَّةٍ مُسْــبَطِرا تنــاكرُ تَحتَــهُ لــولا الشِّــعَارُ

عجاجاً تعثرُ العِقْبَانُ فيه كأنّ الجَوَّ وَعْثٌ أو خَبَارُ

ومن صوره قولُهُ عن كثافةِ هذا العجاجِ الذي حَوَّلَ كلَّ شيءٍ إلى السّوادِ، ولم يبقَ شيءٌ فيه بياضٌ إلاّ لَمعانُ الأسلحةِ وبريقُها، حين المقارعة(١):

وعجاجةً ترك الحديدَ سوادَها زنجاً تبسَّمُ أو قَذَالاً شائبا

فكأنَّمَا كسي الحديدُ بِها دُجى ليلٍ وأطلعتِ الرّماحُ كواكبا

أي: أنّ بريقَ الأسلحةِ في سواد الغبار، يشبهُ تبسّمَ الزّنجِ أو شيبَ القذالِ، حتّى أشبه بياضَ الحديدِ في ظلمةِ العجاجِ الكواكبَ في اللّيل.

٣- الضّرب بالسّيف:

وصف المُتَنَبِّي شدّةَ الضّربِ مرّاتٍ عديدةٍ، منها أنّ ضربَ ممدوحه يطربُ المنايا، فتتحرّكُ معه، فيكثرُ القتلَ في أعدائه، كما قال في مدح أبي شجاع(٢):

حمى أطرافَ فارسَ شَمَّرِيٌّ يَحُضُّ على التّباقي بالتّفاني

---

(١) ديوانه (١/٢٥٥)، من قصيدة يمدح بها عليّ بن مصنور الحاجب.

ويروى قوله: (أطلعت) بالبناء للمعلوم والمجهول معاً.

(٢) ديوانه (٤/٣٩٣).

وقوله: المثالث والمثاني، جمع: مثلثٍ، ومثْنًى، من أوتار العود، يعني: أنّه يضرب بالسّيوف ولا يميل إلى ضرب العود، وما إليه، ح ٣، من الصّفحة نفسها.

بضرب هاجَ أطــرابَ المنايــا سوى ضربِ المثالــث والمثــانِي

ومنها: أنّه ضربٌ يفرقُ بين الفرسانِ ونسائهم، وينسي كلّ عاشقٍ حرارةَ عشقِه، وتَذَكُّرِ معشوقِه، فيتركــون لأجلــه حياطــةَ أحبّتــهم، ويسلمونهنّ له، وهم في كلّ ذلك معذورون كما قال(١):

يفرقُ ما بينَ الكمــاة وبينــها بضربٍ يُسَلِّي حَرُّهُ كلَّ عاشــقِ

ومنها: أنّه جالبٌ للنّصر بسرعة فائقة؛ فإنّه ما إن يصلُ إلى لَبَّــاتِ الفرسانِ بعد اختراقِ هامِّهِم لقوّته، إلاّ وقد أوقــع الرّعــبَ في قلــوبِ الأعداء، فولّوا منهزمين فارّين؛ فإنّ قدومَ النّصــر لم يســتغرق إلاّ هــذه اللّحظاتِ، التِي اخترق منها الضّربُ الهامَ إلى اللّبات، كما قال(٢):

بضربٍ أتَى الهاماتِ والنّصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللّباتِ والنّصرُ قــادِمُ

ومنها: أنّه إذا وقع على الدّرع هتكها، فتطاير زَرَدُها وحَلَقُها، كما يتطاير ريشُ الطّائر عنه، كما قال عن ضرب موالي سيف الدّولة الــذين فَاجَأَ بهم الأعداء(٣):

دَهِمَتْهُ تُطَايِرُ الزَّرَدَ المُحْــ ــكَمَ عنه كما يطــيرُ النّســيْلُ

---

(١) ديوانه (٦٦/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١٠٣/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة، ووصف فيها حــرب قلعة الحدث وبنائها.

(٣) ديوانه (٢٧٥/٣).

وقد ينقدح من السّيفِ شررٌ قويٌّ لشدّة الضّربةِ وقوّمّا، لكنّه ما يلبث أن ينطفيء؛ لأنّ الدّماءَ التي سفكها تطفئُه، كما قال[١]:

تنقدحُ النّارُ من مضاربِهَا وصبُّ ماءُ الرِّقابِ يخمدُها

ولقوّته أيضاً تخالُ ضربةَ السّيف الواحدةِ ضربةَ سيفين لعظم جُرحها، كما قال[٢]:

ما زلتَ تضربُهُم دِرَاكاً في الذُّرَى ضرباً كأنَّ السّيفَ فيه اثنان

حتّى إنّ سعةَ هذه الضّربةِ لو ملء فراغُهَا ذهباً؛ لأغْنَى طالبَ الغنَى، وقد طلب الشّاعرُ من ممدوحه ذلك؛ لأنّه يرى أنّها تغنيه لسعتها، كما قال مُخَاطِباً الحسنَ بن إسحاق التّنوخِيّ[٣]:

إذا ما ضربتَ القِرنَ ثم أجزتَني فكلْ ذهباً لي مَرَّةً منه بالكَلْمِ

وجعل عِلَّةَ عدمِ ضربِ ممدوحه لغير الجماجمِ والوجوهِ أنّها جاءته بأمانٍ، أمّا هذه الجماجمُ والوجوهُ؛ فإنّها لم تحصل على هذا الأمان منه، كما قال[٤]:

خصَّ الجماجمَ والوجوهَ كأنّما جاءت إليك جسومُهُم بأمانِ

---

(١) ديوانه (٣٤/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبيد الله العلوي المعروف بالمشطّب.

(٢) ديوانه (٣١٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (١٧٨/٤).

(٤) ديوانه (٣١٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وهو ضربه إمّا أن يجتزَّ الرّأسَ من أصله، فَيُرَى وهو يُلْقَى بِمِغْفَرِهِ على الأرض، مِغْفَرٌ على رأسٍ بلا جسدٍ، كما قال عن سيوف ابن كيغلغ(١):

تركنَ هامَ بَنِي عوفٍ وثعلبةٍ   على رؤوسٍ بلا ناسٍ مَغَافِرُهُ

وأمّا أن يقسم الخوذة قسمين، أي: يقطع بها منتصف الرّأس العلوي، فتصير البَيْضة مساويةً للرّأس أو ما بقي منه، فبعد أن كانت ناتئةً كالحَزْن صارت مستويةً كالسّهل، كما قال عن ضرب سيفِ الدّولة(٢):

فوَّدع قتلاهم وشَيَّعَ فَلَّهُمْ   بضرب حزونُ البَيْضِ فيه سهولُ

٤- الطّعنُ بالرّمح:

من الصّفاتِ المحمودةِ للطّعن أن يكون سريعاً خاطفاً، وقد ركّز المُتَنَبِّي على هذه الصّفة، فوصف الطّعنَ المتبادلَ في ميدانِ المعركة، بأنّه كالخُلْسِ؛ لأنّ المتطاعنين يباغت بعضُهُم بعضاً به، حتّى كأنّهم يريدون اختصار طريق الموتِ فيما بينهم، كما قال(٣):

وظلَّ الطّعنُ في الخيلين خَلْساً   كأنَّ الموتَ بينهما اختصارُ

ووصفه بأنّه يأتي شزراً، أي: مرّة يحدثُ عن اليمين، ومرّة عن الشِّمال؛ لأنّ الفارسَ منهم يقلب فرسَهُ بسرعةٍ فائقةٍ، فتبهرهم ويديرُ

(١) ديوانه (٢/٢٢٤).

(٢) ديوانه (٣/٢٢٧).

(٣) ديوانه (٢/٢٠٧).

الرّماح عليهم يمنةً ويسرةً، كما قال(١):

طاعنُ الأعداء في الأحداقِ شَزْراً وعجاجُ الحربِ للشّمس نِقَابْ

ومثله قوله(٢):

والطّعن شزرٌ والأرضُ واجفــةٌ كأنّما كان في فؤادهـــا وَهَـــلُ

ولشدّة كثرة القتلى منهم التقى على جثثهم الذّئبُ والغرابُ، كمـــا قال(٣):

ولاقـــى دون ثـــأيِهِمُ طِعَانــاً يلاقي عنده الـــذّئبَ الغـــرابُ

وطعناتُهُ قوِّيةٌ كبيرة الفرغ، تتسبّب في إخافة الجيش العظيم، حتّـــى كأنّها طعنةٌ له كلّه، ومَن سمع عنها أطرق خوفاً واستعظاماً لهـــا، حتّـــى كأنّها في جوفه، كما قال(٤):

طاعنُ الطّعنةِ التِي تطعنُ الفيلــقَ بالـــذّعرِ والـــدّمِ المُهْــرَاقِ

ذاتَ فرغٍ كأنّها في حشا المُخْـــ ـــبِرِ عنها من شدّة الأطـــراقِ

(١) ديوانه (١/٢٦٢)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٣/٣٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٣) ديوانه (١/٢١٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والبيت في وصف شجاعة بنِي كلاب الذين غزاهم سيفَ الدّولة، وقبله:

ولو غـــيرُ الأمـــيرِ غـــزا كلابـــاً ثنـــاه عـــن شموسِـــهِمُ ضِـــبابُ

(٤) ديوانه (٣/١٠٤)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر بن حمدان.

ولإدامة الطّعن كثيراً ما يَعْوَجُّ القنا، أو يخترق جنبَ الفارس وضلوعه إلى الجنب الآخر وضلوعه الأخرى، كما قال(١):

إذا أعوج القنا في حامليهِ وجاز إلى ضلوعهم الضّلوعا

وقد تندق الرّماحُ وتنكسرُ لِما يصطدم بها من عظام الفرسان، حينما تغوصُ خلف قلوبِهم وأكبادهم، وقد جعل هذا الاندقاقَ ثاراً للأكباد، أدركته في هذه الرّماح، كما قال بعده(٢):

ونالتْ ثَأرَهَا الأكبادُ منه فأولته اندقاقاً أو صدوعا

ومن صوره البديعة الدّالّة على قوّة الطّعن، قوله(٣):

أدمنا طعنَهُمْ والقتلَ حتّى خلطنا في عظامِهِمُ الكعوبا

أي: إنّنا قد أدمنا طعن أعدائنا وقتلهم حتّى إنّ كعوب رماحنا قد اختلطت في عظامهم لتكسُّرِها فيها، ففي كلّ عظمٍ ومفصلٍ كَعْبُ رمحٍ.

كما جعل رَدَّ الرّماح بعضها بعضاً وتقارعها وتشاجرها كأنّه مجادلةٌ ومحاجَّةٌ ودفاعٌ عن نفوس أصحابها؛ فقال(٤):

وَرَدَّ بعض القنا بعضاً مقارعةً كأنّه في نفوس القوم في جَدَلِ

---

(١) ديوانه (٢/٣٦٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخيّ.

(٢) ديوانه (٢/٣٦٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخيّ.

(٣) ديوانه (١/٢٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد بن سيار التّميميّ.

(٤) ديوانه (٣/٢١٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وفي صورّ اهتزاهذه الرّماح عند الطّعن بها، بأنّ ذلك لطربها، لِمَا خالَطَها من دماء الأعداءِ؛ كأنّها خُمرةٌ قد سقيتها؛ فقد قال(١):

تميلُ كأنّ في الأبطالِ خَمْراً ... عَلَلْنَ به اصطباحاً واغتباقا

٥- الرّمي بالنّبل:

وصف المُتَنَبِّي سهامَ ممدوحه في تتابعها لسرعة رميه بها على طريقةٍ واحدةٍ، بأنّها يدرك بعضها بعضاً من غير أن يميل عنه، ويصيب اللاحق منها فوق السّابق، ولولا منا يحدث من كسر النّصْلِ بالفَوقِ لاتَّصل بعضها ببعضٍ وصارت مستويةً كالقضيب، وذلك في قوله(٢):

إذا نكبتْ كنانتُهُ استبنّا ... بأنصُلِها لأنصُلِها نُدوبا

يصيبُ ببعضها أفواقَ بعضٍ ... فلولا الكسرُ لاتّصلتْ قضيبا

ولإصابة سهامه أهدافها إصابةً دقيقةً، جعلها مطيعةً له، لا تخالفه، حتّى ظنَّ أنّها تمتلك عقلاً تفهم من خلاله ما أمرت به فتطيع، كما قال بعده:

بكلّ مقوَّمٍ لم يَعْصِ أمراً ... له، حتّى ظنناه لبيبا

وقد يُرَى لسهمه إذا انطلق من قوسه لهيبٌ كلهيبِ النّار، وقد يسمعك حفيفاً كحفيفها -أيضاً- مِمّا يُرعِبُ أعداءه، فجعلُهُم يَهَابونه

---

(١) ديوانه (٣/٤٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١/٢٧٠)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد التَّمِيميّ.

ويخشون رميه، كما قال(١):

يريك النّزعُ بين القوسِ منه وبين رَمِيِّهِ الهدفَ اللّهيبا

وما ذاك إلاّ لقوّة ممدوحه وشدّة رميه.

وقد كرّر هذا المعنَى بصورةٍ أخرى، وصف فيها سهامَ ممدوحه، فقال(٢):

يفارق سهمُكَ الرّجلَ الملاقِي فِراقَ القوسِ ما لاقى الرّجالا

فما تقفُ السّهامُ على قرارٍ كأنّ الرِّيشَ يَطّلِبُ النّصالا

فهي سهامُ رامٍ قوِيٍّ ماهرٍ تخرج مسرعةً، فتفارق من صُوِّبَتْ إليه من الفرسان، وهي على قوّتها، وقت انطلاقها من القوس، فهي لا تقف عن مسيرها ولا تَخِفُّ سُرْعَتُهَا، حتّى كأنّ ريشها يُطَّلِبُ نصالَها ليدرِكَها، فهي تمضي أبداً؛ لأنّ الرّيش لن يدرك النّصل بحالٍ لتقدّمه عليه.

ومن وصفه شدّة رمي ممدوحه قوله(٣):

---

(١) ديوانه بشرح البازجي (٢٠٣)، وفي شرح العبكري (١/١٤٣): نصب (الهدف) مع أنّها بدلٌ من: (رميه)؛ لأنّ أصل الكلام: يريك نَزْعُهُ بين القوس وبين الهدف اللّهيبا. وفي البرقوقي (١/٢٧٠).

والأبيات من قصيدة يمدح بها عليّ بن محمّد بن سيار التّميميّ.

وفيه: (المهيبا) بدلاً من: (اللّهيبا)، وأظنّه خطا مطبعي؛ لأنّ شرحه له يدلّ على أنّه يريد (اللّهيب) من اللّهب.

(٢) ديوانه (٣/٣٤٧)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٣) ديوانه (٢/٣٣٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

إذا دعا العِلْجُ عِلْجاً حال بينهما أَظْمَى نفارق منه أختَها الضِّلَعُ

فهي سهامٌ لا تترك الأعداء في ميدان المعركة يُغيثُ بعضهم بعضاً، ومَن حاول ذلك منهم؛ فإنّ هذه السّهام ستمنعه وتصيبه في مقتلٍ لا يستطيع الحراك بعدها، فهي سهامٌ تُفَرِّقُ منا بين الضّلعين، فكيف لا تفرِّق بين العِلْجَين؟!

٦- وصف القلاع:

وصف المُتَنَبِّي إحدى القلاعِ -وقد أحاط بها الغبارُ من كلّ جهةٍ، فكساها حتّى صارت في ظلمةٍ حجبتها عن الأعين- بأنّها كبعيرٍ أَضَلَّه ناشده، فهو لا يتمكّن من رؤيته؛ فقال[1]:

ما كانتِ الطِّرمُ في عجاجَتِهَا إلاّ بعيراً أضلَّهُ ناشِدْ

ووصف قلعةَ الحدث -التِي أتَمَّ سيفُ الدّولة بناءها والحربُ قائمةٌ بينه وبين الدّمسق سنة: (٣٤٣هـ)، وقد تحصن بها الرّوم، ثم أخرجهم سيفُ الدّولة منها بعد مقتلةٍ عظيمةٍ-، فقال[2]:

---

(١) ديوانه (١٧٩/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٩٦/٤-٩٧).

وفي البيتين الأخيرين عليه مؤاخذتان:

الأولى: يبدو كأنّه مصدق بِما للتّمائم من التّأثير على مَنْ علّقت عليه، ودَفْعِها الضُّرَّ عنه؛ فإن كان كذلك فهذا خلاف ظاهر الشّريعة التِي لا تثبت =

هل الحدثُ الحمراءُ تَعرفُ لونَها وتعلـــمُ أيُّ السّـــاقينِ الغمـــائِمُ
سقتها الغمامُ الغرُّ قبـــل نزولـــه فلَمّا دنا منها سَـــقَتْهَا الجمـــاجِمُ
بناها فأعلى والقنا يقـــرعُ القنـــا وموجُ المنايا حولَهـــا مـــتلاطِمُ
وكان بها مثل الجنونِ فأصبحتْ ومن جثثِ القتلى عليها تَمـــائِمُ
طريدةُ دهـــرٍ ســـاقها فرددهّـــا على الدِّين بالخَطِيِّ والدّهرُ راغِمُ

فوصفها بأنّها قعلةٌ حمراء، وقد اكتسبت هذه الحمرة بما تلطّخت به من دماء الأعداء؛ لأنّها بنيت والحرب قائمةٌ والسّيوفُ تَفُـــلُّ السّـــيوف، والقنا يقرع القنا، وبحر المنايا حولها زاخرٌ لكثرة القتلى، فكلّ حجرٍ منـــها قد تلطّخ بدمائهم.

وقد كانت الأحوال فيها من قبل مضطربةٍ، كمَن به مَسٌّ من الجنِّ؛ فلَمّا كثرت حولها الجثث خمدت هذه الاضطرابات، حتّى صارت الجثثُ لها كالتّمائمِ التِي توضع على مَن به مَسٌّ من الجِنِّ فيسكن.

ثم جعل استعادة سيفِ الدّولة لها رَدّاً لها إلى الإســـلام؛ لأنّ كثـــرة الحوادثِ جعلتها كالطّريدةِ من الصّيد، فهي مرّةً في أيدي المسلمين، ومرّة في أيدي الكافرين، إلى أن ردّها سيفُ الدّولـــة إلى حيـــاضِ المســـلمين

النّفع والضّرّ إلاّ لله، وأنّه لا شافٍ إلاّ الله، وخلاف أحاديث النّبيّ صـــلّى الله عليه وسلّم الدّالّة على النّهي عن تعليق التّمائم.

والثّانية: أنّه قال: (والدّهر راغم)، وهذا مـــذهب الشّـــعراء في ذمّ الـــدّهر، ومبالغتهم في وصف ممدوحيهم بفعل ما يريدون دون حسبان للأقدار، وهـــذا من الجهل في الدِّين؛ لأنّه لا يمكن أن يكون شيءٌ في الكون إلاّ بإذن خالقه.

هذه المرّة.

كما وصف المُتَنبِّي هذه القلعةَ مرّةً أخرى؛ فقال[١]:

لا ألوم ابن لاوْنٍ مَلِكَ الرّو م وإنْ كان ما تمنّى محالا
أقلقته بنيَّةٌ فوق أذنيه وبان بغى السّماء فنالا
كلّما رامَ حطَّها اتّسع البنيُ فغطّى جبينَهُ والقَذَالا
يجمع الرّومَ والصّقالبَ والبلْـ ـغرَ فيها وتجمعْ الأجالا

فنراه وصفها وصفاً خيالياً بأن جعل سبّب هجوم ملكِ الرّوم عليها، أنّها قلعةُ بنيت بين أذنيه، وهذا كناية عن ثقلها عليه، وأنّها في دياره فَهجم عليها مريداً هدمها، فكان هجومه هذا سبباً في عزم سيفِ الدّولة على إتْمام بنائها، فكان إتْمَامُها هذا زيادةً في ثقلها عليه، حتّى كأنّها اتّسعت فغطّتْ رأسه كلّه، بعد أن كانت بين أذنيه فقط، كما أنّ ملكَ الرّومِ قد جمع فيها كلّ الأجناسِ من رومٍ وصقالبةٍ وبلغارٍ، ولكن سيفَ الدّولة جمع لهم الأجالَ فيها، فجعلهم كهشيمِ المحتضر.

ووصفها من القصيدة نفسها فقال بعد أن استتمّ سيفُ الدّولة بناءها[٢]:

غصبَ الدّهرَ والملوكَ عليها فبناها في وجنةِ الدّهر خالا
فهي تمشي مشيَ العروسِ اختيالاً وتثنّى على الزّمان دلالا

(١) ديوانه (٣/٢٥٧).

(٢) ديوانه (٣/٢٦٥).

فقد جعلها "خالاً" تزيِّنُ وجهَ الدّهر؛ لأنّها قد اشتهرت بِما وقع عندها من أحداثٍ أعزّ الله بها الإسلام وجنده على أعدائه، فبقيت ملكاً للمسلمين ثابتةً راسخةً لا تتغيّر ثبوت الخال في الوجه.

وفي البيتين إشارةٌ إلى علوٍّ مكانها، وأنّ الرّوم لا يستطيعون الوصول إليها، وهي بهذه الحال من الوضوح والاشتهار، ولذا؛ فهي متكبّرةٌ متغطرسةٌ، لعدم خوفها من هجوم الأعداء عليها، فتمشي مشيَ العروسِ في تأنٍّ وتثنٍّ وتيهٍ ودلالٍ.

والمراد أنّها في عزٍّ ومنعةٍ بسيف الدّولة؛ إذ لم يقدر الزّمان على إصابتها بسوءٍ[١].

---

(١) ديوانه ح ٢ (٣/٢٦٥).

خامساً: في أعقاب المعركة

معارك ممدوحي المُتَنَبِّي معاركُ حاسِّمةٌ وآثارها وخيمةٌ، وتترك الشّجاع بليداً، والفارس جباناً، والرّجل امرأةً، والغَنيَّ فقيراً، كما قال(١):

فمسّاهُمْ وبُسْطُهُمْ حريرٌ | وصبّحهم وبسطهُم التّرابُ
ومن فِي كفِّه منهم قناةٌ | كمَن في كفِّه منهم خِضَابُ

ولقوّتها تُبدِّل الأعداء بعزّهم ذُلاً، فيقرّون بِما لِخصمهم من قوّة؛ فيتراجعون عمّا كانوا عليه عازمين، ويخشونه ويرهبونه، كما قال(٢):

وأجفل بالفرات بنو نميرٍ | وزأْرُهُم الذي زأَرُوا خُوَارُ
فهم حِزَقٌ على الخابور صرعى | بهم من شَرْبِ غيرِهِمِ خُمَارُ
فلم يسرح لهم في الصّبح مالٌ | ولم توقدْ لهم باللّيلِ نارُ
حذارَ فتًى إذا لم يرضَ عنهم | فليس بنافعٍ لهم الحذارُ

وبعد انتهاء المعركة تجد أعداءه بين مقتولٍ، وآخر به رمقٌ، وثالثٍ قد ذهب عقله، قد بقي متحيِّراً لهولِ ما لاقى، كما قال(٣):

فولوا بين ذي روحٍ مُفَاتٍ | وذي رَمَقٍ وذي عقلٍ مُطَاشِ
ومنعفرٍ لنصلِ السّيف فيه | عوارِي الضّبِّ خاف من احتراشِ

---

(١) ديوانه (٢١٣/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٢١٢/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣١٨/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر.

ومراده في البيت الأخير أنّ بعضهم قد تلطخ بالدّماء وقد توارى فيه السّيف الذي ضرب به، فغاب أكثره، حتّى كأنّه ضبٌّ خاف من احتراش.

وبعد الانتهاء من المعركة والعودِ إلى الدّيار أو إلى المعسكر -وقد أحرز النّصر على الأعداء- يرفعُ الفرسان جماجمَ أعدائِهم على رماحهم فرحاً بذلك، كما قال[1]:

مبرقعِي خيلِهِم بالبِيض، متّخِذِي هامَ الكماةِ على أرماحهم عَذَبا

هذا، وقد صوّر المُتَنَبِّي نتائجَ معارك ممدوحيه، وقد ركّز على عدّة أشياء منها:

١- كثرة القتلى:

يرى المُتَنَبِّي أنّ مَنْ قُتِلَ مِن الأعداء خيرٌ مِمَّن أسر وأشجعُ مِمَّن بقي، فقد قال[2]:

أجَلٌّ مِنْ ولدِ الفُقَّاسِ منكتفٌ إذْ فاتَهُنّ وأمضى منه منصرِعُ

وقد جعل المُتَنَبِّي لإكثار ممدوحه مِنْ قتل الأعداء علّةً لطيفةً، وهي حرصه على أن تَنْعَمَ الطّيورُ والسّباعُ بِلحومهم؛ فقال[3]:

---

(١) ديوانه (٢٤٦/١)، من قصيدةٍ يمدح بها المغيث بن عليّ العجلِيّ.
والعذبة هي: المعلق في طرف الرّمح.

(٢) ديوانه (٣٣٧/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
والفُقَّاس، هو: جدّ الدّمستق.

(٣) ديوانه (٣٦٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

سَفَكَ الدّماءَ بِجوده لا بأسِهِ كرماً لأنّ الطّيرَ بعضُ عيالِهِ

ومثله قوله(١):

ما به قتلُ أعاديه ولكنْ يتّقِي إخلاف ما ترجو الذّئابْ

فهم ربيعُ الطّيورِ والسّباعِ، وهو المنبتُ له، كما قال(٢):

فَأَنْبَتَّ منهم ربيعَ السّباعِ فَأَثْنَتْ بإحسانك الشّاملِ

وإذا اجتمعت الطّيورُ على هؤلاء القتلى تجاوبت بأصواتها، كما قال(٣):

تَظَلُّ الطّيرُ منها في حديثٍ تردُّ به الصّراصِرَ والنّعيبا

فقد جعل صياح الطّيور المجتمعة عليهم كأنّه حديثٌ يُتَحَدَّثُ به، والصّرصرة للنّسور والنّعيب للغربان.

ولذا؛ فالطّير تحبّ مرافقته وتفدي به بأعمارها، فهو الباذلُ اللّحوَم لها، كما قال(٤):

يُفَدِّي أَتَمُّ الطّير عمراً سلاحَهُ نسورُ الملا أحداثُها والقشاعِمُ

ولِمّا كانت المنايا مطيعةً له؛ فإنّ قتلى أعدائه سيكونون كثيرين

---

(١) ديوانه (١/٣٦٢)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٣/١٦١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (١/٢٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد بن سيار التّميمي.

(٤) ديوانه (٤/٩٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ويروى: (نسور الفلا)، وكلاهما بِمعنًى واحدٍ.

جدّاً، كما قال[١]:

ومهذَّبَ أمـــرَ المنايـــا فـــيهِمْ فَأَطَعْنَـــهُ في طاعـــةِ الـــرّحمنِ

ومن صور هذه الكثرة: أنّ سيفَ الدّولة لَمّا قاتل الرّوم نثرهم فوق الجبل الأحيدبِ وبعثرهم عليه، كما تنثرُ الدّراهمُ فوقَ العروس وفوق مَن حولها ليلة عرسها، كما قال[٢]:

نثرتَهُمُ فوقَ الأُحَيْـــدِبِ كُلِّـــهِ كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدّراهمُ

وفي البيت دلالةٌ على اتّساع ميدان المعركة وقوّتها؛ حيث عَمَّ نِثَـــارُ الجُثث كُلَّ الجبل.

ومن صوره الدّالّة على كثرة مَن قُتِلَ منهم قوله[٣]:

لَمّا تحكمت الأســـنّةُ فـــيهُمُ جارتْ وهي يَجُرْنَ في الأحكـــامِ
فَتَرَكْتَهُم خَلَلَ البيوتِ كَأَنّمـــا غَضَبَتْ رؤوسُهُمُ على الأجســـامِ
أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دمٍ ونجومُ بَـــيْضٍ في سَـــماءِ قَتَـــامِ
وذراعُ كلِّ أبي فـــلانٍ كنيـــةً حالتْ فصـــاحِبُها أبـــو الأيتـــامِ

فقد صوّر في هذه البيات كثرةَ القتلى بصورٍ بديعةٍ؛ إذ جعل هـــذه الكثرة نتيجةً لِتحكيم الرّماح في رقابهم وجورِها في الحكم الـــذي جـــاء نتيجته فاجعةً وصورتُه بشعةً، فَمَن رآهم وهم على هذه الهيئة، ظَـــنَّ أنّ

(١) ديوانه (٣١٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١٠٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (١٢٧/٤-١٢٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

رؤوسهم قد غضبت على أجسادهم ففارقها، فغدت أجسادُهُم كالحجارة المركومة على أرضٍ قد كستها الدّماء لكثرتها، وغدت بَيْضَهُم، وقد تطايرت في الجوّ نجوماً لامعةً.

ومن المعروف أنّ الخَوذَةَ لَن تطير إلاّ وفي داخلها رأسٌ لابِسها، وهذا تفسير غضبِ الرّؤوس على الأجسام.

وكثرة القتلى من الأعداء جاءت من إطاعة دماء الأعداء لممدوحه؛ فإنّ هذه الدّماء تأتيه طائعةً راغبةً لِتَسِيل على شَفَرات سيوفِهِ، ولو لم يَدْعُهَا بالضّرب، لكان له ذلك، فالقتل مسابقٌ لكلّ الحوادِثِ السّماوية والأرضية من مرضٍ أو هرمٍ ونحوهما[1]:

ألقت إليك دماءُ الرّوم طاعَتَهَا فلو دعوت بلا قتلٍ أجاب دمُ
يسابقُ القتلُ فيهم كلَّ حادثةٍ فَما يصيبُهُم موتٌ ولا هَرَمُ

ولهذا؛ فإنّهم ما إن يلاقوه إلاّ ويقعون صرعى تحت أسنّته، ولا يثبت منهم إلاّ الأجسام التي تتساقط حوله، أمّا الأرواح؛ فإنّها تولى منهزمةً خائفةً منه، كما قال[2]:

فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهُم يسقطنَ حولك والأرواحُ تنهزمُ

ومن مظاهر كثرة القتلى: أنّ جماجمهم لكثرةِ تطايرها في الجوّ تصطدم بعضها، كما قال[3]:

(١) ديوانه (١٤١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٢) ديوانه (١٣٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٣) ديوانه (١٣٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

إذا توافقتْ الضّرباتُ صـــاعدةً توافقتْ قُلَلٌ في الجوِّ تصـــطدمُ

فما أن ترتفع أبدى الفرسان في وقتٍ واحدٍ، إلاّ وتقع على عددٍ من الرّؤوس في وقتٍ واحدٍ -أيضاً- فتطير الرّؤوس معاً نتيجةً لهذا التّوافق في التّوقيت فتصطدم ببعضها.

ومنها منا ذكره في قوله[1]:

قد سَوَّدَتْ شَجرَ الجبالِ شعورُهُم فكـــأنَّ فيـــه مَســـفَّةَ الغِرْبَـــانِ

فإنّ شجرَ الجبال قد كسته شعور رؤوسهم «فإذا نظر إليها الرّائـــي من بعيدٍ ظنّها غِرْبَاناً تَحُطُّ عليها من علُ فكأنّ فيه مُسِفَّةَ الغِرْبَانِ»[2].

وقد كرّر الإشارة إلى انتشار شعورهم وكثرتها في موضعٍ آخر؛ فقال عن أعداء سيف الدّولة[3]:

نَزَلـــوا في مصـــارع عرفوهـــا يندبون الأعمامَ والأخـــوالا

تحمل الرّيح بينهم شـــعر الهـــام م، وتذري عليهِمُ الأوصـــالا

فقد انتشرت شعورُهُم وأوصَالُهم في كلّ مكانٍ، وقد فرقت الرِّياحُ شعورَهُم وحَلَّلَتِ الشّموسُ أوصَالَهُم فآلت إلى رفاتٍ، فلَمّا نزل هـــؤلاء

---

(١) ديوانه (٤/٣١٦).

(٢) الخيال الشّعريّ عند أبي الطّيّب المُتَنَبِّي/ د. طه أبو كريشه (٧٣-٧٤).

(٣) ديوانه (٣/٢٦٠).

والأبيات في قومٍ من الرّوم نَهَدَ لَهُم سيفُ الدّولة لِنُزُولِهِم على قلعة الحـــدث وقد حَدَثَ فيها في العام قبله موقعةٌ عظيمةٌ كان نَتيجتَها هلاكُ قومِهِم، وبقاء شعورهم وأوصالهم إلى حين نُزُولِهِم.

القومُ تلك الأرضَ التي قُتِلَ فيها أعمامُهُم وأخوالُهُم، وقع لهم من الرّعب مان أَطَارَ أَلْبَابَهُم؛ لأنّ الرّياحَ كُلَّما هَبَّتْ عليهم احتملت الشّعورَ المتناثرةَ حولَهم، فَمَرَّتْ بِها بينهم وذَرَتْ عليهم رفاتَ عظامِ أهليهم، فتذكّروا بذلك مصيرَهُم وما ينتظرُهم، ومثله قوله(١):

فَتل الحِبَالَ من الغَدَائِرِ فَوقَهُ وبَنَى السّفينَ له من الصُّلْبَان

فإنّه لكثرة مَنْ قُتِلَ من الأعداء جَمَع ما انتشر من غدائرهم فوق ماء النّهر فَتَمَكَّنَ من فَتْلِها حبالاً لِسَفينَتِه وما ذلك إلاّ لكثرتها(٢).

ويرى بعض الشّراح أنّها من شعور السّبايا، ولكنّ الواقع أنّها من شعور الجند الذين أكثر القتل فيهم، وقد جاء البيتُ بعد بيتٍ وصف فيه اختلاط ماء النّهر بدماء الأعداء، و لم يشر إلى السَّبْي إلاّ في أبياتٍ بعده، ثم إنّ سيفَ الدّولة شُهِرَ بإكرام النِّساء المسبيات، فلا يمكن أن يفعل بهنّ ذلك.

ومن مظاهر كثرة القتلى، قوله(٣):

حتّى انتهى الفرسُ الجاري وما وقعت في الأرضِ من جُثَثِ القتلى حوافِرُهُ

فأنّها لكثرةٍ عظيمةٍ؛ بحيث إنّ جوادَ ممدوحه قد بلغ نهايةَ جَرْيِهِ و لم تقع حوافره على أديم الأرض، وإنّما تقع على أجسادهم لكثرة القتلى(٤).

---

(١) ديوانه (٣١١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) معجز أحمد للمعرِّي (٥٤٢/٣).

(٣) ديوانه (٢٢٥/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها جعفر بن كيغلغ.

(٤) ديوانه ح ١ (٢٢٥/٢).

ومثله قوله عن خيول ممدوحه[1]:

يتعثرن بالرّؤوسِ كما مَرَّ م بتاءات نطقهِ التَّمْتَامُ

فإنّه لم يَبْقَ مجالٌ في أرضِ المعركةِ لتقع حوافرُ الخيل فيه إلاّ على رؤوس القتلى أو بينها، فتصطدم أرجلها فيها وتتعثر بسببها، حتّى تكاد تسقط، وقد شبّه هذا الحال بصورةٍ حِسِّيَّة أخرى؛ فقال: «كمَا مَرَّ بتاءات نطقة التَّمْتَامُ»؛ فإنّ التَّمْتَامَ وهو مَن لا يتمكّن من نطق التّاء؛ إذا مَرَّ بكلمةٍ فيها تاءاتٌ كثيرةٌ تَعَثَّرَ لسانُهُ، ولم يستقم كلامُهُ ولم يتمكّن من الإفصاح عمّا يريده، أو بلوغ ما يريد إخبارك عنه، وكذلك هذه الخيل؛ فإنّ كثرة الجثث قد عافتها عن مواصلة سيرها.

وفي التّشبيه مُلَحَّظٌ آخر وهو: أنّ حوافِرَ هذه الخيل، إذا وقعت على الرّؤوس أو على الأجساد يُسْمَعُ لها صوتٌ كالصّوت الذي يحدثه التّمتام عند نطقه بتاءات متتالية، وكذلك هذه الرّؤوس من الأجساد إذا وقعت عليها حوافر الخيل واصْطَكّت بها أحدثت مثل هذا الجرس الصّوتِيّ.

٢- الدّماء:

من آثار المعارك ما تخلفه على أرضها من الدّماء التِي هي علامةٌ على كثرة القتلى أو قتلهم، والمُتَنَبِّي يركّز على بيان كثرة الدّماء السّائلة في جانب الأعداء، وقد صوّر هذه الكثرة بعدة صورٍ منها:

أنّ دماء الأعداء لكثرتها قد غيّرت ماء النّهر الذي عَبَرَهُ ممدوحُهُ،

---

(١) ديوانه (٤/٢٢٢).

مطارِداً لهم، فأوقع فيه حتى تغيَّرَ ماؤه، فبعد أن كان كالفضَّة صفاءً ونقاءً صار كالذّهب الأحمر لكثرة منا أسال فيه من الدّماء، كما قال(١):

رَكَضَ الأميرُ وكاللُّجَيْنِ حُبَابُهُ   وثَنّى الأعَنَّةَ وهــو كالعِقيَــانِ

أمّا الأرض فقد اكتست بالدّماء حتّى كأنَّ ترابَها الدّمُ، كما قال(٢):

فتركنهم خللَ البيوتِ كأنّمــا   غضبت رؤوسهم على الأجسامِ
أحجارُ ناسٍ، فوقَ أرضٍ من دمٍ   ونجوم بَــيْض في سمــاء قتــامِ

وقد تطايرتْ دماؤهم على كلّ ما حولهم من حَجَرٍ أو شَجَرٍ، حتّى غَطّتْ أوراقَ الشّجر وأغصانَهُ، كما قال(٣):

وجرى على الرّوقِ النّجيعُ القَاني   فكأنَّهُ النَّــارُنْجُ في الأغصــانِ

فأشبهت الدّماء بِحمرتها وبتعلّقها وبِجريانها على أوراق الأشــجار ثَمَرَةَ النَّارُنْجِ، وقد تعلّق بأغصانه.

وقال(٤):

يُدَمِّي بعضُ أيدي الخيل بعضــاً   وما بِعُجَايَــةِ أَثَــرُ ارتِهَــاشِ

---

(١) ديوانه (٣١١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١٢٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣١٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٣١٨/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر.

العُجَابة: عصبةٌ في اليد فوق الحافر.

ارتهاش: اضطراب، وفي الدّابة أن تَصُكَّ حوافِرُها أيديها.

فلكثرة الدّماء إذا وَقَعَتْ حوافرُ الخيل فيها تطايرت الدّماءُ من تحت حوافرها فأصابت أيديَ الخيلِ المجاورة لها، ولكثرة منا علق بأيدي الخيل منها، يظنّ مَن رآها لأوّل وهلة أنّ هذه الدّماء بسبب اصْطِكَاك أيدي الخيلِ في بعضها، وذلك من عاهة تُسَمّى: الارتهاش، ولكنّ الواقعَ غيرُ ذلك.

ومثله قوله[1]:

يُقَدِّمُهَا وقد خُضِبَتْ شَوَاهَا فتًى ترمي الحروبُ به الحروبا

فَقَوائِمُ خيلِ ممدوحه مُخضَبَةٌ بالدّماء، لكثرة خوضها في دماء الأعداء، هي دماءٌ كثيفةٌ لَزَجَةٌ، إذا جرَت عليها الخيلُ أو مشت فوقها انزلقت وتعثرت فيها ومالت عن سننِ جريها، ومَشَتْ مَشْيَ السَّكْرَانِ الثَّمِلِ، كما قال[2]:

ما زال طِرْفُكَ يجري في دِمَائِهِمُ حتّى مشى بك مَشْيَ الشّاربِ الثَّمَلِ

ومن دلائل كثرتها ما يظهر على الطّيور الوالغَة فيها من سواد كأنّه ثيابُ حدادٍ، وهذا السّوادُ لا يكون إلاّ من كثرة ما عَلِقَ بها وتجمد عليها؛ فإنّ الطّير إذا وقعت عليها تَلَطَّخَت بها واكتست منها، كما قال[3]:

---

(١) ديوانه (١/٢٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد التَّميمي.
الشّوى من الخيل: قوائمها.

(٢) ديوانه (٣/١٦٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (١/٢٦٥)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد التَّميميّ.

=

وقد لَبِسَتْ دمـاءَهُمُ علـيهمْ حِداداً لَم تَشُقّ لهـا جُيُوبـا

أي: وقد لبست الطّير من دماءِ الأعداء ما صار عليهـا كالثّيـاب السّود لِمَا يبست، ولكنّها ثيابٌ لم تُشَقَّقْ جُيُوبُها.

٣- الأسرى والسَّبْي:

لم يكثر المُتَنَبِّي من وصفه الأسرى، ومن القليـل الـذي جـاء في وصفهم قوله في ابن يزداد -أحد مَن طلب الإمارة واقتطع الولاية وحاول الاستقلال بالحكم في أطراف الخلافة-(١):

غِرٌّ طلعتَ عليه طَلْعَةَ عـارضٍ مطـرَ المنايـا وابـلاً ورُذَاذا

فغدا أسيراً قد بللـتَ ثيابَـهُ بدمٍ وبَـلَّ ببولـه الأفخـاذا

فوصفه بأنّه جاهلٌ غيرُ مُجَرِّبٍ، ما إن فاجأته جنـدُ الممـدوحِ إلاّ واستسلم راضياً بِذُلِّ الأسر، وليت الأمر بقي على ذلك؛ فقد: (زاد الطِّينَ بِلَّةً)؛ لأنّ الاستسلام وحده قد يكون فيه نوعٌ من الحكمة إذا لم يكن بدّ منه، ولكنّه كشف عن ستره، وأبدى عمّا اعتراه من روعٍ، وما علاه من

= المعنَى الذي ذكرته على رواية من نصب: (دماءَهم).

أمّا على رواية مَنْ رَفَعَها؛ فيكون المعنَى: إنّ الدّماء اسودّت علـى القتلـى؛ فكأنّها لبست عليها ثياباً غير ما كانت تلبس من الحمرة.

ح ٢ (١/٢٦٥)، من الدّيوان.

(١) ديوانه (٢/١٨٧)، من قصيدةٍ يمدح بها مساور بن محمّد الرّومِيّ.

فَزَعٍ، بأن بَلَّ ثيابَهُ بِبَولِهِ، وهذا من الشّناعة بمكانٍ، لِمَن يَدَّعِي الفروسية، ويتصدّر للقيادة، ومن ذلك قوله(١):

كم من حُشَاشَةِ بطريقٍ تَضَمَّنَها ... للباتراتِ أمينٌ ما له وَرَعُ
يُقاتِلُ الخطوَ عنه حين يطلُبُهُ ... ويطرُدُ النّومَ عنه حين يَضْطَجِعُ

فإنّه جعل هذا الأسيرَ من البطارقة بأبأس حالٍ، جعله مقيداً من أجلِ قتله، وجعل حارسه والضَّامِنَ روحَهُ هو القيدُ، ولكنّه حارسٌ غليظُ القلبِ ليس بذي ورعٍ فيرحَمَهُ، بل إنّه مُشَدِّدٌ عليه، يمنعه من الخَطوِ إذا أراد السّير، ويمنعُهُ النّوم عند الاضطجاع.

وقد أشار إلى حقد الأسير على (القِدِّ) الذي يُكَبَّلُ به، مع عدم قدرته على التّخلّص منه، ولا حيلة له في ذلك، فقال معبِّراً عمّا في نفسه هو من الحقد على النّاس(٢):

وغيظٍ على الأيام كالنّار في الحشا ... ولكنّه غيظُ الأسير على القِدِّ

كما وصف أبو الطّيّب السَّبْيَ كثيراً، وهو يرى أنّ سيفَ الدّولة قد سُلِّطَ على الرّوم، حتّى إنّ كلَّ نساءَهم مصيرُهُنَّ السَّبْيُ، كما أنّ مصير مَن وُلِدُوا القتلُ، ومصير ما ثُمروا من الأموالِ والزّروعِ النَّهبُ والسّلبُ والإحراقُ، ولذا قال(٣):

---

(١) ديوانه (٢/٣٣٨).

(٢) ديوانه (٢/١٦٢).

(٣) ديوانه (٢/٣٣٤).

للسَّبْي ما نكحوا، والقتلُ ما وَلَدُوا والنَّهْبُ ما جمعوا، والنّارُ ما زرعوا

وغزوات ممدوحه قويّةٌ متواصلةٌ، لا تبقي إلاّ من لا يستحقّ القتلَ من النِّساء وأشباههنّ، كما قال(١):

أخو غزاتٍ ما تُغِبُّ سيوفُهُ رِقابَهُم إلاّ وَسَيْحانُ جامدُ
فلم يبقَ إلاّ مَن حماها من الظُّبا لَمَى شَفَتَيْهَا والثُّدِيُ النّواهدُ

وأذا ما انتهت الحربُ جُمِعَ السَّبْي في صعيدٍ واحدٍ، حتّى تكتسي الأرضُ التِي هم عليها بهم لكثرهم، فتصير بيضاءَ؛ لأنّهم ما بين جاريةٍ وغلامٍ، كما قال(٢):

عَصَفْنَ بهم يومَ اللّقانِ وسُقْنَهُمْ بِهَنْزِيطَ حتّى ابيضَّ بالسَّبْي آمدُ

وقد وصف حالهنّ بعد الجمع؛ فقال(٣):

وأمسى السّبايا يَنْتَحِبْنَ بِعَرْقَةٍ كأنّ جُيوبَ الثّاكلاتِ ذُيُولُ

فإنّه لِهولِ ما نزل بهنّ من المصيبة، وما أصابهنّ من الثُكْلِ لِفَقْدِ الأزواج والأولاد والآباء والإخوان، يَظْلَلْنَ في نوحٍ دائمٍ وانتحابٍ مستمرٍّ، قد شَقَقْنَ جيوبَهُنَّ؛ حتّى اسندلت على الأرض، فصارت كأنّها ذيولٌ.

وقال(٤):

---

(١) ديوانه (١/٣٩٨-٣٩٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١/٣٩٧)، من القصيدة السّابقة.

(٣) ديوانه (٣/٢٢٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
وعرقة: بلدٌ في الشّام.

(٤) ديوانه (٤/٢١١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

ومن عاتقٍ تَصْرَانة بَرَزَتْ لــه أَسيْلَة خَدٍّ عن قريب سَــتُلْطَمُ
صفوفاً لِلَيْثٍ في لُيُوثٍ حُصُونُهَا متونُ المَذَاكِي والوَشِيجُ المُقَــوَّمُ

وهنّ قد برزن من خدورهنّ، ووقفن صفوفاً لاستقبال القائد الذي أسرّهنّ منتظرات أمره فيهنّ.

فإن اعترض قائلٌ؛ فقال: إنّ في البيت الأوّل ما يدلّ على أنّهنّ يُهَنَّ ويُلَطَّمْنَ، وهذا يتنافى مع ما ذكرت آنفاً من إكرامه النِّساء.

قلت: إنّ ما يَحدُثُ لَهُنَّ من لَطْمٍ أو إهانةٍ إنّما هو بعد تقســيمهِنّ بين الجند، فقد يتعرّض بعضهنّ لبعض ذلك، ولذا لم يقل المُتَنَبِّي إنّهنّ قــد لطمن مع أنّهن قد جمعن، وإنّما قال عن قريبٍ إشارة إلى ما ينتظِرُهُنَّ من القسمة، وما يترتّب عليها.

ولو سلمنا جدلاً بأنّهنّ يُلَطَّمْنَ عنده -وهذا ما يتنافى مع خلق القائد المسلم الذي أوصاه الإسلام بإكرام السّبايا والأسرى والإحسان إلــيهم-، لو سلمنا بذلك، لكان هذا مقصوراً على غير المسلمات، أمّــا العربيّــات المسلمات فقد أكّد المُتَنَبِّي على إكرامهِنّ عند حديثه عن سَبْيِ نساءِ بنِــي كلابٍ، وهو في الواقع ليس سَبْياً لَهُنَّ؛ لأنّ السَّبْيَ لا يكــون إلاّ لِمَــن مصيرُهُنّ القسمة، وذلك قوله[1]:

فَعُدْنَ كما أُخذْنَ مكرَّمَــات علــيهِنَّ القَلائــدُ والمــلابُ
يُثِبْنَك بالذي أَوْلَيــتَ شــكراً وأين من الذي تــولي الثَّــوَابُ

(١) ديوانه (٢/٢٠٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وليس مصيرُهُنَّ إليك شيناً ولا في صَوْنِهِنَّ لديك عابُ
ولا في فقدهنَّ بَنِي كلابٍ إذا أبصرن غُرَّتَكَ اغترابُ

فإنَّهُنّ لديه في حفظٍ وصونٍ، وقد أَعِدْنَ مُكَرَّمات، كما أُخِذْنَ؛ فإنّه قد أَعادَهُنَّ بزينتهِنّ التي كانت عليهنّ، وليس في مصيرهنّ إلى سيفِ الدّولة عيبٌ عليهنّ، فكأَنّهُنَّ -وهنّ عنده- عند أهاليهنّ، ولسن مغتربات حين لا يرين أزواجَهُنَّ ورجالَ قومِهِنّ، فرؤيته قامت لَهنَّ مقام الأهل والعشيرة.

٤- إحراقُ الدّيار:

من أهمّ آثار المعارك بعد القتل والجرحَى والأسرى ما تُخَلِّفُهُ خَلْفَها من دمارٍ، ودمارُ الحروب في عهد المُتَنَبِّي يَكْمُنُ في إحراقِ أراضي الأعداء، كما قال(١):

عَبَرْتَ تَقْدُمُهُم فيه وفي بلدٍ سُكَّانُه رِمَمٌ مسكونُها حُمَمُ

أي: عَبَرْتَ النّهر بِجُندك تتقدّمهم فيه، وتتقدّمهم في بلدِ قتلت أهلَه فتركتهم رِمَماً باليةً، وأحرقت أموالهم فصارت حِمَماً مُتَفَتِّتَةً، فديارُهُم قد أَصْبَحَتْ أطلالاً وخراباً يباباً.

ومثله قوله(٢):

(١) ديوانه (١٣٦/٤).

(٢) ديوانه (٢٢٣/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

تسايِرُها النّيرانَ في كلِّ مسلكٍ به القومُ صرعى والدِّيارُ طُلُولُ

أي: تسير النّيران مع الخيل أينما سلكت، فهم يُحَرِّقون كلَّ موضعٍ وَطِئُوه من أرض الأعداء، ويقتلون أهلَهُ فخربت ديارهم وبقيت آثارهم.

٥- المنهزمون:

لشدّة بطش ممدوح المُتَنَبِّي وقوّة حروبه، يرى أعداؤه أنّهم إذا سلموا منه بالهرب ولاذوا بالفرار، أنّهم غنموا غَنْماً عظيماً كما قال(١):

أَغَرُّ، أعــداؤه إذا ســلموا بالهرب استكبروا الذي فعلــوا

ولذا؛ فإنّ الدُّمستقَ لَمّا سلم عدَّ يومه الذي نجا فيه-من شِفَارِ بِيْضِ سيف الدّولة -مولداً جديداً له كما قال المُتَنَبِّي(٢):

لذلك سَمّى ابن الدُّمستقِ يومَهُ مماتاً وسمّاه الدُّمســتقُ مولــداً

وقد شبّه المُتَنَبِّي المنهزم في هربه بعدة أشياء، فَمَرّةً بالنّعامة الشّاردة، كما قال(٣):

ما كانت الطِّرمُ في عجاجتــها إلاّ بعــيراً أَضَــلَّهُ ناشــدْ
تسأل أهلَ القلاعِ عن ملــكٍ قد مَسَــخَتْهُ نعامــةً شــارِدْ

---

(١) ديوانه (٣٣٠/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٥/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

والدُّمستق: قائم الرّوم المشهور في حروب سيف الدّولة.

(٣) ديوانه (١٧٩/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عضد الدّولة.

الطرم: قلعة الملك وهشوذان.

ومرّةً بالوعل، بل جعله أشدّ منه هرباً، كما قال[١]:

فأتيـــت معتزمـــاً ولا أســـداً ومضيت منـــهزماً ولا وَعْـــلُ

ومرَّة شبهه بالشّاء وقد سمعت زئيرَ الأسود، كما قال[٢]:

فـــولّى بأشـــياعِهِ الخَرْشَـــنِيُّ كشاءٍ أحسَّ بِـــزارِ الأُسُـــودِ

هذا، وإنّ سيفَ الدّولة كثيراً ما يطارد أعداءه؛ لأنّه لا يرضى بقتل مَن قَتِلَ منهم فقط، بل هو عازمٌ على إبادتهم كلّهم، ولا يَعُدُّ الظّفـــر إلاّ بقتلهم، أمّا أن يفلت وينهزم منهم أحدٌ، فذلك عنده ظفرٌ غيرِ تامٍّ، وقـــد لحظ المُتَنَبِّي أسفه على أن يفلت منه أحدٌ منهم، وحِرْصُهُ على مطاردتهم؛ فقال له مواسياً[٣]:

فَوتُ العَـــدُوِّ الـــذي يَمَّمْتَـــهُ ظَفَـــرٌ في طَيِّـــهِ أَسَـــفٌ في طَيِّـــهِ نَعَـــمُ
قد ناب عنك شديدُ الخوفِ واصطنَعَتْ لك المهابـــةُ مـــا لا تصـــنع الـــبُهَمُ
ألزمت نفسك شـــيئاً لـــيس يلزمُهـــا أن لا يُـــوَارِيْهِمُ أرضٌ ولا عَلَـــمُ
أَكُلّما رَمْـــتَ جيشـــاً فـــأنثنى هَرَبـــاً تَصَـــرَّفت بـــك في آثـــارِهِ الهِمَـــمُ
عليـــك هَـــزْمُهُم في كـــلِّ مُعْتَـــرِكٍ وما عليك بهـــم عـــارٌ إذا انهزمـــوا
أما ترى ظَفَـــراً حُلْـــواً ســـوى ظَفَـــرٍ تصافحت فيه بيض الهندِ واللّمَـــمُ

---

(١) ديوانه (٤/٢٤).

(٢) ديوانه (٢/٦٦)، من قصيدةٍ يمدح بها السّلطان الذي حبسه.

(٣) ديوانه (٤/٨١، ٨٢).

فإذا سار في آثار المنهزمين سار سيراً حثيثاً، يواصلُ السّيرَ ليلاً ونهاراً، في جيشٍ كثيفٍ دائمِ الحركة، يَجُوسُ كلَّ الفلواتِ، حتّى لا يبقى منهم أحداً، كما قال في طَلَبِهِ بَنِي كلابٍ[١]:

طَلَبْتَهُم على الأمواه حتّى تَخَوَّفَ أن تُفتِّشَهُ السّحابُ
فَبِتَّ لياليًا لا نومَ فيها تَخُبُّ بك الْمُسَوَّمَةُ العُرَابُ

وهو قائدٌ منصورٌ؛ لأنّ هؤلاء الفارِّين منه إنّما يَفِرُّون من موتٍ إلى موتٍ، كما قال في ملاحقته لِمَن فرَّ إلى الصّحاري والقفار[٢]:

إذا فاتوا الرّماحَ تناولَتْهُمْ بأرماحٍ من العطشِ القِفَارُ
يرون الموتَ قُدَّاماً وخَلْفاً فيختارون والموت اضطرارُ
إذا سَلَكَ السّماوةَ غيرُ هادٍ فقتلاهم لعينيه منارُ

فإنّهم يفرُّون من رماحه ورماحِ جنده إلى الصّحراء، فتلاقيهم الصّحاري بِسَمائمِها، وما يترتّب على ذلك من عطشٍ شديدٍ وتِيهٍ، فيهلكون زرافاتٍ ووحداناً؛ حتّى إنّ مَن يسير في هذه الصّحاري بعدهم، لن يَضِلَّ فكثرة القتلى منهم بالتّيه والعطش علامةٌ واضحةٌ يسير على هديها، إنّهم رأوا أنّ إقدامهم على خوض غمار هذه الصّحراء القاحلة مَهْلَكَةٌ وتَهْلُكَةٌ، ولكنّهم خُيِّرُوا بين (أمرين أحلاهما مُرٌّ)، خُيِّروا بين الموت بِرِمَاحِهِ أو الموتِ بِرماحِ الصّحراء، فاختاروا الموت بالأخير منهما، فهو أرحمُ لهم، وهو أقلّ ما يستطيعون عمله، فالخوف قد منعهم الوقوف له.

---

(١) ديوانه (١/٢٠٥).

(٢) ديوانه (٢/٢١١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وفي البيت الأوّل مُشَاكَلَةُ مبنيةٌ على التّشبيه؛ فإنّه سَمَّى العطشَ والتّيهَ رماحاً مشاكَلَةً لِذِكْرِهِ رِمَاحَ ممدوحه، وتشبيهاً لها بالرّماح؛ لأنّها قاتلـــةٌ كما تَقْتُلُ الرّماحُ.

وقد يَفِرّون منه إلى الأنهار، فيلاحِقُهُم فيها ويَعْبُرُها وراءَهُم؛ لأنّه لا شيء يعصمهم منه، كما قال[1]:

وجاوزوا أَرْسَنَاساً مُعْصِمِينَ به ... وكيف يَعْصِمُهُم ما ليس يَنْعَصِمُ
وما يَصُدُّكَ عن بَحْرٍ لَهم سَعَةٌ ... وما يُرُدُّكَ عن طُودٍ لَهُم شَـــمَمُ
ضَرَبْتَهُ بصدور الخيلِ حاملـــةً ... قوماً إذا تَلِفُوا قدماً فقد سَلِمُوا
تَجَفَّلَ الموجُ عن لَبَّاتِ خـــيلِهِمُ ... كما تَجَفَّلَ تحتَ الغارّة الـــنَّعَمُ
عَبَرْتَ تقدُّمُهُمْ فيـــه وفي بَلَـــدٍ ... سُكَّانُهُ رِمَمٌ مَسْكُونُها حِمَـــمُ

وقد صوّر المُتَنَبِّي ما يعتري المنهزمين من خوفٍ بعدّةِ صورٍ تدلّ على مدى خوفهم، وعلى شدّة انهزامهم، ومنها قوله فيمَن انهزم لأوّل وهلـــةٍ عند التّحام الجيشين[2]:

هو الأميرُ الذي بادتْ تميمُ بـــه ... قِدْماً وساقَ إليها حَيْنُهَا الأجـــلا
لِما رأَتْهُ وخيلُ النّصرِ مقبلـــةٌ ... والحربُ غيرُ عوانٍ أسلموا الحِللا

فإنّ هؤلاء القوم لَمّا رأوا هذا الممدوح وخيله المنصورة قد أقبلـــت عليهم وَلَمّا تقاتلهم تركوا منازلهم، وهربوا منذ البداية.

---

(١) ديوانه (٤/١٣٦)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٨٧)، من قصيدة يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابي المنبجيّ.
الحرب العوان التِي قُوتِلُ بها المرّة بعد المرّة.

أو كقوله عن الدُّمستق[1]:

مضى بعدما التَفَّ الرّماحان ساعةً   كما يَتَلقَّى الهُدْبُ في الرّقدةِ الهُدْبا

فإنّه لم يلبث بعد اشتباك الرّماح أن ولّى الدُّبُرَ.

ومنها: أنّ هذا الهاربَ يهرب وهو شاكرٌ لأصحابه الذين أسلمهم للسّيوف تُفَلِّقُ هامَهُم وتَقَطَّعُ أيديَهُم؛ لأنّهم شَغَلُوها عنه، فهو مسرورٌ بذلك؛ لأنّه حَصَلَ على غنيمةٍ عظيمة، وربْحٍ جسيمٍ، هو النّجاة من الممدوح، كما قال عن الدّمستق -أيضاً-[2]:

مضى يشكر الأصحابَ في فوتِهِ الظُّبا   بما شَغَلَتْها هامُهُم والمَعَاصِمُ

ويَفْهَمُ صوتَ المَشْرَفِيّةِ فيهِمُ   على أنّ أصواتَ السّيوفِ أعاجِمُ

وهو لِخوفه يسلِّم كلّ شيءٍ، كما قال عنه -أيضاً-[3]:

ولكنّه ولّى وللطّعنِ سَوْرَةٌ   إذا ذكرها نفسُهُ لَمَسَ الجَنبَا

وخَلّى العذارِي والبطاريقَ والقُرَى   وشُعْثَ النَّصَارى والقرابينَ والصُّلْبا

أرى كُلّنا يبغي الحياةَ لنفسهِ   حريصاً عليها مَسْتَهاماً بها صَبّاً

فَحُبّ الجبانِ النَّفْسَ أورده التّقَى   وحُبُّ الشّجاعِ النَّفْسَ أورده الحَرْبا

ومنها: أنّهم يفرّون من أمام ممدوحه محتملين معهم أبناءهم ونساءهم وبعض أموالهم من إبلٍ وغنمٍ ومعزٍ، وقد بيّن حالة كلٍّ من ذلك، فالنّساءُ

(١) ديوانه (١٨٩/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١٠٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (١٨٩/١-١٩٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

قد أُرْهِقْنَ لكثرة السَّيرِ، وطُولِ مدّة الفرارِ، والصّبيانُ قد سقطوا من على ظهور الخيل المحمولين عليها لشدّة الرّكْض، والأموالُ تصيحُ خَلْفَهُم، وقد جعل صياحَهَا بُكاءً، كما أنّه لشدّة ما لَحِقَهُم من العطش كُلَّما وصلوا ماءً شربوه كُلَّهُ، وقد سقطت عمائمُهُم وخُمُرُ نِسائهم وسروجُهُم، كما قال[1]:

يُبَكِّي خُلْفَهُمْ دثَرٌ بُكَاه ... رُغَاءٌ أو ثُؤاجٌ أو يُعَارُ
وجاؤا الصَّحْصَحَانَ بلا سُرُوجٍ ... وقد سَقَطَ العمامَةُ والخِمَارُ
وأرهقتِ العذارى مردفاتٍ ... وأوطِئَتْ الأُصَيْبِيَةُ الصِّغَارُ
وقد نُزِحَ الغُوَيْرُ فلا غُوَيْرٌ ... ونَهْيَاً والبُيَيْضَةُ والجِفَارُ

ومِمّا يَصْنَعُهُ الخوفُ أنّ المهزومين إذا فرّوا بنسائهم أَسْقَطَت الحوامل منهنَّ أجنَّتَها فوق ظهور الإبل اللواتِي يَرْكَبْنَهَا، وكذلك تَسْقُطُ النُّوقُ الحواملُ أولادَها ذكوراً وإناثاً، وذلك لشدّة الفرار، ولِما لَحِقَهم فيه من جَهْدٍ وفَزَعٍ، كما أنّهم يتفرّقون عنه يمنةً ويسرةً، كلٌّ في جِهَةٍ، حتّى تُصْبِحَ القبيلةُ الواحدةُ عِدَّةَ قبائِلَ؛ لأنّها بعد أن كانت مجتمعةً صَارَتْ متَفرِّقَةً، كما قال واصفاً طَلَبَ سيف الدّولة بنِي كلابٍ بعد هربهم أمامه[2]:

(١) ديوانه (٢/٢٠٨-٢٠٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١/٢٠٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة

وشرح البيت الأوّل وريته خلاف الواقع؛ لأنّ الحواملَ والسِّقاب يريد القويّة من الإبل، فناسبتها أجهدت بدلاً من أجهضت، والله أعلم.

وأَسْقطَتِ الأجنّـــةُ في الوَلاَيـــا وأُجْهِضَت الحواملُ والسِّـــقَابُ
وعمروٌ في مَيَـــامنِهِمْ عمـــورٌ وكعبٌ في مَيَاسِرِهِم كِعَـــابُ

أمّا الحالة النّفسية للمنهزمين فقد صوّرَها المُتَنَبِّي بعدّة صورٍ منها[1]:

يرونَ من الذُّعرِ صوتَ الرّياحِ صهيلَ الجيادِ وخَفْــقَ البُنُـــودِ

فإنّهم لشدّة ما أَلَمَّ بهم من الفزع والرّعب يظنّون أنّ أصوات الرّياحِ المتجاوبة من كلّ جهةٍ، أصواتُ خيلِ ممدوحِهِ، ملاحقةً لهـــم، أو خَفْـــقِ بنودِهِ وراياتِهِ، وقد حلمها الفرسانُ وراءهم.

ومنها: أنّ الأرضَ على سَعَتِهَا تضيقُ بهم؛ لأنّهم يظنّون كلَّ شــــيءٍ مطارداً، وطالباً لهم؛ فإذا ما رأوا أيَّ شيءٍ من بعيدٍ، تبادر إلى أذهانِهِم أنّه رَجُلٌ مطارِدٌ لهم، كما قال[2]:

وضاقت الأرضُ حتّى كان هارِبُهُمْ إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّه رَجُـــلا

ومنها: أنّ مَن هرب منهم لا يعدّ نفسه ناجياً، لِما تغلغل في نفســـه من الفزع والخوف الذي لا يفارقه حتّى وإن استقرّ في مأمنه؛ فإنّه يبقـــى حيناً من الدّهر ذاهلَ الفؤاد، مُخْتَبَلَ العَقل، وإن شرب خمراً لم تُغَيِّرْ مـــن صفرته إلى الحُمْرَةِ مع إدمانه عليها؛ لأنّ الصّفرة طَغَتْ على جَسَدِهِ، كما قال[3]:

(١) ديوانه (٢/٦٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٨٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابيّ المنجيّ.

(٣) ديوانه (٢/٣٣٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وما نجا من شفارِ البِيْضِ مُنْفَلِتٌ نجا ومنهنّ في أحشائه فَزَعُ
يباشِرُ الأمنَ دَهْراً وهو مُخْتَبَلٌ ويَشْرَبُ الخمرَ حولاً وهو مُمْتَقِعُ

ومنها: أنّ الهاربَ منهم يخشى أن يدركوه قبل وصوله مأمنه.

ومنها: أنّ الفَارَّ يكون قصير الأنفاس؛ لأنّها تتوالَى في سرعة، فقد جعل المُتَنَبِّي هذا التَّقَطُّعَ السَّريعَ حرصاً منه على سَرِقَةِ النَّفَسِ القصير من أيدي الأجل؛ لأنّه لا يأمُلُ النَّفَسَ الطّويلَ، كما قال عن الدّمستق(١):

لا يأمُلُ النَّفَسَ الأقصى لِمُهْجَتِه فَيَسْرِقُ النَّفَسَ الأدْنَى ويَغْتَنِمُ

ومنها: أنّ حالَتَهم النّفسية تَظَلُّ على هذا النّحو من فقدانِ الأمن في أوطاهم مع ما هم فيه من مُلْكٍ، فَيَدْعُوهُم ذلك إلى أن يُغَيِّروا من هيئاهم كما فعل الدّمستق؛ فإنّه غيّر هيئته فلبس مُسُوحَ الرُّهْبَانِ وثيابَهم السّودَ، وأقام في الأديرة تائباً، مستضعفاً، يمشي فيها بعكاز، كأنّه شيخٌ فان،لظنّه أنّ ذلك سينجيه من سيف الدّولة، وأنّى له ذلك، وفي ذلك يقول المُتَنَبِّي(٢):

فأصبح يجتابُ المسوحَ مخافةً وقد كان يجتابُ الدِّلاصَ المسردا
ويمشي به العكاز في الدّير تائباً وما كان يرضى مشيَ أشقرَ أجردا
فلو كان ينجي من عَلِيٍّ ترهبٌ ترهبتِ الأملاكُ مثنَى وموحدا
وكلّ امرئ في الشّرقِ والغربِ بعده يَعُدُّ له ثوباً من الشَّعْر أسودا

---

(١) ديوانه (٤/١٤٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٢/٦، ٧).

٦- الفرح بالنّصر، وأنّه نصرٌ للإسلام على أعدائه:

سجل المُتَنَبِّي كثيراً من انتصارات سيف الدّولة على الرّوم، وأشار في بعض قصائده التِي سجّل فيها هذه الانتصارات إلى معنًى لطيفٍ، وهو أنّ حروبه هذه ليست حروب ملكٍ ضدّ ملكٍ، إذا انتصر أحدهما على الآخر لم يتجاوز فرح هذا النّصر جندَ المنتصرِ وأعوانه، ولكنّها حروبٌ بين الإسلام وأهله، وبين الكفر وأهله، فانتصارات سيف الدّولة عليهم نصرٌ لدين الإسلام، وهزيمةٌ لأعداء الدِّين، كما قال[1]:

ولست مليكاً هازماً لنظيرِهِ   ولكنّك التّوحيدُ للشّرك هازمُ

ومثله قوله[2]:

خَضَعَتْ لِمُنْصُلِكَ المناصِلُ عنوةً   وأذلّ دينُك سائرَ الأديانِ

ومن مظاهر هذا النّصر استهزاؤه بالأعداء، وتَهكّمه منهم، ومنه قوله عن أحد الخوارج[3]:

طلب الأمارة في الثّغورِ ونشؤُهُ   ما بين كَرْخَايا إلى كِلْواذا

فكأنّه حَسِبَ الأسنّةَ حُلْوَةً   أو ظنّها البرنِيَّ والآزاذا

---

(١) ديوانه (٤/١٠٧).

(٢) ديوانه (٤/٣١٣).

(٣) ديوانه (٢/١٨٧)، من قصيدةٍ يمدح بها مساور بن محمّد الرّومِي.

البرنِي والآزاذا: نوعان من تَمر العراق.

٧- تهديد الأعداء بما مضى من معاركَ:

كثيراً ما يهدّد المُتَنَبِّي أعداءَ ممدوحيه بالحروبِ الشّديدةِ السّابقةِ ضِدَّهُم، ومن ذلك قوله(١):

خذوا ما أتاكم بــه واعــذروا ... فــإنّ الغنيمــةَ في العاجِــلِ
وإن كان أعجـبَكم عــامُكُم ... فعودا إلى حِمْصَ مــن قابــلِ
فإنّ الحسامَ الخضـيبَ الــذي ... قتلــتم بـــه في يـــد القاتــلِ

فهذا تهديدٌ مشوبٌ باستهزاءٍ؛ لأنّه يأمرهم باغتنامِ ما أتاهم به هذا القائدُ، مع الاعتذارِ عن التّقصيرِ؛ فإنّه أتاهم بالحرب، وكانوا قد طالبوه بفداء ابن عمّه، فأتاهم بخلافِ ما تَمنّوا من الذّهب والورِق، والفوزُ والنّجدةُ لَهم بِما جاءهم به؛ لأنّه أبقى عليهم؛ فإن طلبوا العودَ عاد عليهم، ثم كرّر التّهديدَ مرّةً أخرى، لهم إن حالوا مهاجَمَةَ حمصَ، فالسّيوفَ التي قتلهم بها لا زالت عنده، وما زال فرسانُهُ يَحملوها.

ومن ذلك: استغلاله حادِثَةً قُتِلَ بها الرّومُ بعضَ جندِ سيفِ الدّولة، وقد وجدُوهم نياماً، بعد أن ارتحل عنهم سيفُ الدّولة، دون أن يشعروا، فجعل المُتَنَبِّي قتلَ هؤلاء تنقيةً لِجيش سيفِ الدّولة من الشّوائبِ، ولكن لا يبقى في الجيش إلاّ الصّناديد؛ فقال(٢):

---

(١) ديوانه (١٥٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣٤٠/٢).

وإنّما عرضَ اللهُ الجنودَ لَكم لكي يكونوا بلا فَسْلٍ إذا رجعوا
فكلّ غزوٍ إليكم بعد ذا فَلَـهُ وكلّ غازٍ لسيف الدّولة التّبعُ

ومثله تهديدُهُ الدُّمستقَ بأنّه إن حاول العود بعد فراره فسيلقى مصيره(١):

لعلَّكَ يوماً يادُمستقُ عائـدٌ فكم هاربٍ مِمّا إليه يؤولُ

أي: لعلّكَ يوماً تعود إلينا، فيحيق بك الهلاكُ الذي استدفعته بفرارك؛ فقد يهرب الإنسانُ مِمّا يعود إليه؛ فيكون مصيرُهُ في القتلِ أو الأسرِ.

٨- الأعداء ومفاوضات الصّلح:

إذا أثقلت الحروبُ الأعداءَ وأذلّتهم، قاموا بمراسلة خصمهم، وقد صوّر المُتَنَبِّي كثرة الرُّسْلِ الوافدينَ على سيف الدّولة من ملوك الرّوم، وممَّن يريد الصّلح، ومن ذلك قوله(٢):

رأى مِلكُ الرّومِ ارتياحَكَ للنّدى فقام مقامَ المحتذي المُتَمَلِّقِ
وخلى الرّماحَ السّمهريةَ صاغراً لأدربَ منه في الطّعانِ وأحذقِ
وكاتبَ من أرضٍ بعيدٍ مرامُهَا قريبٍ على خيل حواليكَ سُبَّقِ

ثم بيّن مقدارَ هيبةِ سيفِ الدّولة في قلوبهم وخضوعِهِمْ له حين القدومُ عليه، كما بيّن سبب ذلك:

---

(١) ديوانه (٣/٢٢٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٥٥-٥٦).

وَلم يثنِكَ الأعداءُ عن مُهَجَاتِهِمْ بِمثلِ خضوعٍ في كـــلامٍ منمَّـــقِ
وكنتَ إذا كاتبتَهُ قبـــلَ هـــذه كتبتَ إليه في قـــذالِ الدُّمســـتقِ

ومثله[1]:

دروعٌ لِمَلْكِ الرّوم هذى الرّسائلُ يردُّ بها عـــن نفســـه ويُشَـــاغِلُ
هي الزّرَدُ الضّافي عليه ولفظهـــا عليك ثنـــاءٌ ســـابغٌ وفضـــائلُ

ثم بيّن ما اعترى هذا الرّسول من الهيبة حين رأى سيفَ الدّولة، ولَمّا شاهده قبل وصوله من كثرة الجماجمِ، التي انتشرت في طريقه من رؤوس قومه، وقد تعجّب الشّاعر أيضاً، من وصوله إلى هذا المكان، وكلّ الأرضِ التِي مرَّ بها لم تزل مظلمةً بالغبار الذي أثارته جيوش سيف الدّولة، وكذا مياه الأنهار والمناهل؛ فإنّها لم تَصْفِ بعد مِمّا امتزج بها من دماء الأعداء؛ فقال[2]:

وأنّى اهتدى هذا الرّسولُ بأرضِـــهِ وما سكنتْ مذْ سِرْتَ عنها القساطِلُ
ومن أيِّ ماءٍ كان يســـقي جيـــادَهُ ولم تصفُ من مزجِ الدّماء المناهـــلُ
أتاك يكاد الـــرّأسُ يجحـــدُ عُنُقَـــهُ وتَنْقدُّ تحت الـــذّعرِ منـــه المفاصِـــلُ
يُقَـــوِّمُ تقـــويمَ السّـــماطين مشـــيُهُ إليـــك إذا مـــا عَوَّجَتْـــهُ الأفَاكِـــلُ
فقاسمـــك العيـــنين منـــه ولحظَـــه سَـــمِيُّك والخِـــلُّ الـــذي لا يزايـــلُ
وأبصر منك الرّزق، والرّزقُ مُطْمِعٌ وأبصر منه الموتَ، والمـــوتُ هائـــلُ

(١) ديوانه (٣/٢٣٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٣٣-٢٣٦).

وقَبَّلَ كُمّاً قَبَّلَ التُرْبَ قَبْلَهُ ... وكلّ كَميّ واقف متضائلُ
وأسعدُ مشتاقٍ وأظفرُ طالبٍ ... هَمَامٌ إلى تقبيلِ كُمِّكَ واصِلُ
إذا عَايَنَتْكَ الرُّسْلُ هانت نُفوسُها ... عليها وما جاءت به والمُرَاسِلُ
رجا الرّومُ من ترجّي النّوافل كلُّها ... لديه ولا ترجى لديه الطّوائلُ
فإن كان خوف القتْلِ والأسرِ ساقهم ... فقد فعلوا ما القتلُ والأسرُ فاعلُ
فخافوك حتّى ما لقَتْلٍ زيادةٌ ... وجاؤوك حتّى ما تُرادُ السّلاسِلُ
أرى كلَّ ذي مُلْكٍ إليك مصيرُهُ ... كأنّك بحرٌ والملوكُ جداولُ

فقد جعل مجيئهم طائعين وطلبُهُم الصّلحَ، وإظهارَهُم الذّلّةِ والطّاعةِ والانقيادَ له، أشدّ من القتل والأسر.

وقد بيّن من قصيدةٍ أخرى كون ذلك ذلّةً؛ لأنّهم بهذه المراسلة لا يطالبون صلحاً، فالصّلح مرغوبٌ به من كلا الطّرفين، وإنّما يطلبون هدنةً، والهدنة تأخيرٌ للحربِ عنهم أياماً فقط، وهذا هو الذُّلّ بعينه؛ فقال[1]:

لهم عنك بالبيضِ الخفافِ تفرّقٌ ... وحولك بالكتبِ اللطّافِ زحامُ
تَغُرُّ حلاوات النّفوسِ قلوبها ... فتختارُ بعضَ العيش وهو حِمَامُ
وشرُّ الحمامين الزّؤامين عيشةٌ ... يَذلُّ الذي يختارُهَا ويضامُ
فلو كان صلحاً لم يكن بشفاعةٍ ... ولكنّه ذلٌّ لهم وغَرَامُ

(١) ديوانه (٤/١١١-١١٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وقد يرد سيف الدّولة هؤلاء الرّسلَ دون أن يجيبَهُم إلى ما يطلبون، كما قال(١):

إلى كم تردُّ الرُّسْلَ عمّا أتوا له كأنَّهُمُ فيما وهبتَ مَلاَمُ

ونجد المُتَنبِّي لا يَرِقُّ لهم فيستعطف سيفَ الّدولة لِيَمُنَّ عليهم ويصفح عنهم، وإنّما نراه يبيّن أنّه إن أعطاهم الأمانَ فذلك منه منَّةٌ وكرمٌ، وإن لم يعطهم إيّاه فهوم مستحقّون ما لَحِقَ بهم، ومنه قوله(٢):

فإن تعطهِ منكَ الأمانَ فسائلٌ وإن تعطهِ حَدَّ الحُسَامِ فأخلقِ

ويرى المُتَنبِّي أنّ مَن طلب الصّلحَ من الأعداء خيرٌ مِمَّن لم يطلبه وأرشد؛ لأنّهم بطلبهم الصّلحَ يدفعون عن أنفسهم الموتَ المحقَّقَ، كما قال(٣):

لوفدُ نُمَيْرٍ كان أرشدَ منهُمُ وقد طردوا الأظعانَ طردَ الوسائقِ
أعدّوا رماحاً من خضوعٍ فطاعنوا بها الجيش حتّى رَدَّ غربَ الفَيالِقِ

فقد قام طلبُهم الأمانَ واستسلامُهُم وخضوعُهُم مقام رماحٍ طاعنوا بها جيشك مدافعين بها عن أنفسهم.

---

(١) ديوانه (١١٠/٤)، من القصيدة نفسها.
(٢) ديوانه (٥٧/٣).
(٣) ديوانه (٧٢/٣).
والضّمير في: (منهم) عائدٌ إلى قشير ويلجلان وبنِي عقيل.
والوسائق، جمع: وَسِيقَةٌ، وهي الطّريدة من النّعم.
غرب الفيالق، حدُّ الجيوش وقوّتها.

٩- الاستشفاع في بعض الخارجين، أو التّحريض عليهم:

كثير ما يكون الشّعراء سبباً في العفو عن الخارجين على السّلطة أو سبباً في التّحريض عليهم، ومِمّا كان لأبي الطّيّب من ذلك طلبه العفوَ عن بنِي كلابٍ في قصيدةٍ مدح بها سيفَ الدّولة، وذلك قوله[(١)]:

بنو كعبٍ وما أَثَّـرْتَ فِـيهِمْ ... يـدٌ لم يُـدْمِها إلاّ السِّـوارُ
بها مـن قطعِـهِ أَلْمٌ ونقـصٌ ... وفيها مـن جلالتِـهِ افتخـارُ
لَهم حقٌّ بِشـرْكِكَ في نَـزارٍ ... وأدْنَى الشِّرْكِ في أصلٍ جـوارُ
لعـلّ بنـيهم لبنيـك جنـدٌ ... فـأوّل قُـرَّح الخيـلِ المِهَـارُ
وأنت أَبرُّ من لو عـقَّ أفنَـى ... وأعفى مـن عقوبتـه البّـوَارُ
وأقدرُ مـن يُهَيِّجْـهُ انتصـارٌ ... وأحلمُ مـن يُحَلِّمْـهُ اقتـدارُ
وما في سطوة الأربابِ عيـبٌ ... ولا في ذِلَّـةِ العُبْـدَانِ عـارُ

وقد بيّن أسباب طلبه هذا العفوَ، وهي أنّهم جزءٌ منه كاليَدِ يُدْمِيها سوارُها؛ لأنّهم من أُرُومته يجمعهم (نَزارٌ)، ولأنَّه يرجو أن يكون أبناؤهم جنداً لأبنائه يعاونونهم في حروبهم، ولأنّه مِمَّن يعفو عمَّن ظلمه أو أعتدى عليه مع مقدرته على بواره وهلاكه.

ومثله طلبه العفو عن بنِي كلابٍ حين قال مخاطِباً سيفَ الدّولة[(٢)]:

وكيف يَتِمُّ بأسُـكَ في أنـاسٍ ... تصـيبُهُم فيؤلمـك المصـابُ

---

(١) ديوانه (٢/٢١٥).

(٢) ديوانه (١/٢٠٨-٢٠٩).

ترفَّقْ أيّهــا المــولى علــيهِمْ فإنّ الرِّفــقَ بالجــانِي عقــابٌ
وإنّهم عبيدُك حيــث كــانوا إذا تــدعو لِحادَثــةٍ أجــابوا
وعينُ المخطئينَ هم، وليســوا بأوّل معشــرٍ خطــؤوا فتــابوا

فقد جعلهم منه، وجعلهم موالي له، ورفقه بهم كالعقــابِ لهــم، وجعلهم عبيداً أذا دعاهم أجابوا، وإن كانوا مخطئين؛ فإنّ المخطئ كثيراً ما يتوب، وتصحّ توبَتُهُ.

ولو بحثنا عن أسباب طلب المُتَنَبِّي لهذا العفو، لوجدنا أنّه لا يُقْــدِمُ على هذه الشّفاعة إلاّ لِمَا بينه وبين هؤلاء من علاقةِ وُدٍّ وصــفاء؛ فــإنّ هؤلاء من أهل بادية الشّام الذين نشا بينهم ولهم عليه أيادٍ، كما يُرْوَى أنّه أتاه بعضهم فسأله أن يذكّرهم في شعره ويشفع فيهم[١].

ومن تحريضه على بعض الخارجين تحريضُهُ عليّ بن إبراهيم التّنوخِيّ على قومٍ من أهل اللاذقيةِ يعرفون ببنِي الفصيصِ من يهودِ توخَ، وذلك في قوله[٢]:

فلا تَغــرُرْكَ ألســنَةٌ مَــوَالٍ تَقَلُّــبُهُنَّ أفئــدةٌ أعــادِي
وكن كالموتِ لا يرثِي لبــاكٍ بكى منه ويَرْوَى وهــو صــادِي
فإنّ الجرحَ يَنْفُرُ بعــد حــينٍ إذا كــان البنــاءُ علــى فســادِ
وإنّ الماءَ يجري مــن جمــادٍ وإن النّــارَ تخــرج مــن زنــادِ

(١) العمدة لابن رشيق (٤٧).

(٢) ديوانه (٢/٨٣).

فقد حرَّضَه عليهم أشدّ تحريضٍ، ولو بحثنا عن البواعث لهذا لوجدنا مَن يربط بين ما لَحِقَ المُتَنَبِّي في اللاذقية من أذىً وبين ما أشيع عنه فيهـا من إشاعاتٍ فربّما كان هؤلاء القومُ مِمّن أساؤوا إليه إذ ذاك[1].

(١) العوامل السّياسية في شعر أبي الطّيّب المُتَنَبِّي، عصام السّيرفي (٣١٧)، بيروت، دار الكفر اللّبنانِي، ط١، ١٩٨١م.

الفصل الثّالث:

المُوَازَنَةُ بين موضوعات شِعْرِ الحَرْبِ عند الشّاعِرَين

أولاً: في المشاركة في الحروب.

ثانياً– وصف القائد.

ثالثاً– وصف الجند.

رابعاً–الإعداد للمعركة.

خامساً–التّحرّك إلى ميدان القتال.

سادساً–في ميدان القتال.

سابعاً–في أعقاب المعركة.

تَمهيدٌ

سأسير في هذه الموازنة على تلخيص ما ذكراه في شعرهما الحربِي الذي ذكر لكلّ منهما مستقلاّ في فصلٍ من فصول الرّسالة، بادئاً بذكر ما اشتركا فيه، ومُثنياً بذكر ما انفرد به كلّ واحدٍ منهما، وخاتِماً بِما يلحظ من اقتفاء المُتَنَبِّي آثار البُحْتُرِيّ -إن وجد-.

هذا، وما أصدره من أحكامٍ؛ فإنّما هو خاصٌّ بكلّ جزئيةٍ، ولا يتطرّق إلى شعرهما وشاعِرِيّتهما عامّة متأسياً بفعل الآمِدي في موزانته.

وسأجمل الموازنة في نقاطٍ؛ كالآتِي:

أوّلاً: المشاركة في الحروب:

أشار الشاعران في شعرهما إلى مشاركتهما في الحروب[1]، لكنّ إشارات البُحْتُرِيّ إشاراتٌ قليلةٌ، لا تفي بِعَدَّةِ فارسَ ميدانٍ، وحاملَ سِنانٍ، وقد أشاد فيها بِجشاعته، وأنّه بصحبة ممدوحٍ شجاعٍ، كما رأيناه يودِّع أصحابه حين إرادته الغزو، وفي هذا إشارةٌ إلى إلفه ووفائه.

أمّا المُتَنَبِّي فقد أشار إلى مشاركته بالمعارك كثيراً، فافتخر بِخوضِه غمراتِها، وبجودة خيوله التِي يركبها، وأنّه يقدم ولا يتأخّر، ويَكَرُّ ولا يَفِرُّ.

---

(١) الرّسالة (ص:١٨٧، ٣٠٣).

ومِمّا اقتفى به البُحْتُرِيّ عَدَّهُ غزواتِ ممدوحِهِ زيارةً لديار أعداء لا يحبّون ربوعَهَا ولا يتلذذون بالسّير في مغانيها فقد قال(١):

نزورُ دياراً ما نحبُّ لها مغنَــى ونسألُ فيها غيرَ ساكنها الإذنــا

والبُحْتُرِيّ وقد قال قبله(٢):

نزورَ بلا شوقٍ تذورةَ وابنــها وق صَدَّ عنها توفلٌ بــن مخــايلا

فاقتفاء الأثر هنا ظاهرٌ في اتفاقهما بِعَدِّ هذا الــذّهاب المتكــرّر في الغزوات زيارةً فكلاهما قال: (نزور) وكلاهما جعلها في صدر البيت.

كما اتّفقا أيضاً في عَدِّ هذه الزّيارة لغير اشتياقٍ ولغير ما محبّةٍ وإنّما غاير المُتَنَبِّي لفظةَ البُحْتُرِيّ والمؤدّى واحدٌ، فالبُحْتُرِيّ قال: (ما نحـــبّ)، والمُتَنَبِّي قال: (بلا شوق)، والذي لا يشتاق هو الذي لا يحب.

---

(١) الرّسالة (ص:٣٠٤).

(٢) الرّسالة (ص:١٨٨).

ثانياً: القائد

اشترك الشّاعران في ذكر صفات القائد الخُلُقيّة[١]:

الكرم والشّجاعة وسداد الرّأي والعزمُ والحزمُ، وتحدّثا عن مظـــاهرِ الشّجاعة ومن أشهرها: حُبُّهُ بالغزو، وخوفُ الأعداء عنه، وتسخيرُ الحمام له، ورباطة جأشه، وطمأنينته في ميدان الحرب وثباته، وكيده لأعدائـــه، وحسن رأيه، وتعوده على الحروب.

كما ذكروا بعض الصّفات الخَلْقِيَّة؛ كعراقَةِ النّسب، وبهاءِ الطّلعـــة، وإن كان البُحتُريّ قد أَلَحّ على ذكرهما كثيراً.

انفرد البُحتُرِيّ في ذكر بعض الصّفات الخُلُقِيَّة؛ ككتمـــانِ السِّـــرِّ، وخشونةِ العيش، وقِلّةِ النّوم[٢].

كما انفرد المُتَنَبِّي بالإشادة بلقب سيفِ الدّولة[٣]، فجعله عُنُـــوَانَ شجاعته التِي استغنَى بها عن السّيوف ومن ذلك قوله[٤]:

عيبٌ عليك تُرَى بسيفٍ في الوغَى   ما يفعلُ الصَّمْصَـــامُ بالصَّمْصَـــامِ

---

(١) الرّسالة (ص:١٩٣، ٣٠٦).

(٢) الرّسالة (ص:٢٠٢-٢٠٥).

(٣) الرّسالة (ص:٣٠٩).

(٤) الرّسالة (ص:٣٠٩).

هذا، وقد جاء تعدادهما صفات القائد في أبياتٍ مفردةٍ تكرّرت في عدّة قصائدَ، بيد أنّ المُتَنَبِّي أكثر الإشادة بِحبّ سيفِ الدّولة الغزو،فجعل الغزو عادة له(١):

قادَ الجيادَ إلى الطّعانِ و لم يَقُــدْ إلاّ إلى العــاداتِ والأوطــانِ

وقال(٢):

أنتَ طولَ الحياةِ للـرّومِ غــازٍ فمتَى الوعدُ أن يكونَ القُفُــولُ

وبالطّبع؛ فإنّ جعلَها عادةً أفضلُ من قول البُحتُريّ(٣):

مســافرٌ ومطايــاه مُحَلَّلَــةٌ فروضُها ومقيمٌ وهو مُرْتَحِــلُ

وقوله(٤):

ووصلت أرضَ الرّومِ وصل كُثَيِّرٍ أطلالَ عَزَّةٍ في لــوى تَيمــاءِ

فإنّ فيهما الدّلالةَ على الكثرة، ولكنَّ الكثرةَ لا تدلّ علــى اتّخــاذ الشّيء عادةً.

كما انفرد المُتَنَبِّي بِجعل الحربِ عاشقةً له، عكسٌ للمعنَى السّــابق وهو حبّه الغزو، ومن ذلك قوله(٥):

شجاعٌ كأنّ الحربَ عاشِقَةٌ لــه إذا زارها فَدَّتْهُ بالخيل والرَّجْــلِ

---

(١) الرّسالة (ص:٣١٢).

(٢) الرّسالة (ص:٣١٢).

(٣) الرّسالة (ص:١٩٦).

(٤) الرّسالة (ص:١٦٩).

(٥) الرّسالة (ص:٣١٣).

وما ذلك إلاّ مبالغةً منه في إظهار حُبِّه الغزوَ.

وعند حديثهما عن خوف الأعداء من القائد، ذكر كلٌّ منهما صوراً من هذا الخوف، بيد أنّ المُتَنَبِّي أسهبَ جِدّاً؛ فذكر صوراً جديدةً منها:

أ- أنّه تفرّد بالحديث عن إسارةِ الهلعِ والرّعبِ إلى قلوب الأعداء فقال[1]:

إذا ما لم تُسِرْ جيشاً إليهم ... أسرت إلى قلوبِهم الهُلُوعا

تَفَرَّدَ في الحديث عن إفزاعهم في النّوم؛ فقال[2]:

يرى في النّومِ رَمحَكَ في كُلاه ... ويخشى أن يراه في السُّهَادِ

وقال[3]:

وكُلَّمَا حَلَمَتْ عذراتُ عِنْدَهُم ... فإنّما حَلَمَتْ بِالسَّبْيِ والجَمَلِ

اقتفاء الأثر:

وعند حديثهما عن إفزاع الأطفال بذكر القائد، نجد المُتَنَبِّي قد بالغ فيه؛ فقال[4]:

بعيدُ الصِّيْتِ منبثُّ السَّرَايا ... يُشَيِّبُ ذِكْرُهُ الطِّفْلَ الرَّضيعا

بينما نجد البُحْتُرِيّ قاربَ الواقع، وأتى بِمعنًى بديعٍ هو الذي يحصل

(١) الرّسالة (ص:٣١٦).

(٢) الرّسالة (ص:٣١٥).

(٣) الرّسالة (ص:٣١٥).

(٤) الرّسالة (ص:٣١٤).

دائماً في مثل هذه الأحوال؛ فقد قال[(١)]:

فَزَّعُوا باسمك الصَّبِيُّ فعـادَتْ حركاتُ البكاءِ منه سكونا

وعند حديثهما عن أخذ القائد ذراريهم (سبياً) نجـدُ الشّاعِرَين يعتوران هذا المعنَى؛ فقال البُحْتُرِيّ[(٢)]:

بل أيّ نسلٍ منهُمُ لم تستبِحْ وثنيةٍ من أرضهم لم تطلُعِ

وقال المُتَنَبِّي[(٣)]:

للسَّبْيِ ما نكحوا، والقتلِ ما ولدوا والنَّهبِ ما جمعوا، والنّارِ ما زرعوا

فنجد البُحْتُرِيَّ أَدَقَّ من المُتَنَبِّي في التّعبير عن سَبْيِ القائد لأعدائـه؛ فقوله: ((بل أيّ نسلٍ منهم لم تستبح))؛ أشمل، من قول المُتَنَبِّي: ((للسّبْي ما نكحوا))؛ لأنّ عبارة البُحْتُرِيّ تشملُ الكبارَ قتلاً، والنِّساءَ والأطفال سبياً.

وأمّا قولُ المُتَنَبِّي: ((للسَّبْي ما نكحوا))، و((القتل ما ولدوا))؛ فتشمل النِّساءَ والكبارَ، أمّا الصّغار فلا يندرجون تحت هذين الصِّنفين؛ لأنّهم لا يقتلون؛ بيد أنّ عبارة المُتَنَبِّي أجمل وأحسن موسيقيّ شعريّة لِما زانَها فيـه من التّقسيم.

ومن باب اقتفاء الأثر –أيضاً- نجد المُتَنَبِّي يقتفي أثر البُحْتُرِيّ عنـد حديثه عن تعود ممدوحه لُبْسَ الدّروع؛ فقد قال[(٤)]:

---

(١) الرّسالة (١٩٧).

(٢) ديوانه (١٢٩١/٢).

(٣) الرّسالة (٣١٥).

(٤) الرّسالة (١٨٨/٢).

مُتَعَوِّداً لُبْسَ الدّروع يَخَالُها في البرد خَزّاً،والهَواجِرَ لاذا

وكَرَّرَهُ؛ فقال[١]:

يَجِدُ الحديد على بضاعة جلده ثوباً أخفَّ من الحرير وألينا

والبُحْتُرِيّ سبقه فقال[٢]:

ملوكٌ يعدون الرّماح مخاصراً إذا زعزعوا والدّروعَ غلائلا

ولكنّه كما قال القاضي الجرجانِي: «فَصَّل ما أجمل البُحْتُرِيّ في قوله: (والدّروعَ غلائلا)، وقَصَّرَ في اللّفظ، وسَلِمَ للبُحْتُرِيّ بقيةُ بيتِهِ وحُسْنُ لفظه»[٣].

---

(١) ديوانه (٣٣٢/٤).

(٢) ديوانه(١٦٠٢/٣).

(٣) الوساطة (٣١٤).

ثالثاً: الجند:

-الاشتراك:

تحدّث الشّاعِرانَ عن الجندِ، وأهميّتهم في المعركة، وعن صفاقم الحِسِّيّ والمكتسبة.

ونجد البُحْتُرِيّ: أدقَّ من المُتَنَبِّي في ذكر صفاقم الحِسِّيَّة؛ حيث انفرد بذكر طولِ قاماقم، وأنواعِهم وسباطة أناملهم، وسعة صدروهم، وهذا كلّه كنايةٌ عن عِظَمِ أجسادِهم وقوّقما؛ فقال[1]:

ويوم القرينين انتصرنا ولم نخفْ بكلِّ طويلِ الباع مُنْفَسِحِ الصّدر

وقال[2]:

تضيقُ الدّروعُ التُّبّعِيّاتُ منهم على كلّ رحبِ الباع سَبْطِ الأنامل

وفرسان البُحْتُرِيّ بيضُ الوجوه[3]:

زُهْرٌ إذا التّهبتْ بهم شُعَلُ الظَّبا عطفوا على أَولَى القنا المُتَعَطِّفِ

وكذا ذكره صفاقم المكتسبة؛ فإنّه انفرد ببيان الرّوحِ القتالية العالية لفرسانه، والمتمثّلة في اشتعالِ قلوبهم حقداً على الأعداء[4]:

---

(١) الرّسالة (٢٠٧).

(٢) الرّسالة (٢٠٧).

(٣) الرّسالة (٢٠٧).

(٤) الرّسالة (٢١١).

إذا وُترُوا خَلَّوا جفونَ سيوفِهِم جلاء ولا يَغْضُونَ جَفْناً على وَتِـــرْ

ونفرد بذكر كونهم حريصين على إعلاء كلمة الله(١):

سراةُ رجالٍ من مواليكَ أكّدُوا عرى الدِّينِ إحكاماً وبتوا قُوى الكفر

وانفرد ببيان إجادهم الرّمْيَ بالنّار؛ فقال(٢):

إذا رشقوا بالنّار لم يَكُ رَشْقُهُم لِيَقْلِــعَ إلاّ عـــن شِـــواء مُقتّـــر

أمّا المُتَنَبِّي فقد انفرد بجعل فرسانه يرهبون أعداءهم(٣):

بعثوا الرّهبَ في قلوبِ الأعادي فكَـــأَنَّ القتـــالَ قبـــلَ التّلاقـــي

ويستوقفنا هنا صورٌ جميلةٌ لكلّ منهما، فقد قال البُحْتُرِيّ(٤):

يتسرعون إلى الحتوفِ كأنّهـــا وفرٌ بـــأرضِ عـــدوِّهم يتنـــهبُ

وقال المُتَنَبِّي(٥):

بِكُلِّ أشعثَ يلقى الموتَ مبتسماً حتّى كأنَّ لـــه في قتلِـــهِ أَرَبـــا

ومِمّا جاء في شِعْرَيْهِما دالاً على دربة الجنودِ ومهارتهم في القتـــال، قول البُحْتُرِيّ(٦):

وحولَكَ رَكّابون للهولِ عـــاقُروا كؤوسَ الرّدى من دارعينَ وحُسّر

---

(١) ديوانه (٢/١٠٠٦).

(٢) الرّسالة (٢١١).

(٣) الرّسالة (٣٣٠).

(٤) الرّسالة (٢١٢).

(٥) الرّسالة (٣٢٨).

(٦) الرسالة (٢١٢).

وقوله[(١)]:

أسودٌ يَفِرُّ الموتُ منـــهم مَهابـــةً إذا فَرَّ منه كـــلُّ أروعَ صـــارمِ

وقوله[(٢)]:

نحروا الأسنّةَ بـــالنّحور تهاونـــاً بالموتِ بَلْ مَرَنـــاً علـــى المَـــرَّان

وقوله[(٣)]:

وقومٌ ترى أرماحَهُم يومَ الـــوغَى مشـــفوفةً بمـــواطنِ الكِتْمَـــانِ

وقول المُتَنَبِّي[(٤)]:

وكلِّ فتًى للحربِ فوقَ جبينِـــهِ من الضّربِ سطرٌ بالأسنّةِ مُعْجَمِ

وقوله[(٥)]:

على كلّ طاوٍ تحتَ طاوٍ كأنَّـــهُ من الدَّمِ يُسقَى أو مِنَ اللّحم يُطْعَمِ

وقوله[(٦)]:

وتكادُ الظُّبـــا لِمـــا عَوَّدوهـــا تنتضـــي نَفْسَـــها إلى الأعنـــاقِ

وقوله[(٧)]:

---

(١) الرّسالة (٢١٢).

(٢) الرّسالة (٢٠٨).

(٣) الرّسالة (٢٠٩).

(٤) الرّسالة (٣٢٧،٣٢٩).

(٥) الرّسالة (٣٢٩).

(٦) الرّسالة (٣٣٠).

(٧) الرّسالة (٣٢٩).

وطعنَ غطاريفٍ كـأنَّ أَكُفَّهُـم عَرَفْنَ الرُّدَينيات قبـلَ المعاصِـمِ

فنجد الأبياتَ الثّلاثةَ الأولى للبحتري مع البيتين الأوّلين للمُتَنَبِّـي في بيات دربة هؤلاء الفرسانِ على الحروب، والضّرب والطّعان.

ويشبه بيت المُتَنَبِّي الثّالثَ منها قولَ المُتَنَبِّي الأخير هنا:

وطعنَ غطاريفٍ كـأنَّ أَكُفَّهُـم عَرَفْنَ الرُّدَينيات قبـلَ المعاصِـمِ

فإنّ كلا البتين فيه الإشادةُ إلى حذقهم، وإنّما بالغ المُتَنَبِّـي بـأنْ جَعَلَهُمْ كَأَنَّهم متمرِّسون باللّعب بهذه الرّدينيات، قبل أنْ تَشُدَّ أَيْـدِيهم على معاصِمِهِم.

وبيت المُتَنَبِّي:

وتكاد الظّبا لما عودوها ... ... البيـت

معناه: موافق لبيت البُحْتُرِيّ:

قوم ترى أرماحهم... ... ... البيـت

وإن خصَّ كلّ واحدٍ منهما آلة بعينها في هذا المعنَى؛ فإنّ مرادهمـا أنَّ كُلَّ آلة من هاتين الآلتين عاشقةٌ لعضوٍ مُعيَّنٍ من أعضـاء الأعـداء، معتادةٌ إصابته، فرماح أولئك للقلوب، وسـيوف أولاء للأعنـاق، وزاد جمال بيت البُحْتُرِيّ تصريحه بهذا العشق (مشغوفة)، وزاد بيت المُتَنَبِّـي – ربْطُهُ انتضائِها أنفسها- بتعويدِهِمْ ذلك لها: (لِما عوّدوا) فالمشرب واحدٌ، والتّصويران بديعان.

رابعاً: الإعداد للمعركة

اشترك الشّاعِرانِ في الحديثِ عن أشهر عتادِ الحرب، ومن ذلك:

١- وصفُ الجيش عامّة.
٢- الخيلُ
٣- السّفنُ الحربيةُ
٤- السّيوفُ
٥- الرِّماحُ
٦- النِّبال والقَسْي
٧- الدّروعُ
٨- التّروس

وانفرد البُحْتُرِيّ بوصف البَيْضِ والرّايات والمنجنيق.

وتحدّث الشّاعران عن كلّ عدّةٍ من عتادِ الحرب -ممّا اشتركا فيه- حديثاً متفاوتاً بين الإسهابِ والإيجار؛ كالآتِي:

١- **الجيش:**

حديثهما عن الجيشِ متفاتٌ، فأمّا البُحْتُرِيّ؛ فكان كثيراً ما يـــذكر كثافتَهُ فَيُشْبِهُهُ باللّيل الذي يسودّ منه الأفقُ، وأنّه يتكوّن من عدّة كتائبَ.

وانفرد بتشبيهه باللَّيلِ(١):

فكيف وهو يسوقُ اللّيلَ في زَجِلٍ مِنْ عسكرٍ ما لشيءٍ غيرِهِ زَجَـــلُ

وأمّا المُتَنَبِّي فقد أسهبَ في الحديث عن الجيش، فذكر تكوينه مـــن سرايا وكتائب ووصفها بالقوّة، وشبّهه بالجبل كالبُحْتُرِيّ، ولكنّه أنفـــرد بتشبيه الجيش بالبحر؛ فقال(٢):

---

(١) الرّسالة (٢١٧).

(٢) الرّسالة (٣٣٦).

حواليه بحرٌ للتُّجَافِيفِ مائحٌ   يسيرُ به طَودٌ من الخَيلِ أَيْهَمُ

وله أبياتٌ أخر غيره.

وشبّهه بالسّحاب؛ فقال(١):

سحائبُ يمطِرْنَ الحديدَ عليهِمُ   فكلُّ مكانٍ بالسَّيوفِ غسيلُ

هذا، وقد اشتركا في بيان قوّة جيش الأعداء؛ فقال البُحْتُرِيّ(٢):

لَمّا أتاك يقودُ جيشاً أَرْعَنا   يُمْشَى عليهِ كثافةً وجموعاً

وقال(٣):

والخُرَّمِيّةُ إذْ تَجَمَّعَ مِنْهُمُ   بجالِ قُرَّانَ الحصي والأَثْلَبُ

جاشوا فذاك الغور منهم سائلٌ   دُفَعاً وذاك السّهلُ منهم مُعْشِبُ

وقال(٤):

يسوقون أسطولاً كأنَّ سَفِينَهُ   سحائبُ صَيفٍ مِنْ جَهَامٍ وَمُمْطِرِ

وقال المُتَنَبِّي(٥):

خَميسٌ يشرقِ الأرض والغربِ زحفُهُ   وفي أذنِ الجوزاءِ منه زَمَازِمُ

تَجَمَّعَ فيه كلُّ لَسْنٍ وَأُمَّةٍ   فما يُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلاّ التَّرَاجِمُ

---

(١) الرّسالة (٣٣٨).

(٢) الرّسالة (٢١٩).

(٣) الرّسالة (٢١٩).

(٤) الرّسالة (٢١٩).

(٥) الرّسالة (٣٣٩).

وقال[١]:

أَتَاهُم بأوسَعَ مِن أرْضِهِم طوالَ السَّبيبِ قصارَ العُسُبْ
تغيبُ الشّواهقُ في جيشِهِ وتبدو صِغاراً إذا لم تَغِبْ
ولا تَعْبُرُ الرِّيحُ في جَوِّهِ إذا لم تَخَطَّ القنا أو تَثِبْ

فقد اشتركا في وصف جيش الأعداء البَرِّي، لكنّ المُتَنَبِّي أشدُّ مبالغةً من البُحْتُرِيّ في بيان هذه الكثرة، فقد جعله جيشاً قد بلغ شرق الدّنيا وغربها، وله أصواتٌ صاخبةٌ وَصَلَتْ عنانَ السّماء.

وقوله في الوصف الثّاني: «أوسعَ من أرضهم»، يعني: أنّه أكثر جموعاً واتّساعاً، وفسحة من الأرض فهو مغطٌّ لهم، وجعل الجبال تختفي به، وإن لم تختف به فتبدوا صغاراً، وجعل الرّيحَ لا تتجاوزه، لِما تكون فيه مِمّا يشبه السَّدَّ من تراصِّ القنا.

وأجمل ما في أبيات البُحْتُرِيّ قوله:

جاشوا فذاك الغور ... ... البيت

ففيه تصويرُ كثرتِهم التي ملأ السّهل، وفاضت من الغَوْرِ، حتّى بدوا حين خروجهم منه كالسَّيل المتدفّق؛ إلاّ أنّ هذه الكثرة لسهلٍ وغورٍ معهودين.

وانفرد البُحْتُرِيّ بوصف جيشِ الأعداء البَحرِيّ بقوله السّابق[٢]:

---

(١) الرّسالة (٣٤١).

(٢) الرّسالة (٢١٩).

يسوقون أسطولا كـأنّ سـفينَهُ　　سحائبُ صيفٍ من جَهَامٍ ومُمْطِرِ

وفي بيته هذا، بيانٌ لهيئة انتشار الأسطول البحريّ، وما فيه من سفنٍ؛ فإنّ السّفن الحربية لا تكون متجاورةً، وإلاّ ما استطاعت الحركة، فضلاً عن أنّ السّفن فيها: الكبيرُ المُشبَّه بالسّحابَ الممطرَ لكثرة مَن فيه من الجند والعتادِ، والصّغيرُ المُشبَّه بالسّحابَ الجَهَامَ، كلٌّ حسبَ المهمّة المطلوبة منه، وفي هذا ظهرت براعة البُحتُرِيّ.

ومِمّا انفرد به المُتَنَبِّي ذكره الطّيورَ المرافقةَ لجيش ممدوحه، وعَدِّها من عتادِ الحربِ، وقد أشار إلى كثافَتِهَا بقوله(١):

له عسكرا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى　　بها عسكراً لم يُبْقِ إلاّ جَماجِمُهُ

. . . .　　. . .

سَحَابٌ من العِقْبَانِ يَزحفُ تَحتَهَا　　سحابٌ إذا استسقتْ سقتها صوارِمُهُ

وقال(٢):

تَمُرُّ عليه الشَّمْسُ وهي ضعيفةٌ　　تطالِعُهُ من بيتِ ريشِ القشاعِم

إذا ضوؤها لاقى مِن الرِّيشِ فُرْجَةً　　تدوَّرُ فوقَ البيضِ مثلَ الدّراهم

وإن كان هذا المعنَى تعاوره الشّعراءُ قبله(٣)، إلاّ أنّه يحمدُ له هنا انتباهه له وذكره إيّاه.

(١) الرّسالة (٣٣٦).

(٢) ديوانه (٤/٢٤٠).

(٣) الوساطة (٢٧٤).

وعند حديثهما عمّا يحدثه الجيشُ من أصواتٍ نجدُ البُحتُرِيّ يقول(١):

فكيف وهو يسوقُ الجيشَ في زَجَلٍ   من عسكرٍ ما لشيءٍ غيرِه زَجَلُ

ونجد المُتَنَبِّي يقول(٢):

خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ   وفي أذن الجوزاءِ منه زمازِمُ

ويقول(٣):

وملمومةٌ سيفيةٌ رَبعيّةٌ   يصيحَ الحصى فيها صياحَ اللَّقَالقِ

فنجد البُحتُرِيَّ يبالغُ في وصفِ شدّة صوتِ هذا الجيش، ولكن عن طريق النّفي عن الغير، بينما نجد المُتَنَبِّي يبالغ في ذلك عن طريق وصول الصّوت إلى أذن الجوزاء وتعلّقه فيها، وهذا خيالٌ خلا منه بيت البُحتُرِيّ السّابق، مع دلالته على عظمِ هذه الجَلَبه، فقد يكون الصّوت أعظم شيءٍ وأشدّه، بحيث لا يشبهه صوتٌ، لكن لا يخيل فيه بلوغه الجوزاء لبعد مَنْزلتها، وهذا ملحظ بديع للمُتَنَبِّي.

٢- الخيل:

وصف الشّاعران الخيلَ، بيد أنّ البُحتُرِيّ أبدعَ في الوصفِ الحسيِّ لها، وأفرد للك عدّة قصائد من بين قصائده جمعت بين دقّةِ الوصفِ وحسن الوصف.

---

(١) الرّسالة (٢١٧).

(٢) الرّسالة (٣٣٩).

(٣) الرّسالة (٦٧/٣).

أمّا أوصافها القتالية النّاجمة عن الكفاءة، فلم يشر إلى ذلك إلاّ إشارات طفيفة كقوله[١]:

قد طواهُنَّ طيُّهن الفيافي   واكتسينَ الوجيفَ حتّى عَرِيْنا
كوعول الهضابِ رُحنَ وما   يَمْلِكنّ إلاّ صمَّ الرّماحِ قرونا

وقوله[٢]:

لقد بَعَثْتَ عتاقَ الخيلِ ساريةً   مثل القطا الجُونِ يتبعنَ القطا الجُوْنا

وقوله[٣]:

بِفوَارِسٍ مثلِ الصّقورِ وضُمَّر   مجدولةٍ ككواسِرِ العِقْبانِ

وأمّا المُتَنَبِّي فليس له في الوصف الحِسِّيِّ إلاّ قصيدةٌ واحدةٌ، وهي (القافِيَّة) التِي نظمها في مَهْرِهِ الطّخرور ومطلعها[٤]:

ما للمّروج الخضرِ والحدائقِ   يشكو خلاها كثرةَ العوائق

وكذا عددٌ من الأبيات في بعض القصائد؛ لكنّها في الوصفِ الحِسِّيّ ليست نظيرةً لِما ذكره البُحْتُرِيّ، وبعضُهَا يميل إلى الإجمال؛ كقوله[٥]:

---

(١) الرّسالة (٢٢٥).

(٢) الرّسالة (٢٢٦).

(٣) الرّسالة (٢٢٦).

(٤) الرّسالة (٣٤٤).

(٥) الرّسالة (٣٥٠).

كلّ ابنِ سابقةٍ يغير بِحسنِهِ ... في قلبِ صاحِبِهِ على الأحزانِ

وقوله[1]:

وتسعدُني في غمرةٍ بعد غمرةٍ ... سبوحٌ لَها منها عليها شواهد

أمّا إبراز كفاءتها القتالية، فقد أبدع في ذلك، وذكر ما يدلّ عليه مجملاً ومُفَصَّلاً فمن الإجمال قوله[2]:

إنْ خليْتَ رُبطَتْ بآداب الوغَى ... فدعاؤها يغني عن الأرسانِ

وقوله[3]:

وأدبها طولُ القتالِ فطرفُهُ ... يشيرُ إليها من بعيدٍ فتفهُم

وأشهر ما فَصَّلَ من تلك الآداب:

أ– أنّها تُرْكَبُ في أيِّ وقتٍ دونَ لِجامٍ، تقادُ بِمَعَارِفِهَا بدلاً من الأنة، وتزجرُ بالكلام بدلاً من السّياط[4]:

حِذَاراً لِمُعْرَورِي الجياد فجاءةً ... إلى الطّعنِ قُبْلاً ما لَهُنَّ لِجامُ
تُعَطَّفُ فيه والأعنةُ شعرُها ... وتضربُ فيه والسّياطُ كلامُ

---

(١) الرّسالة (٣٥١).

(٢) الرّسالة (٣٥٣).

(٣) الرّسالة (٣٥٣).

(٤) الرّسالة (٣٥٤).

أنّها كثيرة الخوض للمعارك، ومن ذلك أنّ أَحِجَّتَهَا مُدَمَّاةٌ لقرع الفوارس لَها[١]:

ينظرنَ من مَقَلٍ أَدْمَى أَحِجَّتَها قرعُ الفوارسِ بالعَسَّالةِ الذّبلِ

أنّها سريعة العدوِّ وفرسانُها يحسنون بها الظّنَّ لِما عرفوا منها[٢]:

نقود إليها الآخذاتِ لنا المَدَى عليها الكماةُ المحسنين بها الظّنا

أنّها صبورٌ على السّير في القفار؛ فالرّيح غِذاؤها والسّراب ماؤها[٣]:

وخيلاً تغتذي ريحَ المَوَامِي ويكفيها من الماء السّراب

أنّها مِقْدَامَةٌ لا تَهَاب[٤]:

وتلقى نواصيها المنايا مشيحةً ورودَ قطاً صُمٍّ تشايحن في وُرْدِ

أنّها خفيفة لَيِّنَة المفاصل[٥]:

تُثَنِّي على قدرِ الطّعانِ كأنّما مَفَاصِلُهَا تحتَ العجاجِ مَرَاودُ

أنّها تَملكُ قدرةً فائقةً على السّير في ظلمةِ الغبار الكثيف[٦]:

في جحفلٍ ستر العيونَ غبارُهُ فكأنّما يبصرنَ بالآذان

(١) الرّسالة (٣٥٤).

(٢) الرّسالة (٣٥٤).

(٣) الرّسالة (٣٥٥).

(٤) الرّسالة (٣٥٥).

(٥) الرّسالة (٣٥٦).

(٦) الرّسالة (٣٥٦).

أنّها تَملكُ القدرةَ على السّباحةِ[(١)]:

وما يَصُدُّكَ عن بحرٍ لهم سَعَة وما يَرُدُّك عن طود لهم شَمَمُ
ضَرَبْتَهُ بصدورِ الخيلِ حاملةً قوماً إذا تلفوا قِدْماً فقد سَلِمُوا

أنّها تملك القدرةَ على صعود الجبال[(٢)]:

... ... وهنّ مع العقبانِ في النِّيقِ حُوَّمُ

وقوله[(٣)]:

تدوس بك الخيل الوكورَ على الذّرى وقد كثرت حولَ الوكورِ المطاعمُ
إذا زلِقَتْ مشَّيْتَها ببطرفِها كما تَتَمَشَّى في الصَّعيدِ الأراقمُ

أنّها لا تَهَابُ ما تطأ عليه في ميدان المعركة من جثثٍ وأشلاّء[(٤)]:

كأنّ خيولَنا كانت قديماً تُسَقَى في قحوفِهِم الحليبا
فمرّت غير نافرةٍ عليهم تدوس بنا الجَمَاجِمَ والتَّريبا

وقوله[(٥)]:

أنت الشّجاعُ إذا ما لم يطأ فرسٌ غير السَّنَوَّرِ والأشلاء والقُلَلِ

---

(١) الرّسالة (٣٥٧).
(٢) الرّسالة (٣٥٨).
(٣) الرّسالة (٣٥٨).
(٤) الرّسالة (٣٥٩).
(٥) الرّسالة (٣٠٩).

ومِمّا انفرد به -أيضاً- الإشارة إلى عدم نفعِ الخيل وحمـــدها إن لم يكن ركابها كراماً مثلها[١]:

وما تنفع الخيلُ الكرامُ ولا القنـــا إذا لم يكن فوقَ الكـــرامِ كـــرامُ

وانفرد البُحْتُرِيّ بوصف ضمور الخيل؛ كقوله[٢]:

قـــد طـــواهُنَّ طـــيَّهنَ الفيـــافي واكتسين الوجيفَ حتّى عرينـــا
كوعول الهضابِ رُحنَ وما يَمْـــ ـــلكن إلاّ صُمَّ الرّمـــاح قرونـــا

وشبّهها مرّةً بالرّماح؛ فقال[٣]:

خيلٍ كأمثـــال الرّمـــاح وفتيـــةٍ مثل السّيوفِ إذا دعين لِمَشْـــرَفِ

وشبّهها مرَّةً بالعِقْبان؛ فقال[٤]:

بفوارسٍ مثلِ الصّـــقورِ وضُـــمَّرٍ مجدولـــةٍ ككواسِـــرِ العِقْبَـــانِ

إلاّ أنّ أخذنا ببعضِ تفسيرات بيت المُتَنَبِّي الذي قال فيه[٥]:

على كلِّ طاوٍ تحت طاوٍ وكأنَّـــهُ من الدَّمِ يُسقَى أو من اللّحم يُطْعَمُ

فإنّ فيه وصفاً بليغاً للخيل الضّوامر.

---

(١) الرّسالة (٣٤٣).

(٢) الرّسالة (٢٢٥).

(٣) الرّسالة (٢٢٦).

(٤) الرّسالة (٢٢٦).

(٥) الرّسالة (٣٥٢).

٣- السّفن الحربية:

ليس لهما كثير حديث عن السّفن الحربية إلاّ عدّة أبياتٍ:

فأبيات البُحْتُرِيّ وصف لسفينة القائد أحمد بن دينار حال اتّجاهها للأعداء لا حال التّلاحم بالأعداء، أو حال العّود من المعركة وحمل الغنائم والسَّبْيِ[١].

أمّا المُتَنَبِّي فليس في وصفه لها إلاّ الدّلالة على كثرتها، وأنّها تحمل السَّبْيَ، كما قال[٢]:

تأتي بِما سبت الخيولُ كأنّها تحتَ الحسانِ مرابضُ الغِزْلانِ

وقوله[٣]:

تلقى بهم زبد التّيار مُقْرَبَةٌ على جحافلها من نضحة رثم

هذا، وقد اقتفى المُتَنَبِّي في قصيدته هاتين اللّتين وصف فيهما السّفن الحربية آثار البُحْتُرِيّ في أبياتٍ له وصف فيها السّفن التِي حملتهم من بلدهم إلى العراق[٤].

فالبُحْتُرِيّ شبّه تلك السّفن بالنّوق، وجعلها سُحْماً من القار، وجعل لها لُغَاماً.

---

(١) الرسالة (٢٢٧)

(٢) الرّسالة (٣٦٠).

(٣) الرّسالة (٣٦٠).

(٤) الرّسالة (٢٢٩).

والمُتَنَبِّي شبّهها بالخيل، فغاير ليخفي نظره إلى أبيات البُحْتُرِيّ، وجعلها دُهْمًا، حوالك الألوان من القار، وجعل على جحافلها رَثَماً، وهو ما يَلْصَقُ بجحافِلِهَا من جَرَّاء الفارّة.

ولكنّه زاد على البُحْتُرِيّ بأن جعلها جياداً مُقْرَبَةً، عاديةً بغير قوائم، عُقْم البطون، مكدودة والكدّ لا يظهر عليها بل على راكبيها.

وكلا الشّاعِرَين مُلْغِزٌ في أبياته؛ حيث جعلا أبياتهما كاللّغز على سبيل الاستعارة.

ومع هذا الاقتفاء؛ فالمُتَنَبِّي أدقّ تشبيهاً من البُحْتُرِيّ؛ فالخيل العربية الأصيلة تسبح في انطلاقها؛ فالعلاقة بينها وبين السّفن آكد وهي بِها أشبه.

٤- السّيوف:

وصف البُحْتُرِيّ السّيفَ في قصيدةٍ واحدةٍ، وصفاً يُبِينُ عن مظهره الخارجِي، فوصفه بالمَضَاءِ، والصَّقْلِ، واللّمعان، ووصف فِرِنْدَهُ وشبّه حديده بآثار دبيب النّمل، وهو في المعركة لامِعٌ كالسِّماك الأعزل، وحمائله قديمةٌ جدّاً، وحديده أخضر دلالةً على نقائه[1].

كما وصف سيوف ممدوحه التي شهّرها على الأعداء، وأنّ لَمَعَانَهَا فيه إخافةٌ للأعادي، ووقعها ذهابٌ بآجالهم، وجعل لها حديثين: دمٌ من الأعداء، وصِقالٌ بعد كلّ مَعْرَكٍ[2].

(١) الرسالة (٢٣١)

(٢) الرّسالة (٢٣٤).

هذا، وليس للمُتَنَبِّي مثل هذا الوصف إلاّ بضعة أبياتٍ في وصف سيف أهداه إليه ابنُ العميد.

الموازنة بينها وبين أبيات البُحْتُرِيّ التي طلب فيها سيفاً من محمّد بن عليّ القُمِّيّ:

قال البُحْتُرِيّ(١):

يتناول الرُّوحَ البعيدَ منالُهُ ... عفواً ويفتحُ في القضاءِ المقفلِ
بإنارةٍ في كلّ حتفٍ مُظْلِمٍ ... وهدايةٍ في كلّ نفسٍ مَجْهَلِ
ماضٍ وإن لم تمضِهِ يدُ فارسٍ ... بَطَلٍ ومصقولٍ وإن لم يُصْقَلِ
يشي الوغى فالتّرسُ ليس بِجُنَّةٍ ... من حَدِّهِ، والدّرعُ ليس بِمَعْقِلِ
مُصْغٍ إلى حكم الرّدى، فإذا مضى ... لم يلتفت، وإذا قضى لم يعدلِ
متوقدٌ يبري بأوّل ضربةٍ ... ما أدركتْ ولو أنّها في يذبلِ
وإذا أصابَ فكلُّ شيءٍ مقتلٌ ... وإذا أُصيبَ فما لـه من مقتلِ
وكأنّما سَودُ النِّمالِ وحمرُها ... دَبَّت بأيدٍ في قَرَاهُ وأرجلِ
وكأنّ شاهرَهُ إذا استعصى به ... في الرّوع يعصي في السِّماك الأعزلِ
حملت حمائِلُهُ القديمةُ بقلةً ... من عهدِ عادٍ غُضَّةً لم تَذْبُلِ

وقال المُتَنَبِّي(٢):

(١) الرّسالة (٢٣١).

(٢) الرّسالة (٣٦٧).

قَلَّـــدَتْني يَمينُـــهُ بحســـام أعقبتْ منـــه واحـــداً أجـــدادُهْ
كلّما اسْـتُلَّ ضَـاحَكَتْهُ إيَـاةٌ تـــزعمُ الشّـــمس أنّهـــا أرْآدُهْ
مَثَّلوهُ في جفْنِه خشـيةَ الفقـــدِ ففـــي مثـــل أَثْـــرِهِ إغْمَـــادُهْ
مُنْعَـــلٌ لا مـــن الحفـــا ذَهَبـــا يَحملُ بَحـــراً فِرِنْـــدُهُ إزْبـــادُهْ
يَقْسِـــمُ الفـــارسَ المـــدجج لا يسلمُ مـــن شـــفرتيه إلاّ بِـــدادُهْ

ويجب قبل الموازنة بينهما أن نلاحظ أنّ البُحْتُرِيّ وصف سـيفاً لم يملكه بعد، وإنّما تخيّله، بينما وصف المُتَنَبِّي سيفاً ملكه، ولهـذا نَحْمَـدُ للبُحْتُرِيّ تخيّله هذا الوصف مع الإطالة فيه، ويعاب على المُتَنَبِّي تقصيره في عدم الإطالة فيما هو مشاهَدٌ أمامه.

ركّز البُحْتُرِيّ على إبراز حِدَّةِ هذا السّيف وقوّتِهِ في أكثر من بيتٍ، بينما اقتصر المُتَنَبِّي على ذلك ببيتٍ واحدٍ، وهو قوله:

يَقْسِـــمُ الفـــارسَ المـــدجج ... ... البيـــــــــت

ويُحمد للبُحْتُرِيّ مبالغته واعتماده على الخيالِ في إبراز هذه القوّة، بينما بيت المُتَنَبِّي خالٍ من المبالغة والخيال.

أمّا وصفهما لفرند هذين السّيفين فقد وصف كلٌّ واحـدٍ منـهما ذلك ببيتين، فالبُحْتُرِيّ وصف فرنده بالنّقاء والقدم؛ فقال:

وكأنّما سودُ النّمـــال وحمرهـــا دبت بأيـــد في قـــراه وأرجـــلِ
حملت حمائلُـــهُ القديمـــةُ بقلـــةً من عهدِ عادٍ غضّـــةً لم تـــذبل

ومعنَى البيت الأوّل مِما تعاوره الشّعراء وأكثروا فيه[١].

والمُتَنَبِّي قال:

كلّما اسْتُلَّ ضَاحَكَتْهُ إيَاةٌ تزعمُ الشّمس أنّها أرْآدُهْ

... ... يَحملُ بَحراً فِرِنْدُهُ إزْبادُهْ

فوصف فيهما لمَعانه فقط.

وفي أبيات المُتَنَبِّي وصف لجفن سيفه، خلت منه أبيات البُحْتُرِيّ؛ وذلك لأنّ المُتَنَبِّي وصف سيفاً أهدي إليه فمن الضّروري أن يصف حديده وغمده.

أمّا البُحْتُرِيّ فطلب سيفاً قاطعاً نقيَّ الحديدة، و لم يتعرّض لغمده؛ لأنّه ليس من الضّروريّ أن يكون غمدُهُ جيّداً، فالعبرة بِما في داخل الغِمد.

هذا بالنّسبة لوصف الشّاعِرَين السّيف مظهراً وعملاً خارج المعركة.

أمّا وصفهما لِعمل السّيف في المعركة فهذا لا يكون إلاّ في أبيات مفردة، وهذا النّوعُ قليلٌ لدى البُحْتُرِيّ، و لم يذكر من ذلك سوى أنْ بَيَّنَ مَنْزلةَ السّيف في حياة ممدوحه، وأنّه يحمي عِزّه وعِزَّ قومه أن يَزول، لاعتمادهم عليه في حروبهم، وذلك قوله[٢]:

(١) ديوان المعاني الكبير لابن قتيبة (١٠٧٣/٢) دار الكتب العلمية بيروت ط الأولى ١٤٠٥هـ.

(٢) الرّسالة (٢٣٥).

وإذا عِــزُّ معشـــرٍ زال يومــاً   منع السّيفُ عِــزَّهُم أن يــزولا

وفي البيت دلالةٌ على شجاعتهم أنّهم لا يستخدمون في الأزمات إلاّ السّيوف.

كما عدّه من أسباب عوامل النّصر؛ فقال[1]:

تَحُثُّهُم البيضُ الرّقــاقُ وضُــمَّرٌ   عتاقٌ وأحساب بها يدرك التَّبْــلُ

أمّا المُتَنَبِّي فقد أكثر من ذكر السّيوفِ، فعدّها مِمّا تستدام به النِّعَمُ، وجعلها دواءً لكلّ كريمٍ، وداءً لكلّ عدوٍّ، وفضّلها على الرّمــاحِ حتّــى كأنّها شاتمةٌ لها، وهذا معنًى بديعٌ، وجعلها مفاتيحَ للنّصر، جالبةَ الفنــاء لكلّ مَن لقيها من الأعداء، ولو كانوا جيشاً كثيرَ العدد:

يَقُــدْنَ الفنــاءَ غــداةَ اللّقــاء   إلى كلّ جــيشٍ كــثيرِ العــددْ

هذا، وقد شبّه المُتَنَبِّي السّيفَ بالنّار، وجعلها ناراً أقدم مــن نــارِ المجوسِ، وما زالت تَتَّقِدُ، ومرّةً جعلها ناراً وأيدي الأعداء التِي قَطَّعَتْهــا كالفراشِ يقع في النّار ويتطاير من حولها[2].

وشبّهها مرّةً بالشّموس، وجعل غمودَها مشارقَ لهــا، وهامــاتُ الرّجالِ لانغماسها فيها مغاربَ، وهو من بدائعه[3]:

طلعن شموساً والغمودُ مشــارقٌ   لَهنَّ وهاماتُ الرّجــالِ مغــاربُ

(١) الرّسالة (٢٣٥).

(٢) الرّسالة (٣٦١-٣٦٢).

(٣) الرّسالة (٣٦٣).

وشبّهها بالشُّعَلِ(١).

وشبَّهها لكثرة قَطْعِهَا الرّؤوس -بالألسنة تتحرّك في الأفواه- فجعلها ألسنة، وجعل الرّؤوس أفواهاً، وهذا تخيّلٌ بديعٌ(٢).

ومن معانيه التي تفرّد بها أَنْ جَعَلَها عاشِقاً للدّماء والرِّقَابَ فتشرب عطشاً، وتَقْطَع شوقاً(٣):

كأنّ جَوَارِيَ المُهَجَاتِ ماءٌ يعاودها المهنَّدُ من عِطَاشِ

وقوله(٤):

رَقَّتْ مضارِبُهُ فهنّ كأنّما يُبْدِينَ من عِشْقِ الرِّقابِ نحولا

وقوله(٥):

كأنّ الهامَ في الهيجا عيونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُكَ من رُقَادِ

وجعل السّيفَ مبصراً في أحلك المواقف حيث لا يرى الفارس نفسه من كثرة الغبار؛ فقال(٦):

يَرَى حَدُّه غامضاتِ القلوبِ إذا كنتُ في هَبْوَةٍ لا أرانِي

---

(١) الرّسالة (٣٦٣).

(٢) الرّسالة (٣٦٤).

(٣) الرّسالة (٣٦٥).

(٤) الرّسالة (٣٦٥).

(٥) الرّسالة (٣٦٥).

(٦) الرّسالة (٣٦٦).

وجعلها عاقلةً تطيعُ أمرَ حاملِهَا بالقطع، وتعصيه حينما يريد منها الكَفَّ عن القطع؛ فقال[١]:

ومُخْتَرَطٍ ماضٍ يطيعُكَ آمراً   ويعصي إذا استثنيتَ لو كنت ناهيا

وجعلها عائقةً للأعداء عن العَودِ إلى مثل أعمالهم، وفي هذا بيانُ مَبْلَغِ خوفِهِم منها، ومن حاملها، وفيه تهديدٌ لَهم -أيضاً-؛ فقال[٢]:

هيهاتَ عاقَ عن العِوادِ قواضِبٌ   كثُرَ القتيلُ بها وَقَلَّ العانِي

اقتفاء الأثر:

ومِمّا يلحظ فيه اقتفاء الأثر: حديثهما في بيان أنّ السّيف وحده لا يعمل، فقد ذكر البُحْتُرِيّ أيّ السّيف زينةٌ لحامله، لا يغني إذا لم يكن حامله شجاعاً أمضى منه، وكرّر المعنَى مرّةً أخرى معاتِباً مَن غالَى بالسّيف من أجل مضائه، فبيّن أنّ الذي يقطع هو القلب لا السّيف والبيتان هما[٣]:

وما السّيفُ إلاّ بَزُّ غادٍ لزينةٍ   إذا لم يكن أمضى من السّيف حاملُهُ

...   ...

فلا تَغْلَيَنْ بالسّيفِ كُلَّ غلائهِ   ليمضي فإنّ القلبَ لا السّيفُ يَقْطَعُ

---

(١) الرّسالة (٣٦٦).

(٢) الرّسالة (٣٦٦).

(٣) الرّسالة (٢٣٢).

وأمّا المُتَنَبِّي فقد بيّن أنّ السّيف كَحامِله إن كان شجاعاً مقـــداماً؛ فإنّه سيكون مثله قطعاً، وإن كان حامِلُهُ جباناً فسيكون السّـــيف غـــير قاطعٍ(١):

إنّ السّيوفَ مع الذين قلـــوبُهُمْ ... كقلوبِهِنَّ إذا التقـــى الجمعـــانِ
تلقى الحسامَ على جراءةِ حَـــدِّهِ ... مثل الجبانِ بكفِّ كـــلِّ جبـــانِ

وهو معنَى بيت البُحْتُرِيّ الأوّل، لكن هذا معنًى مشتركٌ، وبيـــت المُتَنَبِّي أفضلُ لِما فيه من التّشبيه والخَيَال.

وقد أشار إلى تقاربهما الجرجانِي في وساطته(٢).

وللمُتَنَبِّي بيتٌ ثالثٌ، قال فيه(٣):

إذا ضَرَبَتْ بالسّيفِ في الحربِ كَفُّهُ ... تبينت أنّ الكَفَّ بالسّيف يضربُ

وهو نسخةُ بيت البُحْتُرِيّ الثّانِي لو وضع بـــدلاً مـــن: (القلـــب) (الكفّ)، وبدلاً من: (يضرب) (يقطع).

٥- الرِّماحُ:

تحدَّث الشّاعِران عن الرّماح، واشتركا في بيان طولها، فهما يفضلان الرّماحَ الطّوالَ، متتاليةَ الكُعُوبِ، وأشارا إلى الرّماحِ الرّدينية لِما فيها من القوّة واللّين.

---

(١) الرّسالة (٣٦٢).

(٢) الوساطة (٢٨٨).

(٣) الرّسالة (٣٦٢).

واشتركا في بيان مواقعِ الرّماح من أجسادِ الأعداء، فهي لا تقع إلاّ في النّحورِ والرّؤوس والصّدور واللّغاديد والجيوبِ والأحداق.

واشتركا في بيان قوّةِ هذه الرّماح، وأنّها تَقُدُّ الدّروعَ والجَوَاشِنَ والقَوانس، قال البُحْتُرِيّ[1]:

يستَنْزلُ القونسَ المحبوكَ منبتراً ... من وقعه ويخوضُ النَّثْرَةَ الزَغَفَا

وقال المُتَنَبِّي[2]:

قواضٍ مواضٍ نسجُ داودَ عندها ... إذا وقعت فيه كَنَسْجِ الخَدْرَنَقِ

تَقُدُّ عليهِمْ كُلَّ دِرْعٍ وجوشنٍ ... ...

وأبيات المُتَنَبِّي أفضلُ لِما فيها من التّشبيه.

هذا، وقد انفرد البُحْتُرِيُّ ببيانِ كثرةِ الرّماح بتشبيهها بالأَجَمِ مرّةً، وبالغاب أخرى[3].

وكذا وصفه تَحَطُّمَها في ضلوع الأعداء[4]:

في مَعْرَكٍ ضَنْكٍ تَخَال به القنا ... بين الضّلوعِ إذا نَحنين ضلوعا

ومِمّا انفرد به المُتَنَبِّي: تشبيههُ أسنةِ الرّماحِ حال الحربِ بالنّار، وجعل القنا شَمْعاً لها؛ لأنّها محمولةٌ عليها[5]،

(١) الرّسالة (من المحذوف ص ٢٣٧).

(٢) الرّسالة (٣٧٤).

(٣) الرّسالة (٣٧٤).

(٤) الرّسالة (في المفقود من ص ٢٣٧).

(٥) الرّسالة (٣٧٤).

مرّةً بالكواكب[١]، ومرَّةً بالفتيل[٢].

وانفرد –أيضاً– في بيان فوائد الرّماح، فذكر عدّة فوائدَ لها:

منها: أنّها كالحصون للجندِ[٣].

وقول البُحْتُرِيّ[٤]:

حَشَدَتْ حَوْلَهَا سِباعُ المَوالِي والعوالِي غابٌ لتلك الأسودِ

قريبٌ منه على التّشبيه.

ومنها: أنّها تذهب الغيظَ، وتشفِي غِلَّ الصّدور[٥]، وأنّها ترهب الأعداء؛ فتجعل جندَ ممدوحه يجتازون أرضهم دون أَخْذِ الإذن منهم[٦]، وأنّها تحوز أموالَ الأعداء[٧].

كما كرّر معنًى انفرد به –ذكرناه آنفاً–، وهو عدم نفع الخيل أو الرّماح إذا لم يكن ركابها وحاملوها كراماً[٨]، وهو نفس المعنَى الذي تعاوره الشّاعِرَان في السّيف، وهو عدم نفعه وحده إذا لم يكن

(١) الرّسالة (٣٧٥).

(٢) الرّسالة (٣٧٥).

(٣) الرّسالة (٣٦٨).

(٤) الرّسالة (٢٣٧).

(٥) الرّسالة (٣٦٨).

(٦) الرّسالة (٣٦٩).

(٧) الرّسالة (٣٦٩).

(٨) الرّسالة (٣٦٨).

حاملُهُ شجاعاً.

وانفر المُتَنَبِّي بذكر سيلان الدّماء عليها[١].

كما ذكر معنًى جديداً وهو أنّ رماح سيفِ الدّولة ترجعُ من المعركة حُمْراً، قد تلطّختْ بالدّماءِ، وكأنّ ذلك حزناً منها على ما تَكَسَّر منها رحمةً له[٢].

وانفردَ ببيان صوتِ الرّماحِ عند حديثه عن غِلْمانِهِ[٣]:

نَاشُوا الرّماحَ وكانت غيرَ ناطقةٍ فعلموها صياحَ الطَّيرِ في البُهَمِ

وذلك صوتها عند الطّعن بها.

اقتفاء الأثر:

أرى أنّ المُتَنَبِّي اقتفى أثر البُحْتُرِيّ في قوله[٤]:

وكم عينِ قِرْنٍ حَدَّقَتْ لِنَزالِهِ فلم تُغْضِ إلاّ والسّنانُ لَها كُحْل

فقد قال البُحْتُرِيّ[٥]:

تغدُو أسنتُهُ زرقاً فيكحَلُها يومَ الكريهةِ في الأحداقِ والكَحَلِ

(١) الرّسالة (٣٧٣).

(٢) الرّسالة (٣٧٣).

(٣) الرّسالة (٣٧٤).

(٤) الرّسالة (٣٧٢).

(٥) الرّسالة (١/١٩٠٣).

فكلا البيتين فيه المدحُ بالحِذق في وضع السّنانِ بكَحَلِ العين، لكن الدّلالة على الحِذْقِ في بيت المُتَنبِّي أكثر؛ لأنّه قال:

«حَدَّقت لِنزاله و لم تغض إلاّ...»؛ فإنّه لم يــدم النّظــرَ إلى عــين خصمه، إنّما لَمّا حَدَّقَ به، وقبل أن يُغْضِي كَحلَ عينيه بالسّنانِ، وفي هذا فضيلةٌ له.

وقد نظرَ المُتَنَبِّي إلى بيت البُحتُرِيّ هذا من الغرض نفسه، فقال[1]:

يضع السّنان بحيث شاءَ مُجَــالا حتّــى مــن الآذان في أخراتِهــا

فإنّه لَمّا رأى حرصَ البُحتُرِيّ على وصف ممدوحه بالحِذْقِ حرص –هو– على أن يمدح ممدوحه بِما فيه دلالةٌ على الحِذْقِ بِما لم يسبق إليه.

٦- النِّبال والقسي:

لم أجد للشّاعِرَين في مَجال وصف النِّبال والقسي شيئاً كثيراً.

ومِمّا أشار إليه البُحتُرِيّ عدمُ غَنَاء القوسِ وحدها، وإن كانت من خيارِ الشّجر (شجر النّبع)، إذا كان ساعدُ مَن يرمِي بها ضعيفاً، وهو شبيهٌ بالمعنَى الذي ذكرناه لَهما عند حديثهما عن السّيف[2]، وحديث المُتَنبِّــي عن الرّماح والخيل[3].

---

(١) ديوانه (٣٥٣/١)

(٢) الرّسالة (٢٣٩)، (٢٣٢)، (٣٦٨).

(٣) الرّسالة (٣٤٣)و (٣٦٨).

كَما أشار البُحتُرِيّ إلى أنّ السّهمَ وحده لا يكفي، ولا يغنِي إذا لم يدفعه الوتر بقوّةٍ.

أمّا المُتَنَبِّي فكلّ ما له أنْ وَصَفَ نبال ممدوحه بأنّها مُقَوَّمةٌ ومطيعةٌ له؛ كأنّ لها لُبّاً به تعقل، فتتّجه كيفما شاء(١).

ولم يصف القسيَ إلاّ في بيتٍ واحدٍ ليس في مجالِ الحربِ، وإنّما في مالِ اللّهو، وصف فيه شدّة صوتِهَا الذي يشبه الرّعدَ(٢).

٧- الدّروع:

جاء وصف الشّاعِرَين للدّروع قليلاً، بيد أنّ البُحتُرِيَّ قد أجاد في وصفها بثلاثة أبياتٍ، وهي قوله في وصف جند ممدوحه(٣):

يمشون في زَغَفٍ كأنّ متونَها ... في كلّ معركةٍ متونُ نَهَاءِ
بيضٌ تسيلُ على الكماةِ فضولُهَا ... سَيْلَ السّرابِ بقفرةٍ بيداءِ
فإذا الأسنة خالطَتْها خلتَهَ ... فيها خيالَ كواكبٍ في ماءِ

فوصف في هذه الأبيات ثلاثة أشياء: هيئة حديدها، وطولها، وصلابتها.

وأمّا المُتَنَبِّي فلم يذكر الدّروع إلاّ في ثلاثة أبياتٍ كلّها في وصف

(١) الرّسالة (٣٧٥).
(٢) الرّسالة (٣٧٦).
(٣) الرّسالة (٢٤٠).

صلابتها، وعدم تأثير الرّماح فيها، اثنان منها في وصف درع قائد الـرّوم لَمّا فَرَّ(١):

تُرَدُّ عنه قنا الفرسـانِ سـابغةٌ صوبُ الأسنة في أثنائهـا دِيَـمُ
تخطُّ فيها العوالِي ليس تَنفـذُهَا كأنّ كُلَّ سـنانٍ فوقَهـا قلَـمُ

والثّالث قوله في مدح أبي العشائر(٢):

كـأَنَّ تَلَـوِّي النّشّـابِ فيـه تلوِّي الخوصِ في سَعَفِ العِشاشِ

فنلاحظ أنّ بيته الثّانِي مؤكِّدٌ للأوّل، وهما بالطّبع أفضل عندِي من بيت البُحتُرِيّ؛ لأنّ صورتَي المُتَنبِّي صورتان جديدتان، وصورة البُحتُرِيّ مبتذِلةٌ، مع أنّ دلالتها على لَمعانِ الأسنة فوقها آكدُ؛ لأنّه قد يلمع السِّنانِ فوقها كالكوكب في الماء ولكنّه لا يؤثّر فيه.

ومِمّا انفرد به المُتَنبِّي تشبيهه وقوع السّهامِ في الدّرع بخوص سعف عشاش النّخيل، وأنّه متلوٍّ دلالةً على صلابة درع ممدوحه، و هو البيـت الذي سبق.

هذا، وقد انفرد البُحتُرِيّ بتفضيلِ الفرسانِ غير المتدرعين اعتمـاداً على شجاعتهم، وذلك قوله(٣):

صناديدُ يَلْقَوْنَ الأسـنةَ حُسّـراً رِجالاً ويَخْشَونَ المذلّـة دُرَّعـا

---

(١) الرّسالة (٣٧٦).

(٢) الرّسالة (٣٧٧).

(٣) الرّسالة (٢٤١).

٨-١١-التّروس والبَيْضُ والرّاياتُ والمنجنيقات:

هذا، ومِمّا انفرد البُحْتُرِيّ في ذكره من عـــددِ الحـــربِ، التّـــروسُ والبَيْضُ والرّاياتُ والمنجنيقات.

فأمّا التّروس، فبيّن مهمّتها، وهي الدَّفع لكلّ عاديةٍ مـــن الأســـنة، ووقايةُ حامِلها من السّهام، ولكن بيانه الأخير -هذا- لم يأتِ في قصيدةٍ حربيةٍ، وإنّما جاء في قصيدته التِي وصف بها إيوان كسرى، إلاّأنّه تصويرٌ لِمعركةٍ رُسِمَتْ أحداثُها على لوحةٍ علقتْ في الإيوان(١):

وعِـــرَاكُ الرّجـــال بـــين يديـــه ... في خُفُوتٍ منهم وإغماض جَرْسِ
من مُشِيحٍ يَهْوِي بعامـــلِ رمـــحٍ ... ومُلِـــيحٍ مـــن السّـــنان بِتُـــرْسِ

كما أنّ السّيوفَ إذا لامست التُّروسَ أحدثت شـــرراً كـــالبروق؛ فقال(٢):

والموتُ يأشرُ بالسّيوفِ كأنّهـــا ... بَرْقٌ يلوحُ على ظهـــورِ تِـــراسِ

وأمّا حديثه عن البَيْض فقد بيّن الأثـــر الـــذي تركَتْـــهُ في رؤوس الفرسانِ الذين يُطِيلُونَ لُبْسَهَا، فقال(٣):

حصّ التّريك رؤوسَهَم فرؤسُهُمْ ... في مثل لألاء التّريـــكِ المُـــذْهَبِ

وكرّر المعنَى في بيتٍ آخر مادِحاً بذلك أحد القادة(٤).

---

(١) الرّسالة (٢٤٢).

(٢) الرّسالة (٢٤٣).

(٣) الرّسالة (٢٤٣).

(٤) الرّسالة (٢٤٣).

كما أشار إلى وقوع السّيوف والرّماح على البَيْضِ، وأنّ شدّة الضّرب قد تقطعها مع قوّتها[١].

وأمّا حديثه عن **الرّايات**، فقد أشار إلى أنّها تكون في مقدّمة الجيش، وشبّهها بجناحي العقاب إشارة إلى تعطفها، أشار إلى أهمّيّة الدَّرَقْسِ، وهو أكبر على في الجيش ويكون في مقدمةِ الجيشِ بالقرب من القائد[٢].

كما تحدّث عن ألوانِ بعض الرّاياتِ، وقَرَنَ بين لون الرّاية وما يَجْلُبُهُ من حَينٍ وهلاك على الأعداء؛ كقوله[٣]:

وأبطال هِيجٍ في اصفرارِ بُنُودِها ضروبُ المنايا وابيضاضِ حِرَابِها

كما أشار إلى خوف الأعداء من رؤيتهم تلك الرّايات[٤].

وأمّا حديثه عن المنجنيق؛ فمقتضَبٌ، ولم يصف المنجنيق كآلةٍ حَرْبِيَةٍ، وإنّ شبّه صوتَ ما يرمى به بصوتِ أحدِ الفارِّين، بيد أنّ في تشبيهه دلالةً على استعمال المنجنيق، وأنّه يستخدم لقذفِ الحجارةِ الثّقيلةِ، وأنّ للحجرِ الذي يقذف به صوتاً شديداً حال القذف به[٥].

---

(١) الرّسالة (٢٤٤).

(٢) الرّسالة (٢٥٦).

(٣) الرّسالة (٢٤٥).

(٤) الرّسالة (٢٤٦).

(٥) الرّسالة (٢٤٧).

خامساً: التّحرّك إلى ميدان القتال

أشار الشّاعِرَان إلى أن أفضل وقتٍ للسّير إلى الأعداء، هو اللّيل، بيد أنّ إشارات البُحْتُرِيّ إليه أكثر، ومن ذلك قوله(١):

سارَ يسترشدُ النّجـــومَ إلـــيهم ... في سوادِ الظّلماء حتّـــى طَفِينـــا
مارقاً من جوانحِ اللّيـــلِ يبْغِـــيْ ... فِرْقَـــةُ مـــن حُمَـــاتِهِم مارِقِينـــا

ومن قول المُتَنَبِّي(٢):

لَبِسْنَ الدُّجَى فيها إلى أرضِ مَرْعَشٍ ... وللرّوم خطبٌ في البلادِ جليـــلُ

فَبَيْتا البُحْتُرِيّ أعمقُ في الخيال من بيت المُتَنَبِّي، وفيهما الدّلالة على الخبرةِ في السّير باللّيل، والاسترشاد بالنّجوم.

ومِما اشتركا فيه مباغتةُ الأعداء قبلَ طلوع الشّمس، فقـــد قـــال البُحْتُرِيّ(٣):

نِلْنَاهُمُ قبـــلَ الشّـــروقِ بـــأرْعٍ ... يَهْزُزْنَ في كَبِدِ الظّـــلامِ شُـــرُوقا

وقال المُتَنَبِّي(٤):

فلم تَتِمَّ سروجُ فـــتح ناظِرِهـــا ... إلاّ وجيشُكَ في جفنيه مَـــزْدَحِمُ

---

(١) الرّسالة (٢٤٨).

(٢) الرّسالة (٣٧٨).

(٣) الرّسالة (٢٤٩).

(٤) الرّسالة (٣٧٩).

وبيت المُتَنَبِّي أفضل لِما فيه من دقّة الخيال.

كما اشتركا في بيان هيئةِ الخيلِ حين الاتّجاه إلى الأعداء، وبيان مواضع الرّماح عليها، فقد قال البُحتُرِيّ(١):

بطلٌ يَخُوضُ الخيلَ وهي شَوَائِلٌ   خلفَ الأسنةِ وهو غيرُ مدجَّجِ

وقال المُتَنَبِّي(٢):

وَجُرْداً مَدَدْنا بَيْنَ آذانِها القنا   وَبِتْنَ خِفَافاً يَتَّبِعْنَ العَوَالِيَا

وقال(٣):

تبيتُ رماحُهُ فوقَ الهَوَادِيْ   وقد ضَرَبَ العجاجُ لَها رُوَاقا

وبيتي المُتَنَبِّي أدقّ في وصف هيئة وضع الفرسان رِماحَهُم، حال إغارتهم، وهم على خيلهم، وإن كان معناهما متداولاً، فقد قال حسان بن ثابت رضي الله عنه(٤):

يُبَارِيْنَ الأعنةَ مُصْعِدَاتٍ   على أكتافِها الأَسَلُ الظِّمَاءُ

كما اشتركا في بيان مان يحدثه الجيشُ من جَلَبَةٍ وأصواتٍ حالَ السّيرِ؛ فقد قال البُحتُرِيّ(٥):

(١) الرّسالة (٢٥١).

(٢) الرّسالة (٣٨٤).

(٣) الرّسالة (٣٨٤).

(٤) ديوان حسان بن ثابت الأنصاري شرح عبدالرحمن البرقوقي (٦٠)دار ط الثالثة ١٩٨٣م بيروت.

(٥) الرّسالة (٢٥٠).

إذا مَضَى مُجْلِباً يَقَعْقِعُ فِي الـدَّرْ ب زَئِيْراً أَنْسَى الكلابِ العُـوَاءَ

وقال المُتَنَبِّي[١]:

خَمِيسٌ بشرقِ الأرض والغرب زحفُهُ وفي أُذْنِ الجـوزاءِ منـه زَمَـازِمُ

أمّا ما انفرد به البُحْتُرِيّ؛ فهو بيانه مكان القائد عند الإغارة وعند القُفُولِ[٢]:

طَلِيْعَتُهُم إنْ وَجَّهَ الجيشَ غازيـاً وسَاقَتُهُمْ إنْ وَجَّهَ الجيشَ قَـافِلاً

وكذا وصفه لسير الجندِ إلى الأعداء؛ فقد شبّههم في ثلاث قصـائدَ بثلاث صورٍ:[٣]

الأولَى منها:

وَكَأَنَّ مَشْيَهُم وقد حَمَلُوا الظُّبـا من تحتِ سـقفٍ بالزُّجَـاجِ مُمَـرَّدٍ

والثّانية منها:

يَمشُون تحتَ ظُبا السّيوفِ إلى الوغَى مشيَ العطاشِ إلى بُـرُودِ المشـربِ

والثّالثة منها:

وعصائبُ يتهافتون إذا ارتَمَـى بهِمُ الـوغى في غَمْـرَةٍ هَيْجَـاءِ

مثلَ اليَرَاعِ بَدَتْ له نـارٌ وَقَـدْ لَفَّتْـهُ ظلمـةُ ليلـةٍ لَـيلاَء

(١) الرّسالة (٣٣٩).

(٢) الرّسالة (٢٤٨).

(٣) الرّسالة (٢٥٠).

ففي الصّورة الأولى بيانٌ لهيئة مَشْيِهم، وقد حملوا السّيوف الحـــادَّة اللامعةَ، وفي الصّورتين الأخيرتين بيانٌ لشـــجاعتهم وَحَـــبِّهم الحـــربَ وإقدامِهم في ميادِين الحروب، وعدم خوفِهم من الأعداء.

هذا وقد انفرد المُتَنَبِّي بزيادةِ إيضاحٍ لحالِ الخيل –أيضـــاً- حـــين الاتّجاه إلى الأعداء، فأشار إلى كونها عوابسَ، قد عَرِقَتْ، فَيَبِسَ العـــروقُ عليها حتّى غدا على أوساطها كالمَنَاطِقِ[1].

وأشار إلى أنّها تَتَّجَهُ إلى الأعداء لا تحمل فوق ظهورها إلاّ الحديـــدَ والأبطالَ وذلك قوله[2]:

فأَتَتْهُمْ خَوَارِقُ الأرضِ ما تحـــ ـــمل إلاّ الحديـــدَ والأبطـــالا

وهذا قريبٌ من بيت البُحْتُرِيّ[3]:

وَتَوَافَتْ خَيْلاَكَ من أرضِ طَرَسُـــو سَ و قَـــالِيقَلا بأَرْدَنْـــــدُوْنا
عابساتٍ، يحملن يومـــاً عبوســـاً لأُنَـــاسٍ عـــن خَطْبِـــهِ غافلينـــا

والفرق بينهما أنّ أبا الطّيّب ذكر ما تَحملُ حقيقةً أمّـــا البُحْتُـــرِيّ فذكر لازم ما تحمله.

وأشار المُتَنَبِّي إلى أنّها تكون مُعَقَّدَةَ السّبائب وشعثَ النّواصـــي[4]، وبَيَّنَ أنّهم يُلْبِسُونَهَا دروعاً حصيينةً، وهذا مـــا لم يـــذكره البُحْتُـــرِيّ،

(١) الرّسالة (٣٨٣-٣٨٤).

(٢) الرّسالة (٣٨٤).

(٣) الرّسالة (٢٢٥).

(٤) الرّسالة (٣٨٣).

وقد كرّره مرّتين فقال أوّلاً[١]:

أَقْبَلْتَ تَبْسِمُ والجيـــادُ عــوابسٌ يَخْبُبْنَ بالحَاقِ المضاعفِ والقنـــا

وقال ثانياً[٢]:

لَها في الوغى زِيُّ الفوارسِ فوقَها فكـــلُّ حصـــانٍ دارعٌ مُتَلَـــثِّمُ

وخوفاً من أنْ يعاب عليهم ذلك، فقد عَلَّلَهُ بِما يدفع عنهم العـــارَ؛ فقال[٣]:

وما ذاك بخلاً بالنّفوسِ على القنا ولكن صَدْمَ الشَّرِّ بالشَّرِّ أَحْـــزَمُ

ومِمّا انفرد به –أيضاً– بيانه أهمية الرّأي، ووضع الخطط القِتَالِيَةِ قبل الوصولإلى الأعداء، وذلك قوله[٤]:

الرّأيُ قبلَ شـــجاعةِ الشّـــجعانِ هو أوّلٌ وهـــيِ المحـــلُّ الثّـــانِي

فإذا هما اجتمعـــا لـــنفسٍ مِـــرَّةٍ بَلَغَتْ من العلياءِ كُـــلَّ مكـــانِ

وَلَرُبَّمَا طعـــن الفتَـــى أقرانَـــهُ بالرّأيِ قبـــلَ تَطـــاعُنِ الأَقْـــرَانِ

وكذلك بيانه كثافة الجيش وهو سائرٌ، وعَظَمَةُ ما يحدثه من غبارٍ، فصوّر ذلك في عدّةِ صورٍ، منها قوله[٥]:

---

(١) الرّسالة (٣٨٣).

(٢) الرّسالة (٣٨٣).

(٣) الرّسالة (٣٨٤).

(٤) الرّسالة (٣٧٨).

(٥) الرّسالة (٣٨٠).

وجيشٍ يُثَنِّي كلَّ طَـودٍ كَأَنَّـهُ خريقُ رياحٍ واجهت غُصُناً رُطْبا
كَأَنَّ نُجومَ اللّيلِ خافَتْ مُغَـارَهُ فَمَدَّتْ عَلَيهَا من عجاجَتِه حُجْبا

وقوله عن الشّمس، وقد أحاط بها الغبارُ(١):

ينالُ أبعدَ منـها وهـي نـاظرةٌ فمـا تُقَابِلُـهُ إلاّ علـى وَجَـلِ

وقوله في جيش ابن العميد(٢):

حَثَتْ كُلُّ أرضٍ تُرْبَةً في غُبَـارِهِ فَهُنَّ عليه كـالطَّرائقِ في البُـرْدِ

وممّا انفرد به إشارته إلى مرافقة الطّيرِ له، وكثرتها بحيث إنّ ضَوءَ الشَّمسِ قد لا يجد فُرْجَةً مِن بين ريشِ القَشَاعِمِ؛ فإنْ وجد فُرْجَةً صـغيرةً سَقَطَ على رؤوس الجندِ كالدَّراهِمِ(٣):

تَمُرُّ عليه الشّمسُ وهي ضَـعيفةٌ تُطالِعُهُ من بين ريـشِ القَشَـاعِمِ
إذا ضَوْؤُهَا لاقى من الطّير فُرْجَةً تَدَوَّرَ فوقَ البَيْضِ مِثْلَ الـدَّرَاهِمِ

كما انفرد في بيان حركةِ الجيشِ المُتَمَوِّجَة حالَ الاتّجاه إلى الأعداء في عدّة صورٍ منها قوله(٤):

يَهُزُّ الجـيشُ حولَـكَ جانبيـه كما نَفَضَتْ جَنَاحَيْهَا العُقَـابُ

---

(١) الرّسالة (٣٨٠).

(٢) الرّسالة (٢/١٧٠).

(٣) الرّسالة (٣٨٢).

(٤) الرّسالة (٣٨٢).

وقوله[1]:

حَوَالَيْهِ بحرٌ للتَّحـــافيفِ مـــائجٌ يَسيرُ به طَرِدٌ من الخيـــلِ أَيْهَـــمُ

اقتفاء الأثر:

ومِمّا اقتفى به الْمُتَنَبِّي أثر البُحْتُرِيّ قوله[2]:

خافياتُ الألوانِ قد نَسَجَ النَّقْـــعُ عليهـــا بَرَاقِعـــاً وجِـــلاَلا

فإنّ البُحْتُرِيّ قال[3]:

شَهِدْتَ على عَيْلِ الجَزَارَةِ سَابحٍ كَسَاهُ دِقَاقُ الرَّمْلِ جُلاًّ وَبُرْقُعَـــا

وهذا لا يكون إلاّ من الغبار، والاقتفاء ظـــاهرٌ في اتّحـــاد المعنَـــى واللّفظ، ولم يحاول أبو الطّيّب تغييراً، إلاّ في جعلها خيولاً بدلاً مـــن أن يكون فرساً واحداً في بيت البُحْتُرِيّ، وبدلاً من أن يقول: (كساء) علـــى الحقيقة قال: (نَسَجَ) على الاستعارة، والنَّقْعُ ودِقَاقُ الرَّمـــل واحـــدٌ؛ لأنّ أصل النَّقْعِ دقاق الرّمل.

---

(١) الرّسالة (٣٣٦).

(٢) الرّسالة (٣٨١).

(٣) الرّسالة (٢٥٤).

سادساً: في ميدان القتال

اشترك الشّاعِرَان في بيان كثرة الغبار حين بَدْءِ المعركة، وشدّة الحرب، ووَصْفِ الضَّرْبِ بالسّيوف والطّعن بالرّماح.

١- فأمّا حديثهما عن كثرة الغبار وكثافته، فقد وصفا كثرته بِحَجْبِهَا الشّمسَ، وضَوءَها عن الدّنيا؛ حتّى يَسْوَدَّ النّهارُ؛ فقد قال البُحتُرِيّ(١):

زَعْزَعَ الغربَ ذكرُ يومٍ تــوارَتْ شَمْسُهُ واكتسى ســواداً نهارُهُ

وقال المُتَنَبِّي(٢):

طاعنُ الفرسانِ في الأحداقِ شَزْراً وعجاجُ الحربِ للشّمسِ نِقابْ

فبيت المُتَنَبِّي أجملُ من حيث جِدّةِ الصّورة؛ لكنّ دلالة بيت البُحتُرِيّ على كثافة الغبار آكد، وزادَهُ تأكيداً بقوله: (واكتسى ســواداً نهاره)، فسوادُ الغبارِ الكثيف حَوَّلَ النّهارَ إلى ظلامٍ دامسٍ، وكأنّ الشَّمْسَ غابتْ عن الوجود.

وقال البُحتُرِيّ(٣):

لَيُصَبِّحَنَّ الرّومَ جــيشٌ مُغْمِــدٌ للصُّــبْحِ في رَهَجَانِــه المُتَلَفِّــفِ
يَسْوَدُّ منه الأفــقُ إن لم يَنْسَــدِدْ وتَمُورُ فيه الشَّمسُ إنْ لم تَكسِفِ

(١) الرّسالة (٢٥٣).
(٢) الرّسالة (٣٨٧).
(٣) الرّسالة (٢٥٣).

وقال المُتَنبِّي(١):

والنَّقْعُ يأخُذُ حَرّانــاً وبُقْعَتَهَــا   والشّمسُ تسفرُ أحيانــاً وتَلْتَــثِمُ

فبيت البُحْتُرِيّ أبلغُ لِما فيه من المبالغة ولِمــا فيــه مــن حُســنِ الاستعارة، ولِما في بيت المُتَنبِّي من التّناقض؛ فإنّ شطرَهُ الأوّلَ يَدُلُّ على كثرة الغبار مطلقاً؛ حيث أخذ حَراناً جميعاً، وشطرُهُ الثّانِي: لا يدلّ على الكثرة إلاّ بعض الوقتِ حينما تَلْتَثِمُ الشّمسُ، وما فيه من جَمالٍ؛ فَمِــن الاستعارة في شطرِه الثّاني.

ومِما اشتركا فيه حديثهما عمّا يحدثه الضّربُ بالحديــدِ ســيوفِه ورماحِهِ من الضِّياء؛ بحيث يتمكّن الفرسانُ من الرّؤية به عندما يظلمُ جَوُّ المعركة من جَرَّاءِ الغبار، فقد قال البُحْتُرِيّ(٢):

إذا ارتدّ يومُ الحربِ ليلاً رَدَدْتَــهُ   نهاراً بِلألاء السّــيوفِ الصّــوارِمِ

وقوله(٣):

مَدَّ لَيْلاً على الكُمَاةِ فمَا يَــمْــ   ــشُونَ فيه إلاّ بضوءِ السّــيوفِ

وقد نقله المُتَنبِّي من تَمَكّن الفرسان من الرُّؤيَة به إلى تَمكّن الخيــل من الرّؤية به؛ فقال(٤):

تَهْدِي نواظِرَهَا والحربُ مظلمــةٌ   من الأسنةِ نــارٌ والقَنَــا شُــمَعُ

(١) الرّسالة (٣٨٧).

(٢) الرّسالة (٢٥٣).

(٣) الرّسالة (٢٥٣).

(٤) الرّسالة (٣٧٥).

فهو مقتفٍ أثرَ البُحتُرِيّ في هذا وإن حاول التّغيير بنقله من الفرسانِ إلى الخيل، ومن السّيوف إلى الرّماح.

وقال البُحتُرِيّ أيضاً[1]:

في نَهارٍ من السّـيوفِ مُضِـيْءٍ   تَحتَ ليلٍ مِن مُسْـتَثَارِ الصَّـعِيدِ

وقال المُتَنَبِّي[2]:

وعجاجةً ترك الحديدُ سـوادَها   زَنْجاً تَبَسَّـمُ أو فَـذَالاً شـائباً
فَكَأَنَّمَا كُسِيَ النّهارُ بها دُجَـى   لَيْلٍ وأطلعتِ الرّمـاحُ كواكبـا

فجاء بصورةِ لَمعانِ الحديدِ وسطَ الغبارِ الكثيفِ بأبْهى حُلَّـةٍ وفي خيالٍ بديعٍ تفرّدَ به.

وممّا اقتفى به المُتَنَبِّي أثر البُحتُرِيّ قوله[3]:

عجاجـاً تَعثُـرُ العِقْبَـانِ فيـهِ   كأَنَّ الجَـوَّ وعـثٌ أو خَبَـارُ

فإنّ البُحتُرِيّ قال[4]:

يُرَنِّقُ النَّسْرُ في جَوِّ السّماءِ وقَـدْ   أوما إليه شُعَاعُ الشَّـمْسِ يَأْدُبُـهُ

فمؤدّى كلامِهِما أنّ الطّيرَ عِقْبانُها ونُسُورُها لا تتمكّن من الطَّيَرَانِ من جَرَّاء هذا الغبارِ؛ لكنّ بيت المُتَنَبِّي أدلُّ على ذلك بقوله: (تَعْثُر)، ولِما جاء به من التّشبيه.

---

(١) الرّسالة (٢٥٤).

(٢) الرّسالة (٣٨٨).

(٣) الرّسالة (٣٨٨).

(٤) الرّسالة (٢٥٤).

وفي بيت البُحْتُرِيّ زيادةٌ مجازيةٌ في: (أوما إليـــه شـــعاع الشّـــمس يأدبه)؛ حيث جعل الشّمس تشير إليه وتدعوه.

٢- شدّة الحرب:

وصف الشَّاعِرَان شدَّةَ الحربِ، ولكلّ منهما في ذلك عدّة صـــورٍ دالّة؛ فقد قال البُحْتُرِيّ:

١-وعـــوانٍ تُحَـــلُّ تحـــتَ وَغَاهَـــا عُقْـــدَةُ الفـــارسِ الشُّـــجَاعِ النَّجيْـــدِ
يَخْـــرُسُ الـــدَّارِعُونَ فيهـــا فمـــا يُسْـــمَعُ فيهـــا إلاّ كـــلامُ الحديـــد[1]

٢-يُهَالُ الغُلامُ الغِرُّ حتّـــى يـــردَّهُ إلى الهَوْلِ مِن مكروهِهَاالأشـــيبُ الكَهْـــلُ[2]

٣-حيث لا يَهتَدي الجبانُ إلى الفَـــرِّ م وحيـــث النُّفُـــوسُ تَصْـــبَ الحُتُـــوفِ[3]

٤-وإذا مـــا تَشَـــنَّعَتْ حومـــةُ الحَـــرْ بِ وكـــان المقـــامُ بـــالقومِ دَحْضَـــا
ورأيتَ الجيادَ تَحـــتَ مثـــارِ النَّقـــــــعِ يَنَهْضَـــنَ بـــالفوارسِ نَهْضَـــا[4]

٥-وإن غلت الأرواحُ أَرْخَصْتَ سومَهَا هنالك في سوقٍ مِنَ الموتِ قـــائِمِ[5]

٦-والمنايـــا مَوَاثِـــلٌ وأَتُـــو شِـــرْ وَانَ يُزْجِي الصّفوفَ تحتَ الدِّرُفْسِ[6]

---

(١) الرّسالة (٢٥٧).

(٢) الرّسالة (٢٥٩).

(٣) الرّسالة (٢٥٨).

(٤) الرّسالة (٢٥٨).

(٥) الرّسالة (٢٥٩).

(٦) الرّسالة (٢٥٤).

٧-في لفيفٍ من المنايا يُمَزٌّ م قْنَ غداةَ الهيجاءِ كُلَّ لفيفِ
ومقامٍ بين الأسنة ضنكٍ وهشيمٍ من الظُّبَا مَرْصُوفِ[1]
٨-في موضعٍ ضَنكٍ تُمْسِي معاقِلُهُ إذا اسبطرَّ شهابُ الموتِ كالعُقُلِ[2]

وقال المُتَنَبّي:

١-باعثُ النَّفْسِ على الهَولِ الذي ليسَ لِنَفْسٍ وَقَعَتْ فيه إيابُ[3]
٢-شديدُ ثباتِ الطَّرْفِ والنَّقْعُ واصلٌ إلى لَهواتِ الفارسِ المُتَلَثِّمِ[4]
٣-والأمرُ أمرُكَ والقلوبُ خوافِقٌ في موقفٍ بينَ المَنِيَّةِ والمُنَى[5]
٤-فللّهِ وقتٌ ذَوَّبَ الغِشَّ نارُهُ فلم يبقَ إلاّ صارمٌ أو ضُبارِمُ[6]
٥-الطّعنُ شزرٌ والأرضَ واجفةٌ كأنّما في فؤادِهَا وَهَلُ[7]
٦-وَلَتَمْضِنَّ حيثُ لا يجدُ الرُّمْـ ـحُ مداراً ولا الحصانُ مُجَالا[8]

فنجد لكلّ منهما صوراً تخالفُ صور الآخر إلاّ بيت المُتَنَبّي الأخير؛ فإنّه قريبٌ من بيتَي البُحْتُرِيّ الأخيرين -أيضاً-، لكنّ بيت المُتَنَبّي أشدّ

(١) الرّسالة (٢٥٨).
(٢) الرّسالة (٢٥٨).
(٣) الرّسالة (٣٥٨).
(٤) ديوانه (٤/٢٦٧).
(٥) الرّسالة (٣٨٥).
(٦) الرّسالة (٣٦٨).
(٧) الرّسالة (٣٨٧).
(٨) الرّسالة (٣٨٦).

دلالةً على ضنك ميدان الحرب.

٣- بدءُ القتال:

انفرد البُحْتُرِيّ بالحديث عن بيان طرق القتال؛ فإنّه بيَّن أن هناك طريقتين: طريقةٌ يحمل الفرسانُ فيها بعضهم على بعضٍ، وطريقةُ الزّحف[١].

وبيَّن أنّ الحملَ أشدُّ ضراوةً من الزّحف، وأنّ نتيجةَ الزّحف تتأخّر بعض الشّيء لِما فيها من التّدرّج: رمي بالنِّبال، ثم مطاعنة بالرّماح، ثم مضاربة بالسّيوف، ثم معافسة بالخناجر والأيدي.

أمّا المُتَنَبِّي فقد أشار إلى تعبئة الصّفوف في مقامِ مدحِهِ لسيفِ الدّولة؛ فقال[٢]:

عرفتُكَ والصّفوفُ معبآتٌ وأنتَ بغيرِ سيفِكِ ما تَعِيجُ

وقد ذكر البُحْتُرِيّ التّعبئة في قوله[٣]:

والمنايا مواثلٌ وأنو شِرْ وانَ يُزجِي الصّفوفَ تحتَ الدِّرَفسِ

٤- الضّرب بالسّيف:

وصف الشّاعرانِ شدّة الضربِ بالسّيفِ؛ فقال البُحْتُرِيّ:

---

(١) الرّسالة (٢٥٥).

(٢) الرّسالة (٣٨٥).

(٣) الرّسالة (٢٥٩).

-فمَن يسمَعْ وغَى الأخوينِ يُـذْعَرْ بصَـكٌّ مـن قراعِهِمَـا عَجيـبِ[1]
-كأن وقع سيوفِ الهنـدِ سـابحةً في هامِهِم حَشٌّ نار تحتـها سَـعَفا[2]
-صدمت بهم صُهْبَ العَثَانينِ دونَهُمْ ضِرابٌ كإيقَـاد اللَّظَـى المتَسـعِّرِ[3]
-بطعنٍ يَكُبُّ الـدّارعينَ اِدِّرَاكُـهُ وضربٍ كما ترغو المُخزَّمَـةُ البُـزْلُ[4]

وقال المُتَنَبِّي:

١-بضربٍ هـاجَ أطـراب المنايـا سوى ضربِ المثالـثِ والمثـانِي[5]
٢-يفرق ما بـين الكمـاة وبينـها بضربٍ يسلي حَرُّهُ كلَّ عاشِـقِ[6]
٣-بضربٍ أتَى الهاماتِ والنَّصرُ غائبٌ فصار إلى اللَّبّاتِ والنَّصـرُ قـادمُ[7]
٤-تنقـدح النّـارُ مـن مضـارِبِهَا وصبُّ مـاء الرِّقـابِ يغمِـدُها[8]
٥-ما زلت تضربُهُمْ دراكاً في الذرى ضرباً كأنّ السَّيفَ فيـه اثنـان[9]
٦-إذا ما ضربتَ القرنَ ثم أجـزتني فَكِلْ ذهباً لي مرّةً منه بـالكَلْمِ[10]

---

(١) الرّسالة (٢٦٠).
(٢) الرّسالة (٢٦٠).
(٣) الرّسالة (٢٦١).
(٤) الرّسالة (٢٦٥).
(٥) الرّسالة (٣٨٩).
(٦) الرّسالة (٣٨٩).
(٧) الرّسالة (٣٨٩).
(٨) الرّسالة (٣٩٠).
(٩) الرّسالة (٣٩٠).
(١٠) الرّسالة (٣٩٠).

فأبيات البُحْتُرِيّ رَكَّزَ فيها على ما يحدثه الضّربُ من صوتٍ شديدٍ (صَكّ)، (كإيقَاد اللّظى المتسعِّر)، (حشٌّ نارٍ تحتها سعفا)، (كما ترغو المخزمةُ البزلُ).

بينما المُتَنَبِّي لم يصف صوتَ الضّرب مطلقاً، وإنّما ركّز على شدّة الضّرب، دون النّظر إلى ما يحدثه من صوتٍ: (بضرب هاج أطراب المنايا)، (يسلي حَرُّه كُلَّ عاشق)، (أتى الهاماتِ والنَّصرُ غائبٌ، وصار إلى اللّبات والنّصرُ قادم)، (وتنقدح النّار من مضاربها)، (ضرباً كأنّ السّيفَ فيه اثنان)، (فَكِلْ ذهباً لي مرّة منه بالكلم)؛ دلالةً على سَعتِها، وسعتُها دلالة على شدّة الضّربة.

وهذه المعاني لم يذكرها البُحْتُرِيّ إلاّ أنّ أبيات البُحْتُرِيّ تدلّ على الشّدّة ضمناً لقوّة ما تحدثه السّيوفُ من أصواتٍ، فيكون قد أشار إلى معنَيَين: الشّدّة، ودرجة الصّوت، بينما المُتَنَبِّي لم يشر إلاّ إلى الشّدّة.

أمّا مواضع الضّرب؛ فأكثر ما تحدثا عنه هو ضرب الرّؤوسِ عامّةً، بما فيها: الطّلي والوجوهُ والرِّقابُ، كما قد تحدّثا عن قطع الأيدي، بيد أنّ المُتَنَبِّي خصّ سيفَ الدّولة بضربِ الجماجمِ والوجوهِ، وعلّله بِعِلّةٍ لطفيةٍ، وهذا من حسناته؛ فقد قال[1]:

(١) الرّسالة (٣٩٠).

خَصَّ الجماجمَ والوجوهَ كأنّمـــا جاءت إليك جسُــومُهُم بأمـــانِ

كما انفرد المُتَنَبِّي في بيان كيفية ضرب الرّؤوسِ وعليهـــا بَيْضِـــها ومَغَافِرِها، فذكر لَها طريقتين:

١- إمّا أن يقطع الرّأسُ وخوذتُه؛ فيرى الرّائي الخوذةَ علـــى رأس بـــلا جسدٍ[1]:

تركن هامَ بنِي عـــوفٍ وثعلبـــةٍ على رؤوسٍ بلا نـــاسٍ مغـــافِرُهْ

٢- وإمّا أن يَقْسِمَ الخوذَة مع بعض الرّأس، فيضحى المكان الذي قطع – وكان قبلُ كالحَزْنِ- سهلاً مستوياً[2]:

فَوَدَّعَ قـــتلاهم وشَـــيَّعَ فَلَّهُـــمْ بضربٍ حزونُ البَيْضِ فيه سهولُ

وقد يكون قريباً منه قول البُحْتُريّ[3]:

بينَ ضربٍ يُفَلِّـــقُ الهـــامَ أَنْصـــا فـــاً وطعـــنٍ يُفَـــرِّجُ الغَمَّـــاءَ

إلاّ أنّه تفليق لِهامٍ بدون خوذاتٍ، وبذلك فضله بيتُ المُتَنَبِّي مع ما فيه من حسن التّشبيه.

(١) الرّسالة (٣٩١).

(٢) الرّسالة (٣٩١).

(٣) الرّسالة (٢٦٥).

هذا، وقد انفرد البُحْتُرِيّ في بيان هيئة الفارسِ الضّاربِ بسيفه من فوق جواده، فقال(١):

يُكِبُّون مَنْ فوقَ القرابيسِ بالقنا وبالبِيْضِ تلقاهم قياماً على الرُّكْبِ

كما انفرد في تشبيه السّيوفِ، وهي تُرْفَعُ وتُخْفَضُ في ميدان الحرب بالرّاكع والسّاجد؛ فقال(٢):

في مقام تَخِرُّ في ضنكه البِيْـ ـضُ على البَيْضِ ركعاً وسجودا

وقال(٣):

ما إن تَنَى فيه الأسنةُ والظّبا لِطُلى الفوارسِ ركعاً وسجودا

كما حَمِدَ لَها تلطّخا بالدّماء؛ فقال(٤):

غدت بِيْضُنَا مثل اللّجينِ ابيضاضُها فراحت من التَّضْرابِ كالذّهبِ التِّبْرِ

وقال(٥):

إذا انْتَضَى السّيفُ يوم الرّوعِ أغمدَه مخضباً من دمِ الأعداءِ في القُلَلِ

لكنّ المُتَنَبِّي جاء بصورةِ السّيف وقد تلطّخَ بالدّماء فاقت بيتَي البُحْتُرِيّ هذين، بِما فيها من مبالغةٍ وهي قوله(٦):

---

(١) الرّسالة (٢٦١).

(٢) الرّسالة (٢٦٢).

(٣) الرّسالة (٢٦٣).

(٤) الرّسالة (٢٦٣).

(٥) الرّسالة (٢٦٣).

(٦) ديوانه (٢/٦٠).

يَبِسَ النَّجيعُ عليه وهــو مجــرّدٌ   من غمدهِ وكأنّما هــو مغمــدُ

٥-الطّعن بالرّماح:

وصف الشّاعِرَان شِدَّةَ الطَّعنِ فقال البُحتُريّ:

١-أمطرتْ أَرْؤُسَهُم ضرباً تركتْ به   مأثورةَ السُّـمْرِ منــآداً ومُنْقَصِــفَا

يَسْتَنْزِلُ القــونسَ المحبــوكَ مُنْبَتِــراً   من وقعه ويخوضُ النّثرةَ الزَّعَفَــا[1]

٢-أزال خمسين ألفاً فانتشوا عُصُــباً   والطّعنُ يَزْعَجُ منهم أيَّ أزعــاجِ[2]

٣-بِطَعنٍ يَكُبُّ الدّارِعينَ ادِّرَاكُــهُ   وضربٍ كما ترغوا المُخَزَّمةُ البُــزْلُ[3]

٤-غشى الدّارعين ضــرباً هذاذيْـــ   ـــكَ وطعنا يُوَرِّعُ الخيل وَخْضَا[4]

وقال المُتَنَبِّي:

١-ولاقى دون ثَــأْيِهِمُ طعانــاً   يلاقي عنده الــذّئبُ الغرابــا[5]

٢-أَدَمْنا طعنَهُمْ والقتــلَ حتّــى   خَلَطْنَا في عظــامِهِمُ الكعوبــا[6]

٣-إذا اعوجَّ القنــا في حامِلِيْــهِ   وجَازَ إلى ضلوعِهِم الضَــلوعا[7]

(١) الرّسالة (٢٦٤).

(٢) الرّسالة (٢٦٥).

(٣) الرّسالة (٢٦٥).

(٤) الرّسالة (٢٦٦).

(٥) الرّسالة (٣٩٢).

(٦) الرّسالة (٣٩٣).

(٧) الرّسالة (٣٩٣).

فأبيات البُحْتُرِيّ أقوى في الدّلالة على شِدّة الطّعن.

وبيت المُتَنَبِّي الأوّل لا يدلّ على القوّة إلاّ على اعتبار أنّ كثرة القتلى جاءت بسبب قوّة الطّعنِ، وليس ذلك كذلك؛ فإنّ القتل يكون حتّى من الطّعن الضّعيف إذا أصاب مقتلاً، والطَّعْنُ القوي هو المفزِعُ الذي يحدث صوتاً أو يكسّرُ القنا أو يمزّقُ درعاً.

وأمّا البيتان الآخران ففيهما الدّلالةُ على القوّةِ مع الدّلالة على معنًى آخر، هو مواقع الطّعن، وهذا ما سنتحدّث عنه فيما يأتِي.

ومِمّا اشتركا في الحديث عنه بيانُ مواقعِ الطّعنِ؛ فقد قال البُحْتُرِيّ:

١-بطعنٍ دِرَاكٍ في النُّحُورِ يَحُطُّهُمْ نَشَاوى وضربٍ في جَمَاجِمِهِمْ هَبْـرِ[1]

٢-يتعثرن في النُّحُورِ وفي الأوجهِ سُكْراً لِمَا ضربنَ الدّماءَ[2]

٣-قومٌ ترى أرواحَهُمْ يوم الوَغَى مشغوفةً بِمَواطِنِ الكِتْمَانِ[3]

٤-تغدو أسِنَّةُ زُرْقاً فيكحَلُها يوم الكريهةِ في الأَحْدَاقِ والكَحَلِ[4]

٥-فإنْ تَأَوَّدَتِ الأَرْمَاحُ ثَقّفَهَا بكاهلٍ بَطَلٍ من فارسٍ بَطَلِ[5]

---

(١) الرّسالة (٢٦٦).

(٢) الرّسالة (٢٦٨).

(٣) الرّسالة (٢٦٨).

(٤) الرّسالة (٢٦٨).

(٥) الرّسالة (٢٦٩).

وقال المُتَنَبِّي:

١-إذا اعوجَّ القنـــا في حامليـــه ... وجازَ إلى ضَـــلُوعِهِمُ الضُّـــلُوعَا
ونالتْ ثَأرَهَـــا الأكبـــادُ منـــهُ ... فَأَوْلَتْـــهُ انـــدقَاقاً أو صُـــدُوعَا[١]

٢-أَدَمْنا طَعْنَهُمْ والقتْـــلَ حتّـــى ... خلطنا في عظـــامِهِمُ الكُعُوبـــا[٢]

٣-يضع السّنانَ بحيث شاء مجاولاً ... حتّى مـــن الآذان في أَخْرَاتِهـــا[٣]

وهناك أبياتٌ أخرى سبق ذكرها[٤].

نلاحظ هنا أنّ البُحْتُرِيّ قد انفرد بذكر وقوع الرّماح في القلـــوب، وتثقيف ما تأَوَّدَ منها بالكواهل، وليس كلّ كاهلٍ، بل كواهلُ الأبطال.

كما نلاحظ إشارة أبي الطّيّب إلى تجاوزِ الرّمح ما كان في جهتِهِ من الضُّلوعِ إلى الضُّلُوع التِي الجانب الآخر للفارسِ.

ومِنَ المعانِي التِي عَلَّلَ لَها تعليلاً حسناً: تعليلُهُ تَصَدُّعَ الرّمـــاح أو تَكَسُّرَهَا في أجوافِ الفرسانِ بأنّ ذلك ثأرٌ للأكباد نالته منها.

ومِمّا اشتركا فيه: حديثهما عن طعن ممدوحيهم قول البُحْتُرِيّ[٥]:

أَلْوَى إذا طعنَ المدجَّج، صَـــكَّهُ ... ليديـــهِ أو نثـــرَ القنـــاةَ كعوبـــا

(١) الرّسالة (٣٩٣).

(٢) الرّسالة (٣٩٣).

(٣) الرّسالة (٣٩٣).

(٤) ديوانه (١/٣٥٣).

(٥) الرّسالة (٢٦٥).

ثم أعاده مرّةً أخرى بعد نقله إلى الضّرب بالسّيف فقال مادِحاً الفتح ابن خاقان[١]:

وكنتَ متَى تجمع يمينك قمتِكِ الضّـــ م ـــريبةَ أو لا تبق للسّيفِ مَضْـــرِبا

فجاء معناه في البيتين مُقَارِباً لا إغراق فيه.

أمّا المُتَنَبِّي فقد بالغَ في وصف طعنةِ ممدوحه؛ فقال[٢]:

طاعنُ الطّعنةِ التي تطعنُ الفَيْلَــقَ بالـــذُّعْرِ والـــدَّمِ المُهَـــرَاقِ

وبَيَّنَ أثَرَها في نفسِ مَن يراها ويخبر عنها بقوله:

ذاتُ فرغٍ كأنَّها في حشا المُخـــ ـــبرِ عنها من شـــدّة الإطــراقِ

أمّا ما انفرد به البُحْتُرِيّ: فتركيزه على الطّعنِ الدَّراكِ وهو المتتابع، دلالةً على الحذق، وهي أشبه باللُّكمَات المتتابعة من أبطالِ الملاكمةِ ويَدُلُّ على عجز الخصم، وتشبيهه الفارسَ حينما يســقطُ بالسّــكرانِ فقــد، فقال[٣]:

بطعنٍ دراكٍ في النّحورِ يَحطُّهُــمْ نشاوى وضربٍ في جماجِمِهم هَبْرِ

وحديثه عن هيئة الرّماح في الحربِ، فقد أشارَ إلى أنّ لَها اعتــدالاً وأَوَداً، وأنّها تتثنّى تثنّي الخيزران، وإلى أنّها تضطرب اضطراب الحبال في البئر[٤]:

---

(١) الرّسالة (٢٦٢).

(٢) ديوانه (٣/١٠٤).

(٣) الرّسالة (٢٦١).

(٤) الرّسالة (٢٦٧).

يخلجـــنَ خَلْـــجَ البئـــرِ بـــالأَمْرَاسِ

ومنه تشبيهه حالَ الأعداءِ بعد انتهاء المعركة بالرُّكع السُّجودِ بسبب الطّعن بالقنا(١):

غَـــادرَتْهُمْ يـــد المنيـــة صَـــبْحاً بالقنـــا بـــين رُكَّـــع وســـجود

أمّا ما انفرد به المُتَنَبِّي:

فذكره نوعينِ من الطّعنِ يسمّيانِ الخَلْس والشَّزْر(٢):

وظَلَّ الطّعنُ في الخـــيلين خُلْســـاً كأنّ المـــوتَ بينـــهم اختصـــارُ

وقال(٣):

والطّعن شزرٌ والأرض واجفـــة كأنّما كان في فؤادِهـــا وَهَـــلُ

وتعليله تقارع القنا بقوله(٤):

وَرَدَّ بعضَ القنا بعضاً مقارعـــةً كأنَّهُ في نفوسِ القومِ في جَـــذلِ

اقتفاء الأثر:

اقتفى أبو الطّيّب أثرَ البُحتُريّ في قوله في وصف الرّماح(٥):

تميل كـــأنَّ في الأبطـــالِ خمـــراً عَلَلْنَ بـــه اصـــطباحاً واغتباقـــا

---

(١) الرّسالة (٢٦٧).

(٢) الرّسالة (٣٩١).

(٣) الرّسالة (٣٩١).

(٤) الرّسالة (٣٩٣).

(٥) الرّسالة (٣٩٤).

فإنّه علّلَ اضطرابَها بسبب ما اعتراها من شرب الدّماء، وقد قـــال البُحتُرِيّ[١]:

يتعثـــرن في النُّحُـــورِ وفي الأو   جُهِ سكراً لِما شـــربن الـــدّماءَ

وفي كلّ منها محاسنُ؛ فقول البُحْتُرِيّ: (يتعثـــرن) أدلّ مـــن قـــول المُتَنَبِّي: (تميل) لِمَا فيه من زيادة وصف التّمايل الذي وصل إلى حدّ التَّعَثُر، وهو أكثر دلالةً على فعل الخمر يشاربها، أي: أنّ الدّماء التِـــي شـــربتها السّيوف كانت أكثر.

وقول المُتَنَبِّي: (كأنّ في الأبطال خمراً)، أجمل من تخصيص البُحْتُرِيّ: (في النّحور وفي الأوجه)، ولَما فيه أيضاً من الدّلالة على أنّه ليس كلّ دمٍ يُميْلُهَا، إنّما دماء الأبطال.

وكذا قوله: (عَلَلْنَ به اصطباحاً واغتباقا)؛ فإنّه أفضل مـــن قـــول البُحْتُرِيّ: (لَمَّا شربن الدّماء)، لِما في قول المُتَنَبِّي من الدّلالة على الـــرّي من الدّمـــاء، مع شاعريّة ألفاظـــه كما أعـــان المُتَنَبِّـــي حســـنُ نَغْـــمِ القصيدة.

(١) الرّسالة (٢٤٨).

٦-الرَّمْيُ بالنِّبال والقَسي:

اشترك الشَّاعِرَان في قِلَّة بضاعتهما من هذا الوصف، وقد أثار كلٌّ منهما إلى إجادة ممدوحه الرَّمْي، بيد أنّ المُتَنَبِّي أبلغ في وصفه لممدوحه من البُحْتُرِيّ حين قال[1]:

وَرَمَى العدوَّ فلم يُقَصِّر سَهْمُهُ حتّى تخضخضَ في رَمِيٍّ مُقْصَدِ

وقوله[2]:

يرمي فما يُشْوى ويقتل من رمي بِسهام لا هَدَفٍ ولا بِرْجَاسِ

وذلك لِما في أبيات المُتَنَبِّي من المبالغة في وصف دقّةِ رمي ممدوحه وإطاعة السّهام له[3]:

يصيبُ ببعضها أفواقَ بعضٍ فلولا الكسْرُ لاتَّصلتْ كعوبا

ولِما في وصفه من الدّلالة أيضاً على قوّة ممدوحه، وشدّة نزعه بالقوسِ.

ومِمّا انفرد به البُحْتُرِيّ وصفه هيئة الرّامي[4]:

القوسُ منِّي إليك مُوْتَرَة والسّهمُ أَلْقَمْتُ فوقَهُ الوَتَرا

(١) الرّسالة (٢٦٨).

(٢) الرّسالة (٢٦٨).

(٣) الرّسالة (٣٩٤).

(٤) الرّسالة (٢٧٠).

٧-وصف القِلاع:

ومِمَّا انفرد به المُتَنَبِّي مِمّا يكون في ميادين المعارك: وصفُ القِلاع؛ فقد وصف القِلاعَ وإحاطةَ الغبار بها من كلّ جانبٍ، وتلطُّخَها بالدّماء، وبناءها والحرب قائمةٌ، وتناثر جثث القتلى فيها وحولها، وتشبيهها بالعروس اختيالاً منها بِما حقّقه ممدوحه من النّصر[1].

(١) الرّسالة (٣٩٦-٣٩٨).

سابعاً: في أعقابِ المعركة

اشترك الشَّاعِرَانِ في الحديثِ عن أكثرِ ما يُمكنُ حدُوثُــهُ أَعقَــابَ المعركةِ من بيانٍ لِحجمِ خسائرِ العدوِّ، وتفصيلِ كثرةِ القتلـــى، وكثـــرةِ الدّماءِ، والأسرى والسَّبْي، ووصفِ الفارِّينَ وطلبِ العفو عـــن بعـــض المشاغِبين.

وانفرد كلٌّ واحدٍ من الشَّاعِرَين بالحديث عن بعــض الأحـــداث، وسنبيّن ذلك مُفَصَّلاً إن شاء الله فيما يأتِي:

١- حجم الخسائر:

تحدّث الشَّاعِرَانِ عن بيان حجم خسائر العدوّ؛ فقال البُحْتُرِيّ(١):

أدليت دَلْوَ المنايـــا في نفوســـهِمِ ... فأغْرَقْتَهَا إلى الأَكْـــرَابِ والـــوَذَمِ
حطَّمت منكبَهُم لِما حللتَ بِهِمْ ... بِمنكبٍ منكَ أضحى غيرَ مُنْحَطِمِ
غادرتَهُم بين مجـــروحٍ ومقتســـرٍ ... عانٍ ومُطَرَّحٍ لَحماً على وَضَـــمِ
أسرى وجرحى وقتلى في ديارِهِمُ ... كأنّما لبسوا قمصـــاً مـــن الأَدَمِ

وقال(٢):

فَمَجَّـــدَّلٍ ومرمَّـــلٍ وموسَّـــدٍ ... ومضـــرَّجٍ ومضـــمَّخٍ ومخضَّـــبِ
سلبوا وأشرقت الـــدّماءُ علـــيهِمُ ... محمـــرّةً فكـــأنَّهُم لم يســـلبوا

(١) الرّسالة (٢٧٢).

(٢) الرّسالة (٢٧٤).

وقال(١):

فلست ترى إلاّ رؤوساً مطاحـــةً   يُجيدُ الموالي نحرَهَا أو دماً يجـــري

وقال(٢):

فكائنْ له من ضربةٍ بعد طعنـــةٍ   وقتلى إلى جنبِ الثّنيةِ أو أســـرى
فوارسُ صرعى من تُؤَامٍ وفـــاردٍ   وأرسالُ خيلٍ في شكائمها عقرى

وقال(٣):

فَهُـــمُ فرقتـــانِ بـــين قتيـــلٍ   قُنصـــتْ نفسُـــهُ بحـــدِّ الحديـــدِ
وأسيرٍ غدا له السّـــجنُ لَحـــداً   فهو حَـــيٌّ في حالـــةِ الملحـــودِ

وقال(٤):

فقتيلٌ تحـــتَ السّـــنابكِ يَـــدْمَى   وأسيرٌ يراقـــبُ القتـــلَ عـــانِي

وقال أيضاً:

شرقوا بالحديـــد إمّـــا ســـيوفٌ   أُثخِنـــتْ فِـــيهِمُ وإمّـــا قيـــودُ

وقال المُتَنَبِّي(٥):

فمســـاهم وبســـطُهُمُ حريـــرٌ   وصـــبّحَهم وبســـطهُمُ تُـــرابُ
ومـــن في كفّـــهِ منـــهم قنـــاةٌ   كَمن في كفّه منـــهم خِضَـــابُ

---

(١) الرّسالة (٢٧٤).

(٢) الرّسالة (٢٧٥).

(٣) الرّسالة (٢٧٥).

(٤) الرّسالة (٢٧٥).

(٥) الرّسالة (٤٠٠).

وقال[١]:

فهم حِزَقٌ على الخابورِ صرعى بِهِمْ من شَرْبِ غيرِهِمُ خِمَارُ
فلم يسرحْ لهم بالصّبح مالٌ ولم يوقَدْ لم باللّيلِ نارُ
حذارُ فتًى إذا لم يرضَ عنهمْ فليسَ بنافعٍ لهم الحِذَارُ

وقال[٢]:

فولّوا بين ذي رمحٍ مُفاتٍ وذي رَمَقٍ وذي عقلٍ مُطَاشِ
ومنعَفِرٍ لِنَصْلِ السّيفِ فيهِ تواري الضَّبِّ خَافَ من احتراشِ

فنجد البُحْتُرِيّ قد تحدَّثَ عن وجودِ قتلى وأسرى وجرحى وخيلٍ مقتولة، بينما المُتَنَبِّي تحدَّث عن قتلى وجرحى وخائفين وحديثاً مُجْملاً عن الخسائر، مما يدلّ على أنّها لَحِقَتْهُم خسائرُ عظيمةٌ، وجعلتهم فقراءَ بعد غِنًى، وجبناءَ بعد شجاعةٍ، وأنّه لَحِقَهم خوفٌ شديدٌ، وجعلهم لا يسرحُ لهم مالٌ، ولا توقدُ لَهم نارٌ، وهاتان الصّورتان انفرد بهما عن البُحْتُرِيّ، والبُحْتُرِيّ انفرد بالحديثِ عن الأسرى.

٢- كثرة القتلى:

قال البُحْتُرِيّ[٣]:

---

(١) الرّسالة (٤٠٠).

(٢) الرّسالة (٤٠٠).

(٣) الرّسالة (٢٧٦).

كأَنَّهُم تحت السّـيوفِ غرائـبٌ   من البُدْنِ سيقَتْ يومَ عيدٍ إلى النَّحْرِ

وقال(١):

فقتلتَ جيشَهُمُ وجئتَ بسـبيِهِم   وتركتهمْ بـالغورِ كالأكْـداسِ

وقال(٢):

وفي أرضِ الدَّيالِمِ هـامُ قتلـى   نظامُ السّـهلِ منـها والحُـزْونِ

وقال(٣):

وقد شرقت جبالُ الطّيبِ منـهُمْ   بيـومٍ مثـلَ يـومِ النّهـرانِ

وقال المُتَنَبِّي(٤):

نثرتُمُ فـوق الأحيـدبِ كلِّـهِ   كما نثرتْ فوقَ العروسِ الدّراهِمُ

وقال(٥):

لَما تَحكمـتِ الأسـنةُ فـيهمُ   جارتْ وهنَّ يَجُرْنَ في الأَحْكـامِ

فتركتَهُمْ خَلَلَ البيـوتِ كأنّمـا   غضبتْ رؤوسُهُمْ على الأجسـامِ

أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ مـن دمٍ   ونجـومِ بَـيْضٍ في سمـاءِ قَتَـامِ

---

(١) الرّسالة (٢٧٦).

(٢) الرّسالة (٢٧٦).

(٣) الرّسالة (٢٧٦).

(٤) الرّسالة (٤٠٣).

(٥) الرّسالة (٤٠٣).

وقال[١]:

ألقتْ إليكَ دماءُ الرّومِ طَاعَتَهَـا   فلو دعوتَ بلا ضربٍ أجابَ دَمُ
يسابقُ القتلُ فيهِمْ كـلَّ حادثَـةٍ   فما يصيبُهُمُ مـوتٌ ولا هَـرَمُ
فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهُم   يُسْقُطْنَ حولكَ والأروحُ تنـهَزِمُ

وقال[٢]:

إذا توافقتِ الضّرباتُ صاعدةً   توافقتْ قُلَلٌ في الجـوِّ تصطَدِمُ

وقال[٣]:

قد سَوَّدَتْ شجرَ الجبالِ شعورُهُمْ   فكـأنَّ فيـهِ مُسِـفَّةَ الغربـانِ

وقال[٤]:

فَتَل الجبالَ من الغـدائرِ فوقَـهُ   وبَنَى السّفينَ له مـن الصُّـلْبَانِ

وقال[٥]:

حتّى انتهى الفرسُ الجارِي وما وقعتْ   في الأرضِ من جُثَثِ القتلى حوافِرُهُ

وقال[٦]:

يتعـرنَ بـالرّؤوسِ كمـا مَـرَّ م   بتـاءاتِ نَطْقِـهِ التَّمتَـامُ

---

(١) الرّسالة (٤٠٤).

(٢) الرّسالة (٤٠٥).

(٣) الرّسالة (٤٠٥).

(٤) الرّسالة (٤٠٦).

(٥) الرّسالة (٤٠٦).

(٦) الرّسالة (٤٠٧).

فنجدُ البُحْتُرِيّ تحدَّثَ عن كثرة القتلى حقيقةً، دون الإشارةِ إلى شيءٍ من مظاهرِ هذه الكثرة؛ فشبّههم مرّةً بالبُدْنِ التي تنحر يوم عيد النّحر، ومرَّةً بالأكداس، ومرَّةً جعل هامَهُمْ نِظَامَ السُّهولِ والحزون، ومرَّةً جعل الجبالَ تَشْرَقُ فيهم؛ فكلّ ذلك صورٌ حقيقةٌ.

و ذكر المُتَنَبِّي مثلها؛ كونه نثرهم فوقَ جبلِ الأحيدب، وكونهم أحجارَ ناسٍ فوق أرضٍ من دمٍ، وكونَ جسومهم أثبتُ شيءٍ في الميدانِ، تسقط حولَ ممدوحه، والأرواحُ تنهزم.

وانفرد المُتَنَبِّي بالحديث عن مظاهرِ هذه الكثرة، والتي منها: كونُ القتل يسابِقُ فيهم كلَّ حادثَةٍ، وكثرةُ تصادُم القُلَلِ في الجوِّ، وتسويدُ شعورِهم شجرَ الجبال، وأنّه فتلَ الجبال من غدائرِهم، وأنّ الفرسَ يجري على الجُثَثِ، فلا يقع حافِرُهُ على الأرضِ، وكونُ الخيولِ تتعثرُ بالرّؤوس.

وممّا انفرد به المُتَنَبِّي تفضيلُهُ مَن قُتِلَ على مَن أُسِرَ، وأنّ ممدوحه لم يكثر القتلَ إلاّ كرماً منه، ولِيُطْعِمَ الطَّيرَ، التي كأنّها بعضُ عيالِه، ولئلاّ تتّهِمَهُ الذّئابُ بإخلافِ ما تَرتَجيهِ منه، وكونه بكثرةِ ما قَتَلَ أنبت ربيعاً للذّئاب.

٣- كثرة الدّماء:

قال البُحْتُرِيّ[١]:

أَدْمَى فجاجَ الرّومِ حتّى مَالَها   سيلٌ سوى دَفْعِ الدّماء الهُمَّعِ

(١) الرّسالة (٢٧٦).

وقال[١]:

وإذا ما تشنعتْ حومةُ الحــربِ وكان المكانُ بــالقومِ دَحْضــا

ورأيتَ الجيادَ تحتَ مثارِ الــنَّقْـ ــعِ يَنْهَضْ بِــالفوارِسِ نَهْضــا

وقال[٢]:

جُلْن في يابسِ التّرابِ فما رمـــ ــنَ طعاناً حتّى وطــئِنَ الطّينــا

وقال:

سُلبوا وأشرقتِ الــدّماءُ علــيهِمُ محمـــرةً فكــأَنَّهُمْ لم يُســلبوا

وقال[٣]:

كُلَّمَا أحمرَّ لهــا اليــأس ثَنَــتْ وهي مِمّا وطِئَتْ حُمْــرُ الثُّــنَنْ

وقال[٤]:

يغالِبُ طعمُ المــاءِ في ملتقــاهُمُ حُسَى الدَّمِ حتّى يلفظَ الماءَ شاربُهْ

وقال[٥]:

يخــتلطُ الــزَّابُ في دمــائِهِمُ حتّى غدا الزَّابُ مشــرَباً زَبَــدُهْ

وقال المُتَنَبِّي[٦]:

---

(١) الرّسالة (٢٧٧).

(٢) الرّسالة (٢٧٧).

(٣) الرّسالة (٢٧٨).

(٤) الرّسالة (٢٧٨).

(٥) الرّسالة (٢٧٩).

(٦) الرّسالة (٤٠٨).

وجرى على الورَقِ النّجيعُ القانِي فكأنَّــهُ النّــارُنجُ في الأغصــانِ

وقال(١):

أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ مــن دمٍ ونجــومُ بَــيْضٍ في سمــاءِ قَتَــامِ

وقال(٢):

يُدَمِّي بعضُ أيدي الخيلِ بعَضــاً ومــا بِعُجَايــةٍ أثَــرُ ارتهــاشِ

وقال(٣):

يُقَدِّمُها وقد خُضِــبَتْ شَــوَاهَا فتًى ترمِي الحروبُ بــه الحروبــا

وقال(٤):

ما زال طِرْفُكَ يجري في دمــائِهِمُ حتّى مشى بكَ مَشْيَ الشَّارِبِ الثَّمِلِ

وقال(٥):

وقد لَبِسَــتْ دَمــاءَهُمُ علــيهِمْ حــداداً لم تَشُــقَّ لهــا جيوبــا

وقال(٦):

رَكَضَ الأميرُ وكاللّجينِ حَبَابُــهُ وثَنَى الأعنــةَ وهــو كالعِقيــانِ

---

(١) الرّسالة (٤٠٨).

(٢) الرّسالة (٤٠٨)

(٣) الرّسالة (٤٠٩).

(٤) الرّسالة (٤٠٩).

(٥) الرّسالة (٤١٠).

(٦) الرّسالة (٤٠٨).

فالبُحْتُرِيّ فضل المُتَنَبِّي في وصفِ ما سال من الدّماء في النّهر؛ لأنّه ذكر تغيّرَ طعمِ الماء، وتدفّق الدّماء في النّهر، وما يحدثه من زبـدٍ، بينمـا المُتَنَبِّي لم يشر إلاّ إلى تغيّر اللّونِ.

وفَضَله المُتَنَبِّي في الحديث عن زَلِقَ الخيل بالدّماء، وكونهـا تمشـي مشْيَ السّكرانِ؛ فإنّ البُحْتُرِيَّ لم يشبهها بشـيءٍ إنّمـا جعـل المكـان زَلقاً،وجعلها تنهضُ نَهْضاً لكثرةِ الدماء.

وفي حديثهما عن كثرة الدّماء على الأرض نجد البُحْتُرِيَّ يشـيرُ إلى كون المكان صار زَلَقاً وطيناً بعد ترابٍ، بينما نجد المُتَنَبِّي يبالغ؛ فيجعـلُ الأرضَ كلّها قد تغيّرتْ من أرضٍ ذات ترابٍ إلى أرضٍ من دمٍ.

وانفرد البُحْتُرِيّ بالحديثِ عن تلطّخِ الفرسانِ بـدمائِهِم، ويُبْسِـها عليهم حتّى صارت كالثّيابِ لَهُمْ، نابَتْ عمّا سُلبَ من ثِيَابِهِم، والمُتَنَبِّي لم يذكر ذلك إلاّ على روايةِ مَنْ رَفَعَ (دماءَهم)، في قوله:

وقد لبسـت دمـاءَهُمْ علـيهِمْ حـداداً لم تَشُـقَّ لهـا جيوبـا

فإنّه يكون حينئذٍ قد جاء بِمعنًى بديعٍ، وهو أنّ الدّماءَ لَمّا يبسـت عليهم صارت وكأنَّهُم ثيابُ حداد، إلاّ أنّها لم تشقق لَها جيـوبُ مـن الثُّكْلِ عليهم؛ لأنّها تغطّيهم في كلِّ أجزاء أجسادهم.

وانفرد المُتَنَبِّي بذكر ما تطايَرَ من الدّماء على ما في الميـدانِ مـن الشّجر.

٤- وقوع الطّير والسِّباع على الجُثث:

قال البُحتُريّ[(١)]:

في وقعةٍ أبقى عليهمْ غِبُّها ... رَخَمَ الفيافي والنُّسُورَ وقوعا

وقال[(٢)]:

كأنَّ النُّسُورَ الواقعاتِ عشيةً ... على نَقدٍ حولَ الجمارِ مُذَبَّحِ

وقال[(٣)]:

قارِي سباعٍ قد لَغِبْنَ حوائمٍ ... في نقعِهِ ومُضِيفِ طيرٍ حُوَّمِ

وقال[(٤)]:

مصارِعُهُمْ حولَ العلا وقُبُورُهُمْ ... مَجامِعُ أوصالُ النُّسُورِ الحَوائمِ

وقال[(٥)]:

فَكَفَتْ منهمُ بطونُ سباعٍ ... قبروا جوفَهَا بطونَ لُحودِ

وقال المُتَنَبِّي[(٦)]:

تظلُّ الطّيرُ منها في حديثٍ ... تَرُدُّ به الصّراصرَ والنَّعيبا

---

(١) الرّسالة (٢٧٩).

(٢) الرّسالة (٢٧٩).

(٣) الرّسالة (٢٨٠).

(٤) الرّسالة (٢٨٠).

(٥) الرّسالة (٢٨٠).

(٦) ديوانه (١/٢٦٥)من قصيدة يمدح بها علي بن سيار التميمي.

وقال(١):

يُفَدِّي أَتَمُّ الطَّيرِ عُمراً سلاحَهُ نُسورُ الملا أحداثُها والقشاعِمُ
وما ضرَّها خَلْقُ بغيرِ مخالبٍ وقد خلقتْ أسيافُهُ والقوائمُ

وقال(٢):

ولاقى دونَ ثأيِهِمُ طِعَاناً يُلاقِي عِنْدَهُ الذّئبُ الغرابا

فنجد البُحْتُريّ عبَّر عن اجتماعِ الطّيرِ والسِّباعِ على جثثهم بأسلوبٍ خالٍ من الخيال، سوى التّشبيه في قوله:

كأنَّ النّسور الواقعاتِ عشيةً على نَقَدٍ حولَ الجمارِ مذبحِ

أمّا المُتَنَبِّي فإنّه جاء بهذه الأخبارِ في صورٍ خياليةٍ بديعةٍ: (تظلُّ الطّير منها في حديث)، (يفدي أَتَمُّ الطّير)؛ فجعل للطّيرِ حديثاً، وجعلها تُفَدِّي ممدوحه على ما قَدَّمَ لها.

هذا، وقد انفرد البُحْتُريّ ببيان أنّ قبورَ ممدوحِيْهِ بطونُ السِّباع، وهذا مِمّا كان يتمدح به العربُ.

٥-٧- وصف الأسرى والسَّبْي والسّجون:

وصف البُحْتُريّ أسرى ممدوحه، وذكر أنّهم صنفان: ملوكٌ وجنودٌ. وبَيَّنَ ما يُفْعَلُ في الجند من وضع الحديدِ في أيديهم وأرجلهم، وما

---

(١) ديوانه (٤/٩٥)من قصيدة يمدح بها سيف الدولة، و يروى البيت: (نسور الفلا).

(٢) الرّسالة (٣٩٢).

ينتظرهم من قتلٍ، وبَيَّنَ أحوالِهم وهم فِي السِّجنِ، وبِهذا انفرد عن المُتَنَبِّي.

كَمَا انفرد عنه أيضاً بوصفِ السِّجن، فَمِن وصفه حالَهم قولُهُ(١):

فهم ففرقتانِ بين قتيلٍ ... قُنِصَتْ نَفْسُهُ بِحدِّ الحديدِ
وأسيرٍ غدا له السِّجنُ لَحدا ... فهو حَيٌّ في حالةِ الملحود

وقال(٢):

سما له حابلُ الآسادِ في لُمَةٍ ... من المنايا، فأمسى وهو مُحْتَبَلُ
حالِي الذّراعينِ والسّاقينِ لو صقدت ... له المَنى لتمنَّى أنّه عُطُلُ

ومن وصفه السّجن قوله بعده(٣):

من تحتِ مُطْبَقِ باب الشّامِ في نَفَرٍ ... أسرى يودون وُدّاً أنَّهُمْ قتلوا
غابوا عن الأرضِ أنأى غَيْبَةٍ وهُمُ ... فيها فلا وَصْلَ إلاّ الكُتْبُ والرُّسُلُ
تغدوا السّماء فتلقاهم مربعةً ... وتَقْطَع الشَّمسُ عنهمْ حين تَتَّصلُ
ذموا محمّداً المحمودَ إذ نشِبُوا ... في مُصْمَتٍ ليس في أرجائهِ خَلَلُ

---

(١) الرّسالة (٢٧٥،٢٨٨).

(٢) الرّسالة (٢٨٩).

(٣) الرّسالة (٢٨٩).

أمّا أبو الطّيّب فقد أحسن في تصوير خوفِ أسير ممدوحه منه، وفي تصويره وهو يُحاوِلُ السّير والنّومُ ، و قيدُهُ يمنعه من ذلك.

وأمّا حديثهما عن السَّبْي؛ فقد قال البُحْتُرِيّ[١]:

وأُصْفِيَ من بَرْغُوْثَ سَبْيٌ كَأَنَّمَا ... عقابيلُ أسرابِ الظّبــاء عقابلُــهْ

وقال[٢]:

وجلبتَ الحسانَ حُــوّاً وحُــوَراً ... آنساتٍ حتّــى أغــرّت النِّســاءَ

وقال المُتَنَبِّي[٣]:

وأمسى السَّبايا ينتحِــبْنَ بِعَرْقَــةٍ ... كأنَّ جيوبَ الثّــاكلاتِ ذُيُــولُ

وقال[٤]:

ومن عاتقٍ نَصْرَانَةٍ بــرزتْ لــه ... أسيلة خدٍّ عن قريــبٍ ســتلطَمُ

صفوفاً لليث في ليوثٍ حصونُها ... متونُ المذاكِي والوشــيجُ المُقَــوَّمُ

وقال عن السّفن الحربية[٥]:

تأتِي بِما سبتِ الخيــولُ كَأَنَّهَــا ... تحتَ الحسَانِ مــرابِضُ الغــزلان

وقال عن سيوف ممدوحه[٦]:

---

(١) الرّسالة (٢٨٩).

(٢) الرّسالة (٢٩٠).

(٣) الرّسالة (٤١٢).

(٤) الرّسالة (٤١٣).

(٥) الرّسالة (٣٦٠).

(٦) الرّسالة (٣٦٠).

قاسمتها تلّ بِطْرِيقٍ فكــانَ لهــا أبطالُها، ولك الأطفالُ والحُــرُمُ
تلقى بهم زبــدَ التّيــارِ مُقْرَبَــةٌ على جحافِلِها من نضحِهِ رَثَــمُ

وقال[1]:

فلم يبقَ إلاّ مَن حماها من الظُّبــا لَمَى شفتيها والثُّــدِيُّ النّواهِــدُ
تُبَكّي عليهنّ البطارِيقُ في الدُّجَى وهنَّ لــدينا ملقيــاتٍ كواسِــدُ

فالبُحْتُرِيّ لم يتحدّثْ إلاّ عن حسنهنّ، أمّا المُتَنَبّي فلم يلتفت إلى هذا لما ادّعاه في ممدوحه وجنده من العفةِ عنهنّ[2].

تُبَكّي عليهنّ البطارِيقُ في الدُّجَى وهنَّ لــدينا ملقيــاتٍ كواسِــد

وهو وإن وصف شيئاً من ذلك فإنّما ذكر مَرَّةً أنّهنّ حســانٌ، وأنّ إحداهنّ أسليةُ خَدٍّ.

كما وصف انتحابَهُنَّ وجمعَهُنَّ في مكانٍ واحدٍ، صفوفاً لِممدوحه، وتحدّث عن حملهنّ على السّفنِ، وحسرةِ البطاريق عليهنّ.

ذلك حديثهما عن النِّساءِ من السَّبْيِ.

أمّا الأطفالُ فلم يتحدّث عنهما الشّاعِرَان، إلاّ ما كان من المُتَنَبّي في قوله السّابق: (ولك الأطفالُ والحُرَمُ).

(١) الرّسالة (٤١٢).

(٢) ديوانه (١/٣٩٨).

هذا، وقد انفرد البُحْتُرِيُّ في وصف هربِ ابن المدبر من أسرِ الزِّنْجِ، واعتذرَ له عن وقوعه في الأسرِ، ومدحه في أنّ ذلك لم يكن منه إلاّ بعد أن بذل قصارى جهده في الدّفاع عن نفسه وبعد هرب أنصاره.

ثم تحدّث عن هربه من سجنهم، ومدحه في هذا الهرب.

كما وصف ضربةً في وجه ابن المدبر هذا، وهي التِي كانت وراء أسره؛ فقال[1]:

ومُبِينَةٍ شَهَرَ الْمَنَازِلُ وسَمها والخيلُ تكبو في العجاجِ الكابِي
كانت بوجهِكَ دون عرضِكَ إذْ رأوا أنّ الوجوهَ تُصَانُ بالأحسابِ

وممّا انفرد به الْمُتَنَبِّي حديثه عن أسرِ ممدوحه للنِّساء العربيات وإكرامه لَهُنَّ، ومن ثم إعادهّن كما أخذنَ، مكرماتٍ لم ينقص منهنّ شيئاً، ولذا فهنَّ شاكراتٌ له عنلى ما أسدى إليهنّ، ولسنَ يرين أنفسَهُنَّ مغترباتٍ حين رؤيته[2].

٨- إحراق الدِّيار:

انفرد الْمُتَنَبِّي في الحديث عن إحراقِ ديارِ الأعداء، فوصف أنّ بلادَ أعداءِ ممدوحه صارت حِمَماً، لا ينتفع بها، وطلولاً خاوِيَةً خراباً[3].

---

(١) الرّسالة (٢٩١).

(٢) الرّسالة (٤١٣-٤١٤).

(٣) الرّسالة (٤١٤-٤١٥).

٩- وصف المنهزمين:

وصف الشّاعِرَان الفَارِّين، وآثار الفرار على أنفسهم، فشبّه البُحْتُرِيّ الفارَّ في سرعةِ هُوِيِّهِ مع المنحدراتِ والسّهولِ بالرِّيحِ الشَّديدةِ العصف، فقال[1]:

فَمَرَّ يَهْوِي هُوِيَّ الرِّيحِ يُسْعِدُهُ ... خَرْقٌ بَسِيطٌ وليلٌ مُظْلِمٌ داجِ

وشبّه المُتَنَبِّي الفارَّ بالنّعامَةِ مرّةً[2]، وبالوعل أخرى[3]، وبالشّاء ثالثةً[4].

ووصف الشّاعِرَانِ شدّةَ الخوفِ الذي لَحِقَ بالفَارِّين، وآثاره النّفسيّة عليهم، فقال البُحْتُرِيّ[5]:

تَخَطَّأَ عرضَ الأرضِ راكبَ وجههِ ... لِيَمنعَ منه البعدُ ما يبذلُ القُرْبُ

يُحِبُّ البلادَ وهي شرقٌ لخصمه ... ويَذعرُ منها وهي من فوقِهِ غَربُ

إذا سار سهباً عاد ظهراً عدوُّهُ ... وكانَ الصّديقُ غدوةً ذلك السَّهْبُ

---

(١) الرّسالة (٢٨٢).

(٢) الرّسالة (٤١٥).

(٣) الرّسالة (٤١٦).

(٤) الرّسالة (٤١٦).

(٥) الرّسالة (٢٨٢).

والسّهب: المنبسط من الأرض و الفلاة. القاموس، مادة (س هـ ب).

وقال[١]:

تَأَوَّب من حَمُّوصَ أبوابَ بَالسٍ مسيراً بفرطِ الذُّعْرِ تُطْوَى مراحِلُهْ
يُقَوِّسُ من حَدِّ الأسنة ظهرَهُ وقد بُلَّ منها منكباه وكاهلُهْ
يحيطُ عليه جانبُ النَّقْعِ مَوعِثًا لكي تتغطَّى في العجاجِ مقاتلُهْ
إذا مَرَّ بالشّجراءِ جانبَ قَصدَهَا يرى أنّها أرسالَ خيلٍ تقاتلُهْ

وقال[٢]:

وكم من وقعةٍ قد رامَ فيها ظهور الأرضِ يجعلُها بطونَا
يصدُّ عن الفوارسِ صدَّ قالٍ عن العشراتِ يحسِبُها مئينا
يلاوذُ والأسنةُ تدريْه شمالاً حيثُ وجهَ أو يمينا

وقال[٣]:

جدحتَ له الموتَ الذُّعَافَ فعافَهُ وطارَ على ألواحِ شَطْبٍ مُسَمَّرِ
مَضى وهو مولى الرِّيحِ يشكرُ فضلَهَا عليه ومن يُولَ الصّنيعةَ يشكُرِ
إذا الموجَ لم يبلِغْه إدراك عينِه ثَنَى في انحدارِ الموجِ لَحظةَ أخزرِ

وقال[٤]:

أَثْكَلْتَهُ أشياعَه وتركتَهُ للموتِ مرتقباً صباحَ مساءِ

---

(١) الرّسالة (٢٨٣).

(٢) الرّسالة (٢٨٤).

(٣) الرّسالة (٢٨٥).

(٤) الرّسالة (٢٨٧).

حتّى لو ارتشف الحديـدَ أذابـه ... بالوقدِ مـن أَنْفَاسِـهِ الصُّـعداء

وقال[1]:

يَحَسِبُ الأَرْطَى زُها الجيشِ ومَنْ ... تنهشُ الحيـةُ يُفْزِعْـهُ الرَّسَـنْ

وقال[2]:

هَتَتْهُ أهوالُ الـوغَى ولـو انـهُ ... عينٌ لشـدِّةِ رُعْبِـهِ لم تَطْـرُفِ

وقال[3]:

قالتْ له النّفسُ لا تألوه ما نصحتْ ... والخيلُ تخلطُ من نقـعٍ بإرهـاج

إنّ المقيمَ قتيـلٌ لا رجـوعَ لـه ... إلى الحياةِ وإنَ الهَـارِبَ النّـاجِي

وقال المُتَنَبِّي[4]:

يرونَ من الذُّعرِ صوتَ الرّيـاحِ ... صهيلَ الجيـادِ وخفـقَ البنـودِ

وقال[5]:

وما نَجا من شفارِ البيضِ منفَلتٌ ... نَجا ومنهنَّ في أحشـائِهِ فَـزَعَ

يباشرُ الأمنُ دهراً وهو مُخْتَبَـلٌ ... ويشربُ الخمـرَ وهـو مُمْتَقِـعُ

(١) الرّسالة (٢٨٣).

(٥) الرّسالة (٢٨٥).

(٣) الرّسالة (٢٨١).

(٤) الرّسالة (٤٢١).

(٥) الرّسالة (٤٢٢).

وقال(١):

لا يأمُلُ النَّفَسَ الأقصى لِمهجَتِــهِ فيسرِقُ النَّفَسَ الأقصى ويغتَـــنِمُ

وقال(٢):

فأصبحَ يجتابُ المُسُــوحَ مخافـــةً وقد كانَ يجتابُ الدِّلاصَ المـــزردا
ويمشي به العكازُ في الدَّيرِ تائبـــاً وما كان يرضى مشْيَ أَشقَرَ أجردا

وقال(٣):

لَمّا رأتْـــهُ وخيـــلُ النَّصـــرِ مقبلـــةً والحربُ غيرَ عوانٍ أسلموا الحُلَلاَ
وضاقتِ الأرضُ حتّى كان هارِبُهُم إذا رأى غير شيءٍ ظَنَّـــهُ رَجُـــلا
فبَعْدَهُ وإلى ذا اليومِ لـــو ركضـــتْ بالخيلِ في لَهَوَاتِ الطِّفلِ ماســـعلا

وقال(٤):

مَضَى يشكرُ الأصحابَ في فوتِهِ الظُّبا بمـــا شَـــغَلَتْهُ هـــامُهُم والمعاصِـــمُ
ويفهـــم صـــوتَ المَشْـــرَفيَّة فـــيهِمُ على أنّ أصواتَ السّيوفِ أعـــاجِمُ

وقال(٥):

ولكنَّهُ ولَّى وللطّعـــنِ سَـــوْرَةٌ إذا ذكرتْهَا نَفْسُهُ لَمَسَ الجَنْبـــا

---

(١) الرّسالة (٤٢٢).

(٢) الرّسالة (٤٢٢).

(٣) الرّسالة (٤١٨).

(٤) الرّسالة (٤١٩).

(٥) الرّسالة (٤١٩).

فقد وصف البُحْتُرِيّ الفارَّ بعدّةِ أوصافٍ تُبِينُ عمّا اعتراه من خوفٍ منها:

أنّه يسرعُ في الهرب لِيمتنعَ في البعد عمّا يمكن حدوثه له، ولو كان قريباً.

أنّه يحبّ ما أمامه من البلاد حتّى إذا صارت خلفه أبغضها، وخاف منها وصارت من أعدائه.

وأنّه يقوسُ ظهرَهُ وهو مسرعٌ في هربِه، ظَنّاً منه أنّ ذلك سيدفع عنه الأسنّةَ.

وأنّه يسير داخل الغبار الكثيف لِيغطّي بذلك مَقَاتِلَهُ.

وأنّه إذا مرَّ بأشجار أمَامَهُ حاد عنها ظَنّاً منه أنّها خيلٌ تلاحقه.

وقد كَرَّرَ هذا المعنَى؛ فقال:إنّه يحسب شجرَ الأرطى أوائلَ جـــيشٍ يلاحقه.

ومنها: أنّه لشدّة خوفه يتمنّى أنّ ظهرَ الأرضِ يكونُ بطناً له ليبتلعه ويخفيه.

وأنّه إذا قابل عدداً قليلاً من الفرسانِ حاد عنه؛ ظَنّاً منه أنّهم مئاتٌ.

وأنّه إذا سار لم يسر سيراً معتدلاً، بل يراوغ يمنةً ويسرةً.

وأنّه إذا سار هرباً في البحر وساعدته الرّيحُ شَكَرَ لَها صنيعَها.

وأنّه يتمنّى من الموجِ أن يساعده فيقذفَ به إلى ما انتهى إليه بصرُهُ، وبالطّبع؛ فإنّ الموجَ لن يسعفه بذلك، ولذا فهو ينظر إلى المـــوجِ نَظَـــراً خُزْراً، حقداً وغيظاً عليه.

وأنّه بقي مرتقباً للموت صباح مساءَ.

وأنّ أنفاسه متتابعةٌ متقطِّعَةٌ حارّةٌ، حتّى لو ارتشف الحديدَ لأذابه.

وأنّ شدّة الخوفِ قد بلغتْ به مبلغاً عظيماً بحيث لو أنّه عيّنٌ لم تطرُفْ.

وأنّ نفسه تحذره من مَغَبَّةِ البقاءِ في ميدان الحربِ وتحضُّهُ على الفرار.

ومن أوصاف المُتَنَبِّي للفارِّينَ: أنّهم يُرَوْنَ لَمّا اعتراهم من الفَزَعِ صوتَ الرّياحِ الهابَّةِ خيلاً تَصْهُلُ، أو أعَلاماً تَخفِقُ.

وأنّ مَن نَجا منهم عاشَ دَهْرَهُ مختبلاً طائرَ اللُّبِّ، لا يهنأ بِشُرْبِ خمرٍ، وعليه صفرةٌ دائمةٌ، لا تغيرها الخمرةُ إلى حمرةٍ لشدّة ما اعتراه من الرّعبِ.

وأنّه إذا تَنَفَّسَ تَنَفَّسَ سريعاً اغتناماً منه للنّفسِ القريبِ.

وأنّه حتّى بعد وصوله بلادَهُ، يَظَلُّ مخفياً معالم شخصيّتِهِ لابساً المسوحَ، يَمشي به العكازَ في الأديرة تائباً.

وهذا تعبيرٌ بليغٌ؛ حيثُ جعل الخائفَ لا يمشي بالعكاز، وإنّما يمشي به العكاز، دلالةً على شدّةِ تخاذله، وعدم قدرته على الإمساك بشيءٍ؛ فالعكاز هو الذي يمسك به ويساعده على المشيِ وليس العكس.

وأنّه يُسَلِّمُ كلّ ما يملك لا يهمّه إلاّ نجاةُ نَفْسِهِ.

وأنّه إذا رأى ما ليس بشيءٍ فزعَ ظَنّاً منه أنّه رَجلٌ يطارده.

وأنّه يشكر أصحابَهُ الذين خَلَّفَهُمْ وراءَهُ؛ لِشَغْلِهِمُ السّيوفَ عنه، بتقطيع هامِهِمْ وأيديهِمْ.

وأنّه كلّما تذكّرَ منا كان قد سمعَ مع الطّعناتِ لَمَسَ جنبه خشيةَ أن يكون أصابه بعض ذلك.

فنلاحظ أنّ لكلّ منهما معانِيَ جديدةً لم يطرقها الآخر، إلاّ ظَنُّهُ الشّجرَ خيلاً تلاحقه، أو أوائل جيشٍ تطارده؛ فإنّه معنًى متداولٌ[١].

وقد حاول المُتَنَبِّي المبالغةَ فيه، بقوله: (غير شيءٍ ظنّه رجلاً).

ولقد ظلم النّقّادُ المُتَنَبِّيَ في هذا المعنَى الجيّد[٢]؛ فالذي ظَنَّهُ وتَخَيَّلَهُ رجلاً هو لا شيء في الواقع، وما أكثر تخيّلاتِ الخائفينَ أشياءَ لا حقيقةَ لها عند التّحقيق.

ومِمّا انفرد به البُحْتُرِيّ وصفُ الهارِبِ على البحرِ[٣]، وإن كانَ يقَابِلُهُ لدى المُتَنَبِّي وصفُهُ ملاحَقَةَ ممدوحِهِ للهارِبِينَ على الأنهارِ[٤].

ومِمّا انفرد به المُتَنَبِّي وصفُهُ مُلاحَقَةَ ممدوحِهِ لهؤلاءِ الهرابِ وشدّة طلبه لهم[٥]:

طَلَبْتَهُم على الأمواهِ حتّى   تَخَوَّفَ أنّ تَفتِّشَهُ السَّحابُ

---

(١) الوساطة ص:(٢٦٣).

(٢) الوساطة ص:(٢٦٣).

(٣) الرّسالة (٢٨٢-٢٨٥).

(٤) الرّسالة (٤١٨).

(٥) الرّسالة (٤١٧).

فبـــتَّ لياليـــاً لا نـــومَ فيهـــا تَخُبُّ بـــك المســـوَّمةُ العُـــرابُ

وكذا وصفه ما هم فيه من سوء المآل(١):

إذا فـــاتوا الرِّمـــاحَ تنـــاولَتْهُمْ بأَرْمَاحٍ مـــن العطـــشِ القفـــارُ
يرونَ المـــوتَ قُـــدَّاماً وخلفـــاً فيختـــارونَ والمـــوتُ اضـــطرارُ
إذا سلك السماوةَ غـــيرَ هـــاد فقـــتلاهُمْ لعينيـــه مَنَـــارُ
يُبَكِّـــي خلْفَهُـــمْ دُثَـــرٌ بكـــاةٌ رغـــاءٌ أو ثُـــواجٌ أو يُعَـــارُ
وجاءوا الصّحصحانَ بلا سروجٍ وقد ســـقط العمامـــةُ والخِمَـــارُ
وأُرْهِقتِ العـــذارى مَردفَـــات وأُوطِئـــتِ الأُصَـــيْبِيَةُ الصِّـــغَارُ
وقد نُزِحَ الغـــويرُ فـــلا غـــويرٌ ونَهْيـــاً والبُيَيْضَـــةُ والجِفَـــارُ
وأسقطتِ الأجنـــةُ في الولايـــا وأجهضتِ الحوائـــلُ والسِّـــقابُ
وعمـــرو في ميـــامِنِهِمْ عمـــروٌ وكعبٌ في مياســـرِهِمْ كعَـــابُ
إذا ما ســـِرْتَ في آثـــارِ قـــومٍ تَخَاذَلَتِ الجَمـــاجِمُ والرِّقـــابُ

١٠- الفرح بالنَّصر على الأعداء:

وعدَّ نصرَ القواد نصراً للإسلام على الكفر وأهله، والمُتَنَبِّي في ذلك أدقّ تعبيراً عن هذه الفرحة من البُحْتُرِيّ(٢).

ويزيد البُحْتُرِيّ عليه في بيان أنّ هذا النّصر مِمّا يزيد في قوّة الخلافة

(١) الرّسالة (٤١٧).

(٢) الرّسالة (٤٢٣).

وثباتها أمام الأعداء[١].

١١-وصف المصلوبين:

هذا، ومِمّا انفرد به البُحْتُرِيّ؛ إذ وصف المصلوبين من قادةٍ ورؤساء مِمَّن خرجوا على الدّولة، فأبدع في وصفهم بعدَّةِ قصائدَ، وله وصف ما هم عليه من أعوادٍ، وشبّههم وهم عليها بعدّة تشبيهاتٍ: بالشّاعر وبالطّائر وبكواكب الجوزاءِ وبالحِرْباءِ وبالعَلَمِ.

ووصف تَغَيُّرَ ألوانِ شعورِهِمْ، وفرحَ الطّيرِ بنصبِهِمْ، وكونَ السِّباعِ تحسدُها عليهم، كما وصف ظلالَهُمْ[٢].

١٢- بعث البشرى بالنصر إلى الخليفة:

ومِمّا انفرد به البُحْتُرِيّ -أيضاً- مراسلةُ الخليفةِ بأخبار النّصرِ، عن طريقِ البريدِ أو الحمامِ الزّاجل، واستخدام القادة له[٣].

١٣-مراسلةُ الأعداء لممدوحه:

ومِمّا انفرد به المُتَنَبِّي حديثُهُ عن مراسلةِ الأعــداءِ ســيفَ الدّولــة وطلَبِهِمُ الصُّلْحَ أو الهدنةَ منه، كما أبان عن أسباب ذلك، وهي خــوفُهُمْ

---

(١) الرّسالة (٢٩٧).

(٢) الرّسالة (٢٩٥).

(٣) الرّسالة (٢٩٩-٣٠٠).

على أنفسهم منه(١):

فإن كان خوفُ القتلِ والأسرِ سَاقَهُمْ   فقد فعلوا ما القتلُ والأسرُ فاعِلُ
فخافوك حتّى ما لِخوفٍ زيادةٌ   وجاءوك حتّى ما ترادُ السّلاسِلُ
أرى كلَّ ذي مُلْكٍ إليكَ سبيلُهُ   كأنّك بَحرٌ والملوكَ جَداوِلُ

واعتبر تلك المراسلة دفعاً منهم للموت عن أنفسهم(٢):

ولم يَثْنِكَ الأعداءُ عن مُهَجَاتِهِمْ   بِمثل خضوعٍ في كلامٍ مُنَمَّقِ
وكنتَ إذا كاتبته قبلَ هذهِ   كتبتَ إليه في قذالِ الدُّمُسْتُقِ

وقال(٣):

دروعٌ لِمَلْكِ الرّومِ هذى الرّسائلُ   يَرُدُّ بها عن نَفْسِهِ ويشاغِلُ
هي الزّردُ الضّافِي عليه ولفظها   عليك ثناءٌ سابغٌ وفضائلُ

كما قال في ملوك شتّى(٤):

لَهم عنكَ بالبِيضِ الخفافِ تَفرُّقٌ   وحولَكَ بالكُتُبِ اللّطافِ زِحَامُ

وهو يرى أنّ طالب الصّلح منهم أرشدَ مِمَّن بقي على غوايتِهِ وعصيانه(٥):

لَوَفْدُ نُمَيرٍ كان أرشدَ مِنْهمُ   وقد طَرَدُوا الأضعانَ طردَ الوسائِقِ

---

(١) الرسالة : (٤٢٧)، و ديوانه (٣/٢٣٥-٢٣٦).

(٢) الرّسالة (٤٢٦).

(٣) الرّسالة (٤٢٦).

(٤) الرّسالة (٤٢٧).

(٥) الرّسالة (٤٢٨).

أعدّوا رماحاً من خضوعٍ فطاعنوا بها الجيشَ حتّى رَدَّ غَرْبَ الفيالقِ

وتحدّث عن تشرُّفِ رُسُلِ ملوكِهِمْ بالسّلامِ على سيفِ الدّولة، ووصفِ حالِهِم قبلَ السّلام وبعده، فقال(١):

أتاكَ يكادُ الرّأسُ يجحدُ عنقَهُ وتنقَدُّ تحتَ الذُّعرِ منه المفاصِلُ

يُقوَّمُ تقويمَ السّماطينِ مشيُهُ إليكَ إذا ما عَوَّجَتْهُ الأَفاكِلُ

وقَبَّلَ كُمّاً قَبَّلَ التُّرْبَ قبلَهُ وكلُّ كَمِيٍّ واقفٌ مُتَضائِلُ

وأسعدُ مشتاقٍ، وأظفرُ طالبٍ هُمامٌ إلى تقبيلِ كُمِّكَ واصِلُ

١٤- تهديدُ الأعداءِ والتّحريضُ عليهم:

وممّا انفرد المُتَنَبِّي -أيضاً- تهديدُ أعداءِ ممدوحِهِ بعدَ بعضِ الغزواتِ أو التّحريضِ عليهِمْ، كما قال(٢):

فلا تغررك أَلْسِنَةٌ موالٍ تُقَلِّبُهُنّ أفئدةٌ أعادي

وكن كالموتِ لا يَرْثِي لباكٍ بكى منه ويَرْوَى وهو صَادي

١٥- الاستشفاع لِبعضِ الخارجين:

اشترك الشّاعِرَانِ بالاستشفاع لبعضِ الخارجين على ممدوحيهم، ومن ذلك طلب البُحْتُرِيّ من المتوكِّلِ العفوَ عن بعض المشاغِبِيْنَ، من قبائلِ العربِ،

---

(١) الرّسالة (٤٢٦).

(٢) الرّسالة (٤٣٠).

كطلبه العفوَ عن أخواله بنِي شيبانَ[١].

وكطلب المُتَنَبِّي العفوَ عن بنِي كعبٍ، وبنِي كلابٍ، مــن سـيفِ الدّولة[٢].

وقد اشترك الشَّاعِرَانِ في تذكير ممدوحيهم بما يربِطُهُم من قرابةٍ هم ومَن يطلبون له العفوَ، أو يذكّرونَهُم بأنّهم عبيدُهُم ومواليهم، فقد قــال البُحتُرِيّ للمتوكّل عن بنِي شيبان[٣]:

أعمامُ نتلة أُمِّكُمْ وهــي التِــي شَرُفَتْ وأُخوة عامرِ الضّـحيانِ
نمْرِيَّة ولدتْ لكم أسدَ الشّــرى والنِّمْرُ بعــدُ ووائــلُ أَخَــوَانِ

وقال المُتَنَبِّي في طلبه العفوَ عن بنِي كلابٍ[٤]:

بنو كعبٍ ومــا أَثَّــرتَ فيهــا يَــدٌ لَــم يــدمها إلاّ السِّــوارُ
بها مــن قطعــةِ أَلَــمٌ ونقــصٌ وفيهــا مــن جلالَتِــه افتخَــارُ
لَهُم حــقٌّ بشــركِك في نــزارٍ وأدنَى الشِّركِ في أصــلِ الجــوارُ
لَعــلَّ بَنِــيهِمُ لبينــك جُنْــدٌ فَــأَوَّلُ قُــرَّحِ الخيــلِ المِهَــارُ

(١) الرّسالة (٢٩٧).

(٢) الرّسالة (٤٢٩-٤٣٠).

(٣) ديوان البحتري : (٤/٢٢٥٤)و الرّسالة (٤٣٠).

(٤) الرّسالة (٤٢٩).

وقال في طلبه العفوَ عن بنِي كلابٍ[١]:

وكيفَ يَتمُّ بأسُـــكَ في أنـــاسٍ تُصِـــيبُهُمُ فيؤلمُـــكَ المُصَـــابُ
ترفـــقْ أيّهـــا المـــولى علـــيهمْ فـــإنّ الرِّفْـــقَ بالجـــاني عِتَـــابُ
وإنّهم عبيـــدُكَ حيـــثُ كـــانوا إذا تـــدعو لحَادثَـــةٍ أجـــابوا

والمُتَنَبِّي في هذا أشدّ تأثيراً على النّفس من البُحْتُرِيّ، فقد ربط الواقعَ بأمثالٍ محسوسةٍ: (يدٌ لم يدمها إلاّ السِّوارُ)، (تصيبهم فيؤلمك المصابُ).

هذا، وقد وصف البُحْتُرِيُّ عفوَ ممدوحيه عـــن بعـــضِ الخـــارِجين عليهم، ومن ذلك قولُهُ في وصفِ عفوِ أبي سعيد عن بعضهم[٢]:

مَنَنْتَ عليـــهِ إذْ تَقَلَّبَـــتِ الظُّبَـــا عليه و(زيْدٌ) من قتيلٍ وهـــارِبِ
وتعتعتَ عنه السَّيفَ فارتَدَّ نصلُهُ كَليلَ الشّذا عنه حرونَ المضارِبِ

كما وصف استسلام موسى بن زرارة أحد ملوكِ الرّوم الـــذِّمِّيِّين، وعفو أبي سعيد عنه.

وبهذا نأتِي إلى ختام الحديث عن هذه الموازنة.

(١) الرّسالة (٤٢٩-٤٣٠).

(٢) الرّسالة (٢٩٦).

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار : (١٢)

شِعرُ الحَرْبِ بين البحتري والمتنبي

تأليف
د/ زايد بن محمد الجهني

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار : (٢

شِعْرُ الحَرْبِ بين البحتري والمتنبي

تأليف
د/ زيد بن محمد الجهني

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

شِعر الحَرْب

بين

البحتري والمتنبي

ح) الجامعة الإسلاميّة، ١٤٢٧هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النشر

الجهني، زيد بن محمد

شعر الحرب بين البحتري والمتنبي. /زيد بن محمد الجهني.-

المدينة المنورة، ١٤٢٩هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٧-٥٩٥-٠٢-٩٩٦٠-٩٧٨

١-البحتري، الوليد بن عبيد، ت٢٨٤هـ ٢-المتنبي، أحمد بن الحسين، ت٣٥٤ أ. العنوان

ديوي ٨١١، ٠٠٩ ١٤٢٩/٣٨٢٩

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٨٢٩

ردمك: ٧-٥٩٥-٠٢-٩٩٦٠-٩٧٨

الفصل الثَّالث:

الموازَنَةُ بينَ الخَصَائِصِ الفَنِّيَّةِ لِشِعْرِ الحَرْبِ عند الشَّاعِرَينِ

المبحث الأول:

خصائصِ الشَّكلِ:

أولاً–في الألفاظ والتّراكيب.

ثانياً–في الصّورة البيانية.

ثالثاً–في القيم الصّوتية.

رابعاً–في البناء الفنِّي لقصيدة الحرب.

المبحث الثاني:

خصائصِ المضمونِ:

أولاً–في التّجربة الشّعريّة.

ثانياً–في العاطفة.

ثالثاً–في الأفكار.

الفصل الأوّل:

الخَصَائِصُ الفَنِّيَّةُ لِشِعْرِ الحَرْبِ عند البُحْتُرِيّ

المبحث الأول:

خصائصُ الشَّكلِ:

أولاً–الألفاظ والتّراكيب.

ثانياً–الصّورة البيانية.

ثالثاً–القيم الصّوتية.

رابعاً–البناء الفنِّي لقصيدة الحرب عنده .

المبحث الثاني:

خصائصُ المضمونِ:

أولاً–التّجربة الشّعرِيّة.

ثانياً–العاطفة.

ثالثاً–الأفكار.

الخَصَائِصُ الفَنِّيَّةُ لِشعْرِ الحَرْبِ عند البُحْتُرِيّ

المبحث الأول:
الخَصَائِصُ الفَنِّيَّةُ من حيث الشّكل:

أولاً–الألفاظ و التّراكيب

أ–الألفاظ:

معرفة جمال الكلمة المفردة وقبحها في موضعها لا يتــأتّى إلاّ بعــد تجربةٍ وذوقٍ سليمٍ، بيد أنّ النّقّادَ قد وجّهوا الكُتّابَ أو الشّعراءَ إلى مواطن الحسن أو القبح وأرشدوهم إليه؛ من هؤلاء القاضي الجرجانِي؛ إذ يقول: «أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتبِ المعــانِي، فــلا يكــون غزلــك كافتخارك، ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بِمَنْزلة جدِّك، ولا تعريضك مثل تصريحك، بل ترتّب كُلاًّ مرتبته، وتوفيه حقّه، فتلطفُ إذا تغزلت، وتفخِّم إذا افتخرت، وتتصرّف للمدح تصرّف مواقعه؛ فإنّ المدح بالشّجاعة والبأس يتميّز عن المدح باللّباقة والظّــرف، ووصف الحرب والسّلام ليس كوصف المجلس والمُدَام، فلكلّ واحدٍ مــن الأمرين نَهجٌ هو أملك به، وطريقٌ لا يشاركه الآخر فيه»[١].

(١) الوساطة لعلِي بن عبد العزيز الجرجانِي (٢٤).

وقد أشار ابن الأثير إلى أنّ صاحِبَ الصّناعة اللّفظية محتاجٌ عند تأليفه لثلاثة أشياء:

«**الأوّل** منها: اختيار الألفاظ المفردة...؛ فإنّها تتخيَّر وتنتقى قبل النَّظمِ.

الثّانِي: نظم كلّ كلمةٍ مع أختها المشاكلة لها، لئلاّ يجيءَ الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه...

الثّالث: الغرضُ المقصودُ من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه...، ولكلّ موضعٍ من هذه المواضع هيئةٌ من الحسن تخصُّهُ»[(١)].

ثم تحدّث عن انقسام الكلمات إلى جزلةٍ ورقيقةٍ، وعن مواضعِ كلّ منها فقال:

«فالجزل منها يتسعمل في وصف مواقف الحروب، وفي قوارع التّهديدِ، والتّخويف وأشباهِ ذلك.

وأمّا الرّقيقُ منها؛ فإنّه يستعملُ في وصف الأشواق وذكر أيام البِعاد، وفي استجلاب المودّات، وملايناتِ الاستطعاف وأشباه ذلك»[(٢)].

(١) المثل السّائر لابن الأثير (٢٤٥/١).

(٢) المرجع نفسه (٢٧٥/١).

ثم بيّن مراده من الجزل والرّقيق من الألفاظ فقال:

«ولست أغنِي بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيّاً متوعِّراً، عليه عُنجهيةُ البداوةِ، بل أعنِي بالجزل أن يكون متيناً على عذوبته في الفَمِ، ولذاذتهِ في السّمعِ.

وكذلك لست أعنِي بالرّقيقِ أن يكون ركيكاً سفسفاً، وإنّما هو اللّطيفُ، والرّقيقُ الحاشيةُ، النّاعِمُ الملمس»(١).

وأمّا الدّلائلُ الدّالّةُ على حسن الكلمة فليس هو الاستعمال لها أو طولها أو قصرها، أو إجازة اللّغة لها؛ فإنّ لكلٍّ مقامٍ مقالاً، ولكلٍّ حالةٍ لبوساً، فالجمال الصَّوتِي مرجعُهُ إلى النّطقِ والسّمع؛ فالنّطق للمخارِج وخِفَّتِهَا على اللّسان، وعذوبتها فيه، والسّمع للذّاتِها فيه، واستمتاعه بها؛ «فإنّ حاسّة السّمع هي الحاكمة في هذا المقام»(٢).

وشاعِرُنَا البُحْتُرِيّ كان حريصاً على اختيار ألفاظه، مِمّا أكسب شعرَهُ خِفَّةً على اللّسان، وقبولاً في الآذانِ، وموافقةً لِحركات النَّفس، ومطابَقَةً للصّورة التِي يريد التّعبير عنها، وقد شَهِدَ له بذلك فُحُولُ النُّقّاد؛ فدارت خصوماتٌ حولَهُ بين أهلِ عصرِهِ أو مَن جاء بعدهم، كلٌّ ينصرُ قولَهُ بالحجّةِ والبرهان، وقف في صفِّهِ مَن حَبَّذَ حسنَ العبارةِ على دِقّةِ الفكر ومتاهاتِهِ، وكلٌّ مَن وصف شعرَهُ أشار إلى هذه الحالِ، وهذه

---

(١) المرجع نفسه (٢٧٥/١).

(٢) المرجع نفسه (٢٥٩/١).

الدّيباجة، وقد تقدّم الحديث عن ذلك في الفصل الأوّل من الباب الأوّل(١).

وقد سَخَّرَ البُحْتُرِيُّ حسنَ عبارته هذا، في شعرِه عامّةً، وفي شعرِه الحربيّ خاصّةً؛ فإذا بحثنا في النَّغمِ الصّوتي عنده وما وراءه من جمالٍ، وأقصد نغمَ الكلماتِ مفردة لا مركبة، وجدناه متمثِّلاً في مثل قولِه في وصفِ الفتحِ بن خاقان(٢):

يُبَجَّلُ إجلالاً ويُكْبَرُ هَيبَةً ... أصيلُ الحجى فيه تقىً وتواضعُ
إذا ارتدَّ صمتاً فالرّؤوسُ نواكسٌ ... وإنْ قال فالأعناقُ صُوْرٌ خواضِعُ
وتسودُّ من حمل السِّلاحِ ولُبْسِهِ ... سرابيلُ وضَّاحٍ به المسكُ رادعُ
منيفٌ على هامِ الرِّجالِ إذا مشى ... أطالَ الخطى بادِ البسالةِ رائعُ
وأغلبُ ما تنفكُّ من يقظاتِه ... رَبَايا على أعدائِه وطلائِعُ
جنانٌ على ما جرَّت الحربُ جامعٌ ... وصدرٌ لِما يأتِي به الدّهرُ واسعُ
يدٌ لأميرِ المؤمنينَ وعُدَّةٌ ... إذا التاتَ خطبٌ أو تَغَلَّبَ خالعُ
مُغَامِسُ حربٍ ما تزالُ جيادُهُ ... مطلَحةً منها أسيرٌ وظالِعُ
جديرٌ بأن تنشقَ عن ضوءِ وَجْهِهِ ... ضبابةُ نقعٍ تحتَهُ الموتُ ناقِعُ
وأن يَهْزِمَ الصَّفَّ الكثيفَ بطعنةٍ ... له عاملٌ في إثْرِهَا متتابِعُ

(١) الرسالة (٨٦).

(٢) ديوانه (٢/١٣٠٣-١٣٠٥).

تذودُ الــدّنايا عنــه نفــسٌ أبيَّــةٌ وعزمٌ كَحَدِّ الهــدواني قــاطعُ
بعيدُ مَقيلِ السِّــرِّ لا يقيــلُ التِــي يُحاوِلُهَا منه الأريبُ المخــادِعُ
ومُكْتَتَمُ التّــدبيرِ لــيسَ بظَــاهرٍ على سِرِّهِ الرّأيُ الذي هو تَابعُ
ولا يعلمُ الأعداءُ من فرطِ عزمِــه متَى هو مصبوبٌ عَلَيهِمْ فَواقعُ
خلائقُ منا تنفكُ توقفُ حاســداً له نَفَــسٌ في إثرهــا متراجِــعُ

ففي هذه الأبيات جمال نغمٍ، متمثّلٌ في المفردات ويعاونها التّراكيب والوزن والقافية، بيد أنّ جمال المفردات قد أضفى على الأبياتِ إشــعاعاً خاصّاً فهي ألفاظٌ مألوفةٌ مأنوسةٌ:

«إجلالاً، هيبةً، أصيلُ الحجى تقًى، تواضُــعٌ، نــواكسُ، صُــوْرٌ، خواضعُ، سرابيل، المسك، الخ».

وفيها ملاءمةٌ للغرضِ؛ الموضوعُ مدح بالشّجاعةِ، وإبــرازٌ لأشــهرِ صفاتِ القائدِ، وفقد اختار ألفاظاً جامعةً بين الجزالةِ والفصاحة، محتويــةً لأشهرِ مفرداتِ ما يوصفُ به القائدُ؛ كقوله:

«يُبَجَّلُ، يُكْبَرُ، الرّؤوسُ نواكِسُ الأعناقِ، صور خواضع، من حمل السّلاح، ولبسه سرابيل، منيفٌ، بادِي البسالةِ، و رِبايا وطلائع، التــاثَ، خطب، مغامسُ، حربٍ، جياده، مُطَلَّحَةً، ضبابةُ، نَقْعٍ، نــاقع، الصّــفّ الكثيف، عامل».

ومثله قوله في مدح أذكوتكين[١]:

أباحَ حمى الدّيامِ في حـــروبٍ ... سَقَتْ هِيَمَ القنا حتّـى روينـا
إذا طلبوا لَهَا الأشباهَ كانــتْ ... غرائبَ ما سُمِعْنَ ومــا رُؤينـا
وأعهدُ أرضَهُمْ أعدى سباعاً ... وآشـــبَ دون عاديـــةٍ عَرِينـا
فتلكَ جبالُها عادتْ ســهولاً ... وكانت قبلَ مغــزاهُ حزونـا
وكانوا جَمْعَ مملكـــةٍ فـــآبوا ... طوائفَ في مَخــابِيْهِمْ عزِينـا
ولم ينجُ ابنُ جستانٍ لشـــيءٍ ... سوى الأقدارِ غالبــتِ المَنُونـا
وكم من وقعةٍ قد رامَ فيهــا ... ظهورَ الأرضِ يَجعلُها بطونَـا
يصدُّ عن الفوارسِ صدَّ قــالٍ ... عن العشرات يحســبُها مِئِينـا
يـــلاوذُ والأســـنةُ تدّريـــه ... شَمَالاً حيثُ وَجَّـــهَ أو يَمينـا

فقد جمعت بين الأُلْفِ والأُنْسِ، وبين الجزالة والمناسبة للغرضِ، مع ما فيها من الجرسِ الموسيقيّ، وتكرار الحروف، لِما فيه من المناسبةِ التـــي توائم بين اللّفظ والمضمون.

هذا، والبُحتُريّ يختارُ كلماتِه اختياراً مُتَعَمَّداً؛ لأنّه يرى ذلك كمـــا قال في بيتٍ له[٢]:

---

(١) ديوانه (٤/٢٢٠٩-٢٢١١).

(٢) ديوانه (١/٢٠٩).

واللّفظُ حَلْيُ المعنَى وليس يُرِيْـــ ـــكَ الصّفرَ حُسْناً يريكَـــهُ ذهبُـــهْ

فهو إذا عبَّر بكلمةٍ لَم يكن تعبيرُهُ بِها خبطَ عشـــواء مـــن مثـــل قولِهِ[1]:

سَحَّتْ سَحَابَ المنايا فوقَ هامِهِمُ صوباً من الموتِ دانِي الودقِ والدِّيَمِ

فإنّه قال:

((سَحَّت))، ولم يقل: ((صَبَّت))؛ لإفادة الكلمة معنيَين:

فالسّين والحاء صوتان مهموسان رخوان مرققان، يفيدان بمقـــدار مَدِّهِما الشّمولَ والانتشارَ؛ فلو قال: ((صَبَّتْ)) لِما وَفَّت بذلك المعنَى.

ومثله قوله عن خيل ممدوحه[2]:

ما انتهى الأعداءُ حتّى ناقلـــت حُصُـــنَ الخيـــل بأنبـــاء الحُصُـــنْ
كلّما احمرَّ لها البـــأسُ تَنَـــتْ وهي مِمّا وطئـــتْ حُمْـــرُ الثُّـــنَنْ

(١) ديوانه (٤/٢١٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها أذكوتكين.
(٢) ديوانه (٤/٢١٥٦)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا جعفر الطّائيّ.

فإنّه قال: ((ناقلت))، ولم يقل: ((حَمَلت))، من الحَمْلِ؛ لأنّ النّقل فيه سرعةٌ مع حملٍ، وهو مرادُهُ؛ فإنّ أعداء ممدوحه لم ينتهوا عن القتال، حتّى أبيدوا بسرعةٍ فائقةٍ، كان نتيجتُها نقــلُ الخيــل نســاءهم الحصــيناتِ والمُحْصَّنَاتِ بالقِلاعِ.

وقال: ((احمرَّ))، ولم يقل: ((يسودّ))، لكون العرب تصف الأمــرَ إذا اشتدّ بالاحمرار.

وقال: ((ثَنَتْ))، ولم يقل: ((رجعت))؛ لأنّ الأولى تدلّ على التّراخِي في الرّجوع لصبرها على الجِلاَدِ حتّى ظهرت النّتيجة، وللمجانَسَةِ مع مــا بعدها.

وقال: ((حُمْرُ الثُّنَن))، ولم يقل: ((حُمْرُ الأقدام))؛ لأنّ الثُّنَنَ مجانســةٌ لِما قبلها، ولكونها أعلى من القدم مِمّا يدلّ على كثــرة الــدّماء التِــي وطئتها.

وقال قبلها: ((وَطِئَتْ))، ولم يقل: ((دَاسَتْ أو دَهَسَتْ))؛ لأنّ الوطء يناسب حوافر الخيل، والدّوسُ أو الدّهسُ يناسب أخفاف الإبــل، ولأنّ الدّوس يقتضي التّكرار على المدوسِ حتّى يتأثّر أو يؤثّر، أمّا الوطءُ وأثره فيلحق لأوّل وهلةِ الموطوء، وفيه دلالةٌ على انتشارِ الدّماءِ في كلّ مكانٍ، مع ما في الكلمة من الشِّدَّةِ؛ فالطّاء حرفٌ شديدٌ مهموسٌ.

ومِمّا يحمد البُحتُرِيُّ حسنُ استخدامه لِحروف الجرِّ؛ إذ كان قليلَ التّكرارِ لَها، وإن كرّرها فلا يتابعُ بينها بدون فواصِلَ، وإن اختلفت ألفاظها:

«ذلك لأنّها تحتاجُ إلى غيرها في التّعلُّقِ والارتباطِ، والذّهنُ تلقائيّاً، إذا سُمِعَ الحرفُ اتّجهَ إلى متعلِّقه، فإذا تتابعت لم يستطع أن يلاحقها في البحث عن متعلِّقاتِهَا، مِمّا يشتِّتُ الفكرَ، ويجعلُهُ يفقدُ الصِّلَةَ بين الألفاظِ ومعانِيها»[1].

هذا، وشعر البُحتُرِيِّ كثيرُ التّفاوت من حيثُ خُشُونَتُهُ أو نعومَتُهُ وغلظَتُهُ أو ورقَّتُه وشدَّةُ جرسِ حروفه، أو خِفَّته، حسب مقتضى الحالِ؛ فإنّا نَجِدُهُ مرّةً يخشن، ومرّةً يلين، ومرَّةً يغلظ، ومرَّةً يرقّ، وخيرُ دليلٍ على ذلك قوله في وصف شجاعةِ بنِي الفُصَيْص[2]:

(١) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه أبو كريشة (٢٦)، الطّبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

(٢) ديوانه (٧٧٩/٢).

معاقِلُهُمْ سمــرُ القنــا وكنــوزُهُمْ شريجانِ أسيافٌ وقمصُ حديدِ[1]
إذا غمراتُ الموتِ أدجتْ تَكَشَّفَتْ بِهِمْ عن أسودٍ زوحفتْ بأسودِ[2]
هُمُ أخمدوا نارَ العــدوِّ وأوقــدوا من الحربِ ناراً غيرَ ذاتِ خُمُــودِ
بشهباءَ من ماءِ الحديــدِ كأنَّهــا جبالُ شَرَوْرَى أضرمتْ لوقــودِ
تُرِيْكَ إذا ما الحربُ غامتْ سماؤها نجومَ صِعَادٍ في سَــمَاءِ صَــعِيْدِ
فلم يبقَ من أعدائِهِمْ غيرَ مُوغــلٍ به الخوفُ أو نائي المحلِّ شــريدِ
يمزِّقُهُم وقــعُ الصّــفيحِ فموثــقٌ أسيرٌ ومسلوبُ الحشاشــةِ مُــودِ

فإنّه قد استخدم كلماتٍ قَوِيَّةَ الجرسِ، ذاتِ جهرٍ شديدٍ، جمعتْ بين المهموسِ شديدِ الهمسِ، والمجهورِ شديدِ الجهرِ، أو متوسّطِه، ومن حــرفٍ مرقّقٍ، وآخر مفخّمٍ، وقد يجمعُ بين حرفَينِ شديدَي الجهرِ أو شــديدَي الهمسِ، وكلّ ذلك في كلماته التي ضمّنها أبياتَهَ السّابقة، ومنها:

((معاقل، شريجانِ، غمراتِ، أدجتْ، تكشّفتْ، زوحفــتْ، نــارَ، خمودِ، بشهباء، شرورى، غامتْ، صعادِ، صعيدِ، مُوغلٍ، يُمزّقهم، وَقْــعَ الصّفيحِ، موثقٌ، أسيرِ، مسلوبُ الحشاشةِ، مود)).

فكلّها كلماتٌ حربيةٌ شديدَةُ الوقع؛ كأنّه يُحذِّرُ أعداءَ ممدوحه بها، وهي مناسبةٌ لمقامِ الحربِ؛ إذ وصف فيها كتائبَ قومِ ممدوحِهِ، وما تحدثه من غبارٍ قام مقامَ السّحب، وتلالؤ السّيوف قامَ مقامَ النّجومِ في سمــاءٍ،

---

(١) شريجان: نِصْفان أو لونان مختلطان. لسان العرب، مادة: (ش ر ج).

(٢) أدجت: أظلمت، لسان العرب، مادة: (د ج ا).

سقفُها من الصّعيدِ لكثرةِ الغبارِ، فقد أحسنَ اختيار هذه الألفاظ التِي مَثَّلَتْ هذا الجوَّ.

فقوله: «معاقلهم»، دلالته تُوحِي بِجعلِ الرّماحِ حصوناً يمتنع بها الفرسانُ، وهذا من ثقتهم بأنفسهم، وإدلالهم بشجاعتهم، كما أنّه يبرز لنا أهميةَ هذه الرّماحِ بالنّسبة لَهم.

وقوله: «أَدْجَتْ»؛ فيه وصفٌ لِهولِ المعركةِ وغمراتِ الموت، تأكيداً على عِظَمِ هذا اليوم، الذي غدت مصائبه كالظّلمة المُدْلَهِمَةِ التِي تحول الضّياء دُجى، والنّهار ليلاً.

وقوله: «بشهباء» في وصف الكتيبة دليلٌ على كثرةِ عتادِ فرسانِها، حتّى ليخيل إلينا عند بريق سيوفهم ولَمعانِ رماحهم وانعكاس ضوء الشّمس على بَيضِهِم، أنّنا أمام بحرٍ زاخرٍ، يبدو لعين النّاظر من بعيدٍ، فكان أقربُ الألوانِ إليه الشُّهْبَةَ.

وهناك الكثيرُ من الألفاظِ التِي تدلُّ على اختيارِهِ لَها، كما تدلّ على تذوّقه لدلالاتها، مع ما توحيه من عِظَمِ الموقفِ لِفخامَتِهَا وجزالَتِهَا.

وقد نجد ألفاظَهُ بخلاف ما سبق رقيقةً لَيِّنَةً، تدلّ على انشراحٍ ونشوةٍ وفرحٍ؛ كقوله في مدح المعتمدِ على الله، ووزيرِهِ عبيد الله بن يحيَى ابن خاقان[1]:

---

(١) ديوانه (٢/٧٣٧-٧٣٨)، وانظر مثلها: (٢/٦٦٧، و٣/٢٠١٥، و٤/٢٢٠٠).

مُظَفَّرٌ ما تكاد تسري مـن الآ م فـاق إلاّ بِمُفْـرِحٍ بُـرْدُهْ
أرسالُ خيـلٍ إذا أطَـلَّ بها على أقاصِي ثغـرٍ دنـا أَمَـدُهْ
إنْ رُفِعَتْ للعـدى قَسَـاطِلُها أنجزَ صرفُ الزّمـانِ مـا يَعِـدُهْ
وَاقَعْنَ جمعَ الشّـراةِ مُحْـتَفِلاً بالزّابِ والصَّبْحُ سـاطِعٌ وَقَـدُهْ
غداةَ يومٍ أعيا علـى عُصَـبٍ مـن المُحِلِّـيْن أن يَكـرَّ غَـدُهْ
أين نجوا هـاربين عارِضَـهُمْ باغٍ من الموتِ مشرفٌ رَصَـدُهْ
بأتُوا وَبَـاتَ الخَطِّـيُّ آونـةً مُنْشَـبةً في صُـدُورِهِمْ قِصَـدُهْ
يخـتلطُ الـزَّابُ في دِمَـائِهِمْ حتّى غَدَا الزّابُ مشـرباً زَبَـدُهْ

فإنّنا نرى خِفَّةَ أغلبَ ألفاظِ هذه القصيدةِ وتتابعها دون تعقيدٍ.

كذلك نلاحظ خُلُوَّهَا من الغريبِ، ولا يعنِي هذا عدمَ وجود ألفاظٍ غريبةٍ في شعره الحربيِّ؛ فإنّ له منه بعضَ الشّيءِ، ولكنّه لا يُعَدُّ لِغـزارَةِ شعرِهِ وكثرتِه، ومن قوله(١):

يرمِي فما يُشْوِي ويَقتل من رَمَى بِسِـهَامٍ لا هَـدَفٍ ولا بِرْجَـاسِ

فـ: «يُشْوِي»، أي: يصيب غير مقتل، فهو قد أثبت لها الإصابة في المقتل.

و«البرجاسُ»، كلمةٌ مولَّدَةٌ تعنِي: الغـرض يكـون في الهـواء(٢)، فسهامه لا تستخدم لإصابة الهدف، ولا لِما يرمى في الهـواء فيتسـابق

---

(١) ديوانه (١١٦٥/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عبد الله بن طاهر.

(٢) القاموس، مادة: (ب ر ج س).

الفرسانُ إلى إصابته، والذي دعاه الإتيان بهذه الكلمة الغريبة هنا؛ إنّما هو واقعُ التّسمية لذلك الغرض.

ب-التّراكيب:

تراكيب شعر البُحْتُرِيّ حسنةُ السَّبْكِ، جيّدةُ التّأليف.

وللترّاكيبِ عندَهُ دلالةٌ ظاهرةٌ؛ فإنّه ينتقيها انتقاءً فريداً، بحيثُ لو وضع غيرها بدلاً عنها لم يفِ بالمعنَى المرادِ، ومن ذلكَ قوله[1]:

فلم يَبْقَ من أعدائِهِمْ غيرُ موغِلٍ به الخوفُ أو نائي المحلِّ شريدِ
يمزِّقُهُم وقعُ الصّفيحِ فموثَقٌ أسيرٌ، ومسلوبُ الحشاشةِ مُودِ

فإنّه قد أظهر لقاءاتِ كتيبةِ ممدوحيه "الشّهباءِ"، والتي جعلتْ أعداءَهُم؛ فِرْقَةً قد بلغ بهم الخوفُ مبلغاً عظيماً، وعبَّرَ عن ذلك بقوله: ((موغلٌ به الخوفُ))، فَمَثَّلَ الخوفَ شخصاً، ومَثَّلَ قلوبَهُم أرضاً قد سار فيها هذا الشّخصُ حتّى كاد يختفي، فكذلك مبلغُ الخوفِ منهم، ونتيجة لهذا الخوفِ؛ فقد أبعدوا في ديارهم لم يسكنوا بأطرافها كعادتهم، فَشُرِّدوا شَرَّ مُشَرَّد.

وفرقةٌ قد قَطَّعَتهم السّيوفُ، وقد عبّر عن ذلك بقوله: ((يُمَزِّقهم وقع الفصيح))، وهو أدلُّ؛ لأنّ التَّمزيقَ فيه شِدّةُ تقطيعٍ، وإمعانٌ في التّفريقِ، ونسبَ التّمزيقَ للوقعِ لِشدَّتِهِ، و لم ينسبْهُ للسّيوفِ؛ لأنّ العبرةَ بِما تحدثه.

---

(١) ديوانه (٧٧٩/٣).

ونتيجةً لهذا التّمزيقِ فقد تفرّقوا: ففرقةٌ وقعوا قتلى، وفرقةٌ أخــذوا أسرى.

وعبّر عن الأسرى بقوله: «موثقٌ»، وعن القتلى بقوله: «مسـلوبُ الحشاشةِ مَودِ»؛ للدّلالة على شدّةِ الحرب.

وأمّا جُمَلُ تراكيبِهِ؛ فإنّها تتراوح بين الخبرية والإنشائية، وقد تكثُرُ الخبريّةُ في بعضِ قصائدِهِ، ومبعثُ هذا كونُهُ نَظَمَ هذه القصـائد لغـرض المدح، من مثل قوله في مدح المعتزِّ بالله[1]:

لقد زلْزِلَتْ أرضُ الجبالِ بوقعـةٍ ... أسالتْ دماً في كلِّ نشْزٍ وأبطَـحِ
كأنَّ النُّسُورَ الواقعـاتِ عشـيةً ... على نَقْدٍ حولَ الجِمَـارِ مُـذبَّحِ
ولو وقفَ المغرورُ لالْتَبَسَـتْ بـهِ ... زنابيرُ سَرعانُ الخميسِ المُجَـنِّحِ
إذاً لاكْتَسَى كأساً دِهَاقاً من الرّدَى ... متَى يشربِ الباقِي بها يتـرنَّحِ
لقد شَرَّدَتْهُ الخيلُ كـلَّ مُشَـرَّدٍ ... وَطَرَحْنَهُ يومَ الوغى كلَّ مَطْـرَحِ
تَنَـدَّمَ لِمـا أخلفتـه ظنونُـهُ ... وباتت خزايا مُفسدٍ غيرِ مصـلحِ
فراراً وعظمُ الجيش لم يمسِ منـهمُ ... قريباً وتلك الحـربُ لم تـتلقحِ
ولم يأتِ موسى في الموالِي عليهمُ ... سرابيلُ من نسجِ الحديدِ الموشَّـحِ

فَجُمَلُهُ هذه كلّها أخبارٌ، الهدفُ منها: إبرازُ ما حَـلَّ بالأعـداء، وبقائدِهِم خاصّةً، جمعتْ بين الجملِ الإسمية والفعلية، والفعليـة أكثـر، وفائدَتُهَا أبلغُ؛ لأنّها تفيدُ التّجدّدَ والحدوث؛ فإنّ قوله:

---

(١) ديوانه (١/٤٥١-٤٥٢).

تَندَّمَ لَمَّـــا أخلفتْـــهُ ظنُونُـــهُ   وباتت خزايا مفسدٍ غـــيرِ مصـــلِحِ

يفيد بأنّ ندمه ملاحقٌ له يخطر ببَاله كُلَّ يومٍ على فعلَته الشّـــنعاء، وخروجه الغاشم على الخليفة وجنده، وعلى إخفاقه فيما كان يؤمله من انتصار عليهم.

أمّا جُمَلُهُ الإنشائية؛ فتكثر في مطالع قصائده الحربية، لِما فيها مـــن شدٍّ لانتباه المستمعِ؛ فيتطلّع لِما وراء هذا النّداء أو الأمرِ أو النّهْي، ومـــن ذلك المطالع:

يا أخا الأزدِ ما حَفِظَتْ الإخاءَ   لِمُحِـــبٍّ ولا رعيـــتَ الوفـــاء[1]

وقوله[2]:

أمِنْكَ تأوَّبُ الطِّيفِ الطّـــروبِ   حبيبٌ جاء يُهْدِى مـــن حبيـــبِ

وقوله[3]:

أَصَبَا الأصائِلِ إن برقة مُنْشِـــدٍ   تشكو اختلافكَ بالهَبُوبِ السّـــرمدِ

وقوله[4]:

أقصرا قـــد أطلتمـــا تفنيـــدي   ومن الجهـــلِ لـــومُ غـــيرِ سَـــدِيْدِ

---

(١) ديوانه (١/١٣)، يمدح بها أبا سعيد الثّغري.

(٢) ديوانه (١/٩٨)، يمدح بها أبا المعمر الهيثم الغنوي.

(٣) ديوانه (١/٥٥٤)، يمدح بها أبا محمّد، يوسف بن محمّد الثّغرِي.

(٤) ديوانه (٢/٨٠٥)، يمدح بها أحمد بن عبد العزيز بن الشّلمغان.

وقوله[1]:

له الويلُ من ليلِ تطاولَ آخـــرُهُ ووشكِ نوىً حتّى تُــزَمَّ أبــاعِرُهْ

وله جُمَلٌ إنشائيّةٌ تأتِي عرضاً في بعض الأبيات من مثل قوله مُخَاطِباً بنِي زُرَارَة أعداء ممدوحه[2]:

ألله: ألله: كفــوا إنّ خَصْــمَكُم أبو سعيدٍ وضــربُ الأرؤسِ الجَــدَلُ
تَغَنَّموا السّلْمَ إنّ الحربَ توعدُكُم يوماً يعــودُ بـــه صِــفُّونَ والجَمَــلُ
الآن والعذرُ مبســوطٌ لمعتــذرٍ والأمنُ مســتَقْبَلٌ والعفــو مقتَبَــلُ
ولا يغــرَّنَّكُمْ منـــه تبذلُـــهُ بالإذنِ حتّى استوى الأربابُ والخولُ

فإنّ في كُلِّ بيتٍ من جُمَلِه إنشائيّةٌ: «كفوا-تغنموا-لا يغــرّنكم»، ومراده: التّهديدُ لَهم، والتّحذيرُ من مغبّةِ شَــغَبِهم، وبــثّ الرّعــب في نفوسهم، كلّ ذلك جاء ثَمرةً لاستخدامه هذه الجُمَلِ في هذا المقام.

كما يحمد له خلوّ عبارَاته وتراكيبه من التّقديم أو التّــأخير الــذي يؤدِّي إلى تعقيدِ الكلام تعقيداً تَضِلُّ فيه المعانِي، لكونه حريصــاً علــى التّناسق الدّاخليّ المؤدِّي إلى جمال التّعبير.

ومن أمثلة هذا التّناسقِ الدّاخِلِيّ قولُهُ في مدح أبي ســعيد مخاطِبــاً أعداءه[3]:

---

(١) ديوانه (٢/٨٧٦)، يمدح بها أبا محمّد يوسف بن محمّد الثّغري.

(٢) ديوانه (٣/١٧٥٦-١٧٥٧).

(٣) ديوانه (٣/١٧٥٥-١٧٥٦).

بني زُرارَةَ نُصْحاً ما له ثَمَنٌ ... يُرْجَى لديكم وقولاً كُلُّهُ عَذَلُ
وإنّما هَلَكَتْ من قبلكم إرمٌ ... لأنّهم نُصِحُوا دهراً فَما قَبلُوا
مستعصمينَ مع الأروى كأنَّكُمْ ... لا تعلمونَ بأنّ العُصْمَ لا تَئِلُ
أنذرتُكُمْ عارِضاً تدمي مخايِلُهُ ... القطرةُ الفذُّ منه عارِضٌ هَطِلُ
هذا ابن يوسفَ في سَرْعَانَ ذي لَجِبٍ ... فيه الظُّبا والقنا والكيدُ والحِيَلُ
غزاكُمُ بقلوبٍ ما لَها خَلَلٌ ... من خلفها وسيوفٍ ما لَها خلَلُ
قد كان ناراً وعُظْمُ الجَيْشِ مفترقٌ ... بالثّغر إلاّ أُصَيْحَابٌ له قُلَلُ
فكيف وهو يسوقُ اللّيلَ في زَجَلٍ ... من عسكرٍ ما لشيءٍ غيرِهِ زَجَلُ
ولاّكُمُ البغْيَ ثم انسابَ نَحوكُمُ ... بالمَشْرفِيَّةِ فيها الثُّكْلُ والهَبَلُ
وانحازَ مثلَ انحيازِ الطّودِ يتبعُهُ ... رأى يصغّرُ فيه الحادثُ الجَلَلُ
جَرَّ الرّماحَ إلى دربِ الرّماحِ فهلْ ... لَكُمْ عليهِ بقاءٌ أو بهِ قِبَلُ

لقد خلت تراكيبه من التّقديم أو التّأخير المُخلِّ، فالصّورةُ واضحةُ المعالِم في ذهنِ الأديبِ وفي ذهب مستمعه أو قارئه، مع جمالٍ في المفردات والتّراكيب: ((نُصحاً ما له ثَمنٌ))، ((قولاً كلّه عَذْلُ))، ((مستعصمين مع الأروى))، وفيه دلالةٌ على امتناعهم واعتصامهم بالجبال، ولكنّه بدلاً من أن يقول: ((لا يغرّكم سكنكم بالجبال))، أتى بهذه الكناية اللّطيفة، وبدلاً من أن يقول: ((أنذرتكم جيشاً شديد البطش))، قال: ((عارضاً تدمى مخايله))، ولم يقل: ((جيشاً تندي أو تسيل أسنته))، وما شاكلها من التّراكيب، كُلُّها قد أحسن اختيارها فأدّت المعنَى بدقّةٍ ويسرٍ وسهولةٍ، ودون لبسٍ أو غموضٍ.

وامّا المعاظلة المعنوية فتعنِي: «شدّة الارتباط والتّعلّق بين مفردات الكلامِ إلى درجةِ التّصادمِ المعنَويّ الذي يحسّه القارئ حين يفقد الاستراحةَ الذّهنيةَ بين معنًى وآخر...، ولا تعارض بين هذا وبين أن يكون هناك ارتباطٌ وتلاحمٌ وتآزرٌ بين أجزاء الكلام، وإلاّ كان مفكّكاً مبعثراً لا رابط له؛ إذ أنّ هناك فرقاً بين الارتباط بهذا المعنَى الثّانِي وبين الارتباط الذي تتوه فيه المعانِي»[1].

والبُحتُرِيّ كان حريصاً على تَجَنُّبِ هذه المعاظلةِ، وشعره خيرُ شاهدِ على ذلك؛ فإنّنا لا نجد له معنًى قد تعسر فهمه لِعدم حسنِ تركيبه، وهذا لا يعنِي أنّه ليس له معانٍ عميقةٌ، بل إنّ له الكثير من ذلك، ولكنْ شتّانَ ما بين عمقِ المعنَى وبينَ الغموضِ والتّعقيدِ.

ثانياً– الصّور البيانيّة:

الصّورةُ البيانيّةُ تعنِي ما استطاع أن يرسمه خيال الشارع من صورة تُقَرِّبَ لنَا ما يريد الحديث عنه، إمّا بالمجيء بصورةٍ مُشَابِهَةٍ لَها عن طريق التّشبيه، أو الاستعارة أو عن طريق الرّمز والتّلميح والإشارة إلى بعض هذه الصّورة، وهو ما عرف بالكناية، وسأقوم -بحول الله- بدراسة هذه العناصر التِي هي مدار رسم الصّورة عند شاعرنا البُحتُرِيّ بادئاً بالتّشبيه ثم الاستعارة ثم الكناية:

---

(١) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه أبو كرشيه (٢٨).

١- التشبيه:

تكمن فائدة التّشبيه في: (أنّك إذا مَثَّلْتَ الشَّيءَ بالشّيءِ فإنّما تقصد به إثبات الخيال في النّفس بصورة المشابه به أو بِمعناه، وذالك أوكد في طرفي التّرغيب أو التّنفير منه)[١]، وفي (إخراجه الخفي إلى الجليّ وإدنائه البعيد من القريب)[٢].

وللبُحْتُرِيِّ كثيرٌ من التّشبيهاتِ الرَّائعة، ويهمّنا ما جاء منها في شعره الحربِي؛ كمثل تشبيهه فرسانَ ممدوحه وتسابقهم للموت، وإقدامهم على الأعداء وعدم خوفهم منه باليراعِ وهو ما يعرف بالحُبَاحِب:

وعصائبٍ يتهافتون إذا ارتَمى ... بهم الوغى في غمرةٍ هيجاءِ
مثل اليراعِ بدتْ له نارٌ وقدْ ... لفتْهُ ظُلْمَةُ ليلةٍ ليلاءِ

فتصوّر هذا اليراع وقد لفه الظّلامُ من كلّ جهةٍ، فلمح أمامه ضوء نارٍ، فإنّه يتّجه إليها دون خوفٍ أو رهبةٍ لها، وكذا هؤلاء الجند فإنّهم شجعانٌ بواسلُ، لا يخافون غمرات الحروب وويلاتها؛ فيرتَمون في المعمعة دون وجلٍ أو خشيةٍ، لا يهولهم ما يرون، فقلوبهم مطمئنَّةٌ غير هَيَّابة، ولا يخالطها روعٌ أو فزعٌ، وإقدامهم لا يخالطه تَرَدُّدٌ ولا تفكيرٌ بالهرب أو المصير، ومنظر هذا اليراعِ منظرٌ مألوفٌ نشاهده كُلَّ ليلٍ، خاصةً مَن يسير منا في دياجي الظَّلمِ وَسَطَ الفيافي والقفار.

---

(١) المثل السّائر (٣/١٣٠-١٣١).

(٢) جواهر البلاغة لأحمد الهاشِمي (٢٤٧).

وقد كرَّر البُحْتُرِيُّ هذه الصّورة؛ أعنِي صــورةَ الإقــدامِ والمســارعةِ في الاتّجاه ألى العدو وحبٍّ فرسانِ ممدوحه لذلك؛ فقال من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق(١):

يَمشونَ تحتَ ظُبَا السُّيُوفِ إلى الوغى مَشْيَ العِطَاشِ إلى برودِ المشــربِ

فقد شَبَّهَ شوقَهم إلى لقاء العدوِّ، وقد حملوا السيوفَ مُجَرَّدَةً مــن غُمُدها، بلهفة قومِ عطاشٍ رأوا الماء بعد أن كادت أنفسُهُمْ تتلف، فهبوا إليه مُسْرِعِينَ لينقذوا حياهم من الهلكة، فصار مَشْيُهُمْ إقداماً دون تَــرَدُّدٍ، وسرعةً دون تباطؤٍ، مما يدل على استبسالهم وسرعة نجدهم.

وقد رَدَّدَ البُحْتُرِيُّ هذه الصّورة في موضعٍ آخر عن الطّريق التّشبيه الضِّمنِي، وإن كان عنِيَ به ممدوحه ، إلاَ أنَّ فيه تصويراً لِجنوده -أيضاً- لأنّه لا يتحرّك إلاّ بِهم(٢):

تَسَرَّعَ حَتَّى قال من شهدِ الوغَى لقاءُ أعــادٍ أم لقــاءُ حبائــبِ

فقد شبّه إقدامه على الأعداء دون خشيةٍ أو رهبةٍ، ودون وهــلٍ أو اضطرابٍ وهو مطمئنُّ البالِ، رخي النّفسِ، مع سرعةٍ في الاتّجاه، وعــزمٍ على اللّقاءِ، شبّهه بِمَن هو على موعدٍ بأصحابٍ له، قد طالت فرقته لهم، فهو فرحٌ بلقائهم، مقبلٌ نحوهم، بوجهه هاشّ باشّ، طليقٌ مستنيرٌ، مشتاقٌ إليهم.

---

(١) ديوانه (٨٢/١).

(٢) – ديوانه : (١٧٢/١) من قصيدة يمدح بها أبا سعيد .

هذا، وللبُحْتُرِيِّ في الخيلِ عدّةُ تشبيهاتٍ، فقد شبّهها في مجالِ الإعداد للحرب بالجِبَالِ المفتولة؛ فقال(١):

أتى دونها نأيُ البلادِ ونَصُّنَا سَوَاهِمَ خيلٍ كالأعنةِ ضُمَّرِ

فشبّهها بأعنة الخيلِ مشيراً إلى ضمورها الشّديد مع قوّة البنية، فهو ضمورٌ محمودٌ.

وشبّه الخيلَ في مجالِ الاتّجاه إلى الأعداء مرّةً بالقطا المتتابع بكدرته، تحتَ ستارِ الظّلام قاصدةَ الماء؛ فقال(٢):

لقد بعثتَ عتاقَ الخيلِ ساريةً مثل القطا الجُونِ يتبعنَ القطا الجُوْنا

ففي هذا التّشبيه عدّةُ دلالات:

- حرص القائدِ على السُّرَى ليلاً، حتّى يباغتَ الأعداءَ.

-كونهم يمشون بنظامٍ كما يظهر القطا، حين طَلَبِه الماء ليلاً؛ فإنّه يذهب جماعات متتاليةً دون تداخلٍ.

-السُّرْعَةُ في السّير مِمّا يدلّ على قوّة هذه الخيلِ وصلاحيتُها للقتال.

-كثرة ما علاهها من غبارٍ حتّى صارتْ جُوْناً مع ظلمةِ اللّيل، وفيه الإشارةُ إلى متابعة السّير.

هذا، وقد كرّر البُحْتُرِيُّ الإشارة إلى سرعتها في قوله(٣):

---

(١) ديوانه (٩٨١/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن دينار.

(٢) ديوانه (٢٢٠١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا الجبيش بن خمارويه.

(٣) ديوانه (٢٢٥٣/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها المتوكّل على الله.

بفوارسٍ مثلِ الصّقورِ وضُــمَّرٍ مجدولــةٍ ككواســرِ العِقبــانِ

فقد شبّهها بالعِقْبَانِ المنقضَّة على صيدِهَا؛ فإنّها تكون مسرعةً إليه أشدَّ ما سرعة.

وفي قوله: «كواسرِ»؛ إيحاءٌ بالشّدّة؛ فإنّ العقابَ إذا كان كاســراً، كان أشرسَ ما يكون، فهذه الخيلُ شديدةُ الوطأة على الأعــداءِ حينمــا تنقض عليهم.

وشبّهها لسرعَتِهَا حال الاتّجاه إلى الأعداءِ وتتبّع آثارهم ومراقبــة تحرّكاهم بالجنادب في قوله(١):

فِي كُلِّ دربٍ قد أباتَ جيــادَهُ تَهوي هُوِيَّ جنادبٍ في حَرْجَــفِ

ويبدو أنّ من خصائص الجنادب الوثبَ؛ فكان جرى الخيل إنّما هو وثباتٌ طويلةٌ، وهذا الذي يجعلها كأنّها تطير في الهواء، وإذا مــا هبــتِ الرِّيحُ أجبرت الجنادبَ على تتابُعِ الوثبِ؛ لأنّها لا تستقرُّ مــع الــرِّيحِ، وبذلك تكتملُ الصّورةُ المرادةُ للخيل.

ومن بديعِ ما له من التّشبيهات: تشبهُهُ رماحَ ربيعــة إذا تقــابلوا، وكان كُلٌّ منهم قد أخذ كاملَ عدّتِهِ، فقد شبّه هيئةَ الرِّماحِ المنهمرةِ مــن كُلٍّ من الصّفّينِ المتقابلَين على بعضٍ، مرّةً بعد مرّةٍ مع كثرتها، بهيئة نخــلِ

(١) ديوانه (١٤١٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد الثّغري.
والحَرْجَفُ: الرّيح الباردة الشّديدة.

سُمَيْحَة[1]، إذا أمالت —الرِّياحُ جانباً من نخيلِ هذا الحائطِ على الجانبِ الآخر، تراكبَ سعفُهُما على بعضٍ[2]:

تُصَوَّبُ فوقَهُمْ حِزَقُ العوالِي وغابَ الخطِّ مهزوزُ الكعوبِ
كنخلِ سُمَيْحَةَ استعلَى رَكيبٌ تكفِّيهِ الرِّياحُ على رَكيبِ

ودلالة التّشبيه على قوّة الفريقينِ ظاهرةٌ، وعلى استكمالهما كاملَ العدّة، وعلى اعتمادهم على الرّماحِ أكثر من غيرها، لِما تقوم به الرِّماحُ من صَدٍّ للأعداء، ومن الفَتِّ في أعضادِهِمْ قبل التّلاحم.

ومن تشبيهاته الحِسِّيَّةِ الدّالَّةِ على كثرة القتلى من الأعداء وعملِ السّيوفِ فيهم، قوله[3]:

كأنَّهُمُ تحتَ السُّيوفِ غرائِبٌ من البُدْنِ سيقَتْ يومَ عيدٍ إلى النَّحْرِ

فشبّههم والسُّيوفُ عاملةٌ فيهم بإبل الهدي التي يتقرّب المسلمون بدمائها إلى الله تعالى أيّام النّحر، ودلالةُ التّشبيه ظاهرةٌ في كثرة القتلى، وكونهم قد صاروا جُثَثاً هامدةً، قد انتشروا في ميدان المعركة انتشار الأضاحِي، وذلك لقوّةِ المعركةِ، وقوّةِ جيشِ ممدوحِهِ؛ إذ عملوا في أعدائهم هذا العمل.

(١) بئر قديم بالمدينة النبوية ، غزيرة الماء . انظر القاموس مادة: (س م ح).
(٢) ديوانه (١٠١/١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا المعمر الهيثم الغنوي.
(٣) ديوانه (١٠٨٤/٢)، من قصيدةٍ فخرية.

هذا، وقد كرّر الصّورةَ مرّةً أخرى، ولكنّها للقتلى بعد انتهاء المعركة حين وقوع النُّسُورِ عليها، فشبّه جُثَثَهُم والحالة هذه بِغَنمٍ مذبَّحَة يوم النّحر حول الجمار في منًى، فَما أشبعه من منظرٍ! وقد زاده الشّاعِرُ بشاعةً حين شبّه جُثَثَهُمْ بِجِنْسِ النَّقَدِ من الغَنَمِ، فصارِ الأرجلِ قباحِ الوجوهِ، يُضْرَبُ المثل بها في الذِّلَّة؛ فقال(١):

كأنَّ النُّسُورَ الواقعاتِ عشيةً   على نَقَدٍ حولَ الجمارِ مُذَبَّحِ

وفي البيت دلالةٌ على فرحِ النُّسُورِ بالمعارِك، وأنّها تقعُ على القتلى حال خلوِّ الميدان.

وفيه دلالةٌ –أيضاً– على كثرةِ القتلى، وأنّه لا يمكن دَفْنُهُم.

وفيه إبرازٌ لِمَدى شناعةِ المعارك.

وللبُحْتُرِيّ تشبيهاتٌ مبتذلَةٌ لا يرقى بها إلى مستوى ما سبق لكثرة تَوارُدِها ووضوحها، منها:

تشبيهُهُ ممدوحه، وهو في ميدانِ المعركةِ كارّاً على الأعداء بالقمر المتلالئِ، وسيفَهُ بالكوكب اللامع،بقوله(٢):

وتراه في ظلمِ الوغى فتخالُهُ   قمراً يَكرُّ على الرِّجالِ بِكوكبِ

(١) ديوانه : (٤٥١/١) من قصيدة يمدح بها المعتز بالله.

(٢) ديوانه (٨١/١)، من قصيدةٍ يمدح بها مالك بن طوق.

والعجيبُ في الأمر؛ أنّ العلوِيَّ صاحبَ الطّراز يرى أنّ هذا التّشبيهَ من أبدع التّشبيهات الدّالّةِ على وضوح التّشبيه، وهو متابعٌ في هذا لابن الأثير الذي جعل البيتَ من بدائع التّشبيهات؛ فقال:

((وفي هذا البيت تشبيهُ ثلاثةِ أشياء بثلاثة أشياءَ؛ فإنّه شبّه العجاجَ بالظّلمةِ والممدوحَ بالقمرِ، والسّنانَ بالكوكبِ، وهذا من الحسن النّادر))[1].

وله أبياتٌ أخرى يشبّه القائدَ فيها بالقمرِ مرّةً، وبالبدرِ أخرى، وسيفَهُ بالكوكبِ أو الشّهاب، وكُلُّها متبذلةٌ كثيرةُ التّوارِدِ على ألسنة الشّعراء.

ب-الاستعارة:

الاستعارةُ فَنٌّ من فنونِ القولِ، وصورةٌ من صور البيان.

((ومن الفضيلةِ الجامعةِ فيها أنّها تُبْرِزُ هذا البيان أبداً في صورةٍ مستجدَّةٍ، تزيد قدرَهُ نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً، وإنّك لتجد اللّفظةَ الواحدةَ قد اكتسبت بها فوائدَ؛ حتّى تراها مكرَّرَةً في مواضعَ، ولها في كُلِّ واحدةٍ من تلك المواضع شأنٌ مفردٌ، وشرفٌ متفرِّدٌ....

ومن خصائصها التي تُذكَرُ بها، وهي عنوانُ مناقبها: أنّها تعطيك الكثيرَ من المعانِي باليسير من اللّفظ؛ حتّى تُخْرِجَ من الصّدفة الواحدة عدّةً من الدّرّ...

(١) المثل السّائر (١٥٢/٢)، ورأي ابن طباطبا في طرازه (٢٧٩/١).

حتّى إنّك لترى بها الجمادَ حيّاً ناطقاً، والأعجمَ فصيحاً، والأجسامَ الخرسَ مُبِيْنَةً، والمعانِي الخَفيَّةَ باديَةً جليَّةً»[١].

وقد تفنَّن فيها الشّعراءُ وأبدعوا؛ فحسن بذلك شعرُهُم على مقدارِ إجادتهم فيها، وللبُحتُرِيّ فيها شواردُ وبدائعُ، فمن ذلك قوله في وصف السّيف[٢]:

حَمَلَتْ حمائِلُهُ القديمةُ بقلةً من عهدِ عادٍ غَضَّةً لم تَذبُلِ

فدلّل على نقاء حديدِ هذا السَّيْفِ، بأنْ جعله أخضرَ شديدَ الخضرةِ، وهذا مِمّا يحمد لِمعدنِ السّيوف، ولكنّه بدلاً من أنْ يقولَ حديده أخضر، قال: «بقلة غضّة لم تذبل»، وجاء بهذين القيدين إمعاناً في الوصفِ بالخضرةِ، وهذا ما حدا بابن الأثير أن يقول عن هذه الاستعارة: «وهذا من الحُسْنِ على ما يشهد لنفسه»[٣].

ومنها: وصفه للمَرْكَبِ الذي غزا به أحمد بن دينار الرّومَ[٤]:

إذا عصفت فيه الجنوبُ اعتلى لَها جناحا عُقابٍ في السّماءِ مُهَجِّرِ

فقد مثّل الشّراعُ الذي أرسله الملاّحونَ، وقد ضربته الرِّيحُ بجناحي العقابِ، وقيَّدَ هذا التّشبيهَ بكونه في السّماءِ وقتَ الهاجرَةِ، وذلك؛ لأنّ

(١) أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجاني (٣٢-٣٣).

(٢) ديوانه (١٧٤٨/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن عليّ القُمِيّ.

(٣) المثل السّائر (١١١/٢).

(٤) ديوانه (٩٨٢/٢).

الجوارِحَ في مثلِ هذا الوقت ترتفعُ في الجوِّ، وتَمُدُّ جناحيها مع إمالتــها، وهي تدورُ حولَ مكامِنِ فرائِسِها، وهكذا يبدو الشّراعُ فقد قرّب هــذه الصّورة الحسِّيَّة بصورةٍ حسيَّةٍ مثلِها.

ومن استعاراته ما جاء به ليدلِّلَ على قوّة ممدوحه القائد الثّغــري، وعلى مدى صبره على القتالِ، في أصعب الأَجْواءِ وأشدّها ضَنْكاً، حينما يضربُ الشّتاءُ بجِرَانِهِ على الأرضِ، فتتساقطُ الثُّلوجُ على قُممِ الجبــال، فتبدّل سوادَها وَحُمرَتَها بياضاً ناصعاً، ولكن البُحْتُرِيّ بدلاً من أن يفصحَ عن هذه المعانِي بِمثل هذا الكلامِ جاء بصورةٍ مختصرةٍ مُشعَّةٍ تعطِي المرادَ وتوضِّح البغيةَ وذلك في قوله(1):

حين أبدتْ إليك خَرْشَنَةُ العلْـ ـيَـــا من الثّلجِ هامَةً شمطاءَ

فقد شبّه هذه المدينة (خَرْشَنَة) بالشّيخ الكبير الذي غدا رأسه أبيضَ كالثّغامة(2)، فحذف المُشبَّه ورمز إليه بشيءٍ من لوازمــه، وهــو الهامــة الشّمطاء على سبيل الاستعارة المكنية.

ومثلُها تصويره جوَّ المعركة وقد علاه الغبارُ فأظلمَ؛ حتّى غدا لــيلاً مُدْلَهِمّاً، ولكن جندَ ممدوحه كشفوا هذه الظّلمةَ المُدْلَهِمَّةَ، بما صَبُّوه فوق رؤوسِ الأعداءِ من نبالٍ أطلقوها من قسيِّهِمْ؛ فإذا اصطدمتْ بما قابلــها من سهامِ الأعداءِ ودروعِهِم قدحَ شرراً جَلَّى هذه الظّلمة(3):

(1) ديوانه (١/١٧).

(2) الثُّغَام: نبتٌ أبيضُ الزّهر يكثر في الجبال. القاموس، مادة: (ث غ م).

(3) ديوانه (٣/١٤٥٤)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد الثّغرِي.

كشفوا بـ(تل كُشَافَ)أَرْوِقَةَ الدُّجَى عن عارِضٍ مَلأَ السَّماءَ بروقـا

ففي البيت ثلاثُ استعارات:

الأولى في قوله: «أروقةَ الدُّجَى»؛ استعارةٌ مكنيةٌ؛ لأنّه شبّه الظّلمةَ النَّاجِمَةَ من كثرة الغبار ببيت الشَّعْرِ أو الخيمة، وحذف المُشَبَّهَ به، ورمز إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو: (الرّواق)، والمراد به:شقته التي دون الشقة العليا[1].

والثّانية والثّالثة في قوله: «عارضٍ ملأَ السّماء بروقا»؛ فقد شبّه كثرة الرِّماحَ غزارَهَا وتعاقبها مع تطايرِ شررِهَا بالسّحاب ذي البروقِ الكثيرةِ،الذي ملأ السماء بروقا، ثم حذف المُشَبَّهَ وذكر المُشَبَّهَ به «عارض... بروقا» مكانه.

ومن بديع استعاراته: وصفُهُ لخيلِ ممدوحه التِي أنهكها السَّيرُ وقطعُ الفيافي والقفارِ، حتّى ضَمِرَتْ، وجعله إداماهَا الوَجِيْفَ-وهو نوعٌ من السَّير وضربٌ من ضروبه-، وما استلبه منها من الشّحم واللّحمِ، وكأنّها قد استعاضت به عن هذا، فصار كسوةً لَها، يعوضها ما فقدت من ذلك؛ فقال[2]:

قد طـواهُنَّ طـيُّهُنَّ الفيـافِيْ واكتسينَ الوجيفَ حتّى عرِيْنَـا

(١) القاموس مادة : (ر و ق).

(٢) ديوانه (٢١٦٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد الثّغري.

فقد شبّه السّيرَ باللّباس وجعل إدامَتَهُ وكثرةَ ما سارتْ كالكِسْوة لَها، بيد أنّها كسوةٌ في الظّاهرة تحتها عِرْيٌّ نَجَمَ عنها، لِما ذهب عنها من لُحُومِهَا وشُحُومِها، ونحن إذا سمعنا هذا الوصفَ؛ خُيِّلَ إلينا أنّ هذه الخيلَ لَن تستطيع السَّيرَ وإنجازَ البطولاتِ، بيد أنّ الشّاعِرَ أبطلَ هذا التَّخَيُّل بقوله(١):

جُلْنَ في يابِسِ التُّرَابِ فَما رُمْنَ طِعَاناً حتّى وطِئْنَ الطِّينا

فقد أشار إلى أنّها قد حولت ترابَ أرضِ الأعداءِ من اليبوسةِ إلى اللُّدُونَةِ، لِما أسالته من دماءٍ عليه، ولِمَا وَطِئَتْهُ حين جَوْلاها في الميدانِ، وبهذا؛ فإنّ هذه الاستعارة دلّت على وصفِ هذه الخيلِ بالقوّة وبالمرانِ والصّبرِ على قطعِ هذه المسافاتِ الشّاسعةِ، ودلّتْ أيضاً على شجاعةِ هذا القائدِ الذي يقودها، ومدى تحمّله المشاقَ والصّعابَ؛ حتّى قطعَ هذه الأرضينَ وسار بها هذا السّير المُكلّ.

ومن استعاراته الموحية التي تصوِّر ما لَحِقَ العدوَّ من الذّلّة والمهانة قوله(٢):

حالِي الذّراعينِ والسّاقين لو صدَقتْ له المُنَى لتَمَنَّى أنّهُ عُطُلُ

(١) ديوانه (١٧٥٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٢) ديوانه (١٧٥٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

فقد شبّهه وهو مقيدٌ في يديه ورجليه بالفتاة، التِي قد زُيِّنَتْ بالإساورِ والخلاخِلِ، واشتقّ من الحُلِيّ اسم فاعلٍ، وهو: (حالِي)، على سبيلِ الاستعارةِ التّبعيّة.

وممّا زاد الصّورة إمعاناً في مشابهةِ النِّساء قوله: «لو صدقَ له المُنَى لَتَمَنَّى أنّه عُطُلُ»، ففيها إشعارٌ يُخيّبهُ آماله وضياعِ ما كان يرجوه، وتحسرُهُ على ذلك، وأنّه لا ينفعُهُ، ولم يقل: «لَتَمَنَّى أنّهُ مطلق الوثاق قد خُلِيَّ سبيلُهُ»، ولكنّه قال: «لَتَمَنَّى أنّه عُطُلُ» تشنيعاً عليه وشماته به؛ لأنّ لفظة: «عُطُلُ» من الألفاظ الخاصّة بوصفِ النِّساء.

ومن استعاراته التِي صوّر فهيا ميدانَ الوغَى ومعتركَ الأقرانِ، حينَ حَمِيَ الوطيسُ، واشتعلَ لَظَى الحربِ وحَمِيَ أوارُها، وقَلَّ تحتَ لَهِيْبِهَا صبرُ الأشاوسِ قوله[1]:

يَحسُنُ الذِّكرُ عنهم والأحاديـــ ـــثُ إذا حدَّثَ الحديدُ الحديدا
في مقامٍ تَخرُّ في ضنْكِه البِيْــ ـــضُ على البِيْضِ ركعاً وسجودا

فقد مثّل هيئةَ السّيوفِ وهي في أيدي الفرسانِ بين يدٍ ترفَعُ سيفاً، وأخرى تَخْفِضُ آخر، فتوقِعُهُ على هامِ أحدِ الأعداء، فتكونُ الخفضةُ قصيرةً، وهو السّيفُ (الرّاكِعُ) ويدٍ أخرى يطيش بها السّيفُ من يد حامِلِه، فيسقُطُ على الأرضِ أو يهوِي، فكأنّما خَرَّ ساجِداً، فقد مثَّلَ السُّيوفُ وهي في هذه الحالةِ بشخوصٍ متقابلةٍ، وحذف المشبَّه به، ورمزَ

(١) ديوانه (١/٥٩٣)، من قصيدةٍ فخريّةٍ.

إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو الرّكوع والسّجود على سبيل الاستعارة المكنية.

وفي قوله: ((مَقَامٍ تَخِرُّ في ضنْكِهِ))، وصف لبشاعَةِ الموقفِ وضيقِ ميدانِ الحربِ، فالسُّيوفُ تسقط منه سقوطاً، ممّا يفيدُ شدَّةَ الحربِ وصبرَ فرسانِ قومِهِ الذين يفختر بهم، وهي جملةٌ مؤكّدةٌ لقوله آخر البيت قبله: ((إذا حَدَّثَ الحديدُ الحديدا))، كما أنّ هذه الجملة استعارةٌ مكنيةٌ -أيضاً-، قرينتها تبعيةٌ، فقد جعل للحديد حديثاً، ولكنّه حديثٌ مفزعٌ مخيفٌ يَصُمُّ الآذانَ، ويُرَوِّعُ قلوبَ الفرسانِ، وفيه إشارةٌ إلى قوّة الحربِ وشجاعةُ مَن يديرُ رحاها.

ج ـ الكناية:

الكناية من فنون البيان، و((مَظْهَرٌ من مظاهر البلاغة، وغايةٌ لا يصل إليها إلاّ مَن لطف طبعه وصفت قريحته، والسّرُّ في بلاغتها أنّها في صُوَرٍ كثيرةٍ تعطيك الحقيقةَ مصحوبةً بدليلها، والقَضِيَّةَ وفي طَيِّها برهانُهَا))[(١)].

وهي: ((وادٍ من أوديةِ البلاغة، وركنٌ من أركان المجاز، وتختصّ بدقّةٍ وغموضٍ))[(٢)].

وسرُّ بلاغتها: ((أنّها تضع لك المعانِيَ في صورةِ المحسوسات))[(٣)].

(١) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي (٣٥٤).

(٢) الطّراز (١/٣٦٤).

(٣) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي (٣٥٤).

والمراد بَهَا: «أن يريد المُتَكَلِّمُ إثباتَ معنًى من المعانِي فــلا يــذكره باللّفظ الموضوعِ له في اللّغةِ، ولكنْ يَجيءُ إلى معنًى، هو تاليه وَرِدْفــه في الوجود، فيُومِئُ به إليه، ويجعلُهُ دليلاً عليه»(١).

وللبُحْتُرِيِّ كناياتٌ لطيفةٌ جاءتْ في عرضِ قصائدِهِ الحربيّةِ من مثل قوله في الفتح(٢):

ومستشرِفٍ بينَ السّماطينِ مشــرفٌ   على أعينِ الــرّائينَ يعلــو فيرتَبــي
يغضونَ فضلَ اللّحظِ من حيثُ ما بدا   لَهمْ عن مَهيبٍ في الصّدورِ مُحَبَّبِ

فإنّه وصف هذا القائد بأوصافٍ حقيقةٍ، ولكّنهُ لم يرد مُجرَّدَ هــذه الحقيقة، إنّما عُنِيَ ما هو أهمّ من ذلك، مِمّا يمدح به القادة: «فإنّه كنَّــى عن إكبار النّاسِ للمدوحِ وهيبَتُهُمْ إيّاه، بغضِّ الأبصارِ الذي هو في الحقيقةِ برهانٌ على الهيبةِ والجلالِ»(٣).

وهي كنايةٌ عن صفةٍ، فقد أثبــتَ لِممدوحِــهِ صــفةَ الإجــلالِ والاحترامِ.

(١) دلائة الإعجاز (٦٦).

(٢) ديوانه (١/١٩١-١٩٢).

(٣) جواهر البلاغة، أحمد الهاشمي (٣٥٤).

ومثلها قوله في وصفِ شُجاعَةِ فرسانِ أبِي سعيد[١]:

أبناءُ موتٍ يطرحونَ نُفُوسَــهُمْ تَحتَ المنايا عندَ كُــلِّ لِقَــاءِ

فقد دلّل على شجاعة جند هذا القائد، بَأَنْ نَسَبَهُمْ إلى الموت وجعل بينهم وبينه رحماً، فجعلهم له أبناءً ،وفي هذه النّسبة ما يدلّ على أنّهم يحرِصُون على الموت أكثر من حرصِهِمْ على الحياة؛ لأنّهم خلقوا للموتِ لا لَها، ومن أجل ذلك فهم يطرحون أنفسهِم طرحاً تحتَ المنايا مسارعةً في تحقيقٍ ما خلقوا من أجله.

ومن كناياته اللّفظية: وصفُهُ لأرضِ أعدائِهِ بكثرةِ الأسودِ والسّباعِ فيها، وكثرةِ الأشجارِ الملتفةِ حولَ أَغْيَالِ السّباع؛ فقال[٢]:

وأعهدُ أرضَهُم أعدى ســباعاً وآشــبُ دونَ عاديــةٍ عرينــا

فكنّى بهذا الوصف عن منَعَةِ أرْضِهِمْ وقوّتِهِم، ويدلّ عليه في بيان إبراز قوّة ممدوحه، وأنّه أحال تلك الدّيّارَ القويّة المنيعةَ قاعاً صفصفاً، قوله[٣]:

فتلك جبالُها عادتْ ســهولاً وكانتْ قبلَ مَغْــزَاهُ حُزُونــا

---

(١) ديوانه (١/١١).

(٢) ديوانه (٤/٢٢١٠)، من قصيدةٍ يمدح بها إذكوتكين.

(٣) ديوانه (٤/٢٢١٠)، من قصيدةٍ يمدح بها إذكوتكين.

ومثله قوله بعده(١):

وكانوا جمــعَ مملكـــةٍ فـــآبُوا　　　طوائـــفَ في مخـــابيهم عِزِيْنـــا

فإنّه وصفهم بتفرّقِ الجمعِ بعد أن كانوا مَمْلَكةً مهيبةَ الجانبِ قويِّةَ الجند، مُمَنِّعَةً، وبعد أن صبَّ عليهم ممدوحه أذكوتكين لَهيبَ حروبه التِي قال عنها(٢):

أباح حمي الدّيالمِ في حــروبٍ　　　سقتْ هِيْمَ القنا حتّــى روينــا
إذا طلبوا لَها الأشباه كانـــتْ　　　غرائِبَ ما سُمِعْنَ ومــا رَوَيْنــا

ولكنّ الشَّاعرَ يقصد من وراء هذا المعنَى الحقيقيّ معنًى متوارياً فيه يلحظ منه، وهو أنّ الله أبدلهم ذُلَّةً بعد العزِّ، وخوفاً بعد الأمنِ، فبعــد أن كانوا مجتمعين، كلمَتُهُم واحدةٌ، مرهوبِي الجانبِ، صاروا مُفَرَّقِينَ جماعاتٍ صغيرةٍ، قد علاهم الذُّلُّ والصّغارُ، وتسربلوا الضّعفَ والهوانَ، لا يـــأمنون على أنفسهم، فاختفوا عن الأعينِ تحتَ سراديبِ الأرضِ وفي منعطفــاتِ الأوديةِ ومستوعَرِ الشِّعاب.

ومن كناياته البديعة: قوله في وصف ميدان المعركة، وأنّ الخيلَ قد جالتْ فيه، وقد كان تراباً يابساً، فما هي إلاّ جولاتٌ لَها عليه، حتّـــى

(١) ديوانه (٤/٢٢١٠).
وعزين، جمع: عِزَةٍ، أي: عصبة من النّاس وجاعات. القاموس : (ع ز و).
(٢) ديوانه (٤/٢٢٠٩).

تحوّلَ التّرابُ اليابسُ إلى ثَرىً ظاهرٍ نديٍّ، تخيسُ به حوافرها، والحربُ لم تنته بعد[1]:

جُلْنَ في يابسِ التّرابِ فما رُمْـــ ـــنَ طِعَاناً حتَّى وَطِئْنَ الطِّينـــا

فإنّه كنَّى عن كثرةِ الدّماء التي سالتْ في المعركةِ بتحوّلِ التُّـــرابِ اليابسِ إلى طينٍ نديٍّ، بسبب كثرةِ الدِّماءِ التي أسالتْهَا فرسانُ هذه الخيلِ من رقابِ الأعداءِ التي تساقطتْ، وأشلائِهِمُ التي تناثرتْ، وخيولِهِمُ التي عقرتْ.

وللكناية دلالاتٌ منها: استشعارُ الشّاعرِ قوَّةَ ممدوحه؛ لأنّ الـــذي يعملُ ذلك في أعدائِه، هو خيلُهُ الحاملَةُ جندَهُ، وفرحةُ بالنَّصرِ التي هـــذه مقدّماتُهُ، وإظهارُ شَماتَتِه بالأعداءِ على ما حلَّ بهم.

(١) ديوانه (٤/٢١٦٧).

ثالثاً–القِيَمُ الصّوتيَّةُ:

جمالُ الشِّعْرِ في إيقاعاته ونَغَمَاته، وهي ما وُهِبَتْ حقّاً للبُحْتُرِيّ حتّى قال عنه ابنُ الأثير: «قينةُ الشِّعراءِ في الإطرابِ، وعنقاؤهم في الإغراب»(١).

وقال أيضاً: «أراد أن يشعرَ فَغَنَّى»(٢).

وقال: «وأمّا أبو عبادة فَرَبُّ الألفاظ في ديباجتها وسبكِهَا»(٣).

وقد سبقه إلى ما لَحَظَ القاضِي عليٌّ بن عبد العزيز الجرجانِي؛ فقال في وساطته –بعد أن أورد شعراً للبُحْتُرِيِّ مشيراً به إلى جمالِ صَنْعَتِهِ مع عدمِ تكلُّفِهِ: «ثم تأمّل كيف تجدُ نفسكَ عن إنشاده،وتفقدْ ما يتداخلك من الارتباح، ويستخفّك من الطّرب إذا سمعته...»(٤).

هذا، وليس المَقَامُ مقامَ حصرٍ لِمَنْ أُعْجِبَ بِشعرِه؛ فقد ذكرنا جُلَّ ذلك قبل(٥)، ويُهمّنا الحديثُ عن أهمِّ عناصرِ القِيَمِ الصّوتيّةِ المتوافرةِ في شعر البُحْتُرِيّ وهي:

---

(١) المثل السّائر (٣/١٥١).

(٢) المرجع نفسه (٣/٢٧٠).

(٣) المرجع نفسه (٣/٣١٥).

(٤) الوساطة (٢٧).

(٥) ص (٩٠) من الرّسالة.

أ- الوَزْنُ.
ب- القَافِيَةُ.
ج-المُوسِيقِيُّ الدّاخِلِيَّةُ (الإيقاعُ).

أ- الوَزْنُ:

«ما هو إلاّ تقطيعٌ موسِيقيٌّ جذّابٌ يَجعله الشّاعِرُ أداةَ سحريَّةَ يلاعب بها مشاعر ذوي الحِسِّ»[1].

وإذا نظرنا في أوزان شعر الحرب لدى البُحْتُرِيّ وجدنَا أكثرها من بحورِ الطّويلِ والكامل ثُم الخفيفِ والبسيطِ، وهذه البحورُ مِمّا يتناسبُ وشعرُ الحرب؛ لأنّ شعرَ الحربِ من الأمور الجادَّةِ؛ فوجب أن يحاكي بِما يناسبه من الأوزانِ الفخمةِ الرصينةِ، بيد أن له قصائد في الغرض نفسه جاءت من البحورِ الغنائيةِ من مثلِ المتقاربِ والرملِ والمنسرحِ[2].

أمّا عن كيفية اختيار البحر المناسب؛ فإنّ هذا مِمّا اختلف فيه النّقاد؛ فإنّ منهم مَنْ ذكر بأنَّ العرض هو الذي يفرض نوع البحر، وهذا

(١) الكامل في النّقد الأدبِي، كمال أبو مصلح (١٠٨).
(٢) كنت قد أجريت دراسةً على خمسٍ وخمسين قصيدةً حربيّةً له منها (١٩) من الطّويل، و(١٦) من الكامل، و(٧) من الخفيف، و(٦) من البسيط، و(٣) من الوافر، وقصيدةتان من الرّمل، وأخريان من المتقاربِ، والمنسرح.

ما أشار إليه حازم القرطاجني قَديْماً[١]، ولكنّهم لا يعنونَ أنّه يَفْرِضُ عليه بحرَ الطّويل مثلاً، إنّما يعنون بأنَ الغرضَ يَفرِضُ عليه وزناً فخماً لا غير.

ومنهم مَن نفى وجودَ هذه العلاقةِ بين الغرض والبحرِ، وقد أشــار إلى ذلك الدّكتور شوقي ضيف في كتابه في النّقْد الأَدَبي[٢].

ومنهم مَن قال: «من الأفضل ترك الحريّةِ للشَّاعرِ؛ لأنّه هو الــذي يستطيع أن يدرك أيَّ وزنٍ من الأوزان أنسب لحالته النّفسيّة وَغَرَضِــه، وهو الذى يستطيع أن يُحَدِّدَ الموقف الخاصَّ دُونَ التَّقَيُّدِ بما يملى عليه من الخارجِ، وبالرّبطِ بين حالتِه وبين منا اهتدى إليه، يســتطيع أن يســتوفي تَجربته الشِّعْريَّةَ، ويستوعبَ ما يجيش في نفسهِ وخواطرِه، ثم لِيَكنْ هــذا الوزنُ على أيِّ بَحرٍ من بحورِ الشّعر»[٣].

وهذا الأخيرُ هو أقربُ الآراءِ إلى طبيعةِ الشِّعرِ وإحساسِ الشّاعرِ، مع أنّه ينبغِي ألاّ نُغْفِلَ العلاقةَ بين الغرضِ والبَحرِ الذي يناسِبُهُ، فشواهدٌ ذلك في الشِّعرِ كثيرةٌ.

---

(١) حازم القرطانِي، أديبٌ مغربيٌّ من علماء البلاغة والبيان، تــوفِّيَ في تــونس (٦٨٤هـــ)، ومن مؤلّفاته: منهاج البلغاء وسراج الأدباء.

وانظر ما أشار إليه من كتابه هذا: (٢٦٦)، تحقيق: محمّد الحبيب بن الخوجة، ط (٢)، ١٩٨١م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٢) في النّقد الأدبِي، د/ شوقي ضيف، (١٥٢).

(٣) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه أبو كريشه (٣٣).

من هنا؛ نقول: إنّ البُحتُرِيَّ شاعرٌ كانَ يَحرِصُ على جمالِ النّغمِ في كُلِّ مان يختارُ من بُحورٍ شعريَّةٍ.

فمن بُحورِ البُحتُرِيِّ الطّوالِ قولُهُ في مدحِ أبي الحسينِ بنِ صفوانٍ العقيليّ[1]:

ماضي الحسامِ إذا حَدُّ الحُسَّامِ نبا ... ثَبْتُ الجنانِ إذا قلبُ الجبانِ هَفَا
رَبُّ الغرائمِ لو رادى بأصغرِهَا ... ذوائبَ الهَضْبِ من رضوى لقد رَجَفا
سائلْ سُلَيْماً به إذْ ماق جاهلُهَا ... حَيْناً، فأدركه مكروهُ ما اقترفَا
من حَيْنِهِم أن غلوا بغياً فغادرهمْ ... فُرْطُ الغلوِّ لأطرافِ القنا هَدَفَا
أتوكَ يُزْجِيْهِمْ للحَيْنِ جاهلُهُمْ ... مُسْتَقْدِماً بِهِمْ للبغي مُزْدَلِفَا
في كُلِّ يومٍ صدورُ السّمرِ مُشْرَعةٌ ... تمري نجيعاً على أعجازِهِمْ نُطَفَا
أمطرتَ أَرْؤُسَهُمْ ضَرْباً تركتَ به ... مأثورةَ السّمرِ منآداً ومُنْقصِفَا
يَستَنْزِلُ القونسَ المحبوكَ مُنْبَتِراً ... من وقعِهِ ويخوضَ النّثرةَ الزَّغَفَا
كأنّ وقعَ سيوفِ الهندِ سابحةً ... في هامِهِمْ حَشُّ نارٍ تحتَها سَعَفَا
كم مُقْعَصٍ منهمُ تدمَى ترائِبُهُ ... ولاحِجٍ في وثاقِ الأسرِ قد رَسَفَا
أولى لَهُمْ لو بِغَيرِ الطّاعةِ اعتصمُوا ... لاستمطروا عَارِضاً من سَطْوةٍ قَصَفَا

فالقصيدة من بحر البسيطِ وهو: «أخو الطّويل في الجلالة

---

(١) ديوانه (٣/١٤٣٤-١٤٣٥).

والرّوعة»(١).

وقوّةُ البحرِ ظاهرٌ في جَلْجَلَتِه، وحسنُ جرسِهِ، وما يظهرُ فيه من جَلْجَلةٍ مصاحبةٍ لعنفِ كلامِ الشّاعِرِ، مِمّا يشدّ الإسماع ويحيرُها، أتعجّبُ بموسيقاه ظاهرةً الحسنِ أو بكلامِ الشّاعرِ وألفاظهِ العنيفة.

ومِمّا حَسَّنَ نظمه اتّصالُ ألفِ الوصلِ بحرفِ الرّوي (الفاء) الذي يشعرُ امتدادُ الصّوتِ حتّى انقطاعه بِمآلِ أعداءِ ممدوحِهِ، وانمحاقِهِمْ حتّى بادوا وهلكوا.

هذا عَدَا ما في البحرِ من إبرازِ عواطِفِ الشَّاعِرِ الفِرِحِ النَّشوانِ بِمآلِ هؤلاء القومِ، المُدِلِّ بِما آل إليه أَمْرُهُم مِن شتاتٍ وفرقةٍ، إلى أن طلبَ من سامعِهِ أن يسأل (سُلَيْما)عن مآلهم لَمّا بغوا وجهلوا،فالبحرُ طويلُ التّفاعيلِ يعينُ على الحوارِ ويعطِي الشَّاعِرَ نَفَساً أطولَ، يتحدَّثُ فيه عمّا شاء، وهو مَجالٌ خِصْبٌ للتّقريعِ والتّوبيخِ أو إسداءِ النّصحِ،أو التّدقيق في الوصفِ.

وزيادةً في إيضاحِ خصائصِ البحورِ الطّويلة، وبيانِ مدَى استثمارِ البُحْتُرِيّ لَها، نوردُ مثالاً آخر لَها من قصيدةٍ وصفَ بها لوناً آخر من الحروبِ، على بحرِ الطّويلِ، وبَحرُ الطّويلِ قرينُ البسيطِ في الصّلاحيةِ لِشِعْرِ الحربِ، وهو بَحْرُ الجلالةِ والفخامةِ بلا مدافعٍ، وبحرُ الملاحمِ دون شَكٍّ، ساعدَ على ذلكَ خفاءُ الجرسِ فيهِ، مِمّا جَعَلَهُ أصلحَ الأوزانِ للأوصافِ

---

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب، د/ عبد الله الطّيّب (٤١٤/١)، دار الفكر، بيروت، ط/ الثّانية، عام ١٩٧٠م.

الملحميَّةِ، وذلك لأنّ انزواءَ الجرسِ خلفَ كلامِ الشَّاعرِ وعدمَ مصاحبته له ،ومزاحمَته لمعانيه يُضْفِي على القصيدة جدِّيَّةً وجلالاً، وتكــون دندنَتُــهُ كالإطارِ الجميلِ يُحيطُ بالصّورة، يَزيْنُهَا ولا يَشْغَلُ النَّاظرَ عن حُسْنِهَا[١].

وهذه القصيدةُ هي التي مدحَ بها أحمدَ بن دينارٍ، ويُهمُّنَــا منــها وصفٌ المركبِ وجندِ الممدوحِ وجندِ الأعداءِ، ثم وَصْفُهُ للمعركةِ الحربيّة.

فقد قال في وصف المركب[٢]:

غدوتَ على الميمونِ صُبْحاً وإنّما ... غدا المركبُ الميمونُ تحتَ المُظَفَّرِ
أطلَّ بعطســفيه ومــرَّ كأنّمــا ... تَشَوَّفَ من هادي حِصَانٍ مُشَهَّرِ
إذا زمجرَ النُّــوْتِيُّ فــوقَ عَلاَتــه ... رأيتَ خطيبــاً في ذؤابَــةِ مِنْبَــرِ
يغضونَ دونَ الإشتيامِ عيــونَهُمْ ... وفوقَ السّماطِ للعظــيمِ المــؤمرِ
إذا عصفتْ فيه الجنوبُ اعتلَى لَها ... جناحا عُقَابٍ في السّماءِ مُهَجِّــرِ
إذا ما انكفا في هبوةِ الماءِ خلتَــهُ ... تَلَفَّــعَ في أثنــاءِ بــردٍ مُحَبْــرِ

ثم بدأ في وصف جندِ ممدوحهِ:

وحولَكَ ركابونَ للهولِ عــاقروا ... كؤوسَ الرّدى من دارِعينَ وحُسَّرِ
تَميلُ المنايا حيثُ مالتْ أكَفُّهُــمْ ... إذا أصلتوا حَدَّ الحديــدِ المــذكَّرِ
إذا رشقوا بالنّارِ لم يكُ رشــقُهُمْ ... لِيُقْلِــعَ إلاّ عــن شــواءٍ مقتَّــرِ

ثم وصف جندَ أعدائه:

---

(١) المرجع السّابق (١/٣٦٣).

(٢) ديوانه (٢/٩٨٢-٩٨٥).

صَدَمْتَ بهم صُهْبَ العَثَانيْنِ دونَهُمْ ضرابٌ كإيقادِ اللّظـى المتسـعّرِ
يسوقون أسطولاً كـأنّ سـفينَهُ سحائبُ صيفٍ مِنْ جَهَامٍ وممطرِ

ثم بدأ في وصفِ المعركة:

كأنَّ ضجيجَ البحـرِ بـين رمـاحِهِمْ إذا اختلفتْ تَرجيعُ عَـوْدٍ مجرجـرِ
تُقَـارِبُ مـن زحفـيهِم فَكَأَنّمـا تُؤَلِّفُ من أعنـاقِ وحـشٍ مُنَفَّـرِ
فَما رمتَ حتّى أجلتِ الحروبُ عن طُلَىً مقطعـةٍ فـيهمْ وهـامٍ مُطَيَّـرِ
على حـينَ لا نقْـعَ يطوّحُـهُ الصَّـبا ولا أرضَ تلفي للصّـريعِ المقطّـرِ

ثم تحدّث عن فرارِ قائد الأعداءِ أمامَ ممدوحه:

وكنت ابنَ كسرى قبلض ذاكَ وبَعْدَهُ مَلِيّاً بأن توهِي صفاةَ ابـنَ قيصـرِ
جدحتَ له الموتَ الذُّعافَ فعافَـهُ وطَارَ على ألواحِ شُـطْبٍ مسَـمَّرِ
مضى وهو مولَى الرِّيحِ يشكُرُ فضلَهَا عليه ومن يولَ الصّـنيعةَ يَشْـكُرِ
إذا المـوجُ لم يُبْلِغْـهُ إدراكَ عينِـهِ ثنى في انحدارِ الموجِ لَحظةَ أَخْـزَرِ
تعلّق بـالأرضِ الكـبيرةِ بعـدما تقنَّصه جـري الـرّدى المتمَطّـرِ

فالشَّاعِرُ قد اختارَ لِوصفِ هذه الغزوةِ بحراً فَخمَ التَّفَاعيلِ يناسـبُ جلالَها وخطرها، ويتناسبُ والصّورَ التي أَلَّفَها خيالُ الشَّاعِرِ، فقد تَحمَّلَ هذا البَحرَ صوراً مركَّبةً عنيفةً، تعجزُ عن تَحمُّلِهَا البُحورُ قصيرةُ الوزن.

ومن ذلك تصويرُهُ القائدَ مهيبَ الطّلعةِ الذي لا يتمكّنُ الفرسانُ من النّظرِ إليه:

يغضُّونَ دونَ الإشتيامِ عيونَهُمْ وفوقَ السّماطِ للعظِـيمِ المـؤمَّرِ

وصورةَ الفرسانِ، وقد جعل الهولَ ذلولاً لَهم، مع وَصْفِهِمْ بِحُبِّ الموتِ حتّى كأنَّه خمرٌ، قد عاقروها، وهم ما بينَ متسربلٍ درعَهُ وآخرَ حاسرٍ:

وحولَكَ ركّابونَ للهولِ عاقروا كؤوسَ الرّدى من دارعينَ وحُسَّرِ

وفي قوله: «رَكَّابونَ للهولِ»، إشعارٌ بأنّ هذه الصّفة قد صارتْ «غَريزةً وطبيعةً فيهم، وما كان ذلك إلاّ من هذه الكثرةِ التي تفيدها صيغةُ المبالغة: فَعَّال»[1].

ثم وصفهم: «بأنّ المنايا تسيرُ في ركابهِمْ، كأنّها لا تُحْدِثُ إلاّ بأيديهم، فهي مرتبطةٌ بِهِمْ ارتباطَ المُسبَّب بالسّبب، وهنا يجعلُهَا الخيالُ شيئاً محسوساً متحرّكاً، يرى بِجوارِ أكفٍّ هؤلاءِ الجندِ، وهم يجعلونَ السّيوفَ والرِّماحَ في كُلِّ اتّجاه»[2].

تَميلُ المنايا حيثُ مالتْ أَكُفُّهُمْ إذا أصلَتُوا حَدَّ الحديدِ المذكَّرِ

حَقّاً إنّها صورةٌ مرعبَةٌ، مخيفةٌ للأعداءِ، نتيجتُها حَتميَّةٌ.

ومنها: وصفُهُ لجندِ الأعداءِ بشدّةِ البأسِ والشّجاعةِ، وقد رسم لَهم صورةً مخيفةً حينما وَصَفَهُم بِـ"صُهْبِ العثانينِ"، فهي صورةٌ لَهم لم يتعوَّدْهَا العربُ، وتوحي لديهم بالشّرِّ؛ لأنّ صهبةَ الشّعرِ تستدعي حمرةً في الوجه:

---

(١) الخيال الشّعري في شعر الوصف عند البُحتُرِيّ، د/ طه أبو كريشه (١٧١).

(٢) الخيال الشّعريّ في شعر الوصف، عند البُحتُرِيّ، د/ طه أبو كرشية (١٧١).

صدمت بهم صُهْبَ العَثَانِيْنَ دونَهُمُ ضِرَابٌ كإيقادِ اللَّظَى المتسعِّرِ

وممّا زاد الصُّورةَ إمعاناً في الشَّرِّ والشِّدَّة قوله: «صَدَمْتَ»؛ فيبدو منها «شِدَّةُ اللِّقاء، وثقلُ الالْتِحَام...، فاللِّقاءُ تصادمِيٌّ، والمعركة متلاحمةٌ، والواقعُ أنها شديدُ الوطأةِ على الأعداءِ، بعد أن أصابَتْهم صدمةُ هؤلاء الجند»[١].

أمّا البحورُ القصيرةُ فلم أجدْ له عليها قصائدَ حربيةً؛ لعدمِ مناسبتها الشِّعرَ الحرْبِيَّ، بيد أنّ له شعراً على بُحورٍ غنائيّةٍ كالرَّمَلِ والوافرِ والمتقاربِ والرّملِ أقصرُ من الوافر، وممّا له على بحر الرَّملِ قوله في وصْفِ معاركَ قادَها أبو جعفر الطَّائيُّ[٢]:

ما انتهى الأعداءُ حتّى ناقلتْ حُصُنُ الخيلِ بأبناءِ الحُصُنْ
كُلَّما احمرَّ لَهَا البأسُ شنتْ وهيَ ممّا وطئتْ حُمْرُ الثُّنَنْ
سكَّنَتْ من شغْبِ بغدادُ وَقَدْ كان جَيَّاشَ النّواحِي فسكنْ
وعلى دارات خَفَّانَ وَقَدْ أَخْلَفَ الهيصَمَ ما كان يَظُنْ
شاهرات خَلَفَهُ مأثورةً من سيوفٍ ما تقي منها الجُنَنْ
تَرَكَ الرِّيفَ وَعَلَيَّ يبتغي في أبانينَ عيَاذاً وقَطَنْ
يَحْسَبُ الأرطى زها الجيش وَمَنْ هَنشُ الحيَّةُ يُفزِعُهُ الرَّسَنْ
ولو استأنف رشداً لاطَّبَى عطفَ مَنَّانٍ إذا استُعْطِفَ مَنْ

(١) المرجع السّابق (١٧٢).

(٢) ديوانه (٤/٢١٥٦، و٢١٥٧).

فهذه القصيدةُ من بَحرِ الرَّمَلِ، ونَغَمُ الرَّمَلِ وموسيقاه خفيفةٌ رشيقةٌ، فهو بَحرٌ متدفّقٌ متقطّعٌ: «مسرعُ النَّغمَاتِ متلاحِقُهَا، مع وقفةٍ قوِيَّةٍ سرعانَ ما يتبعها إسراعُ وتلاحِقٌ».

ويغلبُ عليه أسلوبُ الخطابةِ مع رنينٍ ظاهرِ الأثرِ في نغمتِهِ، وتلاحُقِ عَجُزِهِ بصدرِهِ.

وفيه دلالةٌ ظاهرةٌ على العاطفة المصاحبة له، وكُلُّ ذلك ظاهرةٌ في هذه الأبياتِ، فالتَّلاحُقُ والوقفاتُ السّريعةُ في مثل قوله: «حتّى ناقلتْ، ثنتْ، ممّا وطئتْ، سكنتْ، وقد...».

والرَّنينُ ظاهرٌ في كُلِّ فقرةٍ، ومن أمثلته: «كُلّما احْمَرَّ»، بتردّد حرفِ الرّاءِ في الفَمِ.

«شاهراتٍ، من سيوفٍ»، فالتّنوينُ يُدَوِّي ويَلِجُّ في الإسماعِ، وفيه إحساسٌ ظاهرٌ بنشوة النَّفسِ ،وسعادَتِهَا بالظّفرِ والانتصارِ، حتّى تكادَ ترقُصُ طرباً.

ودلالَتُهُ على العاطفة العنيفةِ هنا ظاهرةٌ، وتبدو في وصفِهِ شدَّةُ البأسِ بالإحمرار: «كُلَّما احمرَّ لها البأس»، وفي تصويره كثرةَ الدّماء المراقةِ إلى أن تلطّخت بها الخيل: «ثنتْ وهي مِمّا وطِئَتْ حمرُ الثُّنَنْ»، وفي فَرَحِهِ بنتائجِ هذه المعاركِ المحمودةِ من تسكينِ الشَّغَبِ والغلبةِ على الأعداءِ، وفي الشّماتة بهم:

شاهراتٍ خلفُهُ مأثورةٌ من سيوفٍ ما تقي منها الجُنَنْ

وفي التّهكمِ بالعدوِّ الفارِّ:

تركَ الرِّيفَ وعَلَّى يبتغِي في (أبانَيْنَ) عياذاً و(قَطَنْ)

ب-القافية:

أكثر قوافِي البُحْتُريّ الحربيةِ على روي الباء[١]،والنّون[٢]، ويليهما الدّال[٣]، والرّاء[٤]، واللام[٥]، والميم[٦].

وقافية الباء من القوافِي شديدةِ الجرسِ، ممّا أَكْسَبَهَا مناسبةً لشعرِ الحربِ، ومثلُها قافيةُ الميمِ، وتزيدُ قِيمَتُهَا الصّوتيةُ إنْ أتيا في بُحورٍ طويلةٍ كالطّويلِ والبسيطِ والكامل.

وقد نَظَمَ البُحْتُرِيُّ على روي الباء عشرةَ قصائدَ خمسٌ على بحرِ (الطّويلِ)، وثلاثُ على (الكامل)، واثنتان إحداهما على (البسيط)، والأخرى على (المتقارب).

هذا، وله ثلاثُ قوافٍ على الهمزِ[٧]، وقافيتان على الجيمِ[٨]،

(١) ديوانه (١/٧١، ٧٨، ٩٨، ١٠٤، ١٢٢، ١٧٧، ١٨٤، ١٩٠، ٢١٩، ٢٨٩).

(٢) ديوانه (٤/٢١٥٣، ٢١٦١، ٢١٨١، ٢٢٠٠، ٢٢٠٧، ٢٢٥١، ٢٢٦٦، ٢٢٧٠، ٢٢٧٥).

(٣) ديوانه (١/٥٠١، ٥٣١، ٥٤٤، و٢/٦٦٧، ٦٧٤، ٧٣٥، ٨٠٥).

(٤) ديوانه (٢/٨٧٦، ٩٧٠، ٩٨٠، ٩٨٦، ١٠٠٤، ١٠٨١).

(٥) ديوانه (٣/١٦٨٠،١٥٩٩، ١٧٣٧، ١٧٥٤، ١٨٧٤، و١٩٠١).

(٦) ديوانه (٣/١٩٤٠، ١٩٦٥، ١٩٨٣، ٢٠١٥، و٤/٢٠٨٠، ٢١٢٧).

(٧) ديوانه (١/٥، ١١، ٥٨).

(٨) ديوانه (١/٣٩٩، ٤١١).

وأخريانِ على الفاءِ[١]، وأربعُ على الحــاءِ[٢]، والسِّــينِ[٣]،والعــينِ[٤]، والقاف[٥].

أمّا قوافي قصائدِهِ الحربيّة من حيثُ الإطلاقُ والتّقييــدُ فأكثرهــا مطلقةً.

أمّا القوافِي المقيّدةُ منها فقليلةٌ، لا يتجاوزُ عددُهَا السّبعَ مــن بــين قصائدِهِ الخمسِ والخمسين التي أُجْرَيتُ عليها الدّراسةَ.

والملاحظةُ أنّه لا يأتِي بالقوافِي المقيَّدةِ إلاّ من بحرٍ خفيفَ التّفاعيلِ؛ كبحرِ الرَّمَلِ، فقد أتَى منه بقافيتين: إحداهما شديدةُ الجَرسِ[٦]، والأخرى خفيفته، ورُوِيُّهَا النّونُ[٧].

كما قد يصل فوقيهِ شديدَ الجرسِ؛ كالباء والرّاء واللام والدّالّ بهاء وصلٍ مقيّدة، تزينُ القافيةَ وتحبِّبُها إلى النّفسِ، إذا ما علمنا أنّها من ذواتِ البحورِ الطّويلةِ، أو التِي كثيراً ما يتحاماها الشّعراءُ، وقد أُدْخِلَ هذه الهاءَ على خمسِ قصائدَ حربيةٍ من الطّويل[٨].

(١) ديوانه (٣/١٤١١، ١٤٣٢).

(٢) ديوانه (١/٤٥٠).

(٣) ديوانه (٢/١١٦٥).

(٤) ديوانه (٢/١٢٥٣).

(٥) ديوانه (٣/١٤٤٥).

(٦) ديوانه (٢/٦٦٧).

(٧) ديوانه (٤/٢١٥٣).

(٨) ديوانه (١/٢١٩، و٢/٧٣٥، ٨٧٦، و٣/١٦٨٠، ١٨٧٤).

ومن الأمثلة على القوافي الذُّلُلِ التي استخدمها البُحْتُرِيُّ في شِعْرِه الحربيِّ قافيةُ الرّاءِ، فقد نَظَمَ عليها قصيدَتَهُ التي وصف بها المركبَ البحريَّ وجندَه والمعركةَ البحريّةَ، وقد تقدّم سردُ أبياتها عند الحديث عن الوزن[١]، والرّاءُ التي جعلها رويّاً لهذه القصيدةِ حرفٌ مجهورٌ مرقّقٌ بين الشّدَّة والرّخاوةِ، بيد أنّه اكتسبَ التّفخيمَ ممّا سبقه من حروفٍ مفخمَّةٍ أو مرقّقةٍ شديدةِ الجهرِ مع تشديدهَا من مثل قوله: (مظفَّرِ، مشهَّرِ، مؤمَّرِ، مهجّرِ، محبَّرِ، وحسَّرِ المذكَّر، مقتَّرِ...).

وفي هذه القافية إيْحَاءٌ بصوتِ البحرِ المدويّ حين تلاطمِ أمواجه، وما يحدثُ لَها حين ذلك من دويٍّ مُمْتَدٍ، ولا أدلَّ على ذلك من قوله حينما شبَّهَ صوتَ البحرِ بين أرماحِهِمْ بصوتِ الجملِ الهائجِ:

كأنَّ ضجيجَ البحرِ بينَ رماحِهِمْ إذا اختلفتْ ترجيعُ عَودٍ مُجَرْجِرِ

وصوت الجملِ عند الهيجانِ فيه هذه المَدَّة المدوِّية، ومثلها قوله:

صدمتَ بهم صهبَ العَثَانينَ دونَهُمْ ضرابٌ كإيقادِ اللّظَى المتسعِّرِ

فصوتُ اللَّظَى المتسعَّرِ فيه هذا الدَّويُّ المسرعُ المتتابعُ، ومثلهما قوله:

تُقَارِبُ من زحفيهِمُ فكأنّما تُقَارِبُ من أعناقِ وحشٍ منفَّرِ

فصوتُ الوحوشِ عند نفرانِهَا في هذا الدَّوِيُّ والرّجفانُ والحفيفُ.

ومثل هذه القافية قافيةُ النّونِ المقيَّدة، فالنُّونُ من القوافي الذُّلُلِ السّهلةِ، والتّقييدُ يزيدُ في وقعها في السّمع، وإن صاحبتْ بَحراً رنَّاناً كَبَحرِ

(١) ص (٥٦٧-٥٧٠)، من الرّسالة.

الرَّمَلِ ازدادتْ جمالاً، ودرسنا خاصيَّةَ هذه القافية، لرأينا فيها جمالاً ورنَّةً، وبتعاضِدُهَا مع البحرِ والتّقييدِ اكتسبتْ رنيناً كرَنينِ طبولِ الحربِ كقوله:

سكَّنت من شَغْبِ بغدادَ وقدْ كانَ جياشَ النّوحِي فَسَكَنْ
شاهراتِ خلفَهُ مأثورةً من سيوفٍ منا تقي منها الجُنَنْ

فإذا سمعنا قوله: «الحُصُنْ، الثُّنَنْ، فسكنْ، يُظَنُّ، الجُنَنْ، قَطَنْ...» أيقنّا بِمِيزةِ هذه القافيةِ ووقعها على الأذن، حين سماعها،وحكايَتِهَا لِما كان من شغبٍ، انتهى إلى هدوءٍ.

جـ- الموسِيقِي الدّاخليّة (الإيقاع):

إنّ جمالَ الكلمةِ المفردةِ، وحسنَ جرسِهَا يزدادُ بِما جاوَرَهَا من كلماتٍ، وبِما انضمتْ إليه من تراكيبَ، وقد تقبُحُ ويُشْمَأَزُّ منها، ومِنَ التّركيبِ كُلِّهِ لعدم تلاؤمه، ومنّاسبة بعضه بعضاً، وهذا ما يعبّرُ عنه بالموسيقي الدّاخلية أو الإيقاع، وقد وضّحها الدّكتور شوقي ضيف بقوله: «وراء هذه الموسيقي الظّاهرةِ -أيِ موسيقي الوزن- موسيقي خَفِيَّةٌ تنبُعُ من اختيارِ الشّاعرِ لكلماته، وما فيها من تلاؤم في الحروف والحركات، وكأنّ للشّاعرِ أذناً داخليةً وراء أذنه الظّاهرة، تَسْمَعُ كُلَّ شَكْلَةٍ وكُلَّ حرفٍ وحركةٍ بوضوحٍ تامٍّ، وبهذه الموسيقي الخفيّة يتفاضَلُ

الشُّعراءُ، ولعلّ شاعراً عربيّاً لم يستوفَ منها ما استوفاه البُحْتُرِيُّ، ولذلك كان القدماءُ يقولون: إنّ شعْرَهُ صنعةٌ خفيَّةٌ، فَشِعْرُهُ أصواتٌ جميلةٌ مطرِبٌ...، فهو بلبلُ الشِّعرِ العربيّ يصدح دائماً بأنغامه»[١].

ومن قديمٍ قال القاضِي الجرجانيُّ: «وإذا أردتَ أن تعرفَ موقعَ اللَّفْظِ الرَّشيقِ من القلبِ، وعَظِيمَ غَنَائه في تحسين الشِّعرِ، فتصفَّحْ شعرَ جريرٍ وذي الرُّمَّةِ في القدماء والبُحْتُرِيّ في المتأخِّرين»[٢].

وبعد أن ضربَ أمثلةً لِهَذا من شعرِ البُحْتُرِيّ عَقَّبَ عليها بقوله:

«ثم انظر هل تَجدُ معنًى مُبْتَذلاً ولفظاً مشهَّراً مستعملاً، وهل ترى صنعةً وإبداعاً أو تدقيقاً وإغراباً، ثم تأمَّل كيفَ تجدُ نفسَكَ عند إنشاده، وتفقد ما يتداخلُكَ من الارتياحِ ويتسخفُّكَ من الطَّرْبِ إذا سمعته...»[٣].

والشّاهد من قوله هو إشارته إلى ما يتداخل السّامِعَ من الارتياحِ ويستخفُّهُ من الطّربِ، وهما أمران عائدَانِ إلى ما في شعرِهِ مِن جمالِ الإيقاع.

وشعرُ الحربِ عند البُحْتُرِيّ مليءٌ بهذه الموسيقيّ التي نجمت عن حسن اختياره لألفاظه، وقِصَرِ مفرداته، وترديدِهِ بعضِ المفرداتِ أو الجملِ أو الحروفِ، من مثلِ قوله في مدح أبي الحسين إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبِي[٤]:

(١) في النّقد العربي، د/ شوقي ضيف (٩٧)، ط. دار المعارف الخامسة.

(٢) الوساطة للقاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجاني (٢٤-٢٥).

(٣) السابق (٢٧).

(٤) ديوانه (١/٧٤-٧٦).

وعلى الأميرِ أبي الحسين سـكينةٌ في الرّوعِ يسكُنُهَا الهزبرُ الأغْلَبُ
ولِحَرْبَةِ الإسـلامِ حـينَ يهزُّهـا هولٌ يراعُ له النّفـاقُ ويَرْهَـبُ
تلـك المحمِّـرةُ الـذين تهـافتوا فمشـرِّقٌ في غيِّـه ومغـرّبُ
والخُرَّميـةُ إذ تجمَّـعَ منـهُمُ بجبالِ قُرّانَ الحصـى والأثلَـبُ
جاشوا فذاك الغَورُ منهمْ سـائلٌ دُفَعاً وذاك النّجدُ منهمْ مُعْشِـبُ
يتسرَّعون إلى الحُتُـوفِ كأنّهـا وفرٌ بـأرض عـدوِّهِمْ يتنـهَّبُ
حتّى إذا كادت مصابيحُ الهـدى تخبو وكـاد مَمَـرُّهُ يتقضَّـبُ
ضربَ الجبالَ بِمثلها مـن رأيـه غضبانَ يطعنُ بالحمامِ ويضـربُ
أوْفَى فظنُّوا أنّـه القـدرُ الـذي سمعوا به فمصـدِّقٌ ومكـذِّبُ
نَاهَضْـتَهُمْ والبارقـاتُ كأنّهَـا شُعَلٌ علـى أيـديهِمُ تتلـهَّبُ
ووقفتَ مشكورَ المكانِ كريْمـهُ والبِيْضُ تطفوا في الغبارِ وتَرْسُبُ
ما إن ترى إلاّ توقُّـدَ كوكـبٍ في قَوْنسٍ قد غارَ فيـه كوكَـبُ
فمجـدَّلٌ ومرمَّـلٌ وموسَّـدٌ ومضـرَّجٌ ومضـمَّخٌ ومخضَّـبُ
سلبوا وأشرقت الـدّماءُ علـيهِمُ محمـرَّةً فكـأنّهُمْ لم يسـلبُوا
ولو انّهم ركبوا الكواكبَ لم يكنْ لِمُجدِّهِمْ من أخذِ بأْسِكَ مَهْرَبُ

فهذه القصيدةُ الحربيَّةُ من بَحرِ الكاملِ، وبحرُ الكاملِ مشهورٌ برنينه، ولكامل البُحتُرِيِّ: «رنينٌ قَلّ أن تجد نَظيرَهُ عند غيرِه من الشّعراء، نَغَـمٌ رَنّانٌ، تَنْسَابُ معه الألفاظُ انسياباً؛ فإذا عَنَّتِ الصّورةُ الجميلةُ أو الخـاطرُ

الشِّعْرِيُّ الرّائعُ وافاك ذلك كالبرقِ الخاطفِ، حتّى تكادَ تسألُ نفسَــكَ: أَصْدقٌ هذا أم أنا مسحورٌ؟»(١).

وقد ملئتْ هذه القصيدةُ بالرّنين المنبعث من: «استغلاله الثّلاثِيَّــاتِ من الكلمات، واستعمالِ المصادرِ المُنوَّنَةِ، وألفاتِ المدّ وحروفِ الإشباعِ، كُلُّ ذلك في سلالةٍ وخفّةٍ ورشاقَة»(٢).

فمن استغلاله للثّلاثِيّ من الكلمات قوله: «هَولٌ، وَفَرٌ، شُعَلٌ».

ومن استغلاله للكلمات المُنوَّنَةِ قوله: «هولٌ، وفرٌ، مجدَّلٌ، مرمَّــلٌ، موَسَّدٌ، مضرجٌ، مضمّخٌ، مخضَّبٌ.

ومن استغلاله لألفاتِ المَدِّ: يَسْكُنُهَا، يهزُّها، جاشوا فذاك، كأَنَّهَا، حتَّى إذا كادت مصابيحُ الهدى، الجبال بُمثِّلُهَا..».

ومن استغلاله لِحروفِ الإشباع قوله: «إذْ تَجَمَّعَ منهُمُ، في غَيِّهِ، من رأْيِهِ، على أيديهمُ، كريمَهُ، قد غارَ فيهِ، وأشرقت الدّماءُ عليهمُ».

والقافية كُلُّها مشبعةٌ، والباء إذا أشبعت أحدثت رنينــاً، يصــاحبهُ دَوِيٌّ كأَنَّهُ دَوِيُّ قذائفَ تُصَبُّ عليهم صَبّاً.

ومِمّا زاد من حسن موسيقي هذه الأبيات استخدامه الفعلَ المضارِعَ المضعَّفَ بكثرةٍ، وما فيها من المحسِّناتِ البديعيةِ.

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب، د/ عبد الله الطّيِّب (١/٢٢٨).

(٢) السابق :(١/٢٢٨).

فمن استخدامه الفعلَ المضارِعَ المضعَّفَ المضمومَ الذي حَسَّنَ موسيقي الأبياتِ وجَمَّلَ قافيَتَها، قوله:

يتسرَّعُونَ إلى الحتوف كَأَنَّهَا ... وفرٌ بأرضِ عدُوِّهِمْ يُتَنَهَّبُ
حتّى إذا كادت مصابيحُ الهدى ... تخبو وكاد مَمَرُّهُ يتقضَّبُ

فـ: «يتسرّعون» يفيد الشّجاعةَ المتناهيةَ التي لا تفارقهم أبداً كُلَّما سارعوا إلى حتف عادوا إلى آخر مِثْلِهِ، كالغنائم التي يكرّ عليها الفرسانُ بين آونةٍ وأخرى بحثاً عنها، فازداد البيتُ بهذا التّضعيف المتقطّع المصاحبِ لِحركة الرّاءِ المُضعَّفة، مع ما صاحبه من مَدٍّ صاحبَ واو الجماعة، ومثله: «يتنهَّب، ويتقضّب»؛ فالفعلان مضعَّفانِ مضمومان اكتسبا بالتّضعيفِ حالَين:

فالأوّل: كأنّه فحيحُ أفعى، لكون التّضعيفِ وقعَ في حرفٍ حلقيٍّ.

والثّاني: كأنّه صوتُ رجلٍ قد شُدَّ خناقُهُ، مع ما صاحب التّضعيفَ من الفَمِ، الذي يعطِي دفعةً من الهواءِ بعد انغلاقٍ وانقطاعٍ.

كما جاءت بعضُ أفعاله المضارَعَةِ غير مضعَّفَة، لكنّها أفادتْ موسيقيَ بديعةً، جاءت نتيجةَ العطفِ وتوافُقِ الحركاتِ والسّكناتِ، في مثل قوله:

ضربَ الجبالَ بِمثلِهَا من رأيِهِ ... غضبانَ يطعنُ بالحمامِ ويضربُ
ووقفتَ مشكورَ المكانِ كريْمُهُ ... والبِيْضُ تطفو في الغبارِ وترسَّبُ

ومن توافقِ كلماتِهِ في الوزنِ وقربِ المخارِجِ، قوله:

فمجـــدلٌ ومرمـــلٌ موســـدٌ ومضـــرجٌ ومضـــمخٌ ومخضـــبُ

فبدت موسيقاه بديعةً جميلةً توافُقُ في الوزنِ وقربٌ في المخارِجِ مع ما فيها من تضعيفِ جعلِ كُلَّ كلمةٍ أشبهَ بقرع طبولِ الحرب، أو دقّات المطارِقِ والسُّيوفِ على رؤوسِ القتلى، مع ما أضفاه هذا التّقســيمُ مــن موسيقي بديعةَ.

أمّا ما جاء فيها من محسِّنَات بديعيّة جاءتْ دونَ تكلُّفٍ أو عنــاء، ففي مثل قوله: ((سكينةٌ في الرَّوعِ يسكُنُها))؛ إذ جَمَعَ بينــهما جِنَــاسُ الاشتقاقِ.

وقوله: ((فمشرِّقٌ في غيِّهِ ومغرِّبُ))؛ إذ طابق بين مشرِّقٍ ومغربٍ ، وقوله: ((فذاك الغَورُ))، وذاك النّجدُ، فبينهما طباقُ إيجابٍ.

وقوله: ((سلبوا... لم يسلبوا))، بينهما طباقُ سلبٍ.

وقوله: ((يطعنُ في الحِمَامِ ويضرب))، فيــه الجمــعُ بــين النّظــراء وعطفُهما على بعضهما.

والقصيدةُ مليئةٌ من مثلِ هذا البديعِ العذبِ السّائغِ، الذي حَسَّنَ منه وقوعُهُ ختاماً للأبياتِ، فَيَشْدَهُ الأذهان بِحسنِ نَغَمِهِ مع نغمِ القافيةِ المدوي الرَّنَّانَ.

وهناك أمثلةٌ أخرى للموسيقي الدّاخليّةِ في شعرِ الحربِ عند البُحتُريِّ من مثل قوله(١):

عَقّادُ ألويةٍ تَظَلُّ لَهَا طُلَى ... أعدائِهِ وكَأَنَّهَا لم تُعْقَدِ
مغموسَةٍ بالنَّصرِ تشدو عن يدٍ ... مَمْلوءةٍ ظفراً تَروحُ وتغتدِي
بثَّ الفوائدَ في الأباعدِ والدُّنَى ... حتّى توهمناه مخروقَ اليدِ
يعطِي على الغضبِ الُمتَعْتَعَ والرَّضَا ... وعلى التّهلُّلِ والعُبُوسِ الأرْبَدِ
كالغيثِ يسقي الخابطينَ بأبيضٍ ... من غَيْمِهِ وبأحمرٍ وبأسودِ
يَسْتَقْصِرُ اللّيلُ التّمامَ إذا انتحى ... بالخيلِ ناحيةَ العدوِّ الأبعدِ
لا ناهلُ الأجفانِ إن كانَ الكرى ... خِمْساً لِصَادِيَةِ العيونِ الوُرَّدِ

فتراكيبه: عَقّادُ ألويةٍ، «لم تعقدِ، تروحُ وتغتدي، في الأباعدِ والدُّنى، الغضبِ المتعتعِ والرِّضا، بأبيضٍ من غيمه وبأحمرٍ وبأسودِ، ناحيةَ العدوِّ الأبعدِ»، قد جاءت كُلُّهَا متوائمةً متوازنةً، زاد من حسنها ما فيها من بديعٍ، جاء منساباً دون تكلّفٍ بين طباقٍ -وهو الغالب عليها-، وبين جَمْعِ نظيرٍ، وجِنَاسِ اشتقاقٍ.

ولعلّ حرصَهُ على هذه المحسّنات البديعيّة التي جاءت -في الغالب- من غير إفراطٍ، خاصّةً الطِّباقُ والمقابلةُ والجناسُ وردُّ العجزِ على الصّدور ومراعاةُ النَّظيرِ والموازنةُ بين شطري البيت، هو الذي أضفى عليها الغنائيةَ

(١) ديوانه (١/٥٤٥-٥٤٦)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد يوسف بن محمّد الثّغريّ.

الرَّنَّانةَ التي أطربت آذان مستمعيه، فزادت من إعجابهم بشعره وبحسنِ موسيقاه، وحسنِ سَبْكِه؛ كمثل قوله(١):

تتثَنَّى الرِّماحُ والحربُ مشبوبٌ ... لظَاهــا تثنــي الخَيْــزُرَانِ
كُلَّما مالَ جانبٌ من خميسٍ ... عَدَّلَتْــهُ شــواجرُ الخِرْصَــانِ
فلجتْ حجّةُ المــوالي ضِــراباً ... وطعاناً كمــا التقــى الجمعــانِ
فقتيلٌ تحتَ السّــنابكِ يــدمي ... وأسيرٌ يراقــبُ القتــلَ عــانِي
جلبتــهُمْ إلى مصــارعِ بغــيٍ ... عثــراتُ الشّــقاءِ والخِــذْلاَنِ
كيف لم يقبلوا الأمانَ وقد كا ... نَتْ حيــاةٌ لِمــثْلِهِمْ في الأمــانِ

هذا، والبُحتُريُّ صاحبُ طريقةٍ بديعــةٍ في المحسِّــنات؛ فإنّــه وإن تَعَمَّدها في شعْرِه إلاّ أنّها —في الأغلب- تأتِي من غيرِ تكلُّفٍ مُشِينٍ، وهو لم يأتِ بِها لِذَاتِهَا، بل أتى بها وسيلةً إلى حسنِ النّغمِ وجمالِ الأســلوبِ، وبِما أنّها: «وسيلةٌ؛ فإنّها تظلُّ مقبولةً ما دامتْ لم تَتَحَوَّلْ إلى غاية»(٢).

ومن أكثر ما للبُحْتُرِيِّ من بديعٍ: الطِّباقُ والجِنَاسُ ومراعاةُ الــنّظير وردُّ الأعجازِ إلى الصّدور.

فأمّا الطِّبَاقُ؛ فقد أكثر منه، ورَدَّدَهُ في عددٍ من قصائدِه كثيراً، وقد سبق له شواهدُ في قصيدتهِ منها قوله:

---

(١) ديوانه (٤/٢٢٧٣-٢٢٧٤)، من قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٢) في ميزان النّقد الأدبي، د/ طه أبو كريشه (٣٤).

عَقّادُ ألويةٍ تظلُّ لَهـا طُلَـى أعدائِـه وكَأَنَّهَـا لم تعقَـدِ

ومن أروعِ طِبَاقَاتِهِ التِي جاءت من غير تَكَلُّفٍ قوله(١):

أحسنَ اللهُ في ثوابِكَ عن ثغـرٍ مضاعٍ أحسـنتَ فيـه الـبلاءَ
كانَ مستضعفاً فعَزَّ ومحرومـاً فأجـدى ومُظْلِمـاً فأضـاءَ

فقد طَابَقَ بينَ: «مستضعفاً»، وبين: «عزَّ»، وبين: «محروما»، وبين «أجدى»، وبين «مظلماً»، وبين «أضاء».

ويبدو أنّ البُحْتُرِيَّ يقصد من الطِّبَاقِ إلى ما جاء عفوَ الخاطِرِ، ممّا يزيدُ المعنَى حسناً، ينشرح به الصّدرُ، وتَبْهَجُ به النّفسُ، ويرتاحُ له الفؤادُ.

ويلاحظ كثرَتُهُ في بعضِ القصائدِ ذواتِ البحورِ السّلسـةِ قصـيرةِ الوزنِ، حسنَةِ الإيقاعِ، مثل قصيدته(٢):

أبكاءً في الـدّارِ بعـد الـدّارِ وسُـلُوّاً بزينـبٍ عـن نَـوَارِ

وقوله(٣):

هم أُوْلَى رائحونَ أو غادونـا عن فراقٍ ممسونَ أم مصـبحونا

وأمّا الجِناسُ فإنّ له فيه باعاً لا ينكرُ، وطريقةٌ لا تُدْثَر، وهو أنّه يأتِي منه بِما يخفُ على السّمع ويَبْهَجُ النّفسَ، وأكثرُ ما لهُ من الجِناسِ جنـاسُ الاشتقاقِ، فقد أكثرَ منه؛ لأنّه أخفُّ أنواعِ الجِنَاسِ، ويصدرُ عـن غـيرِ

(١) ديوانه (١٦/١)، من قصيدةٍ مدح بها أبا سعيدٍ

(٢) ديوانه (٩٨٦/٢)، من قصيدةٍ مدح بها أبا جعفر الطّائيّ.

(٣) ديوانه (٢١٦١/٤)، من قصيدةٍ مدح بها أبا سعيدٍ.

تَكلُّف، وله من الجِنَاسِ التّامِّ أبياتٌ قلائلُ لا تقارنُ كثرةً بما له من سابقه، وإن جاء به في قصيدةٍ كان حسنَ الموقعِ جميلَ الإيرادِ، ومنه قوله[1]:

ما انتهى الأعداءُ حتّى ناقلـتْ حُصُنُ الخيل بأنيـاء الحُصُـنْ

فــ: «الحصن الأولى جمع حِصْانٍ بالكسر، وهو الفـرسُ العتيـقُ، والثّانية جمع حَصَان، بالفتح وهو المرأة العفيفة»[2].

ومن بديعِ جناسِ الاشتقاقِ قوله في أبي سعيد[3]:

في كُلِّ دربٍ قـد أبـاتَ جيـادَهُ تهوي هُوِيَّ جَنادبٍ في حَرجَـفِ
جازتْ على(الجوزاتِ)وانكدرت على ظهرٍ من(الصَّفْصَافِ)قاعٍ صَفْصَفِ
صبحنَ من (طَرَسُوسَ) (خَرِشنة) التي بَعُدَتْ على الأملِ البعيدِ الموجفِ
وتركن(ماوَة) وهي مأوىً للصّـدى مشفوعةً بصدى الرِّياحِ العُصَّـفِ

فقد جَانَسَ في كُلِّ بيتٍ من هذه الأبياتِ؛ لكنّها جنَاسَاتٌ سلسلةُ القيادِ، جاءت من غير تَكلُّفٍ أو تعّسُفٍ، فزادت موسيقي البيت جمـالاً وروعةً، هو ما يحرصُ عليه عند التّجنيس.

وأمّا رَدُّ الأعجاز على الصّدورِ فقد أكثر منه البُحْتُرِيُّ يضفيه علـى الشِّعْرِ من جمالٍ وحسنٍ بديعِيٍّ، وربطٍ لأوّل البيتِ بـآخره، وصـدره

---

(١) ديوانه (٢١٥٦/٤)، من قصيدةٍ مدح بها أبا جعفر.
(٢) الحاشية (٢٧) من ديوانه (٢١٥٦/٤).
وانظر: القاموس، مادة: (ح ص ن).
(٣) ديوانه (١٤١٥/٣)، من قصيدةٍ مدح بها أبا سعيد.

بعجزه، وله قصائدُ قد أكثر فيها من هذا الصّبغ البديعيّ، ومنها قصيدتُهُ التي مَدَحَ بها مالكَ بن طوقِ التّغلُبيّ ومطلَعُهَا:

لاَمَتْ على أنَّهَا في الدّمعِ لَمْ تَلُمِ   لكنْ على أنّ فيضَ الدَّمْعِ لم يَدُمِ

ومِمّا جاء فيها من هذا الصّبغِ ظاهراً قولُهُ(١):

شفيتَ سقمَهُمُ لَمّا لَقَيْتَهُمُ   بِسُقْمِ ملحمةٍ تَشْفِي من السَّقَمِ
حطَّمتَ منكبَهُمْ لم حَلَلْتَ بِهِمْ   بمنكبٍ منكَ أضحى غيرَ مُنْحَطِمِ
أورَثْتَهُم ندماً عن غِبِّ ما فعلوا   إن كنتَ أبقيتَ فيهم موضعَ النَّدَمِ
كَأَنّما كان في عِرْنِينه شَمَمٌ   فعادَ أجدعَ بعدَ الطُّولِ والشَّمَمِ

ومن بديعِ ما له في هذا قوله(٢):

يرجُفُ الحِلْفُ في صدورِ قَنَاهُمْ   وتحنُّ الأرحامُ فيهم حنينا

فقد ردّ أوّل العجز إلى آخره فازداد البيتُ موسيقيً وجمالاً.

---

(١) ديوانه (٤/٢١٢٧-٢١٣٠).

(٢) ديوانه (٤/٢١٦٤)، من قصيدةٍ مدح بها أبا سعيد.

رابعاً–شِعْرُ الحربِ والبناءِ الفَنِّي للقصيدةِ عند البُحْتُريّ

لم تأتِ القصيدة عند البُحْتُرِيّ مستقلّةً بشعرِ الحرب، بـــل كانـــتْ مُختلطةً بالأغراضِ الأخرى، كالمدحِ أو الرّثاءِ أو الفخرِ، وما ذاك إلاّ لأنّ هذا هو منهجُ متقدِّمي الشُّعراءِ العرب، ولهذا جاءتِ القصيدةُ الواحـــدةُ متعدّدةُ الأغراضِ، وقد اقتضى ذلك أن يكونَ لكلِّ قصيدةٍ مقدِّماتٌ يُمَهَّدُ بها الشَّاعِرُ لأغراضِه، وقد تطولُ هذه المقدِّماُ أو تقصرُ.

فلهذا، كانوا يحرصون على تحسينِ افتتاحيّاتِ هذه المقدّمات، وقد عرفَ هذا بـــ"حسنِ الابتداء" أو "براعةِ الاستهلالِ"، وهو أوّلُ ما يقـــعُ في السَّمْعِ من كلامِ الشّاعِرِ، فينبغِي أن يعتنى به، وقد «سُئِلَ بَعْضُهُم عـــن أحذقِ الشُّعراءِ؛ فقال: مَنْ يتفقدُ الابتداءَ والمَقْطَعَ»[(١)].

وينبغي للشَّاعِرِ: «أن يتحترز في أشعارِهِ ومفتتحِ أقوالِهِ مِمّا يتطيّـــر منه، ويستحفي من الكلام والمخاطبة والبكاءِ ووصفِ إقفـــارِ الـــدّيارِ، وتشتيتِ الألافِ ونعيِ الشّبابِ وذمِّ الزّمانِ، لاسيما في القصـــائِدِ التِـــي تتضمّنُ المدائحَ والتّهانِي»[(٢)].

فـــ: «إذا كان الابتداءُ حسناً بديعاً ومليحاً رشيقاً، كان داعيةً إلى الاســـــــتماعِ لِمَـــــــا يَجــــــــيءُ بعـــــــده

(١) الصّناعتين، لأبي هلال العسكري، تحقيق: البجاري، وأبي الفضـــل (٤٣٤)، ط. دار إحياء الكتب العربية، الأولى ١٣٧١هـــ/ ١٩٥٢م.

(٢) المرجع نفسه (٤٣١).

من الكلام»[1].

وقد عُنِيَ البُحْتُرِيُّ بِمطالِعِ قصائده، فَحَسَّنَها ورصَّعَها، وأتَى لِكُلِّ غرضٍ بِما يناسبه.

وقد أفرد الآمِدِيُّ جزءً من موازَنَتِه للحديث عن ابتداءات البُحْتُرِيِّ؛ فأثْنَى على جمالِهَا وحسنِهَا، وخِفَّتِهَا على السّمع، وفضّلَها على الكثير من مطالِعِ أبي تَمامٍ، مع ما له من الابتداءاتِ الجيادِ[2].

ومن مطالِعِ البُحْتُرِيِّ الفذّةِ الجميلةِ في قصائدهِ الحربيّةِ قولُهُ:

١-قَلِيْلٌ لَهَا أنّي بِهَا مُغرمٌ صَبُّ ... وإن لم يقارفْ غيرَ وَجْدٍ بها القلبُ[3]

٢-أَصَبَا الأصائِلَ إنْ برقةَ مُنْشِدٍ ... تشكو اختلافَكَ بالهُبُوبِ السّرمَدِ[4]

٣-فيما ابتداركما الملامَ وَلوعا ... أبكيتُ إلاّ دمنةً وربوعا[5]

٤-أَأَفاقَ صَبٌّ من هوىً فأُفيقا ... أم خانَ عهداً أم أطاعَ شفيقا[6]

٥-أهلاً بِذلكُمُ الخيالِ المُقْبِلِ ... فَعَلَ الذي نهواهُ أم لم يفعلِ[7]

(١) المرجع نفسه (٤٣٧).

(٢) الموازنة (١/٤٤٠، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٦٢).

(٣) ديوانه (١/١٢٢)، مطلع قصيدة يمدح بها أبا أحمد بن طولون.

(٤) ديوانه (١/٥٤٤)، مطلع قصيدة يمدح بها أبا سعيد.

(٥) ديوانه (٢/١٢٥٣)، مطلع قصيدة يمدح بها أبا سعيد.

(٦) ديوانه (٣/١٤٤٥)، مطلع قصيدة يمدح بها أبا سعيد.

(٧) ديوانه (٣/١٧٣٧)، مطلع قصيدة يمدح بها محمّد بن عليّ اللّقمي.

٦-كفي الملامةَ أو دومِي على العَذَلِ ما اللّومُ أكثرُ هِمَّاتِي ولا عَـذَلِي[١]
٧-(أَقَصْرَ حُمَيْدٍ) لا عـزاءَ لِمُغْـرمِ ولا قَصْرَ عن دمعٍ ولو كان مـن دمِ[٢]
٨-طفقتْ تلومُ ولاتَ حـينَ ملامِـه لا عنـد كَبْرتِـه ولا إحجامِـه[٣]
٩-أتُرى الزَّمانَ يعيـدُ لِـي أيَّـامي بـينَ القصـورِ البـيضِ والآطـامِ[٤]
١٠-هذي المعاهدُ من سعادَ فسـلِّمِ واسـألْ وإنْ وَجَمَـتْ ولم تـتكلَّمِ[٥]

ولا يعنِي الإجادةَ في الكثيرِ من المطالع عدمُ الإساءة في بعضها؛ فإنّ له مطالعَ متوسِّطةً، وله بعضُ المطالِعِ التِي لا تصلُحُ مستهَلاًّ، كما روي أنّ البُحْتُرِيَّ أنشدَ يوسفَ بن محمّد قولَهُ[٦]:

لك للويلُ من ليلٍ تطاولَ آخـرُهُ ووشكِ نوىً حتّى تُـزَمَّ أبـاعِرُهْ

فقال أبو محمّد: الويلُ لك والحرب[٧].

(١) ديوانه (١٩٠١/٣)، مطلع قصيدةٍ يمدح بها خالد بن يزيد الشّيْبَانِي.

(٢) ديوانه (١٩٤٠/٣)، مطلع قصيدةٍ يمدح بها حميداً الطّوسي وأبناؤه.

(٣) ديوانه (١٩٨٣/٣)، مطلع قصيدةٍ يمدح بها أبا نهشل.

(٤) ديوانه (٢٠١٥/٣)، مطلع قصيدةٍ يمدح بها المعتزّ بالله.

(٥) ديوانه (٢٠٨٠/٤)، مطلع قصيدةٍ يمدح بها الهيثمَ الغنوي.

(٦) ديوانه (٨٧٦/٢).

(٧) سرّ الفصاحة، لابن سنان الخفاجِي (١٨٤)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٩٨٢م، وفي الصّناعتين (٤٣٢)، لكنّها تُروَى للبُحْتُرِيِّ مع أبي سعيد وزاد: «فغيَّره وجعلَهُ (له الويل)».

ومثله قوله في مدح أبي مسلم[1]:

دموعٌ عليها السّكبُ ضربةُ لازمٍ   تُجَدِّدُ من عهدِ الهوى المتقادمِ

فكان الأولى به عدم تصدير البيت بالدّموعِ في مقامِ المدح؛ لأنّ ذلك لا يحسن إلاّ في مقامِ الرّثاء أو الشّكوى فقط.

وعند الانتهاء من عرضِ هذه المقدِّماتِ والدّخولِ في غرضٍ من أغراضِ القصيدةِ؛ فإنّ الشُّعَرَاءَ يَختلفونَ حينئذ بهذا الانتقال بين مُحسنٍ ومسيءٍ، والإحسانُ هو ما عرف بِحسنِ التَّخلُّص.

ولَمّا كان الانتقالُ من غرضٍ إلى غرضٍ ضرورةً كانَ حسنُ التّخلّصِ مقياساً لمقدرة الشّاعِرِ، يتفنَّنُ فيه ويتصرَّفُ فيه تصرّفاً بديعاً، إلى أن أصبحَ باباً من أبوابِ البديع، عُنِيَ به متأخِّرو الشعراءِ، فكانَ لَهُمْ فيه بدائعُ، وأتوا به بغرائبَ، بِخلافِ متقدِّمي الشّعراء؛ فإنّهُم ينتقلونَ من الغرضِ إلى الغرضِ الآخرِ اقتضاباً، أو بقولهم: دع ذا، وعَدَّ عن ذا، وشاعرنا البُحْتُرِيُّ لم يكنْ مثلَهُمْ في هذا؛ إذ كانَ يحرصُ على التّخلُّصِ البديعِ غالباً، إلاّ في قصائدَ لا تعدُّ شيئاً مع كثرةِ شعرِهِ، وقد لحظَ هذهِ الظّاهِرَةَ متقدّمو النّقادِ.

قال ابن الأثير: «والشُّعَرَاءُ متفاوتونَ في هذا الباب، وقد يُقَصِّرُ عنه الشّاعِرُ المفلقُ المشهورُ بالإجادةِ في إيرادِهِ الألفاظَ واختيارِ المعانيَ؛ كالبُحْتُرِيِّ؛ فإنّ مكانَهُ من الشِّعرِ لا يجهل، وشِعْرُهُ هو السَّهلُ المتنعُ

(١) ديوانه (٣/١٩٦٥).

الذي تراه كالشّمسِ قريباً ضؤوها بعيداً مكانُها، وكالقناة لِيِّناً مسُّهَا خشناً سِنانُها، وهو على الحقيقة قينةُ الشّعراءِ في الإطرابِ، وعنقاؤهم في الإغرابِ، ومع هذه؛ فإنّه لم يوفّق في التّخلُّصِ من الغزلِ إلى المديحِ بل اقتضبه اقتضاباً»[١].

ثم ذكر له أمثلةً على ذلك عقب عليها، بقوله: «وله مواضعُ أخرى يسيرةٌ بالنِّسبةِ إلى كثرةِ شعْرِهِ»[٢].

ومن أمثلةِ ذلك من شعْرِهِ الحربيِّ قولُهُ —واصفاً ما لاقتْ إبْلُهُ من جَهْدٍ وضَنًى من أثر السُّرى ليلاً، وتخلَّصَ بذلك إلى مدح ممدوحه[٣]:

والعِيْسُ تَنْصُلُ من دجاه كَما انجلَى ضبغُ الشّبابِ عن القذالِ الأشيبِ
حتّى تجلّى الصبحُ في جنباتِهِ كالماءِ يلمعُ من وراءِ الطُّحْلُبِ
يطلبنَ مجتمعَ العلا من وائلٍ في ذلكَ الأصلِ الزّكيِّ الأطيبِ

ومن بديع ما لَهُ فيه قولُهُ[٤]:

خلِّ عنك النّاسَ لا تُغْرَرْ بِهِمْ واعتمدْ بِحرَ الإمامِ المعتمِدْ

وقوله في مدح يوسف بن محمّد[٥]:

(١) المثل السّائر، لابن الأثير (١٥١/٣).

(٢) المرجع نفسه (١٥٢/٣).

(٣) ديوانه (٨٠/١)، من قصيدةٍ يمدح بها مالك بن طوق.

(٤) ديوانه (٦٦٨/٢).

(٥) ديوانه (٨٧٦/٢).

أدارِهُمُ الأولى بِدَارِهِ جُلْجُلٍ سقاكِ الحيا روحاتُهُ وبواكِرُهْ
وجاءَكَ يحكِي يوسفَ بنَ محمّدٍ فروَّتْكِ رَيّاه وجادَكِ ماطِرُهْ

ومن تَخَلُّصِهِ من وصفِ الرّبيعِ إلى العزلِ قولُهُ في زهرٍ عليه طَلٌّ[1]:

إذا عطفته الرِّيحُ قلتُ التفاتةٌ لِعَلْوَةَ في جاديِّهِا المتعصْفِرِ

ومن بديعِ ما له قولُهُ في مدح الهيثمِ الغنويِّ عندَ حديثِهِ عن الدَّهرِ[2]:

واغترَّ أهلَ البذ من شُرُفَاتِهِمْ حتّى أَصَابَهُمُ بسيفِ الهيثمِ

أمّا عن ختامِ القصيدةِ -وهو داخل تحت عناصر بنائها-؛ فإنّ البُحْتُرِيَّ لم يكنْ مُحسناً للختامِ في أغلبِ قصائدِهِ، فقد كان يقفُ فجأةً دون تمهيد، وهذا عيبٌ ظاهرٌ.

لكنّنا قد نجدُهُ -أحياناً- يُمهِّدُ لنهاية القصيدة بأحد ثلاثة أشياءَ:

أوَّلُهَا: -وهو الأكثرُ- الثّناءُ على قصيدتِهِ، وأنّها تكسو الممدوحَ فخراً يبقى إلى الأبد.

وثانيها: الدّعاءُ للممدوحِ.

وثالثُها: ختمُ أبياتِ القصيدةِ بحكمة.

كما قد يختمها بالعودِ إلى مدحِ الممدوحِ مرَّةً ثانيةً، ولكنَّ هذا لا يشعرنا بنهاية القصيدة.

ومن أمثلة ختامه الحسنِ قولُهُ[3]:

---

(١) ديوانه (٢/٩٨١).

(٢) ديوانه (٤/٢٠٨٢).

(٣) ديوانه (٢/٨١٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغانِ.

ليس حَوْكُ القريضِ بالغٌ فيـــــ ـــكَ بوصفٍ فيكتفي بالقصــيدِ
غيرَ أنّ القريضَ أجمــعُ شــي ءٍ لِمقيمٍ مــن العــلا وشَــرُوْدِ

وقوله(١):

تَهنيكَ جلوتُهَا فخذْها عاتفـــاً فوقَ المنصَّة شمسَــةَ الأعــراسِ
قد قلتُ لما أن نظمتُ حُلِّيَّهـــا والشِّعرُ يبعثُ فِطَنَةَ الأكيــاسِ
لو للفحولِ تَعِنُّ لافتخروا بهـــا ولِجَرْوَلٍ لِحَبَا بَنِــي شَــمَّاسِ

ومن ختامِهِ غير الحسنِ قولُهُ في وصفِ فارٍّ(٢):

حتّى لو ارتشفَ الحديدَ أذابــه بالوقد من أنفاسِــهِ الصُــعَدَاء

وقوله(٣):

وإذا تأمَّلْتَ الزّمــانَ وجدتَــهُ دولاً علــى أيــديهِمُ تتقلَّــبُ

وقوله(٤):

وملأت أحشاءَ العدوِّ بَلابِــلاً فارتدَّ يَحْسُدُ فيك من لَم يَحْسُدِ

---

(١) ديوانه (١١٧٤/٢)، من قصيدة يمدح بها محمّد بن طاهر.

(٢) ديوانه (١٢/١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا سعيد.

(٣) ديوانه (٧٧/١)، من قصيدةٍ يمدح بها إسحاق بن إبراهيم المصعبي.

(٤) ديوانه (٥٤٩/١)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد الثّغريّ.

المبحث الثاني:
الخصائصُ الفنِّيّة من حيث المضمون

يشمل الحديثَ عن المضمون: التّجربةَ الشّعريّةَ والعاطفةَ والأفكارَ:

أولاً–التّجربةُ الشِّعْرِيَّةُ:

التّجربةُ الشِّعرِيَّةُ أو التّجربةُ الأدبيّةُ: «تعبيرٌ مستحدثٌ في مصطلحاتِ النّقدِ الأدبي الحديثِ، وإن كان مضمونُهَا لَم يغبْ من النّقادِ في النّقد العربي القديم»[1].

و«تعني في النّهاية معايشةً كاملةً لإحساسٍ معيّنٍ من بدءِ ملاحظته، إلى تخلّقه فنّيّاً، إلى تشكُّلِه النّهائيّ»[2].

وأهمّ عناصرِهَا –التي تتّحدُ في النّهايةِ فتكونُ ثَمرةَ هذه التّجربةِ–: «عناصرُ الذّاتِ والموضوعِ والخيالِ والعاطفةِ والإحساسِ والفكرِ والموسيقيّ والصّورةِ واللّغةِ وتقنيةِ البناءِ»[3].

---

(١) في ميزان النّقد الأدَبي، د/ طه أبو كريشه (١٧).

(٢) عن اللّغة والأدب والنّقد، رؤيةٌ تاريخيةٌ ورؤيةٌ فنِّيَّةٌ، د/ محمّد أحمد العَزَب، ط

(١) المركز العربي للثّقافة والعلوم (٣٦٧).

(٣) عن اللّغة والأدب والنّقد، رؤيةٌ تاريخيةٌ ورؤيةٌ فنِّيَّةٌ، د/ محمّد أحمد العَزَب، (٣٦٧).

وقد قسّم النّقادُ التّجربةَ الشِّعْرِيَّةَ إلى أربعة أنواعٍ:

١- التّجربةُ الشَّخْصيَّةُ ٢- التّجربةُ التّاريخيّةُ
٣- التّجربةُ الاجتماعيةُ ٤- التّجربةُ الخياليةُ

والتّجربةُ في شعر البُحْتُرِيّ الحربيّ تَجربةٌ شَخصيَّةٌ واجتماعيةٌ؛ لأنّه استنبطها من الواقعِ الذي عاشَهُ، أو حُكِيَ له فدبَّجَهُ قصائدَ، عَبَّرَ بها عَمّا في ضميرِه.

ومن أمثلةِ التّجربةِ الشِّعْرِيَّةِ ونُضْجِهَا لدى البُحْتُرِيّ قولُهُ في مدح أبي سعيدٍ[1]:

طلعتْ جيادُكَ من ربا الجوديِّ قَدْ ... حُمِّلْنَ من دُفَعِ المنـــونِ وُسُـــوقا
يطلبنَ ثـــأرَ اللهِ عنـــدَ عصـــابةٍ ... خلعوا الإمامَ وخـــالفوا التّوفيقـــا
يرمونَ خالِقَهُمْ بـــأقبحِ فعلِهِـــمْ ... ويحرفـــونَ كتابَـــهُ المنســـوقا
فدعا فريقاً من ســـيوفكَ حتفُـــهُ ... وشددتَ في عُقَدِ الحديدِ فريقـــا
ومضى ابنُ عمروٍ قد أساءَ بِعُمْرِهِ ... ظنّـــاً يُنَـــزِّقُ مُهْـــرَهُ تَنْزيقـــا
رَكِبَتْ جوانحُهُ قـــوادمَ روعِـــهِ ... يَحْذِفْنَهُ حـــذفَ المريـــرِ الفُوقـــا
فاجتازَ دجلةَ خائفـــاً وكأنَّهـــا ... قَعْبٌ على بابِ الكُحَيلِ أُريقـــا
لو خاضَها (عِمْلِيقٌ) أو(عوجٌ) إذاً ... ما جَوَّزَتْ (عوجاً)ولا(عِمْلِيقـــا)

(١) ديوانه (١٤٥٠/٣-١٤٥٢).

لولا اضطرابُ الخوفِ في أحشائه ... رَسَبَ العبابُ به فَمَاتَ غريقـا
خاضَ الحتوفَ من الحتوفِ معانقاً ... زَجلا كَفِهْـرِ المَنْجنيـقِ عتيقـا
يجتابُ حَرَّةَ سـلهها ووُعُورِهـا ... و(الطّيرَهـانَ)مـرادُهُ ودُقُوقَـا
لو نَفَّسَتْهُ الخيـلُ لَفتَـةَ نـاظرٍ ... مـلأ الـبلادَ، زلازلاً وفتوقـا
لثنَى صدورَ السُّمْرِ تكشفُ كربةً ... ولوى رؤوسَ الخيلِ تفرجَ ضِـيقا
ولبكَّرتْ بكرٌ وراحـتْ تَغْلـبٌ ... في نصرِ دعوتِـهِ إليـه طروقـا
حتّى يعودَ الذِّئْبُ ليثـاً ضـيغماً ... والغصنُ سـاقاً والقـرارةُ نِيقـا
هيهات مارسَ قُلْقُـلاً متيقظـاً ... قَلْقاً إذا سـكنَ البليـدُ رَشـيقا
مُسْتَسْلِفاً جعلَ الغبوقَ صـبوحَهُ ... ومَرَى(صبوحَ) غدٍ فكان غبوقـا
لله ركضُكَ إذ يبـادِرُكَ المـدى ... ومُبرٌّ سَبْقَكَ إذ أتَـى مسـبوقا
جاذبتَهُ فُضُلَ الحيـاة فأفلتَـتْ ... من كَفِّه قَمنـاً بـذاكَ حقيقـا
فرددتَ مهجتَهُ وقد كَرِعَ الرَّدى ... لِيَحِفَّ منـها منـهلاً مطروقـا
ليس الحديدَ خلاخلاً وأسـاوراً ... فكفينَـهُ التّسـويرَ والتّطويقـا

ونلاحظ أنّ هذه التّجربةَ تتفاوتُ في الوفاء بالغرضِ أو القصور عنه.

فأمّا الوفاءُ فنجده في مثل حديثه عن فِرَارِ قائد الأعداء؛ فإنّه وصف شدّةَ خوفه ورهبته وحذره على عمره، وصوّر ذلك بِصورٍ بديعة، منها:

أنّه جعل لِقلبِهِ قوادِمَ وجوانِحَ، تشبيهاً له بالطّائرِ شديدِ الطّيران.

ومنها: استعارُهُ لعبابِ دجلةَ مع عظمته، فعبرَهُ دَهِشاً؛ كأنّه لـبَنٌ أريقَ من قعبٍ.

ومنها: أنّ جعل عدمَ غرقِهِ لاضطرابِ الخوفِ في إحشائِه، وهذا سببٌ بديعٌ أوجده له.

وأمّا قِصَرُهَا؛ فإنّهُ قد يجتريء –أحياناً– فتبدو معانيه التِي يوردها قاصرةً عن الوفاءِ بغرضه الذي دخل فيه، ومثال ذلك: أنّه أعطانا نتيجةَ المعركةِ ببيتٍ واحدٍ، وكان بإمكانِهِ أن يفصل فيها ويطيل، وهو قوله:

فدعا فريقاً من سيوفك حتفُهُمْ وشددتَ في عُقَدِ الحديدِ فريقا

ومن الملاحظ على تجارب البُحتُريّ أنّه حيما كانت تصله أخبارُ المعركةِ يأخذُ منها ما يبني عليه تجربَتَهُ الشِّعرِيَّةَ، فيُصَوِّرُ هذه التَّجربةَ، ويصلُ بين أغراضها ويمثِّلها؛ فكأنّه رآها رأي العينِ، وكثيراً ما يشير إلى وصولِ هذه الأخبارِ، ثم يصفُ بعضَ ما سمعه منها، ويضفي عليها من خيالِهِ ما يجعلها قريبةً من الواقعِ، من مثله قولِهِ في مدح الخليفةِ المعتمِدِ على الله(١):

مَظفَّر ما تكاد تسري من الآفا ق إلاّ بِمفرحٍ بُرُدُهْ
أرسالُ خيلٍ إذا أَطَلَّ بها على أقاصي ثَغْرٍ دَنَا أمَدُهْ
إن رُفِعَتْ للعدي قساطِلُهَا أنجزَ صرفُ الزّمانِ ما يَعِدُهْ
واقعنَ جمعَ الشّراةِ محتفلاً بالزّابِ والصّبحُ ساطِعٌ وَقَدُهْ
غداةَ يومٍ أعيا على عُصَبٍ من المحلِّينَ أن يكرَّ غَدُهْ

(١) دواينه (٢/٧٣٧-٧٣٨).

أين نجوا هـــاربينَ عارضَـــهُمْ باغٍ من الموت مُشْـــرِفٌ رَصَـــدُهْ
باتوا وبـــات الخطـــيُّ آونـــةً مُنْشَـــبَةً في صـــدورِهمْ قَصَـــدُهْ
يخـــتلطُ الـــزّابُ في دمـــائِهمُ حتّى غدا الـــزَّابُ مُشْـــرباً زَبَـــدُهْ

فإنّه سمعَ بأخبارِ هذه الوقائِعِ فوصفَ خيلَ ممدوحِـــهِ المتّجهَـــةِ إلى الأعداءِ، ووصفَ جمعَ الشَّرَاةِ ووقفَ التّقاءِ جندِ ممدوحِهِ بهـــم، وصـــفَ الحربَ وشدَّةَ يومِهَا، وما دارَ فيها، كُلُّ ذلك بِصورٍ بديعـــةٍ مَثَّلَهَـــا رأيَ العينِ.

ثانياً–العاطفة:

«يقصد بالعاطفة الحالّة التي تتشبّع فيها نفس الأديب بموضعٍ أو فكرةٍ أو مشاهدةٍ يؤثّر فيه تأثيراً قويّاً يدفعه إلى التّعبير عن مشاعرِهِ والإعراب عمّا يجول في خاطرِهِ»(١).

ونوعُ هذه العاطفة المصَاحِبَة لِشعرِ البُحْتُرِيِّ الحربيّ عاطفةٌ دِينيّةٌ ترى أنّ هذه الحروبَ الدّائرةَ بين الإسلامِ والكفرِ، أو بينَ الخليفةِ والخارِجين عليه نصرٌ للإسلامِ وعِزٌّ له، وقد ظهرت هذه العاطِفَةُ في عددٍ من قصائِدِهِ من مثلِ قولِهِ مادحاً المهتدِي بالله(٢):

تَوالى سوادُ الرِّيشِ من عندِ صالِحٍ ... إليكَ بأخبارٍ يَسُرُّ قدومُهَا
محلّقَةٍ بنبِي عن النّصرِ نُطْقُهَا ... وقبلكَ ما قدْ كانَ طالَ وجومُهَا
تخبِّر عن تلك الخوارجِ أنَّهُ ... هوى مكرهاً تحت السُّيُوفِ عظيمُهَا
أرى حوزةَ الإسلامِ حينَ وليتَهَا ... تحرَّمَ باغِيْهَا وحيطَ حرِيْمُهَا
تداركَ مظلومُ الرّعيةِ حَقَّهُ ... وخلَّى له وجهَ الطّريقِ ظلومُهَا
وبصبصَ أهلُ العَيثِ حين هداهُمُ ... أخو سطواتٍ ما يُبَلُّ سليمُهَا
وقد أعطتِ الرّومَ الذي طولبتْ بِهِ ... بأبْرِيقَ لَمّا خُبِّرتْ من غريمُهَا(٣)
هل الدِّينُ إلاّ في جِهَادٍ تقودُنَا ... إليه عجالاً أو صلاةٍ تقيمُهَا

(١) في ميزان النّقد الأدبي، د/ طه مصطفى أبو كريشه (٤٤).

(٢) دواينه (٣/٢٠٢٠–٢٠٢١).

(٣) أبريق: نهر في بلاد الرّومِ.

أو قولُهُ[(١)]:

وفي يومِ منويلٍ وقد لَمَسَ الهدى ... بأظفـــارِهِ أو هَـــمَّ أن يتنـــاوَلاَ
دفعتَ عن الإسلامِ ما لو يُصيبُهُ ... لَمَا زال شخصاً بعدها متضـــائلا
لئن أخرُّوهُ عن مســـاعيكَ إنَّـــهُ ... لَيَقْدُمُ أيّـــامَ الرّجـــالِ الأوائـــلا
تلافيتَ ألفاً في ثمـــانينَ مِـــنْهُمُ ... وشَجَّعْتَهُمْ حتّى رددتَ الجحافلا

أو قولِهِ فيه أيضاً[(٢)]:

أحسنَ اللهُ في ثوابِكَ عن ثغـــرٍ ... مضاعٍ أحسنتَ فيـــه الـــبلاءَ
كان مستضعفاً فَعَزَّ ومَحْـــرُو ... ماً فـــأدجى وَمُظْلـــاً فأضـــاءَ
لتوليتَـــهُ فكنـــتَ لأهلِيْـــهِ ... غِنًى مقنِعـــاً وعنـــهُمْ غَنَـــاءَ
لم تَنِمْ عن دعائِهِمْ حين نـــادوا ... والقنا قد أســـالَ فـــيهم قَنَـــاءَ

بيد أنّ هذه العاطفةَ الثّائرَةَ الجيَّاشَةَ قد تتبدلُ وترق مع بقائها على قوّتها إذا كانتْ في وصفِ الحروبِ الدّائرةِ بين القبائلِ، لِحزنه على تقتيل بعضَهم، كمثل قولِهِ في حروبِ ربيعةَ فيما بينهما[(٣)]:

أمـــا لربيعـــةَ الفـــرسِ انتـــهاءُ ... عـــن الزّلـــزالِ فيهـــا والحـــروبِ
لِكُـــلِّ قبيلـــةٍ خيـــلٌ تـــداعى ... إلى خيـــلٍ معـــوَّدَةِ الرّكـــوبِ
كدأبِ بنِي المُعَمَّـــرِ حـــين زاروا ... بنِـــي عمـــرٍو بمَصـــميَةٍ شَـــعُوبِ

(١) ديوانه (٣/١٦٠٤).
(٢) ديوانه (١/١٦).
(٣) ديوانه (١/٩٩-١٠٢).

تبالوا صادقَ الأحسابِ حتّى نَفَوا خَوَرَ الضَّعيفِ عن الصَّليبِ
صريحُ الخيلِ والأبطالُ أغنَى عن الهُجُناتِ والخِلْطِ المشوبِ
وكانوا رقّعوا أيّام سِلْمٍ على تلك القوادِحِ والنّدوبِ
إذا ما الجرح رُمَّ على فسادٍ تبيَّنَ فيه إفراطُ الطّبيبِ
رزيةُ هالكٍ جلبتْ رزايا وخطبٌ باتَ يكشفُ عن خطوبِ
يُشَقُّ الجيبُ ثُمَّ يجيءُ أمرٌ يصغِّرُ فيه تشقيقُ الجيوبِ
فَهَلَّ لِبَني عديٍّ من رشيدٍ يردُّ شريدَ حِلْمِهما العَريبِ
أخافُ عليهما إمرارَ مرعًى من الكلإ الذي عُلْقَاهُ موبي
وأعلمُ أنّ حربَهما خبالٌ على الدّاعي إليهما والمجيبِ
كما أسرى القطا لبياتِ (عمرٍو) وسال لِهُلْكِهِ (وادي قَضيبِ)
وفي حربِ العشيرةِ مؤيِّداتٌ تُضَعْضِعُ تَالِدَ العِزِّ المَهيبِ

أو قولُهُ مستشفعاً لأخوالِه ربيعةَ من قصيدةٍ وَصَفَ فيها جيشَ المتوكّل الذي وجَّهَهُ إليهم واستسلامهم له[1]:

أربعيةَ الفَرَسِ أشكرى يدَ منعمٍ وَهَبَ الأساءةَ للمسيءِ الجاني
روَّعْتُمُ جاراتِهِ فبعثتُمُ منه حميَّةَ آنفٍ غَيْرَانِ

(١) دواينه (٤/٢٢٥٢-٢٢٥٤).

نتله هي نتلة بنت جناب بن كليب بنِي تغلب، وهي أمّ العبّاس بن عبدالمطّلب، وعامر الضّحيان سيّد ربيعة. ح ٢١، (٤/٢٢٥٤)، ديوان البُحتُريّ.

لم تكرَّ عنِ قاضِي الرّعيَّةِ عينُـــهُ فينامَ عن وترِ القريـــبِ الـــدّانِي
ضاقتْ بأسْعَدِ أرضِهَا لِما رمـــى ساحاتِهَا بالرَّجْـــلِ والفرســـانِ
بفوارسٍ مثلِ الصّـــقورِ وضُـــمَّرٍ مجدولـــةٍ ككواســـرِ العِقْبَـــانِ
لَمَّا رأوا رهجَ الكتائبِ ســـاطعاً قالوا الأمانَ ولاتَ حـــينَ أمـــانِ
يئلونَ من حَرِّ الحديدِ وخلْفَهُـــمْ شُعَلُ الظَّبا وشـــواجرُ الخِرْصـــانِ
يومٌ من الأيّـــام طـــالَ علـــيهِمُ فكأنَّـــهُ زمـــنٌ مـــنَ الأزمـــانِ
أُيِّدْتَ بالنَّصرِ الوشيكِ واتّبعـــوا في ســـاعةِ الهيجـــاءِ بالخِـــذلانِ
راموا النّجاةَ وكيف تنجو عُصبةٌ مطلوبـــةٌ بـــاللهِ والسّـــلطانِ؟
جاءتك أسرى في الحديدِ أذلّـــةً مشدودةُ الأيـــدي إلى الأذقـــانِ
فَافْكُكْ جوامعَهُمْ بمَنِّـــكَ إنّهـــا سُمِرَتْ على أيدي ندىً وطعـــانِ
لك في بنِي غُنْمِ بن تغلبَ نعمـــةٌ فَهَلُمَّ أخـــرى في بنِـــي شـــيبانِ
أعمامُ نَتْلَةَ (أمكم)وهـــي التِـــي شَرُفَتْ وأخوةِ (عَامِرِ الضّحيانِ)

فعاطفته هنا غير عنيفة، وإنّما جاءت استعطافيةً حزينةً، وتطلـــب الصّفحَ والعفوَ من ممدوحِهِ عن ربيعة، وذلك لأنّهـــم أخوالُـــهُ وأقربـــاءُ ممدوحه.

وتقاسُ هذه العاطِفَة: «بِمقدارِ ما فيها من ثبـــاتٍ وسمـــوٍ وقـــوّةٍ وصدقٍ»[1].

وتَتَمَتَّعُ قصائدُ البُحْتُرِيّ الحربيَّةُ بهذه المقاييس الأربعة.

---

(١) في ميزان النّقد الأدبي، د/ طه أبو كريشه (٤٤).

١- فأمّا ثباتُها: فبمقدارِ ما فيها من أثرٍ يدفعُ قارءَها إلى الانتباه لكلّ حرفٍ فيها وإلى تَيَقُّظِ وجدانه، فيظلُّ قلبُهُ متوثّباً، وكلّما عاد إليها مرّةً بعد أخرى وجد انفعالاً وإعجاباً بها، من مثل قولِهِ في وصفِ ربعيةَ من قصيدةٍ مدحَ بِها أبا المعمِّر الهيثم الغنويّ(١):

كدأبِ بنِي المعمِّرِ حينَ زاروا ... بني عمروٍ بِمُصْمِيَةٍ شَعُوبِ
تبالوا صادِقَ الأحسابِ حتّى ... نفو خورَ الضّعيفِ عن الصَّلِيبِ
صريحُ الخيلِ والأبطالِ أغنَى ... عن الهُجُناتِ والخِلْطِ المشوبِ
وكانوا رقّعوا أيَامِ سِلْمٍ ... على تلكَ القوادِحِ والنُّدوبِ
إذا ما الجرحُ رُمَّ على فسادٍ ... تبيَّنَ فيه إفراطُ الطّبيبِ
رزينةُ هالكٍ جلبتْ رزايا ... وخطبٌ باتَ يكشفُ عن خطوبِ
يُشَقُّ الجيبُ ثُمَّ يجيءُ أمرٌ ... يصغِّرُ فيه تشقيقُ الجيوبِ
وقبرٌ عن أيّامنِ (برقعيدٍ) ... إذا هي ناحرت أُفُقُ الجَنوبِ
يَسُحُّ ترابُهُ أبداً عليها ... عِهَاداً من مُراقِ دمٍ صَبِيبِ
إذا سُكِبَتْ سماءٌ ثُمَّ أجلَتْ ... ثَنَتْ بِسماءِ مُغْدَقَةٍ سَكُوبِ
ولم أر للتّراتِ بَعُدْنَ عهداً ... كَسلِّ المَشْرَفِيَّةِ مِنْ قَرِيْبِ
تُصَوَّبَ فوقهم حِزَقُ العوالِي ... وغابُ الخطِّ مهزوزُ الكعوبِ
كنخلِ سُمَيْحَةَ استعلى ركيبٌ ... تكفِّيهِ الرّياحُ على ركيبِ
فمَن يسمعْ وغى الأخوينِ يُذْعَرْ ... بصكٍّ من قِرَاعِهِمَا عجيبِ

---

(١) دواينه (١/٩٩-١٠١).

فثباتُ العاطفةِ وما فيها من شدٍّ للانتباه في متابعةِ ما دار بين هذين القبيلين من قتالٍ شديدِ العُرَامِ أمرٌ ظاهرٌ، ومثله ما فيها من إيقاظٍ للوجدان الغافلِ عن نتائجِ هذه الحروب الشّديدةِ في التّحذيرِ من كثرة الفتن والقلاقل بين القبائل، والحرصِ على لَمِّ الشَّملِ بصلحٍ تطيبُ به القلوبُ لا مداهنةَ أو غشَّ فيه.

وممّا يدلّ على ثباتها ما يتداخلُهُ عند قراءتها من انفعالٍ وإعجابٍ بحسنِ الصُّورَةِ وجمالِ التّشبيه حتّى شبّه كثرةَ الحروبِ بينَهُم بالسُّحُبِ التي تغطّي الجوَّ ثم تمطر فتنقشع، وتصويره كثرة الرّماحِ بنخلِ سُمَيْحَةَ، إذا أمالته الرِّياحَ فركب بعضُهُ بعضاً، وحين وصفَ شدَّةَ قراعِ السُّيُوفِ جاء بوصفٍ يخيفُ سامعه، ويجعله يَعجبُ من شجاعتهم وبسالتهم.

٢- وأمّا قوتُهَا: فظاهرٌ بما فيها من قوّةٍ وتلَهُّبٍ ينبئ عن نضجِ التّجربة لديه، ومدى انفعالاته حتّى يجعلك تشاركَهُ في أحداثِ القصيدة، وما يشيعُ فيها من صورٍ حيّةٍ، فتتابعُ تَنَقُّلاته بِكَ بين ميدان القتال وبين ملاحقة الفَارِّينَ، وبين مصير الأعداءِ وشتاتِهِم، ومن ذلك قولُهُ من رثاءِ القائدِ المشهورِ يوسفَ بن محمّدٍ الثّغرِيِّ، وتهديدُ مَنْ قتلوه من الرّومِ[1]:

فلا ثأرَ حتّى تطلُعَ الخيلُ مرتقى … خويت بأسْدٍ في السَّنَوَّرِ جُونِ
وحتّى تصيبَ المرهفاتُ بِساطِعٍ … شفاءَ النّفوسِ من طُلَىً وشؤونِ

(١) دواينه (٤/٢١٨٤-٢١٨٥).

وحتّى تَحُشَّ النّارُ ما بــين (أرزن) وأرضِ(جواخٍ)من قرىً وحصونِ
وحتّى ينالَ السَّيفُ (موسى) فيختلى جُزَارَةَ عِلْجٍ بــالتّخُومِ سَــمِيْنِ
أأللّهَ ترجونَ البقــاءَ وقــد جــرتْ دماءَ لَنا فيكم قُضِــيْنَ لِحِــيْنِ
فــأينَ أمــيرُ المــؤمنين فإنَّــهُ كفيلي على ما ساءكم وضميني
ستأتيكُمُ الجردُ الخناذيــذُ تقتــري جنوبَ سهولٍ في الفلا وحزونِ
عوابسَ تغشى الرَّوعَ في كلّ مــاقطٍ مَنَاقِلَــةً فيــه بأســدِ عــرينِ
طوالبَ ثأرٍ من فتًى غــيرِ واهــنٍ ولا وكلٍ في النَّائبَــاتِ مَهِــيْنِ
مُعارِكُ حــربٍ لا يــزالُ مــوكَّلاً بقُطْبِ رَحىً للدّارعِينَ طَحــونِ
وسائسُ جيشٍ يرجعُ الحزمُ والحِجَى إلى شدّةٍ مــن جانبيــه ولــينِ
رأى الموتَ رأيَ العينِ لا سترَ دُونَهُ وما موتُ شكٌّ مثلُ موت يقينِ
وقيل انجُ من غمّائِهَــا فأبــتْ لــه سجيةُ شكْسٍ في اللّقاءِ حَــرونِ
ولَمّا اســتخفّوا للنَّجَــاءِ تــوقَّرتْ جوانبُ ثبتٍ للسُّيوفِ ركــينِ
وقى كتفيــه والرّمــاحُ شَــوارِعٌ بثُغْرَةِ نحــرٍ واضــحٍ وجــبينِ

فإن قيل: هذا رثاءٌ وعاطفةُ الرِّثاءِ قويَّةٌ، وبخاصَّةً إذا كان الشّــاعِرُ مُخلصاً فيه –فلنأخذ صورةً أخرى جاءتْ فيها العاطفةُ قويَّةً، تَوَلَّدَتْ من محبّته ممدوحيه، وإعجاب الشّاعِرِ بِشَجاعةِ قومِهِ، وذلك قولُــهُ في بنِــي الفضيض[١]:

(١) دوانيه (٧٧٩/٢).

مَعَاقِلُهُمْ سمـــرُ القنـــا وكنـــوزُهُمْ شريجانِ أسيافٌ وقُمْصِ حديدِ
إذا غمراتُ الموتِ أدجتْ تكشفَتْ بِهِمْ عن أسودٍ زوحفتْ بأسودِ
هم أحموا نارَ العـــدوِّ وأوقـــدوا من الحربِ ناراً غيرَ ذاتِ خُمودِ
بشهباءَ من ماءِ الحديـــدِ كأنَّهَـــا جبالُ شَرَورَى أُضرِمتْ لوَقُودِ
تُرِيكَ إذا ما الحربُ غامت سماؤها نجومَ صعادٍ في سمـــاءِ صـــعيدِ
فلم يبقَ من أعدائِهِمْ غيرُ مُوغـــلٍ به الخوفُ أو نائي المحلِّ شـــريدِ
يمزِّقُهُم وقـــعُ الصَّـــفيحِ فموثَـــقٌ أسيرٌ، ومسلوبُ الحشاشةِ مودي

فإعجابه بِهِم وشجاعتهم جعلَهُ يتصوّر كتائِبَهُمْ ذاتَ العددِ والعتادِ، وقد لمعتْ سُيُوفُهُم واهتزتْ رماحُهُمْ، وتلألأتْ بَيْضُهُم، تحت غبارٍ جعلَ السَّماءَ أرضاً لسماكته وكثافته، وتصوّرَ نهاية لقائِهِمْ لعـــدوِّهِمْ ومـــآلَ أعدائهم بين قتيلٍ وأسيرٍ أو ذليلٍ وهاربٍ، فقوّةُ العاطفةِ فَتَّقَتْ لديه هـــذه الصّورةَ الحيَّةَ لِمعركَةٍ خياليةٍ.

٣- وأمّا صدقُ هذه العاطفة؛ «فيبدو في هذا التّجاوب الذي يحدث بين القارئ وبين ما يقرأ من أدبٍ، يبدو في الأثر الذي تتركه القصـــيدةُ مثلاً في نفس القارئ، حتّى يخيَّلُ إليه أنّه لو قال شعراً لَمّا عدا مـــا يقرأ»(١).

٤- وأمّا سموها فبِما فيها من الفخر الصّادقِ بهذه الخيل وجندها، وهي:

---

(١) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه أبو كريشه (٤٥).

العاطفةُ المصاحبةُ لِروحِ الشّاعرِ، وهو يصفُ المشاهَدَ الحربيةَ، وهي عاطفةُ الفَرِحِ النّشوانِ بهذه الانتصارات التي حقّقها ممدوحه أو جنده على الأعداءِ، فَرَحٌ بالنّصر وفَرَحٌ بخذلانِ الأعداءِ، وتشتيتهم وتفريقهم، كمثل قوله في مدحِ أبي سعيدٍ الثّغريّ[1]:

ما انفكّ سيفُكَ غادياً أو رائحاً ... في حصدِ هاماتٍ وسفكِ دماءِ
حتّى كفيْتَهُم الذي استَكْفَوكَ من ... أمرِ العِدَى ووفيتَ أيَّ وفاءِ
ما زلت تقرعُ بابَ بابكَ بالقنا ... وتزورُهُ في غارةٍ شَعْوَاءِ
حتّى أخذتَ بنصلِ سيفِكَ عنوةً ... منه الذي أعيا على الخلفاءِ
أخليتَ منه البَذَّ وهي قرارةٌ ... ونصبتَهُ عَلَماً بسامُرَّاءِ
لم يُبْقِ منه خوفُ بأسِكَ مطمعاً ... للطَّيْرِ في عَودٍ ولا إبداءِ
فتراه مُطَّرِداً على أعوادِهِ ... مثلَ اطرادِ كواكبِ الجوزاءِ
مستشرفاً للشَّمسِ منتصباً لَها ... في أخرياتِ الجِذعِ كالحرباءِ
ووصلتَ أرضَ الرّومِ وصلَ كُثَيِّرٍ ... أطلالَ عزَّةَ في لِوَى تيماءِ
في كلّ يومٍ قد نتجتْ منيَّةً ... لَحُمَاتِها من حربِكَ العُشَرَاءِ
سَهَّلْتَ منها وَعْرَ كُلِّ حُزونَةٍ ... وملأتَ منها عَرْضَ كُلِّ فَضَاءِ

أو قولُهُ في مدح أذكوتكين[2]:

---

(١) دوانيه (١-٩-١١).

(٢) ديوانه (٤/٢٢٠٩-٢٢١٠).

أباحَ حِمَى الدّيالِمِ في حـــروبٍ سقت هِيْمَ القنا حتّـــى رَوينـــا
إذا طلبوا لَها الأشـــباهَ كانـــتْ غرائبَ منا سُـــمِعْنَ ولا رُؤِينَـــا
وأعهدُ أرْضَهُم أعـــدى ســـباعاً وآشـــبَ دون عادِيـــةٍ عَرِينـــا
فتلك جبالُها عـــادتْ ســـهولاً وكانت قبـــلَ مغـــزاهُ حزونـــا
وكانوا جمـــعَ مَمْلَكـــةٍ فـــآبوا طوائِـــفَ في مخـــابيهم عِزِينَـــا

ثالثاً–الأفكار:

الأفكار هي: المعانِ التِي تترجم عنها الصّياغةُ الفَنّيَّةُ، ولَها مَقَـاييْسُ كثيرةٌ أهَمُّهَا ما يلي:

١–الأفكار بين التّلاؤمِ والتّفكُّك:

التّلاؤم هو: ((أن يكون هناك تلاقٍ بين الأفكارِ الجزئيَةِ بحيثُ يوجدُ خيطٌ رفيعٌ يصلُ بينها، حتّى تبعدَ عن التّنَافُرِ والتّضارُبِ))(١).

فتتلاَءمُ جزئيّاتُهُ ويشتبه أوّلُهُ بآخره، وقد حَثّ عليه الأدباءُ والنّقّادُ القدماء، فقال عبد القاهرِ مشيراً إلى هذا الاتّجاه والاتّساق:

((أنْ تَتَّحِدَ أجزاءُ الكلامِ، ويدجُلُ بَعضُها في بعضٍ، ويشتدّ ارتبـاطُ ثانٍ منها بأوّل، وأن تحتاجَ في الجملةِ إلى أن تضعها في النَّفْسِ وضعاً احداً، وأن يكونَ حالُكَ منها حالُ البانِي يضع بِيمينه هُهنا في حالٍ ما يضـعه بيساره هناك، وفي حالِ ما يبصر مكانَ ثالث ورابـع يضـعهما بعـد الأَوَّلَيْنِ))(٢).

وقال أبو هلال العسكري: ((ينبغِي أن تجعلَ كلامَكَ مشتَبِهاً أوَّلُـهُ بآخره، ومطابقاً هاديه بعجزِهِ، ولا تتخالف أطرافُهُ ولا تتنافَرُ أطـواره، وتكون الكلمة منه موضوعةً مع أختِها، ومقرونةً بلفقهـا؛ فـإنّ تنـافرَ

---

(١) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه أبو كريشة (٤٠).

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانِي (٩٣).

الألفاظِ من عيوبِ الكلامِ، ولا يكون ما بين ذلك حشو يستغنِي عنه ويَتُّم الكلام بدونه))[١].

هذا، وحديث النُّقَّادِ القدامَى عن الأفكار ، هو حديث النُّقَّاد المحدثين عن الوحدة العضوية التِي تعنِي تناسُقَ الأفكارِ، وتتابُعَ المعانِي، وارتباطَ بعضها ببعضٍ، وموافقةَ الصّورِ الخيالية لِمعانها.

قال العقّاد: ((ينبغِي أن تكون (القصيدةُ) عملاً فَنِّيّاً تامّاً، يَكملُ فيها تصويرُ خاطرٍ أو خواطرِ متجانسة، كما يكمل التّمثالُ بأعضائه، والصّورةُ بأجزائها، واللَّحْنُ الموسيقيُّ بأنغامه؛ بحيث إذا اختلف الوضعُ أو تغيّرتِ النّسبةُ، أَخَلَّ ذلك بِوحدةِ الصّنعةِ وأفسدها، فالقصيدةُ الشِّعريَةُ كالجسمِ الحَيِّ يقومُ كلُّ قسمٍ منها مقامَ جهازٍ من أجهزته، ولا يغنِي عنه غيره في موضعه، إلاّ كَما تغنِي الأذنُ عن العينِ، أو القدمُ عن الكفِ، أو القلبُ عن المعدّةِ، أو هي كالبيت المقسَّمِ لكلِّ حجرةٍ منه مَكانُهُا، وفائدَتُها وهندستُهَا، ولا قِوامَ لِفَنٍّ بغير ذلك...))[٢].

ومن أمثلةِ التّواؤم الذي جاء في شعر البُحْتُرِيِّ الحربِي قولُهُ[٣]:

إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرتِ القربَى ففاضتْ عيونُها

(١) الصّناعتين، لأبي هلال العسكري، (١٤١/١٤٣).

(٢) الدّيوان في الأدب والنّقد، لعبّاس محمود العَقّاد، وإبراهيم عبد القادر المازِني، ط ٣، (١٣٠).

(٣) دواينه (١٢٩٩/٢)، من قصيدةٍ يصف بها حروبَ ربيعة فيما بينها، ويمدح المتوكّلَ لإصلاحه بينها.

وقد أشار عبدُ القاهرِ الجرجانِي إلى هذا التّواؤمِ الظّاهرِ في هذا البيت بين الشّرط والجزاء، وتَرَتُّبهما على بعضٍ، في كتابه: دلائل الإعجاز(١).

ومن أهمّ عناصر المواءمة: التّقسيمُ وعطفُ المتناسبات على بعضها، من مثل قوله في وصف يوسفَ بن محمّد(٢):

رأيتُ أبا يعقوبَ والنّاسُ ذو حِجًى ... يُؤَمِّلُهُ أو ذو ضَلالٍ يَحاذِرُهْ
هو الملكُ المرجوُّ للدِّينِ والعلا ... فللهِ تقواه وللمجدِ سائِرُهْ
له البأسُ يُخْشَى والسَّمَاحةُ تُرْتَجَى ... فلا الغيثُ ثانيهِ ولا اللّيثُ عَاشِرُهْ
وقورُ النّواحِي والنّدى يستَخِفُّهُ ... لنا، وأميرُ الشَّرْق والجودُ آمِرُهْ
إذا وقعتْ بالقُرْبِ منه مُلِمَّةٌ ... ثَنى طَرْفَهُ نَحوَ الحُسَامِ يشاوِرُهْ
إذا خَرِسَ الأبطالُ في حُمُسِ الوغَى ... علتْ فوقَ أصواتِ الحديد زَمَاجِرُهْ
إذا التهبتْ في لَحظِ عينيهِ غَضْبَةٌ ... رأيتَ المنايا في النُّفُوسِ تؤامِرُهْ

فوصفَ ممدوحَهُ بالشّجاعة والكرمِ والتُّقَى وطلبِ الرِّفعةِ والصبرِ وحبِّ معالِي الأمورِ، وزاد هذه الصّفاتُ حسناً أن وَاءَمَ بينها وكَرَّرَها وحَلَّلَ جزئيّاتِهَا؛ فإنّه لَمّا جعله المرجوَّ للدِّينِ أشار إلى تقواه، ولَمَّا وصفَهُ بحُبِّ العلا، نسبه إلى المجد، ولَمَّا وصفه بالشّجاعة جعل النّاسَ تشخاهُ، ونَفَى أن يكون الليثُ، وهو أشجع شيءٍ بالغاً عشر شجاعته، ولَمَّا وصفه

---

(١) دلائل الإعجاز (٩٣).

(٢) دواينه (٢/٨٧٧-٨٧٨).

بالكرم جعل النّاسَ ترجوه، ونفى أن يكون الغيث، وهو أجود شيءٍ تالياً له بالجود، ثم أشار إلى حالاتٍ برهنتْ على شجاعته كثنيه طَرْفَهُ إلى سَيْفه كُلَّمَا شعر بالخطرِ، مِمّا يدلُّ على قربِهِ منه، وعلى شدّةِ احتراسِه، ووصفَهُ بالصّبرِ وعدمِ الجزعِ في حوماتِ الوغى، وشدِّة البطشِ وقــوّة الضّــربِ وكثرةِ القتلى.

ومن إحسانِهِ في التّعبيرِ الآخذُ بعضه بأعناق بعضٍ قولُهُ في وصــفِ معركةٍ قادَهَا ممدوحُهُ[1]:

ولقد لَبِسْتَ عساكراً بعساكرٍ ... بالغورِ فيهم سادَةُ الوَسْــواسِ
فَرَمَوا، وجَالُوا بالقنا،وتثــاقفوا ... بيسوفِهِمْ، من بعد طول دَعَاسِ
وتَعَافَسُوا مَن كان طاح سلاحُهُ ... والنَّفْسُ تتلفُ عند كلِّ عِفَــاسِ
والخيلُ تُجْمِرُ بالفوارسِ، والقنا ... يَخْلُجْنَ خَلْجَ البئرِ بـــالأَمْرَاسِ
والموتُ يأشِرُ بالسُّيوفِ كأنَّها ... برقٌ يلوحُ على ظهورِ تـــرَاسِ
وترى المنيّةَ كالحــاً أنيابُهَـــا ... ثكلى تمخَّضُ مُطْفِـــلاً بنِفَـــاسِ
فقتلت جيشَهَمُ وجئتَ بِسَبْيِهِمْ ... وتركتَهُمْ بالغورِ كالأَكْــدَاسِ

فقد تدرّجَ من خلط العسكرين ببعضها فبدأ بالترامِي بالنِّبال، فلَمّا اقتربوا من بعضهم تطاعنوا، وبعد مداعسةٍ طويلة لَمّا التحموا تضـــاربوا بالسُّيوفِ، ثم مَنْ سَقَطَ سلاحُهُ أو انكسر فصار أعزلَ عافس وطارح من صار مثله من الأعداءِ، والخيلُ في هذه الأثناء تسير مسرعةً بالفرســانِ في

(1) دواينه (2/1171-1172)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن طاهرٍ.

حركاتٍ قويّةٍ بين روحةٍ وجَيْئَةٍ، والموتُ يتقادح مع كُلِّ شرارةِ سيفٍ عندما تصطدم السُّيوفِ بالأتراسِ، والمنيةُ قد كشرت عن أنيابها كهيئة الثّكلى التِي فقدت زوجها، وهي حاملَ قد طرقها المخاضُ، فهي تولول من عدّة آلامٍ، والمنيّة أيضاً تقع يميناً وشمالاً فتصيب هـذا، وتخـبط ذاك، ونتيجةً لِهذه الصّور التِي أوقعها القائدُ بأعدائِهِ، أن قتل جنـدهم وغـنم أموالهم.

ففي هذه الأبياتِ تدرُّجٌ بديعٌ لو سقط منها بيتٌ اختـلَّ هيكـلُ القصيدة.

هذا، وللبُحْتُرِيّ قصائدُ وإن كانت حسنةَ الأبياتِ دقيقةَ الوصـفِ، إلاّ أنّنا نَحسُّ عدمَ ترابطِ أفكارها، وإمكانُ التّقديمِ والتّأخيرِ فيهـا -دون تغيّرٍ يُلحَظُ-، كما يلحظ فيها تداخلُ أغراضِها، وعدم التّلاؤمِ بينها، من مثل قصيدتهِ في مدحِ أبِي سعيدٍ(١):

أتُرَاكَ تسمعُ للحمـامِ الهتَّـفِ شجواً يكون كشجوِكَ المستطرِفِ

فإنّه بدأها بشكوى الفراقِ والوقوف على الأطـلال، ثم قفـز إلى مقدّمة من سبعة أبياتٍ جاءت كالمقدّمة لِمدح ممدوحه، وصـف فيهـا جيشَهُ وفتيانَهُ، وتخلّصَ بتلك إلى أن تحدّث عن قائدهم، وهـو تخلّـصٌ ممدوحٌ فمدحه، ثم تحدَّثَ عن غزواته، ثم عاد بالخطاب إلى ممدوحه مـرَّةً ثانيةً فوصفهِ بالشّجاعةِ، ثم مدح أباه، وبه كان ختامُ القصيدةِ؛ فلو جعل

---

(١) دواينه (١٤١١/٣).

المدحَ متّصلاً، وأخَّرَ وصفَ الغزواتِ بعده ثم جاء بخاتِمَةٍ مشعرةٍ بنهايةِ القصيدةِ لكان أولَى.

٢-الأفكار بين الوضوحِ والغموض:

يُعَدُّ شعرُ الحربِ في مقدّمةِ الأغراضِ التي تحتاج إلى الوضوح والظّهور في المعانِي؛ لأنّه بِمثابةِ تقديمِ (تقرير) وافٍ بِما كان في حومة الوغى، ومعانِي شعر الحربِ عند البُحْتُرِيّ جُلُّهَا واضحٌ لا غموضَ ولا لبسَ فيها، ومن أمثلةِ ذلك قولُهُ مُخاطباً المعتزَّ باللهِ(١):

هنتك -أميرَ المؤمنين-كفايةٌ ... من اللهِ في الأعداءِ ناهَةُ الذِّكْرِ
أتاكَ هلالُ الشَّهرِ سعداً فبوركا ... على كلِّ حالٍ من هلالٍ ومن شهرِ
أتاك بفتحَى موليبكَ مبشِّراً ... بأكثرَ نعمى أوجبتْ أكثرَ الشّكرِ
بِما كانَ في الماهاتِ من سطوِ مفلحٍ ... وما فعلتْ خيلُ ابن خاقانَ في مِصْرِ
وإدبارِ عبدوسٍ وقد عصفتْ به ... صدورُ سيوفِ الهندِ والأسلِ السّمرِ
لئن كان مستغوى ثمودَ لقد عدتْ ... على قومِهِ بالأمسِ راغيةُ البكرِ
بطعنِ دَرَاكٍ في النُّحُورِ يحطُّهُمْ ... نشاوى وضربٍ في جماجهم هَبْرِ
فلست ترى إلاّ رؤوساً مطاحةً ... يجيدُ الموالي نحرَها أو دماً يجري
ولم تُحرزِ الملعونَ قلعَتُهُ التي ... رأى أنّها حرْزٌ على نَوبِ الدَّهْرِ
مضى في سوادِ اللَّيلِ والخيلُ خَلْفَهُ ... كراديسُ من شَفْعٍ مُغذٍّ ومن وَتْرِ
قضى ما عليه مفلحٌ من طلابِهِ ... فلم يبق إلاّ ما عليَّ منَ الشِّعْرِ

---

(١) دواينه (٢/١٠٠٥-١٠٠٦).

سيأتِي بــه مستأسِــراً أو برأسِــهِ بنو الحربِ والغالُونَ في طلبِ الــوِتْرِ
سراةُ رِجَالٍ من مواليــكَ أَكّــدوا عرى الدِّينِ إحكاماً وبتُّوا قوى الكُفْرِ
إذا افتتحوا أرضاً أعــدُّوا لِمثْلِهَــا كتائِبَ تفري من أعاديك ما تفــري

وقد أعلن على وضوحِ معانِيَ شِعْرِهِ خلوُّهُ من التّعقيــدِ اللّغــويِ، وبُعْدُهُ عن المعاظلَةِ بين الألفاظِ، وعدمُ إكثارِهِ من المضمراتِ أو التّقــديم والتأخير أو الحذف.

وهذا لا يعني خلوَّ شعره من الغموضِ، لكنّه نادرٌ، فقد لا تجدُ له في العديدِ من قصائدِهِ بيتاً غامِضَ المعنَى، مُعَقَّــدَ التّصــوير، ومِمّــا لــــه قولُــهُ[1]:

يغدو الورى، وَهُمُ غاشوا سرادقِهِ صنفين من مضمري خوفٍ وراجينا
والنّاسُ بين أخي سبقٍ يبينُ بــه وفاترينَ عــن الغايــاتِ وانينــا
كما رأيتَ الثّلاثــاءاتِ واطئــةً من التَّخَلُّــفِ أعقــابَ الأثانينــا

فإنّ فحوى الأبيات يدورُ حولَ إثبات صفةِ الكرمِ لِممدوحه، وأنّ النّاسَ بين راجينِ لِكرمِهِ من شدَّةِ بطشه، ثم أتَى بِحكمةٍ مؤدّاها أنّ النّاسَ المتسابقين إلى تحصيلِ معالِي الأمور هم الفائزون والسّابقون، ومن قصــرَ عن تحصيلِ هذه الأمورِ فهو من الفاترين، ولعلّهُ يقصد بذلك أنّ مَن قصد ممدوحَهُ؛ فإنّه من الفائزين، ومَنْ قَصَّرَ عنه كان من الفاترين، ومع مــا في هذا البيت من التّعقيدِ؛ فإنّه لن يبلغ غموضَ البيت بعده، فهو تشبيهٌ معقَّدٌ

(١) دواينه (٢٢٠٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها خمارويه.

غير واضحٍ غرضُهُ فيه،و ما فيه من مخالفة القياسِ عند جمعه الثّلاثاء على الثّلاثاءات، وطولِ الكلمةِ مِمّا زادَ في التّعقيد.

ومثله قوله من قصيدةٍ يمدح بها الموفّق[1]:

كأنّ الرَّدى يُسْقَى المُضَلَّلُ صرفَهُ   من السَّيْفِ دينٌ أَرْهَقَ الوقتَ واجِبُهْ
إذا أَتْبَعَ الرّمحُ[2] المُرَكَّبُ رأسَهُ   عليه بعلنٍ قلتَ إنّ وراكِبُهْ

فتعقيد البيت الأوّل بالتّقديم والتّأخير فيه، وبالاعتراض الطّويل فيه، وترتيب الكلام: كأنّ الرّدى دينٌ أرهقَ واجبُهُ الوقتَ، بعد حذف الاعتراض منه؛ فإن أدخلنا الاعتراض عليه كان ترتيبه: كان الرّدى —وهو يسقي المضلّل من السّيف صرفه- دينٌ أرهقَ واجبُهُ الوقتَ، فطول الاعتراض مع فصله بين المشبّه والمشبّه به، أي: بين المبتدأ والخبر زاد في التّعقيد والغموض.

---

(١) دواينه (٢٢٢/١).

(٢) رواية الدّيوان ببناء الفعل للمعلوم بضمّ (الرّمح)، و(رأسه).

ولكنّني أرى أنّ المعنَى لا يستقيم بهذا الضّبطِ، وأنّ الأولى بناء الفعل للمجهول، وبقاء ضمّ (الرّمح) لا على أنّه فاعلٌ، بل أنّه نائبُ فاعلٍ، ورفع رأسه على أنّه نائبُ فاعلٍ لاسم المفعول: (المركب)؛ لأنّ معنَى الكلام:إذا أتبع العدُوُّ الرّمحَ، المركّبَ رأسَهُ عليه بلعنٍ، قلت لعن الله الرّمح وراكبه، بِمعنَى مركوبه، أي ومَن ركبه الرّمح. وهذا كلام تمجّه الأسماعُ.

وقد يجلب الغموضُ تَكَلُّفَةَ الاستعارةِ أو الجناسِ ونحوهما، -وهــذا قليلٌ في شعرِهِ أيضاً-، كقوله في ذَمِّ أعداءِ ممدوحهِ وبيان مَصِيْرِهِمْ(١):

حتّى إذا ما الشّقاقُ المحضُ أشْعَثَهُمْ   لَمَمْتَ بالسَّيفِ مِنْهُمْ شَعْثَةَ اللِّمَمِ

أو قوله(٢):

وقائعٌ وسَمَتْ أنفَ الشِّقاقِ وقــدْ   عاشَ الشِّقاقُ زماناً غير موتسمِ
كأنَّمَا كان في عُرْنِينِــهِ شَــمَمْ   فعادَ أجدَعَ بعد الطُّولِ والشَّمَمِ

وعدمُ الغموضِ ووضوحُ الأفكارِ كانا سبباً في إسفافهِ أحياناً إلى أن يَرِكَّ أسلوبُهُ وتتبذّلَ صوره، كقوله في المعتزّ(٣):

تَخَاضَعَتِ الوجوه لِحُــرٍّ وجــهٍ   يَدُلُّ على خلائقــهِ الحســانِ
لَــرُدَّتْ بهجــةَ الــدّنيا إليهــا   وعاد كعهده حُسْــنُ الزّمــانِ
وأضحى المُلْكُ أزهــرَ مســتنيراً   بأزهرَ من بنِي فهــرٍ هِجَــانِ

٣ــ الأفكار بين العمقِ والسّطحية:

يبدو العمقُ جليّاً في أكثر مطالع قصائدهُ ففيها من المعانِي والصّــور التِي يصف بها صبْوته وكَلَفَهُ، ويترجمُ لك عن زفراتِ نفســه وآلامهــا

(١) دواينه (٤/٢١٢٨)، من قصيدةٍ يمدح بها منالك بن طوق.
(٢) دواينه (٤/٢١٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها منالك بن طوق.
(٣) دواينه (٤/٢٢٧٧).

لِفراق محبوبيه وطول هجرانِهِم له، وفي شكواه من الشّيب أو وصفه طروق الطّيفِ، وكذا حينما يتحدّث عن فرارِ فارٌّ أو صلبِ مصلوبٍ أو عن مقدارِ الخوفِ ومبلغه في قلوبِ الأعداءِ؛ فإنّه يأتي منه بِمعانٍ عميقة، بعيدةِ الغورِ، من مثل قوله في قصيدةٍ حربية مدح بها أحمد بن طولون[1]:

وذو أُهَبٍ للحادثاتِ بمثلِهَا ... يُزَالُ الطَّخى عنّا ويُسْتَدْفَعُ الكَرْبُ
سيوفٌ لَها في عُمْرِ كلِّ عِدىً رَدَى ... وخيلٍ لَها في دارِ كُلِّ عِدَىً نَهْبَ
علت فوقَ(بَغْرَاسٍ)فضاقتْ بما جَنَتْ ... صدورُ رجالٍ حينَ ضاقَ بها الدَّرْبُ
وَثَابَ إليهم رأيُهُمْ فَتَبَيَّنُوا ... على حالِ فوتٍ أنَّ مركَبَهُمْ صَعْبُ
وكانوا ثَمودَ الحِجْرِ حَقَّ عليهِمُ ... وقوعُ العذابِ والخَصِيُّ لَهُمْ سَقْبُ
تجنّى عليهِمْ والمواردُ سهلةٌ ... وأَفْرَجَ عنهم بعدما أعضلَ الخَطْبُ
ولو حَضَرَتْهُ انثَيَاهُ استَقَلَّتَا ... إلى كُلْيَتَيْه حين أزعجه الرَّعْبُ
فما هو إلاّ العفو عَمَّتْ سيماؤه ... أو السّيفُ عريانُ المضارِبِ لا يَنْبُو
وما شَكَّ قومٌ أو قدوا نارَ فتنةٍ ... وسِرْتَ إليهم أنّ نارَهُمُ تَخبُو
كأن لم يروا(سيما الطّويل) وجمعَهُ ... وما فعلتْ فيه وفى جمعهِ الحَرْبُ
وخارِجَ بابِ البحرِ أُسْدٌ خفيَّةٌ ... وقد سَدَّ قُطْرَيَه على الغَنَمِ الزَّرْبُ
تحيَّرَ في أمْرَيْهِ ثم تحَبَّبَتْ ... إليه الحياةُ ماؤها عَلَلٌ سَكْبُ
وقد غَلظَتْ دونَ النَّجَاةِ التي ابتغى ... رقابُ رجالٍ دونَ ما مُنعَتْ غُلْبُ
تَكَرَّهَ طعمُ الموتِ والسّيفُ آخذٌ ... مُخَنَّقَ ليثِ الحربِ حاصِلُهُ كَلْبِ

---

(١) دواينه (١/١٢٣-١٢٥).

ولو كانَ حُرَّ النَّفْسِ والعيشُ مدبِرٌ   لَمَاتَ وطعمَ الموتِ في فَمِهِ عَذْبُ

هذا، وقد تكون معانيه سطحيَّةً لِخلوِّهَا من الصّور والمعاني القيِّمَة، وأكثر منا تظهرُ هذه السّطحيةُ عند دعائه لِممدوحه في ختامِ قصائده؛ كقوله لأبي سعيدٍ[1]:

خلق الله يا محمّد أخلا   قَكَ مجداً في طَيّئٍ وسَناءَ
فإذا ما رياحُ جُودِكَ هَبَتْ   صارَ قولُ العذالِ فيه هباءَ

٤- الأفكار بين التّقليد والتّجديد:

معانِي شعر البُحْتُرِيّ عامّةً -في الأغلب- تقليديةٌ، قد اقتفى فيها آثار السّابقين من وقوفٍ على الأطلالِ وتشبيبٍ ونسيبٍ، وبكاء على الشّباب، وتأوُّه من المشيب، ووصفٌ للطّيف، أو الخمرةِ وساقيها، أو الرّبيع وبهائه، ثُمَّ مدحٍ بأشهرِ الصّفاتِ على النّهج القديم، بيد أنّ إفراد عددٍ من أبيات القصيدةِ لوصفِ موقعة من مواقعِ ممدوحه مع أعدائه، وما أحدثه فيهم من قتلٍ وسلبٍ ونهبٍ، يُعَدُّ هو من أكثر مَنْ طَرَقَهُ، وذلك أمرٌ شاعَ عن شعراء الدّولةِ العبّاسيّةِ كبشّارٍ، وأبي نُواس، ومسلم، وأبي تمام.

---

(١) دواينه (١/١٩).

هذا، وشعرهُ الحربيُّ -في أغلبه- تقليديٌّ، جاء محتذياً على مثالٍ سابقٍ، وما يدلّنا على ذلك، هو المنهج الذي سار عليه في تعدّد أغراضها، كما أسلفنا[1]، هذا من حيث الشّكل.

أمّا من حيث المعاني؛ فهناك معانٍ مشتركةٌ مثل الوصف بالشّجاعة، وتشبيهه الشُّجاعَ بالأسد، والجندَ باللّيوث أو بالصّقور، وتشبيه الخيلِ بالعقبان، ووصف ضُمُورِها، ووصف القائد بإصابةِ الرّأيِ، وتحمُّلِ السُّرَى، وما شاكله، فهذه صفاتٌ عامّةٌ متداولةٌ بين جميعِ الشُّعراء.

ومن التّقليد ما عرف بالسَّرَقِ وقد سجل النُّقّادُ على البُحتُرِيِّ سرقةَ عددٍ من معانِي أبياته، فَمِن شعره الحربِيِّ الذي اتُّهِمَ به بالسَّرَقَ قولُهُ في وصف الخيل[2]:

كوعولِ الهضابِ رُحْنَ وما يَمْلِكْنَ إلاّ صُمَّ الرِّمَاحِ قرونا

قال الآمدي: «وهذا من نادرِ المعاني ولا أعرف مثله إلاّ قولَ نصر بن الحجاج بن عُلاَطٍ السُّلَمِيِّ، ولعلّهُ أُخِذَ منه:

ترى غابةَ الخطيِّ فوقَ متونِهِمْ كما أشرفتْ فوقَ الصُّوَارِ قرونُها

...»[3].

(١) الرّسالة (ص: ٧٨-٨٥).

(٢) ديوانه (٢١٦٧/٤).

(٣) الموازنة للآمدي، ت: سيد صقر (٣١٥/١).

وقولُهُ مفتخراً بِقومِهِ[١]:

قومٌ إذا شهدوا الكريهةَ صَيَّرُوا كُمَمَ الرِّماحِ جَمَاجِمَ الأَقْـرَانِ

قال الآمدي: «أخذه من قول مسلم بن الوليد:

يكسو السُّيوفَ رؤوسَ النَّاكِثِينَ به ويجعل الهامَ تيجانَ القنا الـذُّبُلِ

وأخذه مسلم من قول جرير:

كأنّ رؤوسَ القومِ فوقَ رماحِنَا غداةَ الوَغَى تِيْجَانُ كسرى وقيصرا

وقولُهُ من نفس القصيدة[٢]:

قومٌ ترى أَرْمَاحَهُمْ يومَ الوَغَى مَشْـغُوفَةً بِمَـوَاطِنِ الكِتْمَـانِ

قال الآمدي: «أخذه من قول عمرو بن معدي كَرِبِ الزَّبَيدِيِّ:

والضّارِبينَ بكلّ أبيضَ مرهفٍ والطّـاعنينَ مجـامِعَ الأضـغانِ

إلاّ أنّ قول عمرو: (والطّاعنينَ مجامعَ الأضغانِ) في غايـة الجـودةِ والإصابة؛ لأنّهم إنّما يطعنون الأعداءَ من أجلِ أضغانِهِمْ، فإذا وقع الطّعنُ في موضع الضِّغْنِ، فذلك غايةُ كلِّ مطلوبٍ»[٣].

(١) ديوانه (٤/٢٣٦٦).

(٢) ديوانه (٤/٢٣٦٥).

(٣) الموازنة (١/٣١٦-٣١٧).

وهناك أمثلةٌ عديدةٌ غير هذه أحصاها عليه الآمدي ؛لكنّ ذلــك لا يؤثّر في شاعِريَّةِ الشَّاعِرِ، إن لم يكن مَسْخاً للبيت المسروق منه، كقوله في وصف قائد[1]:

لا يبرحُ الحزمُ يستوفي صريمَتَهُ　　أقــامَ مُتَّئِــداً أم ســار مُعْتَزِمَـا

أخذه من قول أبي تَمامِ[2]:

بِكُلِّ صعبِ الذُّرَى من مُصْعَبٍ يَقِظٍ　　أقــامَ مَتَّئِــداً أم ســار مُعْتَزِمَـا

أمّا ما كان غيرُ ذلك فليس معيباً جدّاً، ولا يعني هذا أنّ أكثر شعرِه تقليدٌ أو مسبوقٌ إليه، بل إنّ له معانِياً جميلةً، وصوراً بديعةً، جئنا علــى بعضِها عند الحديث عن الصُّوَرِ البيانيةِ، خاصّةً عند ما يصف المنــهزمين، أو المصلوبين؛ فإنّه يبدع أيّما إبداع، ولإعجاب الخالدِيَّيْنِ بما له فيه، فقد ذكر له الكثير من ذلك[3].

ومن الجديد له في شعر الحربِ مقطعانِ من قصيدتينِ يعدانِ مِمّا لم يُسْبَقْ إليهما، كما أشار إلى ذلك النُّقَّادُ[4]، وهما وصفُهُ للأسطولِ الحربي، والمعركةِ الحربيةِ، وما يتبع ذلك من وصفِ الفرسانِ، والثّانيةَ وصفُهُ شَجَّةً

---

(١) ديوانه (٢٠٤٦/٣).

(٢) ديوانه (٢٦٧).

(٣) الأشباه والنّظائر، تحقيق: د/ السّيّد محمّد يوسف، ط لجنة التّأليف والنّشــر، القاهرة، (٢١٦-٢١٤/١).

(٤) ديوان المعانِي لأبي هلال العسكري، عالم الكتب (٦٣/٢)، وأخبار البُحتُرِيّ (١١٤).

لحقتْ إبراهيمَ بنَ المدبرِ، أُسِرَ على أثرها، ثم هربَ من السّجنِ فوصف كُلَّ ذلك.

أمّا وصفه الحربَ البحريَةَ وقد تقدّم ذكرُهَا[1]؛ فكُلُّهَا جديدةٌ لم يُسْبَقْ إلى معانيها، ولا مانعَ من أن نعرض لبعض ما فيها من مثلِ تشبيههِ صوتَ البحرِ بين الرِّماحِ المتعاقبةِ بخوارِ الفحل الكبيرِ، إذا تردّد في حنجرته، ووصفه ميدانَ المعركةِ ببيتينِ فقط، وكان ينبغي أن يطيلَ فيه، فذكر بأنّ نتيجةَ المعركةِ قد ظهرت بسرعة، فَهَامٌ مطيَّرٌ، وأعناقٌ مقطَّعةٌ، وأشار إشارةً لطيفةً إلى أنّ ميدانَ المعركةِ البحريةِ ليس كميدانِ المعركةِ البحريةِ؛ إذ لا غبار في ميدانِ المعركةِ البحريةِ؛ لأَنَّهَا على الماء، ولا أرضَ تقع عليها الجثث فتسيل عليها الدّماء.

ومن الجديدِ فيها –أيضاً-: وصْفُهُ لفرارِ قائد الأعداء، بأنّه كان شديدَ الحَنْقِ على الموجةِ التي تعترضُ طريقَهُ، أو لا تدفَعُ به إلى أن تبلِّغَهُ مَدَّ بصره، وأنّه كان ينظر إليها نظرةَ أُخزَرٍ–وهو ضَيِّقُ العينِ لشدَّةِ الغضبِ- كُلُّ هذا لِمبلغِ الخوفِ منه.

وأمّا قصيدَتُهُ التي مدح فيها إبراهيم بن المدبر، وكان قد أسره الزِّنْجُ، ثم هربَ من أسره فمطلعها[2]:

قد كانَ طيفُكَ مرة يُغْرَى بِي يعتادُ رَكْبِي –طَارِقاً- ورِكَابِي

(١) الرّسالة (ص: ٥٦٨).

(٢) ديوانه (١/٢٨٩).

فقد وصف فيها ابنَ المدبر بالشّجاعة، ثم اعتذَرَ عمّا أصابَهُ، وأنّه لو أراد الحياة لَفَرَّ، ولكنَّهُ رَضِيَ بالأسرِ فكانت الضّربةُ بوجهِهِ لا بِعِرْضِهِ، ثم وصف هُروبَهُ من السّجنِ ثم عاد فمدح شجاعته.

وامّا من حيثُ معانِي الحربِ وصورِها في الأبيات المفردة، فله أبياتٌ جديدةٌ، لم يجيءْ فيها مُقَلِّداً، خاصّةً حينما يصف فارّاً أو مصلوباً أو عند وصفه السِّجْنِ ومَنْ فيه:

فمن وصفه الفارَّ قولُهُ[1]:

ومضى ابن عمروٍ قد أساءَ بَعُمْرِهِ ... ظَنّاً يُنَزِّقُ مُهرَهُ تَنْزِيْقا
ركبتْ حوانحُهُ قوادمَ رَوْعِهِ ... يَخْذفْنَهُ خَذْفَ المَرِيرِ الفُوقَا
فاجتاز دَجْلَةَ خائضاً وكأنَّها ... قَعبٌ على نَهْرِ الكُحَيْلِ أَرِيْقَا
لو خاضها عِمْلِيقٌ أو عوجٌ إذاً ... ما جَوَّزَتْ عوجاً ولا عِمْلِيْقَا
لولا اضطرابُ الخوفِ في أحشائه ... رَسَبَ العُبابُ بِهِ فماتَ غَرِيْقَا
خاضَ الحتوفَ إلى الحتوفِ مُعانِقاً ... زَجِلاً كَفِهْرِ المَنْجَنِيْقِ عَتِيْقَا

فقد جعل لقلبه قوادمَ وجعل لهذه القوادم تحت جوانحه، وهما يداه، وجعلَ اعتمادَ هذه الجوانحِ على هذه القوادِمِ، فطارت به؛ لأنّ القوادمَ قوّةٌ للجوانحِ –كما قيل–؛ فطارتْ طيراناً سريعاً، يدفَعْنَهُ في الفيافي والقفار، متجاوزاً بِهِما الأنهار والبحارَ، كما يخذفُ الجَلِدُ الشّجاعُ السَّهْمَ مع الشَّقِّ مستعيناً بالوتر، فهذه صورةٌ فريدةٌ.

(١) ديوانه (٣/١٤٥٠-١٤٥١)، من قصيدةٍ يمتدح بها أبا سعيدٍ الثّغري.

والصّورةُ الثّانيةُ في كونه قد تجاوزَ دِجْلَةَ مع عظمها، ولولا ما بلغ به الخوفُ لَغَرِقَ وهلك؛ لكنَّ هذا الخوفَ كان سبباً في إنْجَائه؛ كأنّهُ كان يرفعه فوقَ الموجِ.

وفي البيت الأخيرِ تشبيه صوتِ هذا الفارِّ —وقد أنهكه الفرارُ فصار له صوتٌ مدوٍّ— بصوتِ حجرِ المَنْجَنيْقِ الصَّلْدِ.

ومن وصفه للمصلوبِ قولُهُ[1]:

فهو كالشّاعرِ استبدتْ به الفكرةُ فيما أضلَّ بُعْدَ الوجودِ
وَكَأَنَّ امتدادَ كفَّيهِ فوقَ الجذعِ في محفلِ الرّدى المشهودِ
طائرٌ مَدَّ مستريحاً جناحيهِ استراحاتِ متعبٍ مكدودِ

فالصّورة الأولى: في تشبيه المصلوبِ، وقد أطرق برأسه مع تغميض عينيه،بالشَّاعرِ الذي شَرَدَ فكره بحثاً وراء معنًى يريدُ تَسْطِيْرَهُ، فكأنَّما غابَ عَمَّن حَولَهُ لا يفكِّر إلاّ في الوقوعِ على هذه الفكرة وهذا المعنَى.

والصّورةُ الثّانية: في تشبيهه امتداد كَفَّيِ المصلوبِ بطائرٍ قد استطاب الحَومَ في السَّماءِ، فَمدَّ جناحيه على استقامتهما وأرخى العنَانَ للرِّيحِ تدفَعُهُ، ثم زادَ الصّورةَ إيضاحاً بأنْ شَبَّهَ استراحَةَ هذا الطّائرِ باستراحةِ عاملٍ قد أنهكه التّعبُ فَمدَّ يديه على البطحاءِ ليستريحَ من عناء عمله.

(١) ديوانه (٢/٨١٠-٨١١)، من قصيدةٍ يمدح بها أحمد بن عبد العزيز بن الشّلمغان.

هــ الأفكار بين المبالغة والاقتصاد:

معانِي شعرِ البُحتُرِيِّ مقتصِدَةٌ في الغالبِ؛ لأنّها لا تتجاوزُ المدحَ-في الشّجاعة-ووصفَ فروسية القائد وإرهابَه أعداءه، وخوفَهُ منه، ووصفَ ما حَلَّ بالأعداءِ وما لَحَقَهُمْ من ذُلٍّ وصغارٍ، ووصفَ ميدانِ المعركةِ، وهذا لا يعنِي خُلُوَّ شعرِهِ من المبالغاتِ؛ لكنّها لا تتجاوزُ حَدَّ المعقولِ، ولا تصلُ إلى الإسرافِ والغُلُوِّ، ومن مبالغاته قولُهُ في وصفِ موقعةٍ[1]:

لقد زُلْزِلَتْ أرضُ الجبالِ بوقعة أسالتْ دماً في كُلِّ نشرٍ وأَبْطَحِ

فقد جعل الدَّمَ يسيلُ في كُلِّ منخفضٍ من الأرضِ ومرتفعٍ، وفي كُلِّ جبلٍ ووادٍ من هذه المنطقة، والواقع أنّ الموقعةَ لم تتجاوز بعضَ هذه المنطقة، ولكنّها مبالغةٌ لا تتجاوزُ حَدَّ المعقولِ، فقد تسيلُ الدِّماءُ من جَرَّاءِ جراحِ مَنْ هرَبَ من الجرحى الذين اختفوا بين الشِّعابِ وفي حرجاتِ الأوديةِ، وجندُ ممدوحه يتابعوهم فيها للقضاء عليهم.

ومن مبالغاته المذمومة: وصفُهُ لِخطراتِ فكرِ القائدِ، وبادراتِ رأيِهِ، بأنّها قد كشفتْ ما استكنَّ وراءَ حُجُبِ الغيبِ كقوله[2]:

وإذا استعانَ بِخَطْرَةٍ من فِكْرِهِ عَنٍ فسترُ الغيبِ ليس بِمُسْجَفِ

(١) ديوانه (٢٨٩/١).

(٢) ديوانه (١٤١٥/٣)، من قصيدةٍ يمندح بها يوسف بن محمّد الثّغرِيّ.

هذا، والغالب على قصائده الاقتصادُ في الوصف، وعدمُ التّهويـــلِ وتجاوزُ الحَدِّ في رسمِ الصّورةِ وتخيُّلِها؛ فإنْ وَصَفَ شدَّةَ الحربِ قال(١):

وعوانٍ يُحَـــلُّ تحـــتَ وغاهـــا عقدةُ الفارسِ الشُّجَاعِ النَّجِيْـــدِ
يَخرسُ الدَّارِعُونَ فيها فما يســـ ـــمعُ فيها إلاّ كـــلامُ الحديـــدِ

فانحلالُ عَقْدَهُ الإزارِ أمرٌ يكون عند كُلِّ حركةٍ، ولكن انحلالَ عقد إزار الفارسِ الشّجاعِ النّجيدِ دليلٌ على قوّهَا وكثرة حراكةٍ فيها، وكنايةً عن أهوالِها،وكذا خَرَسُ الدّارِعينَ وعدمُ كلامِهِم، وعدمُ سماعِ أيِّ صوتٍ إلاّ صوتُ تقارُعِ الحديدِ، ففيه دلالةٌ علـــى انبـــهارِ الفرســـانِ وعـــدمِ استطاعَتِهِمْ الكلامَ حيثُ تَجِفُّ حلوقُهُمْ وتَيْبَسُ شِفَاهُهُمْ فلا يســـتطيعونَ الكلامَ.

وإذا وصف خوفَ الأعداءِ من ممدوحه قال(٢):

عَلِمَ الرّومُ أنّ غزوَكَ ما كـــان عقابـــاً لَهُـــم ولكـــن فنـــاءَ
بسباءٍ سقاهُمُ الـــبينَ صِـــرْفاً وبقتلٍ نَسُـــوا لديـــه النّســـاءَ

أو قوله(٣):

ربّما وقعة شملتَ بهـــا الـــرّومَ فبـــاتوا أذلّـــةً صـــاغرِيْنَا
قد أَمِنَّا أن يأمنوكَ على حـــالٍ ولو صَيَّرُوا النُّجـــومَ حُصُـــونَا

---

(١) ديوانه (٢/٧٧٠)، من قصيدةٍ يمتدح بها أبا نهشل الطّوسي.

(٢) ديوانه (١/١٨)، من قصيدةٍ يمتدح بها أبا سعيدٍ.

(٣) ديوانه (٤/٢١٦٥-٢١٦٦)، من قصيدةٍ يمتدح بها أبا سعيدٍ.

فَزَّعُوا باسمِكَ الصَّبِيَّ فعــادتْ حركاتُ البكاءِ منــه ســكونَا

كُلُّ هذا دليلٌ على فَزَعِهِمْ وخوفِهِمْ غيرُ مبالغٍ فيه؛ لأنّــه مُمْكِــنُ الوقوعِ أو بالأحرى هو أمرٌ واقعٌ.

وبهذا نأتِي إلى ختام الحديث عن خصائصِ شعرِ البُحْتُرِيّ الحرْبِيّ.

الفصل الثّاني:

الخَصَائِصُ الفَنِّيَّةُ لِشِعْرِ الحَرْبِ عند المُتَنَبِّي

خصائصُ الشَّكلِ:

- الألفاظ والتّراكيب.
- الصّورة البيانية.
- القيم الصّوتية.
- البناء الفنّي لقصيدة الحرب عند المُتَنَبِّي.

خصائصُ المَضمونِ:

- التّجربة الشّعرِيّة.
- العاطفة.
- الأفكار.

الخَصَائصُ الفَنِّيَّةُ لِشعْرِ الحَرْبِ عند المُتَنبِّي

تحدَّثَ النُّقَّادُ عن خصائصِ شعْرِ المُتَنَبِّي عامّةً، ولكنّنا هنا سنتحدَّث عن الخصائصِ الفنِّيَّة لشعْرِ الحربِ فقط، وذلك فيما يلي:

الخَصَائِصُ الفَنِّيَّةُ من حيث الشّكل:

أ-الألفاظ والتّراكيب:

١-الألفاظ:

سَبَقَ الحديثُ عن مقاييسِ الألفاظِ في الفصل السّابقِ[1]، واتَّضَح لنا من خلال ما درسنا أنّ أفضل نظمٍ للألفاظ، هو ما ابتعدَ فيه النّاظمُ عن حوشي الألفاظِ وغريبِهَا، مع إتقانه نَظمَ كُلِّ كلمةٍ مع أختها، مجتنباً التّكرار المجتلب، وإدراكه موافقتَها للغرضِ والمقامِ.

وقد «اهتمّ المُتَنَبِّي بألفاظه، وانتقائها، ووضعِها اهتماماً عظيماً، بحيث إنّنا لن نُبالغَ إذا قلنا إنّ له صنعةً خاصّةً بألفاظه، وله ما يشبه المعجَمَ الكاملَ من المصطلحاتِ والكلماتِ، وظلَّ هذا الاتّجاه عندَهُ إلى آخر حياته»[2].

---

(١) ص: (٥٣٦، ٥٣٨)، من الرّسالة.

(٢) الصّنعة الفنِّيَّة في شعر المُتَنَبِّي، د/ صلاح بن الحافظ (٥٧)، ط. (١)، عام ١٩٨٣م، دار المعارفِ، مصر.

ومع أنّ صنعتَهُ هذه قد يكون في بعضِ حوانبها ما يخالف المشهورَ من اللّغة، إلاّ أنّه يُقْدِمُ على ذلك غيرِ عابِيءٍ بهذه المخالفةِ، ما دام يجد لــه مستنداً من اللّغة ولو كان شاذّاً، وهذا ما جعلَ صاحب العمــدةِ يصــفه بقوله [(١)]:

«وأبوالطّيِّب كالملكِ الجبّارِ يأخذُ ما حوله قهراً وعنوةً،أو كالشّجاعِ الجرْيءِ يَهجُمُ على ما بريدِه،لا يبالي ما لَقِيَ ولا حيث وَقَعَ».

وقد كان صاحبَ ثروةٍ لغويَّةٍ كونتْ معجمَهُ الشِّــعْرِيَّ في كُــلِّ قصائِدِه وتَمثّلتْ في إكثارِهِ من أسماءِ السِّلاحِ وأدواتِ الحربِ، من خيــلٍ وفرسانٍ أو ذكرِهِ مظاهِرَهَا من غبارٍ وقدحٍ وتصادمِ ســلاحٍ وأصــواتٍ وضوضاءَ أو وصفٍ لِنتائجِ المعركةِ، وما في ميدانِها من قتلى وجرحى، أو هُرَّابٍ ومستسلمين وأسرى، وغير ذلك ممّا له علاقةٌ بالحروب.

وبالبحثُ في ألفاظِ شعرِهِ الحربيِّ نَجدُ لَها خصائصَ معيَّنَةً تتمثّلُ في الآتي:

-جَزَالَتُهَا:

كان المُتَنَبِّي حريصاً على اختيارِ الألفاظ الجزلةِ في شِعْرِهِ عامّةً، وفي الشِّعْرِ الحربيِّ خاصّةً، وهذه الجزالةُ ممّا يتناسبُ وهذا المقام، كما قال ابن الأثير[(٢)]: «فالجزلُ منها يستعملُ في وصفِ مواقفِ الحروبِ، وفي قــوارِعِ التّهديدِ، التّخويفِ وأشباه ذلك».

---

(١) العمدة (٩٨١).

(٢) المثل السّائر (١/٢٧٥).

فهي ألفاظٌ: «متينةُ السّبكِ قويَّةُ الأركانِ، عظيمةُ البنيانِ»[١].

وقد سَاعَدَهُ على انتقاءِ الجزلِ نفسيَّتُهُ الثَّائرةُ علـى كُـلِّ شـيءٍ، والطّامحةُ إلى كُلِّ علياءٍ، وكذا نَشأتُهُ بين الأعرابِ، وأخذُهُ منهم الفصاحةَ والشُّجاعةَ والقوّةَ والفروسيةَ.

«ويكفي أنْ تقرأ أيَّةَ قصيدةٍ حربيةٍ نَظَمَها المُتَنَبِّي في لَظَى الحـربِ، وتحتَ أسنةِ الرّماحِ، وبين صليلِ السُّيوفِ، وفي انسكابِ الدِّماءِ الغـزارِ، حتّى ترى هذه الرّوعةَ الشّعوريَّةَ العميقةَ الدّفاقةَ، وكأنَّ المعركةَ بأهوالِهـا وشدائدِها حاضرةٌ أمامَ ناظريكَ»[٢].

ومن ذلك: قَصِيدَتُهُ في وصفِ الحدَثِ، وما دارَ عنـدَها، وهـي قصيدةٌ كُلُّهَا ألفاظٌ جزلةٌ، وأوّلُ ما يقابلنا فيها، ويقرعُ أسماعَنَا منها، قولُهُ في مطلَعِهَا[٣]:

أتوكَ يجـرونَ الحديـدَ كَـأَنَّهُمْ ... سروا بِجيادٍ ما لَهـنَّ قـوائمُ
إذا بَرَقُوا لَم تُعْرَفِ البيضُ مِـنْهُمُ ... ثيابُهُمْ من مثلـها والعمـائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ ... وفي أذنِ الجوزاءِ منـه زَمَـازِمُ
تَجَمَّعَ فيـه كُـلُّ لَسْـنٍ وأُمَّـةٍ ... فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلاّ التّـراجِمُ

فإنّه عَدَلَ عن استخدام (جاؤوك) بدلاً من (أتوك)، و(يسـحبون) بدلاً من (يجرون) و(يخيول) بدلاً مـن (بجيـاد) و(لمعـوا) بـدلاً مـن

(١) الحرب في شعر المُتَنَبِّي، د/ محمود حسن أبو ناجي، (٢/١٩٥).

(٢) المرجع نفسه (٢/١٩٧).

(٣) ديوانه (٤/٩٤-٩٥)، مطلع قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(برقوا) و(مشيه) بدلاً من (زحفه) وما ذاك إلاّ لِحرصه على الجزالةِ وشدّةِ الأسرِ.

ومِمّا أضفى عليها الجزالةَ إكثارُهُ من ذكرِ عُدَدِ الحربِ، ووصفِ شدّةِ الهولِ؛ كقوله عن الأعداءِ من قصيدةٍ يمدحُ بها سيفَ الدّولة[1]:

فأتتهَمْ خوارقُ الأَرضِ ما تحـ ... ـملُ إلاّ الحديدَ والأباطالا
خافياتُ الألوانِ قد نسجَ النّقـ ... ـعُ عليها براقعاً وجِلالَا
حالفتْـهُ صـدورُها والعـوالِي ... لَتَخُوْضَـنَّ دونَـهُ الأهـوالا
ولَتَمْضِنَّ حيثُ لا يَجِدُ الرّمـ ... ـحُ مداراً ولا الحصان مجـالا
*** ***
يَجْمَعُ الرّومَ والصّقالبَ والبلـ ... ـغَرَ فيهـا وتجمـعُ الآحـالا
وتوافيهِمْ بها في القنـا السّمـ ... ـرِ كما وافتِ العطاشُ الصّلالا

ففي أبياتٍ قلائلَ ذكرَ: «الحديد، والأبطالَ، والنَّقـعَ، والبراقـعَ، والجلالَ، والعوالِيَ، والخوضَ، والأهوالَ، والرّمحَ ومـداره، والحصـانَ ومجالَه، وجندَ الرّومِ وأصنافَهُمْ، والآجالَ والقنا السّمرَ».

هذا، وللمُتَنَبِّي ألفاظٌ رقيقةٌ؛ لكنّها لا تُمثِّلُ الظّاهرةَ العامَّةَ، ومـن ذلك قولُهُ من قصيدةٍ يمدحُ بها سيفَ الدّولةِ على انقاذهِ أحدَ الثُّغُورِ مـن

---

(١) ديوانه (٣/٢٥٥-٢٥٨).
الحلال: جمع: حُلٍّ، وهو ما كان على ظهر الدّابة تحت السّرح.
الصَّلال، جمع: صِلّ، وهي الأمطارُ المتفرّقةُ يقع منها الشّيءُ بعد الشّيءِ، وكذا بقايا الماء، اللّسان (١١/٣٨٣).

إغارةِ الدُّمسْتُقِ[١]:

وَغَرَّ الدُّمســتُقَ قــولُ العــدا ... ةِ أنّ عليّــاً ثَقيــلٌ وَصِــبْ
وقــد علمــت خيلُــهُ أنّــهُ ... إذا هَمَّ وهــو عليــلٌ رَكِــبْ
أتاهُمْ بأوسعَ مِــن أرضِــهِمْ ... طوالَ السّبيبِ قصارَ العُسُــبْ
تغيبُ الشّــواهِقُ في جيشــهِ ... وتبــدو صــغاراً إذا لم تَغِــبْ
ولا تعــبرُ الــرّيحُ في جَــوِّهِ ... إذا لم تَخَــطَّ القنــا أو تَثِــب
فغــرقَ مــدنَهُمُ بالجيـــو ... شِ وأخفتَ أصواتَهُمْ باللّجــبْ
فأخبثْ بــه طالبــاً قَهــرَهُمْ ... وأخبثْ به تاركاً مــا طلَــبْ
نأيــتَ فقــاتَلَهُمْ باللِّقــا ... ءِ وجئتَ فقــاتَلَهُمْ بــالهرَبْ

فالغالبُ على هذه القصيدةِ رقّةُ الألفاظِ وسهولَةِ مخارِجِ حروفهــا، وليس هذا لِخفَّةِ البحرِ وقِصَرِ تفعيلاتِهِ، فقد تكون هذه الألفاظُ الرّقيقةُ في قصيدة من بحرِ الطّويلِ؛ كقوله[٢]:

هنيئاً لأَهلِ الثَّغرِ رأيَــكَ فــيهِمُ ... وأنّكَ حزبَ اللهِ صرتَ لَهم حِرْبَا
وأنّك رعْتَ الدّهر فيها وريبَــهُ ... فإنْ شَكَّ فليحدثْ بساحَتِهَا خَطْبا
فيوماً بِخيلٍ تطردُ الرّومَ عنــهُمُ ... ويوماً بجودٍ تطرُدُ الفقــرَ والجَــدْبَا
سراياك تتري، والدُّمستُقُ هاربٌ ... وأصحابُهُ قتلى، وأموالُــهُ نُهَبَــى
أتى(مرْعشاً)يستقربُ البعدَ مقبلاً ... وأدبر إذا أقبلتَ يســتبعدُ القربــا
كذا يتركُ الأعداءُ من يكره القنا ... ويقفلُ مَن كانت غنيمَتُــهُ رُعْبــا

---

(١) ديوانه (١/٢٢٩-٢٣١).

(٢) ديوانه (١/١٨٧-١٩٠).

إنّها ألفاظٌ مألوفةٌ مأنوسةٌ.

يغلبُ على ألفاظِ أبي الطَّيِّبِ في شعرِهِ الحربي إلْفُهَا وأُنسُها وعدمُ غرابَتِهَا ووحشِيَتِها، وإن كان المعهودُ عنه التّفاصُحُ ليدلَّ على براعَتِه اللّغويَّةِ، إلاّ أنّ قصائِدَهُ الحربِيَّةَ تَقِلُّ فيها الألفاظُ الغريبةُ الوحشيةُ.

ومن أمثلةِ هذه الألفاظِ المألوفةِ المأنوسةِ قولُهُ من قصيدةٍ يمدحُ بها عليَّ بن إبراهيم التّنوخِيّ[(١)]:

كأنَّ سخاءَكَ الإسلامُ تخشى ... إذا ما حُلتَ عاقِبَةَ ارتدادِ
كأنَّ الهامَ في الهيجا عيونٌ ... وقد طبعتْ سُيُوفُكَ من رُقادِ
وقد صغتَ الأسنةَ من همومٍ ... فما يخطرنَ إلاّ في فؤادِ
ويومٍ جلبتَهَا شُعْثَ النَّواصِي ... معقدةُ السّبائبِ للطّرادِ

فإنّ كُلَّ ألفاظِ هذا المقطعِ الحربي مألوفةٌ مأنوسةٌ مثلاً: «الهام، الهيجا، عيون، طبعت، سيوفك، رقاد، صغت، الأسنة، هموم، يخطرن، فؤاد، جلبتها، شعث النّواصِي، معقدة السّبائب للطّراد»؛ فهذه كلماتُ ثلاثةِ أبياتٍ، مع ألفها وأنسها قامتْ بوصفِ الغرضِ الحربِيِّ خير قيامٍ.

- **ملاءمَتُهَا للغرض:**

ملاءمةُ الألفاظِ للغرضِ الذي أنشئت من أجله القصيدة أو المعنَى التي يرادُ التّعبيرُ عنه، من ضروريّات الإبداع، ولقد كان المُتَنَبِّي متحرِّياً

(١) ديوانه (٢/٨٠-٨٣).

لذلك في شعرِهِ الحربِي في أغلب أحواله؛ فألفاظُهُ موحيةٌ مشعَّةٌ، تعبّرُ أدقَّ تعبيرٍ عمّا يريد نقله من مَشَاعِرَ وخَواطِرَ وانفعالاتٍ، تكادُ تسمعُ منها قعقعةَ السِّلاحِ ودقّاتِ الطّبول.

ومن ذلك قولُهُ في قصيدته التِي مدح بها سيفَ الدّولةِ حين غزا بنِي كلاب(١):

بغيرِكَ راعيا عبثَ الذّئابُ ... وغيرِكَ صارماً ثُلِمَ الضِّرَابُ

وتملكُ أنفُسَ الثّقلينِ طَرّاً ... فكيفَ تحوزُ أنفَسَهَا كلابُ

وما تركوك معصيةً ولكنْ ... يعافُ الوِرْدُ والموتُ الشّرابُ

طلبتَهُمُ على الأمواهِ حتّى ... تَخوَّفَ أن تُفتِّشَهُ السَّحابُ

فبتَّ ليالياً لا نوم فيها ... تَخُبُّ بك المسومةُ العرابُ

يَهزُّ الجيشُ حولك جانبيه ... كما نفضتْ جناحيها العُقابُ

وتسألُ عنهم الفلواتِ حتّى ... أجابَكَ بعضُها وهم الجوابُ

فالألفاظُ جزلةٌ تناسبُ الغرضِ الذي جاء من أجله؛ لأنّها في إبراز قوّة سيفِ الدّولة: «عبثَ، صارماً، ثُلِمَ، الضّراب، طرأ، تخوَّفَ، تُفتِّشه، تخبُّ، مسومةً، عرابُ، يَهُزّ، تفضت، عقاب»؛ فكُلُّها: «ألفاظٌ جزلةٌ رصينةٌ، فيها النّبرةُ العاليةُ؛ بحيث تكادُ تسمعُ رنينَها وجهارَتَها»(٢).

وفيها مناسبةٌ للمعنَى: «فإنّ قوّةَ الحامِي تبرزه كلمةُ (راعياً

(١) ديوانه (١/٢٠٤-٢٠٥).

(٢) في ميزان النَّقْدِ الأدبِي، د/ طه أبو كريشه (٨١).

وصارماً)، وعدم ورود الماءِ خوفاً من الموت تبرزه كلمة (يعافُ)، والحركة الدّافقة التي أراد إثباها لجيشِ سيفِ الدّولةِ تصوّرها الكلمات: (لا نومَ، تخبُّ، يهزُّ، كما نفضت جناحيها العقاب))[1].

ومثله قولُهُ في موالِي سيفِ الدّولة وخيله:

كلّما صَبَّحَتْ ديارَ عدُوٍّ قال تلكَ الغيوثُ هذي السُّيُولُ
دَهِمته تُطايرُ الزّردَ المحـ ـكمَ عنه كما يطيرُ النَّسيلُ
تقنصُ الخيلَ خيلُهُ قَنَصَ الوحـ ـشِ ويستأسرُ الخميسَ الرّعيلُ

ثم عاد إلى الحديث عن سيفِ الدّولة[2]:

وإذا الحربُ أعرضتْ زعمَ الهوْ لُ لعَيْنَيه أنّه تهويلُ
وإذا صحَّ فالزّمانُ صحيحٌ إذا اعتلَّ فالزّمانُ عليلُ
وإذا غابَ وجهُهُ عن مكان فبه مِنْ ثناهُ وجهٌ جميلُ
ليس إلاّكَ يا عليُّ همامٌ سيفُهُ دونَ عِرضِهِ مسلولُ
كيف لا يأمَنُ العراقُ ومصرُ وسراياك دونَهَا والخُيُولُ
لو تحرَّفت عن طريقِ الأعادي ربطَ السّدرُ خيلَهُم والنّخيلُ
ودرى من أعزَّهُ الدَّفعُ عنهُ فيهما أنّه الحقيرُ الذّليلُ
أنتَ طولَ الحياةِ للرّومِ غازٍ فمَتَى الوعدُ أن يكونَ القُفُولُ
وسوى الرُّومِ خلفَ ظهرها رومٌ فعلى أيّ جانبيْكَ تَميلُ

(١) في ميزان النَّقْدِ الأدبي، د/ طه أبو كريشه (٨١).

(٢) ديوانه (٣/٢٧٥-٢٧٧).

قعدَ النّاسُ كُلُّهُمْ عن مساعيـــ ـــكَ وقامتْ بها القنا والنُّصـــولُ

فإنّه أراد أن يثبت قوَّةَ موالِي سيفِ الدّولة، فأفاده في: (صَـــبَّحَتْ، السُّيُولُ، دهمتْهُ تُطَايِرُ).

وأراد أن يثبت قوّةَ خيله فقال: (تقنُصُ) دلالةً على تسلّطها وقهرها لخيل الأعداءِ وجيوشهم.

وأراد أن يثبت قوّةَ سيفِ الدّولة؛ فقال: (زعم الهولُ) فجعل الهولَ هو المتكلِّمُ استخذاء له، وقال: (زَعَم) و لم يقل: (قال)؛ لأنّ (زعم) تثبت خلاف ما قال هذا الهول؛ فإنّه هولٌ عظيمٌ ولو زعم أنّه تهويلٌ ومع هـــذا يستخذي ويضعف أمامه.

وقال: (همام)، ليثبت أنّه ملكٌ عظيمٌ قويُّ الشّكيمة عالِي الهمّة.

وقال: (لو تحرّفت)؛ فكأنّه صخرةٌ عاتيةٌ وقفت في وجوه الأعـــداءِ فلا يمكن أن تتحرّك إلاّ بشيءٍ من الثّقلِ بمقدارِ ثقل الكلمة، وأنّ ذلك لا يُمكنُ أصلاً.

وأراد أن يثبت له ديمومَةَ الجهادِ؛ فقال: (طولَ الحيـــاة)، فـــأدّتِ الكلمةُ معنَى الاستمرار في هذا الجهادِ المقدَّسِ.

-ملاءمةُ جرسِ الألفاظ للغرض:

- لأبي الطَّيِّب عنايةٌ بذلك؛ فإنّه حريصٌ على أن تتواءم موسيقى الكلمة وجرس حروفها مع الغرض الحربِيِّ الذي مصدره القوّة والجـــبروت، ومن ذلك قولُهُ[1]:

(١) ديوانه (٤/١٠١-١٠٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

فلله وقــتٌ ذوبَ الغِــشَّ نــارُهُ فلم يبقَ إلاّ صــارِمٌ أو ضُــبَارِمُ
تقطَّعُ ما لا يقطَعُ الــدِّرعَ والقَنَــا وفرَّ من الأبطالِ من لا يُصَــادِمُ
وقفتَ وما في الموتِ شَكٌّ لِواقــفٍ كأنَّكَ في جَفْنِ الرّدى وهو نائِمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كلمَــى هزيمــةً ووجهُكَ وضاحٌ وثغرُكَ بَاسِــمُ
تجاوزتَ مقدارَ الشّجاعةِ والنّهــى إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عــالِمُ
ضممت جناحيهِمْ على القلبِ ضَمَّةً تَموتُ الخوافِي تحتها والقــوادِمِ

فالجرسُ القَوِيُّ ظاهرٌ في مثل: «صارم، ضبارم، تقطّع، فرّ، مــا لا، يقْطَع، يصادم، كلمَى، وجهك، ثغرك، وضّاح، باسم، الشّجاعة، النّهى، ضممت، ضمّة، الخوافِي، القوادم...».

فكُلُّها كلماتٌ ذاتُ موسيقي فخمة، أكثر فيهــا مــن الأحــرف المخفمة: الصّاد، والطّاء، ومِمّا زاد في جزالتِهَا وقوعُ مدٍّ بعدها: صــارمٌ، ضبارم، أبطال، يصادم، وضّاح...

ومِمّا قَوِيَ موسيقا ألفاظِ الأبيات السّابقة، وجعلها جزلةً عَدُّهُ أشياءَ منها: الصّياغةُ التِي وردتْ فيها تلك الكلماتُ، وما فيها من تَضْعِيفٍ جاء في مثل قوله: ذوَّب، الغشَّ، تقطّع، فرّ، شَكٌّ...

ومنها: عطفُ النّظيرِ على نظيره، في مثل: صارم، ضبارم، الدّروعَ والقنا، كلمَى، هزيمةً، وجهك، ثغرك، الشّجاعة، النّهى.

أو تكرار اللّفظةِ نفسها أو ما قاربها من الاشتقاق: تقطّع، يَقْطَع، ما لا، من لا، وقفت، لواقفٍ، الموت، الرّدى، ضممت، ضمّة.

تلك هي أشهرُ الخصائص العامّة لكلّ ألفاظه بيد أنّ هناك خصيصةً

لبعض الألفاظ، ومنها ما أشار إليه الثّعالَبِيُّ من: «استعماله ألفاظِ الغـزلِ والنّسيبِ في أوصافِ الحربِ والجِدِّ، وهو –أيضاً- مِمّا لم يُسبَقْ إليه، وتفرّدَ به وأظهر فيه الحِذْقَ بِحسنِ النّقلِ، وأغربَ عن جودَةِ التّصـرُّفِ والتّلعُّبِ بالكلام»[1].

ومن ذلك قوله[2]:

أعلى الممالِكِ ما ينبنِي على الأسلِ والطَّعْنُ عند مُحبِّيهنَّ كالقُبَـلِ

«فقد عهدنا حديث القُبَلِ في مواقفِ الغرامِ بين العاشقين، فإذا يشبّه بها الطَّعْنَ في الحربِ، الذي قد يصيبُ المحاربَ، فليس لذلك من وجهٍ إلاّ التّلذّذ بها في سبيل الوصولِ إلى عزّة الملكِ وهيبةِ السّلطان»[3].

وقولُهُ[4]:

شُجاعٌ كأنَّ الحربَ عاشِقَةٌ لَـه إذا زارها فدتْهُ بالخيلِ والرَّجـلِ

«فقد تَخيَّلَ أنّ بقاءَ المحاربِ الشّجاع دون هلاكِ، إنّما سببه هو أنّ الحربَ تعشَقُهُ، وتحرصُ على بقائه حيّاً، فإذا زارها؛ فإنّها تحميهِ وتدفعُ عنه الأذى، وتفديهِ بالفرسانِ والرَّجالة، ومِن ثَمَّ تستبقيه ولا تفرط فيه، بينما تفنِي من سواه، لأنّها لا تعشقُ إلاّ إيّاه»[5].

---

(١) يتمية الدّهر (١/١٩٣).

(٢) ديوانه (٣/١٤٣).

(٣) الخيال الشّعري عند أبي الطّيِّب المُتَنبِّي، د/ طه أبو كريشه (٦٢/٦٣).

(٤) ديوانه (٣/١٤٤).

(٥) الخَيَالُ الشِّعْرِيّ عند أَبِي الطِّيِّبِ المُتَنَبِّي، د/ طه أبو كريشه (٦٣).

وقولُهُ(١):

غذا الهندوانيّاتِ بالهامِ والطّلَى فَهُنَّ مداريها وهنّ المخانقُ
تَشَقَّقُ مِنْهُنَّ الجيوبُ إذا غزا وتُخْضَبُ مِنْهُنَّ اللّحى والمفارِقُ
يُجَنِّبُهَا مَنْ حتفُهُ عنه غافلٌ ويُصلّى بها من نفسه منه طالقُ

((فالكلماتُ: المداري والمخانِق، الجيوبُ، تخضبُ، المفارقُ، طالقُ، ألفاظٌ لا تأتي إلاّ في سياقِ حديثِ المتغزلينَ، ولا تأتِي في حديث الحربِ، إلاّ على سبيل التّخيّل والتّجوّز))(٢).

وقد أرجع الدّكتور طه وشعيب مردَّ هذا إلى أنّ هذا العشق للحربِ، هو ما تهواه نفسه من حبِّ الأمجاد، ومعالِي الأمور، فلذلك كرّر هذا العشق لها مريداً أن يلائم به بين جوِّ الحربِ المليء بالحزن، وبين ما يشعر به هو نحوها من بهجةٍ وأنسٍ(٣).

هذا، وقد عيب على أبي الطّيِّب في ألفاظه عدّةُ أشياء منها:

١- استخدامه ألفاظاً شاذّةً مهجورةً، وذلك ما يسمِّيه الثّعالِبي: ((الغريب الوحشي))(٤).

---

(١) ديوانه (٣/٨٧).

والمخانق، جمع: مخنقة، وهي القلادة. اللّسان (١٠/٩٢).

(٢) الخيَالُ الشِّعْرِيّ عند أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي، د/ طه أبو كريشه (٦٤).

(٣) المرجع نفسه (٦٤-٦٥)، والمُتَنَبِّي بين ناقديه، د/ محمّد عبد الرّحمن شعيب (١٠٠-١٠١).

(٤) يتيمة الدّهر (١/١٥٧).

لكن ما وجد منها في شعره الحربي قليلٌ لا يشكّلُ ظاهرةً، وأكثر ما وجد من هذا القليل ففي بعض المسمّيات، وبعض القوافِي الحوشي؛ كقوله(١):

أتاهم بها حشو العجاجة والقنا ... سنابكها تحشو بطونَ الحمالقِ

...

فليت أبا الهيجا يرى خلف تدمر ... طوالَ العوالِي في طوالِ السَّمالِقِ

...

بكُلِّ فلاةٍ تنكرُ الأنسُ أرضَها ... ظعائنُ حمرُ الحَلْيِ حُمْرُ الأيانِقِ

وملمومةٌ سيفيَّةٌ ربيعّةٌ ... يصيح الحصى فيها صياحُ اللّقالِقِ

بعيدةُ أطرافِ القنا من أصولهِ ... قريبةٌ بين البَيْضِ غبرُ اليلامِقِ

فإنّ قوافِيَ هذه الأبيات كُلَّها فيها غرابةٌ؛ فالحمالق جمع حِمْلاقٍ، وهو بطن جفن العين.

والسّمالق، جمع سَمْلقٍ، وهي المفازة المستوية الأرض المترامية الأطراف.

والأيانق جمع أيْنُقٍ، جمع ناقة.

واللّقالق، جمع لقلق، وهو طائرٌ كبيرٌ يكثر في العراق.

واليلامق، جمع يلمق، وهي الأقبية.

---

(١) ديوانه (٣/٦٥-٦٧).

وانظر حواشي الأبيات لتفسير معانيها الآتي فيما بعد.

٢- استكثاره من قول (ذا) وممّا ورد منها معيباً -كما يرى بعض النُّقَّادِ-(١) قولُهُ من شعره الحربِي(٢):

أفي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمستُقُ مقدمٌ قفاه على الإقدامِ للوجهِ لائِمُ

والواقعُ أنّها في شعرِهِ الحربِي قليلةٌ، ولا تُمثّلُ ظاهرةً يعاب عليها، كما أنّ بعضَ أماكنِها التِي تأتِي فيها لائقةٌ بها؛ كاستخدامه لها في البيت السّابق؛ فإنّها هنا جاءت للتّحقير، ومن الزّيادة بالتّحقير الضَّنُّ بنطق اللّفظ كاملاً.

تكراره اللّفظ على حاله لغير ما سببٍ معنويٍّ أو آخر يقتضيه، ومِمّا ورد له منه في شعر الحربِ قولُهُ(٣):

لك الخيرُ غيرِي رامَ من غيرِكَ الغنَى وغيرِي بغيرِ اللاذقيَّةِ لاحِقُ

وقوله(٤):

وكُلُّكُم أتَى مأتَى أبيهِ فَكُلُّ فعالِ كلِّكِمُ عُجَابُ

وقولُهُ في بدر بن عمّار(٥):

جوابُ مسائِلِي أَلَهُ نظيرٌ ولا لكَ في سؤالِك لا ألا لا

(١) منهم الثّعالِبي في اليتيمة (١/١٦٣)، وما ذكره القاضي الجرجانِي في وساطته على لسان الخصوم (٩٥-٩٧).

(٢) ديوانه (٤/١٠٥).

(٣) ديوانه (٣/٩٠)، من قصيدة يمدح بها الحسين التّنوخِيّ.

(٤) ديوانه (١/٢١٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٥) ديوانه (٣/٣٤٦)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

وهذا يؤدِّي إلى تعقيد المعنَى ويدلّ على تكلُّف.

بيد أنّ هذه المعائبَ لا تُذْكَرُ مع محاسنِه المتقدِّمة

٢-التّراكيب:

جُلُّ تراكيبِ المُتَنَبِّي في شعرِه الحربيّ حسنةُ التّأليفِ جيِّدَةُ السّبكِ، أعانها على ذلك فخامةُ ألفاظها: «فجمع بين الفصاحةِ والجزالـةِ وبـين العذوبة والرّشاقة»(١).

من مثل قولِه(٢):

له عسكرا خيلٍ وطيرٍ إذا رمَـى ... بها عسـكراً لم يَبْـقَ إلاّ جماجمُـهْ

أَجِلَّتُهَا من كـلِّ طـاغٍ ثيابُـهُ ... وموطِئُها من كـلِّ بـاغٍ مَلاَغِمُـهْ

فقد مَلَّ ضوءُ الصّبحِ مِمّا تغـيرُهُ ... ومَلَّ سـوادُ اللّيـلِ مِمّـا تزاحِمُـهْ

ومَلَّ القنا مِمّا تَـدُقُّ صـدورَهُ ... وملَّ حديدُ الهنـدِ مِمّـا تلاطِمُـهْ

سحابٌ من العقبانِ يزحفُ تَحتَهَا ... سحابٌ إذا استسفَتْ سقَتْهَا صوارِمُهْ

فتراكيبه في هذه البياتِ بليغةٌ مكوّنةٌ من كلماتٍ فصيحةٍ، لا يمكنُ أن ينوبَ غيرُها عنها: «له عسكرا خيلٍ وطيرٍ»، «إذا رمى بها عسكرا، «لم يَبْقَ إلاّ جَماجِمُهُ».

فقال: «له عسرا»، و لم يقل: «له أنصارٌ أو جندٌ أو جيشٌ».

وقال: «إذا رمى بها»، و لم يقل: «إذا هاجم أو أتى».

---

(١) الصّنعة الفنّيّة في شعر المُتَنَبِّي، د/ صلاح بن الحافظ (٢٧٩).

(٢) ديوانه (٤/٥٤-٥٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

وقال: ((لم يبقِ))، ولم يقل: ((لم يترك)).

وهكذا لو تتبّعنا بقيَّةَ تراكيب هذه القصيدة.

هذا، وتتراوحُ جملِ المُتَنَبِّي بين الخبريةِ والإنشائيّة، والجملُ الخبرية أكثرُ؛ لأنّ القصائدَ تَسجيلٌ لوقائعَ مضتْ، وأحداثٌ انتهتْ، فمجالُ الأخبارِ فيها أرحبْ، كقوله[1]:

١-سراياك تترى، والدُّمستُقُ هاربٌ وأصحابُهُ قتلىَ وأموالُهُ نُهَبى

٢-أتَى مرعشاً يستقرِبُ البعدَ مقبلاً وأدبر إذ أقبلت يستبعدُ القُرْبَا

٣-كذا يتركُ الأعداءَ من يكرهُ القَنَا ويقفُلُ مَن كانتْ غنيمَتُهُ رُعْبَا

٤-وهل رَدَّ عنه باللُّقانِ وقوفُهُ صدورَ العوالي والمطهَّمةَ القُبَّا

٥-مضى بعدما التفَّ الرّماحانِ ساعةً كما يتلقّى الهدبُ في الرّقدة الهُدَبا

٦-ولكنّه ولّى وللطّعنِ سَوْرَةٌ إذا ذكرتْهَا نفسُهُ لَمَسَ الجَنْبَا

٧-وخَلَّى العذارَى والبطارِيقَ والقُرَى وشعثَ النَّصَارى والقرابينَ والصُّلْبَا

فقولُهُ: ((سراياك تترى، الدُّمستُقُ هارِب، أصحابه قتلى، أموالُهُ نُهبَى، أتَى مرعشاً مقبلاً، أدبر إذ أقبلت، خلّى العذارى و...)).

فكُلُّ هذه الجمل خبريةٌ وهي إخبارٌ عن الدُّمستُقُ ومآل جنده، ويَستَشَفُ منها الاستهزاءُ به وبِجيشِهِ الذي لم يُمهله للوقوفِ للرّماحِ ومجابهةُ الأعداءِ.

كما أنّ أكثر هذه الجملِ الخبريّةِ جملٌ فعليّةٌ بين جملٍ مُصَدَّرَة بأفعالٍ ماضية، وجملٍ مصدَّرَة بأفعال مضارعة: ((أتَى، أدبر، أقبلت، يترك، يكره،

(١) ديوانه (١/١٨٨-١٨٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

يقفل، رَدَّ، مضى، يتلقى، ولّى، ذكرهما، لَمَسَ، خلّى».

وتَكمنُ فائدةُ التّعبيرِ بالفعل المضارِعِ لِما فيه من إفـادةِ التّجـدّدِ والحدوث.

فقولُهُ: «كذا يترك الأعداء مَن يكره القنا»، يفيد: أنّ مَنْ هذا شأنُهُ من كرهه الحربَ، وخوفِهِ من القنا سَيَفِرُّ من أمام الأعداء كُلّما لَقِيَهُم.

وأظهرُ من الأمثلةِ الماضيةِ في الدّلالة على فائـدةِ التّعـبيرِ بالفعـل المضارع قولُهُ(١):

قادَ الجيادُ إلى الطِّعانِ ولم يقُـدْ ... إلاّ إلى العـاداتِ والأوطـانِ
كلّ ابنِ سابقةٍ يغـيرُ بِحسـنِهِ ... في قلبِ صاحبِهِ علـى الأحْـزانِ
إن خليتْ ربطتْ بآدابِ الـوغَى ... فدعاؤها يغني عـنِ الأرْسـانِ
في جحفلٍ سَتَرَ العيـونَ غبـارُهُ ... فكأنّمَـا يُبْصِـرْنَ بـالآذانِ
يرمي بها البلـدَ البعيـدَ مظفّـرٌ ... كُـلُّ البعيـدِ لـه قريـبٌ دانِ
حتّى عبرنَ بأرسـناسَ سـوابحاً ... يَنْشُرْنَ فيـه عمَـائمَ الفرسـانِ
وحشاه عاديـةً بغـيرِ قـوائمٍ ... عقمَ البطونِ حوالِـكَ الألـوانِ
تأتي بِما سَبَتِ الخيـولُ كأنّهـا ... تحت الحسانِ مـرابضُ الغُـزْلانِ

فإنّ قولَهُ: «يغيرُ بِحسنِهِ»، يفيد تجدّد هذه الإغارة في كـلّ وقـت كُلّما ينظر إليه صاحبه.

وقولَهُ: «يغنِي عن الأرسان»، يفيد أنّ ذلك من شأنِها في كُلّ حينَ

(١) ديوانه (٤/٣٠٩-٣١٢).

كُلَّما دُعِيَتْ.

وقولَهُ: «يبصرن بالآذان»، يفيد أنّ إبصارها وحِدَّةُ نظرِهَا ملازمةٌ لَهَا، ومتجدِّدةٌ كلُّما كساها الغبارُ.

وقولَهُ: «يرمِي بها البلدَ...» يفيد أنّها خيلٌ معدّةٌ للإغارةِ في كُلِّ وقتٍ كلّما غزا بها بلداً، جدَّدَ تلك الإغارةَ على بلد آخر.

وقولَهُ: «ينشرن فيه...»، يفيد أنّ ذلك النَّشرَ متجدِّدٌ، ومتكرِّرٌ لِعمائمِ الفرسانِ كُلَّما عَبَرَتْ.

وقولَهُ:«تأتِي بِما سبتِ الخيولُ...»،يفيد أنّ ذلك من شأنِها دائماً.

وأمّا استخدامه للجمل الإنشائية، فيهمّنا منها ما كان الإنشاء فيها طلبيّاً؛ كالأمرِ والنّهْيِ والاستفهامِ والنّداء، فمن استخدامه الأمرَ قولُهُ[1]:

وكُنْ كالموتِ لا يرثِي لباكٍ   بكى منه ويروى وهو صادِ

وقد جاء الأمرُ فيه مفيداً التّحريض:

وقولُهُ مُخاطِباً أعداءَ سيفِ الدّولة[2]:

خذوا ما أتاكمْ به واعذروا   فإنّ الغنيمةَ في العاجِلِ

فالأمر فيه يفيد الاستهزاء بهم، وجاء بعده قولُهُ:

وإن كان أعجبكم عامُكُمْ   فعودا إلى حِمْصَ من قابلِ

(١) ديوانه (٨٣/٢)، من قصيدة يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخي، حين قدم لِحربِ قومٍ من تنوخ لما خرجوا في اللاذقية.

(٢) ديوانه (١٥٩/٣).

فأفاد الأمر فيه التّهديدَ لهم، ويؤيّد قولُهُ بعده:

فإنّ الحسامَ الخضيبَ الذي قُتِلْتُمْ به في يدِ القاتِلِ

ومن استخدامه النّهْيَ قولُهُ[1]:

فلا تغررْكَ ألسنةٌ موالٍ تقلّبُهُنَّ أفئدةٌ أعادِي

وقد أفاد التّحذير من ألسنة هذه صفة أهلها.

وقولُهُ[2]:

فلا سقى الغيثُ ما واراه من شجرٍ لو زالَ عنه لوارتْ شخصَهُ الرَّخَمُ

وقد أفاد الدّعاءُ على هذا الشّجرِ الذي استتر به هذا المنهزمُ بعدمِ السّقيا، وقولُهُ مُخاطباً نديميه[3]:

فلا تبلغاه ما أقولُ فإنّه شجاعٌ متَى يُذكرُ له الطّعنُ، يَشْتَقِ

فالنّهي فيه للإشادةِ بشجاعةِ هذا القائدِ الممدوح.

ومن استخدامه الاستفهامَ قولُهُ[4]:

وكيفَ يبيتُ مضطَجِعاً جَبَانٌ فرشتَ لِجنبهِ شوكَ القَتَادِ

وقد أفاد الاستفهامُ فيه النَّفْيَ مع التّحذيرِ؛ لأنّه نفى المبيتَ عن أعداءِ ممدوحهِ خوفاً منه، ومَن كان هذا حالُهُ؛ فإنّه لا بُدَّ وأن يتحيَّنَ الغرضَ للإيقاعِ بِخصْمِهِ والكيدِ لَهُ، ومحاولَةُ دفعِ خوفهِ عنه،

(١) ديوانه (٢/٨٣).

(٢) ديوانه (٤/١٤٠)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣/٥٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٢/٨٤).

ولِهذا حذّره منهم.

وقولُهُ[١]:

أينَ البطارِيقُ والحَلْفُ الذي حلفوا بِمفْرَقِ المَلْكِ والزَّعمُ الذي زعمُوا

فالاستفهام فيه يفيد الاستهزاءَ بهم، والتّحقيرَ من شأنِهم؛ لأنّهُــمْ لم يفوا بأيْمانِهم، ونذورهم التِي نذروها من القضاء على ســيفِ الدّولــةِ، فشأنُهُم أقلُّ من ذلك.

ومثله في الإفادة قولُهُ[٢]:

أفِي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمستُقُ مُقْدِمٌ قفاهُ على الإقدامِ للوجــهِ لائِــمُ
أينكرُ ريحَ اللّيثِ حتّى يذوقَــهُ وقد عرفت ريحَ اللّيوثِ البَهــائِمُ

كما جاء الاستفهامُ في قوله مُخَاطِباً سيفَ الدّولة[٣]:

كيف يأمنُ العــراقُ ومصــرٌ وســراياك دونَهَــا والخيــولُ

مفيداً التّقريرَ والإشادةَ بشجاعتِهِ، وأنّ جانبــه مهيــبٌ والأعــداءُ يَخافونه لا يتخطونه، ومن الإشادة بشجاعته وكثرة غزواته وطولِ حروبهِ قولُهُ[٤]:

أنتَ طولَ الحياةِ للــرُّومِ غــازٍ فمتَى الوعدُ أن يكــونَ القُفُــولُ

---

(١) ديوانه (١٣٠/٤).

(٢) ديوانه (١٠٥/٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٢٧٦/٣)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٤) ديوانه (٢٧٧/٣)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وقد جاء الاستفهامُ في قوله(١):

وكيف ترجي الرّومُ والرّوسُ هدمَهَا ... وذا الطّعنُ آساسٌ لَها ودَعائِمُ

مفيداً الاستبعادَ لما يرجون.

ومن استخدامه النّداء قولُهُ(٢):

فيا أيُّها المطلوبُ جاوِرْهُ تمتنعْ ... ويا أيّها المحرومُ يَمِّمْهُ تُرْزَقِ

ويا أجبنَ الفرسانِ صاحِبْهُ تجترئْ ... ويا أشجعَ الشّجعانِ فارِقْهُ تَفْرَقِ

فأفاد الإشادةَ باتّصافه بهذه الصّفات: «المنعة والكرمِ والشّجاعة»، في درجاتِهَا العالية، وذلك بطريقٍ غير مباشرٍ، هذا إلى جانب أنّ هذه الصّفات لا تضيق عن سعة كلّ من يتأتّى نداؤه، فليست خاصّةً بفردٍ أو جماعةٍ.

ومن خصائص التّراكيبِ في شعرِ الحربِ لدى المُتَنَبِّي: حسنُ استثمارِهِ لأسلوبِ التّقديمِ والتّأخير، مِمّا يضفي على تراكيبه دلائلَ معنويةً يقتضيها المقامُ؛ كقولِه(٣):

على قدرِ أهل العزْمِ تأتِي العزائمُ ... وتأتِي على قدرِ الكرامِ المكارِمُ

وتعظُمُ في عينِ الصّغيرِ صغارُهَا ... وتصغرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

فقد قدّم الجارَ والمجرورَ في الشّطر الأوّل على الجملة الفعلية كلّها،

---

(١) ديوانه (٤/٩٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٣/٥٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٤/٩٤).

وقدمهما على الفاعلِ في بقية الأشطر، وذلك لأهمية المعنَى الذي جاء بـه وتأكيدِه، وهو إنّمان يريد أن يثبتَ عِظَمَ قدرِ سيفِ الدّولةِ، فاحتفاء منه بهذا القدرِ، وإبرازاً لِمَنْزلته في عظمِ العزائمِ والمكارمِ قدّمَهُ.

ومثله تقديمه: ((في عينِ...)) في الشّطرين؛ فإنّه قَدَّمَهُما لأهمّيّة هـذه العين، وأنّها هي التِي تحدّد مستوى ما يلاقيها؛ فإنّ كانت عـينَ عظـيمٍ صَغَّرَتْ ما لاقاها، وإن كانت عينَ صغيرٍ، عظَّمتْ ما لاقاها.

ومن ذلك قولُهُ في مطلع قصيدةٍ وصفَ فيها حالَ رَسُولِ ملكِ الرّومِ وطلبَهُ الصُّلْحَ[١]:

دروعٌ لِمَلْكِ الرّومُ هذى الرّسائلُ يردُّ بها عـن نفسِـهِ ويشـاغِلُ

فإنّه قدّمَ الخبر ومتعلّقه على المبتدأ، لإبراز أهمّيّة هذه الرّسائلِ، وأنّها قامت لِملك الرّومِ مقامَ الدّروعِ يحتمِي بها، ممّا يدلُّ على مـدى رُعْبِـهِ وخوفِهِ من سيفِ الدّولةِ، وأنّ الدّروعَ الحقيقيةَ لا تغنِي عنه شيئاً، ولـذا احتمَى بهذه الرّسائلِ.

ومثلُهُ قولُهُ[٢]:

أفِي كُلِّ يومٍ ذا الدُّمستُقُ مقـدمٌ قفاهُ على الإقدامِ للوجـهِ لائِـمُ

فإنّه قَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ليفيد كثرةَ هذه الإقدامِ الذي يعقبه فـرارٌ، كما قَدَّمَ ((على الإقدام للوجه))، لبيانِ الموقعِ الذي يقـع عليـه اللّـوم،

(١) ديوانه (٢٣٢/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (١٠٥/٤).

وتشهيراً به.

ومن خصائص تركيبه ما عَبَّرَ عنه الثّعالَبِيُّ بـ: «حسن سياقةِ الأعداء»[1]، وهو تعدادُ جزئيّاتٍ يربطُ بينها برباطٍ واحدٍ؛ كقولِهِ في الدُّمستُقِ[2]:

وخلَّى العذراى والبطاريقَ والقُرَى وشعثَ النّصارى والقرابينَ والصُّلْبَا

فإنّه عدّدَ ما خلّفَه الدُّمستُقُ وراءَهُ لَمّا هربَ، وحشدَهَا في بيتٍ واحدٍ، وفي ذلك دلالةٌ على شدّة الصّدمة التي واجتِ الدُّمستُقَ في حربهِ هذه؛ فَفَرَّ لا يلوي على شيءٍ، لقد خَلَّفَ وراءَه أعزَّ شيءٍ عليه، -عذاراى وبطاريق وقرى وشعثَ النّصارى والقرابينَ والصّلبانَ، وكلُّ واحدٍ من هذه الأشياء كفيلٌ بأن يُحتِّمَ عليه البقاءَ في ميدانِ المعركة، حتّى ولو فقدَ حياتَهُ، فكلُّها مِمّا يثير الحميةَ ويبعثَ على الغيرَة.

وقولُهُ مُخاطباً يفَ الدّولة[3]:

ألا أيُّهَا السّيفُ الذي ليس مغمدًا ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصِمُ

هنيئاً لضربِ الهامِ والمجدِ والعلا وراجيكَ والإسلامِ أنّك سالِمُ

فقد هَنَّأَ بِسلامَتِهِ ضربَ الهامِ والمجدَ ومرتجيهِ والإسلامَ، وحبّذا لو قدَّم الإسلامَ على غيره -والمراد من هذا السّياق إبرازُ عظمةِ هذا القائدِ، وأنّ كُلَّ هذه الأشياءَ الخمسةَ تُهَنّي به.

(١) يتيمة الدّهر (١/١٩٦).

(٢) ديوانه (٢/١٨٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٤/١٠٨).

وقولُهُ عن نفسه(١):

ومرهفٍ سرتْ بين الجحفلين به حتّى ضربتُ وموجُ الموتِ يلتطِمُ
فالخيلُ واللَّيلُ والبيداءُ تعرفنِي والسَّيفُ والرِّيحُ والقرطاسُ والقلمُ

فسياقه لهذه الأشياء السّبعةِ وأنّها تعرفُهُ دلالةٌ على عظمته وشجاعته.

وقولُهُ مُخاطِباً سيفَ الدّولة(٢):

وربَّ جوابٍ عن كتابٍ بعثْتَهُ وعنوانُهُ للنّاظرينَ قَتَامُ
حروفُ هجاءِ النّاسِ فيه ثلاثةٌ جوادٌ ورمحٌ ذابلٌ، وحسامُ

فسياقه لحروفِ هذا الجوابِ الذي كَنَّى به عن الجيش، فيها دلالةٌ على عظمِ عدَّتهِ، وأنّها من خيرِ العددِ، خيلٌ جيادٌ، وسيوفٌ قاطعةٌ، ورماحٌ ليِّنةٌ، وهو ما عرف بحسنِ التّقسيم.

تلك هي أشهرُ خصائصِ تراكيبِ شعر أبي الطَّيِّب، بيدَ أنّ هذه المحاسنَ لا تعني عدمَ وجودِ بعضِ العيوبِ والمآخذِ التي آخذهُ بها النُّقَّادُ، ونذكر بعضاً مِمّا ورد فيها في شعرِهِ الحربيِّ:

من ذلك: تعقيده المعنَى البسيطَ، حتّى يظنَّ مَن قرأه أو سمعه أنّ وراء هذا التّعقيدِ معنًى بديعاً، حتّى إذا كشف عن مرادِهِ اتَّضَحَ له خلافُ ذلك.

(١) ديوانه (٨٥/٤)، من قصيدةٍ يعاتب فيها سيفَ الدّولةِ بعد مدحٍ.

(٢) ديوانه (١١٣/٤).

وأسباب هذا التّعقيدِ كثيرةٌ:

منها: التواء العبارةِ، وتكرارُ ما لا ضرورةَ له؛ كقوله:

فكلُّكُم أتَى مأْتَى أبيهِ فكُلٌّ فَعَالِ كُلُّكُمُ عِجَابُ

فهو معنًى يسيرٌ صاغَهُ الشَّاعِرُ في عبارةٍ ملتوية، استحقّ بها ما وصفه به الحاتِمي بقولِهِ معلّقاً على البيت: «فهذا لفظٌ مضطربٌ ونظمٌ متهافتٌ»[1].

وكذلك عيبَ عليه تكرارُهُ حروفَ الجرِّ إلى درجةِ التّصادمِ حال النّطق بها نتيجةً لتتابُعِهَا، وهو ما يسمِّيه ابن الأثير بالمعاظلة اللّفظية ومن ذلك قولُهُ[2]:

وتسعدُنِي في غمرةٍ بعد غمرةٍ سبوحٌ لَها منها عليها شواهِدُ

فإنّه أردف حروفَ الجرِّ خَلْفَ بعضها، ووصلَ كُلَّ الحروفِ بضميرٍ ذي دلالةٍ واحدةٍ يعودُ إلى فرسه التِي ركبها، ومراده أن يقول: سبوحٌ لَها شواهدُ من نفسها على أصالتها.

ومثلُهُ قولُهُ[3]:

تبيتُ وفودُهم تسري إليه وجدواه التي سألوا اغتفارُ

فَخَلَّفَهُمْ بردِّ البِيْضِ عنهمْ وهامُهُمُ له معهم معارُ

---

(١) الرّسالة الموضِحة للحاتِمي (٣٧).

(٢) ديوانه (٣٩٣/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٢١٢/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فتكراره لِحروف الجرِّ مع تكرار الضّمير (هم) تسبّب في ثقل النّطقِ بها، وتعثر اللّسان فيها، ومِمّا زاد ذلك تقاربُ حروفِ الكلمةِ هاءاتها وميماتها.

ومع هذا؛ فإنّ هذه العيوبَ لا تُمَثِّلُ ظاهرةً في شعْرِهِ الحربيِّ يؤاخذ عليها وينعت بها.

ب-الصّورُ البيانيّةُ

تظهر عبقريةُ الشّاعرِ في إبداعه الصُّورَ الفنِّيَّةَ، وإبرازِهِ خصائِصَها، فَما الشِّعْرُ إلاّ الصّورةُ إذا عاضدتْهَا الألفاظُ وساعَفَتْهَا التّراكيبُ.

ومناحِي الصّورةِ عند المُتَنَبِّي لا تختلفُ عن سائرِ الشُّعراءِ، فهي إمّا تشبيهٌ، وإمّا استعارةٌ، وإمّا كنايةٌ، وسنبحث عن الصّورةِ الفنِّيَّةِ وأجزائِهَا مع عدمِ الإغراقِ في التَّفاصلِ البلاغيةِ.

١-التَّشبيهُ:

عالَجَ المُتَنَبِّي التَّشبيهَ كثيراً، وأجادَ في أكثرِ صوره منه، وهذا ما حدا بالثّعالِبيّ إلى عدِّهِ من حسناته وبدائعه(١).

وللمُتَنَبِّي صورٌ شعريَّةٌ مَثَّلَتِ الحروبَ وما دار فيها أدَقَّ تمثيلٍ، وقد رأيناهُ يركّز على الحركةِ ويصوّرُ ميدانَ المعركةِ، وما فيه من غبارٍ ولَمعانِ سُيُوف، وقراعِ أسنةٍ، وجولانِ خيلٍ، وما في الميدانِ من قتلى أو جرحى أو أشلاّء متناثرةٍ، وما أعبقه من فرارٍ وملاحقةٍ، وجمعٍ للأسرى والسَّبْي.

لقد وصف المُتَنَبِّيُ الجيشَ وكثرَتَهُ وركَّز على حركَتِهِ وكثافتِهِ؛ فقال في مجالِ التَّشبيه(٢):

يَهزُّ الجــيشُ حولَــكَ جانِبَيــهِ　　　كما نفضتْ جناحَيْها العُقــابُ

---

(١) انظر: يتيمة الدّهر (١/١٨٠-١٨١).

(٢) ديوانه (١/٢٠٥).

فإنّه لَمّا نظر إلى سيف الدّولةِ وهو في قلبِ جيشِه، والجيشُ محيطٌ به من كُلِّ وجهة، -وهو يحثُّ الخطا مسرعاً- رأى أنّ هذه الحركةَ السّريعةَ لِجانِبَي الجيشِ تُحدِثُ تَموُّجاً في عينَي الرّائي، فتذكَّرُ صورةً من الواقعِ شبّهها بها، ألا وهي صورةَ العُقاب -ذاك الطّائرُ الجارحُ- وقد نفضَ جناحيهِ، وحرّكَهُما على امتدادهما عند الطّيران، إنّ هذا الخيالَ ليرينا الجيشَ وهو يتحرّك وقلبُ الرّحى قلبه الذي فيه سيفُ الدّولة، وفيه إشارةٌ إلى امتدادِ جناحيه وهما ميمنته وميسرته، ومتابعتهما لقلبِ الجيشِ الذي هو مركز قيادته.

وقالَ من قصيدةٍ أخرى(١):

سارَ ولا قفرَ مِنْ مواكِبِهِ كأنَّمَا كُلُّ سبسبٍ جَبَلُ

فمواكبه وجيوشُهُ التي سار بها نهاراً أو ليلاً -كما جاء في روايةٍ أخرى (سارٍ)- قد غطّتْ لكثرتِهَا كُلَّ ما حولَها من السّهولِ، حتّى لم يبقَ قفرٌ حوله إلا قد غطَّتْهُ، و لكثافتها فإن السهول التي غطتها صارت كأنَّهَا الجبالُ لِتراكُمِ الفرسانِ واعتلائِهِمِ الخيولَ وحملِهِم، الأسلحةَ والرّماحَ، وقد أوحت الكثافةُ إلى الشّاعرِ صورةً أخرى؛ فقال(٢):

يمنعُها أن يصيبَهَا مطرٌ شدَّةُ ما قد تضايقَ الأسلُ

فإنّهم لِشدَّةِ تزاحُمِهِمْ وكثرةِ ما حملوا من الرِّماحِ التي اشتبكت فوقَ رؤوسِهِم، لو نَزلَ عليهمْ مطرٌ لَما أصابَ رؤوسَهُم أو الأرضَ

(١) ديوانه (٣٣١/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) السابق و نفس الصفحة.

التِي هُمْ عليها.

ومن تصويرِهِ لآثارِ حركةِ الجيشِ قولُهُ في كتيبةٍ من كتائِبِ سيفِ الدّولة[(١)]:

وملمومةٌ سيفيةٌ رَبَعِيَّةٌ يصيحُ الحصى فيها صياحَ اللّقالِقِ

فإنّه لكثرة ما في هذه الكتيبةِ من الخيلِ، كان الحصى (حصى الفلاةِ التِي يسيرون فيها) يحدثُ صوتاً لوقعِ حوافرِ الخيلِ عليه، وتطايُرِهِ واصطكاكِهِ ببعضه كصياحِ اللّقالِقِ، وهي طيورٌ كثيرةٌ في العراقِ، فشبّه صوتَ الحصى بصوتِها.

فإذا ما سارَ هذا الجيشُ فإنّ كواسرَ الطّيرِ تصحبُهُ لما عوّدَها الإطعامَ من جُثثِ الأعداءِ فتزدحِمُ فوقَهُ، ولِهذه الكثرةِ جَعَلَهَا المُتَنَبِّي عسكراً من عساكرِ ممدوحِهِ؛ فقال[(٢)]:

له عكسرا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى بِها عسكراً لم يبقِ إلاّ جَماجِمُهُ

ونتيجةً لِهذه الكثافةِ؛ فإنّهَا تمنعُ ضياءَ الشّمْسِ من الوصولِ إلى الجندِ، وإن وصلَ شيءٌ من نورِ الشّمْسِ إليهم؛ فإنّما يقعُ إليهم من فُرَجٍ صغيرةٍ بين هذه الطّيرِ كما قال[(٣)]:

تَمُرُّ عليه الشّمْسُ وهي ضعيفةٌ تطالِعُهُ من بينِ، ريشِ القَشاعِمِ
إذا ضوؤها لاقى من الرِّيشِ فُرْجَةً تدوَّر فوقَ البَيْضِ مثلَ الدّراهِمِ

(١) ديوانه (٦٧/٣).

(٢) ديوانه (٥٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٢٤٠/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

فلكثرة اشتباك أجنحة الطّير فوقَ هذا الجيشِ، لا يصلُ إليه ضوءُ الشَّمْسِ إلاّ من منافذَ ضيِّقَةٍ، فيقعُ مستديراً كالدّراهِمِ فوقَ بَيْضِ الجُنْدِ.

أمّا ما يَحدُثُه هذا الجيشُ إذا سارَ من الغبارِ، فقد صَوَّرَه بعدَّةِ صورٍ منها وصفُهُ لألوانِ هذا الغبارِ بِقَولِهِ(١):

حَثَتْ كُلُّ أرضٍ تربةً في غبارِهِ   فَهُنَّ عليه كـالطّرائقِ في البُـرْدِ

فإنّ هذا الجيشَ يَمُرُّ بأمكنةٍ مختلفٍ ترابُهَا، فيثيرُ نَقْعَ كُلِّ مكـانٍ، فتختلف ألوانُ غبارِهِ حتّى تصيرَ فوقَهُ كخطوطِ البُرْدِ، منها أسودٌ، ومنها أحمرٌ، ومنها أبيضٌ، ومنها أصفرٌ.

ومنها: أنّه لكثافته لا تتمكّنُ الطّيرُ من التّحليقِ فوقه كما قالَ(٢):

عجاجاً تعثُـرُ العُقبَـانُ فيــه   كَأَنَّ الجــوَّ وعــثٌ أو خَبَـارُ

فلَمّا لم تتمكّن الطيرُ من التّحليقِ فيه، أو إن حلقتْ فإنّهـا تتعثَّـرُ وتسقُطُ، شَبَّهَهُ بأرضٍ لَيِّنَةٍ رخوةٍ أو سهلةٍ كثيرةِ الرَّمَلِ، تغوصُ فيها أقدامُ السَّائرِين.

ومنها: أنّ ما حولَهُ يصيرُ مظلماً لكثافَتِه حتّى يصيرَ وقتُ الظّهر كوقتِ الغروبِ لِحجبِه ضوءَ الشَّمْسِ، كما قال(٣):

الباعِثُ الجيشَ قد غالتْ عجاجَتُهُ   ضوءَ النّهارِ فصارَ الظُّهْرُ كالطَّفَلِ

---

(١) ديوانه (٢/١٧٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٢/٢٠٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٣/١٦٥).

كما شبّهه حال حجبِهِ الشَّمسَ بالنّقابِ يَحجبُ وجهَ المرأة؛ فقال(١):

طاعِنُ الفُرْسَانِ في الأحداقِ شَزْراً   وعجاجُ الحربِ للشّمْسِ نِقابُ

فإذا ما انتقلنا من الصّورةِ الكلِّيَّةِ لِهَذا الجيش، وأرادنا معرفةَ بعضِ الصّورِ الجزئيةِ فيه، وكيف صَوَّرَ المُتَنَبِّي فرسانَهُ أو عِتادَ الحربِ من سيوفٍ ورماحٍ ودروعٍ وبَيْضٍ؛ فإنّنا نجده يصفُ الفرسانَ في كثرتهم بالسّيولِ الجارفةِ في قوله(٢):

كُلَّما صبحتْ ديارَ عدوٍّ   قال: تلكَ الغيوثُ هذي السّيولُ

فإنّ العدوَّ كُلَّما رأى مواليَ أبي العشائر، استقلّوا ما رأوا منه من قبل فقالوا تلك غيوثٌ ضررُها قليلٌ،أمّا هذه فإنَّهَا سيولٌ، ومن عادةِ السُّيولِ أن تكونَ جارفةً قوِيَّةً مدمِّرَةً، ولِهذا؛ فإنَّ نتيجةَ قُوَّتِهِمْ جعلته يصفُهُمْ بقوله:

دَهْمَتْهُ تطايُرُ الزِّرَدَ المحـ   ـكمَ عنه كما يطيرُ النَّسِيْلُ

فَضَرْبُهُم قَوِيٌّ يهتَكُ الدُّروعَ فيتطايرُ حَلَقَهَا كما يتطايرُ الرِّيشُ إذا سقطَ من الطّائرِ.

ووصف الفارسَ إذا لَبِسَ الدُّروعَ وقد غطى رأسَهُ بالتَّريكَةِ؛

(١) ديوانه (٢٦٢/١)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٢٧٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فقال(١):

يَمُدُّ يديهِ في المفاضةِ ضيغَمٌ وعينيهِ من تحتِ التَّريكةِ أرقمِ

فشبّهه إذا لَبِسَ الدّرعَ بالأسدِ، وشبّهه وقد بدت عيناهُ من التّريكةِ بالثّعبانِ العظيمِ، وفي هذين الوصفين دليلٌ على شجاعَتِهِ وحِدَّةِ نظرِهِ،وتوقُدِ عينيهِ بالشّرر، وهو أمرٌ يوقعُ الرُّعْبَ في قلبِ الخصم.

وأمّا الخيلُ فقد صَوَّرَها بعدَّةِ صورٍ، منها قولُهُ(٢):

وتلقى نواصِيْهَا المنايا مشيحَةً ورودَ قطاً صُمٍّ تشايَحْنَ في وُرْدِ

فإنّها حال الاتّجاهِ إلى الأعداءِ تكونُ مسرعةً جدّاً، لا تعبأُ بما أمَامَهَا وما ينتظرُهَا من الموتِ، وشبّهها في تلك السُّرعةِ بالقطا الصُّمِّ المسرعِ في ورودِهِ، وزادَ في دقَّة التّشبيهِ أنْ جَعَلَهَا تشبهُ قطاً صُمٌّ، زيادةً في الإسراع؛ لأنَّ القطا إذا كان صُمّاً؛ فإنّه لا يسمع ما يعوقُهُ وتشغلُهُ عن الطّيرانِ فيكونَ أسرعَ لَهُ.

ومن جرّاء السَّيرِ وشدَّتهِ؛ فإنّه يعروها عرقٌ كثيرٌ، وإذا يبسَ كانتْ له صورتان:

الأولى: في لونِهِ وهيئته عليها(٣):

عوابسُ، حلىَّ يابسُ الماء حُزْمَهَا فَهُنَّ على أوساطِهَا كالمناطقِ

(١) ديوانه (٧٥/٤).

(٢) ديوانه (١٦٧/٢).

(٣) ديوانه (٦٥/٣).

فإنّه لَمّا جفَّ على حزمها ابيضَّ، فصار للحُزُمِ كالحليةِ لشِدَّةِ بياضِهِ، فأشبهت هذه الزم البيضُ، وهي على أوساطِ الخيلِ المناطقَ المحلاَّةَ بالفضّةِ.

والثّانية: يُبسُهُ وإلصاقُهُ شعرَ الفرسِ ببعضِهِ، حتّى يصبحَ لقوته كالصّخر، كما قال[1]:

خرجنَ من النَّقْعِ في عارِضٍ ومن عرقِ الرّكضِ في وابلِ
فلَمّا نشِفنَ لقِينَ السِّياطَ بمثلِ صفا البلدِ الماحلِ

فأينما وقعَ السّوطُ وقع على شعرٍ كالصّخرِ لقوَّتهِ وصلابَتِه.

وفي الصّورةِ دلالةٌ كبيرةٌ على قوّةِ هذه الخيولِ التي تتحمَّلُ عنتَ هذه المعاركِ، حتّى تراكمَ عليها الغبارُ والتَصَقَ بها حين التقى بالعرقِ.

ومن وصفِهِ لَهَا وهي في ميدانِ المعركة، قولُهُ[2]:

تثَنى على قدرِ الطِّعانِ كأنَّما مفاصِلُهَا تحتَ الرِّماحِ مراوِدُ

فإنّه شبّه مفاصِلَهَا في سرعةِ استدارتها -إذا لوى عنانَهَا للطِّعانِ- بالمرودِ يدورُ مع حلقَتِه كيفما أديرتْ، ويؤخذُ من هذا التَّشبيهِ لينُ مفاصِلِهَا، وإطاعَتُهَا لفارِسِهَا، ودربَتُهَا القتاليةُ.

ولِمهارَتِهَا تلاحقُ خيلَ العدوِّ، فلا يفلتُ منها شيءٌ، كما قال[3]:

تَقْنُصُ الخيلَ خيلُه قَنَصَ الو حشِ ويستأسرُ الخميسَ الرّعيلُ

---

(١) ديوانه (١٥/٣).

(٢) ديوانه (٣٩٣/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٢٧٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فقد شبّه ملاحَقَتَهَا لِها، وعدمَ فرارِ شيءٍ منها، بِملاحَقَةِ الصّيدِ وعدمِ إفلاته منها.

ولِمَهَارَتِهَا؛ فإنّها تتسلّقُ الجبالَ ملاحقةً للأعداء؛ فتصرعهُمْ حولَ وكورِ الطّيورِ، وقد شَبَّهَهَا وهي تعملُ هذا العملَ تشبيهاً ضمنيّاً بالعقبانِ؛ فقال[1]:

تَظُنُّ فراخُ الفُتْحِ أَنَّكَ زرتَهَا   بأَمَّاتِهَا وهي العتَاقُ الصَّلادمُ

فإنّ فراخَ العَقبانِ لَمّا رأت خيلَ سيفِ الدّولةِ قد وصلت إليها في وكورها في قمم الشّواهق، ظنّت أنّ تلكَ الخيلَ أمهاتُها، فهي مثلها في السّرعةِ وخِفّةِ الحركةِ، ومثلُها فيما عودَّتْهَا أمهاتُها جلبَهُ إليها، كلّما جاءتْها؛ فإنّ هذه الخيلَ قد أكثرتِ القتلى حولَهَا، وهو المطعمُ الوحيدُ لِهذه الفراخِ، وهو ما تسعى الأمهاتُ إلى تحصيله.

واستتباعاً لِوصفِ هذه المهارةِ قال بعده:

إذا زَلِقَتْ مشيتَهَا ببطونِهَا   كما تتمشّى في الصّعيدِ الأراقمُ

فإنّ خيلَ سيفِ الدّولةِ كُلّما زَلِقَتْ من على الصّخورِ التي تسلّقَتْها من آثارِ الدّماءِ، جعلَهَا سيفُ الدّولةِ تتمشى على بطونِهَا في تلكِ المزالقِ والمزلاّتِ مشيَ الحيّاتِ على بطونِهَا في الصّعيد.

وفيها –أيضاً– كناية من حسنِ تدريبِهَا وطاعتِهَا لفرسانِهَا.

فإذا ما صَلِيَت بنيرانِ الحربِ فآلَمَهَا الطّعنُ ومنعها الزّجرُ من التّأخّرِ

---

(١) ديوانه (١٠٥/٤).

رؤيتْ كثيرةَ الجولانِ في ميدانِ المعركةِ، كما قال(١):

والطَعنُ يُحْرِقُهَا، والزّجرُ يُقْلِقُهَا حتّى كَأَنَّ بها ضرباً مِـن اللَّمَـمِ

فأشبهت حركَتُها، وجولانُها حركةَ مَن به جنونٌ.

ويؤخذُ منه شِدّةُ صَبْرِهَا على الطّعنِ، وإطاعَتُهَا بالزّجرِ دونَ الضّربِ في هذا الموقف العصيب.

وأمّا وصفُهُ السُّيوفَ وعملَهَا في القتال؛ فمنه قولُهُ(٢):

طلعنَ شُموساً والغمودُ مشارقٌ لَهُنَّ وهاماتُ الرِّجالِ مغـارِبُ

فإنّه شبّهَ سيوفَ ممدوحِهِ في لَمعانِهَا حالَ خروجِهَا من الغمـودِ ثم وقوعِهَا في هامِ الفرسانِ واختفائِهَا فيها، بالشَّمْسِ تطلُعُ مِـن المشـرقِ؛ فتختفي في المغربِ، فجعلَ السُّيوفَ شموساً، والغمودَ مشـارِقاً، والهـامَ مغارباً.

ويستفادُ من هذه الصّورة: أنّه ليس هناك مجالٌ آخرُ لِهذه السُّيوفِ كما أنَّ الشَّمْسَ ليس لَها إلاّ هذا الجريانُ، وذلك المغيبُ.

وقد أعادَ المُتَنَبِّي صورةَ استقرارِ السُّيوفِ بالأغمادِ في تشبيهٍ آخـرَ؛ فقال(٣):

كأنّ الهـامَ في الهيجـا عيـونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُكَ من رُقـادِ

(١) ديوانه (١٥٨/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٢٣٥/١)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن إسحاق التّنوخِيّ.

(٣) ديوانه (٨٠/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخي.

فإنّه شبَّهَ هامَ الأعداءِ حالَ الحربِ بالعيونِ، ولَمّا لم يكنْ يقـعُ في العيونِ إلاّ الرّقادُ جعلَ سيوفَ ممدوحِهِ مصنوعةً -أصلاً- من الرّقادِ، وقدْ أحسنَ في قولِهِ: «طبعت سيوفُكَ من رقاد»؛ فإنّه خيالٌ بديعٌ لكونِهِ جعَلَهَا سيوفاً مصنوعةً خامَتُهَا ومادَّتُهَا من الرّقاد، مِمّا يجعلُ وقوعَهَا في الهامِ التِي شبّهها بالعيونِ أمراً لا محيدَ عنه.

هذا، ويستشفُ من البيتينِ السّالفينِ معنًى أَلَحَّ عليه المُتَنَبِّي فأبرزه في أكثرَ من بيت، ألاّ وهو غرامُ سيوفِ ممدوحِهِ بالهامِ والرِّقابِ، وقد صاغ له صوراً عدّةً علَّلَها تعليلاً خيالياً حسناً ومن ذلك قولُهُ[1]:

وبيضٌ مسافرةٌ ما يقمـ ـنَ لا في الرِّقابِ ولا في الغمودِ

فإنّه لَمّا رأى كثرةَ استلالِ ممدوحِهِ لسيوفِهِ ومعاودتِهَا لرقابِ أعدائه جعلها كالمسافرِ([2]) الذي لا يستقرّ ببلد، كُلَّما دخل هذا خرج منه إلى ذلك، فكذلك هي، كُلَّما أغمدها استلَّها، وقال مسافرةً للدّلالة على استمرار ذلك، وأنّه كالعادة لها.

وأظهر بيتٍ أبرزَ فيه هذا العشقَ المتبادلَ بينَ السُّيُوفِ والهامِ ورقابِهَا قولُهُ[3]:

رَقَّتْ مضاربُهُ فَهُنَّ كَأَنَّما يبدينَ من عشقِ الرِّقَابِ نُحولا

---

(١) ديوانه (٢/٦٦)، من قصيدة يمدح أحد سلاطين الشّام.

(٢) حاشية (٣) من ديوانه (٢/٦٦)

(٣) ديوانه (٣/٣٥٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فإنّه لَمّا نظر إلى رِقَّةِ مضارِبِ سيفِ ممدوحِه غاصَ في أعماقِ الخيالِ، فاستخرجَ صورةً بديعةً، وأتَى بتعليلٍ لطيفٍ لَهَا؛ فقال: إنّ هذه الرِّقَّةَ في مضارِبِ هذا السّيفِ لم تجيءْ فيه عبثاً، وإنّما جاءته من عشقهِ رِقَابَ الأعداءِ، فشبّهَهُ بالعاشقِ يصيبُهُ النُحولُ من جرّاءِ العشقِ.

هذا، وقَد شبَّه السَّيْفَ فِي ميدانِ الحربِ بينَ القنا بالشّعلِ؛ فقال[1]:

وَرَدَتْ بِلادَكَ غيرَ مغمدةٍ ... وكَأَنَّهَا بينَ القنا شُعَلُ

وما ذاك إلاّ لِلَمْعَانِهَا وبريقِهَا.

ومرّةً شبّهها بالبرقِ، ولكنّه قَلَّبَ التَّشبيهَ؛ فقال[2]:

وكَأَنَّ برقاً في متونِ غمامَةٍ ... هنديَّةٌ في كَفِّهِ سلولا

ومرّةً بالنّار؛ فقال[3]:

كَأَنَّ على الجَمَاجِمِ منه ناراً ... وأيدي القومِ أجنحةُ الفراشِ

ويؤخذ منه حَدَّتُهُ ومضاؤه وكثرةُ قطعهِ الرّؤوسَ والأيدي.

ولَمّا رأى إطاعَتَهَا لِممدوحِهِ وكثرةِ القتلى عن أعدائه؛ قال[4]:

تَحْمَى السُّيوفَ على أعدائِهِ معه ... كَأَنَّهنَّ بنوه أو عشائِرُهُ

(١) ديوانه (٤/٢٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٣/٣٥٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٢/٣١٨)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر.

(٤) ديوانه (٢/٢٢٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فهي سيوفٌ مطيعةٌ، تغضبُ عن أعداءِ ممدوحِهِ، فتُبيدُهُمْ ناصرةً له، ولَمّا رآها الشَّاعِرُ تعملُ ذلك؛شبَّهَهَا بأقاربِ ممدوحِهِ الأدنـينَ الـذين يغضبونَ لغضبه.

ومن تشبيهاتِهِ لوقوعِ السُّيوفِ في الرّؤوسِ قولُهُ(١):

ولَّى صوارِمَهُ إكذابَ قـولِهِمُ ... فَهُنَّ ألسـنةٌ أفواهُهَـا القِمَـمُ

فإنّه شَبَّهَ السُّيوفَ حالَ وقوعِهَا بالرّؤوسِ بالألسِنَةِ تدورُ في الأفواه فالسُّيوفِ ألسنةٌ،والرّؤوسُ أفواهٌ، ولَمَّا جعلَهَا كذلكَ، قال بَعدَهُ(٢):

نواطقٌ مُخبراتٌ في جماجِمِـهِ ... عنهُ بما جهلوا منه وما علمـوا

فجعلَهُنَّ نواطِقَ يكذبنَ أقوالَ أعدائه وما عزموا عليه من هزيمَتِـهِ؛ فَتَبَيّنَ الحقيقةُ لَهُمْ، كما أظهرتْ هذه السُّيوفُ للأعداءِ ما خَفِيَ عنهم مِنْ أمرِ ممدوحِهِ وشجاعَتِهِ وما قدْ علموا من قبلُ أكّدَتْهُ لَهُمْ.

ومن تشبِيهِهِ الرّماحَ قولُهُ(٣):

تَهْدِي نواظِرَهَا والحربُ مظلمةٌ ... من الأسنةِ نـارٌ والقنـا شُـمَعُ

وقال(٤):

جوائـلُ بـالقِنَيِّ مثقفـاتِ ... كَأَنَّ على عوامِلِهَـا الـذّبالا

فَشَبَّهَ أسنَةَ الرّماحِ في لَمَعانِهَا بالفتائِلِ.

(١) ديوانه (١٣١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (١٣١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣٣٦/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) ديوانه (٣٤٥/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

وقال(١):

يزورُ الأعادِي في سماءِ عجاجةٍ أسِنَّتُهُ في جانبَيْهَا الكواكِبُ

فَشَبَّهَ أسنةَ الرِّماحِ في ظلمةِ الغبارِ بالكواكبِ في ظلمةِ اللَّيلِ.

ومنه قولُهُ(٢):

وقَدْ صغْتَ الأسنةَ من همومٍ فما يخطُرنَ إلاّ في فؤادِ

فإنّه لَمّا رأى الرِّماحَ لا تقعُ من الأعداءِ إلاّ في أفئدتهم، شَبَّهَ الرِّماحَ بالْهمومِ التي لا تقعُ إلاّ فِي القلوبِ، وهذه الصّورةُ نظيْرُ الصّورةِ فِي قوله:

كَأَنَّ الهامَ في الهيجا عيونٌ وقدْ طُبِعَتْ سُيُوفُكَ منْ رُقادِ

فإنّ نظيرَ قولِهِ السُّيوف: «وقد طبعت سيوفُك من رُقَاد»، قولُهُ في الرِّماح: «وقد صغتَ الأسنةَ من هموم»، ولم يجعلها تشبيهاً مباشراً، وإنّما جعلَهَا كالحقيقة، لم يقلْ رماحكَ كالهموم، وإنّما جعلَهَا من أصلِهَا مصوغَةً ومصنوعةً من الهمومِ، وهذا أبلغُ في المشابهة التي تحولَّتْ إلى حقيقة مسلَمٍ بها، وفي التّشبيه دلالةٌ على صدق حَمْلَةِ هذا القائدِ، وإصابَته الأعداءَ في مواضعَ قاتِلَةٍ، وأنّ رماحَهُ لا تقعُ إلاّ في قلوبِهِمْ.

وَقَولُهُ(٣):

تَميلُ كَأَنَّ في الأبطالِ خمراً عَلِلْنَ بِهَا اصطباحاً واغتباقَا

---

(١) ديوانه (١/٢٣٥)، من قصيدةٍ يمدح بها محمّد بن إسحاق التّنوخيّ.

(٢) ديوانه (٢/٨٠)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخيّ.

(٣) ديوانه (٣/٤٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

فإنّه نظر إلى اهتزازِ الرّماحِ عند طعنِ الأعداءِ بها، فعلّلَها تعليلاً خيالياً حسناً، وهو أنّها فعلتْ ذلك طرباً بما شربته من دماءِ الأعداءِ، فَشَبَّهَ دماءَ الأعداءِ بالخمرِ، ومن احتسى الخمرَ حصلتْ له نشوةٌ، فكُلَّمَا انغمستْ رمَاحُهُ بدمائِهِمْ اهتزَّتْ، كما يهتزُّ شاربُ الخمرِ، وقد جعلَهَا تروي منها، فشربُهَا بكرةً وعشياً، صباحاً ومساءً.

وفي التّشبيهِ دلالةٌ على كثرةِ حروبِ هذا القائدِ، وكثرةِ غاراتِهِ، وأنّ خيلَهُ لا تَفْتُرُ جائلةً غدوةً وعشياً.

وفي البيت –أيضاً– دلالةٌ على جَوِّ البهجةِ والفرحِ الذي يشيعُهُ المُتَنَبِّي كثيراً في شعرِ الحربِ وما ذاك إلاّ لغرامِهِ بها.

وقولُهُ(١):

كم عينِ قرنٍ حدَّقتْ لِنزَالِهِ فلم تغضِ إلاّ والسِّنانُ لَها كُحْلُ

فإنّه لَمَّا رآى دِقَّةَ رمْيِ ممدوحِهِ وشجاعَتَهُ ورمْيَهُ الأعداءَ في عيونِهِمْ، شَبَّهَ الرّوحَ بالكُحْلِ الذي لا يكون إلاّ في العيون.

وفي البيتِ دلالةٌ على سرعةِ الرَّمْيِ، وأنّ عينَ الفارسِ المعادي لا تَطْرُفُ بعدَ تحديقِهَا في ممدوحِهِ إلاّ ورمْحُهُ فيها.

ومن تشبيهاتِهِ لآثارِ المعارِكِ من كثرةِ دماءٍ أو قتلى أو فرارٍ، قولُهُ في وصفِ كثرةِ الدِّماءِ(٢):

---

(١) ديوانه (٣/٣٠٤)، من قصيدةٍ يمدح بها شجاع بن محمّد الطّائيّ.

(٢) ديوانه(٣/٣١٦)،من قصيدةٍ يمدح بها عبدالرّحمن بن المبارك الأنطاكي.

لِجيَادٍ يدخلنَ في الحربِ أعرا ءَ ويخرجنَ مــن دَمٍ في جِـــلالِ

فإنّه جعل ما يكسو الخيلَ من الدَّمِ أثناءَ المعركةِ كالجلال التي توضعُ عليها، وتَمكيناً للصّورة في النّفسِ جعل الخيلَ تدخلُ في المعركةِ بـــدونِ جِلالٍ؛ فلَمَّا خرجتْ كان الدَّمُ الذي تلطّختْ به كالجلالِ فوقَهَا.

وقولُهُ[1]:

وجرى على الورقِ النَّجيعُ القاني فَكَأَنَّـــهُ النَّـــارُنْجُ في الأغْصَـــانِ

فإنّ الدِّماءَ لكثرها تطايرتْ على الأشجارِ، فجرتْ على أوراقِهَـــا فاحمرّتْ، حتّى صارتْ كالنّازنج —وهو ثَمرٌ أحمرٌ—.

وفي التّشبيهِ دلالةٌ على قوّةِ المعارِكِ، وشدَّةِ الضَّربِ.

وقولُهُ في وصفِ ديارِ الأعداءِ وكثرة القتلى[2]:

مُخَضَّبَةٌ والقومُ صرعى كَأَنَّهَا وإنْ لم يكونوا ساجدينَ مساجِدُ

فقد شَبَّهَ الدِّيارَ وقد تَلَطَّخَتْ بالدِّماءِ بفتاةٍ خَضَبَتْ شَعْرَهَا بالحنَّاءِ، وشبَّهَ هيئتَهَا والقتلى مُنْتَشِرينَ في ميادينِهَا بالمساجدِ.

وفي التّشبيهِ دلالةٌ على أنّ ما سالَ من دمائِهِم قد كسي تلك البلادَ وصارَ لَها كالخِضَابِ، وعلى كثرة القتلى واختلافِ أحوالِهِ لكثرة مرتادي المساجد وتنوّع هيئاتهم فيها.

---

(١) ديوانه (٣١٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٣٩٦/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وقولُهُ: في وصفِ مياهِ الأنهارِ والغدرانِ التي دارتْ فيها المعاركُ(١):

رَكَضَ الأميرُ وكاللّجينِ حَبَابُهُ   وثَنَى الأعنَةَ وهو كالعِقْيَانِ

فإنّ سيفَ الدّولةِ دخَلَ ماءَ النّهرِ وموجُهُ صافٍ متلالئٍ نَقِيٌّ كالفِضَّةِ، فَخَاضَ المعركةَ فيه، وقتلَ الأعداءَ، فساحتْ دماؤهم فيه، واختلطتْ بمائِهِ، حتّى صارَ لكثرةِ ما سالَ منها فيه كالذّهبِ الخالصِ شديدِ الحمرةِ.

وقولُهُ في خيلِ سيفِ الدّولةِ(٢):

ولا تَرِدُ الغدرانَ إلاّ وماؤها   من الدَّمِ كالرَّيحانِ تحتَ الشّقائقِ

فهي خيلٌ معودةٌ ألا تشرب وهي تقاتل الأعداء، إلاّ بعدَ أن تسيلَ الدّماءَ فيما حولَها من الغدرانِ، وليس مجرَّدَ سيلان، بل سيلانٌ بكثافةٍ حتّى تغلبَ حمرةُ الدَّمِ على خضرةِ الماءِ، فَشَبَّهَ خضرةَ الماءِ بالرّيحانِ وحُمْرَةَ الدَّمِ بالشّقائقِ(٣).

وفي البيت إشارةٌ إلى كثرةِ حروبِ سيفِ الدّولةِ وانتصاراتِه؛ فالبيتُ معطوفٌ على بيتٍ قبله وهو قولُهُ:

تَعَوَّدَ ألا تقضمَ الحَبَّ خيلُهُ   إذا الهامُ لم يَرْفَعْ جُنُوبَ العلائقِ

فمعناه: إذاً أنّ ورودَ الماءَ الذي هذه صفته قد صارَ عادةً لَهَا.

---

(١) ديوانه (٣١١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه بشرح العكري (٣٣٠/٢)، وشرح البرقوقي (٧١/٣).

(٣) ديوانه بشرح العكري (٣٣٠/٢)، وشرح البرقوقي (٧١/٣).

ومن هذا قولُهُ[١]:

ما زالَ طِرْفُكَ يجري في دمائِهِم حتّى مشى بكَ مشْيَ الشَّارِبِ الثَّمِلِ

فإنّ الدِّماءَ لكثرتِهَا ولُزُوجَتِهَا أمالت فرسَ ممدوحِهِ عن سننِ جريِهِ وأزلَقَتْهُ، حتّى مشى بِكَ مشْيَ السَّكرانِ، فَشَبَّهَ تَمَايُلَ فرسِهِ وتعثُّرِهِ بِمَا يطأُ مِنَ الدّماءِ بِمشي السَّكرانِ وتَمَايُلِه.

وفي البيت دلالةٌ على كثرةِ هذه الدِّماءِ واتِّساعِ البقعةِ التِي هِي عليها، بحيث يجري فيها الحصانُ مدّة طويلة.

وفيه دلالةٌ على كثرةِ القتلى -أيضاً-، وفيه -ما أشرنا إليه آنفاً- من حرص المُتَنَبِّي على إشاعةِ جَوٍّ البهجةِ في قصائدهِ الحربِيةِ.

وقولُهُ[٢]:

أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دَمٍ ونجومُ بَيْضٍ في سَماءِ قَتَامِ

فإنّهُ لَمّا نظرَ إلى ميدانِ المعركَة، ورأى القتلى من الأعداءِ منتشرينَ هنا وهناكَ، فوقَ دماءٍ سائحةٍ غَطَّتْ ما حولَهُمُ -شَبَّهَ ذلك بِحجارةٍ متناثرةٍ فوقَ أرضٍ رخوةٍ، فالقتلى كالحجارةِ المبثوثةِ، والدَّمُ المنتشرُ منه ما جَمَدَ، ومنه ما لم يجمد كالأرضِ الدَّعثةِ، تجدُ بعضَ القتلى قد انْغَمَسَ بعضُهُ فيه، وبعضُهُ ما زالَ بارزاً، وكذلكَ الحجارةُ في تلكِ الأرضِ.

---

(١) ديوانه (٣/١٦٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٤/١٢٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

ولَمَّا نَظَرَ إلى فضاءِ المعركةِ فلم يبصرْ إلاّ بَيْضاً –متطايراً في الفضاءِ لامِعاً– والغبارَ –قد سترَ أجوازَ الفضاء– شَبَّهَ ذلك بالنّجومِ اللامعــةِ في أجوازِ السَّماءِ المظلمة؛ فإنّه شَبَّهَ البَيْضَ بالنّجومِ، والغبارَ في كثافَتِهِ وظَلَمَتِهِ وانشتارِهِ، وسَدِّهِ الأفقَ بالسَّمَاءِ.

ومثلُهُ في الدِّلالةِ على كثرةِ القتلى قولُهُ(١):

يتعثرنَ بالرّؤوسِ كمان مــرَّ م بتــــاءات نطقــــه التّمتــــامُ

فإنّ خيولَ ممدوحه لكثرةِ ما انتشر في ميدانِ المعركة مــن رؤوسِ القتلى، تعثر بها وهي تجولُ في الميدانِ، فَشَبَّه المُتَنَبِّي هذا التَّعثُّرَ المتتابعَ بتعثّرِ التّمتامِ ،وهو مَن لا يستطيعُ نطقَ التَّاءِ بسرعةٍ، فكيف إذا وقع في كــلامٍ تتابعتْ تاءاتُهن، وفي التَّشبيهِ دلالةٌ على كثرةِ القتلــى، وتنــاثُرِ جُثَــثِهِمْ ورؤوسِهِمِ المقطّعةِ في ميدانِ المعركةِ.

وقال(٢):

نَثَرْتَهُمُ فوقَ الأحيــدبِ كُلِّــهِ كَمَا نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدّراهِمُ

فَشَبَّهَ ما تناثَرَ منهم فوقَ جبلِ الأحيدبِ بالدّراهمِ تنثرُ فوقَ العروسِ فتقع عليها وعلى مَن حولَهَا، وكذا القتلى فقد قتلوا في كُلِّ مكانٍ مــن الجبلِ وحولِهِ.

---

(١) ديوانه (٤/٢٢٢)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا الحسن عليّ بن أحمد المرِّي.

(٢) ديوانه (٤/١٠٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وفي قوله: «نثرهم»، دلالةٌ على قوّةِ بَطْشَتِه وشدَّة حربِه، حتّى إنّ مَن رأى كثرةَ القتلى من الأعداءِ وانتشارَ جُثَثِهِمْ في كُلِّ مكانٍ، يَظُنُّ أَنَّهُمْ منثورون نثراً.

وفي الدِّلالةِ على كثرتِهِم —أيضاً— صَوَّرَ ما تناثَرَ من شعورِهِمْ وقد تَلَطَّخَتْ بالدِّماءِ بقولِه[1]:

قد سَوَّدَتْ شَجرَ الجِبالِ شعورُهُمْ فَكَأَنَّ فيه مُسِفَّةَ الغربانِ

فَشَبَّهَ هذه الشُّعورَ المتناثِرَةَ —وقد تلطَّخَتْ بالدِّماءِ فزادت في سوادِها بعد حملِ الرِّيح لَهَا فوقَ الأشجارِ— بالغربان، وقد وقعتْ على هذه الأشجارِ.

ثم كَرَّرَ هذه الصّورةَ وبَالَغَ فيها؛ فقال:

كَأَنَّ دَمَ الجَمَاجِمِ والعَنَاصِي كسا البلدانَ ريشَ الحَيْقَطَانِ

فَشَبَّهَ شعرَ الرّأسِ الملطّخِ بالدّمناءِ بريشِ ذكرِ الدَّرّاجِ، وجعله يكسو البلدانَ التي دارت فيها معاركه لكثرته.

ومن تشبيهاتِه الفارِّينَ قولُهُ[2]:

يرونَ من الذُّعرِ صوتَ الرِّيا ح صهيلَ الجيادِ وخفقَ البنودِ

(١) ديوانه (٣٩٣/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
والعناصي،جمع:عُنصوةٍ،الخصلة من الشّعرِ،القاموس مادة:(ع ص و).
(٢) ديوانه (٦٦/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها السّلطان الذي حبسه.

فقد صَوَّرَ الحالةَ النّفسيةَ لهؤلاء الفارِّينَ من أمامِ سيفِ الدّولة، وأنّ الخوفَ قد بلغَ منهم مبلغاً عظيماً، بحيث إذا سمعوا خفيفَ الرّياحِ، ظنّوهُ أصواتَ جيادٍ تَصْهُلُ، متابعَةً لَهُم، أو خفقَ أعلامٍ يَحملُهَا الجندُ ملاحقينَ لَهُمْ، فشابَهَ عندهُمْ صوتُ الرِّياحِ صهيلَ الجيادِ وخفقَ البنودِ، وهذا لعظمِ ما اعتراهُمْ من الخوفِ.

ومثل هذه الصّورةِ قولُهُ(١):

وضاقتِ الأرضُ حتّى كانَ هارِبُهُمْ إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّـهُ رَجُـلا

وبهذا نكتفي بِما أوردناه للمُتَنبِّي من صورٍ مبنيةٍ على التّشبيه.

٢-الاستعارة:

سبق الحديث عن أهميةِ الاستعارةِ ومكانَتِهَا(٢)، وهنا نبـيِّنُ كيـفَ استعانَ المُتَنبِّي بهذه الوسيلةِ البيانيةِ في شعرِهِ الحربِيّ، في ذلـك قولُـهُ في الفرسانِ وقائدِهِم(٣):

أُسُدٌ فرائِسَهَا الأسودُ يقودُهَـا أَسَدٌ تصيرُ لـه الأسـودُ ثَعُالبـا

فهم فرسانٌ كالأسودِ، لا يقتلون إلاّ صناديدَ كالأسودِ، وقائِـدُهُمْ أَسَدٌ، إذا رآه القادةُ الشّجعانُ خافوه، فصاروا ثَعالَـبَ بعـد أن كـانوا أسوداً.

---

(١) ديوانه(٣/٢٨٧)،من قصيدةٍ يمدح بها سعيد بن عبدالله الكلابِيّ.

(٢) الرّسالة (ص: ٥٥٩-٥٦٠).

(٣) ديوانه(١/٢٥٦)،من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن منصور الحاجبِ.

وكثيراً ما رَكَّزَ على جعلِ الفرسانِ أسوداً لِشجاعَتِهِم، ومنه قولُهُ[١]:

في خميسٍ من الأسودِ بئيسٍ يَفْتَرِسْنَ النُّفوسَ والأَمْوَالا

فقد حمى بلاده برماحٍ وسيوفٍ، في جيشٍ ضخمٍ من فرسانٍ أشدّاءِ كالأسودِ، ولَمَّا شَبَّهَهُم بالأسودِ جعلهم مثلَها يفترسونَ نفوس الأعداءِ وأموالِهِمْ.

ومن وصفهِ لِشجاعةِ قومِ ممدوحِهِ قولُهُ[٢]:

إنّ المَنِيَّةَ لو لاقَتْهُمُ وقفتْ خَرْقاءَ تَتَّهِمُ الإقدامَ والهَرَبا

فقد وصفهم بالشّجاعةِ والإرهابِ لِمَن لَقِيَهُمْ؛ حتّى إنّ المَنيَّةَ لو مُثِّلَتْ إنساناً فلقيهم، لَتحيَّرَ في أمرِهِ وتردَّدَ في طريقه، كالأبلَهِ الغُفْلِ، لا يدري أيقفُ فيواجِهُهُمْ ويصبرُ لَهم، فيلاقيهم مع شِدَّةِ هولِ ما سيلاقيه مِنْهُم، أم يهربُ ويولِّيهِمُ الدُّبُرَ، وهو في كلا الحالَينِ لا يرجو السّلامةَ ولا يتوقَّعُ الغنيمةَ.

لقد شَبَّهَ المَنِيَّةَ بإنسانٍ فحذفَ المشبَّه بِهِ ورمزَ إليه بشيءٍ من لَوازِمِهِ وهو الملاقاةُ والوقوفُ والتّفكيرُ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيةِ.

ومن استعاراته التي صَوَّرَ بها الجيشَ وكثرتَهُ قولُهُ[٣]:

---

(١) ديوانه (٣/٢٦٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (١/٣٤٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (١/٢١٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

رمَيْتَهُمُ بِبحرٍ من حديدٍ لـه في البرِّ خَلْفَهُمُ عُبَابُ

فقد جعلَ جيشَ سيفِ الدّولةِ بحراً من حديدٍ لكثرةِ لابسي الحديدِ فيه، وهو بَحرٌ مادٌّ، وقد جعل مطارَدَتَهُ للأعداءِ كالموجاتِ تطاردُ بعضَهَا بعضاً، فيزخَرُ عبابُهَا، وتضطربُ مياهُهَا، فجعل تَحرُّكَهُ خلفَهُمْ عباباً له، وكُلُّ ذلك على سبيل الاستعارةِ التّصريحيةِ.

وقولُهُ(١):

حواليهِ بَحرٌ للتّجافيفِ مائجٌ يسيرُ به طَرْدٌ من الخيلِ أيّهُمْ

تساوتْ به الأقطارُ حتّى كأنَّهُ يُجَمِّعُ أشتاتَ البلادِ وينظِمُ

فإنّه جعلَ الجيشَ في كثرتِهِ بَحراً مائجاً، ولَكِنَّهُ ليس بَحرَ سفنٍ، وإنّما هو بَحرُ تجافيفَ -و هي ما جُلِلَ به الفرس من سلاح و آله تقيه الجراح-، تَلمعُ وتبرقُ بداخلِهِ، ويسيرُ به خيولٌ كالجبلِ العظيمِ كثرةً، وهو بَحرٌ فائضٌ في الأرضِ، يصلُ بين أقطارِهَا المتباعِدَةِ، حتّى صارتْ الجبالُ المتفرقةُ كَأَنَّها مجموعةٌ منه في سلكٍ واحدٍ، والذي يستفادُ من الصّورةِ سعةُ هذا الجيشِ وعظمُهُ وكثافَةُ جُندِهِ، وكذا تركيزَ المُتَنَبِّي على حركته واضطرابِهِ.

واستَعَارَ الجبلَ للجيش، وكَرَّرَ ذلك مراراً، ومن ذلك قولُهُ(٢):

فلقدْ رمى بلدَ العدوِّ بنَفْسِهِ في روقِ أرعنَ كالغِطَمِ لَهَامِ

(١) ديوانه (٤/٧٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٤/١٢٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فقد شَبَّهَ الجيشَ بالجبلِ العظيمِ ذي الرِّعانِ من حواليهِ، وهي أطرافُهُ، وكذا الجيشُ له أطرافٌ من حواليه مضطربةٌ متحرِّكَةٌ.

وفي تشبيهه بالجبلِ مُلحظٌ آخر، وهو ارتفاعُهُ لِمَا فيه من كثرةِ السِّلاحِ، وقد حملها الفرسان، وركبوا فوقَ خيلِهِمْ، فبدوا لارتفاعهم عن الأرضِ كالجبل.

وقولُهُ(١):

همامٌ إذا ما هَمَّ أمضى همومَهُ بأرعنَ وطءُ الموتِ فيه ثَقيلُ

فإنّ سيفَ الدّولة يَجدُ في الجيوشِ العظيمةِ التي تشبهُ الجبالَ تسليةً، وما ذاك إلاّ لِشجاعَتِه وإلْفِهِ الحروبَ حتّى صارتْ نُزهةً له.

واستَعَارَ السُّحُبَ للجيوشِ فقالَ(٢):

سُحْبٌ تَمُرُّ بِحِصْنِ(الرّانِ) مُمْسِكَةً وما بها البَخْلُ لولا أنّها نِقَمُ

فقد شَبَّهَ جَيشَهُ –لِكَثرَتِهِ وانتشارِهِ، ولكونِهِ يتكوَّنُ من أجزاءَ خمسة– مقدّمة وقلبٍ وجناحينِ؛ مَيمنة وميسرة، وساقة–، ولِمَا فيه من أصواتِ الأبطالِ والخيولِ، وما يعقبُهُ من الدِّماءِ– بالسُّحُبِ التي تتتالى، ولَمّا وصفها بالإمساكِ وهو عدمُ المطرِ، استدركَ فَنَفَى عنها البخلَ، وعلَّلَ ذلك بأنَّهَا سُحُبٌ مُحمَّلَةٌ بالعذابِ، مُرْسَلَةٌ إلى الأعداءِ، وبما أنّ مرورَهَا كان على حِصْنِ (الرَّانِ) وهو من أعمالِ سيفِ الدّولةِ؛ فإنَّهَا تَمسكُ هذه النِّقَمَ عنه.

---

(١) ديوانه (٣/٢٢٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٤/١٣٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

ولَمَّا شَبَّهَ الجيشَ بالسُّحُبِ جاء في قصيدةٍ أخرى فبَيَّنَ مطرَ هذه السُّحُبِ؛ فقالَ[1]:

يغشاهُمُ مطرُ السّحابِ مُفَصَّلاً بِمُثَقَّفٍ ومهنَّدٍ وسِنَانِ

والبيتُ في وصفِ حالِ بعضِ المنهزمينَ، ولذا ذكر أنَّ هذا الجيشَ الذي يشبه السَّحَابَ في كثرته يغشاهم فيوقعُ بِهِمْ، وَوَقْعُ سلاحِهِ كوقعِ المطرِ، يأتِي دَفْعَةً دَفْعَةً، فَمرَّةً بالرِّماحِ المُثَقَّفَة عندَ أَوَّلِ التّلاقي، ومَرَّة بالسُّيوفِ المهندةِ عندَ التّلاحُمِ، ومرّةَ بالرِّماح –أيضاً- وهذا لِمَن هربَ مِنْهُم؛ فإنّهُمْ يلاحقونَهُ فيطعنونَهُ بالرِّمَاحِ.

ومِن صورِهِ الدّالَّة على كثافة جيوشِ الأعداءِ قولُهُ[2]:

إذا بَرَقوا لم تُعْرَفِ البِيْضَ مِنْهُمُ ثِيابُهُمْ مِن مِثْلِهَا والعَمَائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحفُهُ وفي أُذُنِ الجوزاءِ منه زَمَازِمُ

فإنَّهُ وصف جيشَ الأعداءِ بثلاثةِ أوصافٍ، فيها من الدِّلالةِ على قوّتِه ما يخلَعُ القلوبَ، ويوقعُ الرَّعبَ في الجوانِح، فقد جعلهم كُتْلَةً من حديدٍ بَرَّاقٍ، وجعلَ الدُّروعَ ثياباً، والخوذاتِ عمائمَ، فثيابُهُم حديدٌ، وعمائمُهُم حديدٌ، ويَحملونَ الحديدَ، فإذا ما وقعتِ الشَّمْسُ عليهم رأيتَ بريقاً لَهم لا تعرفُ مصدرَ إشعاعِهِ،أمن البِيْضِ أم من الدّروعُ أم من الخوذاتِ، فقد لَمعَ كُلُّ شيءٍ وفي هذا دلالةٌ على عِظَمِ تسلِيحِهِمْ.

(١) ديوانه (٣١٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٩٩/٤-١٠٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

كما جعلَ كثرتَهُمْ وعظمةَ انتشارِهِمْ مِمّا وصلَ شرقَ الأرضِ وغربَهَا، وجلبةَ أصواتِهِمْ قد بلغتْ أجوازَ السّماء، وخصَّ الجوزاءَ بالذّكر؛ لأنَّهَا في مجموعةٍ تُسَمَّى الجَبَّارَ على هيئةِ الإنسانِ، ثم أتى بصورةٍ خياليَّةٍ؛ إذ جعل للجوزاء أُذُناً، وقعت فيها هذه الأصواتِ التِي أشبهت صوتَ الرّعدِ، وهذا على سبيلِ الاستعارة المكنيةِ.

وإذا ما سارَ هذا الجيشُ أحدثَ غباراً كثيفاً، وقد صَوَّرَه المُتَنَبِّي بعدَّةِ صورٍ منها قولُهُ[1]:

وبارعنٍ لبس العجاجَ إليهِمْ فوقَ الحديدِ وَجَرَّ من أذيالِهِ
فكأَنَّمَا قَذِيَ النّهارُ بِنَقْعِهِ أو غَضَّ عنه الطّرفَ من إجلالِهِ

فإنَّ سيفَ الدّولةِ قائدٌ منصورٌ يقصدُ الأعداءَ بقناً طِوالٍ وبجيشٍ جرّارٍ، كالجَبَلِ لكثرةِ فضولِهِ وطولِهَا، وإذا ما سار إليهم، سارَ تحتَ عجاجٍ كثيفٍ صارَ له كالدّروعِ زيادةً على ما فيه من الحديدِ، وما فضل من هذا الغبارُ صار له كالذّيلِ يسحبُهُ وراءَهُ تيهاً وخيلاء.

وهو، وإن سار في نهارٍ إلاّ أنّ ضوءَ النّهارِ قد خفتْ وأظْلَمَ، فكأنّما وقعَ في عينهِ قذىً من الغبارِ، أو أنّه أغمضَ من عينيه إجلالاً وهيبةً له، ففي البيتينِ أربعُ استعاراتٍ:

الأولى: في استعارة الجبل للجيشِ على سبيل الاستعارة التّصريحية.

---

(١) ديوانه (١٨٩/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

والثّانية: في تشبيه الجيشِ بإنسانٍ وحذفِه المشبَّهَ بِه، والرّمزُ إليه بشيءٍ من لَوَازِمِه، وهو اللُّبْسُ وجرُّ الذَّيلِ.

والثّالثة: في تشبيهه الغبارَ بالدّرعِ وحذفِهِ المشَبَّهَ به والرَّمْزُ إليه بشيءٍ من لَوَازِمِه، وهو اللُّبْسُ والجَرُّ.

والرّابعة: في تشبيهِهِ النَّهَارَ بإنسانٍ، وحذفِه المُشَبَّهَ به، والرّمزُ إليه بشيءٍ من لَوَازِمِهِ وهو العينُ التِي من لَوَازِمِهَا الإغضاءُ ووقوعُ القذى فيها.

وكجزءٍ من الصّورةِ في الشّطرِ الأوّل ما جاءَ في قولِهِ في وصفِ خيلِ سيفِ الدّولةِ[1]:

خافياتِ الألوانِ قد نسجَ الـ ـم ـنَّقْعُ لهـا براقعاً وجِلاَلاً

فالنَّقْعُ في الصّورة قد غَطّى خيلَ ممدوحه حتّى صارَ كالدّروعِ، و قد غَيَّرَ ألوانَ الخيلِ، فلا يُعرَفُ الأدهمُ من الكميتِ أو الأشهبِ، لكثرةِ ما علاها من الغبارِ، فقد تكاثَفَ حتّى صارَ على وجوهِهَا كالبراقعِ، وعلى متونِهَا كالجلالِ[2]، وهذا لطولِ ما قطعتْهُ من الفيافِي والقفارِ إلى الأعداءِ ولكثرةِ جَولاَنِهَا في أرضِ المعركةِ.

وقولُهُ[3]:

(١) ديوانه (٣/٢٥٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٣/٢٥٥)، حاشية (٢).

(٣) ديوانه (٣/٤٥).

تبيتُ رماحُهُ فوقَ الهوادي وقدْ ضربَ العجاجُ لَها رُواقا

فإنّ ممدوحَهُ قد تعوَّدَ السّرى إلى أعدائه، وقد وضعَ فرسانُهُ رماحَهُمْ على هوادي خيولِهِمْ استعداداً للطّعانِ وأخذاً بالحزمِ، فلا يَنْزلونَ من ظهورِ خيلِهِمْ ليلاً، وكأنَّهَا من الغبارِ الذي تثيرُه تحتَ رواق، فقدْ شَبَّهَ ما غَطّاهُم في سراهم من العجاجِ بالبيتِ يظلُّهُمْ، ثم حذف المشبَّهَ به ورمزَ إليه بشيءٍ من لَوَازِمه، وهو الرّواقُ على سبيل الاستعارةِ المكنية، ويستفادُ من الصّورةِ طولُ هذا الرّواقِ الذي ضَرَبَهُ الغبارُ عليهِمْ، وأَنَّهُ ممتدٌّ مادامت سائرةٌ.

وقولُهُ[1]:

والنَّقْعُ يأخذُ (حَرَّاناً) وبقعتَهَا والشَّمْسُ تسفرُ أحياناً وتلتَثِمُ

فالغبارُ قد بلغَ حَرَّاناً وبقعتَها، وكساهما، كما بلغَ الشَّمْسَ وحجبَ ضوءَها، فهي تظهرُ أحياناً من خلالِه، ثم تعودُ فتحتجبُ كَأَنَّهَا الحسناءُ، تسفرُ أحياناً ثم تعودُ فتلتثمُ، فهذه استعارةٌ مكنيةٌ -أيضاً- .

ويستفادُ من الصّورةِ عظمةُ هذا الجيشِ وكثافَتُهُ، وأنّ غبارَهُ يغطّي ما يَمُرُّ به من البلدانِ حتّى يبلغَ الشَّمْسَ فيحجبُ ضوءَهَا.

وممدوحُهُ وجندُهُ يواصلون سراهم حتّى يباغتوا أعداءَهم قبل انتشار الضِّيَاءِ، وقد صوَّرَ المُتَنَبِّي هذه المباغتَةَ بقولِهِ[2]:

---

(١) ديوانه (١٣٢/٤).

(٢) ديوانه (١٣٢/٤).

فلم تَتِمَّ سروجٌ فتحَ ناظِرِهَــا إلاّ وجيشُكَ في جفنيهِ مُــزْدَحِمُ

فإنّه أردا أن يخبرنا عن سري ممدوحهِ إلى أعدائه القابعينَ في مدينــة سروجٍ، ومباغَتَتَهُ لَهُم مع الصّبحِ، وقبل الكتمالِ انتشارِ الضّياءِ واتِّضــاحِ الرّؤيةِ في الغَلَسِ، لم يُخبرنا عن ذلك بطريقِ الحقيقةِ، بل جاء بهذه الصّورة الخياليةِ التي شَبَّهَ فيها هذه المدينةَ وهي بتلكَ الحالِ بفتاة، قد خلــدتْ إلى الرّاحةِ ليلاً، فَلَمّا بدأت تباشير الصّباحِ، وقبل استتمامِ نورِهِ فتحتْ ناظِرَهَا قليلاً كعادةِ النّائِمِ، ففوجئتْ بشيءٍ ثقيلٍ يتحرَّكُ بين أجفانِهَا،فقد شَــبَّهَ المدينةَ بالفتاة، وشَبَّهَ طلوعَ الفجرِ بفتحِ بعضِ المناظرِ، وشَــبَّهَ مهاجمــةَ الأعداءِ في هذا الوقتِ بشيءٍ وَقَعَ في الجفنِ حالَ فتحه صباحاً.

ومن وَصْفهِ لخيلِ ممدوحيهِ على سبيلِ الاستعارةِ قولُهُ[١]:

تُبَارِي نُجومَ القذفِ في كُلِّ ليلةٍ نُجومٌ لَــهُ منــهنَّ وَرْدٌ وأدهــمُ

فإنّه شَبَّهَ خيلَ سيفِ الدّولةِ السّائرَةِ إلى الأعداءِ لــيلاً بــالنُّجومِ، ((وجَعَلَها نجوماً؛ لأنّها تتلألأ في الظّلامِ ببريقِ الحديدِ، ولأَنَّهَــا تســتغرقُ الأرضَ يسيرها استغراقَ الكواكبِ، فهي تسيرُ في الأرضِ كَمــا تســيرُ الكواكبُ في السَّماءِ))[٢].

وفي قولِهِ: ((تباري نجومَ القذفِ))، دلالةٌ على أنّ خيلَهُ تسيرُ مسرعةً فتنقضُّ على الأعداءِ، كانقضاضِ الشّهبِ في اللّيلِ، فأشبهتها في السّــرعةِ

(١) ديوانه (٧١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه(٧١/٤)،حاشية (٣)،من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

والشِّدَّة.

وفي قوله: ((في كُلِّ ليلةٍ))، دلالةٌ على كثرةِ مَغاريِهِ واتجاهه إلى الأعداء و هم جهة المغرب،وإدامَتِه السّري إلى أعدائه.

وشَبَّهَهَا في سيرِهَا وكَثَافَتِهَا بالجبلِ العظيمِ؛ فقال[1]:

حواليه بَحرٌ للتَّجافيفِ مائجٌ يسيرُ به طَوْدٌ من الخيلِ أَيْهَمُ

فجعلَ خيلَ ممدوحِهِ التي كَأَنَّهَا الجبلُ في كثرتِهَا وتزاحُمِهَا وارتفاعِهَا عَمّا حولَهَا، و كأنها تسيرُ بما يتلألأ حولَهَا من الحديدِ، ففي الصّورةِ دلالةٌ على عَظَمَتِهَا وعلى تجوالِهَا.

وشَبَّهَهَا مرَّةً بالنَّعام، فقال[2]:

وما الفرارُ إلى الأجبالِ من أَسَدٍ تَمشي النَّعامُ به في مَعْقِلِ الوَعَلِ

فإنّه يعيبُ على أعداءِ سيفِ الدّولةِ الذين يفرّونَ منه في الجبالِ، وهم يعلمون أنّه يَملكُ خيلاً كالنّعامِ في سرعةِ العدوِ، لا تتركُ مكاناً إلاّ نَزَلَتْهُ حتّى الجبالَ التِي هي مقرُّ الوعولِ تعتليها وتجول فيها، مع أنّها من حيوانِ السّهلِ؛ فليس ثَمَّةَ شيءٍ يَمنعهم منه.

---

(١) ديوانه (٧٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

والتجافيف، جمع: تجفاف، وهو كُلّ ما جُلِّلَ به الفرس من سلاحٍ وآلةٍ تقيه الجراحَ. القاموس مادة: (ج ف ف).

وأَيْهَمُ: بمعنى "أهيم" ليل لا نجوم فيه.

القاموس مادة: (هـ ي م) لا يهتدي فيه.

(٢) ديوانه (٢٠٧/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وفي الصّورةِ دلالةٌ على أصالةِ هذه الخيلِ وحسن تدريبها، وإطاعتها لفرسانِها حتّى في أوعر الأمكنة مع شدّة صبرها وقوّة تحمّلها.

ولِمَا على الخيلِ من السّلاح البَرّاقِ، ولكونِهَا تسير مسرعةً، وتُخَلِّفُ في كُلِّ مكانٍ تَمُرُّ عليه أشلاءً من القتلى والجرحى وكثيراً من الدّماءِ السّائلَةِ وقطعاً من الحديدِ المُفَلَّلِ، فقد عبّر عنها بالسّحائبِ؛ فقالَ(١):

سحائبُ يمطِرْنَ الحديدَ عليهِمُ   فَكُلُّ مكانٍ بالسُّيُوفِ غسيلُ

فهي سحائبُ تمطر الحديدَ عليهم، وتعمل السّلاحَ فيهم، فَكُلُّ مكانٍ تغسله السُّيوفُ بِما تسفكُهُ من الدِّماء.

وَمِمّا له صِلَةٌ في وصفِ الخيلِ: وَصْفُهُ للسّفنِ البحريّةِ في كون كُلٍّ منها مركوبٌ وعِدَّةٌ من عتاد الحربِ، ومن ذلك استعاراتُهُ الرّامزةُ في وصفهِ لِسفنِ سيفِ الدّولةِ ومراكبَهُ التي يُحمَل بها السَّبْيَ، أطفالُهُ وحُرَمُهُ في طريقِ عودِهِمْ من الغزو(٢):

تَلْقَى بِهِمْ التَّيَّارِ مَقْرَبَةٌ   على جحافلِهَا من نضحهِ رَثَمُ
دَهْمٌ فوارِسُهَا ركابُ أبطُنِهَا   مكدودةٌ وبقومِ لا بها الأَلَمُ
من الجيادِ التي كدَّت العدوَّ بها   وما لَهَا خِلَقٌ منها ولا شِيَمُ

(١) ديوانه (٣/٢٢٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٤/١٣٨).

والرَّثَمُ: بياضٌ في شفة الفرسِ العليا. القاموس مادة: (ر ث م).

فقد عَبَّرَ عن السُّفَنِ بالجيادِ الدُّهْمِ المدناة من البيوتِ لِكَرَمِهَا وعِتْقِهَا وحرصِ أهلِهَا عليها، ولَمَّا سَمّاها (مقربة) استعار لَها (الجَحافل) وجعلَ ما لَصِقَ به من زبدِ الماءِ كالرَّثَمِ في جحافلِ الخيلِ[١].

أمّا السُّيُوفُ وعملُها فقد عَبَّرَ عنها المُتَنَبِّي في عدّةِ استعاراتٍ منـــها قولُهُ[٢]:

وفي أَكُفِّهُمُ النّارُ التِـــي عُبِـــدَتْ   قَبْلَ المَجوسِ إلى ذا اليومِ تَضْطَرِمُ

أي: وفي أكفٍّ فرسانِ سيفِ الدّولةِ سيوفٌ برّاقةٌ، صافيةُ الفرنـــدِ، كالنّارِ في البريقِ واللّمعانِ والاضطرامِ والإهلاك؛ لأنّها مهلكَةٌ لأعدائِهِم.

ووَصَفَ عملَهَا فقال[٣]:

وأصبحتْ بِقُرَى هَنْزِيطَ جائلَـــةً   ترعى الظُّبَى في خصيبٍ نبْتُهُ اللِّمَمُ

فالشّطر الأوّل: يتحدّثُ عن خيلِ سيفِ الدّولةِ، والثّاني: وصــف لِعَمِلِ السُّيُوفِ، وأنّ هذه الخيلَ قد ساقتها كالماشــيةِ إلى مكــانٍ كــثيرِ العشبِ، فجعلتها ترعاه، فقد شَبَّهَ الخيلَ براعٍ والسُّيُوفَ بِماشيةٍ، والأعداءِ بالأرضِ كثيرةِ العشبِ، ودلالةُ الصّورِ بَيِّنةٌ في قولِهِ ترعى وخصيبٍ؛ حيث دَلَّتا على كثرةِ مَنْ قَتَلَ من الأعداءِ.

---

(١) ديوانه (١٣٨/٤)، حاشية (١).

(٢) ديوانه (١٣٧/٤).

(٣) ديوانه (١٣٥/٤).

فإذا ما التقى الفريقانِ وقعتْ بينهما معارِكُ حاميةُ الوطيسِ، وقد وصفَ المُتَنَبِّي قوَّةَ هذه المعاركِ وشِدَّتِهَا، ومن ذلك قولُهُ[١]:

والطّعنُ شَزْرٌ والأرضُ واجفــةٌ كأَنَّمَـــا في فؤادِهَـــا وَهَـــلُ

فأنّه لَمّا رأى اضطرابَ الفرسانِ على الأرضِ إقبالاً وإدباراً، حتّى كَأَنَّهَا تَمورُ بِهِمْ شَبَّهَهَا بفتاةٍ مضطربةٍ شديدةِ الخوفِ، وحذفَ المشبَّه به ورمزَ إليه بشيءٍ من لَوَازِمِهِ، وهو الفؤادُ، ليكونَ مُسْتَقَرّاً للوَهَـلِ الـذي اعتراها على سبيلِ الاستعارةِ المكنيةِ.

وقولُهُ[٢]:

في موقفٍ وَقَفَ الحِمَامُ علــيهِمُ في ضنكِهِ واستحوذَ اســتحواذا

فقد قَتَلَهُمْ ممدوحِهِ في معركةٍ ضَيِّقَةٍ، ووقفَ الموتُ عليهمْ فحَبَسَهُمْ في ضيقِهَا حتّى استولَى على أَنْفسِهِمْ، لقد شَبَّهَ المــوتَ بجبــارٍ شــديدِ البِطْشَةِ، وحذفَ المشبَّه بهِ، ورمزَ إليه بشيءٍ من لَوَازِمِهِ، وهو الموقــوفُ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيةِ، وكلّ ذلك كنايةٌ عن شِدَّةِ المعركةِ وخسارةِ الأعداءِ فيها.

وقال في معركةِ قلعة الحدث[٣]:

بناها فأعلى والقَنَا يقرعُ القَنَــا وموجُ المنايا حولَهَــا مــتلاطِمُ

---

(١) ديوانه (٣/٣٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٢/١٨٥)، من قصيدةٍ يمدح بها مساور بن محمّد الرّومي.

(٣) ديوانه (٤/٩٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

لقد شَبَّهَ المنايا بالبحر، وحذفَ المشبَّهَ بِهِ ورمز إليه بِشيءٍ من لَوَازِمِه وهو الموجُ على سبيل الاستعارة المكنية.

وقالَ في وصفِ حروبِ عَضُدِ الدّولة[1]:

بضربٍ هاجَ أطــرابَ المنايــا سوى ضربِ المَثَالــثِ والمثــاني

لقد حمى هذا القائدُ بلادَهُ بِمَعَارِكَ طَاحِنَةٍ قَوِيٌّ ضربُ فرســانِهَا، وإذا ضَرَبُوا ضربت المنايا فتحرّكت، لكثرةِ مَن يقتلونَ، وهو ضربٌ غــيرُ ضربِ العُودِ، لقد شَبَّهَ المنايا بفارسٍ مغوارٍ يُهيجُهُ ضــربُ السُّــيُوفِ لا ضربُ الأعوادِ والمزامير، ثم حذفَ المُشَبَّهَ بِهِ وَرَمَزَ إليه بِشيءٍ من لَوَازِمِه، وهو الهَيْجَانُ والإطرابِ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيةِ.

وفي الصّورةِ دلالةٌ على شِدَّةِ هذا الضّربِ؛ لأنّ المنايا لا تتحرّكُ إلاّ بعد أن يكثرَ القتلُ، وفيها وصفٌ لِهذا القائدِ بالشّجاعةِ والجدِّ والحزمِ.

وفي البيتِ دلالةٌ على ما يحرصُ عليه أبو الطَّيِّبِ من إشــاعَةِ جَــوٍّ البهجةِ في شعره الحربي.

أمّا نتائجُ هذه المعارِكِ، وما تركَتْهُ وراءها من آثارٍ علــى ميــدانِ المعركةِ، فقد صَوَّرَها المُتَنَبِّي بعدَّةِ صورٍ، ومن ذلك ما جاء في حديثِهِ عن خيلِ سيفِ الدّولةِ وما أَلْحَقَتْهُ بالأعداءِ من أذى[2]:

---

(١) ديوانه (٤/٣٩٣).

(٢) ديوانه (٤/١٣٥).

وأصحبتْ بِقُرى هِنْزِيطَ حائلةً ترعى الظّبى في خصيبِ نبتُهُ اللِّمَمُ
فما تركنَ بِها خُلْداً لـه بَصَرٌ تحت التّرابِ ولا بازاً لـه قَدَمُ
ولا هِزَبْراً له مـن درعِـهِ لِبَـدٌ ولا مهاةً لَها من شِبْهِهَا حَشَـمُ

قال ابن الأثير: «وهذا من المليحِ النّادرِ، فـ"الخلدُ" استعارةٌ لِمَن اختفى بالتّرابِ خائفاً، و"البازُ" استعارةٌ لِمَنْ طارَ هارباً، و"الهزبرُ" و"المهاةُ" استعارتان للرّجالِ المقاتلَة والنِّساءِ من السّبايا»[١].

لقد تَحَدَّثَ عن جولانِ خيلِ ممدوحِهِ في مدينةِ هِنْزِيطَ -إحدى مدن الرّوم-، وهو جولانٌ مثمرٌ؛ إذ إنّه أعملَ السُّيُوفَ في هامِ الأعداءِ، فَعَمِلَتْ بَشَغَفٍ وَنَهَمٍ، كما ترعى الماشيةُ أرضاً خِصْبَةً، فإنّها ترعاها بِنَهَمٍ شديدٍ، فتكثر من التّجوالِ فيها، لا تتركُ منها مكاناً إلاّ رَعَتْهُ، وقد بَيَّنَ ثَمَرَةَ هذا الجولانِ والرَّعْيِ بأنَّهَا لم تُبْقِ فيها على أحدٍ، فصارَ الأعداءُ أربعة أصناف:

إمّا: مختفٍ في الغاباتِ والجبالِ وقد شَبَّهَهُ بالخُلْدِ -وهو الفأر- الذي كُلَّمَا أحَسَّ أحداً اختفى تحت أقرب صخرةٍ إليه.

وإمّا: فارٌّ لأوّلِ وهلةٍ، وقد شَبَّهَه بالبازِ لِسُرعةِ فِرارِهِ، ولَكِنْ أينَ المفرُّ من سيوفِ هذا عَمَلُهَا؟!.

وإمّا: فارسٌ متدرعٌ شديدُ الشّكيمةِ، قَوِيُ العزميةِ، وقد شَبَّهَهُ بالأسدِ فكان مآله القتلُ أو الأسرُ.

---

(١) المثل السّائر (٢/١١٢).

وإمّا: امرأةٌ جميلةٌ شبيهةٌ بالمهاة، و لم يَجعلْها مهاةً واحدةً، بلْ جَعَلَ لَهَا حاشيةً، كنايةً عن تجمعهنَّ، وأنّ مصيرَهُنَّ السَّبْيُ وقد طوى ذكر المُشبَّهِ في كُلِّ ذلك، معبّراً بالمُشبَّه بهِ على سبيل الاستعارة التّصريحية.

وقال مادحاً سيفَ الدّولة(١):

صَدَمْتَهُمْ بِخميسٍ أنتَ غُرَّتُهُ ... وسمهريّتُهُ في وجهِهِ غَمَمُ
فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهُمْ ... يسقطنَ حولَكَ والأرواحُ تَنْهَزِمُ

فإنّه شَبَّهَ الجيشَ بفرسٍ، وسيفَ الدّولةِ في مقدِّمَته كالغُرَّةِ في وجه ذلك الفرسِ لِعُلُوِّ مَنْزِله، ووضوحِ مكانِه، ثم جَعَلَ مقدِّمةَ الجيشِ وجهاً له، و لم يكتفِ بذلك بلْ نَظَرَ إلى الرّماحِ المشرعةِ في أيدي الجندِ، فجَعَلَها شَعراً في هذا الوجه؛ فالصّورةُ مُرْعِبَةٌ مخيفةٌ.

لقد صَدَمَهُمْ سيفُ الدّولة بهذا الجيشِ وعلى هذه الصّورة، فكان من نتيجةِ هذه الصّدمةِ أنّه لم يَتَمَكَّنْ من الثّباتِ أمامَ هذه القّوةِ الضّاربةِ إلاّ الأجسامُ، ولكنَّها أجسامٌ خاويةٌ، تسقطُ يُمنةً ويسرةً، وقداماً وخلفاً، وفي ذلك من التّهكُّمِ ما فيه؛ لأنّها أجسامٌ بلا أرواح، أمّا أرواحُهُم فإنّها لَمَّا حَلَّ بها من البوارُ «طارتْ بِهَا عَنْقَاءُ مَغْرِب»، فوقعُ السُّيُوفِ وطَعْنُ الرّماحِ كان سبباً في انْهِزَامها، انْهِزاماً بلا عودة، وفراراً بلا كَرَّة، ففارقتِ أجسادُها «فراقِ غير وامقٍ»، لقد أصبحوا جثثاً جامدةً ورمماً باليةً.

(١) ديوانه (١٣٩/٤).

وفي الصّورة الأخيرة إشارةٌ إلى الطّلاقِ البائن غير المحبِّ، فكأنّها طلقت وتركت بلا رجعةٍ مع كراهيةٍ.

وقال(١):

فَأَنْبَتَّ مِنْهُمُ ربيعَ السِّباعِ ... فَأَثْنَتْ بإحسانِكَ الطّائلِ

فإنّه جعلَ كثرةَ القتلى ربيعاً للسِّباعِ؛ لأنّهَا ستسمَنُ عليها وتطعمُ منها، وتفرحُ بِها كما تفرحُ الماشيةُ بالزّرع، وهذا تشبيهٌ منه للقتلى بالنّباتِ على سبيلِ الاستعارة المكنية.

هذا، وقد وصفَ المُتَنَبِّي كثرةَ الدِّماءِ في عدّةِ صورٍ منها قولُهُ(٢):

قد صَبَغَتْ خَدَّهَا الدِّماءُ كَما ... يصبغُ خَدَّ المليحةِ الخَجَلُ

فإنّه نظر إلى أرضِ المعركةِ وقد كستها الدِّماءُ فَشَبَّهَ تلك الأرضَ بفتاة، وحَذَفَ المُشَبَّهَ بِهِ، ورمز إليه بشيءٍ من لَوَازِمِهِ وهو الخَدُّ، ثم شَبَّهَ حمرةَ الدَّمِ بِحمرةِ الخجَلِ التي تعرو الفتاةَ الحسناءَ، وهذا من جوّ البهجةِ الذي يحاولُ إشَاعَتَهُ في قصائدِهِ الحربيةِ.

وقال(٣):

وَقَدْ لَبِسَتْ دَمَاءَهُم عليهِمْ ... حداداً لم تَشُقَّ لَها جيوبا

(١) ديوانه (٣/١٦١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٣٣١)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٣) ديوانه(١/٢٦٥)،من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد التَّميمي.

فإنّ الطَّير لَمّا وقعتْ على جُثثِ القتلى فرحــتْ بــذلكَ، ونظــراً لِطيرانِهَا ووقوعِهَا وغوصِهَا في الدِّماءِ فقد غطّتِ الدّماءُ ريشَهَا، وحتّى إذا ما جفَّ عليها اسودَّ، فصارتْ كأَنَّها ثيابُ حداد حَزَنًا عليها، ولكنّهــا ثيابٌ لم تشقَقَّ جيوبُهَا، أي: أنَّها ليست ثيابَ مَنْ شَفَّهَ الحُــزْنُ، وآلَمُــهُ الثُّكْلُ، وإلاّ كانتْ مشققةَ الجيوبِ، وفي هذه الاستعارةِ دلالةٌ على كثرةِ الدّماءِ.

ومن نتائِجِ هذه المعارِكِ: إذلالُ الأعداءِ وردُّهُم إلى الصّوابِ ومــن ذلك قولُهُ(١):

لقوكَ بأكبُــدِ الإبِــلِ الأبايــا وسقْتَهُمُ وحدُّ السَّــيفِ حَــادِ
وقد مزقتَ ثوبَ البَغْــيِ عنــهمْ وقد ألبستهُمْ ثــوبَ الرّشــادِ

فإنّهم كانوا عاصينَ باغينَ غليظي الأكباد، وكأنّها أكباد إبِلٍ آبيــةٍ ممتنعةٍ على أصحابِها لا تنقادُ لَهُم إلاّ بِشدَّةٍ، فذلّلْتَهُمْ وسقتَهُم أمامَكَ كما تساقَ الإبلِ، وحادِيهم الذي يسوقُهُم هو حَدُّ سيفِكَ، ورَدَدْتَهُم إلى رشدِ الطّاعةِ بعد أن كانوا منغمسينَ في ضلالِ المعصية، لقد شَــبَّهَ عصــيانَهُمْ بعصيانِ الإبلِ، ولذا جعلهم يساقُونَ كسوقِهَا، ولَمّا كانت الإبلُ لا تساقُ إلاّ بِحادٍ جعلَ حَدَّ السّيفِ حادياً لَهم، ولَمّا كان عصيانُهُم وبَغْيُهُم مُضلاً وصَادّاً لَهَمْ عن طريقِ الرّشدِ جعله ثوباً يغطّيهم، ولَمّا أخــرجهُمْ مــنَ الضَّلالِ والغَيِّ وأدخلَهُمْ في الطّاعةِ جعلَ الطّاعةَ مشتملةً عليهم كالثّوبِ، فجاء بصورٍ متتاليةٍ تدلُّ على فرحِهِ بِمآلِهِمْ وسخريَتِهِ منهم.

(١) ديوانه (٨٢/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها علي بن إبراهيم التّنوخِي.

ومن وصفه لِمَآلِ أعداءِ ممدوحِهِ الذي يَميلُ إلى التَّهَكُّمِ والسّخريةِ وصفُهُ ثورةَ بعضِ الأعرابِ من كعبٍ، وقُشَيرٍ وبَلْعَجْلانِ على ممدوحِهِ بقولِه(١):

وكان هديراً من فحولٍ تركتَهَا مُهلَّبَةَ الأذنابِ خُرْسَ الشَّقَائقِ

فإنّه شَبَّهَ ثورتهم بِهديرِ الفحولِ، ولكنَّ سيفَ الدّولةِ قد قمعَهُمْ، فسكنتْ تلك الثّورة، فصاروا فحولاً مقطَّعةَ الأذناب ساكنةَ الهديرِ، وبذلك سَكَنَ هديرُهُمْ، وخمدتْ ثَورَتُهُمْ كما تهدأ ثورةُ الفحلِ إذا قُطِعَ ذنبُهُ أو لم تخرج لَهاتُهُ.

وقال في مصير بنِي كلاب(٢):

فكاوا الأُسْدَ ليس لَهُم مصالٌ على طيرٍ وليس لَهُمْ مَطَارُ
إذا فاتوا الرِّماحَ تناولَتْهُمْ بأرماحٍ من العَطَشِ القِفَارُ

اضطربت عباراتُ الشُّرَّاحِ للبيتِ الأوّل، والذي أراه أنّه يتحدّثُ عن قوّةِ هؤلاء القومِ مصيرُهُم، فهم شُجعانُ ذوو بأسٍ شديدٍ، ولكنَّهُم لَمَّا لقوكَ لم يتمكّنوا من الصّولةِ في ميدانِ أنتَ سيِّدُهُ، فولّوا هارِبَينَ على خيلٍ كالطّيرِ في السّرعةِ، لكنَّ ذلكَ ليس بنافعٍ لَهُمْ؛ لأَنَّهُم إن فاتوا رماحَكَ أدْرَكَتْهُمْ رِماحُ الصّحارِي من العطشِ النّاجمِ عن الحَرِّ وقلّة المياه، فقد شَبَّهَهُمْ بالأسدِ وخيلَهُمْ بالطّيرِ، وشَبَّهَ الصّحارِي بمقاتلينَ وحَذَفَ المُشبَّهَ بِهِ

(١) ديوانه (٢/٧٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٢/٢١١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

ومرزَ إليه بِشيءٍ من لَوَازِمِه، وهو الرِّماحُ للمقاتِلِ، ولكنَّهَا رمـاحٌ مـن عَطَشَ فالموتُ من أَمَامِهِمْ ومن خَلْفِهِمْ، ولذا قال[1]:

يرونَ الموتَ قُـدَّاماً وخلفـاً ويختارونَ والمـوتُ اضـطرارُ

وبهذا نكتفي بِما أوردناه للمُتَنَبِّي من صُوَرٍ مبْنِيَّةٍ على الاستعارة.

٣- الكنايةُ:

سبق الحديثُ عن أهميَّةِ الكنايةِ ومَنْزِلتِهَا[2]، وقد استخدمها المُتَنَبِّـي كثيراً، ومن ذلك قولُهُ في كثرةِ غزواتِ ممدوحِه[3]:

أخو غزواتٍ ما تَغِبُّ سـيوفُهُ رِقَابَهُمُ إلاّ وسـيحانُ جامـدُ

فَجعلَ بينه وبين الغزواتِ قرابةً من أوثقِ القراباتِ، وهي الأخـوةُ كنايةً عن مداومَتِهِ على الغزوِ والسّيرِ في الغزواتِ مع الغزاة.

ولكثرةِ قَتْلِهِ أعداءَه جعله أخاً للموتِ فقال[4]:

رأيتَ ابنَ أُمِّ الموتِ لو أنّ بأسَهُ فشا بين أهلِ الأرضِ لانْقَطَعَ النَّسْلُ

---

(١) ديوانه (٢/٢١١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) الرّسالة (ص: ٥٦٥-٥٦٦).

(٣) ديوانه (١/٣٩٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٤) ديوانه (٣/٣٠٣)، من قصيدةٍ يمدح بها شجاع بن محمّد.

وقال(١):

يَجِدُ الحديدَ على بَضَاضَةِ جِلْدِهِ ثوباً أُخَفَّ من الحريرِ وَأَلْيَنَا

كنايةً عن تعودِهِ لِبسَ الدّروعِ وخوضَ الحروبِ فيها.

وقال(٢):

إذا بَيَّتَ الأعداءَ كان استماعُهُم صريرَ العوالي قبلَ قَعْقَعَةِ اللُّجْمِ

كنايةً عن كتمانِهِ أخبارَ غزواتِهِ عن أعدائه؛ فإنَّهُم لا يعلمونَ بِعزمِهِ على غزوِهِمْ، بل ولا بقربه منهم، حتّى يُعْمِلَ السُّيُوفَ فيهم، وعَبَّرَ عن ذلك بهذه الكناية اللّطيفةِ، وهي صوت اللّجم على الخيل، لقربِها منهم، ولِجامُ الفرس مربوطةٌ بهم جديدة، تعطي بفمها حين تحريكه.

وقال(٣):

فلا موتَ إلاّ مِن سنانِكَ يتّقي ولا زِرقَ إلاّ من يَمينِكَ يُقْسَمُ

كنايةً عن شجاعته وكرمه.

وقال(٤):

يُكَلِّفُ سيفُ الدّولةِ الجيشَ هِمَّهُ وقد عَجِزَتْ عنه الجيوشُ الخَضَارِمُ

ويطلبُ عندَ النّاسِ ما عندَ نَفسِهِ وذلكَ ما لا تَدَّعِيْهاالضَّرَاغِمُ

---

(١) ديوانه (٣٣٢/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (١٧٢/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها الحسين بن إسحاق التّنوخِي.

(٣) ديوانه (٨٠/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
وهذا مُخالِفٌ لِعقيدةِ المسلمين في الموتِ والزِّرقِ.

(٤) ديوانه (٩٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

كنايةً عن علوِّ همَّتِه من حُبِّه للغاراتِ والغزواتِ، وعن شَجاعَتِه وأنَّى يكون النّاسُ مثلَهُ في ذلك، والجيوشُ قد عجزتْ عن بلوغِ مدى هِمَّتِه، والأسودُ لا يُمكنُهَا ادعاءُ مقدارَ شجاعَتِه.

وقال(١):

فَكَأَنَّهُ والطَّعْنُ عن قدامِه مُتَخَوِّفٌ من خَلفِه أن يطعَنَا

كنايةً عن إقدامِه وأنفتِه من التّأخُّرِ، لِما يَجدُ في نفسِه من الشّجاعة.

ووصفَ الفرسانَ؛ فقال(٢):

على كُلِّ طاوٍ تحتَ طاوٍ كَأَنَّهُ من الدَّمِ يُسْقَى أو من اللّحمِ يُطْعَمُ

كنايةً عن إقدامِ الفارسِ وشُجَاعَتِه، فهم حريصٌ على قتلِ الأعداءِ؛ كَأَنَّهُ يُسقَى من دمائِهِمْ أو يُطْعَمُ من لُحُومِهِمْ.

وكنايةً عن أنّ حياتَهُ متوقِّفَةٌ على ذلكَ ما دامَ شرابُهُ وطعامُهُ فيه فحسب.

وقال(٣):

وطَعنُ غطاريفٍ كَأَنَّ أَكُفَّهُمْ عَرَفْنَ الرُّدَينيَّاتِ قبلَ المعاصِمِ

كنايةً عن مُمَارَسَتِهِمْ للحربِ وحسنِ تدريبِهِمْ وحِذْقِهِمْ

---

(١) ديوانه (٣٣١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٧٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٢٤١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا محمّد الحسن بن عبيد الله بن طُغُجٍّ.

فِي الرَّمْيِ.

وقال[١]:

وَفَوَرِسٌ يُحيِي الحِمَامُ نفوسَــهَا فَكَأَنَّهَا ليستْ مــن الحيَــوانِ

كنايةً عن حُبِّهِم الموتَ وحرصِهِمْ على الشّهادةِ في سبيلِ الله.

وكَنَّى عن الجيوشِ وكثرَتِهَا؛ فقال[٢]:

وربَّ جوابٍ عن كتابٍ بعثْتَــهُ وعنوانُـــهُ للنَّـــاظِرِينَ قَتَـــامُ
تضيق به البيداءُ من قبل نشـــره وما فُضَّ بالبيداء عنـــه ختَـــامُ
حروفُ هجاءِ النّاسِ فيهِ ثلاثـــةٌ جوادٌ ورمحٌ ذابِـــلٌ وحُسَـــامُ

كنايةً عن كثرةِ جيوشِ سيفِ الدّولة، وكثرةِ جندِهَا، والبيت مَبْنِيٌّ على الاستعارة التّصريحية في (جواب)، و(فُضَّ، وختـــامُ، وحـــروفُ)، مرشِّحٌ لَها؛ فإنّه لَمّا جعله جواباً جعل له عِنْواناً، وجعله يُنْشَرُ، ويُفَضُّ عنه ختامُهُ، وجعل له حروفاً.

وقال في معرضِ حديثِهِ عن جندِ عَضْدِ الدّولة[٣]:

لَم يدرِ مَـــن بـــالرَّيِّ أَنَّهُـــمُ فَصَلُوا،ولا يُـــدرَى إذا قفلُـــوا
لا أقبلوا ســـرّاً، ولا ظَفِـــرُوا غـــدراً، ولا نصـــرتْهُمُ الغِيَـــلُ

كنايةً عن كثرهم وشدَّة بأسهم وقوّهم؛ فإنَّ أَيَّ سريةٍ تنفصل عن

(١) ديوانه (٣١٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٢) ديوانه (١١٣/٤).
(٣) ديوانه (٢٤/٤).

الجيش أو تدخل فيه لا يعلم بها أحدٌ لكثرته، فلا بها يكثر، ولا بدونها يقلّ؛ فالنصر حليفهم لا الغدر ولا الغيلة خفية،فهم يأتون جهاراً علانيةً.

وقال(١):

يُغَيِّرُ ألوانَ اللّيالي على العدى بمنشورةِ الرّاياتِ منصورةِ الجندِ
ومبثوثةٍ لا تُتَقَّى بطليعةٍ ولا يحتمِي منها بغورٍ ولا نَجْدِ

كنايةً عن كتائبِ عضدِ الدّولةِ وقوَّتِهَا وكثرةِ جندها.

وكَنَّى عن الخيلِ وعن بعضِ أوصافِهَا، ومن ذلك قولُهُ في خيلِ سيف الدّولة(٢):

كلّ ابنَ سابقةٍ يُغِيرُ بِحُسْنِهِ في قلبِ صاحِبِهِ على الأحزانِ

كنايةً عن جمالِ خَيلِه، وأنّها كُلُّ فرسٍ أصيلٍ من سلالاتٍ سوابقٍ، تسرُّ النّاظرَ إليها، فتذهبُ همومُهُ من قلبِهِ، وفي الصّورةِ دلالةٌ على اكتمالِ صورةِ الحسنِ والأصالةِ لِجوادِ الحربِ.

وقال(٣):

كَأَنَّ خُيُولَنَا كانتْ قديماً تُسَقَّى في قُحوفِهِمُ الحليبا

كنايةً عن إِلْفِهَا الحروبَ، وكثرةَ خوضِهَا غمراتِهَا؛ بحيثُ لا تَجْفُلُ حين تَطَأُ رؤوسَ القتلى وأشلاَّءَهُمْ المتناثِرَةَ.

وقال(١):

---

(١) ديوانه (١٦٩/٢).

(٢) ديوانه (٣٠٩/٤).

(٣) ديوانه (٢٦٥/١)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن محمّد التّميميّ.

ينظرونَ من مُقَلٍ أدمَى أحبَّتَهَا   قرعُ الفوارسِ بالعَسَّالة الــذُّبُلِ

كنايةً عن جسارَتِهَا وإقدامِهَا، وعدمِ تردُّدِهَا في ميادينِ الحـــروبِ، وذلك لكثرةِ خوضِهَا المعاركَ.

وقال(٢):

إذا وطئتْ بأيــديْهَا صــخوراً   يَفِئْنَ لــوطءِ أَرْجُلِهَــا رِمَــالاَ

كنايةً عن صلاَبَةِ حوافِرِهَا، وكرَّرَ هذه الكنايةَ في قصيدةٍ أخرى؛ فقال(٣):

تَمَاشَى بأيدٍ كُلَّمَا وافتِ الصَّفَا   نقشْنَ به صدرَ البزاة حَوَافِيَــا

وصورة التّشبيه ظاهرةٌ بفعل هذه الخيل بالحجارة حيــث تنقشــها كصورةِ صدر البازي الملونِ.

وقال بعده(٤):

وتنظُرُ من سودٍ صوادِقَ في الدُّجَى   يَرَيْنَ بَعِيْدَاتِ الشّخوص كما هيا

كنايةً عن حِدَّةِ بصرِهَا وقوّةِ نَظَرِهَا في دُجى اللّيلِ.

وقال بعده(٥):

وتَنْصِبُ للجَرْسِ الخَفِيِّ ســوامِعاً   يَخَلْنَ مناجاةَ الضَّــميرِ تنادِيَــا

---

(٤) ديوانه (١٦٩/٣)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(١) ديوانه (٣٤٦/٣)، من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٤٢٢/٤)، من قصيدة يمدح بها كافوراً الأخشيدي.

(٣) نفس القصيدة و البيت..

(٤) نفس القصيدة و البيت..

كنايةً عن حدَّةِ سَمْعِهَا، وأنَّهَا تَكادُ تَسمعُ نَجوى الضّمائرِ، بلْ ترى المناجاةَ صوتاً عَالياً.

ووصفَ شِدَّةَ الحربِ، وكنّى عنها بِقَولِه[1]:

فلله وقتٌ ذَوَّبَ الغِشَّ نارُهُ ... فلم يَبْقِ إلاذ صارِمٌ أو ضُبَارِمُ
تَقَطَّعَ ما لا يَقْطَعُ الدّرعَ والقنا ... وفرَّ من الأبطالِ مَن لا يُصَادِمُ

فذوبانُ الحديدِ وتقطُّعُهُ وفرارُ الفرسانِ كنايةً عن شِدَّةِ الحربِ التي لا يمكنُ أن يصبرَ عليا إلاّ السُّيوفُ القواطِعُ والفرسانُ الأقوياءُ.

وقال[2]:

وَلَتَمْضِنَّ حيثُ لا يَجِدُ الرّمحُ ... مَدَاراً ولا الحَصَانُ مَجَالا

كنايةً عن ضيقِ مَجَالِ الحربِ وتَلاحُمِ الفريقينِ وتشابُكِهِمْ، فصاحِبُ الرّمحِ؛ إذا ذاك لا يَجِدُ لِرَمحِهِ مداراً يديرُ رمحَهُ فيه، وصاحِبُ الجوادِ لا يَجِدُ لِجوادِهِ مَجَالاً يَجرِيْهِ فيه.

---

(١) ديوانه (٤/١٠١)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٥٦)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.
والبيت معطوفٌ على قولِه قبله:

حالَفَتْهُ صدورُها والعوالِي ... لِتَخوضَنَّ دونَه الأهوالا

ومعناهما: حالفته صدورُخيله والرّماح لَتخوضَنَّ دون الحروب والأخطار، ولَتَتَقَدَّمَنَ إلى مضائقِ الحرب.

وقال[١]:

باعثُ النَّفسِ على الهولِ الــذي ليسَ لنفسٍ وقعتْ فيــه إيــابُ

كنايةٌ عن شِدَّةِ الحربِ التِي لا ترجو معها نفسٌ إياباً.

وقال[٢]:

والأمرُ أَمْرُكَ والقلوبُ خوافِــقٌ في موقفٍ بينَ المنيّــةِ والمُنَــى

كناية عن شدة الحرب ،فالقلوب تخفق خوفاً من المنية، و جزعاً من الموت لحرسها على الحياة ،و هي أمنيتها.

أما نتاج هه الحرب فقد وصف بعض ذلك، و كنى عنه بقوله[٣]:

فتركنهم خلَلَ البيوتِ كأنما غضبت رؤوسهُمُ على الأجسادِ

فإنّ غضبَ الرّؤوسِ على الأجسامِ كنايةٌ عن قطعِ الرّؤوسِ وفصلِهَا عن الأجسام، وما يترتّبُ على ذلك من كثرةِ القتلى، ذلك؛ لأنّ مِن لَوَازِمِ الغضبِ المفارقة.

وقال[٤]:

واستعارَ الحديدَ لونــاً وألقــى لونَــهُ في ذوائِــبِ الأطفــالِ

---

(١) ديوانه (٢٦٢/١)، من قصيدةٍ يمدح ها بدر بن عمار.

(٢) ديوانه (٣٣٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح ها بدر بن عمار.

(٣) ديوانه (١٢٧/٤) من قصيدة يمدح ها سيف الدولة.

(٤) ديوانه (٣١٦/٤)، من قصيدةٍ يمدح ها عبدالرّحمن الأنطاكِيّ.

فقولُهُ: «ألقى لونَه...»، كنايةً عَمّا بلغَ بالأعداءِ من خوفِ سيفِ الدّولةِ إلى أنّ رِيْعَ صبيانُهُم منه، فشابَتْ ذُوائِبُهُم، بانتقالِ لونِ الحديدِ إليها.

وقال في وصفِ بعضِ القبائلِ(١):

فَلَمْ يَسْرَحْ لَهُمْ بالصّبحِ مالٌ ... ولم توقدْ لَهُمْ باللّيلِ نارٌ

كنايةً عن خوفِهِمْ من ممدوحِهِ وإِلْحَاقِهِ الذُّلَّ بِهِمْ.

وقال(٢):

لَمَّا رأته وخيلُ النّصرِ مقبلةٌ ... والحربُ غيرَ عوانٍ أسلموا الحِلَلا

كنايةً عن جبنِهِم وخوفِهِم وهربِهِم من القائدِ قبل اشتدادِ الحربِ، وقال بعده:

وضاقتْ الأرضُ حتّى كان هَارِبُهُمْ ... إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّهُ رَجُلاً

كنايةً عن شِدَّةِ ما لَحِقَهُمْ من الخوفِ، وقال بعده:

فَبَعدَهُ وإلى ذا اليومِ لو رَكَضَتْ ... بالخيلِ في لَهواتِ الطِّفْلِ ما سَعَلا

كنايةً عن قِلَّتِهِم وحَقَارَتِهِم ومبلغِ ما لَحِقَهُمْ من الذُّلِّ والصَّغارِ.

وقال(٣):

فالعُربُ منه مع الكُدْرِي طائرةٌ ... والرّومُ طائرة منه مَعَ الحَجَلِ

---

(١) ديوانه (٢/١١٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٣/٢٨٧-٢٨٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سعيداً الكلابِي.

(٣) ديوانه (٣/٢٠٧).

كنايةً عن هربِ العُرْبِ من سيفِ الدّولةِ في الصَّحَارِي سَكَنِ القطا، وهربِ الرّومِ منه في الجبالِ سكنِ الحَجَلِ، فقد شَبَّهَ العُربَ بالقطا الطّائرِ في الصَّحَارِي، وشَبَّهَ الرّومَ بالحجلِ الطّائرِ في الجبال.

وقال(١):

فَمَسَّاهُمْ وبُسْطُهُمْ حَرِيْرٌ وَصَبَّحَهُمْ وبُسْطُهُمُ التُّرَابُ
وَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ قَنَاةٌ كَمَنْ فِي كَفِّهِ مِنْهُمْ خِضَابُ

فقولُهُ: «مسَّاهم وبسطُهم حريرٌ»؛ كنايةً عن النّعيم الذي كانوا فيه قبل تصبيحه لَهم.

وقولُهُ: «وصَبَّحَهْمُ وبسطُهُمُ التّراب»، كنايةً عَمّا آل إليه حَالُهُمْ من الفقرِ والعُرَي حتّى شابَهوا الفقراء في افتراشِ التُّرَابِ، أو كنايةً عن قَتْلِهِمْ وتناثرِ اجسادِهِمْ على التّراب.

وقولُهُ: «ومن في كَفِّهِ منهم قناةٌ»، كنايةً عن الأبطالِ؛ لأنّهم الحاملونَ لَها.

وقولُهُ: «كَمَن في كَفِّهِ منهم خِضَابُ»، كنايةً عن النِّساء.

وقال في وصف حالِ بنِي قُشَيرٍ وبَلْعجلانَ، بعدَ حربِ سيفِ الدّولةِ لَهُم:

تُخَلِّيْهِمُ النِّسْوَانَ غيرَ فَوَارِكِ وهم خَلُّوا النُّسْوانَ غيرَ طوالِقِ

---

(١) ديوانه (٢١٣/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

كنايةً عن هربِ كُلٍّ منهم رجالاً ونساءً على حدةٍ، وبذلك تَفرقــةٌ لَهُمْ، وكَأَنَّهُمْ طَلَّقوا النِّساءَ أو النِّساءُ فَرَكْنَهُمْ، وذلك ما لَم يحدثْ إلاّ أنّ هربَهُمْ جَعَلَهُم بتلكَ المَثَابَةِ، فهم تركوا النساء من غير طــلاق ، و هــنَّ تركن رجالهن غير فوارك لهم.

وقال بعده بأبيات[1]:

بِكُلِّ فلاةٍ تنكرُ الأُنْسَ أرْضُــهَا ظعائِنُ حُمْرَ الحَلْي حُمْرُ الأَيَــانِقِ

كنايةً عن إبْعَادِهِم الهربَ في فلواتٍ لَم يسكُنْهَا أحدٌ و لم يَعدِ الأنسُ يَمرّونَ فيها، ولذا أنكرتَهُمْ.

وقولُهُ: «ظعائنُ حُمْرَ الحَلْي حُمْرُ الأيانقِ»؛ كنايةً عن شرفِ هؤلاءِ النِّساءِ، وأَنَّهُنَّ من نساءِ أقوامٍ أشرافٍ يكرمونَهُنَّ بِتَحلِّيتِهِنَّ بالذّهبِ، وإرْكَابِهِنَّ النَّوقَ الحمرَ.

وبهذا نأتِي إلى ختامِ الحديث عن الصّورةِ البيانيةِ عند المُتَنَبِّي في شِعْرِهِ الحَرْبِيّ.

---

(١) ديوانه (٣/٦٦-٦٧).

ج-القِيَمُ الصّوتِيَّةُ

سَبَقَ الحديثُ عن أهميَةِ الموسيقي الشّعرية، ومدى تأثيرهـا علـى المستمعِ، وأنَّ جزءً كبيراً من جَمَالِ الشّعْرِ نابعٌ من إيْقَاعَتِهِ ونَغماتِهِ.

وقلنا: إنّ عناصِرَ القِيَمِ الصّوتِيةِ التي تُدْرَسُ في الشِّعْرِ ثلاثة هي[1]:

١- الوزنُ ٢- القافيةُ ٣- الموسيقيُّ الدّاخليَةُ.

وعلى هذا المنوالِ سندرُسُهَا لدى المُتَنَبِّي في شِعْرِهِ الحربِي.

١- الوَزْنُ:

صَاغَ المُتَنَبِّي قصائِدَهُ على أوازنِ الشّعْرِ العربيِّ المألوفةِ، وقد نَظَـمَ شِعْرَهُ الحرْبِيَّ على تسعةِ أَبْحرٍ منها، بيدَ أَنّهُ أكثرَ من النّظمِ علـى بَحـرِ الطّويلِ والكاملِ والوافرِ، ثم الخفيفِ والبسيطِ، فقد نَظَمَ في شِعْرِ الحـربِ سِتّةً وسِتِّينَ قصيدةً، منها على الطّويل (٢١) قصيدةً، وعلى الكامل (٩) قصائدَ، وعلى الوافرِ (١٠) قصائدَ، وعلى الخفيف (٨) قصائدَ، وعلـى البسيط (٨) قصائدَ، كما أنّ له على المتقارَبِ (٤) قصائدَ، وعلى المنسرحِ مثله، وقصيدتان إحداهما من الرَّمَلِ، والأخرى من الرَّجزِ.

فأمّا بُحورُ: «الطّويلِ والكاملِ، والخفيفِ، والبسيطِ»، فهـي مِمّـا يتناسب وشعرُ الحربِ، ويلحظُ ذلك في نظمه عليها القصائدَ التِي وصفَ فيها المعاركَ وصفاً دقيقاً من مثلِ قصائِدِهِ:

---

(١) (ص: ٥٧٠-٥٧١)، من الرّسالة.

١-على قدر أهلِ العــزمِ تــأتِي العــزائمُ وتأتِي علــى قــدرِ الكــرامِ المَكَــارِمُ[(١)]
٢-أعلى الممالِكِ ما يبنَى علــى الأسَــلِ والطَّعــنُ عنــد محِبِّــيهِنَّ كالقُبَــلِ[(٢)]
٣-ليــالِيَّ بعــدَ الظَّــاعنينَ شُــكُولُ طِــوالٌ وليــلُ العاشــقينَ طَويــلُ[(٣)]
٤-لكلِّ امرئٍ مــن دَهْــرِهِ مــا تَعَــوَّدا وعاداتُ سيفِ الدَّولة الطَّعْنُ في العــدا[(٤)]
٥-غيرِي بأكثرِ هــذا النّــاسِ ينخــدعُ إن قاتلوا جَبُنُــوا أو حَــدَّثُوا شَــجُعُوا[(٥)]
٦-تذكرتُ ما بــينَ العــذيبِ وبــارقٍ مَجــرَّ عَوَالِيَنَــا ومجــرَى السَّــوابقِ[(٦)]
٧-ذِي المعــالِي فليعلُــوَنْ مــن تعــالَى هكــــذا، هكــــذا، وإلاّ فَــــلاَ لاَ[(٧)]
٨-إذا كــان مــدحاً فالنَّســيبُ المقــدَّمُ أَكُــلُّ فصــيحٍ قــال شــعراً مُتَــيَّمُ[(٨)]
٩-عقبَى اليمينِ على عقبَى الــوَغَى نَــدَمُ مــاذا يزيــدُكَ في إقــدامِكَ القَسَــمُ[(٩)]

أمّا نَظمُهُ على البُحورِ السَّريعَةِ الحركةِ كالوافرِ والمتقارَبِ والرَّمَــلِ؛ فَلِحُسْنِ نَغَمِهَا وجمالِ جَرْسِهَا.

(١) ديوانه (٤/٩٤).
(٢) ديوانه (٣/١٦٣).
(٣) ديوانه (٣/٢١٨).
(٤) ديوانه (٢/٣).
(٥) ديوانه (٢/٣٣٠).
(٦) ديوانه (٣/٦٠).
(٧) ديوانه (٣/٢٥٤).
(٨) ديوانه (٤/٦٩).
(٩) ديوانه (٤/١٢٩).

وأكثر ما استخدمَ أبو الطَّيِّبِ الوافرَ في قصائدَ جاءتِ الأحداثُ فيها كالقِصَّةِ في السَّرْدِ من مثل قصيدَتِهِ في وصفِ سيفِ الدّولةِ لبني كلاب(١):

بغيرِكَ راعياً عَبَثَ الذّئابُ وغيرِكَ صارماً ثَلَمَ الضَّرابُ

أو قصيدَتُهُ في وصفِ حربِ سيفِ الدّولةِ لِبَني عُقَيلٍ وقُشَيرِ وبَلْعَجْلانَ وبَني كلاب(٢):

طوالُ قَناً تطاعِنُهَا قِصَارُ وقَطْرُكَ في نَدىً وَغَىً بِحَارُ

ومن أمثلةِ قصائدِهِ التي نَظَمَهَا على البُحورِ الطّوالِ قصيدَتُهُ التي مَدَحَ بِهِا سيفَ الدّولةِ ووصفَ مسيرَهُ لِحربِ الرّومِ، وهي من بحرِ الطّويلِ وَمَطْلَعُهَا(٣):

ليالِيَّ بعدَ الظّاعنينَ شَكُولُ طوالٌ، وليلُ العاشِقينَ طَوِيلُ

ومنها حديثه عن مسيرِ سيفِ الدّولة(٤):

رَمَى الدّربَ بالجردِ الجيادِ إلى العدا وما علموا أنّ السِّهَامَ خُيُولُ
شوائلُ تشوالَ العقاربِ بالقَنَا لَهَا مَرَحٌ من تحتِهِ وصَهِيْلُ
وما هي إلاّ خَطْرَةٌ عَرَضَتْ لَهُ بحَرَّانَ لَبَّتْهَا قَنَا ونُصُولُ
هُمامٌ إذا ما هَمَّ أَمْضَى هُمُومَهُ بأرعَنَ وطءُ الموتِ فيه ثَقِيلُ

(١) ديوانه (٢٠٤/٣).
(٢) ديوانه (٢٠٢/٢).
(٣) ديوانه (٢١٧/٣).
(٤) ديوانه (٢٢١/٣-٢٢٢).

فإنّ هذه القصيدةَ تجاوبَ بحرُها مع عطافةِ الشَّاعِرِ الفرحـــةِ بهـــذه الانتصاراتُ فجاءَ الوزنُ واللَّفظُ مدويانِ كأنَّهُمَا طبولُ حربٍ، وقـــراعُ سيوفٍ.

ومثل هذه القصيدةِ قصيدتُهُ التي مدحَ بها سيفَ الدّولةِ، وهي مـــن شعره على بحر البسيطِ ومطلَعُهَا:

عقبَى اليمينِ على عقبَى الوغَى ندمُ ماذا يزيدُكَ في إقـــدامِكَ القَسَـــمُ

ومنها(١):

آلَى الفتَى ابنُ شُمَشْـــقِيقِ فأحنَثَـــهُ فتًى من الضَّرْبِ تُنْسَى عنده الكَلِمُ
وفاعلٌ ما اشتهى يغنيه عن حَلِـــفٍ على الفعالِ حضورُ الفعلِ والكَرَمُ
كُلُّ السُّيوفِ إذا طالَ الضِّرابُ بها يَمَسُّهَا غيرَ سيفِ الدّولة السَّـــأمُ
لو كَلَّتِ الخيلُ حتّـــى لا تَحَمَّلَـــهُ تَحَمَّلَتْـــهُ إلى أعدائِـــهِ الهِمَـــمُ

فإنّ هذه البحرَ-البسيطَ- أخو الطّويلِ في الفخامة والجلالة.

ومن أمثلة قصائدهِ التِي نظمها على البُحورِ السّريعة الحركة كالوافرِ والمتقاربِ والرَّملِ قولُهُ في بدرِ بن عمارٍ ارتجالاً وهي من بَحر (الرَّمَلِ)(٢):

إنّما بدرُ بـــنُ عَمَّـــارٍ سَـــحابٌ هطلٌ فيـــه ثـــوابٌ وعقـــابُ
إنّمـــا بـــدرٌ رزايـــا وعطايـــا ومنايـــا وطِعَـــانٌ وضِـــرابُ
ما يُجيلُ الطَّـــرْفَ إلاّ حَمدَتْـــهُ جهدَهَا الأيدي وذَمّتْهُ الرِّقَـــابُ
ما به قتـــلُ أعـــادِ بـــهِ ولَكـــنْ يتَّقِي إخلافَ ما ترجو الذّئابُ

(١) ديوانه (٤/١٣٠).

(٢) ديوانه (١/٢٦١-٢٦٢)

فَخِفّةُ البَحرِ ناسبتْ نشوةَ الطّربِ في تعدادِ مآثِرِ ممدوحِهِ وصِفاتِهِ، ومقاطِعُهُ الرّاقصة ناسبَتْ ذكرَ صفاتٍ متتاليةٍ.

ومن ذلك قولُهُ في مدحِ عليّ بن محمّد التَّميمِي، وهو على بَحرِ (الوافر)(١):

ضروبُ النّاسِ عشاقٌ ضروبا   فأعذرُهُم أَشَفُّهُمُ حبيبا
وما سَكَني سوى قتلِ الأعادي   فهلْ من زورةٍ تشفي القلوبا
تظلُّ الطّيرُ منها في حديثٍ   تَرُدُّ به الصّراصرَ والنَّعيبَا
وقد لَبِسَتْ دماءَهُمُ عليهم   حدَاداً لَم تَشَقَّ لَهَا جيوبا
أدمنا طعنَهُمْ والخيلُ حتّى   خَلَطْنَا في عِظَامِهِمُ الكُعُوبَا

فجمالُ موسيقي البَحرِ ومقاطُعُهُ ناسبتْ الوصفَ السّرديَّ الذي صوَّرَ بِهِ معارِكَهُمْ.

أمّا من حيثُ استخدامُ أبي الطَّيِّب للتّصريعِ وحرصُهُ عليه في كلّ مطالِعِ قصائِدِهِ وخاصّةً الحربيّة؛ فهذا أمرٌ ظاهرٌ، يدلُّ على مدى إدراكِ أبي الطَّيِّب للتّصريعِ من زيادةٍ في جرسِ القصيدةِ، ولم يقِفِ الأمرُ به على المطالِعُ؛ فإنّه كانَ يُصَرِّعُ أحياناً بعضَ المقاطِعِ ليُجَدِّدَ هذا الجرسَ في أذنِ المستمعِ، فَيَتَجَدّدُ نَشاطُهُ، وليَلْفتَ نَظَرَهُ إلى المعنَى الذي يريدُ أن يتحدَّثَ عَنْهُ، ومن ذلك تَصريعُهُ داخلَ قصيدَتِهِ(٢):

(١) ديوانه (٢٦٤/١-٢٦٥).
(٢) ديوانه: (٢٥٥/١) .

فهمت الكتـــاب أبـــر الكتـــب ... ...

فإنّه قال في وسَطِهَا:

مباركُ الاســـم أغَـــرَّ اللّقـــب كريمُ الجِرِشَّى شـــريفُ النّســـبِ

وتصريعُهُ في قصيدتهِ[١]:

بأبِي الشّموس الجانحـــات غواربـــا ... ...

فإنّه صرع في الثّلث الأخير من القصيدةِ؛ فقال[٢]:

لبّيكَ غيظَ الحاســـدِين الرّاتبـــا إنّا لَنَخْبُرُ مـــن يـــديك عجائِبَـــا

٢- القافية:

استعملَ المُتَنَبِّيُ في شِعْرِهِ الحربيّ كثيراً من القوافِي، لَكِنَّهُ أَلَحَّ علـــى استخدامِ القوافِي التّاليةِ:

١- اللامُ، وجاء له عليها (١٥) قصيدةً حربيةً[٣].

---

(١) ديوانه (١/٢٥٠).

(٢) ديوانه (١/٢٥٩)، من قصيدة يمدح بها عليّ بن منصور الحاجب.

(٣) انظر: ديوانه (٣/١٥٢، ١٦٣، ١٧٩، ١٩٨، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٥٤، ٢٦٧، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٠٩، ٣٢٥، ٣٣٧، ٤/٣، ١٥).

٢- الميمُ، وجاء له عليها (١٢)، قصيدةً حربيةً[1].

٣- الدّالُ، وجاء له عليها (١٠)، قصائدَ حربيةٍ[2].

٤- الباءُ، وجاء له عليها (٩)، قصائدَ حربيةٍ[3].

وَكُلُّهَا قوافٍ ذُلُلٌ.

٥- القافُ، وجاء له عليها (٥) قصائدَ رَجزيةٍ، وصفَ فيها مَهرَهُ وَصْفَ مَن يُعِدُّهُ للقتالِ[4].

أمّا نوعُ قوافيه من حيثُ الإطلاقُ والتَّقْيِيدُ؛ فجميعُهَا مطلقةٌ إلاّ أربعُ قصائدَ جاءت مقيدةً، والمقيدةُ تناسبُ حالَتَهُ النّفسيةَ، حيثُ قالَهَا وهو في قِمَةِ تشوتِهِ وطربِهِ، وهي:

---

(١) انظر: ديوانه (٤/٤٤، ٦٩، ٨٠، ٩٤، ١٠٩، ١١٩، ١٢٩، ١٦٥، ١٧٩، ٢٠٢، ٢١٥، ٢٣٦).

(٢) انظر: ديوانه (١/٣٨٤، ٣٩٠، ٢/٣، ١٧، ٦٣، ٧٤، ٨٦، ١٤٨، ١٦١، ١٧٣).

(٣) انظر: ديوانه (١/١٨٢، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٢٥، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٥٠، ٢٦١، ٢٦٤، ٣٠١).

(٤) انظر: ديوانه (٣/٣٩، ٤٨، ٦٠، ٩٢، ١٠١).

فهمـــتُ الكتـــابَ أبـــرَّ الكتـــب ... ...[1]
أَزَائِـــرٌ يـــا خيـــالُ أم عائـــدُ ... ...[2]
جـــاء نيروزَنـــا وأنـــتَ مـــرادُهُ ... ...[3]
وفاؤكما كالرَّبْعِ أشـــجاهُ طاسِـــمُهُ ... ...[4]

فالأولَى حينما وصلَهُ كتابُ سيفِ الدَّولةِ سنة: (٣٥٣هـ)، فَقَـدْ فَرِحَ بالكتاب ولكن كبرياءَهُ مَنَعَتْهُ من السّيرِ إليه.

والثّانيةُ: قالَهَا في عضدِ الدّولةِ.

والثّالثة: قالَهَا في أبي الفضل بن العميد، وهما يدلاّنِ على انشـراحِ لَحِقَهُ لِمَا لَقِيَهُ عندهما من حفاوة، عَوَّضَتْهُ ما فقدهُ بعد فراقه سيفَ الدّولة.

والرّابعةُ: وإن بدأ في مطلعِهَا حزيناً إلاّ أنّه فَرِحَ بما حَقَّقَهُ ممدوحُهُ من انتصاراتِ جَمَّةٍ على الأعداءِ ،وقد حَبَّذَ التّقييدَ إليه فَخامـةُ البَحـرِ، فالقصيدةُ من بَحرِ الطّويلِ وتقييدُهُ يَجعلُ له دويّاً في أذن السّامع.

ومن أمثلةِ قوافيه المقيَّدةِ قولُهُ من البائية السّابقة[5]:

---

(١) ديوانه (١/٢٢٥).

(٢) ديوانه (٢/١٧٣).

(٣) ديوانه (٢/١٤٨).

(٤) ديوانه (٤/٤٤).

(٥) ديوانه (١/٢٢٨-٢٢٩).

أيا سـيفَ رَبِّـكَ لا خَلْقِـه ويـاذا المكـارمِ لاذا الشُّـطُبْ
وأبعـدَ ذي هِمَّـةٍ همَّـةً وأعـرفَ ذي رُتبَـةٍ بالرُّتَـبْ
وأطعـنَ مَـنْ مَـسَّ خَطيَّـةً وأضربَ مَن بِحُسَـامٍ ضَـرَبْ
بذا اللّفظِ ناداكَ أهـلُ الثّغـو رِ فلبَّيْتَ والهامُ تحـتَ القُضُـبْ
وقد يَئِسوا من لذيـذِ الحيـا ةِ فعينٌ تَعـوُرُ وقلـبٌ يَجِـبْ
وغَرَّ الدُّمُسـتُقَ قـولُ العـدا ةِ: إنَّ عليّـاً ثَقيـلٌ وَصِـبْ
وقـد علمـت خيلُـهُ أنَّـهُ إذا هَـمَّ وَهْـوَ عليـلٌ رَكِـبْ

فجاءت القافيةُ بائيةً مقيّدَةً، والباءُ حرفُ فيه شدّةٌ لانْغلاقِ الهـواءِ عندَ النُّطْقِ به، وزادَ هذه الشِّدَّةَ التّقييدُ، فجاءت القافيةُ مُدَوِّيَةً وكيف لا، والقَصِيدةُ استهزاءٌ بالقائدِ الرّومِيِّ، واستهانةٌ بقوَّتِهِ، وبيانٌ لِمصيرِهِ.

أمّا القوافِي المطلقةُ فهي إمّا مُشْبَعَةٌ بأحدِ حروفِ الإشباعِ الضّـمَّةِ، أو الكسرةِ، أو مطلقةٌ بألفِ الإطلاقِ، أي: مفتوحةٌ أو موصولةٌ بهاءِ وَصْلٍ مُتحرِّكَةٍ.

وأكثر قوافيهِ المشبعةِ مشبعةٌ بالضَّمِّ، ويليهِ الكسرُ، وذلك لِمُنَاسَبَتِهِمَا حالته النّفسيةَ، حينما يكونُ ثائراً، إمّا على أعداءِ الإسلامِ، أو على أعدائه الشّخصيينَ، ومن ذلك قصائدُهُ الآتيةُ:

١-بغيرك راعيـــاً عَبَــثَ الـــذّئابُ ... ...[1]

٢-طـــوالُ قنـــا تطاعنُهَـــا قصَـــارُ ... ...[2]

٣-إذا كان مدحاً فالنَّسيبُ المُقَـــدَّمُ ... ...[3]

٤-أراعَ كَذَا كُـــلَّ الملـــوكِ هُمَـــامُ ... ...[4]

٥-لا افتخـــارٌ إلاّ لِمَـــنْ لا يُضَـــامُ ... ...[5]

٦-لليالِيَّ بعدَ الظّـــاعنينَ شُـــكُولُ ... ...[6]

٧-غيرِيّ بأكثرِ هذا النّاسِ يَنخـــدِعُ ... ...[7]

٨-لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لَقِـــيَ ... ...[8]

٩-أعلى الممالكِ ما يُبْنَى على الأَسَلِ ... ...[9]

١٠-الرَّأيُ قبلَ شُجَاعَةِ الشُّـــجْعَانِ ... ...[10]

---

(١) ديوانه (٢٠١/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٢٠٢/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٦٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٤) ديوانه (١٠٩/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٥) ديوانه(٢١٥/٤)،من قصيدةٍ يمدح بها أبا الحسين عليّ بن أحمد المُرِّيّ.

(٦) ديوانه (٢١٧/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٧) ديوانه (٣٣٠/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٨) ديوانه (٤٨/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٩) ديوانه (١٦٣/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(١٠) ديوانه (٣٠٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فإنّ استخدامَهُ هاتين الحرَكَتينِ –أعني: الإشباعَ بالضَّمِّ أو الكسرِ، يُفَرِّجُ عَمّا يَجِدُهُ في نَفْسِه، فالصّوتُ المُنْبَعَثُ منهما له دلالتُهُ في ذلـك، كما سيأتِي عندَ ضربِ المثالِ للإشباعِ بعد قليلٍ.

فإنْ كانتْ حالَتُهُ النَّفْسيَّةُ حزينةً بائسَةً، أو فرحةً طَرِبَةً؛ فإنّه يَعْمَـدُ إلى الإطلاقِ بالفتحِ، مثال ذلك قصائِدُهُ الآتيَةُ:

١–كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شـافيًا ... ...[1]

٢–دمعٌ جرى فقضى في الرّبعِ ما وجبـا ... ...[2]

٣–بقائِيَ شـاءَ لـيس هُـمُ ارتحـالا ... ...[3]

٤–ذِي المعالِي فليعلُـوَنْ مَـنْ تَعـالا ... ...[4]

٥–حيا و أيسرَ ما لاَقَيـتُ مـا قَـتَلا ... ...[5]

٦–الحبُّ مـا منـع الكـلامَ الألْسُـنَا ... ...[6]

فهو في هذه القصائدِ إمّا حزينٌ بائِسٌ لكثرةِ أعدائِه، ولِمَا لاَقَى من الأهوالِ والعداواتِ، وإمّا فَرِحٌ بانتصارٍ بدا فيـه كالشّـامتِ للأعـداءِ كالقصيدةِ الرّابعة.

(١) ديوانه (٤/٤١٧)، من قصيدة يمدح بها كافوراً الأخشيدي.

(٢) ديوانه (١/٢٣٧)، من قصيدة يمدح بها المغيثَ العجلِي.

(٣) ديوانه (٣/٣٣٧)، من قصيدة يمدح بها بدر بن عمّار.

(٤) ديوانه (٣/٢٥٤)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٥) ديوانه (٣/٢٨٢)، من قصيدة يمدح بها سعيد بن عبد الله الكلابِيّ.

(٦) ديوانه (٤/٣٢٧)، من قصيدة يمدح بها بدر بن عمّار.

وكمثالٍ لقوافيه المطلقة قولُهُ من قصيدة رائيَّة مَدَحَ بَها سيفَ الدّولةِ لِمَا أوقع بِبَنِي قُشَيرٍ وعُقَيلٌ وبالعَجْلانَ وبني كلابٍ[1]:

فأقلبــها المــروجَ مُسَــوَّمَات ضــوامرَ لا هِــزَالُ ولا شِــيَارُ
تَــثيرُ علــى سَــلَمْيةَ مُسَــبَطِرّاً تَنَــاكَرُ تحتَــه لــولا الشِّــعَارُ
عجاجــاً تَعْثُــرُ العِقْبَــانُ فيــه كَأَنَّ الجَــوَّ وعــثٌ أو خَبَــارُ
وظَلَّ الطّعنُ في الخَــيلَينِ خَلْسـاً كَأَنَّ المــوتَ بَينَهُمَــا اختصــارُ

فالقافيةُ رائيةٌ مطلقةٌ مضمومةٌ مردوفةٌ، وقد اجتَمَعَ لَهَا مع الجهرِ والضَّمِّ انتفاحُ ما قبلِهَا، فصارَ الصّوتُ الصَّادِرُ عن النُّطْقِ بها —وخاصّةً عند تكرارها في كلِّ قافيةٍ- صوتاً يَملأُ فَمَ الشَّاعِرِ ويدوي في أذن المستَمِعِ.

وكمثالٍ آخر لِحروفِ القافية: إشباعُ حروفِ الرّويّ في عَيْنِيَّتِهِ التي مَدَحَ بِها سيفَ الدّولةِ مُسَلِّياً له عَمّا حدَثَ لِجُنْدِهِ من قتلٍ، ومنها قولُهُ[2]:

قُلْ للدُّمَسْتُقِ إنّ المسلمينَ لَكُمْ خانوا الأميرَ فجازاهم بما صَنَعُوا
وجدتُمُوهُمْ نياماً في دمائِكُمُ كَأَنَّ قتلاكُمُ إيَّاهُمُ فَجَعُوا

(١) ديوانه (٢/٢٠٥-٢٠٧).

(٢) ديوانه (٢/٣٣٤، ٣٣٨-٣٣٩)، ومطلعها:

غيري بأكثرَ هذا النّاسِ ينخدعُ إن قاتَلوا جَبُنُوا أو حَدَّثُوا شَجُعُوا

ضعفِى تعَفُّ الأيادي عن مثـــالِهِمُ مِنَ الأعادي إذا هَمُّوا بِهُم نَزَعُوا
لا تحسبوا مِن أسرهم كان ذا رمقٍ فليسَ يأكلُ إلاّ الميتــةَ الضَّــبُعُ

فإنّ إشباعَ العينِ هنا يُحْدثُ صوتاً فيه نوعٌ من الأسى، ممّا نـــالَ ضعفِى المسلمين وخُوَّانَهُم؛ فَكَأَنَ القافيةَ تُرَدِّدُ في كلّ بيتٍ كلمةً (عـــو) مُمَثِّلَةً همَّةَ المكتومِ في نَفْسِهِ، الذي يتوالَى في شِدَّةٍ تبلُغُ الأعماقَ؛ حتّـــى لكأنَّهُ يَنزِعُ الحرفَ من بئرٍ سحيقٍ.

وهكذا جَلُّ القوافِيَ الحربيّة للمُتَنَبِّي؛ فإنّه يراعِـــي فيهـــا خاصِّـــيَّةَ حروفِ الرَّوِي، وما يَعْقُبُهُ أو يسبِقُهُ من حركاتِ القافية.

هذا، وليس للمُتَنَبِّي قوافٍ ناشِزَةٌ، وحروف رَوِيّ نابيةٍ، إلاّ أنّه نظمَ على رَوِيٍّ: الحاء والذّالِ والزّاي والشّينِ، أربعُ قصائدَ، ومن هذه القصائدَ وجد لهِ أبياتٌ عَابَهَا عليه النُّقَّادُ، لاجتلابهِ بعضَ قوافِيهَـــا فـــــي مثـــلِ قوله(١):

فَكَأَنَّهُ حَسِـــبَ الأســـنَةَ حلـــوةً أو ظَنَّهَـــا البَرنِـــيَّ و الآزاذا

قال ابن عبادٍ: «فلا أدرِي أكانَ في حومـــةِ الحـــربِ أم في ســـوقِ التَّمارينَ بالبصرة».

بينما نجدُ مَن يدافِعُ عنه هنا، فها هو الدّكتورُ محمّد شعيب يقـــولُ بعد كلامٍ طويلٍ شرح فيه وجهةَ نظر المُتَنَبِّي: «... فهل في ذكرِهِ بعـــضَ أنواعِ التّمرِ، وفي تصويرِهِ لِموقفِ الرَّجلِ بأنّـــهُ ظَـــنَّ السّـــهامَ شـــيئاً

(١) ديوانه (١٨٧/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها مساور بن محمّد الرّومي.

تستسيغُهُ النَّفْسُ، ويَميلُ إليه العربُ بطبيعتِهِمْ ما يسقط البيتَ ويـــذري بِهِ))[١].

وقصيدَتُهُ الشّينيةَ التِي مدَحَ بها أبا العشائرِ وجمعَ فيها لأجلِ القافيةِ بين النّعاجِ والكباشِ والنّبيطِ والجحاشِ والفيــاشِ والانْكِمَــاشِ في مثــل قولِهِ[٢]:

ومن قبلِ النّطاحِ وقبــل بــانِي ... تَبيْنُ لك النّعاجُ مــن الكبــاشِ
تُطَاعِنُ كُلَّ خيلٍ كنــتَ فيهــا ... ولو كانوا النَّبيطَ على الجحَــاشِ
تُزِيْــلُ مخافَــةَ المصــبُورِ عنــهُ ... وتُلْهِي ذا الفِياشِ عــن الفُيَــاشِ
وما وُجِدَ اشــتياقٌ كاشــتياقِي ... ولا عُرِفَ انكماشٌ كانكماشِــي

وهذا لا يعني عدم إجادَتِهِ في هذه القوافِي الحوشِ منها، فها هــو يقولُ في الشّينية السّابقة:

لقوه جاســراً في درعِ ضــرب ... دقيقِ النّسجِ ملتــهِبِ الحواشِــي
كَأَنَّ على الجَمَاجِمِ منــه نــاراً ... وأيدي القومِ أجنحــةُ الفَــرَاشِ
كَأَنَّ جَوَارِي المُهَجَــات مــاءٌ ... يعاوِدُهَا المهنَّــدُ مــن عِطَــاشِ
فَوَلَّــوا بــين ذي روحٍ مُفَــاتٍ ... وذي رَمَقٍ وذي عقــلٍ مُطَــاشِ
ومنعفرٍ لنصــلِ السّــيف فيــه ... توارى الضَّبِّ خافَ من احتراشِ
يُدَمِّي بعضُ أيدي الخيلِ بعضــاً ... ومــا بِعُجَايَــةٍ أثــرُ ارتِهَــاشِ

---

(١) المُتَنَبِّي بين ناقديه، د/ محمّد عبد الرّحمن شعيب (٩٦).

(٢) ديوانه (٢/٣٢٠-٣٢٥).

فقد وصف جوَ المعركةِ في هذه الشّينيةِ وأبدع فيــه، ولم يتكلّــفْ قوافِيَهَا، مع الوفاءِ بالمعنَى المرادِ.

٣- الموسيقي الدّاخلية:

ما الموسيقي الدّاخليةُ إلاّ حسنُ الإيقاعِ المبعثِ من تجاورِ الكلماتِ على نحو معيّن، ويُعَدُّ المُتَنَبِّي مِمَّن أحسنِ اختيارَ ألفاظِ شعْرِهِ، وبَــرَعَ في صياغتها منع مقاطِعِ البيتِ، فجاءت أكثرُ قصائدِهِ، ذاتُ هَزِيجٍ مُطْــرِبٍ، وجَرْسٍ عَذْبٍ، ويبدو جَمالُ هذه الموسيقي في:

-التّنَاظُرُ.

-المُحَسِّنَاتُ البديعَيَّةُ.

- التّنَاظُرُ:

سَمَّاهُ ابنُ الأثيرِ: (الموازنة)، وعَرَّفَهُ بقوله:

«أن يكونَ صدرُ البيتِ الشِّعرِيّ وعَجْزُهث متســاوِيَي الألفــاظَ وَزْناً»(١).

ويكسب التّنَاظُرَ القصيدةَ طلاوةً ورونقاً عظيمين، ومِمّا يُمثّلُ ذلك قولُهُ(٢):

---

(١) المثل السّائر (٤١٤/١)، وليس من الضّروريّ أنْ يكون ذلك بين صدر البيتِ وعجزه، فلا مانع أن يكون ذلك في الشّطر الواحد، فالُمهِمُّ لدينا هو: التّوازُنُ بين الشّطرتين أو الكلمتين ولو في شطرةٍ واحدةِ.

(٢) ديوانه (٤/٧١-٧٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فجاز له حتّى على الشَّمس حُكْمُهُ ... وبانَ لَهُ حتّى على البدر ميســمُ
كَأَنَّ العدا في أرضِــهِمْ خلفــاؤُهُ ... فإن شاءَ حازوها وإن شاء سَلَّمُوا
ولا كُتْــبَ إلاّ المشــرفيَةُ عنــدَهُ ... ولا رُسُلٌ إلاّ الخميسُ العرمــرمُ
فلم يخلُ من نصرٍ له مَنْ لَــهُ يَــدٌ ... ولم يخلُ من شكرٍ لَهُ مَنْ لَهُ فَــمُ
ضُرُوبٌ وما بين الحسامينِ ضــيقٌ ... بصيرٌ وما بينَ الشّجاعينِ مظلــمُ
فَهُنَّ مع السّيدانِ في الــبرِّ عُسَّــلٌ ... وهُنَّ مع العقبانِ في النِّيْقِ حُــوَّمُ
وهنَّ مع الغزلانِ في الــوادِ كُمَّــنٌ ... وهُنَّ مع النِّينانِ في المــاءِ عُــوَّمُ

فقد جمعَ في هذهِ الأبياتِ بين التّكرارِ العذبِ الذي يزيدُ في حسنِ الموسيقي الشّعرية، وبين الموازنةِ بين ما في الشّطرِ الأوّل بما في الشّطرِ الثّاني، أو بين كُلِّ فقرتينِ من بعضِ الأشطرِ، وتوضيحُ ذلك أنَّهُ وازَنَ بينَ الشّطرينِ في البيتِ الأوّلِ كالآتي:

جَــــانَ = بَــــانَ والشَّــمسِ = البــدر حكمُــــهُ = مــــيمُ

مع تكراره: ":له" "حتّى" "على" في كلا الشّطرين.

ومثله: البيتُ الثّالثُ: وازن بين: "كُتُبٌ" وَ"رَسُلٌ" مع تكراره: "لا إلاّ" ومثله البيت الرّابعُ؛ فإنّه وازن بين: "نَصرٍ" و"شَكرٍ"، وبــين "يــدٌ" و"فَمُ".

مع تكراه: "لم يَخلُ من ... له مَن له".

ومثله: البيتُ السَّادسُ؛ فإنّه وازن بين: "ضروبٌ" و"بصيرٌ"، وبــين "الحسامينِ" و"الشّجاعينِ" وبين: "ضَيِّقَ" و"مظلمُ" مع تكرار لفظة: "مــا بين".

ومثله: البيتان: السّابعُ والثّامنُ؛ فإنّـه وازن بـين: "السّـيدانِ" و "العقْبَان"، وبين: "البَرِّ" و"النّيْقِ"، وبين: "عُسَّلٍ" و"حُـوَّمِ"، في البيـت السّابع، وبين: "الغزلانِ" و"النّينانِ"، وبين:"الوادِ" و"الماءِ"، وبين: "كُمّنٌ"و "عُوَّمُ" في البيت الثّامنِ.

مع تكراره في كلا البيتين: "هُنَّ مع ... في ...".

فإذا أردنا توضيح الموازنةَ بين الكلمتينِ في شطرٍ احدٍ فإنَّا نَجدُها في الشّطرِ الثّانِي من البيت الثّانِي فقد وازنَ بين: "جازوها" و"سلموا" مـع تكراره: "إن شاء".

ومثل هذه الأبيات قولُهُ[١]:

فما تركنَ بها خُلْداً لـه بصـرٌ تحتَ التّرابِ ولا بازاً لـه قَـدَمُ
ولا هزيراً له من درعِـه لِبَـدٌ ولا مهاةً لَها من شبهِهَا حَشَـمُ

فقد ناظر بين: "خلد" "بازاً" "هزيراً""مهاة"، وبين: "بصرٌ" "قدمُ"، وبين: "درعِهِ لبدٌ" "شِبْهِهَا حَشَمُ".

-المُحَسَّنَاتُ البديعيّةُ:

استخدم المُتَنَبِّي كثيراً من المُحَسَّنَاتِ البديعيّةِ، ويُهِمُّنا منها هنا ثلاثة مُحَسِّناتٍ هي:

-التّقسيمُ.

(١) ديوانه (١٣٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

-الطِّبَاقُ (وهما معنويَّان).

-الجِنَاسُ، وهو: (لَفْظِيٌّ).

-التَّقْسِيمُ:

أمّا: التّقسمُ: «فهو ذكرُ متعدِّدٍ، ثم إضافةُ ما لِكُلٍّ إليه على التّعيين»(١).

لقد حَرِصَ المُتَنَبِّي عليه وأكثر منه، وجاء منه بِما يُعْجِبُ دون تَكَلُّفٍ.

وتكمن فائدةُ التّقسيمِ فيمَا يُحْدِثُهُ في الوزنِ من تقطيعٍ بديعٍ، وبدلالتِهِ على براعةِ الشَّاعِرِ، وبلوغِهِ من الفصاحةِ مبلغاً عظيماً، ولذا قال عنه صاحبُ الطّرازِ -عند حديثه عنه وعن التّفريقِ والجمعِ وهي قرناء، متممةٌ لبعضها-: «وهذه الثّلاثة من عوارضِ البلاغة إذا وقعتْ في الكلامِ بلغَ مبلغاً عظيماً في حسنِ التّأليفِ وإعطاءِ الفصاحة حَقَّهَا»(٢).

ومِمّا لأَبيّ الطَّيِّب منهُ في شِعْرِهِ الحرْبيّ قولُهُ(٣):

---

(١) هذا تعريف البلاغيِّين، وقد وجدت تعريفاً له للدّكتور عبد الله الطّيّب، رأيت أنّه أشملُ وأدقُّ من تعريفات البلاغيِّين، وهو قوله:«هو: تَجزئةُ الوزن إلى موقفٍ أو موضعٍ يسكت فيه اللّسانُ، ويتستريحُ أثناءَ الأداءِ الإِلْقَائِي».

المرشد إلى فهم أشعار العرب (٦٩٦/٢).

(٢) الطّراز (١٤١/٣).

(٣) ديوانه (٢٠٤/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

ضاقَ الزّمانُ ووجهُ الأرضِ عن مَلَكٍ ملءِ الزّمانِ وملءِ السَّهلِ والجبلِ
فنحنُ في جَذَلٍ، والــرُّومُ في وَجَــلٍ والبَرُّ في شُغُلٍ، والبَحْرِ في خَجلِ

فذكر أربعةَ أشياءٍ: هُمْ: والرُّومُ، والبَرّ، والبَحر، وأضاف إلى كُــلِّ واحدٍ منها ما يناسبه، وقد أكسب هذا التّقسيمُ البيتَ تقطيعاً موسيقياً زادَ في حُسنه.

ومثل البيتينِ السّابقينِ قولُهُ(١):

حتّى أقامَ على أرباضِ خَرْشَــنةٍ تشقى به الرُّومُ والصُّلبَانُ والبِيَــعُ
للسَّبْيِ ما نكحوا، والقتلِ ما ولدوا والنَّهبِ ما جمعوا والنّارِ ما زرعوا

فقد جمعَ في البيتِ الأوّل شقاءَ الرُّومِ بالممدوحِ على سبيلِ الإجمالِ؛ حيث قال: «تشقى به الرُّومِ، ثم قَسَّمَ في الثّاني وفَصَّلَهُ».

وقال من القصيدةِ نَفْسِهَا(٢):

الدَّهْرُ معتذرٌ والسّيفُ منتظــرٌ وأرضهم لك مصطافٌ ومُرْتَبَعُ

ومن التّقسيم –ما سَمّاهُ الثَّعَالَبِيُ بِحسن سياقةِ الأعداءِ، وعَدَّهُ مــن محاسنِ أبِي الطَّيِّب(٣)؛ كقوله(٤):

إنْ تَلْقَهُ لا تلــقَ إلاّ قَسْــطَلاً أو جَحْفلاً أو طاعناً أو ضــارِبَا
أو هارباً أو طالبــاً أو راغبــاً أو راهباً أو هالِكــاً أو نادِبَــا

(١) ديوانه (٢/٣٣٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٢) ديوانه (٢/ ٣٤٣)، من القصيدةِ نفسها.
(٣) يتيمة الدّهر (١/١٩٦).
(٤) ديوانه (١/٢٥٤)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن منصور الحاجبِ.

وقوله(١):

إنّمــا بــدرٌ رزايــا وعطايــا ومنايــا وطعــانٌ وضــرابُ

وقوله(٢):

ألا أيّها السَّيفُ الذي ليس مغمَداً ولا فيه مرتابٌ ولا منه عاصــمُ

هنيئاً لضربِ الهامِ والمجدِ والعــلا وراجيْكَ والإسلامِ أنَّكَ ســالِمُ

فالتَّقسيمُ في هذه الأبياتِ ظاهرٌ؛ إذْ قَسَّمَ أبو الطَّيِّبِ الأبياتَ الثَّلاثَةَ الأوّل، إلى كلماتٍ منصوبةً أو ممدودةً، وجلُّهَا مرصعةٌ، وقَسَّمَ البيتَ الخامسَ إلى كلماتٍ، لكنّها ليست مرصعةً.

ومِمّا يندرج تحت هذا مِمّا ليس مرصعاً، قولُهُ(٣):

وربَّ جوابٍ عن كتابٍ بعثْتُـهُ وعنوانُـهُ للنَّـاظِرينَ قَتَـامُ

حروف هجاءِ النّاسِ فيه ثلاثـةٌ جوادٌ ورمحٌ ذابـلٌ وحسـامُ

وقولُهُ(٤):

فولـوا بـين ذي روحٍ مفـاتٍ وذي رَمَقٍ وذي عَقْلٍ مُطَـاشِ

وقولُهُ:

فرسٌ سـابقٌ، ورمـحٌ طويـلٌ ودلاصٌ زَغْفٌ، وسيفٌ صقيلُ

---

(١) ديوانه (٢٦١/١)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمَّار.

(٢) ديوانه (١٠٨/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (١١٣/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٤) ديوانه (٣١٨/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فالأبياتُ الثّلاثةُ الأخيرةُ مُقَسَّمَةٌ لَكِنَّهَا غير مرصعةٍ، لَكِنَّ التَّقسيمِ فيها قد زاد موسيقي الأبياتِ حُسْناً.

-الطِّبَاقُ:

استخدم أبو الطَّيِّب الطِّبَاقَ وأكثرَ منه، وقد جَعلَهُ الدّكتور طه حسين من عواملِ جَمَالِ الشِّعْرِ عندَهُ، فقالَ -حينما تَحدَّثَ عن القوامِ الفَنِّيِّ لشعرِ المُتَنَبِّي، وأنّه كامنٌ في خصلتينِ هما: المطابقةُ والمبالغةُ-:

«وَأَمَّا الخصلةُ الأولى: فهِيَ المطابقةُ التِي يُحِبُّهَا المُتَنَبِّي أشدَّ الحبِّ، ويستخرجُ منها فنوناً من الجمالِ، تؤَثِّرُ في العقلِ والذّوقِ والحسِّ جميعاً، فتنشيءُ شيئاً من الموسيقى اليسرةِ الحلوةِ في أكثرِ الأحيانِ»[1].

ومن أمثلةِ الطِّباقِ في شعرِهِ الحربيّ قولُهُ[2]:

ولكنْ رَبُّهُم أسرى إليهم   فَما نفعَ الوقوفُ ولا الذَّهَابُ
ولا ليلٌ أجَنٌّ ولا نَهارٌ   ولا خيلٌ حَمَلْنَ ولا رِكَابُ
رمَيْتَهُمْ بِبَحرٍ من حديدٍ   له في البَرِّ خَلفَهُمُ عُبَابُ
فمساهُمْ وبسطُهُمُ حريرٌ   وصَبَّحَهُمْ وبسطُهُمُ التُّرابُ

فإنّه طَابَقَ بينَ: الوقوفِ والذّهابِ، واللّيلِ والنّهار، والبَحرِ والبَرِّ، والمساءِ والصّباحِ، والحريرِ والتّراب.

---

(١) مع المُتَنَبِّي (٥١).

(٢) ديوانه (٢١٣/١)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وقولُهُ[(١)]:

فكانَ الغربُ بَحراً مــن ميــاه ... وكان الشّرقُ بَحراً مــن جيــادِ
وقد مزقتَ ثوبَ البغْيِ عنــهُمْ ... وقد ألبســتَهُمْ ثــوبَ الرَّشــادِ
فلا تغــرركَ ألســنةُ مــوالٍ ... تقلِّــبُهُنَّ أفئــدةٌ أعــادِي
وكن كالموتِ لا يرثِي لبــاكٍ ... بكَى منه، ويروى وهو صــادِي

فإنّه طَابَقَ بينَ: الغربِ والشّرق، ومزق وألبس، والبغي والرّشــاد، ومِوالٍ وأعادي، ويروى وصادي.

وقولُهُ[(٢)]:

وتَحيِي له المــالَ الصّــوارِمُ والقَنَــا ... ويقْتُلُ ما تحمِي التَّبسُّمُ والجَــدَا
سَرَيْتَ إلى جيحانَ مــن أرضِ آمِــدٍ ... ثلاثاً لقد أدناكَ ركضٌ وأبعــدَا
فَــوَلّى وأعطــاكَ ابنَــهُ وجيوشَــهُ ... جميعاً ولم يعطِ الجميعَ لِيُحْمَــدَا
فَلَو كَانَ يُنْجِي مــن علــيٍّ تَرَهُّــبٌ ... ترهبتِ الأملاكُ مثنَى ومَوحِدَا
وكلُّ امرئٍ في الشّرقِ والغربِ بعدَها ... يُعِدُّ لهُ ثَوباً من الشَّعْرِ أســودَا

فإنّه طَابَقَ بين: "تحيِي" و"يقتلُ"، و"أدنَى" و"أبعدا"،و"أعطى" و"لم يعطِ" ، و"مثنَى ومَوْحدا"، و"الشّرقِ والغربِ".

(١) ديوانه (٢/٨١-٨٣).
(٢) ديوانه (٢/٤-٧).

- الجِنَاسُ:

استخدم أبو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّيُ الجِنَاسَ كثيراً: «والذي يقرأ أوصافَ المُتَنَبِّي للحروبِ لا يُمكن أن يخفي عنه قصدُ هذا الشَّاعرِ إلى إظهارِ جلبةِ القتال، وهديرِ الألفاظِ ذاتِ الحروفِ المتشابِهةِ في غيرِ النَّسقِ الجِنَاسيِّ التّقليديِّ المألوفِ»(١). أي:أنّه لم يكن يَحرص على الجِناسِ التّامِّ كثيراً.

والتّجنيسُ إذا لم يكن مُتَكَلَّفاً؛ فإنّه يُحدثُ موسيقياً عذبةً ناجمةً عن تكرارِ حروفِ الكلماتِ، ومن ذلك قولُهُ في قصيدَتِهِ اللاميّةِ التي مدح بها سيفَ الدّولة(٢):

لقيتُ بدربِ القُلَةِ الفجرَ لقيةً ... شَفَتْ كَمَدي واللّيلُ فيه قَتِيْلُ
رمَى الدّربَ بالجردِ الجيادِ إلى العدا ... وما علموا أنّ السّهامَ خيولُ
سَوَائِلُ تشوالُ العقارِبِ بالقَنَا ... لَهَا مرحٌ من تحتِهِ وصَهِيْلُ
... ...
هُمَامٌ إذا ما هَمَّ أمضى هُمومَهُ ... بِأَرعَنَ وطءُ الموتِ فيهِ ثَقِيْلُ
... ...
عَلَى طُرُقٍ فيها على الطّرْقِ رفعةٌ ... وفي ذكرِهَا عند الأنيسِ خُمُولُ
... ...
وعَادَتْ فظَنُّوا بِمَوُزَارَ قُفَّلاً ... وليس لَهَا إلاّ الدّخولُ قُفُولُ

(١) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، د/ عبد الله الطّيِّب (٦١٩/٣).

(٢) ديوانه (٢١٧/٣-٢٢٩).

فخاضت نَجيعَ الجمعِ خوضاً كأَنَّهُ بِكُلِّ نَجيعٍ لَم تَخُضْهُ كَفِيْلُ

. . . . . .

وَكَرَّتْ فَمَرَّتْ في دِمَاءِ مَلَطيةِ مَلَطْيَةُ أمٌّ للبنينَ ثَكُولُ

. . . . . .

طَلَعْنَ عليهم طلعةً يعرفونَهَا لَهَا غُررٌ ما تنقضي وحُجُولُ

. . . . . .

وَدَوَنَ سُمَيْسَاطَ المطاميرُ والمَلاَ وأوديةٌ مجهولةٌ وهُجُولُ

. . . . . .

فَإِنْ تكنِ الأيّامُ أبصرنَ صولَهُ فقد عَلَّمَ الأَيَّامَ كيفَ تَصُولُ

وهكذا، بعضُ الأبياتِ الباقيةِ منها ، فإنّ الجِناسَ ظاهرٌ في كُلِّ بيتٍ ممّا ذكرتُ آنفاً، فقد جَانَسَ في البيت الأوّل بين: "لقيتُ" "لَقْيَةً"، وفي الثّاني بين: "الجردِ" و"الجيادِ"، وفي الثّالث بين: "شوائلُ" و"تشوال"، وفي الرّابع بين: "همام" وهمومه، وفي الخامس بين: طُرُق وطُرْق، وفي السّادسِ بين: قُفَّلاً وقُفُول، وفي السّابع بين: خاضتْ وخوضاً وتخضّه، وفي الثّامن بين: كَرَّتْ ومَرَّت، وفي التّاسع بين: طَلَعْنَ وطَلْعَةً، وفي العاشِرِ بين: مجهولة وهُجُول، وفي الحادي عشر بين: صَوْلة وتَصُولُ.

وكَمِثَالٍ للقصائدِ التي يَكثُرُ فيها أو الطَّيِّب من الصّنعةِ وبِخاصّة الطِّباقُ والجِنَاسُ والتَّقسيمُ والتّرديدُ قولُهُ[1]:

---

(١) ديوانه (٤/٩٤-١٠٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

على قدرِ أهل العزمِ تأتِي العَزَائِمُ وتأتِي على قدرِ الكرامِ المكارِمُ
وتعظمُ في عينِ الصّغيرِ صغارُهَا وتصغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

فقد جَانَسَ بين العزم والعزائمِ، وبين الكرامِ والمكارِمُ، وكرّر: «تأتِي على قدر، مع تأخير: «تأتِي» في الشّطر الأوّل عن قوله: «على قدر».

وجَانَسَ بين: «الصّغير وصغَارُهَا»، وبين: «العظيمِ والعظائِمُ»، وطَابَقَ بين: «تعظمُ وتصغرُ»، وكَرَّرَ: «في عين» في الشّطرين.

يفدي أَتَمَّ الطّيرِ عمراً سلاحَهُ نسورُ الملا أحداثُهَا والقَشَائمُ
وما ضَرَّهَا خَلْقٌ بغيرِ مَخالِبٍ وقد خُلِقَتْ أسيافُهُ والقَوائمُ

فقد طَابَقَ بين:«أحداثُهَا والقشاعِمُ»،وجَانَسَ بين:«خَلْقٌ وخُلِقَتْ».

سقتها الغمامُ الغُرُّ قبلَ نُزُولِهِ فلَمّا دنا منها سَقَتْهَا الجَمَاجِمُ
بناها فأعلى والقنا تقرعُ القنا وموجُ المنايا حولَهَا متلاطِمُ

ردّدَها في الشّطر الأوّل منه، كما يلحظ اتّفاقُ أواخر الكلماتِ الأربعِ الأُوَّلِ من الشّطر الثّاني في البيت الأوّل، اتّفاقها بألف: فلَمّا، دنا، منها، سقتها، ومثله أواخر كلمات البيت الثّاني ما عدا ثلاث كلماتٍ وهي: تقرع، موج، ومتلاطم. وأمّا ما عداها فمُتَّفِقٌ في آخره: بناها، فأعلى، والقنا، (مكرّر) المنايا، حولَها.

تُفيْتُ اللّيالي كُلَّ شيءٍ أخذنَهُ وَهُنَّ لِما يأخذنَ منك غَوارِمُ

فقد جَانَسَ بين: أخذنه ويأخذنه.

وقد حاكموهَا والمنايا حواكِمٌ فَما مات مظلومٌ وما عاشَ ظالِمُ

فقد جَانَسَ بين: ((حاكموهَا وحواكم))، وبين: ((مظلومٌ وظـالِمُ))، وطَابَقَ بين: ((مات وعاش)).

إذا برقوا لَم تُعْرَفِ البِيْضُ منهم ثيابُهُمْ من مثلها والعَمَائِمُ
خميسٌ بشرق الأرضِ والغربِ زحفُهُ وفي أذن الجوزاءِ منه زَمَازِمُ

ففي البيت الأوّل يلحظُ الإشباعُ في: ((منهم))، ((ثانيهمُ))، ((عمائم)).

وكذا تكراره حرفَي المِيمِ والهَاءِ في البيت، وما يُحدث ذلك من موسيقي جميلةٍ حين إشباعِ الأحرفِ أو تكرارِها.

وقد طَابَقَ بين: ((شرقٍ)) و((غربٍ))، في البيت الثّانِي.

فلله وقتٌ ذوَّبَ الغشَّ نارُهُ فَلَم يبقَ إلاّ صارِمٌ أو ضُبَارِمُ
تقطَّعَ ما لا يَقْطَعُ الدِّرْعَ والقنا وفَرَّ من الأبطالِ مَن لا يُصَادِمُ
وقفتَ وما في الموتِ شَكٌّ لواقفٍ كَأَنَّكَ من جفنِ الرَّدَى وهو نائِمُ

فقد جَانَسَ بين: ((صارم، ((ضبارم))، و((تقطّع و((يقطع))، وبين: ((وقفت و((واقف)).

تَجاوزت مقدار الشّجاعةِ والنُّهَى إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عالِمُ
ضممتَ جناحَيْهِمْ على القلبِ ضَمَّةً تموت الخوافِي تحتَهَا والقوادِمُ
بضربٍ أَتَى الهاماتِ والنَّصْرُ غائبٌ وصارَ إلى اللَّبَّاتِ والنُّصرُ قادِمُ

فقد جَانَسَ بين: ((قولِ وقومٍ))، و((ضممت ومضة، وطَابَقَ بين: ((الخوافِي والقوادِمُ))، و((غائبٌ وقادِمِ)).

ومِمّا سَبَقَ من حديث عن القِيَمِ الصّوتيَّة يَتَبَيَّنَ لنا أنّ أبا الطّيِّب المُتَنَبِّيَ أعطى هذا الجانبَ حَقَّهُ في شعْرِه، وأبرزه بروزاً بَيِّناً من خلال حرصِه على اختيارِ البُحورِ الطّوال، لتناسبِ مقامَ الحماسِ الحربيِّ، والفخرَ بالشّجاعةِ والفروسيّة،وكذا إكثارُهُ من القوافِي الذُّلُلِ؛كـ: ((اللامِ والميمِ)) و((الدّالِّ، والباء))، وكونِ أكثر قوافيه مطلقةً لِتَناسبِ حالته النّفسية،كما قدمنا آنفاً[1].

ومن حرصه على الموسيقي الشّعريّةِ في قصائدِه حرصُهُ على التّرديدِ والتّناظرِ والطّباقِ الجِنَاسِ والتّقسيمِ، لِما في ذلك من موسيقي عذبةٍ، يضفيها كُلُّ واحدٍ من هذه على البيتِ والقصيدةِ معاً.

(١) (ص: ٧٠٧) من الرّسالة.

د-شِعْرُ الحربِ والبناءُ الفَنِّيُّ للقصيدةِ عن المُتَنَبِّي

سنعرَضُ للحديث عن بناءِ القصيدةِ الحربيّةِ عند المُتَنَبِّي في ثلاث نُقاطِ، تُعَدُّ هي الهيكَلُ لِكُلِّ قصيدةٍ وهي:

-الافتتاح والمقدِّمة. -العَرْضُ. -الخاتِمَة.

-الافتتاح والمقدِّمة.

فأمّا افتتاح قصائِدِ المُتَنَبِّي الحربِيَّة، فعلى الإجمال عُرِفَ عن المُتَنَبِّي حسنُ افتتاحِ قصائدِهِ وجودةُ ابتداءاتِهِ، وسَنُبَيِّنُ هنا شيئين هما:

- جودةُ ابتداءاته أو إساءته فيها.
- ونوعية مقدّمَاته، أهِي تقليديَّةٌ أمْ فيها تَجديدٌ.

فأمّا الجودةُ؛ فإنّها في غالبِ أحوالِه -كما تقدّم- جَيِّدَةٌ، فقد قال عنه ابن الأثير: «وأمّا أبو الطَّيِّب؛ فإنّه أكثر من الابتداءات الحَسَنَةِ في شِعْرِهِ»[١].

ومن أمثلة ابتداءاته الجَيِّدَةِ قولُهُ[٢]:

على قدرِ أهل العزمِ تأتِي العزائم وتأتِي على قدر الكرامِ المكارِمُ

وقولُهُ[٣]:

(١) المثل السّائر (١٢٦/٣).

(٢) ديوانه (٩٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (١٠١/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها أبا العشائر.

أتراهـــا لكثـــرةِ العشـــاقِ تحسبُ الدَّمْعَ خِلْقَـةً في المَـآقِي

وقولُهُ(١):

الرّأيُ قبلِ شجاعَةِ الشّـجعانِ هو أوّلٌ، وهـي المحـلُّ الثّـاني

وقولُهُ(٢):

عقبَى اليمينِ على عقبَى الوغَى ندمُ ماذا يزيدُكَ في إقـدامِكَ القَسَـمُ

وقولُهُ(٣):

أعلى الممالكِ ما يبنَى على الأَسَلِ والطَّعْنُ عِنْدَ مُحبِّـيْهِنَّ كالقُبَـلِ

وهذه الجودةُ لا تَعنِي عدمَ وجودِ بعضِ المطالِعِ التِي قد أساء فيها؛ فقد نَعَى عليه بعضُ النُّقَّادِ عدداً من المطالِعِ، ذكر القاضي الجرجانيُّ بعضاً منها في وساطته، وبدا حين ذِكْرِهَا كالمُسلَّم لمن قال بذلك، ولم يردَّهُ إلاّ بحجَّتين هما: أنّه إن غلط في ذلك وأساء؛ فقد أساء غيرُهُ من الشُّـعراءِ، والأخرى أنّما أحسن فيه يَغْفِرُ لَهُ ما أساءَ فيه(٤).

ومن هذه المطالِعِ في شِعْرِهِ الحربيِّ قولُهُ(٥):

---

(١) ديوانه (٤/٣٠٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٤/١٢٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) ديوانه (٣/١٦٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٤) الوساطة (١٥٥-١٥٦)، وحجّته الأولى ذكرها عند دفاعه عنه أوّل مَــرَّة في باب أغاليط الشّعراء، انظر: (ص ٤، ١٠).

(٥) ديوانه (٢/٧٤)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِي.

أحادٌ أم سداسٌ في أحادِ لُيَيْلَتنَا المنوطةُ بالتّنادِي

وقولُهُ(١):

مُلِتَّ القطرِ أَعْطَشَهَا ربوعاً وإلاّ فاسقها السُّمَّ النّقيعا

وقولُهُ(٢):

أَثْلِثْ فإنّا أيّها الطّلَلُ نبكِي وترزمُ تَحتَنَا الإبلُ

وقولُهُ(٣):

بقائِيَ شاءَ ليس هموا ارتحالا وحُسْنَ الصَّبْرِ زمُّوا لا الرِّحَالا

وقولُهُ(٤):

وفاؤُكَمَا كالرّبعِ أشجاهُ طاسِمُهْ بأن تُسْعَدَا والدّمعُ أشفاهُ سَاجِمُهْ

وقولُهُ(٥):

كفى بكَ داءً أن ترى الموتَ شافياً وحسبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا

هذا، وقد لَفَتَتْ هذه الظّاهرةُ ابنَ رشيق، فقال -بعد حديثه عن جودةِ مبادئه وخروجه وتَخَلُّصِه-: «... إلاّ أنّه رُبّما عَقَدَ الأشعارَ ثقةً

(١) ديوانه (٣٥٧/١)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِي.
(٢) ديوانه (١٥/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٣) ديوانه (٣٣٧/٣)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمّار.
(٤) ديوانه (٤٤/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٥) ديوانه (٤١٧/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها كافورا الأخشيدي.

بِنفسهِ، وإغراباً على النّاسِ كقولهِ أوَّلَ قصيدةٍ:

وفاؤُكَمَا كالرّبعِ أشجاهُ طاسِــمُهْ ... ... البيــــــت

فإنّ هذا يَحتاجُ "الأصمعيّ" إلى أن يفسِّرَ معناه»[1].

وقد يكونُ هذا القولُ مقارباً للحقيقةِ، وله صلةٌ كــبيرةٌ بنفســية الشَّاعِرِ؛ لأنّنا لو تتبّعنا الفترةَ التِي قيلت فيها هذه القصائدُ، لرأيناها مــن أقسى الفتراتِ على نفسيّتِهِ وأشدِّهَا ارتفاعاً لأزماتِهِ النّفسيّةِ، فعقّدَهَا لتعقّدِ نفسيته؛ فقصيدتاه:

١- أحادٌ أم سداسٌ في أحــادِ ... ... البيــــــت

٢- مُلِتَّ القطرِ أَعْطَشَهَا ربوعــاً ... ... البيــــــت

فهما قصيدتانِ قالَهُمَا قبل اتّصالهِ بسيفِ الدّولةِ، وبعد سِجْنِهِ وعلى أثرِ مضايقاتِ أمراءِ الشّامِ له.

وقصيدتُهُ:

وفاؤُكَمَا كالرّبعِ أشجاهُ طاســمُهْ ... ... البيــــــت

قالَهَا في سيفِ الدّولةِ، ولَكِنّهَا تَنمُّ عن اضطرامِ همومٍ متكالبةٍ عليــه وأبياتُهَا تَصرِّحُ بذلك؛ ومن ذلك قولُهُ[2]:

وقد يتَزَيَّا بـــالهوى غـــيرُ أهلِــهِ ويستصحبُ الإنسانُ مـــن لا يلائمُـــهْ
بليت بلى الأطلالِ إن لم أَقِفْ بِهَا وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التّرابِ خَاتَمُهْ

---

(١) العمدة (١٦٦).

(٢) ديوانه (٤/٤٥-٤٦)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وأمّا المقدِّماتُ: فقصائِدُهُ على فئتين:

فِئَةٌ لَها مقدِّماتٌ، وهي على نوعين: نوعٌ تحديدِيٌّ، وهي القصائِدُ التِي قدَّم لَها بِمقدِّماتِ حُكْمِيَّةٍ أو شكوى من الدّهرِ، وليس فيها غُموضٌ أو إغرابٌ، ومن ذلك قصائِدُهُ:

١-أعلى الممالكِ ما يبنَى على الأسَلِ   والطَّعنُ عند محبِّيهِنَّ كالقُبُلِ[(١)]
٢-على قدر أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ   وتأتِي على قدرِ الكرامِ المَكارِمُ[(٢)]
٣-غيرِي بأكثرِ هذا النّاسِ ينخدعُ   إن قاتلوا جَبُنُوا أو حَدَّثُوا شَجُعُوا[(٣)]

والنّوع الآخر وهي القصائِدُ التِي قدَّمَ لَهَا بِمقدِّماتٍ طلليةٍ أو غزليةٍ، ومن ذلك قَصَائِدُهُ[(٤)]:

١-فديناكَ من ربعٍ وإن زِدْتَنَا كَرْبَا   فَإِنَّكَ كنتَ الشَّرقَ للشَّمسِ والغَرْبَا

فقد قَدَّمَ لِهَذِهِ القصيدةِ بِمقدِّمَةٍ طلليةٍ غزليةٍ مقدارها أحد عشر بيتاً.

٢-دمعٌ جرى فقضى في الرَّبْعِ ما وَجَبَا   لأَهلِهِ وشفى أَنَّى ولا كَرَبَا[(٥)]

فقد قَدَّمَ لَهَا بِمقدِّمَةٍ طلليَّةٍ وغزليّةٍ بأحد عشرَ بيتاً أيضاً.

---

(١) ديوانه (٣/١٦٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٢) ديوانه (٤/٩٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٣) ديوانه (٢/٣٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٤) ديوانه (١/١٨٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٥) ديوانه (١/٢٣٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

٣-بأبِي الشّموسِ الجانحاتِ غواربًا اللاّبساتِ من الجريرِ جَلاَبِبَا(١)

فقد قَدَّمَ لَها بِمقدِّمةٍ غزليّة، فيها شَكَى آلامَ الفراقِ باثْنَي عشرَ بيتاً.

ويَهُمُّنَا هنا أن نعلمَ أنّ الغزلَ في شِعْرِ المُتَنَبِّي لم يَكُنْ في فتياتٍ معيَّنَاتٍ، ولِهَذا لم تكن عاطِفَةُ الشّوقِ فيه مضطربةً شديدةً، وإنّما جاء بِهذا الغرضِ لِهَدَفين:

إمّا: تقليداً محضاً وهذا ينطبقُ على أكثرِ غَزَلِه القديمِ، والذي جاء في قصائِدَ ليست حربيَّةً، وهو ما لا يَهُمّنا الحديث عنه.

وإمّا: أنّه يَرمزُ به إلى عاطِفَتِه الحقيقيّةِ التي تصوّر الجوَّ النّفسيَّ للغرض الأصليّ من القصيدة، وهو يَتَمَثَّلُ في أكثرِ قصائده الحربيَّة، وخاصّةً السّيفيّاتُ منها، وقد لَحظ هذا عددٌ من النُّقّادِ، منهم د/ طَه حسينٍ، عند تحليلِه لقصيدةِ المُتَنبِّي التي مَطْلَعُهَا(٢):

لياليَّ بعد الظّاعنينَ شُكُولٌ طوالٌ وليلُ العاشِقِينَ طويلُ

فإنّه أشار إلى أنَّ تقديمَ المُتَنَبِّي لِهذه القصيددةِ بالنّسيبِ، يرمزُ إلى: «حزنٍ دفينٍ يصدرُ أحياناً عن نفس الشَّاعرِ، التي لم تدركْ من آمالِهَا شيئاً أو لم تكدْ تدركُ منها شيئاً، ويصدرُ أحياناً أخرى عن حالِ هذه الأمةِ الإسلاميّةِ التي تُبْلِي فَتُحْسِنُ البلاءَ وتجاهِدُ فَتُحْسِنُ الجهادَ، ولَكِنَّهَا حيث

(١) ديوانه (١/ ٢٥٠)، من قصيدةٍ يمدح بها منصور الحاجب.

(٢) ديوانه (١/ ٢١٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

هي لا تتقدّم خطوةً، ولَعلَّها تتأخّرُ خطوات...»[١].

كما لحظ ذلك د/ طه أبو كريشه عند حديثِه عن الخيالِ الشِّعْرِيّ في غزل أبي الطّيّب، فقد ألَحَّ على إبرازِ هذه الظّاهرَة، ولَهَا شواهدُ عديدةٌ، ومِمّا قَالَهُ عندَ حديثِه عن الرّمز بالموقفِ الغزلِيّ إلى الجَوِّ النَّفْسِيِّ الذي كان وراء الغرضِ الأصلِيِّ للقصيدة:

«فإنّ المُتَنَبِّي بِهذا الصّنيعِ قد يكون في طليعةِ الشُّعَراءِ الذين جعلوا مُقَدِّماتِهُمُ الغزليَّةَ بَمَنأىً عنِ العَبَثِ، أو جعلوهَا ذاتَ صِلةٍ بالغرضِ الأصلِيِّ، وليستْ بأجنبيةٍ عنه...، ولذلكَ فإنّنا نعدُّ مقدِّماته هذه ذاتَ وظائفَ عضويّةٍ، بالنِّسبةِ لبقيةِ القصيدةِ، ومع هذا؛ فإنَّهُ لم يَكُنْ دائماً بحاجةٍ إلى هذه المقدِّماتِ، على النّحو الذي صَرَّحَ به في بيتِه الشِّعْرِيّ[٢]:

إذا كانَ مدحاً فالنَّسِيْبُ المقدَّمُ أَكُلُّ فصيحٍ قالَ شعراً مُتَيَّمُ

وذلك حين يسيطرُ عليه الموقفُ النَّفْسِيُّ سيطرةً تامَّةً، تجعلُ عاطفَتَهُ موّارةً بكثيرٍ من الأحاسيسِ والمشاعرِ التِي تتطلَّعُ إلى التّعبيرِ عنها دون انتظارٍ»[٣].

أمّا موضوعاتُ هذه المقدِّماتِ؛ فمنها وصفُ اللطيفِ والظَّعَنِ، وتَمجيدُ الفروسيّةِ، والنّوحُ على الشّبابِ والشّكوى منَ الشّيبِ، وله

(١) مع المُتَنَبِّي (٢٣٨).

(٢) ديوانه (٤/٦٩)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) الخيال الشِّعْرِيّ عند أبي الطِّيِّب (١٤٢-١٤٣).

موضوعاتٌ جديدةٌ في مقدِّماته، مثل: "الفخـرُ" ووصفُ "الحربِ"، و"الخيلُ"، و"الصداقةُ"، وتَذكُّرُ الأوطانِ، و"الحكمةُ:" والشّكوى من الدّهرِ.

هذا، ومقدِّماتُهُ التّقليَّةُ هذه لم تكنْ تقليديَّةً تَماماً، بل اعتراهـا التّغييرُ[١]؛ للمُتَنَبّي رأياً في هذه المقدِّمَاتِ أظهَرَهُ بقولِه الآنفِ ذكره:

إذا كـانَ مـدحاً ... ... البيـت

وكَأَنَّهُ مُتَأثِّرٌ بِهجمةِ أبي نواسٍ على هذه المقدِّماتِ، ولِهَذا لَمّا تَعَرَّضَ المُتَنَبّي لِهذه المقدِّماتِ خَفَّفَ من وصفِ مشاهد البيئةِ البدويّة، فلا نَجدُهُ فيها إلاّ ذاكراً شوقَهُ حين رأى الرَّبيعَ وسيلانَ دَمْعِه، وكثرةَ هُمومِهِ دونَ أن يصفَ الأطلالَ ترابَها ونؤيَها وأثافيَّ دارِهَا، كما وصفَها الجـاهليُّونَ والأُمَّيُّونَ، إنّما وصفَ إحساسَهُ حينَ مَرَّ بِهَذه الأطلالَ[٢].

هذا، وعددُ القصائدِ التِي قَدَّمَ لَها بِمقدِّماتٍ غزليّةٍ ثلاثُ وثلاثُـونَ قصيدةً، من شِعْرِهِ الحربِيِّ.

والفئةُ الأخرى هي التِي ليس لَهَا مقدِّماتٌ، وإنّما يَهجمُ بها علـى الغرضِ مُباشَرَةً، وهذا تَجديدٌ بِحَدِّ ذاتِه، وخروجٌ عن المألوفِ في قصائدِ المدحِ، ومن قصائدِهِ التِي جاءْ على هذا النَّمَطِ:

---

(١) مقدِّماتُ سيفيّات المُتَنبّي، أحمـد عبـد الله المحسـن (٢٢)، دار العلـوم، ١٤٠٣هـ.

(٢) انظر: المرجع السّابق (٣٣).

١-ذي المعالِي فلينلُوَنْ مــن تعــالَى هكــذا، هكــذا، وإلاّ فَــلاَ لاَ(١)
٢-عقبَى اليمينِ على عقبَى الوَغَى نَدَمُ ماذا يزيدُكَ في إقــدامِكَ القَسَــمُ(٢)
٣-أراعَ كذا كُــلَّ المــوك هِمَــامُ وسَحَّ له رُسْــلَ الملــوك غَمــامُ(٣)
٤-نزورُ دياراً ما نُحبُّ لَهَــا مغنَــى ونسألُ فيها غيرَ ســاكِنِهَا الإذْنَــا(٤)

وعموماً؛ فهذه القصائدُ التشي ليس لَهَا مقدِّماتٌ أُولَهَا: مقــدِّماتٌ تجديديَّةٌ ليستْ بِغزليّةٍ أو طلليّةٍ، أكثرُ ا تَتَمَثّلُ في مقدِّماتِ سيفيّاتِه.

-العَرْضُ:

نَهَجَ المُتَنَبِّي على ما نَهَجَ عليه أسلافُهُ من شُعَراءِ العربيّةِ في كَــونِ القصيدةِ خليطُ فنونٍ، إلاّ في مرحلةِ مدحه لسيفِ الدّولة، وهذا ينطبــقُ على كُلِّ قصائدِهِ التي قَدَّمَ لَها بِمقدِّماتِ غزليّةٍ أو طلليّــةٍ أو مقــدِّماتِ تَجديديّةٍ -كما أسلفنا ذكره-، وهذا ما ينفي وجودَ الوحدةِ العضويةِ بين أبياتِ القصيدةِ كُلِّهَا، وأن تكونَ القصيدةُ كُلاًّ متكامِلاً، وهذا لا يعنِــي عدمَ وجودِ هذه الوحدةِ بينَ كلّ فكرةٍ على حِدَةٍ.

أمّا في مرحلةِ مدحِهِ لسيفِ الدّولةِ؛ فإنَّهُ جاءَ في أكثــر الأحــايينِ

(١) ديوانه (٣/٢٥٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٢) ديوانه (٤/١٢٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٣) ديوانه (٤/١٠٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٤) ديوانه (٤/٢٩٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

بقصائدَ ذات فَنٍّ واحدٍ، هو المدحُ بأفعاله الحربيّةِ، وإبرازُ شُجاعَته، وأخلاقِه، ووصفِ حروبِهِ، وهي في الواقعِ متقاربةَ الهدفِ، بيد أنّ المُتَنَبِّي وهو في هذا الجوِّ المفعمِ بالنّشوةِ، كثيراً منا يلتفتُ في هذه القصائدِ إلى نفسهِ محاوِلاً إبراز صفاته الخُلُقيَّةِ والشّاعريَّةِ، ومفتخراً بذلك على سائرِ الشُّعَراءِ، ومرغِّباً لسيفِ الدّولةِ، وحاثّاً له على اصطفائِهِ، وهذا ما قد يكون سبباً في عدمِ اكتمالِ الوحدةِ العضويةِ لديه، ومن هذه القصائدِ:

١-أعلى الممالكِ ما يبنَى على الأسَلِ والطَّعنُ عند محبِّيهِنَّ كالقُبُلِ[1]

فإِنَّ هذه القصيدةَ كُلٌّ مُتَكامِلٌ لولا ما صَرَّحَ به ثناءٍ على شِعْرِهِ في بيتين في الثّلثِ الأخيرِ من القصيدةِ، وقبل الختامِ، وهما قولُهُ[2]:

إذا خلعتُ على عِرْضٍ لـه حُلَلاً وجدتُها منه في أَبْهَى من الحَلَلِ
بذي الغَباوةِ من إنشادِهَا ضَرَرٌ كما تَضُرُّ رياحُ الوَرْدِ بالجَعَلِ

٢-دروعٌ لِمَلْكِ الرّوم هذى الرّسائل يرد بها عن نفسه ويُشَاغِلُ

فإِنَّهُ قد أتَى في منتصف هذه القصيدةِ بثمانية أبياتٍ فيها ثناءٌ على شاعِريَّتِه، واحتقارٌ لِسائرِ الشُّعَرَاءِ، وحثٌّ لِسيفِ الدّولةِ على التَّمَسُّكِ بِهِ ومنها قولُهُ[3]:

(١) ديوانه (٣/١٦٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٢) ديوانه (٣/١٦٧-١٦٨)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.
(٣) ديوانه (٣/٢٣٦-٢٣٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

أَذَا الجودِ أعطِ النَّاسَ ما أنتَ مالكٌ ... ولا تعطِيَنَّ النّاسَ ما أنا قائلُ
أَفِي كُلِّ يومٍ تحتَ ضِبْنِي شويعرٌ ... ضعيفٌ يقاوينِي قصيرٌ يطاولُ
لِساني بنطقِي صامتٌ عنه عادلٌ ... وقلبِي بصمتِي ضاحِكٌ منه هازلُ
وأتعبُ مَن ناداكَ من لا تُجيبُهُ ... وأغيظُ من عاداكَ مَن لا تشاكلُ
وما التِّيهُ طِبِّيّ فيهِمُ غيرَ أَنَّني ... بغيضٌ إلَيَّ الجاهلُ المتعاقلُ
٣-غيري بأكثرِ هذا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إن قاتلوا جَبُنُوا أو حَدَّثُوا شَجُعُوا(١)

فإنّه جاء قبل أبياتٍ من آخرها بثلاثةِ أبياتٍ فيها تعريضٌ بشاعريَّةِ غيره، وافتخارٌ بشاعريّته.

ومن القصائدِ الحربيةِ التي قصرها المُتَنَبِّي على مدح سيفِ الدّولة، ووصفِ حروبِهِ، ولم يَشُبْها بأيِّ حديثٍ عن نفسه -مِمّا جعلها أكثرَ تَماسكاً- قولُهُ:

١-لِهَذا اليومِ بعدَ غَدٍ أَرِيْجُ ... ونارٌ في العدوِّ لَهَا أَجِيْجُ(٢)
٢-ذي المعالِي فليعلونْ مَن تَعَالَى ... هكذا هكذا وإلاّ فلا لا(٣)
٣-أراع كذا كُلَّ الملوكِ هُمَامُ ... وَسَحَّ له رُسْلُ الملوكِ غمامُ(٤)
٤-تَزورُ دياراً ما نُحِبُّ لَها مغنًى ... ونسألُ فيها غيرَ سَاكِنِها الإذْنَا(٥)

(١) ديوانه (٢/٣٣٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٢) ديوانه (١/٣٥٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٣) ديوانه (٣/٢٥٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٤) ديوانه (٤/١٠٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.
(٥) ديوانه (٤/٢٩٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

وهناك مُلاحظةٌ، وهي أنّ هذه القصائدَ قصيرةُ النَّفَسِ فالأولى (١٢) بيتاً، والثّانية (٣١) بيتاً، والرّابعة (١٥) بيتاً، ولم يشذَّ سوى الثّانية (٤٥) بيتاً.

ولَمّا كانت غالبُ قصائده ذواتَ مقدِّمات، سواء أكانتْ تقليديّةً أو تَجديديّةً؛ فإنّنا بِحاجّةٍ إلى معرفةِ مــدى إحســانِه الـتَّخَلُّصَ، وربطِــه الموضوعاتِ بعضَها في بعض.

ولو استعرضنا آراء النُّقَّادِ في تَخَلُّصِ المُتَنَبِّي عامّةً، لرأينـا القاضـيَ الجرجانِي يقول:[1] «فأمّا أبو تَمام والمُتَنَبِّي فقد ذهبا في الـتَّخَلُّصِ كُـلَّ مذهبٍ، واهتمَّا به اهتمامٍ، واتّفق المُتَنَبِّي فيه خاصّةً ما بلغ المرادَ وأحسن وزاد».

وقال ابن الأثير:[2] «وأكثر النّاسِ استعمالاً لِهَذا الفَنِّ أبو الطَّيِّبِ؛ فإنّه ما يكادُ يفلتُ له، ولا يَشُذُّ عنهُ حتّى ربّما قَبُحَ سُقُوطُهُ فيه».

ومن أمثلة حُسْنِ تَخَلُّصه في قصائده الحربيَّة قولُهُ[3]:

خليلتِي إنِّي لا أَرَى غيرَ شاعرٍ فَلِمْ مِنْهُمُ الدّعوى ومنِّي القصائدُ
فلا تعجبا إن السُّيوفَ كـثيرةٌ ولَكِنَّ سيفَ الدّولةِ اليومَ واحـدُ

قال البروقِي: «في هذا البيت من البديعِ حسنُ الـتَّخَلُّصِ، يقــولُ:

---

(١) الوساطة (٤٨).

(٢) العمدة (١٦٣).

(٣) ديوانه (١/٣٩٤).

إنّه في الشُّعراءِ كسيفِ الدّولة في السُّيُوفِ، فَكُلٌّ منهما منقطِعُ النّظير، إنْ كان له أشباهٌ ونظائرُ في التّسمية»[1].

وقال ابن الأثير: «ألا ترى إلى الخروجِ إلى مَدحِ الممدوحِ في هــذه الأبياتِ؛ كأنّهُ في قالبٍ واحدٍ، ثم إنّ أبا الطّيِّبِ جَمَعَ بينَ مــدحِ نَفْسِــهِ ومدحِ سيفِ الدّولةِ ببيتٍ واحدٍ من بدائعهِ المشهورة»[2].

وقولُهُ[3]:

نودِّعُهُمْ والــبينُ فينـــا كَأَنَّـــهُ ... قنا ابن أَبِي الهيجاءِ في قلبِ فَيْلَقِ

هذا، ومع ما لَهُ من تَخَلُّصَات حسنة معجبة، إلاّ أنّ له تَخَلُّصَـــات أغربَ فيها وأساءَ؛ فَقَبُحَتْ ولم تَنَلِ الرِّضا، وقد لَحظَ ذلـــك خُصُـــومُهُ فعابوها عليه، ولَم يجدِ الجرجانيُّ من الدِّفاعِ عنه من أجلِهَا سوى قولِهِ[4]: (فهي وإن لم تكن حسنةً مختارةً، فليست من المستَهْجنَ القبيحِ.

وقال ابن رشيق:[5] «ويقعُ له في الخروجِ ما كانَ تَركُهُ أولَى بِــهِ، وأشعرُ له، وإنّما أَدْخَلَهُ فيه حُبُّ الإغرابِ في باب التّوليدِ، حتّــى جــاءَ بالغثِّ الباردِ والمستشنعِ المتكلّف».

---

(١) ديوانه (١/٣٩٤)، حاشية (٤).

(٢) المثل السّائر (٣/١٥٠).

(٣) ديوانه (٣/٥٢).

(٤) ديوانه (٣/٥٢)، حاشية (٣)، والوساطة (١٥٣).

(٥) العمدة (١٦٦).

ومِمَّا ورد له من ذلك في قصائدِهِ الحربِيّةِ، قولُهُ مُخاطباً محبوبَتَهُ[١]:

أُحِبُّكِ أو يقولـوا جـرَّ نمـلٌ   تَبِيْـرٌ وابـنُ إبـراهيمَ رِيْعـا

فقد تَخَلَّصَ من الغزلِ إلى مدحِ عليٍّ بن إبراهيم بالشّجاعةِ.

هذا، وقد عيبَ عليه بعضُ التَخَلُّصَاتِ؛ ليس لِقبحِ بنائِهَا، وإنّما لِقُبحِ مَعناها، م مثلِ قولِهِ في مدح سعيدِ بن عبد الله الكلاّبِـي مُخاطِبـاً محبوبَتَهُ[٢]:

ها فانظرِيْ أو فَظُنِّيْ بِي ترِيْ حُرَقاً   مَن لم يَذُقْ طَرَفاً منها فقـدْ وألا

عَلَّ الأميرُ يرى ذِلِيْ فيشـفعَ لِـيْ   إلى التِيْ تركَتَنِيْ في الهوى مَـثَلا

أيقنتُ أنّ سعيداً طالـبٌ بِـدَمِيْ   لِما بَصَرْتُ به بـالرِّمحِ مُعْـتَقِلا

قال ابن رشيق:[٣] فقد تَمَنَّى أن يكون له الأميرُ قـواداً...، وأبـو الطَّيِّبِ قال: "يشفع" والشّفاعةُ رغبةٌ وسؤالٌ، ثم أتبع بَيْتَهُ بِمَا هـو مقـوٌّ لِمعناه في القِيَادةِ؛ فقال:

أيقنـت أنّ سـعيدا ... ... البيـت

فدلَّ على أنّه يشفعُ فإنْ أجيبَ إلى مساعَدَةِ أبِي الطَّيِّب فذاك، وإلاّ رَجَعَ إلى القَهْرِ.

---

(١) ديوانه (٢/٣٦٠).

(٢) ديوانه (٣/٢٨٤-٢٨٥).

(٣) العمدة (١٦٣-١٦٤).

-الخاتمَة:

وأمّا الخاتمة؛ فهي: «قاعدةُ القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماعِ، وسبيلُهُ أن يكون مُحْكَماً لا تُمكنُ الزّيادةُ عليه، ولا يأتي بعدَهُ أحسنُ منهُ، وإذا كان أوّلُ الشِّعرِ مفتاحاً له، وَجَبَ أن يكون الآخرُ قفلاً عليه»[١].

ولو تَتَبَّعنَا شِعرَ المُتَنَبِّي الحربيَّ ونظرنا فيه من حيثُ حسنُ الخاتمةِ وقُبحِهَا، لاتَّضَحَ لنا أنّ هذه القصائدَ على ضربين:

الضربُ الأوّلُ: قصائدُ ذاتُ خاتمةٍ لا تُشعِرُنا بنهايةِ القصيدة، وإنّما نعلمُ بالنِّهايةِ لانقطاعِ الأبياتِ، وهذا من أسوأ النِّهاياتِ، وإن كان هو منهجُ بعض العربِ السّابقين؛ كما أشار إلى ذلك ابن رشيق حين قال:

«ومن العربِ مَن يختمُ القصيدةَ فيقطعُهَا والنَّفْسُ بها متعلِّقةٌ، وفيها راغبةٌ مشتهيَّةٌ، ويبقى الكلامُ مبتوراً؛ كأنَّهُ لم يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خاتمةً، كُلُّ ذلك رغبةً في أخذ العفوِ وإسقاط الكُلْفَة»[٢].

ومن أمثلةِ ذلك من شِعْرِ الحربِ عند المُتَنَبِّي قولُهُ من قصيدةٍ مدح بها سيفَ الدّولة[٣]:

---

(١) العمدة (١٦٦).

(٢) العمدة (١٦٧).

(٣) ديوانه (١/١٩٥).

كأنَّ نُجومَ اللَّيلِ خافَتْ مُغَارَهُ فَمَدَّتْ عليها من عجاجَته حُجْبَا
فَمَنْ كان يُرْضِي اللّؤمَ والكفرَ مُلْكُهُ فهذا الذي يُرْضِي المكارمَ والرَّبَّا

فوقف على هذا البيتِ دونَ أن تشعرَ بنهايةِ القصيدة.

ومثله قولُهُ من قصيدةٍ مَدحَ بها أبا أيوبٍ أحمدَ بنَ عمرانَ[1]:

فاليومَ صرتُ إلى الذي لو أنَّهُ مَلَكَ البريَّةَ لاسْتَقَلَّ هِبَاتِهَا
مسترخِصٌ نَظَرٌ إليه بِمَا بِهِ نظرتْ، وَعَثْرَةُ رجلِهِ بِدياتِها

هذا، وأكثر هذه النِّهَاياتُ مَدْحٌ؛ فإنْ كان متّصلاً بِمدحٍ قبلَهُ جاءت الخاتمةُ باردةً، ولذا حَسُنَ ما جاءَ منفصلاً عن سابقه بغرضٍ آخر؛ لأنَّ الشَّاعرَ بعودهِ إليه يشعرُنا بنهايَةِ القصيدةِ، ولَكِنَّهَا نهايَةٌ ليستْ قاطعةً لرغباتِ النُّفوسِ، وهذا منْهجٌ أكثر المُدَّاحِ، ومِمّا جاء للمُتَنَبِّي من تلك النِّهَاياتِ التي ختمتْ بِمدحٍ فَصَلَ بينه وبين المدحِ في أوّلِ القصيدةِ غرضٌ آخر كَحديثِهِ عن نفسِهِ أو افتخارِهِ بِشَاعِرِيَّتِه؛ قولُهُ من قصيدةٍ يَمْدَحُ بِها سيفَ الدّولة[2]:

تَرَكْتُ السُّرَى خلفِي لِمَن قَلَّ مَالُهُ وأنعلتْ أفراسِي بِنُعْمَاكَ عَسْجدَا
وقَيَدْتُ نفسِي في ذَرَاكَ مَحَبَّةً ومَنْ وَجَد الإحسانَ قيداً تَقَيَّدَا
إذا سألَ الإنسانُ أيَّامُهُ الغنَى وكنتَ على بُعْدٍ جعلناك مَوعِدَا

فإنّه بَعْدَ الافتخارِ بِشَاعِرِيَّتِهِ عادَ إلى مدحِهِ بالكرمِ، وأنّه مرجوٌّ،

---

(١) ديوانه (٣٥٨/١).

(٢) ديوانه (١٥/٤).

كُلٌّ يأمُلُه.

وقولُهُ في نِهَايةِ قصيدةِ مَدَحَ بِهَا سيفَ الدّولة(١):

إذا سعتِ الأعداءُ في كيدِ مَجْـــدِه سعى جَدُّهُ في كيدِهِمْ سَعْيَ مُحْنِقِ
وما ينصرُ الفضلَ المبينَ على العدَا إذا لم يكنْ فضلُ السَّعيدِ الموفَـــقِ

فإنّهُ جاء بِها مع بيتينِ آخرينِ عوداً على مَدحٍ سابقٍ بعدَ أن فَصَـــلَهُ بالفخرِ بشَاعِرِيَّةُ.

الضُّربُ الثّاني: قَصَائِدُ أشْعَرَنا بنِهَايَتِها، بأبياتٍ لا تتجاوزُ أربعـــةً، وتُعَدُّ هذه الخَاتمات أجملَ خاتماتِ قصائده الحربية، وهي على صورتين:

أولاهما: قصائِدُ خَتَمَهَا بدعاءٍ أو حكمةٍ أو إشعارٍ بِرَحيـــلٍ، ومـــن ذلك خَتْمُ قصيدةٍ مَدَحَ بها عليَّ بن سيارٍ التَّميمي(٢):

فلا زالـــتْ ديـــارُكَ مشـــرقات ولا دانيتَ يا شَمْـــسَ الغروبَـــا
لأصـــبحَ آمنـــاً فيـــك الرّزايـــا كمَا أنَا آمـــنٌ فيـــكَ العيوبـــا

فإنّه خَتَمَهَا بِدعاءٍ له.

وقولُهُ من قصيدةٍ مَدَحَ بِها سيفَ الدّولة(٣):

وما في سطوةِ الأربـــابِ عيـــبٌ ولا في ذِلَّـــةِ العُبـــدانِ عـــارُ

فإنّه خَتَمَهَا بحكمةٍ.

---

(١) ديوانه (٣/٥٩).

(٢) ديوانه (١/٢٧٢).

(٣) ديوانه (٢/٢١٦).

ومثله قولُهُ في خِتَامِ قصيدةٍ مَدَحَ بها سيفَ الدّولة[١]:

وما حَمدْتُكَ في هولٍ ثبتَّ لـه ... حتّى بلوتُكَ والأبطالُ تَمتَصِـعُ
فقد يُظَنُّ شجاعاً مَن به خَـرَقٌ ... وقد يظنُّ جباناً مَن بـه زَمَـعُ
إنّ السِّلاحَ جميعُ النّاسِ تَحمِلُـهُ ... وليس كُلُّ ذواتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

فقد خَتَمَهَا بحكمة رائعة.

وقولُهُ مُخَاطباً عليّ بن منصور الحاجب[٢]:

خُذْ من ثَنَايَ عليكَ ما أسـطِيْعُهُ ... لا تُلزِمَنِّـي في الثّنـاءِ الواجبـا
فلقدْ دَهِشْتُ لِما فعلتَ ودونَـهُ ... ما يُدْهِشُ المَلَكَ الحفيظَ الكاتبـا

فقد خَتَمَهَا باعتذارٍ عن التّقصيرِ في المدحِ.

هذا، وللنُّقّادِ اعتراضٌ على أن يَختمَ الشّاعرُ قصيدتَهُ بدعاء.

قال ابن رشيق: «وقد كَرِهَ الحُذّاقُ من الشُّـعَراءِ خَـتمَ القصـيدةِ بالدّعاء؛ لأنّه مِن عملِ أهلِ الضّعفِ إلاّ للملوك؛ فإنّهم يشتهون ذلك...، ما لم يكنْ من جنسِ قولِ أبي الطّيِّبِ يذكرُ الخيلَ لسيفِ الدّولة:

فلا هَجَمْتَ بِهَا إلاّ على ظَفَـرٍ ... ولا وصلتَ بِها إلاّ إلى أمـلِ[٣]

...»[٤].

---

(١) ديوانه (٢/٣٤٣).

(٢) ديوانه (١/٢٦٠).

(٣) ديوانه (٣/١٧٠).

(٤) العمدة (١٦٧).

فقد عاب عليه تقدُّمُ (لا) النّافية، ثم مَجيءُ الاستثناء بَعْدَهَا، فقبل سماعَ الاستثناءِ قد صَدَمَتْ أذنَ الممدوحِ بالدّعاءِ عليه لا لَهُ.

والأخرى أن يختمَ القصيدةَ في الافتخارِ بشَاعِرِيَّتِهِ وقصيدِهِ، وقد تكرّر ذلك منه في عشرِ قصائدَ حربيّةٍ منها قولُهُ[1]:

فشرَّقَ حتّى ليسَ للشَّرْقِ مشرقٌ وغرَّبَ حتّى ليسَ للغربِ مغربُ
إذا قلتُهُ لم يَمتنِعْ مـن وصـولِهِ جدارٌ معلّى أو خِبـاءٌ مُطَنَّـبُ

وقولُهُ[2]:

كَثُرَ الفكرُ كيف نهدِي كما أهدتْ إلى رَبِّهَـا الـرّئيسِ عبـادُهْ
والذي عندنا من المـالِ والخيـلِ فمنـهُ هباتُـهُ وقيـادُهْ
فبعثنـا بـأربعينَ مِهَـاراً كُـلُّ مُهْـرٍ ميدانُـهُ إنشـادُهْ
عددٌ عشـتُهُ يـرى الجسـمُ فيـه أربـاً لا يـراهُ فيمـا يُـزَادُهْ
فارتبطْهَـا فـإن قلبـاً نماهـا مَرْبَطٌ تسـبقُ الجيـادَ جيـادُهْ

وقوله[3]:

بأيِّ لَفظٍ تقولُ الشّـعرَ زِعْنِفـةٌ تجوزُ عندكَ لا عُرْبٌ ولا عَجَمُ
هـذا عتابُـكَ إلاّ أنَّـهُ مِقـةٌ قد ضُمِّنَ الدُّرَّ إلاّ أنَّـهُ كَلِـمُ

(١) ديوانه (٣١٠/١).
(٢) ديوانه (١٥٧/٢-١٥٨)، من قصيدةٍ يَمدح بها أبا الفضل بن العميد.
(٣) ديوانه (٩٠/٤).

وبهذا نأتِي إلى ختامِ الحديثِ عن بناءِ القصيدةِ الحربيَّةِ لدى أبِـي الطَّيِّبِ، وقد قال عن هذا البناءِ عندَهُ ابنُ رشيقٍ –مفضِّلاً إيّاه على سائرِ الشُّعَراءِ–: «وقد أرى أبو الطَّيِّب على كُلِّ شاعرٍ في جودةِ فُصُولِ هـذا البابِ الثّلاثة»[1]، يعنِي: المبدأ والخروج والنِّهاية.

(١) العمدة (١٦٦).

ثانياً: الخصائصُ من حيثُ المضمونِ

سنتبّين هذه الخصائصَ من خلالِ دراستِنَا لِما يأتِي:

١- التَّجربَةُ الشِّعرِيَّةُ.

٢- العاطفةُ.

٣- الأفكارُ.

١- التَّجربَةُ الشِّعرِيَّةُ:

سَبَقَ الحديثُ عن تعريفِ التّجربةِ الشِّعريَّة عندَ حديثِنَا عنها لدى البُحتُريّ(١)، وعرفنا أنّ من أقسامِهَا أن تكونَ شخصيَّةً أو اجتماعيّةً أو تأريخيَّةً أو خياليّةً(٢).

وبالنّظر إلى شعرِ المُتَنَبِّي الحربِيِّ نَجدُ يَنْبَعُ من تَجربتينِ: شخصيَّةٍ واجتماعيَّة.

التَّجربَةُ الشِّخصيَّةُ، وهي مان عبَّر فيها عن خوالجهِ النّفسيّة الكئيبة، التِي مُنِيتْ بكثيرٍ من الصّدماتِ والمشكلاتِ وهي التِي عَبَّرَ فيها المُتَنَبِّي عن: «فلسفته الخاصّة حيالَ مشاكلِ الوجودِ ومسائلِ الحياةِ والموتِ والظّواهرِ الاجماعيّةِ المختلفةِ والشّؤونِ السّياسيّة؛ لأنّه ورأيهِ في السّلوكِ

---

(١) الرّسالة (ص: ٦٠١-٦٠٢).

(٢) في ميزان النّقد، الأدبِي، د/ طه أبو كريشه (١٩)، و(ص: ٥٩٤)، من الرّسالة.

والأخلاق»[١].

والتَّجربَةُ الاجتماعيّةُ هي ما لا يتّصلُ بشخْصِه، وإنّما تَتَّصلُ بممدوحِه أو مجتمَعِه أو أمتِه، فموضوعها خارجٌ عنه؛ لكنّهُ تأثَّرَ فيه، فترجَمَهُ ضميرُهُ، وردَّدَهُ، شعراً خالداً.

ولشِدَّة انفعالِ المُتَنَبِّي في تَجاربِهِ الشِّعريّة جاءت هذه التّجاربُ «نتاجُ انفعالٍ أصيلٍ فريد ناشيءٍ عن اتّحادِ الشَّاعرِ بموضوعِ تَجربَتِهِ الشِّعريَّة اتّحاداً حَدَسيّاً»[٢].

فهو شاعِرٌ مطبوعٌ ذو فنٍّ رفيعٍ، يعيشُ ما حولَهُ ويعالِجُهُ ويُخالِجُ كيانَهُ، ولهذا قال عنه العقّادُ: «كانَ المُتَنَبِّي شاعراً التّجاربِ والحِكَمِ ولم يكنْ عاملَهَا ومُنَفِّذَهَا...»[٣].

فأَيُّ قصيدةٍ جاءت خاليةً من المقدِّماتِ أو الحِكَمِ ولم يَتحدَّثُ المُتَنَبِّي فيها عن نفسِهِ وعن شَاعِرَيَّتِه فالتَّجربةُ فيها اجتماعيّةٌ، فإلاّ تكنْ كذلك، فالتّجربةُ شخصيّةٌ، وبِما أنّ قصائدَ الحربِ لدى المُتَنَبِّي قصائدُ مَدحٍ ووصفٍ للحروبِ؛ فإنّ التّجربةَ في أكثرها خليطٌ من الشّخصيّة

---

(١) في النّقد الأدبي، د/ محمّد عبد الرّحمن شعيب، ط. الأولى ١٩٦٧م، دار التّأليف، بمصر (٢٣).

(٢) قصيدةِ المدح عند المُتَنَبِّي وتطوّرها الفنِّي، أيمن محمّد زكّي العشماوري (١٤٨).

(٣) مطالعات في الكتب للعقّاد، دار الحياة، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٧٣م (١٠٩).

والاجتماعيّةِ، شخصيّةٌ فيما يعبّرُ من نفسيّتِهِ واجتماعيَّةِ، لِما حوتْ من وصفٍ لأخلاقِ ممدوحِهِ وحروبِهِ.

ولا مانعَ أن تكون التّجربةُ الاجتماعيةُ مؤثِّرةً في نفس الشَّاعِرِ، لَكِنَّنا لا نسمِّيها تَجربةً شَخصيَّةً؛ لأنّ التّأثُّرَ جاء من عواملَ خارجيَّةٍ هي الأعجابُ بِما شاهدَ.

وكمثالٍ لِتجاربِ شاعِرِنا الأدبيةِ في قصيدتِهِ الحربِيَّةِ، نأخذُ قصيدةً منْ أشهر شعرِهِ الحربِيِّ، وهي القصيدةُ اللاميَّةُ الَتِي مدح بِها سيفَ الدّولةِ ومطلَعُهَا[1]:

لَيَالِيَّ بعدَ الظّاعنينَ شُكُولُ طوالٌ وليلُ العاشيقينَ طويلُ

بدأ المُتَنَبِّي هذه القصيدةَ بِمقدِّمةٍ غزليّةٍ، ثم انتقلَ منها إلى وصفِ الحربِي الَتِي دارتْ رحاها بين سيفِ الدّولة وبين الرّومِ، ثم عادَ فمدحَ سيفَ الدّولةِ، وخَتَمَهَا بعدَهُ بفخرِهِ بذاتِهِ والذّبِّ عن حياضِهِ، «على أنّ القصيدةَ ليستْ مجرَّدَ هذه الجزئيّاتِ الباهتَةِ الشّاحبَةِ، ولا تلكَ الموضوعاتِ الخارجيَّةِ الجامدة، التِي ربّما يشوبُهَا بعضُ الخطابيَّةِ في الموافقِ الخاصّةِ، وإنّما القصيدةُ فوقَ كُلِّ هذا موقفٌ نفسِيٌّ يعبِّرُ عَمّا يضطرمُ في نفسِ الشَّاعِرِ»[2].

«لقد أجرى المُتَنَبِّي في هذهِ القصيدةِ روحاً أدباً غريباً، ليس من

(١) ديوانه (٣/٢١٧).

(٢) قصيدة المديح، أيمن محمّد زكِيّ العشماوي (١٤٩).

اليسيرِ وصفُهُ ولا تصويرُهُ، ولكنَّكَ تحسُّهُ إحساساً قوِّياً، بل أنــتَ تقــرأ القصيدةَ فإذا هذا الرّوحُ يسبقُ ألفاظها، ومعانيَهَا إلى قلبــكِ ويُشِــيْعُ في نفسكَ خفّةً وطرباً، لا نجدهما حين نقرأ أيّ قصيدة أخرى مــن قصــائد المُتَنَبِّي))[(١)].

إنّ بدءَ القصيدةِ الذي صَوَّرَ حزنَهُ على فراقِ محبوبَتِــه وخاتمَتُهَــا تَجربةٌ شخصيَّةٌ خاصّةٌ بالمُتَنَبِّي، نابعةٌ من نفسيَّته؛ فقد صَوَّرَ طولَ اللّيــلِ لبعدهِ عن مُحبِّيه، وهذا ما يشتكيه كُلُّ عاشقٍ وامقٍ مفارقٍ، فكان هــذا الفراقُ جرحاً نازفاً ملازماً له، وجعلَ ليلتَهُ دالَّةً على عمقِ ما حَلَّ بِهِ مــن أَلَمِ الفراقِ الذي لا يُمكنُ أن تستوعِبَهُ اللّيلةُ المعتــادةُ، وإنّمــا في ليــالٍ عديدةٍ؛ لَكنَّ هذا العددَ تجمّعَ في ليلةٍ واحدةٍ، وذلك من خلالِ شــعورِهِ النَّفْسيِّ الدّاخليِّ.

ثم أبدى تَضَجُّرَهُ من هذه اللّيالي التي يرى البدرَ فيها متلألئاً، ومــع أنّه شيءٌ جميلٌ إلاّ أنَّهُ لا يريدُهُ؛ لأنَّهُنَّ يَخفينَ بدراً هو مشتاقٌ إليه، ولكنّ الوصولَ إليه عسيرٌ، والسّبيلُ دونَهُ مُنْقَطِعٌ، وهذه حالةٌ نفسيَّةٌ يشارِكُهُ فيها كُلُّ مُحِبٍّ؛ فإنّهُ لَنْ يعوضَهُ عن مَحبوبِهِ حينَ فقدَهُ أيُّ شيءٍ.

يُبِنَّ لِي البدرُ الــذي لا أُريــدُهُ ويخفينَ بدراً ما إليــه سَــبِيْلُ

هذا، ويرى د/ طهَ حسين وبعضُ مَن جاء بَعْدَهُ أنّ هــذا المَطْلَــعَ الغزلِيَّ تَعبيرٌ عَمّا يحسُّهُ في نَفسيَّتِهِ مِنْ: ((حزنٍ دفينٍ يصدرُ أحياناً عن نفسٍ

(١) مع المُتَنَبِّي (٢٣٥).

الشَّاعِرِ التِي لم تدركْ من آمالِهَا شيئاً، أو لم تكد تدركُ شيئاً»[1].

فهم قد جَعَلُوا هذا البدرَ المختفِيَ آمالَهُ وطموحَهُ، رمزاً لَها، لا إلى محبوبَتِه ومعشوقَتِه، فحالتُهُ النَّفسيَّةُ فجَّرَتْ هذه المقدِّمَةَ الغزليِّةُ، وهذا ما أشرنا إليه سالفا من كونِهِ لا يأتِي بهذه المقدِّمات عبثاً، إنّما تُفتِّقُهَا لَديْه حالَتُهُ النَّفْسيَّةُ[2]، ولِهذا وهو بصحبَتِهِ سيفَ الدّولةِ قد صَوَّرَ رِحْلَتَهُ وانتصاراتِهِ الكثيرةِ التِي دَلَّتْ عليها الأبياتُ المتتاليةُ المتدفِّقَةُ بالفرحِ والنّشوةِ، وهذا عودٌ لآمالِهِ التِي كادتْ أن تذهبَ وتفنَى، عودٌ عبَّرَ عنه بانثاق الفجر، وانتشار ضيائه.

إنّ في ذكرِهِ لانتصاراتِ سيفِ الدّولةِ ودقَّةِ وصفِهِ لَها خيرُ دليلٍ على اختلاط التّجربةِ الشّخصيّةِ بالتّجربة الاجتماعية، فتصويرُهُ لَهَا تصويرٌ لِمَا يدورُ هو في فَلَكِهِ من حياتِهِ ومُجتَمَعِه وأحداثِ عصرِه.

لقد وصفَ هذه الانتصاراتِ وأطالَ في وصفِهَا، وهذا تصويرٌ منه لِبَعْضِهَا، وهو خبيرٌ بِهذا التّصويرِ، وله منهُ تَجَارِبُ كثيرةٌ، ومِنْ هذه التّجربةِ التّصويريّةِ الاجتماعيَّةِ قولُهُ من هذه القصيدةِ:

هُمَامٌ إذا ما هَمَّ أمضى هُمومَــهُ بأَرْعَنَ وطءُ الموتِ فيــه ثَقيْــلُ
وخيلٍ براها الرّكضُ في كُلِّ بلدةٍ إذا عَرسَتْ فيــه فلــيسَ تَقيْــلُ

---

(١) المرجع السّابق، انظر معه: قصيدة المديح، أيمن محمّد زكيّ العشماوي (١٥٠-١٥١).

(٢) (ص: ٧٤٦-٧٤٧) من الرّسالة.

فَلَمّا تَجَلّى من دلوكٍ وصـحجة … عَلَتْ كُلُّ طودٍ رايـةٌ ورعِيْـلُ
على طُرَقٍ فيها على الطُرْقِ رفعةٌ … وفي ذكْرِهَا عندَ الأنيسِ خُمـولُ
فما شعروا حتّى رأوهـا مُغـيرةً … قَبَاحاً وأمّـا خَلْفُهَـا فَجَميـلُ
سحائبُ يمطرنَ الحديدَ علـيهمُ … فكُلُّ مكانٍ بالسُّـيُوفِ غسـيلُ
وأمسى السّبايا ينـتحبنَ بِعَرْقَـة … كَأَنَّ جيوبَ الشـاكلات ذُيُـولُ
وعادات فظنّوها بمـوزار فقـلاً … وليسَ لَها إلاّ الـدُّخُولُ قفـولُ
تسايرُهَا النِّيرانُ في كُلِّ مسـلكٍ … به القومُ صرعى والدِّيارُ طُلُـولُ

لقد صَوَّرَ لَنا هِمَّةَ القائدِ العظيمِ الذي أَحَبَّهُ وأَخْلَصَ له المَحَبَّةَ؛ إنّـه جَعَل هِمَّةَ هذا القائدِ هي تجميعُ الجيوشِ وغزو الأعداءِ، وبهذه الهِمَّة وهذا الفعلُ تنجلِي هومُهُ، ويدخُلُ في قيادته الجيوشُ وما فيها من سلاحٍ وعتادٍ وخيلٍ، والخيلُ هي مناهُ وغايَةُ مراده، عليها يرتاحُ وبها يبلغ مشـتهاه، ثم وصَفَ هذه الخيلَ بأَنَّهَا خيلٌ معوَّدَةٌ على الحروبِ، ومن وَصْفِهَا انْتَقَلَ إلى وصْفِ غارةٍ من غاراتِهِ على البلدان في هذه الغزوةِ، واستوفَى نتيجةَ هذه الغاراتِ بكلامٍ موجزٍ مركَّزٍ بأن جَعَلَهَا مكروهةَ لدى نساءِ الأعـداءِ ولا يُكْرَهُ إلاّ ما يَضُرُّ، فهي قد أَلْحَقَتِ الضّررَ بِهِنَّ، وجَعَلَهَا سحائبَ لَكنَّهـا ليستْ سحائبَ رحمةٍ بل سحائبُ نقمةٍ، تصبُّ عليهم الدَّمارَ، فكان من نتيجته إكثار السَّبْيِ منهم؛ حيث جمعوا منهنّ عدداً كـبيراً، ثم وصـف انْتِقَالَهَا إلى بلدٍ آخر بما يُشبه الرّجوعَ حِيْلَةً وتَحرُّفاً للقتالِ، ولـذا لَـم يَجْعَلْهُ قفولاً بل جعله دُهُولاً، ووصفَهَا بِمسايرةِ النِّيرانِ ومصاحَبَتِهَا لَهـا مؤذنة بِهلاكِ الأهل وبقاء الدِّيار أطلالاً.

إنّ تَجربةَ أبي الطَّيِّبِ في هذه القصيدةِ تَجربةٌ تواءمت معها صيانَتُها واتّسقَ ثوبُهَا عليها في مُجْمَلِهَا، فلم يكنْ بالطّويلِ الفضفاضِ، ولا بالقصيرِ المُعَرِّي، فلا نرى فيها مللاً مع إطالَته فيها؛ إذ تُعَدُّ أطولَ قصيدةٍ له.

وقلتُ: (في مُجملِهَا)؛ لأنّه تَحدَّثَ عن كُلِّ ما شاهَدَهُ من غارات وعن كُلِّ بلدٍ وَطِئَتْهُ، فهذا كفيلٌ بالتّواؤمِ، مع أنّه أحياناً يذكر دخولَهُمْ إلى البلدِ دون التّحدّثِ عَمّا وقعَ لَهُمْ، وما أحدثوه فيه؛ فيكون هناكَ إيجازٌ في الوصفِ، وتداخلٌ في الصُّوَرِ، لَكِنَّهُ لا يكون مُخِلاًّ لِوجودِ كثيرٍ من الصُّوَرِ التِي تَطْغَى على هذا، ومثالُ ذلك قولُهُ من نفس القصيدة:

وكرَّتْ فَمَرَّتْ في دماءِ مَلْطِيَةٍ ... مَلَطْيَةُ أُمٌّ للبنينَ ثَكُولُ
وأضعفنَ ما كُلِّفْنَهُ من قَبَاقِبٍ ... فأضحى كأَنَّ الماءَ فيه عليلُ

فإنّ الجِنَاسَ هنا حدا به إلى الإسراعِ وعدم التّحدُّثِ عَمّا أوقعوه في مَلَطْيِةِ وما لاقوه فيها.

ومثله قولُهُ:

ودونَ سَمَيْسَاطَ المطاميرُ والملا ... وأوديةٌ مجهولةٌ وهُجُولُ
لَبِسْنَ الدُّجَى فيها إلى أرضِ مَرْعَشٍ ... وللرُّومِ خطبٌ في البلادِ جليلُ

فإنَّهُ لم يَتَحَدَّثْ عَمَّا فعلوه بأهلِ مرعشٍ، ولم يُصَوِّرْ لَنا ما دارَ فيها مِمّا جَعَلَهُ خطباً جليلاً، بل انتقلَ قَفْزاً إلى مدحِ ممدوحِهِ مُتَّخِذاً ذلكَ كالتَّخَلُّصِ من الوصفِ إلى المدحِ، بالإضافة إلى أنّ التّفصيلَ الدّقيقَ ليس من مُهِمَّةِ الشّاعِرِ بل من مُهِمَّةِ المؤرِّخِ.

وتَجربةُ أبي الطَّيِّبِ هنا تجربةٌ ناجحةٌ؛ لأنَّهَا صدرتْ عن دافعٍ قَوِيٍّ وباعثٍ مثيرٍ هو حالَتُهُ النَّفْسِيَّةُ الحزينةُ البائسةُ في أوّلِ القصيدةِ، الفرحة النّشطة في وسط القصيدةِ وآخرها، يدفعها وينمِّيها حُبُّهُ لسيفِ الدّولة، ورؤيته فيه البطلَ المثاليَ الذي ملأ عليه كيانَهُ، فأكثر من التّغَنِّي ببطولَتِه، وساعَدَ على نَجاحِهَا التِزَامُهُ الصّدقَ مع واقعهِ ومع نفسِهِ، مع واقعِهِ في تصويرِهِ حالَتَهُ النَّفْسِيَّةَ كما هي، وتصويرُهُ تلك الحروبَ كَما حدثتْ، ومع نفْسِهِ حيثُ لم يكن مُكْرَهاً على هذا الوصف؛ لأنّه ينظمُ ويتغنّى ببطولةِ قائدِ همامٍ، لَقِيَ فيه صورَةَ الفارِسِ العرَبِيِّ الذي طالَما تغنَّى بِها في شَاعرِيَّتِهِ.

وكمثالٍ آخر للتَّجْرِبَةِ الأدبيَّةِ الاجتماعيَّةِ قصيدَتُهُ في مدحِ سيفِ الدّولةِ أيضاً(١):

بغيرِكَ راعياً عَبثُ الذّئابُ وغيرِكَ صارماً تُلِم الضّرابُ

فهذه القصيدةُ تَصِفُ حروبَ سيفِ الدّولة مع بنِي كلابٍ، وما أَحْدَثَهُ فيهم، ثم في نِهايةِ المطافِ استعطافٌ من المُتَنَبِّي موجَّهٌ لِسيفِ الدّولةِ، ليعفوَ عن هؤلاء القبيلِ.

فالقصيدةُ تَجرِبَتُهَا: «غيريَّةٌ لا ذاتيَّةٌ، فهي لا تتّصلُ بِشَخْصِه، وإنّما تَتَّصلُ بسيفِ الدّولةِ مع بنِي كلابٍ، ومع أنّ الموضوعَ خارجٌ عنه،

(١) ديوانه (١/٢٠٤).

إلاّ أنَّهُ متأثِّرٌ به تأثُّراً اقتضاه أن يبدي فيه رأياً»[١].

لقد استعرض المُتَنَبِّي ما دارَ بينَ سيفِ الدّولةِ وبين بنــي كــلابٍ وبعضِ القبائلِ المحيطة من خصومات طارئة، ليس لَها أصولٌ بل بالعكسِ، فلسيفِ الدّولةِ الفضلُ عليهم في كُلِّ شيءٍ، لقد أغضبَ المُتَنَبِّي أن يحدُثَ هذا لفارسِهِ المغوارِ، ورأى أنّ ذلك قد أَثَّرَ عليه كبيرَ أثرٍ، فبدأ بهذا المطلعِ المسلِّي له، ولنفسه -أيضاً-، فيوهِمُهما أنّ ما حدثَ لَــنْ يَــنْقُصَ مــن قدرَتِهما أو يَهُزَّ كيانَهُما، وثَنَّى عليه بإبرازِ شجَاعَتِه التِي ملكَ بِها أَنْفَسَ الثّقلينِ، وتعجُّبه من أن تُفلتَ من تَحتِهِ هذه الشّرْذِمَةُ:

وتملكُ أنفــسَ الــثّقلينِ طــرّاً فكيفَ تحوزُ أَنْفُسَــهَا كِــلابُ

ثم وصف ما دارَ بينَهُمْ وبينَ سيفِ الدّولة، ومن ذلكَ مطارَدَةُ سيفِ الدّولةِ لَهُمْ، كُلُّ ذلك في أسلوبٍ جاء كالسّردِ القصصيِّ أظهرَ فيه تفوُّقَ ممدوحِهِ عليهم، محاولاً تسْلِيَةَ سيفِ الدّولةِ عَمّا يساوره من شــكوكٍ في كونِهِمْ حاربوه احتقاراً له، لقد جعلَهُمْ أمامَهُ أذلاَّءَ محتقرين:

تَرفَّــقْ أَيُّهَــا المــولَى علــيهم فــإنَّ الرِّفــقَ بالجــانِي عتــابُ
وإنَّهُمْ عبيــدُكَ حيــث كــانوا إذا تــدعو لِحادثَــةٍ أجــابوا
وعينُ المخطِئينَ هُــمُ وليســوا بأوّلِ معشــرٍ خَطِــؤوا فتــابوا

ثم خَتَمَ المُتَنَبِّي القصيدةَ بأبيات كُلِّهَا اســتعطافٌ مُوَجَّــهٌ لســيفِ الدّولةِ، استعطافٌ يُرَقِّقُ القلبِ القاسِيَ، ويذهبُ غيظَ القلوبِ الغِلاظِ.

---

(١) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه مصطفى أبو كريشه (٧٨).

إنَّهُ يُحاوِلُ أن يردَّ الجميلَ لبني كلابٍ الذي عاشَ دهراً من شَــبابِهِ بين ربوعِهِمْ.

لقد توافَرَ لِتجربةِ أبي الطَّيِّبِ هذه أحدُ عوامِلِ نَجَاحِهَا، وهو الدّافِعُ والبَاعِثُ لَها في نفسِ الشّاعِرِ وهما باعثان:

أوَّلُهُمَا: حُبُّهُ لِسيفِ الدّولة ومُحَاوَلَتُهُ الذَّبَّ عَمّا شعر من أَنَّهُ ينوشُ كرامَتَهُ ويخدشُهَا، جعله يحصي تحرُّكَاتِهِ، ويبدعُ في وصفِ متابَعَتِهِ لأعدائِهِ فَرَحاً بذلك النَّصرِ.

وثانِيْهِمَا: مُحاوَلَتُهُ رَدَّ الجميلِ لِهؤلاءِ القومِ الذين نشأ في رُبُــوعِهِمْ فلَقِيَ لَديهم كُلَّ إجلالٍ واحترامٍ له، جَعَلَهُ يطلبُ العفوَ لَهُمْ من ســيفِ الدّولة.

«وإنّه لَموقفٌ دَقيقٌ بالنِّسبةِ للمُتَنَبِّي حينَ حَاوَلَ الجمعَ بين هــذينِ الأمرينِ: صِلَتُهُ بسيفِ الدّولة وصِلَتُهُ بِبَنِي كلابٍ»[1].

فقد كان مضطرّاً في الموقفِ الأوّلِ، وهو إبرازُ صِلَتُهُ بسيفِ الدّولة، أن يُظهِرَ ضعفَ بَني كلابٍ، وعدمَ قدرَتِهِمْ مُقَاوَمَتَهُ، وأن يصِمَهُم بِمــا وصَمَهم به من العبوديَّةِ والخوفُ مِنْهُ.

تَرفَّــقْ أيُّهَــا المــولَى علــيهم ... فــإنَّ الرّفــقَ بالجــاني عتــابُ
وإنَّهُمْ عبيــدُكَ حيــث كــانوا ... إذا تــدعو لِحادثَــةٍ أجــابوا
وعينُ المخطئِينَ هُــمُ وليســوا ... بأوّلِ معشــرٍ خَطِــؤوا فتــابوا

(١) المرجع السّابق (٨٠).

وأنتَ حياتُهُم غضبتْ عليهِمْ   وهَجرُ حياتِهِمْ لَهُمُ عِقَابُ
وما جلهتْ أياديكَ البوادي   ولكنْ رُبَّما خَفيَ الصَّوابُ
فَإِنْ هابوا بِجُرْمِهِم عليّاً   فقد يرجو عليّاً من يَهَابُ
وإن يكُ سيفَ دولةٍ غيرِ قيسٍ   فَمِنْهُ جلودُ قيسٍ والثِّيابُ
وتحت ربابِهِ نَبَتُوا وأُثُّوا   وفي أَيَّامِهِ كثروا وطابُوا
وتحت لوائِهِ ضربُوا الأعادي   وذَلَّ لَهُمْ من العَرَبِ الصِّعابُ
وَلَكِن رَبُّهُمْ أسرى إِلَيْهِمْ   فَمَا نَفَعَ الوقوفُ ولا الذِّهَابُ

وَلَكِنَّهُ لَمّا جاء إلى الموقفِ الثّاني وهو وهو الاستعطافُ لَهُمْ، أبرز صِلَتَهُ بِهِمْ وَرَفَعَ من معنوياتِهِمْ بإظْهَارِ قُوَّتِهِم: «حتّى يؤكِّدَ لَهُمْ الإحساسَ بذاتِهِمْ، وحتّى لا يذهبِ (ما ذكره آنفاً) ببعضِ ما لَهُمْ من واقعٍ معترفٍ بِهِ»[1].

ومن ذلك قولُهُ:

ولو غيرُ الأميرِ غزا كلاباً   ثناه عن شموسِهِمُ ضَبابُ
ولاقَى دونَ ثأيِهِمُ طعاناً   يُلاقي عندَهُ الذِّئبَ الغرابُ
وخيلاً تغتذي ريحَ الموامي   ويكفيها من الماءِ السَّرابُ

لقد صدق أبو الطَّيِّبِ في تَجربَته هذه أيَّمَا صدقٍ، فأظهرَ حُبَّهُ لِسيفِ الدّولةِ بإبراز قُوَّتِهِ، وأظهرَ حُبَّهُ لِبَني كلابٍ بإبرازِ قُوَّتِهِمْ، وبالاستعطافِ لَهُمْ، فلم يكنْ مدعوفاً إلى تسجيلِ تَجرِبَتِه إلاّ بدافعِ الحُبِّ لكلا الطّرفين، ولَم يُمْلِهَا عليه دافعٌ خارجِيٌّ عن نفسِهِ المحبَّةِ لَهُمْ، فجاءتْ

(١) المرجع السّابق (٨٠).

تَجرِبَتُهُ صادقةً تُمَثّلُ واقعَهُ، ومن الدّلالةِ على صدقِه فيها أنَّهُ لَــم يَشُــبْهَا بِحديثٍ عن نفسِهِ؛ فهذي القصيدةُ من بينَ قصائدَ قلائلٍ خَلَتْ من حديثِهِ عن نفسِهِ ذاتاً أو شَاعِرِيَّةً.

كما أنّ هذه التّجربةَ قد تواءمتْ معها صياغَتُها، فلم تكنْ طويلــةً فضفاضةً ولا قصيرةً مشمِّرةً، قد صَوَّرَ ملاحقَةَ سيفِ الدّولــةِ لَهُــمْ أدقَّ تصويرٍ، ثم ثَنَّى بطلبِ العفوِ عنهم مُبْرِزاً قُوَّتَهُمُ التي ما أضعفَهَا إلاّ قُــوَّةُ سيفِ الدّولةِ، وخَتَمَ القصيدةَ بالزّهوِّ بفعلِ سيفِ الدّولةِ وشجاعَتِه:

كذا فليسر مَن طلبَ الأعادِي ومثلُ سراكَ فلــيكنِ الطِّــلابُ

٢-العاطفة

سَبَقَ أن عرفنا العاطِفَةَ عِنْدَ حديثِنَا عن الخصائص الفَنِّيَّةِ لشعرِ البُحْتُرِيّ الحربِيِّ(١)، ويَهُمُّنَا هنا الحديثُ عن عاطِفَةِ المُتَنَبِّي في شِعْرِهِ الحربِيِّ خاصّةً.

نشأ المُتَنَبِّي نشأةً جَعَلَتْهُ منه رجلاً مُحارباً ثَائِراً على كُلِّ مَن يقفُ في طريقِهِ ويعوقُهُ عن تَحقيقِ مآربِهِ وأهدافِه، ونَتيجةً لِهذه الثّوريّةِ فقد وَقَفَ لَهُ كثيرٌ من الأمراءِ والوجهاءِ بالمِرْصَادِ، فَجَنَّدَ لِسَانَهُ للدِّفاعِ عن نَفْسِهِ.

كما ذكرَ في شِعْرِهِ أَنَّهُ تَمَرَّسَ بالحروب، فوَصَفَ نَفْسَهُ بالشّجاعة والقدرةِ على المحاربةِ بالسِّنانِ مع اللِّسانِ، ولَعلَّ هذه المحاولاتِ -كُلَّهَا- باءت بالإخفاقِ، فلم يظفرْ من أعدائِهِ بشيءٍ، وإنّما أفادَ من هذه الثّوريَّةِ وهذا العداءِ أمرين ظهرا على شِعْرِه:

أَوَّلُهُما: ظهورُ عاطِفَتِهِ وقُوَّتِهَا وصدقِهَا.

وثانيهما: إكثارُهُ من الحكمةِ لِمَا مَارَسَ من هذه الحياةِ وأحداثُها.

«وعاطفةُ المُتَنَبِّي كما تكشفُ عنها مدائحُهُ خاصّةً -نارٌ داخليَّةٌ تُلْهِبُ اللّفظَ، وتوقدُ الصُّورةَ الشِّعْرِيَّةَ، ولذلك فَقَلَّمَا تلوحُ عاطِفَتُهُ سراباً عاطفيّاً، أو أجزاء مقطعةً بارِدَةً، لا روحَ فيها، وذلك؛ لأنَّ المُتَنَبِّي كان

(١) (ص: ٦٠٦)، من الرّسالة.

يغمرُ شعرَهُ بموقفه ورؤيَته من الحياة»[١].

وقال الأستاذ الشّائبُ عند حديثه عمّا سيطر على المُتَنَبِّي من العواطفِ، وخاصّةً عاطفةُ السّخط والتّبرّم من الدّهر، والذي أنتج لديه حكمةً وصدقاً في التجربة، إنّ «هذه العاطفةَ نشأتْ في نفسِ المُتَنَبِّي؛ لأنّ أسباب الحياةِ قصرتْ به عن نيلِ مآربِهِ، وتحقيقِ أطماعهِ التي عَرَّضَتْهُ لآلام شتّى، وجعلتْ حياتَهُ روايةًالجهودِ الضّائعة في سبيلِ الآمالِ الخاسِرَة»[٢].

وفي كنفِ سيفِ الدّولةِ جَدَّ في عاطِفَةِ المُتَنَبِّي شعورٌ آخرُ هو شعورُ المحبِّ لِهذا القائد.

كما رأى فيه صورةَ الفارسِ العربيِّ المسلمِ الذي يذبُّ عن الدِّين جهدَهُ؛ فقد وقف سيفُ الدّولةِ في وجهِ الرّومِ حيناً من الزّمنِ، فظهر في شعرِ المُتَنَبِّي من أجلِ هذا عاطفةٌ دينيَّةٌ تُلِحُّ على إبرازِ هذا المعنَى مع غيرِهَا من العواطفِ الشّخصيّةِ، التي تَتَمَثَّلُ في إبرازِ خوالِج نفسِهِ والعواطِفِ العامَّةِ في حُبِّهِ لِهَذهِ الحروبِ مع هؤلاءِ المعتدينَ الرّوميِّينَ.

هذا، ومع أنّ كثيراً من الأدباءِ يُخْرِجُونَ جُلَّ شعرِ المديحِ من العواطِفِ الصّادِقة[٣]، إلاّ أنّ شعرَ أبي الطَّيِّبِ لا يُمكنُ أن نَصِفَهُ بأنّ

(١) قصيدة المديح عند المُتَنَبِّي، أيمن محمّد زَكِيّ العشماوي (١٥٥).

(٢) أصول النَّقد الأدبِي، أحمد الشّايب (٣٢٠)، ط ٩، عام ١٩٨٥م، نشر مكتبة النَّهضة المصرية، القاهرة.

(٣) المرجع السّابق (١٨١، و١٩١)، في النّقد الأدبِي، د/ محمّد بعد الرّحمن شعيب (١٤٤).

عاطِفَتَهُ فيه غيرُ صادقة؛ لأَنَّهُ صادرٌ من القلبِ، فهو ما مَدَحَ إلاّ لأنّهُ أَحَبَّ سيفَ الدّولةِ بطلاً مُحَارِباً وفارساً مغواراً وقفَ لأعداءِ الدِّينِ بالمرصاد، مُمَثِّلاً للبطولةِ العربيِّةِ في أَبْهَى صُوَرِهَا، ثم إنّه تَمجيدٌ للبُطولةِ وللخلقِ الفاضلِ الذي ينبغِي أن يتحلَّى به كُلُّ قائدٍ، فهو مِنَ المَدحِ العامِ، وإن تعلَّقَ في شخصيَّة واحدة.

وكَمثَالٍ على العاطِفَةِ الدِّينيّةِ التي تبدو كثيراً بين ثنايا قصائدِ أبي الطَّيِّبِ قولُهُ مُخَاطباً سيفَ الدّولة[1]:

لقد سَلَّ سيفُ الدّولةِ المجدَ مَعْلماً ... فلا المجدُ مُخفيه ولا الضَّربُ ثالمُهُ
على عاتِقِ المَلْكِ الأغرِّ نَجادُهُ ... وفي يدِ جبارِ السّمواتِ قائمُهُ

قال البروقِي: «هو سيفٌ يتقلّدُهُ الخليفةُ ويضربث اللهُ به أعداءَهُ، فهو زَيْنٌ للخليفة، ناصرٌ لِدين الله»[2].

وقال[3]:

ولستَ مَليكاً هازماً لنظيْرِهِ ... ولَكنَّكَ التّوحيدُ للشِّرْكِ هازمُ
هنيئاً لضربِ الهامِ والمجدِ والعلا ... وراجيكَ والإسلامِ أنَّكَ سالمُ
ولِمَ لا يقي الرّحمنُ حُدَّيْكَ ما وقَى ... وتفليقُهُ هامَ العدا بِكَ دائمُ

قال البروقِي: «لِمَاذا لا يصونُكَ اللهُ –سبحانَهُ– ما دامت صيانتُهُ

(١) ديوانه (٤/٥٩-٦٠).

(٢) ديوانه حاشية (١) (٤/٦٠).

(٣) ديوانه (٤/١٠٧-١٠٨).

للأشياء -أي: أبداً- وأنتَ الذي يصولُ به على أعدائه»[1].

وقال[2]:

خَضَعَتْ لِمُنْصُلِكَ المَناصِلُ عنوةً وأذلَّ دينُكَ سائرَ الأديانِ

وعلى الدّروبِ وفي الرّجوعِ غضاضةٌ والسّيرُ مُمْتَنِعٌ من الإمكانِ

والطُّرْقُ ضيقةُ المسالكِ بالقنا والكفرُ مُجتَمِعٌ على الإيمانِ

فنلاحظ في الأمثلةِ السّابقةِ -مع ما مَرَّ بنا من غيرها[3]- تركيزَهُ على ارتباطِ سيفِ الدّولة بالخليفة، وهذا ما يُمكّنُ له الطّاعةَ، ويَجعلُ جِهَادَهُ جِهَاداً شرعيّاً متقبّلاً؛ لأنَّهُ خاضعٌ لِوَليِّ الأمرِ مطيعٌ له.

كما نَلحظُ -أيضاً- تركيزَهُ على أنْ يَجعلَ جِهَادَ سيفِ الدّولةِ دِفاعاً عن الإسلامِ، حينما اجتمعتْ عليه قُوى الكفرِ، ولذلك فَرَبُّهُ سيحميهِ، ويَصُدُّ عنه كُلَّ مَن يُحَاوِلُ الكيدَ له.

ومِن أمثلةِ قصائدِهِ التي نَجدُ عواطِفَهُ الشّخصيّةَ مُتَمَثِّلةً فيها قصيدتُهُ[4]:

فهمتُ الكتابَ أَبَرَّ الكُتُبْ فسمعاً لأمرِ أميرِ العربْ

فإنَّهُ قدَّمَ لِهَذِهِ القصيدةِ بِمقدِّمةٍ عاطفيَّةٍ أثارتْهَا هذه الرّسالةُ التي

---

(١) ديوانه حاشية (٣) ص (٤/١٠٨).

(٢) ديوانه (٤/٣١٣).

(٣) انظر: ديوانه (٤/٦٨، و٤/٧٠-٧١، و٤/١٢٨-١٢٩، و٤/١٤١، و٤/٢١٣، و٤/٢٩٩).

(٤) ديوانه (١/٢٢٥-٢٣٢).

يسأله فيها سيفُ الدّولةِ المسيرَ إليه، واستئنافُ عرى المودّةِ بعد انقطاعٍ دامَ أكثر من ستٍّ سنوات.

لقد مستْ هذه الرّسالةُ شغاف قلبِهِ، وفرحَ بِهَا فرحاً شديداً، تَمَثَّلَ في عِدَّةِ أشياءَ في موسيقيّ بَحرِهَا الرّاقِصِ.

وفي قافِيَتِهَا البّائيةِ المقيّدةِ التي جاءتْ مُصَدِّقَةً لِكُلِّ كلمةٍ يقولُهَا، كالخَتْمِ على مصداقيةِ كلامِهِ، أو الطّبلِ الموقِعِ على أعقابِ النّشيدِ، مِمّا يؤيِّدُ صدقَهُ وحماسَهُ.

كما تَمَثَّلَتْ هذه العاطِفَةُ في معانيها الجياشةِ التي تزاحمتْ في الأبياتِ: وعيُ الكتاب، واستجابَةٌ لِمرسْلِهِ، وتَبجيلٌ له، وتكرارٌ للطّاعَةِ وابتهاجٌ بالكتابِ، واعتذارٌ عن التّقصيرِ، وإبداءٌ لأسبابِهِ، وحكمة تصدِّقُ هذا الاعتذارَ: «وإنّ الوشاياتِ طُرْقُ الكذب»، اعتذارٌ طويلٌ، وتوددٌ، وتذكيرٌ له بِما بينَهُما من سالفِ الودِّ «وينصرني قلبُهُ والحسْبُ»، و«ولا اعتضتُ من ربٍّ نعمايَ رُبْ»، وحِكَمٌ تزيدُ هذه المعانيَ رُسُوخاً،

ومن رَكَبَ الثّورَ بعد الجوا د أَنْكَرَ أظلافَهُ والغَبَبْ

ثم ينتقلُ من هذا الاعتذارِ إلى مدحِ سيفِ الدّولةِ، بِمدحٍ فيّاضٍ بالعواطفِ الجَيَّاشةِ، ولَكِنَّهَا عواطفُ دينيَّةٌ، فهو يراهُ كما يراهُ المسلمونَ أَمَلَهُمْ والمدافِعَ عن دِينِهِمْ، في وقتِ حالُ المسلمينَ فيه بينَ الضّعْفِ والقوّة.

وأطعنُ مَن مَسَّ خَطِّيَةً وأضربُ من بحسامٍ ضَرَبْ

بذا اللّفظِ ناداكَ أهلُ الثّغو رِ فلبيتَ والهامُ تحتَ القُضُبْ

وقد يئسوا من لذيذِ الحياةِ فعينٌ تغورُ وقلبٌ يَجِبْ

فهم مُحتاجونَ إليه لا يستغنونَ عنهُ ولا يغيبُ عنهمْ ذِكْرُهُ، حتّى في أشدِّ الأوقاتِ حرجاً حينَ احتدامِ الوغَى؛ فإِنَّهُمْ ينادُونَهُ، وقد كَرَّرَ هذا المعنَى بصورةٍ أخرى؛ حيث بَيَّنَ حالَ المسلمينَ وما هم فيه من مَدٍّ وجزرٍ، من حيث غَلَبَتُهُمْ للكفّارِ حيناً، وغَلَبَةُ الكفّارِ لَهُمْ حيناً آخر، وسيفُ الدّولة ناذرٌ نفسَهُ لِحمَى دينِ رَبِّه، ساهرٌ من أجلِه، مُتعبٌ نفسَهُ في ذاتِ اللهِ، فَعَدَّهُ من أجلِ ذلك مع اللهِ، كَأَنَّهُ هو الموحِّدُ له ومَن سواهُ غيرُ موحِّدين لَهُ، فَكَأَنَّهُم لِخضوعِهِم للنَّصارى وَذِلَّتِهِمْ لَهُمْ مِن بنِي دِينِهِمْ ومَن يدينونَ بالثّالوث:

أرى المسلمينَ مع المشركين ... إمّا لعجزٍ وإمّا رَهَبْ
وأنتَ مع اللهِ في جانبٍ ... قليلُ الرّقادِ كثيرُ التّعبْ
كَأَنَّكَ وَحْدَكَ وَحَّدْتَهُ ... ودانَ البريَّةُ بابنٍ وأبْ

لقد الْتَزَمَ أبو الطَّيِّبِ جانبَ الصِّدقِ في عاطِفَتِه هذه، ولِهَذا فقد أَلَحَّ وكَرَّرَ إثباتَ مَحَبَتِهِ لسيفِ الدّولةِ في آخرِ القصيدة؛ لأَنَّهَا عاطفَةٌ جيَّاشَةٌ صادِقَةٌ تغطِّي عليه، فلا يُمكِنُهُ إخفاؤها أو الاكتفاءُ بها مَرَّةً واحدةً.

ومثالٌ آخر على عاطِفَتِه؛ قصيدَتُهُ التي مَدَحَ بِهَا سيفَ الدّولة[1]:

عواذلُ ذاتِ الخالِ فِيَّ حواسِدُ ... وإنَّ ضجيعَ الخَودِ مِنِّي لَمَاجِدُ

فقد جمع في هذه العاطفة بين عواطفه الشّخصيَّة وعاطفَته الدِّينيّة، وتَمَثَّلَتْ عواطِفُهُ الشَّخصيَّةُ في إظهارِهِ صفاتِه الشّخصيَّةَ، وهي ما فتئَ

(١) ديوانه (١/٣٩٠-٤٠٤).

يُرَدِّدُهَا في أكثرِ قصائده، من إظهارِهِ عفَّتَهُ، مع ما اعتراهُ من العشقِ، ومنها تَضَجُّرُهُ من مُحارَبَةِ اللّيالي لَهُ، وعدمُ إنالته مبتغاه، وإدامةُ وحدته، ووصفَ نفسَهُ بالفروسيّةِ والشّجاعة والثّناءِ على شَاعريَّته؛ فَكُلُّ ما تعرضَ في هذه المقدِّمةِ صفةٌ ملازمةٌ لا تفارِقُهُ، وعاطِفَةٌ راسخةٌ تطْغي على أغلبِ قصيدِه.

ونأخذُ الآن من هذهِ المقدِّمةِ بعضَ الأبياتِ لِنُدَلِّلَ على ذكرِهِ تلكَ الصِّفاتِ الآنفَ ذكرُهَا:

يردّ يداً عن بوبهَا وهو قادرٌ ... ويعصِي الهوى في طيفِهَا وهو راقدُ
إذا كنتَ تخْشَى العارَ في كُلِّ خلوةٍ ... فَلِمْ تتصباكَ الحسانُ الخرائدُ
أَلَحَّ عليَّ السّقمُ حتّى ألفتُهُ ... وملَّ طبيبِي جانِبِي والعوائِدُ
أَهُمُّ بشيءٍ واللّيالي كَأَنَّهَا ... تطارِدني عن كونِه وأُطَارِدُ
وحيدٌ من الخلاَّنِ في كُلِّ بلدةٍ ... إذا عظمَ المطلوبُ قلَّ المساعِدُ
مُحَرَّمةٌ أكفالُ خيلِي على القَنَا ... مُلَّلَةٌ لباتُهَا والقلائِدُ
وأورد نفسي والمهندُ في يدي ... مواردَ لا يُصْدِرْنَ مَن لا يُجالِدُ
خَلِيلَيَّ إنِّي لا أرى غيرَ شَاعِرٍ ... فَلِمْ منهمُ الدّعوى ومنِّي القصائدُ

ثم لم يخلُ انتقالُهُ من هذه المقدِّمة إلى المدحِ من فخرٍ بِنَفْسِهِ لسيطرَةِ هذهِ العاطِفَةِ عليه؛ فإنّهُ قال:

فلا تعجبا إنَّ السُّيوفَ كثيرةٌ ... ولَكِنَّ سيفَ الدّولةِ اليومَ واحدُ

وقد جاءَ هذا البيتُ بعد البيتِ السّابقِ المذكورِ آنفاً، ودلالَتُهُ صريحةٌ في الافتخارِ بشَاعِرِيَّتِه؛ فإنَّهُ: «يقولُ إنَّهُ في الشِّعراءِ كسيفِ الدّولةِ، فكُلٌّ منهما مُنْقَطِعُ النَّظيرِ، وإن كان لَهُ أشباهٌ ونَظَائرُ في التّسميةِ»[1].

ثم بدأ يُسَجِّلُ إعجَابَهُ ببُطولةِ هذا القائدِ بسردِ عددِ غزواتهِ الكـثيرةِ التي عَبَّرَ عنها بقولِه:

شننتَ بها الغاراتِ حتّى تركتَهـا وجفنُ الذي خلفَ الفرنجةِ ساهدُ

وكما قلنا؛ فإنّ العاطِفَةَ الدِّينيَّةَ مرادِفَةٌ لِهذهِ العواطِفِ الشّخصـيَّة؛ فإنَّهُ وصفَهُ بالعبوديَّةِ لله في قولِهِ:

وَغَلَّسَ في الوادِي بِهِـنَّ مُشَـيَّعٌ مباركُ ما تحتَ اللّثـامينِ عابِـدُ

ثم بعد أبياتٍ من المدحِ المنبعثِ من خلجاتِ نفسه، تعودُ إليه هـذه العاطِفَةُ، فيسطرُ لسيفِ الدّولةِ مفخرةً عظيمةً، ناظراً إلى لَقَبِه حيث جعلَه سيفاً: «اللهُ ضارِبٌ بِهِ»، الأعداءَ، ولواءً «اللهُ عاقِدُهُ» ليشنَّ به الغـاراتِ عليهم صارَ مساءً:

فأنتَ حُسَامُ المَلْكِ واللهُ ضـاربٌ وأنتَ لواءُ الـدِّينِ واللهُ عاقِـدُ

وبعد سردِه لنسبِهِ إعجاباً بعراقَتِه وشجاعَةِ آبائه، يَجعلُهُـم عـدَّةَ الخلافةِ، وحماتِهَا الذينَ عنها يدافعونَ، وهذا له صِلَةٌ بالعاطِفَةِ الدِّينيّة:

أولئك أنيـابُ الخلافـةِ كُلِّهَـا وسائرُ أمـلاكِ الـبلادِ الزّوائِـدُ

(١) ديوانه (٣٩٤/١)، حاشية (٤).

وقد قلنا قبلَ قليلٍ إِنَّهُ جاء بمديحٍ منبعثٍ من خلجاتِ نَفْسه؛ لأَنَّهُ فَتَّقَ لديه الحكمةَ، والحكمةُ لا تظهرُ إلاّ للتّأثّرِ بما يعرضُ عليه الفكرُ والعاطِفَةُ من مرأى، ومن هذه الحكمةِ قولُهُ:

بِذا قَضَتِ الأَيّامُ ما بين أهلِهَا مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائدُ
وكُلٌّ يرى طُرْقَ الشّجاعةِ والنَّدى ولَكِن طبعَ النّفسِ للنَّفسِ قائدُ

فهاتان الحكمتان فَجَّرَتْهما عاطِفَةُ الإعجابِ بِشَخْصِيَّةِ سيفِ الدّولة:

فالأولى: فَجّرَهَا عنده إعجابٌ بكثرةِ ما سَبِي من نساءِ الرُّومِ الجميلاتِ، اللّواتي -مع ما حبينَ به من هذا الجمالِ- لا يلتفتُ إِلَيهِنَّ جندُ ممدوحِهِ، لِعَفَّتِهِمْ وترفُّعِهِمْ، بينما بطارِقَةُ الرُّومِ وقادَتُهُمْ يبكونَ علَيْهِنَّ أشَدَّ البكاءِ، والفقدُ مصيبةٌ وقعتْ على هؤلاءِ الرُّومِ، ولَكِنَّهُ فائدةٌ لَنا، فَما ساءهم سرَّنا.

والثّانيةُ: أنّ أعداءَ سيفِ الدّولة يَحسدونَهُ على شجاعَتِهِ، وهم يورن فعلَهُ، ويرونَ طَرُقَ الشّجاعة، ولَكِنَّهُمْ لا يستطيعونَ أن يفعلوا مثلَ فعْلِهِ، ولا أن يسلكوا طُرْقَهُ، وذلك لأنَّ طباعَهُمْ لا تؤهِّلُهُمْ لذلك.

وهاتان الحكمتانِ لَهما صِلَةٌ بحالَته النَّفْسيَّة؛ فإنّ ما فيه من المصائبِ والهمومِ مساةٌ لَه، مغنمٌ لأعدائِه، وما يسلُكُهُ من طلبِ المعالِي طبعٌ في نَفْسه يَقُودُهُ إليها، أمَّا هُمْ فليسوا مِثْلَهُ؛ لأَنَّهُمْ لا يملكونَ ما يَملكُ من الطّبعِ القائدِ إلى المعالِي، فالعواطِفُ الشّخصيَّةُ في هذه القصيدة ثابتَةٌ قويَّةٌ ومسيطرةٌ على كُلِّ أجزائِهَا -كما تقدَّم-، وهي عواطِفُ سامِيَةٌ؛ لأنّها تبعثُ مشاعِرَ نَبيلةٍ كالعفَّةِ والشّجاعةِ والجَلَدِ والفروسيّة.

كما أنَّها عواطِفُ صادِقَةٌ ليس فيها مراءٌ، فَعفَّتُهُ ملازمةٌ لَهُ، وإعجابُهُ بشجاعةِ هذا القائدِ منبعثٌ من حُبٍّ لَهُ لا يحولُ.

وكَمِثَالٍ لِعواطِفِهِ في قصائدِه التي تخلو من المقدِّماتِ قصيدَتُهُ(١):

عقبى اليمينِ على عقبى الوغى ندمٌ   ماذا يزيدُك في إقـدامِكَ القسـمُ

لَقَدْ هَجَمَ المُتَنَبِّي في هذه القصيدةِ على غرضِهِ مباشرةً دونَ أن يقدِّمَ لَهَا بِمقدِّماتٍ غزليَّةٍ أو طلليّةٍ، ولهذا فالعاطِفَةُ المسيطرةُ عليها في أكثرِهَـا عاطفةٌ عامّةٌ، إعجابٌ بالبطولة، لَكِنَّ المُتَنَبِّي لِحُبِّهِ هذا القائدَ حَوَّلَهَـا إلى عاطفةٍ خاصّةٍ شخصيَّةٍ، فهو ينفي البطولةَ عن غيرِهِ ويُثْبِتُهَا لَهُ.

هَجَمَ على غرضِهِ مُباشرةً؛ لأنّه بدأ بالخاطِبِ مباشرةً لِهذا القائـدِ الرُّوميِّ الذي آلى أن ينتصرَ على سيفِ الدّولةِ إنْ لَقِيَـهُ، فتَبَـيَّنَ لَـهُ أنَّ الحروبَ لا تكونُ عاقبَتُهَا لِمَن حلفَ عليها، فيندمُ على حَلْفِـهِ، وإنّمـا الشّجاعُ يبقى شجاعاً دونَ أن يَحلفَ، فهذا الحَلفُ لا يزيدُهُ في إقدامِـهِ، بل في الحَلْفِ دلالةً على الجُبْنِ والاتّهامِ في الإقدام:

عقبى اليمينِ على عقبى الوغى ندمٌ   ماذا يزيدُك في إقـدامِكَ القسـمُ
وفي اليمينِ على ما أنتَ واعِـدُهُ   ما دَلَّ أنَّكَ في الميـدانِ مُـتَّهمُ

فعاطفةُ الشَّاعرِ عاطفةُ المتائرِ الحنقِ على عدوِّه، ولهذا أظهر لهُ نَتيجةَ حلْفِهِ مباشرةً، وأنّ الحلفَ على نِهاياتِ الحروبِ ندامةٌ وخسارٌ، وعـارٌ وشنارٌ وجُبْنٌ وخورٌ.

(١) ديوانه (٤/١٢٩-١٤٢).

ثم تَخلَّصَ إلى مدحِ سيفِ الدّولةِ بأنْ جَعَلَهُ في إيقاعه بهذا القائد الرُّوميِّ مبطلاً ليمينِه، ومبالغةً منه في وصفِ سيفِ الدّولةِ بالشّجاعةِ جَعَلَهُ فتًى منسوباً إلى الضّربِ؛ لِكَثرةِضرابِه وقتاله.

وكما ذكرنا آنفاً من أنّ حُبَّهُ له حولَ هذه العاطِفَة من عاطفَةٍ عامّةٍ معجَبَةٍ بالبطولةِ مطلقاً إلى عاطفةٍ خاصّة معجبةٍ بهذا القائد الفَذِّ؛ فإنّهُ وسَمَهُ بالثّباتِ وعدمِ مللِ هذه المعاركَ حينما يَمَلُّهَا غيرُهُ.

كُلُّ السُّيوف إذا طالَ الضِّرابُ بِهَا يَمَسُّهَا غيرُ سيفِ الدّولةِ السَّأمُ

وانطلاقاً من هذا الإعجابِ؛ فإنّهُ سطر تَحرُّكَاته؛ فَكُلُّ بلدٍ هَبَطَهُ سَجَّلَ له صوراً رائعةً من سجلِ البطولاتِ الخالدَة لِهذا القائدِ؛ فقد صَوَّرَ عملَ السُّيوفِ في رؤوسِ الأعداءِ صوراً خياليّةً، ما استَنْتَجَهَا إلاّ بواسطةِ عاطِفَتِه التي ترى أنَّ في كُلِّ عَمَلٍ يَعملُهُ إهانةً لأعدائه:

ولّى صوارِمَهُ إكذابَ قولِهِم فَهُنَّ ألسنةٌ أفواهُهَا القِمَمُ
نواطقٌ مُخبراتٌ في جماجِمِهْم عنهُ بما جهلوا منه وما علموا

فقد جعلَ السُّيوفَ مخبرةً لَهُ حينَ قطعِها رؤوسَهُمْ بكذبِهِمْ في دعاواهم، مُبرهنةً على بطلانِهَا، ومن هذا المنطلقِ صَوَّرَ قضاءَهُ على هؤلاءِ الأعداءِ بكناياتٍ جميلة جاءتْ حاصِرَةً لِكُلِّ خسائِرِهِمْ بِعَاطِفَةٍ مليئة غِبْطَةً وفرحاً بِكُلِّ ما حَدثَ لَهُمْ:

وأصبحت بقرى هنْزيطَ جائلةً ترعى الظّبى في خصيبٍ نبته اللّمَمُ
فَمَا تركنَ بِهَا خُلْداً لَهُ بَصَرٌ تحتَ التّرابِ لا بازاً لَه قَدَمُ
ولا هزيراً لَهُ من دِرْعِهِ لِبَدٌ ولا مهاةٌ لَهَا من شِبْهِهَا حَشَمُ

ومثل هذه العاطفةِ عاطفَتُهُ في قولِهِ من القصيدةِ نَفْسِها في بيانِ صورةٍ أخرى من غاراتِ هذا القائد:

صَدَمْتَهُمْ بِخميسٍ أنتَ غُرَّتُهُ ... وسمهريَّتُهُ في وجهِهِ غَمَمُ
فكان أثبتَ ما فيهم جسومُهُمْ ... يسقطنَ حولَكَ والأرواحُ تَنْهَزِمُ
إذا توافقتِ الضّرباتُ صاعدةً ... توافقتْ قُلَلٌ في الجَوِّ تصطدمُ

حيث عَدَّدَ بِفرحٍ واعتزازٍ وإعجابٍ ما لَحظه في هذا الموقفِ من كثرةِ القتلى، والذي عَبَّرَ عنهُ بانْهزامِ الأرواحِ وبقاءِ الجثث لتسقطَ حول ممدوحِهِ، عندَ انْهزامِ هذه الأرواحِ تتطايرُ رؤوسُ الأعداءِ كُلَّمَا توافقتْ عدّةُ ضرباتٍ صاعدةٍ بهَا، فتصطدمُ في الجَوِّ.

ونَتيجةً لِتلكَ الصُّوَرِ المثيرةِ المفزعَةِ فقد فَزَعَ منها هذا القائدُ الرُّوميُّ فَوَلَّى الدُّبَرَ، لا يرجو بقاءً، حتّى إذا ما أرادَ التَّنَفُسَ، تَنَفَّسَ سريعاً، خاطفاً نَفَسَهُ القريبَ، فهو لا يأمَلُ كَاملَ نَفَسِهِ، لظَنِّه أنّ روحَهُ ستفلتُ قبلَ استتمامِهِ، وعليه درعٌ حصينةٌ، منعتْهُ من أن يصابَ، ممّا كان سبباً في حزنِ سيفِ الدّولة، ودعائه على كُلِّ ما واراهُ من شجرٍ.

ثُمَّ خَتَمَ القصيدةَ ببيانِ مقوِّماتِ بطولةِ سيفِ الدّولة التي هي علوُّ الهمَّةِ وعدمُ اللّهوِ، وشُكْرُهُ اللهَ، وضربُهُ بالسُّيوفِ؛ فكانَ كُلُّ ذلك سبباً في إطاعةِ دماءِ الرُّومِ وإلقائهَا المقاليدَ إليه، حتّى لو دعاها بلا ضربٍ لأجابتْ، ولذا فَهُمْ لا يَموتونَ موتاً طبيعيّاً ولا يَهرَمون، إنّما يَموتونَ تحتَ سُيُوفِهِ:

أَلْهَى الممالكَ عن فخرٍ قفلتَ به ... شُرْبُ المَدامَةِ والأوتارُ والنَّغَمُ
مُقَلَّداً فوقَ شكرِ اللهِ ذا شُطَبٍ ... لا تستدامُ بأمضى منهما النِّعَمُ
ألقتْ إليك دماءُ الرّومِ طاعَتَهَا ... فلو دعوتُ بلا ضربٍ أجابَ دَمُ
يسابِقُ القتلُ فيهم كلَّ حادثةٍ ... فما يصيبُهُم موتٌ ولا هَرَمُ
نَفَتْ رقادَ عليّ عن مَحاجِرِهِ ... نفسٌ يُفَرِّجُ نفساً غيرَها الحُلُمُ

ثم يلتفت إلى نسبِ ممدوحِهِ وعُلُوِّهِ على سائرِ الملوك، وهو خاتِمَتُهُمْ، ونتيجةً لِهذا الحُبِّ فقد خَلَّدَ ذلك بِحكمةٍ باقية، أَعْقَبَهَا بِفخرٍ بِشَاعِرِيَّتِهِ لِيقرنَ بينهما في الفضائلِ، وهذا من أكبرِ الدّلائلِ على تأثُّرِ المُتَنَبِّي بِعواطفِهِ التي لا تفارقه كُلَّ حين:

لا تطلبَنّ كريماً بعد رؤيَتِهِ ... إنّ الكرامَ بأسخاهم يداً خُتِمُوا
ولا تُبَالِ بشعرٍ بعد شاعِرِهِ ... قد أُفْسِدَ القولُ حتّى أُحْمِدَ الصُّمَمُ

إنَّ إثباتَ هذه العاطِفَةِ ظاهرٌ في عدمِ انقطاعِهَا إلى آخرِ بيتٍ في القصيدةِ؛ فإنّه لَمّا هاجمَ هذا القائدُ على حَلِفِهِ الأيمانَ قبل الأوان، ذَكَرَ الحروبَ التي أبطلتْ يَمينَهُ، وما نتجَ عنها من فرارِهِ بعدَ ذَلِكَ، وَكُلُّ ذلك مفخرةٌ لِسيفِ الدّولة، ولذا ذكر بعد ذلك مقوِّماتِ بطولَتِهِ، وهي من أسبابِ انتصارِهِ على هذا الحالِفِ.

وقُوَّتُهَا تَتَمَثَّلُ في شَدِّنا إلى متابعتِهَا عند كُلِّ حركةٍ يَتحرَّكُهَا الممدوحُ وعند كلِّ نَبرةٍ للشّاعِرِ.

وصِدْقُهَا يَتَمَثَّلُ فيما عرفَ من حُبِّه لِسيفِ الدّولةِ وعدم مُخالَفَتِــه ذلك، ودِقَّةِ إحصائه تَحرّكاتِه، ثم في فخرِه بِشَاعِرِيَّتِه ختاماً لِهذه القصيدةِ ليقرن بين بطلِ السِّنانِ واللِّسانِ.

٣-الأفكارُ

الأفكارُ هي المعانِي التي تُصَبُّ فيها القوالبُ الفَنِّيَّةُ، وهي مَنْ عَنَاصرِ الأدبِ المكوِّنة لَهُ؛ فإنَّ الأدبَ يتكوَّنُ مِنْ: «عاطِفَةٍ وخيَالٍ وفكرةٍ وعبارةٍ»(١).

والمعانِي هي محصلةُ عقلِ الأديبِ، ونتائجِ فكرِهِ، فيها يُحْكَمُ على فَنِّه، فيعرفُ مقدارُ قيمتِه الفَنِّيَّة.

هذا، وقد سَبَقَ الحديثُ عن بعضِ مقاييس هذه الأفكارِ عند حديثنا عن أفكارِ شعرِ الحربِ لدى البُحْتُرِيّ(٢).

وها هنا سنحاولُ تطبيقَ بعضِ هذه المقاييسِ على أفكارِ شعرِ الحربِ لدى المُتَنَبِّي كالآتِي:

أ- الأفكارُ بين التّلاؤمِ والتَّفكُّك:

سَبَقَ أن بيّنّا تعريفَ التّلاؤمِ ومَنْزِلَتَهُ في الشِّعْرِ، وأقوالِ النُّقّادِ فيه عندَ حديثنا عن هذا المقياسِ في شعرِ الحربِ لدى البُحْتُرِيّ(٣)، وقلنا إنَّهُ يعنِي: «أنْ يكونَ هناكَ تلاقٍ بين الأفكارِ والجزئيَةِ؛ بحيثُ يوجدُ خيطٌ رفيعٌ يصلُ بينها، حتّى تبعدَ عن التّنافرِ والتَّضَارُبِ»(٤).

---

(١) أصول النّقد الأدبِي، الأستاذ أحمد الشّايب (١٢٤).

(٢) (ص: ٦١٦-٦١٧) من الرّسالة.

(٣) (ص: ٦١٦-٦٣٦) من الرّسالة.

(٤) في ميزان النّقد الأدبِي، د/ طه أبو كريشه (٤٠).

وإذا نظرنا في شِعرِ الحربِ عند المُتَنَبِّي فإنّنا نجدُ أفكارَهُ —في أكثرِهَا— متوائمةً لا تنافرُ بينها سواءً أكَانَ ذلك في الفكرةِ الواحدةِ أو بينَ عدَّةِ فكرٍ، ومن أمثلة ذلك(١):

ولستُ أبالِي بعد إدراكِي العلا أكانَ تراثاً ما تناولتْ أو كَسْبَا
فَرُبَّ غلامٍ عَلَّمَ المَجْدَ نفسَهُ كتعليمِ سيفِ الدّولةِ الطَعنَ والضّرْبَا
إذا الدّولةُ استكفتْ بهِ في ملمةٍ كفاها، فكانَ السَّيفَ، والكَفَّ والقلبَا
تُهَابُ سيوفُ الهندِ وهي حدائدٌ فكيفَ إذا كانتْ نَزاريةً عُربَا
ويُرْهَبُ نابُ اللَّيثِ، واللَّيثُ وَحدَهُ فكيف إذا كان اللّيوثُ لَهُ صَحْبَا
ويَخشى عبابُ البَحرِ وهو مَكانَهُ فكيف بِمَنْ يَغشى البلادُ إذا عَبَا
عليمٌ بأسرارِ الدّياناتِ واللّغى له خطراتٌ تفضحُ النَّاسَ والكُتُبَا
فبوركتَ من غيثٍ كأَنَّ جُلُودَنَا به تَنْبتُ الدِّيباجَ والوشِيَ والعُصْبَا
ومن واهبٍ جزلاً ومن زاجرٍ هلاً ومن هاتكٍ درعاً ومن ناثرٍ قُصْبَا
هنيئاً لأهلِ الثّغرِ رأيكَ فِيهِمُ وأَنَّكَ حِزْبَ اللهِ صرتَ لَهُمْ حِزْبَا
وأَنَّكَ رُعْتَ الدَّهْرَ فيها وريبَهُ فإنْ شَكَّ فليحدثْ بِسَاحَتِها خَطْبَا
فيوماً بِخيلٍ تطردُ الرُّومَ عَنْهُمُ ويوماً بِجودٍ يطردُ الفقرَ والجَدْبَا
سراياكَ تترى والدُّمُستُقُ هاربٌ وأصحابُهُ قتلى وأموالُهُ نُهْبَى
أَتَى مرعشاً يستقربُ البعدَ مقبلاً وأدبرَ إذْ أَقْبَلْتَ يستبعدُ القُربَا
كذا يَتْرُكُ الأعداءَ من يكرهُ القنا ويُقْفُلُ مَن كانتْ غنيمتُهُ رُعْبَا

---

(١) ديونه (١/١٨٦–١٩٠).

وهـــل رَدَّ عنـــهُ باللُّقَـــانِ وقوفُـــهُ   صدورَ العـــوالي والمطَهَّمَـــةَ القُبَّـــا
مضى بعدَ ما التفَ الرِّماحانِ ساعةً   كَما يتلَقِّي الهَدْبُ في الرَّقدة الهُـــدْبَا
وَلَكنَّـــهُ ولَّـــى وللطَّعـــنِ سَـــوْرَةٌ   إذا ذكرتْهَا نَفْسُـــهُ لَمَـــسَ الجَنْبَـــا
وخلَى العذارى والبِطاريقَ والقُـــرى   وشعثَ النّصارى والقرابينَ، والصُّلْبَا
أرى كُلَّنا يبغِـــي الحيَـــاةَ لِنفْسِـــه   حريصاً عليها مستهاماً بَهَـــا صَـــبَّا
فَحُبُّ الجبانِ النَّفْسَ أورده التّقـــى   وحُبُّ الشَّجاعِ النَّفْسَ أوردَهُ الحَربَـــا
ويختلفُ الرِّزقانِ والفعـــلُ واحـــدٌ   إلى أن يُرَى إحسانُ هذا لـــذا ذَنْبَـــا

ففكرةُ هذه البياتِ تدورُ حولَ مدحِ ســيف الدّولــةِ بالشّــجاعةِ والدّهاءِ والكرمِ ووصفِ فرارِ الدُّمُستُقُ، والأبياتُ كُلُّهَا آخـــذةٌ برقـــابِ بعضٍ ومتوائمةٌ؛ فإنَّهُ تَخَلَّصَ من فخرِهِ بنَفْسِهِ الذي لم يكنْ مذموماً هنا؛ لأنّه لم يجيءْ داخلَ مدحِ ممدوحِهِ إنّما جاء به ضمنَ المقدِّمةِ، تَخَلَّصَ بـــه إلى المدحِ بالشّجاعةِ، ودَلَّلَ على ذلك بعدَّةِ أشياء:

منها: كفايَتُهُ الدّولةَ بالمهمّاتِ وهيبةُ النَّاسِ له، ثم تَحَدَّثَ عن دهائِهِ –وهو للشّجعانِ ومن صفاتِهِم–، وعن كرمه، –وهو من أخلاقِهِمْ–، ثم عاد إلى الشّجاعة فَعَدَّدَ بعضَ أعماله الحربيَّة.

ومنها: صَدُّهُ عنْ أهلِ الثّغورِ هُجومَ الدُّمُستُقِ عليهم، ومـــا وقـــعَ للدُّمُستُقِ بعد ذلك من الهرب، وهو في خلالِ ذلك يُؤَكِّدُ كُـــلَّ فكـــرةٍ بِحكمةٍ تبقى على الدّهرِ، تُرَدِّدُهَا الألسنةُ كقولِهِ:

١-تُهَابُ سيوفُ الهندِ وهي حدائدٌ ... ...

٢-ويُرْهَبُ نابُ اللَّيثِ، واللَّيثُ وَحدَهُ ... ...

٣-ويَخشى عبابُ البَحرِ وهو مَكانَهُ ... ...

٤-كذا يَتْرُكُ الأعداءَ من يكرهُ القنا ... ...

٥-أرى كُلَّنا يبغِي الحياةَ لِنَفْسِهِ ... ...

٦-فَحُبُّ الجبانِ النَّفْسَ أورده التّقى ... ...

٧-ويختلِفُ الرّزقانِ والفعلُ واحدٌ ... ...

هذا، وقد سَبَقَ القولُ بأنّ: «أفكارُهُ متوائمةٌ -في أكثَرِهَا-»(١).

فقلت: «في أكثرها»؛ لأنّه قد يُدْخِلُ بينَ الفكرةِ والفكرةِ فخراً بنَفْسِهِ أو شاعرِيَّتِهِ، وهذا يُعدُّ عدمُ تواؤمٍ وتنافراً؛ لأنّ المقامَ مقامُ مدحٍ للغيرِ، ووصفٍ لِشجاعَتِهِ وحروبِهِ، ولَكِن إذا علمنا أنَّهُ ما عَمِدَ إلى ذلكَ إلاّ لِسيطَرَةِ عواطفِهِ الشَّخْصِيَّةِ على نَفْسِهِ، وما عُرِفَ عنهُ من حُبِّهِ لِذَاتِهِ، وضَجرِهِ مِنَ الحياةِ، إذا علِما ذلك؛ فسنَعْذُرُهُ في هذا؛ لأَنَّهُ أصبحَ عادَةً له وإن كانَ هذا التَّسويغُ ليس مطَّرِداً في كُلِّ حالٍ، وذلكَ في مثلِ قولِهِ:

يَهُزُّ الجيشُ حولَكَ جانِبَيْهِ ... كما نفضتْ جنَاحَيْهَا العُقَابُ

وتسألُ عنهمُ الفلواتِ حتَّى ... أجابُكَ بَعْضُهُمْ وهُمُ الجوابُ

فقاتَلَ عن حرِيْمِهِمْ وفرُّوا ... ندى كفيكَ والنَّسَبُ والقُرَابُ

(١) (ص: ٧٨٨) من الرّسالة.

وحِفْظُكَ فِيهِمْ سَلَفِيْ مَعَدٍّ   وأَنَّهُمُ العشائرُ والصِّحَابُ
تُكَفْكَفُ عنهمُ صُمَّ العوالِي   وقدْ شرقتْ بِظُعْنِهِمُ الشِّعابُ
وأسقطتِ الأجنةُ في الولايا   وأجضهتِ الخوائلُ والسِّقَابُ
وعمروٌ في ميامنِهِمْ عمورٌ   وكعبٌ في مياسرِهِمْ كِعَابُ
وقد خذلتْ أبو بكرٍ بَنِيْهَا   وَخَاذَلَهَا قُرَيْظٌ والضِّبَابُ
إذا ما سرتَ في آثارِ قومٍ   تَخَاذَلَتِ الجَمَاجِمُ والرِّقَابُ
فَعَدْنَ كَمَا أُخِذْنَ مكرماتٍ   عَلَيْهِنَّ القلائدُ والمِلاَبُ
يُثنْبَكَ بالذي أوليتَ شكراً   وأينَ من الذي تولِّي الثّوابُ
وليس مَصِيرُهُنَّ إليكَ شيناً   ولا في صوشِهِنَّ لديكَ عَابُ
ولا في فقدِهِنَّ بَنِي كلابٍ   إذا أَبصرنَ غُرَّتَكَ اغترابُ
وكيفَ يَتِمُّ بأسُكَ في أناسٍ   تُصِيْبُهُمُ فيؤلِمُكَ المُصَابُ

ففكرةُ هذه الأبياتِ تدورُ حولَ مطارَدَتِه بَنِي كلابٍ وفرارِهِمْ، ثُمَّ دفاعِ سيفِ الدّولةِ عن حرِيْمِهِمْ في البيتِ الثّالثِ، ثُمَّ ذكرَ بعضَ آثارِ تلكَ المعركةِ، ثُمَّ عودٍ إلى النِّساءِ في البيت العاشرِ وما بعده، ثُمَّ طلبِ العفوِ في البيتِ الرّابعَ عشرَ.

فيلحظُ تكرارَ الحديث عن النِّساءِ، وعودُ الضَّمير: «نونُ النِّسوةِ» بعد انقطاعٍ، وهذا ما يُخِلُّ بالتّواؤمِ، وقد لَحظ ذلك د/ طه أبو كريشة في ميزانِه، ولَكِنَّهُ اعتذرَ لأبِي الطِّيِّبِ بقوله:

«وما جاء من بقيَّةِ الحديثِ عن النِّساءِ غيرُ متآخٍ مع الأبياتِ التي جاءتْ قبلَهُ، وحقّاً؛ إنّ الفاصلَ بعيدٌ بين الحديثينِ، لَكِنْ إذا تَذَكَّرْنَا أنّ

الحديثَ الأوَّلَ كان خاصّاً بوقتِ المعركة، والحديثَ الثّانِيَ خاصّاً بما بعدَ الحربِ وإرجاعِ الأسرى إلى ذوِيْهِمْ، لَمْ يدهشْنا هذا الفاصلُ في الحديث...»[1].

ولَكِنَّنِي أرى أنَّهُ من الممكنِ أن يرتِّبَ المُتَنبِّي حَدِيثَهُ فيُبَيِّنَ آثارَ المعركةِ أوّلاً، ثُمَّ يتحدَّثُ عن النِّساءِ وتكريْمِهِنَّ، ثُمَّ يَتحدَّثُ عن العفوِ وطلبِهِ، فيكون ترتيبُ الأبيات كالتّالِي:

يَهُزُّ الجيشُ حولَكَ جانبَيْهِ ... كما نفضتْ جنَاحَيْهَا العُقَابُ
وتسألُ عنهمُ الفلواتِ حتَّى ... أجابُكَ بَعْضُهُمْ وهُمُ الجوابُ
وأسقطتِ الأجنةُ في الولايا ... وأجضهتِ الخوائلُ والسِّقَابُ
وعمروٌ في ميامِنِهِمْ عمورٌ ... وكعبٌ في مياسِرِهِمْ كِعَابُ
وقد خذلتْ أبو بكرٍ بَنِيْهَا ... وَخَاذَلَهَا قُرَيْظٌ والضِّبَابُ
إذا ما سرتَ في آثارِ قومٍ ... تَخَاذَلَتِ الجَمَاجِمُ والرِّقَابُ
تُكَفْكَفُ عنهمُ صُمَّ العوالي ... وقدْ شرقتْ بِظُعْنِهِمُ الشِّعابُ
فقاتَلَ عن حرِيْمِهِمْ وفرُّوا ... ندى كفيكَ والنَّسَبُ والقُرَابُ
وحفْظُكَ فِيهِمُ سَلَفِيُ مَعَدٌّ ... وأَنَّهُمُ العشائرُ والصِّحَابُ
فَعَدْنَ كَمَا أُخذْنَ مكرماتٍ ... عَلَيْهِنَّ القلائدُ والمِلاَبُ
يُثْنَبكَ بالذي أوليتَ شيئاً ... وأينَ من الذي تُولِّي الثّوابُ
وليس مَصِيرُهُنَّ إليكَ شيناً ... ولا في صوشِهِنَّ لديكَ عَابُ

(١) في ميزان النّقد الأدبِي (٨٨).

ولا في فقدِهنَّ بَنِـي كِـلابٍ إذا أَبصـرنَ غُرَّتَـكَ اغتـرابُ
وكيفَ يَتِمُّ بأسُـكَ في أنـاسٍ تُصِـيبُهُمُ فيؤلِمُـكَ المُصَـابُ

وبهذا يَحدُثُ التّواؤمُ وتترتَّبُ الأفكارُ؛ لأنَّ الحديثَ حينئذٍ جاء عن إخبارِهِ بملاحقةِ سيفِ الدّولةِ لهؤلاء القومِ، حتّى إذا ما وَجَدَهُمْ في الصّحارِي، وأحدَثَ ما أحَدَثَ فيهم من إسقاطِ الأجنةِ وأجهاضِ الحوائلِ والسّقابُ، وتَمزيقِهِم شَذَرَ مَذَرَ عفا عنهم، ونساؤهم في حالةِ عفوهِ عَنْهُمْ في كُلِّ شعبٍ، فأَخَذَهُنَّ وأَكْرَمَهُنَّ لِكَرَمِهِ، ولَمَّا يربطُهُ بِهِمْ من النَّسَبِ، ومن ثم أعادَهُنَّ مُعَزَّزَاتٍ.

أمّا عدمُ التّواؤمِ الحاصلِ من فخرِهِ بنَفْسِهِ أو شَاعرِيَّتِهِ أثناءَ مدحِهِ ممدوحِهِ فقد ذكرنا العِلَّةَ في ذلك عندَ حديثنا عن العاطِفَةِ(١).

---

(١) (ص: ٧٦٩) من الرّسالة.

٢-الأفكارُ بينَ الوضوحِ والغموضِ

الأفكارُ التِي يعرضُ لَها أبو الطَّيِّبِ في شِعْرِهِ الحربِيِّ واضحةٌ لا غموضَ فيها ولا تعقيدَ، فهو يعرضُ علينا شِعْرَهُ الحربيَّ الذي يُصَوِّرَ بِهِ شجاعةَ ممدوحه وأجواءَ المعارِكِ، ومن ضروريّاتِهِ الوضوحُ، لِنَفْهَمَ عنه صُوَرَهُ التِي يُؤَلِّفُهَا خيالُهُ، وقد كانَ كذلكَ في أكثرِ صُوَرِهِ، ومن ذلكَ قولُهُ يَذْكُرُ بناءَ سيفِ الدّولةِ (مَرْعَشَاً)[1]:

فأضحتْ كَأَنَّ السّورَ من فوقِ بدئه — إلى الأرضِ قد شَقَّ الكواكبَ والتُّربَا
تَصُدُّ الرِّيَاحَ الهوجَ عنها مخافَةً — وتفزعُ منها الطَّيرُ أن تلقطَ الحَبَّا
وتردي الجيادُ الجردُ فوقَ جِبَالِهَا — وقد نَدَفَ[2]الصِّنَبْرُ في طُرْقِهَا العُطْبَا
كفَى عبجاً أن تعجبَ النّاسُ أنَّهُ — بَنَى مَرْعَشاً تَبّاً لآرائِهِمْ تَبَّا
وما الفرقُ ما بينَ الأنامِ وبينَهُ — إذا حَذِرَ المحذورُ واستَصْعَبَ الصَّعْبَا
لأمرٍ أعدتُهُ الخلافةُ للعدا — وسَمَّتْهُ دونَ العالَمِ الصّارمَ العَضْبَا
ولم تفترقْ عنه الأسنةُ رحمةً — ولم يتركِ الشّامَ الأعادي له حُبَّا
ولَكِن نَفاهَا عنه غيرَ كريمةٍ — كريمُ الثَّنا، ما سَبَّ قَطُّ ولا سُبَّا

---

(١) ديوانه (١/١٩٢-١٩٥).

(٢) نذف: غزل.

الصِّنَبْرُ: السَّحابُ الباردُ والرّيح.

العطبا: القطن، ومراده: الثّلج.

وجيشٌ يثني كُـلَّ طـودٍ كَأَنَّـهُ خريقُ رياحٍ واجهتْ غُصْـنَا رَطْبَـا
كأَنَّ نُجومَ اللَّيلِ خافَـتْ مُغَـارَهُ فَمَدّتْ عليها من عجاجَتِـهِ حُجْبَـا
فَمَنْ كان يُرْضِي اللَّومَ والكفرَ ملكُهُ فهذا الذي يُرْضِي المكـارِمَ والرَّبَـا

فأفكارُ هذه القصيدةِ كُلُّهَا واضحةٌ، لا غموضَ فيها، وشِعْرُ الحربِ عامَّةً لدَيهِ على هذا المنوالِ؛ لأنَّهُ جاء في فترةِ نُضْجِهِ الفَنِّيِّ، وإنْ جاء فيه غموضٌ ما؛ فليس من جهةِ الفكرةِ، إنَّمَا من تصنيعٍ حاوَلَهُ، أو تقـديمٍ أو تأخيرٍ أو حذفٍ، أو إغراقٍ، وهذا الغموضُ لا يكونُ في كُلِّ الكفرةِ، إنَّمَا يكونُ في بيتٍ واحدٍ من القصيدةِ، ويُمكنُ لَنا فَهمُهُ لو أمعنَّا النَّظرَ فيـه، ومن ذلك قولُهُ[1]:

ذي المعالي فليعْلُونْ من تَعَـالَى هكـذا هكـذا وإلاّ فـلا لا
شرفٌ ينطحُ النُّجُـومَ بروقيـ ـهِ وعِـزٌّ يقلقِـلُ الأجيـالا
حالُ أعدائِنَا عظيمٌ وسيفُ الـدَّ م ولةِ ابنِ السُّـيُوفِ أعظـمُ حـالا
كُلَّمَا أعجلـوا النَّـذيرَ مسـيراً أعجلَتْـهُ جيـادُهُ الإعجـالا
فأتتهمْ خوارقُ الأرضِ ما تحمـ ـلُ إلاّ الحديـدَ والأبطـالا
خافياتِ الألوانِ قد نَسجَ النَّقْـ ـعُ عليهـا براقعـاً وجِـلاَلا
حالَفَتْـهُ صُـدُورُهَا والعـوَالي لَتَخُوضَـنَّ دونَـهُ الأهـوالا
وَلَتَمْضِنَّ حيثُ لا يَجدُ الرَّمـ ـحُ مداراً ولا الحصـانُ مَجَـالا

فأفكارُ هذه القصيدةِ واضحةٌ لا غموضَ فيها إلاّ البيـتَ الرّابـعَ؛

(١) ديوانه (٣/٢٥٤-٢٥٦).

فإنَّ الشُّرَّاحَ قد حاولوا فَهْمِ معناه واضطربوا فيه، وهذا ليس لِغموضِ الفكرة؛ لَكِنَّهُ لِتَركيبِه، فعود الضَّميرِ في: (أعجلته) مُلْبِسٌ، هل هو عائدٌ إلى أقربِ مذكورٍ، وهما المسيرُ أو النّذيرُ، أو إلى سيفِ الدّولة، فالمُتَنَبِّي لم يَلتَفِتْ إلى هذه القاعدَةِ النّحويَّةِ؛ فأعادَ الضَّميرَ إلى سيفِ الدّولةِ مع وجودِ فاصلٍ بينَهُ وبينَ ذِكْرِهِ السّابقِ، ومِمّا عَقَّدَ معناه وأَلْبَسَهُ ثوبَ الغموضِ إحالَتُهُ -أيضاً- في معناه؛ إذ كيفَ يُمكنُ لِجيادِ سيفِ الدّولة أن تَعجُلَهُ الإعجالَ الذي يُحاوِلهُ أعداؤه؛ فإنَّ معنَى البيتِ: كُلَّمَا حاوَلَ هؤلاءِ الأعداءُ سَبَقَ نذيرِ سيفِ الدّولةِ، سبقتْ بِسيفِ الدّولةِ جيادُهُ سَبْقَهُمْ ومُحاوَلَتَهُم سبقَ نذِيرِه، والسّياقُ واضحٌ على أنّ الضَّميرَ عائدٌ إلى سيفِ الدّولةِ، والمُتَنَبِّي لا يعبأ بالنَّحويِّينَ؛ لأنّ سيفَ الدّولةِ غيرُ بعيدٍ عن ذاكِرَتِهِ، وإن بَعُدَ في الكلامِ، هذا على روايةِ البروقِيِّ.

فإنْ أخذنا روايةَ أبي العلاء[1]:

كُلَّمَا أعجلوا النَّذيرَ مسيراً   أعَجَلَتْهُمْ جيادُهُ الإعجالا

لم يكن في البيتِ غموضٌ من حيث تركيبُهُ؛ فمرجعُ الضّمير ظاهرٌ، ويبقى غُموضُهُ من حيثُ إعرابُهُ، وكونُ جيادِ سيفِ الدّولةِ تسبقُ استِعْجَالَهُم لِنذيرِهِمْ أو نذيرِ سيفِ الدّولةِ على خلافٍ في كونِهِ نذيرٌ مَن؟ فقد جعلَ الإعجال يَعجلُ.

(١) معجز أحمد، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب، دار المعارف، مصر، ط الأولى، ١٩٨٦م (ص ٣/٢٠٥).

هذا، وقد يأتِي الغموضُ لَديهِ -أحياناً- من عدمِ وضوحِ الصّـورةِ لَدَيه، إمّا لعمقِ خيالِهَا أو مِنِ الخطأِ في التّشبيهِ والتَّخيُّلِ، وعدمِ الإحسانِ فيهِ، ومن ذلك قَولُهُ(١):

كُلِّ دِمْرٍ يزيدُ في الموتِ حُسناً كبـدورٍ تَمامُهَـا في المَحَـاقِ

فإنَّ الشُّرَّاحَ قد تَخَبَّطُوا فيه، وما ذاكَ إلاّ لِعدَمِ إحسانهِ التَّشبيهَ؛ فإنَّهُ حَاوَلَ أَنْ يُشَبِّهَ هؤلاءِ الفرسانَ في حُبِّهِمْ المـوتَ، وكـأَنَّهُمْ لا تَكتمـلُ شَجاعَتُهُمْ وكرمُهُمْ إلاّ إذا ماتوا، فَشَبَّهَهُمْ بالبدورِ التي لا يكونُ تَمامُهَـا إلاّ بَعد مرورِهَا بالمَحَاقِ، ولَكنَّ التّشبيهَ إذا لم يكنْ واضحاً فلا جَمَالَ فيه، وفي غيرِهِ من الصّورِ غَنِيَّةٌ عنه، ولذا رماه بعض النُّقَّادِ بالتّناقضِ، وبَعْضُهُمْ بعدمِ جدوى هذا التّشبيهِ(٢).

---

(١) ديوانه (١٠٦/٣)، بعد البيت السّابق.

(٢) ديوانه (١٠٦/٣)، حاشية (٤).

٣ـ الأفكارُ بينَ العمقِ والسّطحية

عرف عن أبِي الطَّيِّب عمقُ أفكارِه ودقَّة معانيه وعدمِ سَطْحيَّتِهَا في سائرِ شِعْرِه وفي شِعْرِه الحربِيِّ خاصَّةً، ولقد بلغَ قِمَّةَ العمقِ في سـيفيَّاته؛ لأَنَّهُ يُعبِّرُ فيها عَمَّا يَخْتلِجُ في نَفسِه، ولقد تَمَثَّلَ هذا العمقُ فيما يلي:

١- تأَثُّرُهُ بِما حولَهُ من أحداثِ:

وبخاصَّةِ الأحوالُ والملابساتُ المحيطةُ بِشَخصيَّتِهِ فَتَرْجَمَهَا في شِعْرِه الحربِيِّ حِكَماً خالدَةً.

وكذا تَأَثُّرُهُ ببعضِ صُورِ الحربِ، ومن ثَمَّ تَحويلُهَا إلى صُورِ مثاليَّـة للحياةِ، ففشتْ من أجلِ ذلك الحِكْمَةُ في شِعْرِه، ومن ذلك قولُهُ حينمـا رأى هَرَبَ الدُّمُسْتُقِ(١):

ولكنّه ولَّـى وللطّعـنِ سَـوْرَةٌ ... إذا ذكرها نفسُـهُ لَمَـسَ الجَنْبَـا
وخَلَّى العذارِي والبطاريقَ والقُرَى ... وشُعْثَ النَّصَارى والقرابِينَ والصُّلْبا
أرى كُلّنا يبغي الحيـاةَ لنفسِـه ... حريصاً عليها مَسْتَهاماً بهـا صَـبّاً
فَحُبّ الجبانِ النَّفْسَ أورده التّقَـى ... وحُبُّ الشّجاعِ النَّفْسَ أورده الحَرْبا
ويَختَلِفُ الرِّزقانِ والفعلُ واحـدٌ ... إلى أَنْ يُرَى إحسانُ هذا لذا ذنبـا

فَإِنَّهُ لَمَّا رأى فرارَ هذا الجبانِ من حومةِ الوَغَى، وتَخليفَهُ كُلَّ تلكَ الدّوافِعِ –الحافزةِ على الإقدامِ– حرصاً على حياتِه، وَلَّدَ ذلـكَ في ذِهْنِـهِ

---

(١) ديوانه (١/١٩٠-١٩١).

حِكَماً عادتْ به إلى فِكْرِهِ العَميقِ وعَقْلِه الباطِنِ، وأَكَّدتْ نَظرَتَهُ إلى الحياةِ، فرأى أنَّ كُلَّ النّاسِ يريدُونَها لأَنْفُسِهِمْ، ويَختلفُ هذا الحُبُّ بِحسبِ مَشارِبِهِمْ، فَالجَبانُ أَحَبَّها فهرَبَ من الحربِ حفاظاً عليْها ليبقى دونَ موتٍ، والشُّجاعُ أَحَبَّها فألقى نَفْسَهُ في أتونِ الحربِ ليبقى ذِكْرُهُ بعدُ، فيحيا حياةً خالِدَةً، وهكذا يفعلُ الرَّجلانِ الفعلَ الواحدَ، فيفترقانِ بِسببِهِ زرقينِ مختلفين:

أحدهما: زرقٌ محمودٌ، والآخر: زرقٌ مذمومٌ.

٢- دِقَّةُ تَصْوِيرِهِ للمعارِك:

ومن هذه الدِّقَّةِ صَارَ يُفتِّقُ الصّورةَ الواحدةَ، فيستخرجُ منها عِدَّةَ صورٍ، ومن ذلك قولُهُ من القصيدةِ السّابقة[١]:

لا ألوم ابن لاوْنٍ مَلِكَ الرّو ... م وإن كان ما تمَنَّى محالا
أقلقتْه بنيَّةٌ فوق أذنيـ ... ـه وبانٍ بغى السّماء فنالا
كلّما رامَ حطَّها اتّسع البَنْـ ... ـيُ فغطّى جبينَهُ والقَذَلا

. . . . . .

نَزلوا في منازلٍ عرفوها ... ينـدبونَ الأعمامَ والأخوالا
تَحملُ الرِّيحُ بينهمْ شعرَ الها ... مِ وتُذري عَلَيْهِمُ الأوصالا
تنذرُ الجسمَ أنْ يقيمَ لَديها ... وتَرِيهِ لِكُلِّ عضوٍ مِثالا
أبصروا الطَّعْنَ في القلوبِ دِرَاكاً ... قبلَ أن يبصروا الرِّماحَ خيالا

(١) ديوانه (٣/٢٥٧-٢٦١).

وإذا حاولــتْ طعانُــكَ خيــلٌ أبصــرتْ أذرعَ القنــا أميــالا
بسطَ الرُّعْبُ في الـيمينِ يَمينــاً فتولّــوا وفي الشّــمالِ شِــمَالا
ينفضُ الرّوعُ أيدياً ليس تــدري أسـيوفاً حملــنَ أم أغــلالا
ووجوهاً أخافَهَا منــكَ وجــهٌ تركتْ حسنَهَا لــه والجمــالا

فإنّ هذه الأبياتَ اشتملَتْ على ثلاثِ فِكَرٍ رَئيسةٍ:

الأولى: وَصْفُهُ نَفسيَّةَ ابن لاون ملك الرُّومِ في سببِ مُهَاجَمَتِهِ هذه القلعة، وذلكَ أنَّهَا أقلقتْهُ لوقوعِهَا في ديارِهِ، ولكونِ صَاحِبِهَا أعلىَ قــدراً منه، فَكَانَ كُلَّمَا حاوَلَ مُهَاجَمَتَهُا مريداً نقضَهَا، صَدَّهُ سيفُ الدّولةِ عنها، فزادَ فيها، لَكِنَّ الشَّاعِرَ لَم يقلْ ذلكَ صراحةً، بل جاءَ بِصُــوَرٍ نفســيَّة وخَيَالِيَّةٍ، زادتْ من بشاعةِ هذه التّصويرات عِنْدَهُ، فبدلاً من أن يَجعلَهَا في أرضِهِ وبينَ بُلْدَانِهِ، جَعَلَهَا بينَ أذنيه، وبدلاً من أن يصفَ سيفَ الدّولــة بِبلوغِ ما يريدُهُ، جعله يبلغُ عنانَ السَّماءِ، وبدلاً من أن يجعــلَ فَشَــلَهُ في هدْمِهَا، وزيادةَ سيفِ الدّولةِ فيها حقيقةً، وبلفظٍ صريحٍ جَعلَهَا ما زالت باقيةً بين أذنيهِ مع زيادةٍ في الطّولِ والعرضِ حتّى غَطَّتْ رأسَهُ والقــذالا، ممّا يُشْعِرُ بِشَدَّةِ قَلَقِهِ منها، فهذا تصويرٌ دِقيقٌ لنَفْسيَّتِهِ وخيَالٍ خصبٍ من أبي الطَّيِّبِ.

الثّانية: حديثه عن نُزولِ هؤلاءِ الأعداءِ في موقعِ معركةٍ سالفةٍ لَهُمْ مع سيفِ الدّولةِ وتصويرِهِ بَشاعَةَ هذا المَنْزِلِ على أنفسِهِمْ، في جعلِ كُــلِّ ما حَولَهُمْ يُوحِي إلَيْهِمْ بالخَوفِ والفَزعِ من مَمدوحِهِ، ممَّا جَعَلَهُمْ يندبُونَ أعمامَهم وأخوالَهم الذين قضى عليهمْ سيفُ الدّولةِ في تلــكَ المعركــةِ،

فالرّيحُ إذا هَبتْ كانتْ كالنّذيرِ لَهُمْ بأنْ يَحصلَ لَهُمْ ما حَصَلَ لأَسْلافِهِم من قَتْلٍ، ولذا فَهِي تُحرِّكُ بينهم شَعَرَ الهامِ، وتُفتِّتُ علَيهِمْ رفاتَ أسلافِهِمْ، كما تُرِيَ كُلَّ احد منهم لِكُلِّ عضوٍ منه مثالاً من أعضاءِ سَلَفِه، قد مُزِّقَ شَرَّ مُمَزَّقٍ، ونَتيجةً لِهذا؛ فقد تَصَوَّرُوا أنّ ما وقعَ لأَسْلافِهِمْ سيقعُ لَهُم؛ فالطَّعْنُ الذي لاقاه أسلافُهُمْ تَصَوَّرُوهُ هُمْ قبلَ حدوثِ المعركة، وكأَنَّهُ قد صُبَّ عليهم في قلوبِهِم تباعاً، كُلُّ هذا يصوِّرُ حَالَتَهُمُ النَّفْسيَّةَ، وفيه دلالةٌ على شجاعةِ سيفِ الدّولةِ وخوفِ الأعداءِ منهُ، ودِقّةُ خيالِ المُتَنَبِّي وعُمْقِ فكرِهِ، وكيفَ استطاعَ أن يغوصَ إلى أعماقِ نفوسِهِمْ؟! وإلى أن يروا بِمَنْزِلِهِمْ هذا المَنْزل كُلَّ ما ذكر.

الثّالثة: وصفٌ لِحالِ الأعداء عندَ التِقَائِهِمْ بسيفِ الدّولة، وما بلغَ فِيهِمْ من الخوفِ والفزعِ منهُ، ودِقّةِ تصويرِ هذا الفزعِ تظهرُ في أربعِ صُوَرٍ:

-جعلَ خيلَ أعدائِه تفزعُ منه –أيضاً– كفزعِ أصحابِهَا، فَتَتَخيَّلُ أنَّ القناةَ قد صارتْ أميالاً، لظَنِّهَا أنّها ستلحقها حتّى ولو فَرَّتْ.

-أنَّ جعلَ الرّعبَ يهيِّئُ لَهُمْ زيادةَ مَيمنةِ وميسرةِ جيشِ ممدوحِه، فَوَلُّوا هرباً لِذَلِكَ، وقال البروقِي: «إنَّ الرُّعْبَ شاعَ فيهِمْ وعَمَّهُمْ حتّى كَأَنَّهُ بسطَ يَمينَهُ في مَيمَنَةِ جَيشِهِمْ وشَمالَهُ في مَيسرَتِهِ، فَتولَّوا هاربين»(١).

(١) ديوانه حاشية (٢) ص (٢٦١/٣).

وقال ابن الأفليلي: «المعنَى: بسطَ الرُّعبُ في أيديهم أيدياً مثلَهـــا، تمنعها من البطشِ فوَلَّوا مُخذولين»(١).

والأوّل أدَقّ في وصف حَالهِم عندي.

-جعلَ الخوفَ مُتَمَكِّناً منهمْ، فَهَزَّ أيديَهَمْ هَزّاً عَنيفاً، حتّى كـــأَنَّ السُّيُوفَ التي في أيديهِمْ أغلالاً فيها، دلالةً على عدمِ غِنَائِها عنهم.

-جعلَ وجوهَهُم سُلِبَتْ حسنُهَا وجمالُهَا، وتركَتْهُ لممدوحِه خوفاً من وجهِهِ المقطبِّ عليهِمُ الكالحِ في وجوهِهِمْ، دلالةً على خـــوفِهِمْ حتّى من منظرِهِ في الحربِ، وعادةً ما يرهبُ الأبطالُ خصومَهُمْ عند اللّقاء.

وبِهذا نرى كيفَ فَتَّقَ المُتَنبِّي من المعنَى الواحدِ عدَّةَ صُوَرٍ في قصيدةٍ واحدةٍ.

هذا وقد يُكَرِّرُ المعنَى الواحدَ ويُدَقِّقُ فيه في عددٍ من القصائد، ومن ذلك مثلاً معنَى: عدمِ نفعِ السَّيف إذا لم يكن حاملُهُ شـــجاعاً(٢)؛ فإنَّـــهُ قال(٣):

إنَّ السُّيُوفَ مع الذينَ قُلُـــوبُهُمْ   كقلوبِهِنَّ إذا التقـــى الجمعـــانِ
تلقى الحسامَ على جَرَاءَةِ حـــدِّهِ   مثلَ الجبانِ بِكَفِّ كُـــلِّ جَبَـــانِ

(١) ديوانه نفس الحاشية و الصفحة.

(٢) الوساطة (٢٨٨).

(٣) ديوانه (٤/٣١٦-٣١٧)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

ثم أثبتَ القوَّةَ كُلَّهَا للكفِّ الضَّارِبة به؛ فقال(١):

إذا ضربتْ في الحربِ بالسَّيفِ كَفُّهُ تَبَيَّنَتْ أنَّ السَّيفَ بالكفِّ يَضْرِبُ

ثم أعادَهُ فقال(٢):

إذا الهندُ سوتْ بينَ سيفَيْ كريْهَةٍ فسيفُكَ في كَفٍّ يزيلُ التّساويا

ثم نَقَلَهُ إلى الخيلِ والرِّماحِ؛ فقال(٣):

وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لم يكن فوقَ الكرامِ كرامُ

ومثله تِكرَارُهُ لِمعنَى تَحَطُّمِ السُّيوفِ والرِّماحِ(٤)؛ فإنَّهُ قال(٥):

وَهولٍ كشفتَ، ونصلٍ قَصَفْـ ـتَ ورمحٍ تركتَ مُبَاداً مبيدا

ثم أعاده؛ فقال(٦):

فتسفرُ عنهُ والسُّيوفُ كَأَنَّمَا مضارِبُهَا مِمّا انفللنَ ضرائِبُ

ثَمَّ أعادَ وزادَ إذا جعَلَ الحديدَ مقتولاً؛ فقال(٧):

فتلتَ نفوسَ العدا بالحديـ ـدِ حتّى قتلتَ بِهِنَّ الحديدا

---

(١) ديوانه (٣٠٦/١)، من قصيدةٍ يمدح بها كافوراً.

(٢) ديوانه (٤٣١/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (١١٠/٤)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٤) الوساطة (٣٢٧-٣٢٨).

(٥) ديوانه (٨٨/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمّار.

(٦) ديوانه (٢٣٥/١)، من قصيدةٍ يرثي بها محمّد بن إبراهيم التّنوخِي.

(٧) ديوانه (٨٩/٢)، من قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمّار الأسدِي.

ثُمَّ كَرَّرَهُ وزادَ إذا جَعَلَهُ مقتولاً في جسمِ القتيلِ، وجعلَ للسُّيُوفِ آجالاً؛ فقال[١]:

القاتِلِ السَّيفَ في جسمِ القتيلِ به وللسُّيُوفِ كما للنَّاسِ آجالُ

ثُمَّ أعادَ وزادَ تشبيهاً؛ فقال[٢]:

ومنعفرٍ لنصلِ السَّيْفِ فيهِ تواري الضَّبِّ خافَ من احتراشِ

وقال[٣]:

نُصَرِّفُهُ للطَّعْنِ فوقَ حوادرٍ قد انقصفتْ فِيهِنَّ منه كَعَابُ

وقال وزادَ[٤]:

ونالتْ ثأرَهَا الأكبادُ منهُ فأولَتْهُ اندفاقاً أو صُدوعا

٣-: غوصُهُ في أعماقِ النَّفسِ الإنسانيَّة:

وما نتج عن ذلكَ من دِقَّةِ تَحليلِه للنَّفْسِ البشريّةِ سواء أكانتْ نفسيَّتُهُ أم نفسَّةُ أعدائه أم أعداءِ ممدوحِه، وقد عُدَّتْ هذه الظّاهِرَةُ ميزَةَ امتازَ بِهَا عن غيرِهِ مِنَ الشُّعَراءِ، وَكَأَنَّهُ أحدُ علماءِ التّحليلِ النَّفْسِي[٥].

(١) ديوانه (٣/٣٩٩)، من قصيدة يمدح بها أبا شجاع فاتك (المجنون).

(٢) ديوانه (٢/٣١٨)، من قصيدة يمدح بها أبا العشائر.

(٣) ديوانه (١/٣١٨)، من قصيدة يمدح بها كافوراً.

(٤) ديوانه (٢/٣٦٢)، من قصيدة يمدح بها عليّ بن إبراهيم التَّنوخِي.

(٥) المُتَنَبِّي بين ناقديه (١٢٠).

ومن مظاهرِ ذلك؛ قولُهُ في رسولِ ملكِ الرُّومِ[١]:

أتاكَ يكادُ الرّأسُ يجحَدُ عُنْقَهُ وتَنْقَدُّ تحتَ الذّعرِ منه المفاصِلُ

فلا يكفي أن نقولَ إنَّهُ وصفَهُ بِشدَّةِ الخوفِ والاضطرابِ؛ لأَنَّنَا: «هنا بإزاءِ، معنًى جديدٍ أضافَهُ المُتَنَبِّي وابتكرَهُ، وهو عجزُ الشَّخْصِ عن استجماعِ أطرافِ نَفْسِه، حتّى كَأَنَّ أطرافَهُ ينفرُ بعضُهَا من بعضٍ، وأَنَّهَا تنتقمُ من نفْسِهَا لِجرأتِهَا على المخالَفَةِ والعصيانِ»[٢].

وقولُهُ[٣]:

أبصروا الطَّعنَ في القلوبِ دَرَاكاً قبلَ أن يبصروا الرِّماحَ خَيَالا

يَنْفَضُ الرّوعُ أيدياً ليس تدري أسيوفاً يحملنَ أم أغلالا

فإِنَّهُ وصفَ شِدَّةَ ما اعتراهمْ من الخوفِ، حتّى تَخيَّلَ لِذلكَ صوراً عِدَّةً، منها:

أَنَّهُمْ لِمَا رأوا منا حَلَّ بِمَن قبلَهُمْ من أعْمَالِهِمْ وأحوالِهِم خافوا من ذلكَ، فَكَأَنَّهُمْ أبصروا الطَّعنَ الذي وقعَ بِسَلَفِهِمْ قد وَقَعَ في قلوبِهِمْ طعناً متتابعاً، كُلُّ ذلك تَخَيُّلاً لا حقيقةً؛ فالرّماحُ التي هذ أدواتُ الطّعنِ لم ترَ بعدُ.

وَمِنْ شِدَّةِ الفزعِ ارتعدتْ أيديهِمِ الحامِلَةُ للسُّيوفِ حتّى لم يَتمكّنوا من معرفةِ ما تَحملُهُ أيديْهِمْ؛ أسيوفاً تَحملُ أم أغلالاً، لِثقَلِهَا عليهمْ.

(١) ديوانه (٣/٢٣٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) المُتَنَبِّي بين ناقدين (١٢١).

(٣) ديوانه (٣/٢٦٠-٢٦١).

وقولُهُ عنِ الدُّمُستُقِ لَمَّا هَرَبَ(١):

ولكنَّهُ ولَّى وللطّعنِ سَورَةٌ إذا ذكرتْها نَفْسُهُ لَمَسَ الجَنْبا

فإنَّ شدَّةَ الفزعِ وما لَحِقَهُ من الخوفِ، جَعَلَتْهُ غيرَ مُصَدِّقٍ بأَنَّهُ غدا سَالماً؛ فيتفقَّدُ نفسَهُ بينَ الحينِ والآخرِ، هل سَلِمَ من الطّعنِ الذي سَمِعَ دَوِيَّهُ.

وقولُهُ(٢):

إذا ما سِرْتَ في آثارِ قومٍ تَخَاذَلَتِ الجَماجِمُ والرِّقابُ

فهذا البيتُ يُكْشِفُ لَنَا: «عن مدَى استبداد الخوف بالنُّفوسِ، ومدى استيلائه على الأفئدة؛ حتّى أصبحَ الخائفونَ أعواناً للممدوحِ على أَنْفُسِهِمْ، فَتَخونُهُمْ جَماجِمُهُمْ ورِقَابُهُمْ، وتَتَخاذَلُ، حينما تَعلَمُ أنّ الممدوحَ سارَ في أَثرِهِمْ، وخرَجَ في طَلَبِهِمْ، فَكَأَنَّ تلكَ الأعضاءَ أسْهَمَتْ في حلولِ العقابِ بِباقي أجزاءِ الجسمِ، وكانتْ عوناً للممدوحِ على ذويْهَا»(٣).

ومثلُهُ(٤):

يرى في النّومِ رَمحَكَ في كُلاه ويخشى أن يراه في السُّهَادِ

---

(١) ديوانه (١/١٨٩)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (١/٢٠٧)، من القصيدة السّابقة.

(٣) المُتَنَبِّي بين ناقديه، د/ شعيب (١٢٢).

(٤) ديوانه (٢/٨٤)، من قصيدةٍ يمدح بها عليّ بن إبراهيم التّنوخِي.

وذلك غَيضٌ من فيضٍ، وما الحِكَمُ المنتشرةُ في ديوانِه إلاّ بعضَ هذا التّحليلِ النَّفْسِيِّ البضارِعِ منه.

٤- الأفكارُ بينَ التّقليد والتّجديد:

هناكَ معانٍ مشتركةٌ بينَ الشُّعَراءِ يَتَوَارَثُونَها، فيعذرونَ فيما توافقوا فيه مِنْهَا، وذلك لأنَّهُ شيءٌ لا بُدَّ منه كالمدحِ بالكرمِ، والشّجاعةِ أو وصف الغزلِ والأطلالِ والطّيف، ولِهذا فَنحنُ سنعذرُ المُتَنَبِّي فيما جاء من ذلك لَديهِ مِمّا يُوهِمُ التّقليدَ.

ولقد تَحَدَّثَ د/ طه أبو كريشة عن هذه النّقطة؛ فقال: «أمّا عن التّقليدِ في بعضِ الصُّوَرِ البيانية؛ فقد لاحظنا أنّ ذلك يأتي في الأغراضِ التي يَتَكَلَّفُهَا المُتَنَبِّي تَكَلُّفاً، والتي لا يقولُهَا لِذاتِها، وإنَّمَا يَتَّخِذُهَا وسيلةً إلى غرضٍ آخر»[١].

ولقد مُنِيَ المُتَنَبِّي بِنقادٍ تَتَبَّعُوا كُلَّ شِعْرِهِ، فاتَّهمُوهُ بِسَرِقِ الكثيرِ منه، وجُلُّ ما أتَوا به من ذلكَ هو من قبيلِ هذه المعاني العامَّةِ، وقدْ دَافَعَ عنه القاضي الجرجاني في ذلكَ خيرَ دفاعٍ في كتابه[٢].

والذي يَهُمُّنَا هُنا هو معرفةُ مدى تَجديدِ أبي الطَّيِّبِ في أفكارِهِ في قصائدِهِ الحربيَّةِ، والواقعُ أنَّ صُوَرَ شِعْرِهِ الحربيِّ أكثرُهَا جديدٌ لم يُسْبَقْ

---

(١) الخيال الشّعريّ عند أبي الطَّيِّب المُتَنَبِّي (٢٠٥).

(٢) الوساطة (ص ٢١٤-٤١١) ففيها أحكامٌ واتّهامٌ بالسّرقة لم يسلم به القاضي الجرجاني.

إليه، فهو: «يأخذُ فيه من معينِ نفسِهِ، ولا يَتَلَكَّأُ خَيَالُهُ ليستقيَ مِنْ معـينِ غيرِه»(١).

ومن هذه الصُّوَرِ قولُهُ في بناءِ قلعةِ الحدثِ(٢):

بناها فأعلى والقنا يقـرعُ القنـا ... وموجُ المنايا حولَهـا مـتلاطِمُ
وكان بها مثلُ الجنونِ فأصـبحتْ ... ومنْ جثثِ القتلى عليها تَمـائِمُ
أتوكَ يجـرونَ الحديـدَ كَأَنَّمَـا ... سروا بِجيادٍ مـا لَهـنَّ قـوائمُ
إذا بَرَقُوا لَم تُعْرَفِ البيضُ مِـنْهُمُ ... ثيابُهُمْ مـن مثلـها والعمـائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زحفُهُ ... وفي أذنِ الجـوزاءِ منـه زَمَـازِمُ

وقال الشُّرَّاحُ: «لم يسمعْ في وصفِ جيشٍ مثل هذا...»(٣).

وقفتَ وما في الموتِ شَـكٌّ لِواقـف ... كأَنَّكَ في جَفْنِ الرّدى وهو نائِمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطـالُ كلمَـى هزيمـةً ... ووجهُكَ وضاحٌ وثغرُكَ بَاسِـمُ
تدوس بك الخيل الوكورَ على الذّرى ... وقد كثرتْ حولَ الوكورِ المطاعمُ
تَظُنُّ فـراخُ الفُـتْخِ أنّـك زرتَهَـا ... بأمّاتِهَا وهي العتـاقُ الصّـلادِمُ
إذا زلقَـتْ مشّـيْتَها ببطونِهـا ... كما تَتَمَشَّى في الصَّعيدِ الأراقِـمُ

فهذا كُلُّهُ من قصيدةٍ واحدةٍ.

وقولُهُ:

(١) الخيال الشّعريّ عند أبِي الطَّيِّب المُتَنَبِّي (٢١١).

(٢) ديوانه (٤/٩٦-١٠٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه حاشية (١) ص(٤/١٠٠).

وربَّ جوابٍ عن كتابٍ بعثتَه　　　وعنوانُـــهُ للنّــاظرينَ قَتَــامُ
تضيقُ به البيداءُ من قبل نشــرِه　　　وما فَضَّ بالبيداءِ عنــه خِتَــامُ
حروف هجاءِ النّاسِ فيه ثلاثةٌ　　　جوادٌ، ورمحٌ ذابلٌ، وحســامُ

ومن الأفكارِ الجديدةِ في شِعْرِهِ الحربِيِّ اســتعمالُهُ معــانِيَ الغــزلِ والنَّسيبِ في أوصافِ الحربِ والجِدِّ، وهو: «مِمّا لم يُسْبَقْ إليه وتَفَرَّدَ بــه، وأظهرَ فيه الحذقَ بِحسنِ النَّقلِ، وأعربَ عن جودةِ التّصــرُّفِ والتَّلَعُّــبِ بالكلامِ»(١).

كقولِه(٢):

أعلى الممالكِ ما ينبنِي على الأسلِ　　　والطَّعْنُ عند مُحِبِّيهنَّ كالقُبَــلِ

«فقد عَهِدْنا حديثَ القُبَلِ في مواقفِ الغرامِ بينَ العاشِقَينَ، فإذا شُبِّهَ بِهَا يالطَّعْنُ في الحربِ الذي قد يُصيبُ المحَارِبَ، فليس لِذَلِكَ من وجهٍ إلاّ التَّلَذُّذُ بِهَا في سبيلِ الوصولِ إلى عِزَّةِ الملكِ وهيبةِ السّلطانِ»(٣).

وقولِه(٤):

وقد عَلِمَ الرُّومُ الشّــقيُّونَ أنّنَــا　　　إذا ما تركنا أَرْضَهُمْ خلفَنا عُــدْنَا
وأنا إذا ما الموتُ صَرَّحَ في الوَغَى　　　لَبِسنَا إلى حاجاتِنَا الضّربَ والطَّعْنَا
قَصَدْنَا لَهُ قَصْدَ الحبيــبِ لقــاؤه　　　إلينا، وقلنــا للسُّــيُوفِ هَلُمَّنَّــا

---

(١) يتيمة الدّهر (١/١٩٣).

(٢) ديوانه (٣/١٦٣)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٣) الخيال الشِّعرِيّ عند أبِي الطَّيِّبِ، د/ طه أبو كريشه (٦٢-٦٣).

(٤) ديوانه (٤/٣٠٠)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

فقد شَبَّهَ حِرْصَهُمْ على الموتِ وحُبَّهَمُ للقتالِ بِمَنْ يَحرِصُ على لقاء حبيبِهِ لشِدَّةِ مَحَبَّتِهِ لَهُ، وفيه ما فيهِ من نَفْيِ مَظِنَّةِ التَّهَيُّبِ أو الخوفِ من لقاءِ الأعداءِ.

وقولِهِ عن خيلِ ممدوحِهِ[1]:

ملاقيـــةً نواصِـــيها المنايـــا معـــوَّدَةً فوارسَـــهَا العِنَاقَـــا

«فَكَلْمَةُ (العِنَاقُ) لا تُستعملُ إلاّ في مواقفِ الشَّوقِ، وفي التَّعْبيرِ عن فرحِ اللّقَاءِ، فإذا كان هذا في الحربِ والقتالِ؛ فَإِنَّهُ يوحي بِسعادةِ المقاتِلِ، وهو يُصارِعُ الأبطالَ، وبأَنَّهُ مدفوعٌ إلى ذلكَ بدافعِ الهوى الذي يملأ قلبَهُ، وفي هذا كُلِّه إشارةٌ ورمزٌ إلى القلبِ الجسورِ الـذي تَعَـوَّدَ أن يلقى مصارعيه دونَ فاصلٍ بينه وبينَهُمْ»[2].

ومثلُ هذهِ الأبياتِ كثيرٌ في شِعْرِه، ممّا لَفَتَتْ أنظارَ الباحثِينَ؛ فلقدْ قال د/ محمّد شعيب: «والذي نراه أنّ المُتَنَبِّي وقدِ أَدْرَكَ مـا أَدْرَكَ مـن الحروبِ مع سيفِ الدّولةِ، وخاضَ ما خاضَ من المعارِكِ، وشِـعْرَ بلـذةِ النَّصرِ، وما تستشعرُهُ النَّفسُ من فرحٍ وغبطةٍ وسرورٍ بالانتصـارِ علـى الأعداءِ، ونشرِ السّلطانِ عليهِمْ وعلى بلادِهِمْ...، من أجلِ ذلك هامَ بِهَا المُتَنَبِّي وتغنَّى بِذِكْرِهَا كَمَا لو كانـتْ شـيئاً حبيبـاً إلى نَفْسِـهِ أثـيراً

(١) ديوانه (٣/٤٥)، من قصيدة يمدح بها سيفَ الدّولةِ.

(٢) الخَيَالُ الشِّعْرِيّ عند أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي، د/ طه أبو كريشه (٦٢).

لدى فؤاده»[1].

ومن الجديدِ لَهُ في هذا المجالِ: حسنُ تصرُّفِه في مديحِ سيفِ الدّولةِ بِجنسِ السَّيفيّةِ[2]؛ فإنّه: «اتَّخَذَ من اسمِهِ أَوْسِمَةً وقلائدَ حَلَّى بِهَا صــدرَ ذلكَ الأميرِ، بِصورةٍ لَم يُسْبَقْ إِلَيها شَاعِرٌ»[3].

ومن ذلك قولُهُ[4]:

لولاَ سَــمِيٌّ سُــيُوفِهِ ومضــاؤه لَمَّا سُــلِلْنَ لَكِــنَّ كالأَجْفَــانِ

وقولُهُ[5]:

كلّ السّيوف إذا طال الضّرابُ بها يَمَسُّهَا غيرَ سيفٍ الدّولةِ السّأمُ

وقولُهُ[6]:

تُهَابُ سيوفُ الهندِ وهــي حدائــدٌ فكيفَ إذا كانــتْ نَزاريــةً عُربَــا

وقولُهُ[7]:

---

(١) المُتَنَبِّي بين ناقديه في القديم والحديث، د/ محمّد عبد الرّحمن شــعيب (١٠٠-١٠١).

(٢) يتيمة الدّهر (١/١٨٥).

(٣) المُتَنَبِّي بين ناقدين، د/ شعيب (١١٥).

(٤) ديوانه (٤/٣٠٨).

(٥) ديوانه (٤/١٣٠).

(٦) ديوانه (١/١٨٦).

(٧) ديوانه (٤/٥٩-٦١).

لقد سَلَّ سيفُ الدّولةِ المجدَ مَعْلماً ... فلا المجدُ مخفيه ولا الضّربُ ثالمُهُ
على عاتِقِ المَلْكِ الأغــرِّ نَجـادُهُ ... وفي يدِ جبارِ السّموات قائمُـهُ
وإنّ الذي سُمِّيَ (عليّاً) لَمُنصِفٌ ... وإنّ الذي سَمّاهُ (سُيْفاً) لَظَالِمُهْ
وما كلُّ سيفٍ يقطع الهامَ وحده ... وتقطعُ لرزباتِ الزّمانِ مَكَارِمُهْ

وغيرها من الأبياتِ التي «يَشْهَدُ لَها المقامُ والمناسبةُ التي قيلتْ فِيهَا أَنَّهَا جيِّدةٌ مُبْتَكِرَةٌ، وأَنَّهَا حَمَتْ نَفسَهَا -أيضاً- مِنَ الأغـارةِ عليهـا لِمُلابَسَتِهَا للمقامِ ملابَسةً يستحيلُ انْتِزَاعُهَا منه»[١].

وممّا جاء له من التّقليدِ مِمَّا عَدَّهُ بَعضُ العلماءِ سرقاتٍ من شِـعْرِهِ الحربيِّ قَوْلُهُ[٢]:

وكلُّ فتًى للحرب فوقَ جبينِـهِ ... من الضّربِ سطرٌ بالأسنةِ مُعْجَمِ

فإنَّهُ من قولِ أبِي تَمام[٣]:

كَتَبْتَ أوجَهَهمْ مَشْقاً ونَمْنَمَةً ... طَعْناً وضَرْباً يَفُلُّ الهامَ والصَّلَفا

وليس فيه إلاّ أنَّهُمَا جُعلا كتابةً في الوجه، وأبو الطَّيِّبِ قد زادَ فيـه بأنْ جَعَلَهَا سطورَ كتابةٍ معجمةٍ؛ حيثُ جَعَلَ ضربَ السّيفِ طولاً سطراً، وطَعْنَ الرُّمحِ إعجاماً.

وقولُهُ[٤]:

(١) المُتَنَبِّي بين ناقديه، د/ شعيب (١١٥).

(٢) ديوانه (٤/٧٥)، من قصيدةٍ يمدح بها سيفَ الدّولة.

(٣) الوساطة (٢٢٤).

(٤) ديوانه (٤/٤٣٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِهَا كافوراً.

وأسمرَ ذي عشرين ترضـــاه وارداً ويرضاك في إيراده الخيـــلَ ســـاقيا

فإنَّهُ من قولِ عبدِ الله بنِ طاهرِ[1]:

أخو ثِقَةٍ أَرْضَاهُ في الرّوعِ صاحباً وفوقَ رضاه أَنّنـــى أنـــا صـــاحبُهْ

وقولُهُ[2]:

تُحْمَى السُّيوفَ على أعدائِهِ معه كَـــأَنَّهن بنـــوه أو عشـــائِرُهُ

فإنَّهُ من قولِ أبِي تَمامٍ[3]:

كَأَنَّهَا وهي في الأوداجِ والغَـــةٌ وفي الكلى تَجدُ الغيظَ الذي يَجِدُ

وهو من قولِ النَّمْرِي[4]:

ومصـــلتاتٍ كَـــأَنَّ حِقْـــداً بِهَـــا علـــى الهـــامِ والرِّقَـــابِ

وبيتِ أبِي الطَّيِّب فيه استعارةٌ زادَتْهُ لُطفاً، وتشـــبيهٌ زادَهُ جمـــالاً: ((تُحْمَى))، ((كَأَنَّهُنَّ بنوه أو عشائره)).

وقولُهُ[5]:

يرى في النّومِ رَمحَكَ في كُـــلاَهُ ويَخْشـــى أن يـــراهُ في السُّـــهَادِ

---

(١) الوساطة (٢٢٧)، وديوان المُتَنَبِّي (٤/٤٣٠)، حاشية (٢).

(٢) ديوانه (٢/٢٢٤)، من قصيدة يَمدح بِها جعفر بن كَيْغلغ.

(٣) الوساطة (٢٤٨)، وديوان المُتَنَبِّي (٢/٢٢٤)، حاشية (١).

(٤) نفس المرجعين و الصفحتين.

ويرى المحقّق أنّ هذا البيتَ للبُحْتُرِيّ، وليس للنّمريّ، وأظُنُّهُ تصحيفاً.

(٥) ديوانه (٢/٨٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها عليّ بن إبراهيم التّنوخِي.

فإنَّهُ من قولِ أشجعِ السّلَمِي(١):

وعلى عدوِّكَ يابنَ عَمِّ محمّــدٍ رصدانِ ضوءُ الصّبحِ والإظلامُ
فإذا تنبَــهَ رُعْتَــهُ، وإذا غَفَــا سَلَّتْ عليه سُيُوفَكَ الأحــلامُ

«فقصر المُتَنَبِّي في ذكر (السُّهَاد)؛ لأنَّهُ أرادَ أن يقابلَ بِهَــا النَّــومَ، وبذلكَ يَتِمُّ المعنَى، وليسَ كُلُّ يَقَظَةٍ سَهَاداً، إنَّمَا السّهادُ امتناعُ الكرى في اللَّيلِ، ولا يُسَمَّى المتصرِّفُ في حاجَتِــهِ بالنَّهــارِ ســاهداً، وإن كــانَ مستيقظاً»(٢).

وقولُهُ(٣):

وضاقت الأرضُ حتّى كان هارِبُهُمْ إذا رأى غيرَ شيءٍ ظَنَّه رَجُــلا

فإنَّهُ من قولِ جريرٍ(٤):

ما زالَ يَحسِبُ كُلَّ شيءٍ بعدَهُمْ خيلاً تَكِــرُّ علــيهِمُ ورجــالا

فبَالَغَ وقَصَّرَ عن بيتِ جريرٍ.

---

(١) الوساطة (٢٥٣)، وديوان المُتَنَبِّي (٨٤/٢)، حاشية (٢).

(٢) الوساطة (٢٥٣).

(٣) ديوانه (٢٨٧/٣)، من قصيدةٍ يمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

الكلابِي وهو أيضاً مــن قولِــهِ تعــالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡ﴾، المنافِقون آية: (٤).

(٤) الوساطة (٢٦٣)، وديوان المُتَنَبِّي (٢٨٨/٣)، تَتِمَّةُ حاشية (٥).

وقولُهُ[١]:

أعدّوا رماحاً من خضوعٍ فطاعنوا بها الجيش حتّى رَدَّ غرب الفَيالقِ

فإِنَّهُ من قولِ أبي تَمام[٢]:

فَحَاطَ لَهُا الإقرارُ بالذّنبِ روحَهُ وجُثْمَانَهُ إذْ لَم تَحُطْــهُ قنابلُــهْ

لَكِنَّ أبا الطَّيِّب قد فَاقَهُ في الخيالِ؛ إذ جَعَلَ من الخضوعِ رماحاً.

وهناك أبياتٌ أُخَرُ ليسَ المقامُ مقامَ استقصاءٍ لَهَا؛ إنَّمَا المرادُ من ذلك التّدليلُ على أنَّهُ قد يُقَلّدُ في بعضِ معانِيهِ، وقد يَحصلُ تفاوُتٌ أثناءَ هــذا التّقليدِ.

هـ ـ الأفكارُ بينَ المبالغَةِ والاقتصارِ:

المبالَغَةُ والإفراطُ «مذهبٌ عامٌّ في المحــدثينَ، وموجــودٌ كــثيراً في الأوائلِ، والنّاسُ فيه مختلفونَ، فمستحسنٌ قابلٌ، ومستقبِحٌ رَادٌّ»[٣].

فَمَنْ قائلٍ: «خيرُ الشِّعرِ أكذَبُهُ»[٤]، أي: المبالَغُ فيه.

ومن قائلٍ: «أحسنُ الشِّعْرِ ما قَارَبَ فيه القائلُ إذَا شَبَّهَ، وأحســنُ منه ما أصابَ الحقيقةَ فيه»[٥].

---

(١) ديوانه (٣/٧٢)، من قصيدة يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٢) الوساطة (٢٨٦)، وديوان الْمُتَنبِّي (٣/٧٢)، حاشية (٢).

(٣) الوساطة (٤٢٠).

(٤) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (٢٣٦).

(٥) العمدة (٢٨٧)، والقول للمبرّد.

ويرى النُّقَّادُ أنَّ المبالَغَةَ سِمَةٌ من سِماتِ القرنِ الثّاني، اهْـتَمَّ بهَـا شُعَرَاؤه: «وظَلَّ هذا الاهتمامُ يَنْمو شيئاً فشيئاً حتّى قَدِمَ القـرنُ الرّابـعُ فغدتِ المبالَغَةُ في اختيارِ المعاني ظاهرةً أدَبيَّةً عامّةً، وسِمَةً مضمونيَّةً بارزَةً، في أغلبِ ما أُثِرَ عن شُعَرَائِه، في موضوعاتِهِمِ الشِّعْرِيَّةِ الجادّة»(١).

وأبو الطَّيِّبِ من جملةِ شُعَرَاءِ هذا القرنِ، مُتَأَثِّرٌ بِمَا حولَـهُ، ولَكِـنْ كَعَادتِه في حيازَةِ قصبِ السَّبقِ؛ فقد قال عنهُ ابنُ رشيقٍ: «... فإذا صرتَ إلى أبي الطَّيِّب صرتَ إلى أكثرِ النّاسِ غُلُوّاً، وأبْعَدِهِمْ فيه هِمَّةً، حتّى لـو قَدرَ ما أخلى منه بيتاً»(٢).

وقد لَحظَ ذلكَ الثّعالَبيُّ فَعَدَّهَا مِنْ معائبِ شِعْرِه(٣).

وقدْ عَدَّهَا د/ طه حسينٍ من مقوِّمَاتِ فَنِّه فقال: «ومَجالُ الشِّـعْرِ عند المُتَنَبِّي... راجعٌ إلى هاتينِ الخَصْلَتَينِ الفَنِّيَّين: المطابقةِ مـن ناحيـةٍ، والمبالَغَةِ من ناحيةٍ أخرى...»(٤).

وَكُلُّ ما مضى من قولِ ابن رشيقٍ والثَّعَالَبِي ود/ طه حسينٍ عامٌّ في شِعْرِهِ كُلِّه، والواقعُ أنّنَا لو تَتَبَّعْنَا شعْرَهُ لرأينا هذه الظّاهِرَةَ تظهرُ كثيراً في شِعْرِ فترةِ ما قبلَ سيفِ الدّولةِ وما بعدَهُ، وذلك؛ لأنَّهُ مَدَحَ سيفَ الدّولةِ

(١) اتّجاهات الشِّعرِ العربي في القرنِ الرّابع الهجري من خلالِ كتاب: اليتيمة، د/ نبيل خليل أبو حاتم، دار الثّقافة، الدّوحة، ط الأولى، ١٤٠٥هـ، (١١٩).

(٢) العمدة (٢٨٩).

(٣) يتيمة الدّهر (١/١٦٤).

(٤) مع المُتَنَبِّي (٥١).

مَدْحاً صادقاً من قَلْبِه، فوجَدَ للقولِ فيه مَجالاً، فَمَدَحَه مَدحاً مُدَعَّماً بالحقائقِ؛ حيثُ الحروبُ التي خَاضَهَا مع الأعداءِ، والسّمَاتُ البارِزَةُ في شَخصيَّةِ ممدوحِه، وهذا لا يعنِي خُلُوَّ هذه الفترةِ من المبالغاتِ مطلقاً، ولَكِنَّهَا مبالغاتٌ -في الغالبِ- سائغَةٌ مقبولَةٌ ليسَ فيها إحالةٌ أو إغراقٌ.

هذا، ومبالغاتُ أبي الطَّيِّب في شِعْرِه الحربيِّ -في أكثرِهَا- مقبولةٌ، وشِعْرُ الحربِ تَزيدُهُ المبالغاتُ التي لم تصلْ إلى حَدِّ الإغراقِ والإحالةِ تصويراً وتأثيراً، ومن ذلك قولُهُ[1]:

عجاجاً تعثرُ العِقْبَانُ فيه كأنّ الجَوَّ وَعْثٌ أو خَبَارُ

فَجَعَلَ العقبانَ تعثرُ فيه لِكَثْرَتِه، واستخدمَ (كَأَنَّ) التي تُخَفِّفُ من المبالغةِ وشَبَّهَهُ بالأرضِ الوَعْثَةِ اللَّيِّنةِ أو الخَبَارُ التي قد وقعَ عليها المطرُ فصارتْ طيناً لازماً.

ثم أعادَ فقالَ في موضعٍ آخر[2]:

عقدت سنابِكُها عليها عِثْيراً لو تبتغي عَنَقاً عليه لأمكَنَا

(وهذا أكثرُ مُغالاةً من الأوّل[3]، ولَكِنَّهُ مقبولٌ؛ لأنّهُ شَرَطَ بـ: (لو) ولِمَا فيه من تصويرِ كثرةِ الغبارِ المرتفعِ من جرّاءِ إغارةِ الخيلِ وكثافَتِه.

---

(١) ديوانه (٢/٢٠٦)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولة.

(٢) ديوانه (٤/٣٣٦)، من قصيدةٍ يَمدح بِها بدر بن عمّار.

(٣) المثل السّائر (٣/٢٢٤).

وقولُهُ(١):

نثرتَهُمُ فوقَ الأُحَيْدِبِ كُلِّهِ كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدّراهمُ

فهذا مقبولٌ لإمكانِ وقوعِ ذلك، ولِمَا فيه من تصويرٍ بديعٍ.

وقولُهُ(٢):

فقد مَلَّ ضوءُ الصّبحِ مِمّا تغيرُهُ ومَلَّ سوادُ اللّيلِ مِمّا تزاحِمُهْ

ومَلَّ القنا مِمّا تَدُقُّ صدورُهُ وملَّ حديدُ الهندِ مِمّا تلاطِمُهْ

وهذا -أيضاً- مقبولٌ؛ لِموقِعِ الاستعارةِ مِنْهُ، ولِمَا فيه من عمقِ الخيالِ.

وقولُهُ(٣):

وجيشٍ يُثَنِّي كلّ طودٍ كأنَّهُ خريقُ رياحٍ واجهت غُصُناً رَطْباً

أي: ولَهُ جيشٌ ينفي الأذى عنه، إذا جاور جبلاً من كثرتهُ صارَ جبلين، وهذا -أيضاً- لكثرةِ الجيشِ، ولِمَا فيه من عُدَدٍ وأعلامٍ مرتفعةٍ تبدو من بعيدٍ، وكَأَنَّهَا جبالٌ لكثرتِهَا وارتفاعِهَا، وقد أعادَ هذا المعنَى فقالَ(٤):

تغيبُ الشّواهِقُ في جيشِهِ وتبدو وصغاراً إذا لم تَغِبْ

(١) ديوانه (١٠٤/٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٥٥/٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (١٩٤/١)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٤) ديوانه (٢٣٠/١)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

هذا، والمبالغاتُ التِي أحال فيها رُدَّتْ عليه إمّا لِعدمِ إمكانِ وقُوعِهَا أصلاً، أو لِمُخَالَفَتِهَا الشّريعةِ، ولِمَا فيهَا من تَنَقُّصٍ للــدِّينِ، فَمِــنَ الأوّلِ قولُهُ(١):

كَأَنَّهَــا تتلقَّــاهُمُ لِتَســلُكَهُمْ فالطَّعْنُ يفتحُ في الأجوافِ ما تَسَعْ

فقد جَعَلَ مِن طعنِ الفرسانِ أعداءَ ممدوحِه مَا يُمكِنُ الخيــلَ مِــن المرورِ داخلَ تَلكَ الطّعنات، «وعلى هذا ورَدَ قولُ قيسٍ بن الخَطِيمِ:

مَلَكْتُ بِهَا كفي فأنْهَرْتُ فَتْقَهَا يرى قائمٌ مِنْ دونِهَا مَنْ وراءَهَــا

لَكِنَّ أبا الطَّيِّب أكثر غُلُوّاً في هذا المعنَى، وقيسُ بن الخطيمِ أحسنَ؛ لأَنَّهُ قريبٌ من الممكنِ؛ فإنَّ الطّعنةَ تنفذُ حتّى يتبيّنَ فيها الضَّوءُ، وأمّــا أن يَجْعَلَ المطعونَ مسلكاً يُسْلَكُ كَما قال أبوالطَّيِّب؛فإنَّ ذلك مستحيلٌ»(٢).

وقولُهُ(٣):

فَبعدَهُ وإلى ذا اليومِ لو رَكَضَتْ بالخيلِ في لَهواتِ الطِّفْلِ ما سَعلا

فقد أحالَ بِتَصْغِيرِهِمْ، هُمْ وخيلِهِمْ وجَعَلَهُم أَقَلَّ مِنَ الذَّرِ؛ حتّى لو ساروا في حُنْجُرةِ طفلٍ ما شَعرَ بِهِمْ فسعَلَ، وقلتْ أقلَّ ولو قاربت لقلتُ مثل الهباء، فهو الذي لو وقع في حلقِ صبيٍّ ما شعرَ بِهِ، أمّا الذُّرُّ فيشعر به الكبيرُ والصّغيرُ.

(١) ديوانه (٢/٣٣٦)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٢) المثل السّائر (٣/٢٢٥).

(٣) ديوانه(٣/٢٨٧-٢٨٨)،من قصيدةٍ يَمدح بِها سيعد بن عبدالله الكلابِي.

ومن الثّاني: قولُهُ عن نَفْسِه(١):

فهو أمْضَى في الرَّوعِ من ملكِ الموتِ   وأسرى في ظلمةِ من خيالِ

فَفَضَّلَ نَفْسَهُ على مَلَكِ الموتِ، معاذَ الله من ذلكَ.

وقولُهُ(٢):

ويستكبرونَ الدَّهرَ والدَّهْرُ دونَهُ   ويستكبرونَ الموتَ والموتُ خادِمُهْ

يقول: «هم يعدون الدّهرَ كبيرَ الأثرِ عظيمَ الشَّأْنِ، لِمَا يفعله من إسعادِ قومٍ وإشقاءِ آخرينَ، والدَّهْرُ دونَهُ؛ لأنَّهُ طوعٌ له، لا يفعلُ من ذلك إلاّ ما كانَ على هواهُ، ويعظِّمُونَ الموتَ؛ لأنَّهُ أعظمُ حادثٍ والموتُ خادِمُهُ؛ لأنَّهُ يُنَفِّذُ أوامِرَهُ في أعدائِه» (٣).

وقولُهُ(٤):

وتَملكُ أنفسَ الثّقلينِ طرّاً   فكيفَ تحوزُ أنْفُسَها كلابُ

وكُلَّ ما سبقَ من أبياتِ هذا القسمِ الثّاني ناتِجٌ عن رِقَّةٍ في الدِّينِ وإبعادٍ في الادِّعاءِ، وقد يؤدِّي إلى كفرِه.

وبِهذا نأتِي إلى خِتامِ الحديثِ عن خصائصِ شِعْرِ الحربِ عندَ المُتَنَبِّي.

---

(١) ديوانه (٣/٣١٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِها عبد الرّحمن بن المباركِ الأنطاكِيّ.

(٢) ديوانه (٤/٦٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٤/٦٠)، حاشية (٣).

(٤) ديوانه (١/٢٠٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

الفصل الثَّالث:

الموازَنَةُ بينَ الخَصَائِصِ الفَنِّيَّةِ لِشعْرِ الحَرْبِ عند الشَّاعِرَينِ

المبحث الأول:

خصائصِ الشَّكلِ:

أولاً–في الألفاظ والتّراكيب.

ثانياً–في الصّورة البيانية.

ثالثاً–في القيم الصّوتية.

رابعاً–في البناء الفنِّي لقصيدة الحرب.

المبحث الثاني:

خصائصِ المضمونِ:

أولاً–في التّجربة الشّعرِيّة.

ثانياً–في العاطفة.

ثالثاً–في الأفكار.

الموازَنَةُ بينَ الخَصَائصِ الفَنِّيَّةِ لِشعْرِ الحَرْبِ عند الشَّاعِرَين

المبحث الأول:
خصائص الشَّكل

أولاً–الألفاظ و التّراكيب:

أ–الألفاظُ:

كان الشَّاعِرَانِ حريصَينِ على اختيارِ ألفاظِهِمَا، ملائمةً للغــرضِ، جامعةً بين الجزالةِ والفصاحةِ، محتويةً لأشهرِ مفرداتِ الشِّعْرِ الحربيِّ، بيــد أنّ المُتَنَبِّي أجزَلَ ألفاظاً من البُحْتُرِيّ.

ولَعلَّنا نعذرُ البُحْتُرِيَّ في هذا؛ فَإنَّ شِعْرَهُ مَرَّ بِطورَينِ:

الطّورُ الشَّامِيُّ: وكان يحتفي به في شِعْرِهِ كثيراً، فيختارُ لَهُ أجــزلَ الكلماتِ، ويكثرُ فيه من البديعِ، لاحتذائِهِ أبا تَمامٍ، ولِمدحه قادةً عَرَبــاً خُلَّصاً.

الطّور العراقِي: وفيه اتَّصَلَ بالخلفاءِ فَرَقَّقَ ألفــاظَ شِــعْرِهِ مراعــاةً لطَبيعتِهِم، واتّاعاً لِتَوجيهَاتِ الفتحِ له بذلك[1].

أمَّا المُتَنَبِّيُ فأكثرُ شِعْرِهِ في بَدرِ بن عمَّارٍ وأبي العشائر وســيفِ الدّولــةِ،

(١) ص: (٦٠، ٦٢) من الرّسالة.

وهم قادةٌ أدباء، احتفى بِشعْرِهِ من أجلِهِمْ(١).

-ولا يعنِي هذا أنَّ عدمَ وجودِ ألفاظِ جزلةٍ في شِعْرِ البُحْتُريّ الحربِيِّ؛ فإنَّ فيه الكثيرَ، لَكنَّهُ ليس بِمثلِ الكثرةِ التِي نَجدُهَا في شِعْرِ المُتَنبِّي، ومن أمثلَةِ ذلك لدى البُحتُرِيِّ قولُهُ(٢):

معاقِلُهُمْ سمرُ القنا وكنوزُهُم شريجانِ أسيافٌ وقمصُ حديدِ
إذا غمراتُ الموتِ أدجتْ تَكَشَّفَتْ بِهِمْ عن أسودِ زوحفتْ بأسودِ
هُمُ أخمدوا نارَ العدوِّ وأوقدوا من الحربِ ناراً غيرَ ذاتِ خُمُودِ
بشهباءَ من ماءِ الحديدِ كأنَّها جبالُ شَرَوْرَى أضرمتْ لوقودِ
تُرِيْكَ إذا ما الحربُ غامتْ سماؤها نجومَ صِعَادٍ في سَمَاءِ صَعِيْدِ
فلم يبقَ من أعدائِهِمْ غيرَ موغلٍ به الخوفُ أو نائي المحلِّ شريدِ
يُمزِّقُهُم وقعُ الصَّفيحِ فموثقٌ أسيرٌ ومسلوبُ الحشاشةِ مُودِ

فَإِنَّهُ قد استخدمَ كلماتٍ جزلةً، قَوِيَّةَ الجرسِ؛ (مَعَاقِلُهُمْ، القنا، كُنُوزُهُمْ، شيجانِ، قمصُ، غمراتٌ، أدجتْ، تكشفتْ، زوحفتْ، أخمدوا).

ومن قولِ المُتَنبِّي(٣):

فلله وقتٌ ذوبَ الغِشَّ نارُه فلم يبقَ إلاّ صارِمٌ أو ضُبَارِمُ
تقطَّعُ ما لا يقطَعُ الدّرعَ والقَنَا وفرَّ من الأبطالِ من لا يُصَادِمُ

(١) ص: (١٣٥-١٣٩) من الرسالة.

(٢) ديوانه (٧٧٩/٢)، من قصيدةٍ يَمدح بِها بنِي الفصيص.

(٣) ديوانه (١٠١/٤-١٠٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

وقفتَ وما في الموتِ شَكٌّ لِواقفٍ ... كأنّكَ في جَفْنِ الرّدى وهو نائمُ
تَمُرُّ بكَ الأبطالُ كلمَى هزيمةً ... ووجهُكَ وضاحٌ وثغرُكَ بَاسمُ
تجاوزتَ مقدارَ الشّجاعةِ والنّهى ... إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عالِمُ
ضممت جناحيهِ على القلبِ ضَمَّةً ... تَموتُ الخوافي تحتها والقوادِمِ
بضربٍ أتَى الهاماتِ والنّصرُ غائبٌ ... وصارَ إلى اللّباتِ والنّصرُ قادمُ

فَإِنَّهُ استخدمَ كلماتٍ جزلةً، قَوِيَّةَ الجرسِ: (صارمٌ، ضبارمٌ، تقطع، يقطع، فرَّ، يصادِمُ، كلمَى، هزيمةً...).

وزاد المُتَنَبِّي على البُحْتُرِيّ في الإكثارِ من الحروفِ المُفَخَّمَةِ؛ الطّاءِ والظّاءِ، والصّادِ، والضّاد.

هذا، ويُحمَدُ للبُحْتُرِيّ خُلُوُّ شِعْرِهِ من غريبِ اللّغةِ ووحشيِّهَا –في الأعمِّ– بَينما نَجدُ المُتَنَبِّيَ يتعمّدُ ذكرَ بعضِ الغريبِ الوحشيِّ، وإن كان في شِعْرِهِ الحربيِّ قليلاً، إلاّ أنَّهُ من معائبِ شِعْرِهِ.

ب–التّراكيبُ:

جُمَلُ تراكيب الشّاعِرينِ حسنةُ السّبكِ جيِّدَةُ التّأليفِ منتقاةٌ الجزالةُ غالبةٌ على أفرِدهَا، بيدَ أنّهَا لَدى البُحْتُرِيِّ تختفِي وراءَ حسنِ النَّغمِ، الذي يحرص عليه.

وللتَّراكيبِ عَندَهُمَا دلالةٌ ظاهرةٌ، ولذا فهما ينتقيانِهَا بحيثُ لو وضعَ غيرُهَا مكانَهَا لم يفِ بالمعنَى المرادِ.

كما تتراوَحُ جُمَلُ تراكيبِهِمَا بينَ الخَبَرِيِّةِ والإنشائيَّةِ، والخبريَّةُ لَدَيهِمَا أكثرُ؛ لِكون الغرضِ منصباً على الإخبار بأخلاقِ وأفعالِ ممدوحِهِمَا، وما خاضاه من معارِكَ.

وأكثر ما تكونُ الجملُ الإنشائيَّةُ لَدَى البُحْتُرِيِّ في مطالِعِ قصائدِهِ، لِمَا في استخدامِ الأسلوبِ الإنشائيِّ من شَدٍّ لانتباهِ السَّامِعِ.

أمّا المُتَنَبِّي فأكثرُ ما تكونُ جُمَلُهُ الإنشائيَّةُ داخلَ قصائدِهِ.

هذا، ويُحْمَدُ للبُحْتُرِيّ خُلُوَّ تراكيبِهِ من التّقديمِ والتّأخيرِ الذي يؤدِّي إلى تعقيدِ الكلامِ تعقيداً تَضِلُّ فيه المعانِي، وذلك لِكَونِهِ حريصــاً علــى التّناسقِ الدّاخليِّ المؤدِّي إلى جمالِ الإيقاعِ، ولِذا جاءَ أسلوبُهُ سهلاً مُمْتَنِعاً، كُلٌّ يظنُّ أَنَّهُ يؤلِّفُ مثلَهُ وهو لا يستطيعُهُ حقيقةً(١).

ونَجِدُ المُتَنَبِّيَ يكثرُ من التّكرار العذب،عن طريق التنــاظر ، وهــو يُحسِنُ استثمارَ ذلك؛ بِحيثُ يَجعلُ منه أداةً تَبهرُ المتابعَ؛ فيقرأ شِعْرَهُ بِتأنٍّ وتؤدةٍ، مُحاوِلاً ربطَ أوَّلِهِ بآخرِهِ(٢).

ومِمّا عِيبَ عليه –أيضاً– عدمُ إحسانِهِ استخدامَ حــروفِ الجَــرِّ والضَّمائرِ؛ بِحيثُ يؤدِّي استخدامُهُ لَهَا إلى معاظَلَة لَفْظِيَّة.

هذا، وقد اختصَّ المُتَنَبِّيُ بِخصــائصَ تركيبيَّــةٍ، منــها: حســنُ التّقسيم(٣).

---

(١) الرسالة ص : (٥٥٠).

(٢) ص:(٧٢٨-٧٣٠)، من الرّسالة.

(٣) (ص: ٧٣٠-٧٣٤)، من الرّسالة.

وسنعرضُ هنا للموازنَة بينَهُمَا في تراكيبِهِمَا، ومحاسنِ ذلك ومساوِئه؛ فقد قالَ البُحْتُرِيُّ(١):

حَتَّى إذا ما الحيَةُ الذِّكرُ انكفا　　من أرْزَنٍ حَنقاً يَمُجُّ حَرِيقَا
غضبانَ يلقى الشَّمسَ منه بِهَامَةٍ　　تُعْشِي العيونَ تَأَلُّقاً وبَرِيقَا
أو في عليه فظن من دَهَشٍ به　　البرَّ بَحراً والفضاءَ مضيقَا
غدرت أمانيةِ بهِ وتَمزَّقَتْ　　عنه غيابَةُ سُكرِهِ تَمزِيقَا
طلعتْ جيادُكَ من ربا الجوديِّ　　حُمِّلْنَ من دفعِ المنونِ وسُوقَا
يطلبْنَ ثأرَ اللهِ عندَ عصابة　　خلعوا الإمامَ وحالفوا التّوفيقَا
يرمونَ خالقَهُمْ بأقبحِ فعلِهِمْ　　ويحرفونَ كتابَهُ المنسوقَا
فدعا فريقاً من سُيُوفِكَ حَتْفَهُمْ　　وشددتَ في عقدِ الحديد فَرِيقَا
ومضى ابنُ عمروٍ قد أساءَ بِعُمْرِهِ　　ظَنّاً يُنَزِّقُ مَهرَةُ تَنْزِيْقَا
ركبتْ جوانِحُهُ قوادمَ رُوعِهِ　　يَحذفْنَهُ حذفَ المريرِ الفُوقَا
فاجتازَ دجلة خائضاً وكَأَنَّهَا　　قعبٌ على بابِ الكُحَيْلِ أريقَا
لَولاَ اضطرابُ الخوفِ في أحشائه　　رَسَبَ العبابُ به فماتَ غَرِيْقَا
هَيْهَات مارسَ قُلقلاً متيقِّظاً　　قَلقاً إذا سكنَ البليدُ رَشِيْقَا
مُسْتَسْلِفاً جعل الغبوقَ صبوحَهُ　　ومرى (صبوحَ) غدٍ فكان غبوقَا

وقال المُتَنَبِّي(٢):

---

(١) ديوانه (١٤٤٩/٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أبا سعيد، ويذكر قتالَهُ محمداً الشّارِي.

(٢) ديوانه (٦٥/٣-٧٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

أتاهم بها حشو العجاجة والقنا سنابكها تحشو بطونَ الحَمَالقِ
عوابسَ حَلّى يابسُ الماء حُزْمَها فَهُنَّ على أوساطِهَا كالمناطقِ
فليت أبا الهيجا يرى خلف تدمرٍ طوالَ العوالي في طوالِ السَّمالقِ
يفرقُ ما بينَ الكماة وبينها بضربٍ يُسَلِّي حَرُّهُ كلَّ عاشقِ
أتَى الظُّعْنَ حتّى ما تطيرُ رشاشَةٌ من الخيلِ إلاّ في نُحورِ العواتقِ
بكُلِّ فلاةٍ تنكرُ الأنسَ أرضُهَا ظعائنُ حمرُ الحَلْيِ حُمْرِ الأيانقِ
وملمومةٍ سيفيَّةٍ ربيعّةٍ يصيح الحصى فيها صياحُ اللّقالقِ
بعيدةُ أطرافِ القنا من أصولهِ قريبةٌ بين البَيْضِ غبرُ اليلامقِ
تَوَهَّمَها الأعرابُ سَوْرَةَ مترفٍ تُذَكِّرُهُ البيداءُ ظِلَّ السّرادقِ
فَذَكَّرْتَهُمْ بالماءِ ساعةَ غَبَّرَتْ سَماوةُ كلبٍ في أنوفِ الخرانقِ
وكانوا يروعونَ الملوكَ بأن بدوا وأَنْ نَبَتَتْ في الماءِ نبتَ الغلافقِ
فهاجوك أهدى في الفلا مِن نُجومهِ وأبدى بيوتاً من أداحي النَّقَانقِ
وأصبرَ عن أمواههِ مِن ضِبَابهِ وآلفَ منها مقلةً للودائقِ
وكان هديراً من فحولٍ تركتَهَا مهلبةَ الأذنابِ خُرْسَ الشّقائقِ
فَمَا حَرَموا بالركض خيلَكَ راحةً ولكن كفاها البرُّ قطعَ الشَّواهقِ
ولا شغلوا صُمَّ القنا بقلوبِهِمْ عن الرَّكْزِ لَكِنْ عن قلوبِ الدَّماسقِ

فالقَصِيدَتَانِ من بَحْرَين يَصلحانِ لِغرضِ الحماسِ ووصفِ الحربِ، وحرفُ الرّويِّ واحدٌ، وهما في وصفِ حالِ الخَارجِينَ على مَمدوحَيْهِمَا، والبُحْتُرِيُّ اختارَ بَحرَ الكاملِ وقافيةً على وزن (فعيلا)، والمُتَنبِّيُ اختار بَحرَ الطّويلِ وقافيةً على وزن (فاعل)، فقافيةُ البُحْتُرِيِّ أسهلُ، ولِهذا

فقافيةُ المُتَنَبِّي ستكونُ أَجْزَلَ، وسيُكَلِّفُهُ عسرُ القافيةِ كلماتٍ غريبةً، وهذا ما كان فعلاً، فكثيرٌ من قوافيها غريبٌ وَحْشِيٌّ.

وقصيدةُ البُحْتُرِيِّ قليلةُ الحذفِ أو التّقديمِ والتّأخيرِ، وهذا أُسلوبُهُ؛ فإنَّهُ يعتمدُ على كلامٍ متّصلٍ لا يَحتاجُ منهُ إلى تقديمٍ أو تأخيرٍ، بخلافِ المُتَنَبِّي؛ فإنَّ أكثرَ القصيدةِ قائمٌ على التّقديمِ والتّأخيرِ والحذفِ، لَكِنَّ تَقديْمَهُ وتأخيرَهُ و حذفَهُ –هنا– غيرُ مُخلٍّ بنظمِ القصيدةِ.

فَممَّا قَدَّمَ فيه وأَخَّرَ قولُهُ:

(سنابِكُهَا تحشو بطونَ...)، فأصله: (تحشو سنابِكُها بطون..).

وقولُهُ:

(فَهُنَّ على أوساطِهَا كالمناطِقِ)، فأصله: (فَهُنَّ كالمناطِقِ على أوساطِهَا)).

وقولُهُ:

(بكلِّ فلاةٍ تنكرُ الأنسَ أرضَهَا، ظعائن)، فأصله: (ظعائن... بكل فلاةٍ تنكر الأنسَ أرضُهَا).

وقولُهُ:

(نَهَاهَا وأغناها عن النّهبِ جوده)، فأصله: (نَهاها جوده عن النَّهبِ وأغناها...).

فنُلاحِظُ أنَّ كُلَّ تقديمٍ وتأخيرٍ سابقٍ كان الهدفُ منه شَدَّ انتباهَ السّامعِ، وهو مِمّا يجعلُهُ يربطُ بينَ أوَّلِ البيت وآخرِهِ؛ لأَنَّ المعنَى لا يَكتَمِلُ إلاّ باكْتِمَالِ البيت، لَكِنْ هذا يَجعلُ القافيةَ غيرَ معروفةٍ للمستمِعِ قبل

اكتمالِ البيت، بِخلافِ أبياتِ البُحْتُرِيّ؛ فإِنَّ مَن لَدَيهِ بصرٌ بالشِّعرِ، يستطيعُ إِكْمَالَ القافيةِ قبل تَمامِ البيتِ.

ومِمَّا حذفه المُتَنَبِّي في هذه القصيدةِ قولُهُ:

(يُفَرقُ ما بينَ الكماة وبينَهَا...)، أي: يفرق سيفُ الدّولةِ.

وقولُهُ:

(أتى الظَّعنَ...)، أي: أتَى سيفُ الدّولةِ بِجُنْدِهِ الظَّعْنَ.

وقولُهُ:

(نَهَاهَا وأغناها عن النَّهبِ جودُهُ)، أي: نَهَاهَا جُودُهُ عن النَّهَبِ وأغناها عنه.

وقولُهُ:

(تَوَهَّمَها الأعراب...)، أي: تَوَهَمَ الأعرابُ حربَكَ سورةَ مُتْرِفٍ.

وقولُهُ:

وكانوا يروعونَ الملوكَ بأن بدوا وأَنْ نَبَتَتْ في الماءِ نبتَ الغلافِقِ

فأصلُهُ:

وكانوا يروعون الملوكَ بأَنَّهُم بدوا وأنّ الملوكَ نبتت....

وقولُهُ:

(فَهَاجوك أهدى ... وأبدى ...، وأصبر... وآلف»، فأصله:

(فَهَاجُوك فإذا أنت أهدى، وإذا أنت أبدى، وإذا أنت أصبر، وإذا أنت آلف).

وقولُهُ:

(وكان هديراً...)، أي: وكان فعلهم هديراً...

وقولُهُ:

(فلا شغلوا صمَّ القنا... لكن عن قلوبٍ...) فأصله: (لكن شغلوه عن قلوب...).

فنلاحظ سلامَةَ تراكيبِ البُحْتُرِيّ من التّقديمِ والتّأخيرِ والحـذفِ؛ فجاء شِعْرُهُ مستلسلاً سهلاً مُمْتَنعاً، وهذا ما وصفه فيه ابنُ الأثيرِ حـينَ قال: «وشِعْرُهُ هو السّهلُ المُمْتَنِعُ الذي نراهُ كالشَّمسِ قريباً ضوؤها، بعيداً مكانُها، وكالقناة لَيِّناً مسُّهَا، حشناً سِنَانُهَا...»[١].

بينما نَجدُ تراكيبَ المُتَنَبِّي كثيرةَ التّقديمِ والتّأخيرِ والحذفِ، ولَكِـنْ هذا لَم يُؤَثِّرْ على جودةِ شِعْرِهِ، بل زادَهُ جودةً، لِمَا فيـه مـن دلالاتٍ وإيحاءاتٍ، دلَّ عليها كُلُّ أمرٍ من هذهِ الأمورِ، حـينَ أحسـنَ الشّـاعِرُ استخدامَهُ عن وعيٍ ما يقتضيه ترتيبُ الكَلِمِ ونظمِ العباراتِ.

---

(١) المثل السّائر (٣/١٥١).

ثانياً– في الصّورةِ البيانية

لقد أحسنَ الشّاعِرَان في تصويرِ الحربِ، وما يدورُ فيهـا، فرسـمَ خيالَهُمَا أجملَ الصُّورِ لذلك، عن طريقِ التَّشبيهِ والاستعارةِ والكنايـةِ، وعلى الإجمالِ فالمُتَنَبِّي أَدَقُّ تصويراً من البُحْتُرِيّ في رسمِ الصُّورةِ، وأحسنُ غوصاً منه في الخيالِ، ولقد صَدَقَ ابنُ الأثيرِ فيه حينَ قال:

((واختصَّ بالإبداعِ في مواقفِ القتالِ، وأنا أقولُ قولاً لستُ فيـه مُتَأثِّماً، ولا منه مُتَلَثِّماً، وذاكَ أنَّهُ إذا خاضَ في وصفِ معركةٍ كان لِسَانُهُ أمضى من نصالِهَا، وأشجعَ من أبْطَالِهَا، وقامتْ أقوالُهُ للسَّـامعِ مقـامَ أفعالِهَا، حتّى تظنَّ الفريقينِ قد تقابلاَ والسّلاحينِ قد تواصلا))[1].

فنجد للبُحْتُرِيَّ كثيراً من الصُّوَرِ لَكِنَّهَا صورٌ مأخوذةٌ من الوَاقِـعِ، ليس فيها إغراقٌ في الخيالِ كثيراً، فوجهُ الشَّبه لديه ظاهرٌ تماماً.

أمّا المُتَنَبِّي فَصُوَرُهُ مغرقةٌ في الخيالِ كثيراً، بَعيدةُ المأخذِ ليستْ قريبةَ وجهِ الشَّبَهِ، وهو كثيرُ المبالغةِ فيها.

(١) المثل السّائر (٣/٢٧٠-٢٧١)

ويُحمَدُ لبُحْتُرِيٍّ تكرارُهُ الصُّورةَ الواحدةَ، ووصفَها بعدَّةِ أشياءَ في كُلِّ مرَّةٍ يُكَرِّرُهَا كتشبيهِهِ مشْيَ القائدِ وفرسانِهِ في المعركة[1]، وتشبيهِهِ سرعة الخيلِ[2].

ويُحمَدُ للمُتَنَبِّي إحسانُهُ في نَقلِ الصُّورَةِ الواحدةِ إلى معنَيَيْنِ؛ كقوله[3]:

كأنّ الهامَ في الهيجا عيونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُكَ من رقادِ

وقولُهُ[4]:

وقد صغتَ الأسنةَ من همومٍ فما يخطرنَ إلاّ في فؤادِ

فَإِنَّ الصُّورَةَ مؤدَّاهَا واحدٌ، وهو أنّ لدينا شيئينِ لا يَحُلُّ كُلُّ واحدٍ منهما إلاّ في مكانِهِ المناسبِ لَهُ، فالنَّومُ لا يَحُلُّ إلاّ في العيونِ، والهُمُومُ لا تَحُلُّ إلاّ في القلبِ، فَشَبَّهَ السُّيوفَ حينما لا تقعُ إلاّ في الهامِ بالنّوم، لا يقعُ إلاّ في العيونِ، وشَبَّهَ الرِّماحَ حينما لا تقعُ إلاّ في القلوبِ بالهمومِ لا تقعُ إلاّ في الأفئدة.

ولِنُظْهِرَ الفرقَ بينهما في الصُّورةِ المُتَّحِدَةِ نَنظرُ إلى قولِ البُحْتُرِيّ[5]:

أباح حمي الدّيالمِ في حروبٍ سقتْ هِيْمَ القنا حتّى روينا

---

(١) (ص: ٥٥٤) من الرّسالة.

(٢) (ص:٥٥٥) من الرّسالة.

(٣) ديوانه (٢/٨٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِها عليّ بن إبراهيم التّنوخِي.

(٤) ديوانه (٢/٨٠)، بعد سابقه.

(٥) ديوانه (٤/٢٢٠٩)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أذكوتكين.

وقولُ المُتَنَبِّي[١]:

رَيَّانَ لو قذفَ الذي أسـقيتَهُ لجرى من المُهَجَاتِ بحرٌ مزبـدُ

فالبُحْتُرِيُّ جَعَلَ رِماحَ مَمدوحِهِ (هيماً) أي: عطاشاً شديدةَ العطشِ، شَبَّهَهَا بالإبلِ، وحذَفَ المُشَبَّهَ بِهِ، ورمز إليه بِشيءٍ من لَوَازِمِهِ، وهو الهُيَامُ، فَلَمّا سقاها لم ينصرف عَنْهَا حتّى رويت.

أمّا المُتَنَبِّي فقد جَعَلَ سيفَ مَمدوحِهِ ريانَ، وجَعَلَ علامةَ هذا الرِّيِّ أَنَّهُ لو قُذِفض ما شُرِبَ من هذهِ الدّماءِ لَجَرى منه بَحرٌ مزبدٌ، فَفَضَلَ بيتُ المُتَنَبِّي بيتَ البُحْتُرِيّ بِما فيه من المبالغةِ؛ إذ لم يكتفِ بالشّرب والـرِّيِّ، حتّى جَعَلَ ما شربَ بَحراً مزبداً دلالةً على كثرةِ الدِّماءِ التِي تقتضي كثرةَ المقتولِينَ.

وفي مَجالِ تسخيرِ المنايا لِممدوحَيْهِمَا نَجدُ البُحْتُرِيَّ يقول[٢]:

يَغْتَدي جَيْشُهُ فتغـدو المنايـا بـين راياتِـهِ وبـين البنـودِ

ونَجِدُ المُتَنَبِّي يقولُ[٣]:

تغدو المنايا فلا تنفـكُ واقفـةً حتّى يقولَ لَهَا عودي فتنـدفعُ

فقد عَبَّرَ الشَّاعِرَانِ كِلاهُمَا عن مصاحبةِ المنايا لِممدوحَيْهما، إلاّ أَنَّ البُحْتُرِيَّ وقفَ عند هذه المصاحبةِ ولم يجعل هذه المنايا رَهنَ إشارةِ ممدوحِهِ

(١) ديوانه (٢/٦٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِها شجاع الطائيّ.

(٢) (ص:١٩٨) من الرّسالة.

(٣) (ص:٣٢٠) من الرّسالة.

كَمَا جَعَلَهَا المُتَنَبِّي حين قال: (فلا تنفكُ واقفةً حتّى يقولَ لَهَا عودِي فتندفع)، وهذا زيادةٌ في التّسخيرِ والإطاعةِ لَهُ، وتشخيصٌ بديعٌ.

وقد أشار البُحْتُرِيُّ إلى هذه الإطاعةِ في بيتٍ آخر وهو قولُهُ[1]:

الهزبرُ الذي إذا التفتِ الحربُ منه   به صَرَّفَ الرّدى كيف شاء

ولَكِنَّهُ -أيضاً- لا يبلغُ تَشخيصَ المُتَنَبِّي لَهَا؛ لأَنَّ المُتَنَبِّي جَعلَهَا عاقِلَةً يَأمُرُهَا فتطيعُهُ وتسمعُ كلامَهُ.

وفي مجالِ إثباتِ مَهارَةِ مَمدوحَيْهِمْ وفرسانِهِمُ القتاليةِ نَجدُ البُحْتُرِيَّ يقول[2]:

ملوكٌ يعدّون الرّماحَ مخاصِراً   إذا زعزعوها والدُّروعَ غلائلا

ونجدُ المُتَنَبِّيَ يقولُ[3]:

وطعنَ غطاريفٍ كأنّ أكُفَّهُم   عرفْنَ الرّدّينياتِ قبلَ المعاصِمِ

فالبُحْتُرِيّ قالَ إِنَّهُم لِدُرْبَتِهِمْ لا يرونَ الرِّماحَ إلاّ عِصيّاً صغيرةً يلعبونَ بِهَا في أيديهِمْ، وكذلكَ لا يرونَ الدُّروعَ إلاّ ألبسةً خفيفةً توضعُ على الصُّدُورِ، فهي خفيفةٌ عليهِمْ لتعَوُّدِهِمْ لُبْسَهَا، فليسَ في صورَتِهِ خيالٌ أو مبالغةٌ.

---

(١) (ص:١٩٨) من الرّسالة.

(٢) (ص:٢٠٩) من الرّسالة.

(٣) (ص:٣٢٩) من الرّسالة.

أمّا المُتَنَبِّي فقد بَالَغَ وغاضَ في أعماقِ الخيالِ؛ فإنَّهُ لَمَّا رأى مَهارَةَ مَمدوحِهِ في الطّعنِ بالرِّماحِ، تَخَيَّلَ أكُفَّهُمْ قد عرفتِ الرِّماحَ وألِفَتْهَا قبل أن تَخلَقَ على معاصِمِهِمْ، والواقعُ أنَّ هذا إحالةٌ لَكِنَّهُ يرينا منهجَ المُتَنَبِّي في اختراعِ الصُّوَرِ، وأنَّهُ قائمٌ على الخيالِ والمبالغة.

وفي مَجالِ حجمِ الخسائِرِ التِي نَزَلتْ بالأعداءِ نَجدُ البُحتُرِيَّ يصفُ كثرةَ القتلى بقولِه[1]:

كأنّ النُّسورَ الواقعاتِ عشيةً … على نَقَدٍ حولَ الجِمارِ مُذبَّحِ

وقولِه[2]:

كأنّهُم تحت السّيوفِ غرائبٌ … من البدنِ سيقت يومَ عيدِ النّحر

وقولِه[3]:

فقتلتَ جيشَهُمُ وجئتَ بسبيِهِم … وتركتَهُمْ بالغَورِ كالأكداسِ

وقولِه[4]:

وفي أرضِ الدَّيالِمِ هامُ قتلى … نظامُ السّهلِ منها والحُزْونُ

وقولِه[5]:

وقد شرقت جبالُ الطّيبِ منهُمْ … بيومٍ مثلَ يومِ النَّهرانِ

(١) (ص: ٢٧٦)، من الرّسالة.

(٢) (ص:٢٧٣)، من الرّسالة.

(٣) (ص: ٢٧٣)، من الرّسالة.

(٤) (ص: ٢٧٣)، من الرّسالة.

(٥) (ص:٢٧٣)، من الرّسالة.

ونَجدُ المُتَنَبِّيَ يصفُ ذلك بقولِه(١):

نثرتَهُمُ فوقَ الأُحَيْدِبِ كُلِّهِ كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدّراهمُ

وقولِه(٢):

لَمّا تحكمت الأسنّةُ فيهُم جارتْ وهي يَجُرْنَ في الأحكامِ
فتَرَكْتَهُم خَلَلَ البيوتِ كأنّما غَضِبَتْ رؤوسُهُمُ على الأجسامِ
أحجارُ ناسٍ فوقَ أرضٍ من دمٍ ونجومُ بَيْضٍ في سَماءِ قَتَامِ

وقولِه(٣):

حتّى انتهى الفرسُ الجارِي وما وقعتْ في الأرض من جُثَثِ القتلى حوافِرُهُ

وقولِه(٤):

يتعثرنَ بالرّؤوسِ كمان مرَّ بتاءات نطقه التّمتامُ

فَنَجدُ البُحْتُرِيَّ يصوِّرُ صوراً مبتذلةً، وفيها الدّلالةُ على الكثرةِ، لَكِنَّهَا خاليةٌ من الخيالِ أو المبالغةِ إلاّ إذا استثنينا قولَهُ:

(وقد شرقتْ جبالُ الطّيبِ فيْهِمْ ...)؛ فإنَّ فيه نوعاً من الخيالِ في كونِ الجبالِ تَشْرُقُ بِهِمْ، كنايةً عن امتلائِهَا وازدحامِهَا بحيثُ القتلى.

أمّا أبياتُ المُتَنَبِّي فالبيتُ الأوّلُ فيه الدّلالةُ على الكثرةِ بصورةِ فرحةٍ تُسْعِدُ سَامِعَهَا، قد لا تتناسبُ مع شِعْرِ الحربِ، لَكِنْ إن علمنا أنّ ذلك

(١) (ص: ٤٠٣)، من الرّسالة.
(٢) (ص: ٤٠٣)، من الرّسالة.
(٣) (ص: ٤٠٦)، من الرّسالة.
(٤) (ص: ٤٠٧)، من الرّسالة.

هو مِنْهَجُ المُتَنَبِّي في إدخالِ جَوٍّ البهجةِ على قصائدِ الحربِ، لِكَونِه مُحبّاً لَهَا تسعده أحداثُهَا، فلا يَرَاهَا إلاّ شيئاً جميلاً، إذا علمنا ذلك منه قبلناهُ لَهُ.

والمعنَى الثّاني الذي أشار إليه بقولِهِ:

فتركنهم خللَ البيوتِ كأنّمـا غضبت رؤوسهم على الأجسام

أحجارُ ناسٍ، فوقَ أرضٍ من دم ونجوم بَـيْض في سمـاء قتـام

عَلَلَ لَهُ تَعليلاً خيالياً وهو غَضَبُ الرّؤوسِ على الأجسـامِ، وجـاءَ بالبيتِ بَعْدَهُ بأربعِ صورٍ تَشبيهيَّةٍ، لَكِنَّهُ لَم يجيء بالتَّشبيهِ فيها علـى مـا ألفناهُ بِحرفِ التَّشبيهِ، إنَّمَا جاءَ به عن طريقِ الإضافة.

والمعنَى الثّالث الذي يُمَثِّلَهُ البيتان الأخيرانِ فيه دلالةٌ على الكثـرةِ والتفاتٌ إلى معنًى آخر، وهو عدمُ تَمَكُّنِ الخيلِ من الـوطءِ علـى أرضِ المعركةِ مباشرةً؛ لأنَّهَا لا تقعُ إلاّ على جُثَثٍ وأشلاَّءَ، ورؤوسٍ مقطعـةٍ، وزادَ هذه الصّورةَ لَدَيه جَمالاً استطاعَتُهُ استحضارَ نَطقِ التّمتامِ بالتّاءاتِ، إذا توالَتْ ورَبْطِهَا بِهذه الصّورة.

ثالثاً: في القيمِ الصّوتيَّة

١- الوَزْنُ:

نَظَمَ الشَّاعِرَانِ قصائدَهُمَا الحربيَّةَ على البُحورِ التّالية:

الطّويلِ والبسيطِ والوافرِ والكاملِ والمنسرحِ والخفيفِ والرَّمَلِ والمتقاربِ، إلاّ أَنَّ مَجيءَ البُحْتُريّ بِوَزْنِ الكاملِ أكثرُ من مَجيءِ المُتَنَبِّي بِه، كَما جاء المُتَنَبِّي بالوافرِ والمتقاربِ والمنسرحِ أكثرُ من مجيءِ البُحْتُرِيِّ بِهَا، وانفردَ المُتَنَبِّي بِرَجَزِيَّةٍ وصفَ فيها مَهرَهُ وصفاً يُنبِئ عَنْ قُوَّتِهِ ومَهَارَتِهِ، وأَنَّهُ أعَدَّهُ للحرب[1].

وَعَدَدُ القصائدِ الحربِيَّةِ التي نَظَمَهَا البُحْتُرِيّ (٥٥) قصيدةً، والتي نَظَمَهَا المُتَنَبِّي (٦٦) قصيدة[2]، وهذا لَهُ دلالةٌ فَنِّيَّةٌ تعودُ إلى امتزاجِ نَفَسِ المُتَنَبِّي بالحربِ من ناحيةٍ، وبِمَا هيء له من مَمدوحينَ كثيري الحروبِ.

(١) (ص: ٧٠٨) من الرّسالة.

(٢) (ص: ٥٧١، في الحاشية، و ٧١٤)، من الرّسالة.

٢- القافية:

نَظَمَ الشَّاعِرَانِ على القوافِي التّاليةِ:

الباءِ والجيمِ والحاءِ والدّالِ والرّاءِ والسِّينِ والعينِ والقــافِ والــلامِ والميمِ والنّونِ.

وقد نَظَمَ البُحْتُرِيُّ على روِيِي الرّاءِ والنّونِ أكثرُ من المُتَنَبِّــي، أمّــا المُتَنَبِّي فقد نَظَمَ على اللامِ والميمِ والقافِ أكثرُ من البُحْتُرِيّ.

البُحُورُ والقوافِي التِي نَظَمَ عليها الشَّاعِرَان

البُحُورُ			القوافِي					
البحر	عدد القصائد		الرّوي	عدد القصائد		الرّوي	عدد القصائد	
	البُحتريّ	المُتنبّي		البُحتريّ	المُتنبّي		البُحتريّ	المُتنبّي
الطّويل	١٩	٢١	أ	٣	–	ع	١	٢
البسيط	٦	٨	ب	١٠	٩	ف	٢	–
الوافر	٣	١٠	ت	–	١	ق	١	٥
الكامل	١٦	٩	ج	٢	١	ل	٦	١٥
المنسرح	١	٤	ح	١	١	م	٦	١٢
الخفيف	٧	٨	د	٧	١٠	ن	٩	٤
الرّمل	٢	١	ذ	–	١		٥٥	٦٦
الرّجز	–	١	ر	٦	٢			
المتقارب	١	٤	ز	–	١			
	٥٥	٦٦	س	١	–			
			ش	–	١			

وانفردَ البُحتُريُّ بالنَّظمِ على حروفِ رويِّ الهمزِ والفاءِ والسِّين، والمُتَنَبِّي انفردَ بالنّظمِ على حروفِ رويِّ التّاءِ والذّالِ والزّاي والشِّين، وفي هذا دلالةٌ على قدرةِ المُتَنَبِّي على النّظمِ على هذه القوافي الحوشِ، حتّى في الأغراضِ الجادّة.

والعجيبُ منه عدمُ نظمِهِ في شَعْرِهِ الحربيِّ على حروفِ رويِّ الهمزِ والفاءِ والسِّين، مع أنَّهَا فواقٍ سلسلةٌ لا وعورةَ فيها.

وكمثالٍ لِحروفِ الرّويِّ التي لا يَسهلُ قيادُهَا إلاّ على الشّاعِرِ المُفْلِقِ نأخذ بعضٌ من قصيدةِ البُحتُريِّ التي مَطْلَعُهَا[1]:

لَهَا مَنْزِلٌ بينَ الدَّخُولِ فتوضِحُ ... متَى ترَهُ عينُ المُتَيَّمِ تسفَحِ

فمنها:

هنتكَ أميرَ المؤمنينَ بشارةٌ ... من الشَّرْقِ جاءتْ بالبيانِ المصرحِ
تَخبُرُ عن نصرِ الموالي وعزِّهِمْ ... وخذلانِ عبدوسٍ وإفلاحِ مفلحِ
لقد زلْزِلَتْ أرضُ الجبالِ بِوقعةٍ ... أسالتْ دماً في كلِّ نشزٍ وأبطَحِ
كأنَّ النُّسُورَ الواقعاتِ عشيةً ... على نَقْدٍ حولَ الجِمَارِ مُذبَّحِ
ولو وقفَ المغرورُ لالْتَبَسَتْ بهِ ... زنابيرُ سرعانُ الخميسِ المُجَنِّحِ
إذاً لاحْتَسَى كأساً دِهَاقاً من الرَّدَى ... متَى يشربِ الباقِي بها يترنَّحِ
لقد شَرَّدَتْهُ الخيلُ كلَّ مُشَرَّدِ ... وَطَرَحْنَهُ يومَ الوغى كلَّ مَطْرَحِ

(١) ديوانه (٤٥١/١)، من قصيدةٍ يَمدح بِها المعتزّ بالله.

ونأخذُ قولَ المُتَنَبِّي من قصيدَته التي مَطْلَعُها[(١)]:

جَلَلاً كما بي فليكُ التّبريحُ ... أغذاءُ ذا الرّشاءِ الأغنُّ الشِّيْحُ

فمنها:

ألبانُنا بجَالِه مهورةً ... وسحابُنَا بنوالِه مفضوحُ
يغشى الطّعانَ فلا يَرُدُّ قناتَهُ ... مكسورةً ومنَ الكماةِ صحيحُ
وعلى التّرابِ من الدِّماءِ مجاسِدُ ... وعلى السَّماءِ من العجاجِ مُسُوحُ
يخطو التقيلُ إلى القتيلِ أمَامَهُ ... ربُّ الجوادِ وخلفَهُ المبطوحُ
فمقيلُ حُبِّ مَحبِّه فَرِحٌ بِه ... ومقيلُ غيطِ عَدُوِّه مقروحُ
يخفي العداوةَ وهي غيرُ خفيةٍ ... نظرُ العدوِّ بما أَسَرَّ يبوحُ

فَنَجدُ سلاسةَ قافيةَ البُحْتُريِّ ومواتاتِهَا لَهُ، وممّا يدلُّ على ذلكَ تَجَنُسُّهُ فيها كقولِه: (إفلاح مفلح)، و(طرحته ... كلّ مطرح)، ومطابقته بين: (مفسد ومصلح)، (نشرٍ وأبطح)، بينما نَجدُ نفرةَ القافيةِ لدَى المُتَنَبِّي وضيقَهَا عندَ الحديثِ عن الحربِ فجمع فيها بين: (مبطوح ومقروحٍ ومفضوحٍ) كلماتٌ غيرُ شاعريّةٍ.

وكمقارنةٍ بينهما في القصائدِ التي اتّفقا فيها من حيثُ الوزنُ والقافيةُ، فقد وجدتُ أنّ المُتَنَبِّي وافقَ البُحْتُريَّ في ستِّ قصائدَ هي كالآتِي:

---

(١) ديوانه (١/٣٧٥-٣٦)، من قصيدةٍ يَمدح بِها مساور بن محمّد الرّومِي.

١- قال البُحْتُرِيّ[١]:

كفي الملامةَ أو دومِي على العَذَلِ ما اللّومُ أكثرُ هِمَّاتِي ولا عـذِلِي

وقال المُتَنَبِّي[٢]:

أعلى الممالكِ ما ينبِني على الأسلِ والطَّعْنُ عند مُحِبِّيهنَّ كالقُبَلِ

وقال أيضاً[٣]:

أجابَ دمعِي وما الدّاعِي سوى طللٍ دعا فلباه قبلَ الرّكبِ والإبِلِ

فالقصائدُ الثّلاثُ من بَحرِ البسيطِ، ورويْهَا لامٌ مكسورةٌ، وقد وافقَ المُتَنَبِّيُ البُحْتُرِيَّ من الأولَى في عشرةِ قوافٍ هي: قُلَلِ، مُقَلِ، وَجَلِ، جَبَلِ، بَخَلِ، بَطَلِ، دُوَلِ، زَلَلِ، جذَلِ، الأُوَلِ، من بين (٢٨) بيتاً.

ووافقه من الثّانية في اثنتَي عشرةَ قافيةَ هي: عَذَلِ، الأسلِ، المُقَلِ، عَسَلِ، جَبَلِ، بَخَلِ، الأُوَلِ، الدُّوَلِ، بطلِ، لم يَزَلِ، الكحلِ، القللِ، من بين (٤٨) بيتاً.

٢- وقال البُحْتُرِيُّ مادحاً المعتزّ باللهِ[٤]:

أتُرى الزّمانَ يعيدُ لِـي أيّـامِي بينَ القصـورِ البـيضِ والآطـامِ

وقال المُتَنَبِّيُ مَادِحاً سيفَ الدّولةِ[٥]:

(١) ديوانه (١٩٠١/٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها خالد بن يزيد الشَّيبانِي.

(٢) ديوانه (١٦٣/٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (١٩٨/٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٤) ديوانه (٢٠١٥/٣).

(٥) ديوانه (١١٩/٤).

ذكــــرُ الصِّـــبا ومراتــــعُ الآرامِ جلبتْ حمامي قبلَ وقتِ حِمَــامِي

فالقصيدتان من بَحرِ الكاملِ، ووجدتُ المُتَنَبِّيَ قد وافقَ البُحْتُرِيَّ في ستِّ قوافٍ من بين: (٣٤) بيتاً، وهذه القوافِي هي: حرامُ، تَمامُ، الأنعامُ، الإسلامُ، والنّقص، والإبرام، مرام.

٣- وقال البُحْتُرِيُّ مادِحاً أبا مسلمِ بنِ حميد[١]:

دموعٌ عليها السّكبُ ضربةُ لازمٍ تُجَدِّدُ من عهدِ الهــوى المتقـــادِمِ

وقال المُتَنَبِّيُ[٢]:

أنا لائِمي إن كنتَ وقتَ اللّوائِمِ علمت بِما بي بينَ تلكَ المعـــالِمِ

فالقصيدتانِ من بَحرِ الطّويلِ، وقد وافق المُتَنَبِّيُ البُحْتُرِيَّ في تســعِ قوافٍ من بين (٣٦) بيتاً، وهذه القوافِي هي: المعالِم، النّواعمِ، العـــزائمِ، الجماجِمِ، المكارمِ، الصّوارِمِ، نائِمِ، المتقادِمِ، هاشِمِ.

٤- وقال البُحْتُرِيُّ مادِحاً المتوكّل[٣]:

لبيت فيكَ الشّوقُ حينَ دعـــانِي وعصيتُ نَهيَ الشّيبِ حينَ نَهانِي

وقال المُتَنَبِّيُ مادِحاً سيفَ الدّولة[٤]:

الرّأيُ قبلِ شجاعَةِ الشّــجعانِ هو أوّلٌ، وهـــي المحـــلُّ الثّـــانِي

(١) ديوانه (١٩٦٥/٣).

(٢) ديوانه (٢٣٦/٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أبا محمّد الحسن بن عبيـــد الله بـــن طغج الأخشيديّ أمير الرّملة.

(٣) ديوانه (٢٢٥٢/٤).

(٤) ديوانه (٣٠٧/٤).

فالقصيدتانِ من بَحرِ الكاملِ، وقد وافقَ المُتَنَبِّيُ البُحتُرِيَّ في ستٍّ قوافٍ من بين (٤٩) بيتاً، وهي: قريبُ، داني، -عند البُحتُرِيّ: القريبُ الدّاني-، العقبانِ، أمانِ إخوانِ -عند البُحتُرِيّ: أخوانِ- الأغصانِ، إحسانِ.

٥- وقال البُحتُرِيُّ مادحاً المعتزَّ بالله(١):

رويدَكَ إن شأنكَ غيرُ شأني	وقَصْرَكَ لستُ طاعةَ من نَهاني

وقال المُتَنَبِّيُ مَادحاً عضدَ الدّولةِ(٢):

مغانِي الشِّعب طيباً في المغاني	بِمَنْزلة الرّبيع من الزّمان

فالقصيدتانِ من بَحرِ الوافرِ، وقد وافقَ المُتَنَبِّيُ البُحتُرِيَّ في خمسَ عشرةَ قافيةَ منها، من بين (٤٨) بيتاً، وهي: الزّمانِ، البنانِ، الغواني، المكانِ، ثانِي، عوانِ، سنانِ، العيانِ، المثالث والمثانِي، الحسانِ، هجانِ، عانِ، رهانِ، معانِي، أمانِ.

وقد وافقه في قافيتين وردتا عندَهُ وعند البُحتُرِيّ متتاليَتين في هاتين القصيدتين وهما: مكانِ، ثانِي، والثّانية منهما عكسَ المُتَنَبِّيُ فيها معنَى البُحتُرِيِّ، فإنّ البُحتُرِيَّ قال(٣):

فَإنَّكَ أوَّلٌ في كُلِّ فضلٍ	نُعَدِّدُهُ وعبدَ اللهِ ثانِي

(١) ديوانه (٤/٢٢٧٥).

(٢) ديوانه (٤/٣٨٣).

(٣) ديوانه (٤/٢٢٧٨).

وقال هو(١):

فَإِنَّ النَّــاسَ والــدُّنيا طريــقٌ إلى مَن ما لَهُ في النَّــاسِ ثــاني

هذا، والذي دعاني إلى عقدِ هذهِ الموازنةِ أمرانِ:

أَوَّلُهَما: التّوافقُ في الوزنِ والقافيةِ.

وثانيهما: أنَّني وجدتُ نَصّاً في الصّبحِ المُنبِّي مفــادُهُ: أنَّ بَعْضَــهُمْ وَجَدَ ديوانَي أبي تَمامٍ والبُحتُرِيّ في رَحْلِ المُتَنَبِّي لَمَّا قُتِلَ(٢)، فقلتُ لَعَــلَّ ذلك مدعاةٌ إلى الاقتفاءِ.

وبعدَ هذهِ الموازنةِ نعودُ إلى الحديثِ عن قوافيهِمَا:

فَمِن جهةِ إطلاقِ القوافِي أو تقييدِهَا، فَجُلُّ قوافيهِمَا مطلقةٌ، وقــد يصلانِ المطلقة بِهاءِ وصلٍ سكانةٍ تزييناً للقافيةِ، وتحبيباً لنفسِ الممــدوحِ؛ إن كان من البُحورِ الطّويلةِ، ومن ذلك قولُ البُحتُرِيِّ(٣):

مع الدّهرِ ظلمٌ ليس يقلعُ راتِبُهْ وحكمٌ أبتْ إلاّ اعجواجاً جوانِبُهْ

وقول المُتَنَبِّي(٤):

وفاؤكما كالرّبع أشجاه طاسِمُهْ بأن تَسْعَدَا والدّمعُ أشفاه ســاجِمِهْ

(١) ديوانه (٤/٣٩٠).

(٢) الصّبح المُنَبِّي (١٨٦).

(٣) ديوانه (١/٢١٩)، من قصيدةٍ يَمدح بِها الموفق بالله.

(٤) ديوانه (٤/٤٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

والبُحْتُرِيُّ أكثرُ قافيةِ (مُقَيّدة) من المُتَنبِّي، لَهُ سبعُ قصائدَ مقيّدة[١]، بينما لا نَجدُ للمُتَنَبِّي إلاّ قصيدتَين[٢]، وهما لا يأتيان بِهذهِ القوافِي المقيّدة إلاّ من بُحورِ خفيفة التّفاعيلِ -غالباً- كالمتقاربِ مثلاً، ولِهَـذهِ الكثـرة لدَى البُحْتُرِيّ دلالةٌ وهي كونُهُ يحرصُ على حسنِ نَغَمِ الأبياتِ فتقييـدُ القافيةِ يعطي الإيقاعَ رنيناً خاصّاً وموسيقيّاً بديعةً.

٢- الموسيقي الدّاخلية:

شَهِدَ جلُّ النُّقّادِ للبُحْتُرِيّ بِحسنِ موسيقي قصائده عامَّةً، فها هـو القاضي الجرجانِيُّ يعقِّبُ على أبيا له بِقوله: ((... ثم تأمّلْ نفسَـكَ عنـدَ إنشادِهِ، وتفقّدْ ما يتداخلُكَ من الارتياحِ ويستخفُّكَ مـن الطّـربِ إذا سَمعته...))[٣].

وابن الأثير يقول عنه: ((قينةُ الشّعراء في الإرطاب، وعنقـاؤهم في الإغراب))[٤].

وقال -أيضاً-: ((... أراد أن يشعر فغنَّى))[٥].

وهذا ما حدا بالدّكتور شوقي ضيفٍ أن يصفَهُ بأنَّهُ: ((بلبلُ الشّـعرِ

(١) ديوانـــه (٢١٩/١، و٦٦٧/٢، و٧٣٥، و٨٧٦، و١٦٨/٣، و١٨٧٤، و٢١٥٣/٤).

(٢) ديوانه (٢٢٥/١، و١٤٨/٢).

(٣) الوساطة (٢٧).

(٤) المثل السّائر (١٥١/٣).

(٥) المرجع نفسه (٢٧٠/٣).

العربِيّ يصدحُ دائماً بأنغامه»[١].

وجمال هذه الموسيقي يَكْمُنُ لديهِ في المواءمَة بينَ الألفاظِ والمعـــاني وحسنِ استخدامِ الأفعالِ المضارعةِ، والكلماتِ المنوّنة، والإكثـــارُ مـــنَ المحسِّناتِ البديعيّةِ طباقِها وجناسِها وعطفِ النّظيرِ على نظيرِه وردِّ الإعجازِ على الصّدورِ[٢].

كما أَنَّهُ لا يتكلّف الطّباقُ والجناسُ، ولا يعمد إلاّ إلى مـــا خـــفَّ منهما على السّمع وهاهنا، نستطيعُ أن نستعرضَ بعضاً من النّصوصِ التِي لَذَ نَغمُهَا، وحسنت موسيقاها يقول البُحتُريُّ[٣]:

زِيْنَـــتْ بِخالـــدِ الـــدّنيا وزينَتُهَـــا ... وأبسمَ المُلْكُ عن عَزٍّ وعنْ جَذَلِ
كَم مـــارِقٍ مرقـــتْ فيـــه أســـنَّتُهُ ... والموتُ يصدُرُ عن عَلٍّ وعن نَهَلِ
وناكثٍ نكثتْ في الـــدِّينِ أســـرتُهُ ... عنهُ وقد نشبتْ فيه شبا الأَسَـــلِ
لَمَّا رأى خيلَهُ تزجِي سحابَ ردى ... ينهلُّ هيدبُها بالصّـــيِّبِ النّهـــلِ
في موضعٍ ضَنكٍ تُمســـي معاقلُـــهُ ... إذا اسبطرَّ شهابُ الموتِ كالعُقُلِ
تغـــدو أســـنّتُهُ زُرْقـــاً فيكحُلُهَـــا ... يومَ الكريهةِ في الأحداقِ الكَحَلِ
إذا انتضى السّيفَ يومَ الرّوعِ أغمدَهُ ... مخضّباً من دمِ الأعداءِ في القُلَـــلِ
فـــإن تـــأودتِ الأرمـــاحُ ثَقّفَهَـــا ... بكاهلٍ بطلٍ من فـــارسٍ بَطَـــلِ
إذا اغتدى اغتدتِ الآمـــالُ تقدُمُـــهُ ... إلى نفوسِ العدى بالخبلِ والوجلِ

---

(١) في النّقد الأدبي (٩٧).

(٢) الرّسالة (ص: ٥٨٣-٥٨٤).

(٣) ديوانه(١٩٠٢/٣-١٩٠٣)،من قصيدةٍ يَمدح بِها خالد بن يزيد الشّيباني.

وقال المُتَنَبِّي: من قصيدة على وزنِ وقافيةِ هذه القصيدة[1]:

ومِـــنْ علـــيّ بـــنِ عبـــدالله مَعْرَفَتِـــي — بحمله مَنْ كعبـــدِ اللهِ أو كَعَلِـــيِّ
معطِي الكواعبِ والجردِ السّلاهبِ والبِـــ — ـــيْضَ القواضبَ والعسالةَ الــذُّبُلِ
ضاقَ الزّمانُ ووجهُ الأرضِ عن مَلَـــكٍ — ملءُ الزّمانِ وملءُ السَّهْلِ والجبـــلِ
فنحنُ في جَـــذَلٍ، والـــرُّومُ في وَجَـــلٍ — والبَرُّ في شُغُلٍ والبَحرُ في خَجَـــلِ
من تَغْلِـــبِ الغـــالبينَ النّـــاسَ منصبُهُ — ومن عَديّ أعادي الجُبنِ والبُخُـــلِ
انظر إذا اجتمـــعَ السّـــيفانِ في رَهَـــجٍ — إلى اختلافِهِمَا في الخَلْقِ والعمـــلِ
هذا المُعَـــدُّ لريـــبِ الـــدّهرِ منصـــلتاً — أَعَدَّ هذا لرأسِ الفـــارسِ البَطَـــلِ
فالعربُ منـــه مـــع الكـــدريِّ طَـــائرةٌ — والرُّومُ طائرةٌ منـــه مـــعَ الحجـــلِ
وما الفـــرارُ إلى الأَجْبـــالِ مـــن أســـدٍ — تَمْشِي النّعامُ بِهِ في مَعْقِلِ الوَعَـــلِ

فَإِنَّنَا نَجِدُ موسيقي أبياتِ البُحْتُرِيِّ تتكوّنُ من اعتمادِهِ على جناسِ الاشتقاقِ (مارق مرقت)، (ناكث نكثت)، ومن التّكرار: (عن عزّ وعـــن جذَلِ)، (عن عَلّ) و(عن نَهَلِ)، (بكاهلٍ بَطَلٍ)، (مـــن فـــارسٍ بَطَـــلٍ)، (اغتدى اغتدت)، (من مثل) (من مثل)، ومن عطف النّظيرِ على نظـــيره: (الأحداقِ والكحلِ)، (الخَيْلِ والوجَلِ)، (الرّوعِ والوهلِ)، (يطوي علـــى وجلٍ)، (مرّتين).

بينما نَجِدُ موسيقي المُتَنَبِّي تعتمدُ على التّكرار التَّرَنُّمِـــيِّ: (ضَـــاقَ الزمانُ – ملءُ الزّمان، ملءُ السّهلِ والجبلِ)، (هذا العُمَدُّ ... أعدَّ هـــذا)، و(فالعربُ منه مع ... طائرةٌ والرّومُ طائرةٌ منه مع)؛ لَكِنَّنَا نَجِـــدُ هـــذا

(١) ديوانه (٣/٢٠٤-٢٠٧)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

التّكرارَ لا يكون على نسقٍ واحدٍ، كما هو عندَ البُحْتُرِيّ، وبِهذا يفقدُ نوعاً من الموسيقي العذبةِ.

كما جاءت الموسيقي عندَهُ في جناسِ الاشتقاق: (تغلب الغالِبين)، (عَدِيّ أعادِي)، أقلّ عذوبةً من موسيقي جناسِ البُحْتُرِيِّ؛ لِشِدَّةِ المجانَسَةِ في قولِ البُحْتُرِيِّ: (مارقِ مرقتْ)، (ناكث كثت).

وإنّما بَرَزَ المُتَنَبِّيُ في إجادته التّقسيمِ، واقتدارِهِ على أن يأتِيَ بالبيتِ كُلِّهِ مقسَّماً في فقرٍ قصيرةٍ.

فنحنُ في جَذَلٍ، والرُّومُ في وَجَلٍ والبَرُّ فِي شُغُلٍ والبَحرُ في خَجَلِ

وبعد هذهِ الموازنةِ نستطيعُ أن نقولَ إنّ جمالَ موسيقي الشّاعِرَينِ تَكمنُ في أربعةِ أشياء: الطِّباقُ، والجناسُ، وعطفُ النّظيرِ على نظيرِهِ، والتّكرارُ التَّرنُّمِيُّ؛ فأَمّا موسيقي الطّباقِ والجناسِ فالبُحْتُرِيُّ أجملُ موسيقي فيها من المُتَنَبِّي، وأمّا عطفُ النّظير على نظيرِهِ فهما فيه مشتركانِ في الجمالِ.

وأمّا التّكرارُ التَّرنُّمِي فالمُتَنَبِّي أجملُ تكريراً من البُحْتُرِيّ فيه، وهذا ما حدا بالدّكتورِ عبدِ الله الطَّيِّب أن يفضلَ المُتَنَبِّي فيه على جريرٍ والبُحْتُرِيِّ؛ فقال[١]:

---

(١) المرشد إلى فهم أشعارِ العرب (٢/٥١٢).

«ويكاد، المُتَنَبِّي، يستطيع الإتيانَ بِهذا النّوعِ من التّكرارِ التّرنُّميّ في كُلِّ بَحرٍ يردِّدُهْ، وفي كُلِّ وزنٍ يتعاطاه، وهو في هذهِ الجهةِ يُرْبي على البُحْتُرِيِّ وجريرٍ الذين أكثر ما تَجدُهُما يكرِّرانِ في الوافرِ والكاملِ».

مع العلم بأنّ الدّكتورَ الطَّيِّب يدخل ضمن التّكرارِ التَرنُّميِّ ما عرف بِحسنِ التّقسيمِ وهو مُحِقٌّ في هذا، فالتّقسيمُ تكرارٌ لِنَغمةٍ معيَّنةٍ أجادَ فيها المُتَنَبِّي وأبدع بِشكلٍ لافتٍ للنّظرِ وبطريقةٍ موقَّعَةٍ بديعةٍ[1].

(١) (ص: ٧٣١) من الرّسالة.

و انطر قول د/ الطيب في الحاشية.

رابعاً:

في بَناءِ القصيدة

لم تَكُنِ القصيدةُ الحربيَّةُ عندَ البُحتُرِيِّ مستقلَّةً، بل كانت مختلطةً بالأغراضِ الأخرى كالمدحِ والرِّثاءِ والفخرِ، وكذلك جاءت أكثرُ قصائدُ المُتَنَبِّي الحربِيَّةِ، بينما جاء بعضُهَا مقصوراً على وصفِ الحربِ[١].

أمّا من حيثُ الأجزاءُ التِي تقومُ عليها القصيدةُ عندَهُمَا، وهي الابتداءُ والعرضُ والخاتِمَةُ؛ فسنناقِشُ هاهنا إجادةَ كُلٍّ مِنْهُما في ذلك

أ- الابتداء:

ابتداءات البُحتُرِيِّ كُلُّهَا تقليديَّةٌ إمّا غزليَّةٌ أو طلليَّةٌ أو شكوى من الدّهرِ أو بكاءٍ على الشّيبِ أو وصفٍ للطّبيعةِ أو ذكرٍ لطيفِ الخيالِ، وقد أجادَ في هذَينِ الأخيرينِ منها.

وليس له في ابتداءاتِه معيبٌ إلاّ أَنَّني أرى أنَّ قولَهُ[٢]:

دموعٌ عليها السّكبُ ضربةُ لازمِ   تُجَدِّدُ من عهدِ الهوى المتقادمِ

(١) انظر: هذه القصائد في ديوانه: (١/٣٥٩، و٢/١٨٥، و٢٠٢، و٣/٢٥٤، و٤/٦٩، و٩٤، و٢٩٩، و٣٠٧).

(٢) ديوانه (٣/١٩٦٥)، من قصيدةٍ يَمدحِ بِها أبا مسلم بن حميد الطوسي.

لا يصلحُ مطلعاً في قصيدةِ مدحٍ؛ لأنَّ يوحي بالتّشاؤم.

أمّا ابتداءاتُ المُتَنَبِّي فأكثرُهَا جيِّدٌ حسنٌ، وبعضها قبيحٌ معيبٌ(١)، ولَكِنَ النُّقَّادَ عَلَّلُوا عدمَ جودةِ مثلِ هذهِ المطالِعِ بكونِ المُتَنَبِّي يغربُ فيها ثَقَةً بِنَفْسِه(٢)، وإدلالاً على شعراء عصرِه.

وتَشتَمِلُ هذه المبادِئُ على نوعين من المقدِّمات:

مقدِّماتٌ طلليَّةٌ أو غزليَّةٌ في فتياتٍ غيرِ معيَّنات، وبما أنَّهُ ثائرٌ على المقدِّمات التّقليديّة؛ فَإِنَّ هذه المقدِّماتِ لم تكنْ تقليديّةً تَماماً، بل اعتراها بعضُ التّغييرِ في كونِهِ يفتخرُ بنفسِهِ فيها، أو يصفُ الخيلَ والصِّديقَ أو يتذكّرُ الأوطانَ أو يشكو منَ الدّهر، ويُدَبِّجُ الحِكَمَ في أثناءِ ذلكَ.

ومقدِّماتٌ تَجديديَّةٌ يَهجُمُ بِهَا على الغرضِ مباشرةً بعد تصديرِ القصيدةِ بِحكمةٍ لَها صِلَةٌ بالموضوع، وهذه المقدِّماتُ مِمّا انفردَ عن البُحْتُرِيِّ.

فَمِنْ مطَالعهَما التّقليديّة قولُ البُحْتُرِيِّ:

١-رأى البرقَ مجتازاً فباتَ بلا لُبٌّ وأصباه من ذكرِ البَخيلَةِ ما يصبَى(٣)

٢-قَلِيْلٌ لَهَا أَنّى بِهَا مُغرم صَبٌّ وإن لم يقارفْ غيرَ وَجْدٍ بها القلبُ(٤)

---

(١) انظر: هذه القصائد في ديوانه: (١/٣٦٥، و٣٨٤، و٢/٤٤، و٧٤، و٢٨١، و٣٥٧).

(٢) العمدة (٦٦)، والصّنعة الفنِّيّة، د/ صلاح حافظ (٤٢٠، ٤٢١).

(٣) ديوانه (١/١٠٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها عبد الله بن دينار.

(٤) ديوانه (١/١٢٢)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا أحمد بن طولون.

٣-هَبِيْهِ لِمَنْهَـلٌ الـدّموعِ السّـواكِبِ وهبـاتِ شـوقٍ في حشـاهُ لواعـبِ[1]
٤-مع الدّهرِ ظلمٌ لـيس يقلـعُ راتِبُـهْ وحكمٌ أبـتْ إلاّ اعجواجـاً جوانبُـهْ[2]
٥-لم يبق من تلـك الرّسـومِ بِمـنعجٍ إمّـا سـألتَ معـرَّجٌ لِمعـرِّجِ[3]
٦-لَهَا مَنْزِلٌ بـينَ الـدَّخُولِ فتوضِـحُ متَـى تـرَهُ عـينُ المُتَـيَّمِ تسـفَحِ[4]
٧-أَصَـبَا الأصـائِلِ إنْ برقـةَ مُنْشِـدِ تشكو اختلافَـكَ بـالهُبُوبِ السّـرمَدِ[5]
٨-جائرٌ في الحكـمِ لـو شـاءَ قصـدْ أخـذَ النّـومَ وأعطـاني السَّـهَدْ[6]
٩-إذا عرضتْ أحداجُ سـلمَى فنادهَـا سقتكِ غوادي المزنِ صَـوبَ عهادهَـا[7]
١٠-رنـوٌّ ذلـك الغـزالِ أو غَيَـدُهْ مولـعُ ذي الوجـدِ بالـذي يَجِـدُهْ[8]
١١- أقصـرا قـد أطلتمـا تفنيـدي ومـن الجهـلِ لـومُ غـيرِ سَـدِيْدِ[9]
١٢-أَلَمْ تـرَ تغلـيسَ الرّبيـعِ المبكـرِ وما حاكَ من وشي الرّيـاضِ المنشَـرِ[10]
١٣-تريكَ الذي حُدِّثتَ عنهُ من السِّحْرِ بطرفٍ عليلِ اللّحظِ مسـتغربِ الفتْـرِ[11]

---

(١) ديوانه (١/١٧٧)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا سعيدٍ الثّغريّ.
(٢) ديوانه (١/٢١٩)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها الموفق بالله.
(٣) ديوانه (١/٣٩٩)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها محمّد بن حميد الطوسي.
(٤) ديوانه (١/٤٥٠)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها المعتز بالله.
(٥) ديوانه (٢/٥٤٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا محمّد الثّغويّ.
(٦) ديوانه (٢/٦٦٧)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها المعتمد على الله.
(٧) ديوانه (٢/٦٧٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها المهتدي بالله.
(٨) ديوانه (٢/٧٣٥)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها عبيد الله بن يحيَى بن خاقان.
(٩) ديوانه (٢/٨٠٥)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أحمد بن عبد العزيز الشّلمغان.
(١٠) ديوانه (٢/٩٨٠)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أحمد بن دينار.
(١١) ديوانه (٢/١٠٠٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها المعتز بالله.

١٤-سهرٌ أصابَكَ بعــدَ طــولِ نُعــاسِ لصـــدودِ أغْيَـــدَ فـــاتنٍ مَيَّـــاسِ[(١)]

١٥-أتـــراكَ تســـمعُ للحمـــامِ الهُتَّـــفِ شجواً يكونُ كشـــجوكَ المســتطرَفُ[(٢)]

١٦-استوقفا الرّكْبَ في أطلالِهِمْ وقفـا وإن أمَـــحَّ بلـــىً مأثورُهَـــا وَعَفَـــا[(٣)]

١٧-أأفاقَ صَبٌّ مـن هـوىً فأُفيقـا أم خـانَ عهـداً أم أطـاعَ شـفيقا[(٤)]

١٨-أرى بـينَ ملتـفِ الأراكِ منـازلا موائلَ لـو كانـتْ مهاهـا مـوائلا[(٥)]

١٩-أهـــلاً بـــذلكُمُ الخيـــالِ المُقْبِـــلِ فعـــلَ الـــذي نهـــواهُ أم لم يفعـــلِ[(٦)]

٢٠-لا دِمْنَةٌ بلـوى خبـتٍ ولا طَلَـلُ يَـرُدُّ قـولاً علـى ذي لوعـة يَسَـلُ[(٧)]

٢١-هل الرّبعُ قد أمستْ خلاءً منازِلُـهْ يجيـــبُ صـــداهُ أو يَخبِّـــرُ ســـائلُهْ[(٨)]

٢٢- كفي الملامةَ أو دومي على العَذَلِ ما اللّـومُ أكثـرُ هِمَّـاتي ولا عـذلي[(٩)]

٢٣-طفقتْ تلوم ولاتَ حـينَ ملامِـه لا عنـــدَ كَبرتـــهِ ولا إحجامـــه[(١٠)]

٢٤- أتُرى الزَّمانَ يعيـدُ لِـي أيّـامي بـــينَ القصـــورِ البـــيضِ والآطـــامِ[(١١)]

---

(١) ديوانه (٢/١١٦٥)، مطلع قصيدة يَمدح بِها محمّد بن عبدالله بن طاهر.

(٢) ديوانه (٣/١٤١١)، مطلع قصيدة يَمدح بِها أبا محمّد الثّغري.

(٣) ديوانه (٣/١٤٣٢)، مطلع قصيدة يَمدح بِها أبا الحسين محمّد العقيليّ.

(٤) ديوانه (٣/١٤٤٥)، مطلع قصيدة يَمدح بِها أبا سعيد الثّغريّ.

(٥) ديوانه (٣/١٥٩٩)، مطلع قصيدة يَمدح بِها أبا سعيد الثّغريّ.

(٦) ديوانه (٣/١٧٣٧)، مطلع قصيدة يَمدح بِها محمّد بن عليّ اللّقمي.

(٧) ديوانه (٣/١٧٥٤)، مطلع قصيدة يَمدح بِها أبا سعيد الثّغريّ.

(٨) ديوانه (٣/١٨٧٤)، مطلع قصيدة يَمدح بِها طفح بن جف.

(٩) ديوانه (٣/١٩٠١)، مطلع قصيدة يَمدح بِها خالد بن يزيد الشّيبَاني.

(١٠) ديوانه (٣/١٩٨٣)، مطلع قصيدة يَمدح بِها أبا نهشل.

(١١) ديوانه (٣/٢٠١٥)، مطلع قصيدة يَمدح بِها المعتزّ بالله.

٢٥- هذي المعاهدُ من ســعادَ فســلِّمِ ... واســـألْ وإنْ وَجَمَـــتْ ولم تـــتكلَّمِ[1]

٢٦- لاَمَتْ على أنَّهَا في الدّمعِ لَمْ تَلُــمِ ... لكنْ على أنَّ فـــيضَ الـــدَّمْعِ لم يَــدُمِ[2]

٢٧-قَلَّمَـــا لا تتصـــباني الـــدِّمنْ ... وتعنِّينـــي بـــذكرى مـــنْ شـــجنْ[3]

٢٨- هم أُوْلَـــى رائحـــونَ أو غادونـــا ... عـــن فـــراقٍ ممســـونَ أم مصـــبحونا[4]

٢٩-أقـــولُ لعـــنسٍ كـــالعَلاَةِ أمـــونِ ... مضـــبَّرةٍ في نسُـــعَةٍ ووضـــينَ[5]

٣٠-يكادُ عاذلُنَـــا في الحُـــبِّ يغرينَـــا ... فمـــا لَجَاجُـــكَ في لـــومٍ المَحبينـــا[6]

٣١-عَزَمَتْ علـــى المنـــازِلِ أن تبينـــا ... وإن دمَـــنٌ بلـــينَ كمـــا بلينـــا[7]

٣٢-لبيتُ فيكَ الشّوقَ حـــينَ دعـــانِي ... وعصيتُ نهْي الشّـــيبِ حـــينَ نهـــاني[8]

ومن مطالع المُتَنَبِّي التّقليديّة:

١-فدينَاكَ من ربـــعٍ وإن زدتنـــا كَرْبـــاَ ... فإنّكَ كنتَ الشّرقَ للشّـــمسِ والغَرْبـــا[9]

٢-دمعٌ جرى فقضى في الرَّبْعِ ما وَجَبَـــا ... لأهلِـــهِ وشـــفى أَنَّـــى ولا كَرَبَـــا[10]

---

(١) ديوانه (٢٠٨٠/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها الهيثمَ الغنوي.

(٢) ديوانه (٢١٢٧/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها مالك بن طوق التّغلبي.

(٣) ديوانه (٢١٥٣/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا جعفر الطّائي.

(٤) ديوانه (٢١٦١/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا سعيد الثّغريّ.

(٥) ديوانه (٢١٨١/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا محمّد الثّغريّ.

(٦) ديوانه (٢٢٠٠/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها خماريه بن أحمد بن طولون.

(٧) ديوانه (٢٢٠٧/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أذكوتكين.

(٨) ديوانه (٢٢٥١/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها المتوكّل على الله.

(٩) ديوانه (١٨٢/١)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولة.

(١٠) ديوانه (٢٣٧/١)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها المغيث العجلي.

٣-بأبِي الشّموسِ الجانحاتِ غوارِبَا — اللاّبساتِ من الحريرِ جلاَبِبَا[(١)]

٤-سربٌ محاسنُهُ حرمتْ ذواتِهَا — داني الصّفاتِ بعيدُ موصوفاتِهَا[(٢)]

٥-أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها — أبْعَدَ ما بانَ عنكَ خُرَّدُهَا[(٣)]

٦-أيا خدَّدِ اللهُ وردَ الخدود — وقدّ قُدُوْدَ الحسانِ القُدُود[(٤)]

٧- نسيتُ ولا أنسَى عتاباً على الصّدِّ — ولا خَفَراً زادت به حمرة الخَدِّ[(٥)]

٨-أيدري الرّبعُ أيَّ دمٍ أراقا — وأيَّ قلوبِ هذا الرّكبِ شاقا[(٦)]

٩- لعينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لَقِيَ — وللحُبِّ ما لم يُبْقِ منِّي وما بَقِي[(٧)]

١٠-تذكرتُ ما بينَ العذيبِ وبارقٍ — مَجرَّ عَوَالِينَا ومجرَى السَّوابِقِ[(٨)]

١١- أتراها لكثرةِ العشاق — تحسبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً في المَآقي[(٩)]

١٢- ليالِيَّ بعدَ الظّاعنينَ شَكُولُ — طوالٌ، وليلُ العاشقينَ طَوِيلُ[(١٠)]

١٣-كدعواكِ كُلٌّ يدعي صِحَّةَ العقلِ — ومن ذاالذي يدري بما فيه من جَهلِ[(١١)]

---

(١) ديوانه (١/٢٥٠)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها منصور الحاجب.

(٢) ديوانه (١/٣٤٧)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبو أيّوب أحمد بن عمران.

(٣) ديوانه (٢/١٧)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها محمّد بن عبد الله المشطب.

(٤) ديوانه (٢/٦٣)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها الأمير الذي سَجَّنَهُ.

(٥) ديوانه (٢/١٦١)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا الفضل بن العميد.

(٦) ديوانه (٣/٣٩)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولة.

(٧) ديوانه (٣/٤٨)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولة.

(٨) ديوانه (٣/٦٠)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولة.

(٩) ديوانه (٣/١٠١)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا العشائر.

(١٠) ديوانه (٣/٢١٧)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(١١) ديوانه (٣/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها أبا الفوارس دلير بن لشكروز.

١٤- ذكـــرُ الصِّـــبا ومراتـــعُ الآرامِ جلبتْ حمامِي قبـلَ وقـتِ حِمَـامِي[١]
١٥- الحبُّ ما منـع الكـلامَ الألْسُـنَا وَألَـذُّ شـكوى عاشـقٍ مـا أعلنـا[٢]
١٦- مغانِي الشِّـعب طيبـاً في المغـانِي بِمَنْزلـة الرّبيـع مـن الزّمـان[٣]

فهذه هي أجملُ مطالِعِ قصائدهمَا التّقليديَّة، ولَكِنْ بَيْنَهُمَا في حسنِ المطلعِ بوناً شاسعاً في هذا الباب؛ فَمَطَالِعُ البُحْتُرِيّ هذه كُلُّهَـا منتقـاةٌ مختارةٌ، جمع فيها معانِياً شتَّى، فَمَرّةً يتذكرُ أحبابَهُ، ومـرَّةً يقـفُ علـى الأطلالِ الدّوارسِ، ومرَّةً يُخاطبُ محبوبَتَهُ حالَ رحلِهَا، ومرَّةً يلـومُ مَـن يلومُهُ في الحُبِّ، ومرَّةً يُخاطبُ الطَّيفَ ويصفُهُ، ومـرَّةً يشـكو الـدّهرَ ومصائِبَهُ، وفراقَ أحبابِهِ، ومرَّةً يكشو الشّيبَ وحلولَهُ في رأسِـهِ، ومـرَّةً يُخاطِبُ ناقَتَهُ، ومرَّة يتمنَّى عودَ اللَّيالي الجميلة.

وأمّا معاني مقدِّماتِ المُتَنَبِّي فمَعَ أنَّهَا هيِ أجْمَلُ مقدِّماته تلـك إلاّ أنَّهَا ليستْ كُلُّهَا مُختارةً، وليسَ فيها معنًى رائقٌ إلاّ بَذْلُهُ كُلَّ ما يلاقـي لِعينَي حبيبه ومن أجل حُبِّه، وتذكُّرَهُ ديارهم، وشكوى طولِ ليلِه.

وليس معانِي البُحْتُرِيّ أجملَ فحسب، بلْ موسيقي مقدِّماتِه سـالمةٌ من التّعقيدِ والتّقديمِ والتّأخيرِ أو التّحوّزِ في اللّغةِ، ممّا هـو في مقـدّماتِ المُتَنَبِّي هذهِ.

(١) ديوانه (١١٩/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.
(٢) ديوانه (٣٢٧/٤)، مطلع قصيدةٍ يمدح بها بدر بن عمّار.
(٣) ديوانه (٣٨٣/٤)، مطلع قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

أمّا إنْ جِئْنَا إلى مقدِّماتِ المُتَنَبِّي التّجديديَّةِ فيكفيه منها انفرادُهُ بِهَا عن البُحْتُرِيِّ مع ما حوته من بديع المعانِي، ومع صِلَتِهَا الوثيقةِ بِشِعْرِ الحرب[1].

ومنها قولُهُ:

١-ذِي المعالِي فلينلُـوَنْ مَـن تعالَى　　هكـذا، هكـذا، وإلاّ فَـلاَ لاَ[2]

٢-عقبَى اليمينِ على عقبَى الوَغَى نَـدَمُ　　ماذا يزيدُكَ في إقـدامِكَ القَسَـمُ[3]

(١) (ص:٧٤٥-٧٤٧) من الرّسالة.

(٢) ديوانه (٣/٢٥٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٣) ديوانه (٤/١٢٩)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

ب- العرضُ:

يعرضُ البُحتُرِيُّ قصائِدَهُ الحربيَّةَ خليطاً من أغراضٍ شتّىً، بيدَ أنَّهُ لم يكنْ من المشهورينَ بالإحسانِ في التَّخَلُّصِ من غرضٍ إلى آخر، لَكنَّهُ لا يَتَكَلَّفُهُ؛ فَإِنْ جاء بشيءٍ منه جاءَ بشيءٍ حسنٍ، ومن ذلك قولُهُ(١):

قلْ لِداعِي الغمـــامِ لبيـــكَ واحلُـــلْ عُقُلَ العيسِ كي تجيـــبَ الـــدّعاءَ
عارضٌ مـــن أبِـــي ســـعيدٍ دعانَـــا بســـنا بَرْقِـــهِ غـــداةَ تـــراءَى
كيف نثني على ابنِ يوسفَ لا كيــ ـــفَ سرى مجدُهُ ففـــاتَ الثّنـــاء

وقولُهُ(٢):

ربكوا الفراتَ إلى الفراتِ وَأمَّلُوا جذلانَ يبدعُ في السَّماحِ ويُغْرِبُ

وقولُهُ(٣):

والعِيْسُ تَنْصُلُ من دجاه كَما انجَلَى صبغُ الشّبابِ عن القذالِ الأشيبِ
يطلبنَ مجتمعَ العـــلا مـــن وائـــلٍ في ذلكَ الأصلِ الزّكيِّ الأطيـــبِ

أمّا المُتَنَبِّي فقد اشتملتْ قصائدُهُ التِي قدَّم لَهَا بِمقدِّماتٍ تقليديـــةٍ علـــى أغراضٍ متعدِّدَة؛ كالبُحتُرِيّ، وهذه تحتاجُ منه إلى تَخَلُّصٍ ليربطَ أغراضَهَا، وقد أبدعَ أبو الطَّيِّبِ في أكثرِ تَخلُّصَاته؛ حتّى اشتهرَ بهذا الفنِّ، كما ذكرَ

(١) ديوانه (١/١٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أبا سعيد الثّغريّ.
(٢) ديوانه (١/٧٤)، من قصيدةٍ يَمدح بِها إسحاق بن إبراهيم المصعبِي.
(٣) ديوانه (١/٨٠)، من قصيدةٍ يَمدح بِها مالك بن طوق التّغلبِيّ.

ذلك القاضي الجرجاني[١]، وابن رشيق[٢]، وشعْرُهُ شاهدٌ على ذلكَ، إلاّ أَنَّ تَكَلُّفَهُ يوقِعُهُ أحياناً في مواطنَ منه قبيحةٌ.

ومن أمثلةِ تَخَلُّصَاته البديعةِ قولُهُ[٣]:

ما بالُ هــذي النّجــوم حــائرةً   كَأَنَّهَا العُمْيُ مــا لَهَــا قائــدْ
أو عصــبةٌ مــن ملــوكِ ناجيــةٍ   أبو شــجاعٍ علــيهِمِ واجــدْ

وقولُهُ[٤]:

ولستُ أبالِي بعد إدراكِــي العــلا   أكانَ تراثاً مــا تناولــتْ أو كَسْــبَا
فَرُبَّ غلامٍ عَلَّــمَ المَجْــدَ نفسَــهُ   كتعليمِ سيفِ الدّولةِ الطَعنَ والضّــرْبَا

وقال[٥]:

أظمتنِــي الــدّنيا فَلَمَّــا جئتُهَــا   مستسقياً مُطــرَتْ علــيَّ مصــائبا
وحبيتُ من خوصِ الرّكابِ بأسودٍ   من دارشٍ فغدوتُ أمْشِــي راكبــا
حالٌ متَى علم ابنُ منصــورٍ بِهَــا   جــاء الزّمــانُ إلَــيَّ منــها تائبــا

---

(١) الوساطة (٤٨).

(٢) العمدة (١٦٣).

(٣) ديوانه (٢/١٧٥)، من قصيدةٍ يَمدح بِها عضد الدّولةِ.

(٤) ديوانه (١/١٨٦).

(٥) ديوانه (١/٢٥٢)، من قصيدةٍ يَمدح بِها علي بن منصورر الحاجب.

جـ الخاتمةُ:

وأمّا ختَامُ القصيدةِ؛ فإنَّ البُحْتُرِيَّ لَم يَكُنْ يُحسنُهُ، وقد يمهِّـدُ لَـهُ بالفخرِ بقصيدتهِ أو نفسه، أو الدّعاءِ لممدوحهِ أو حَكْمَة، وهو قليلٌ[١].

وأمّا المُتَنَبِّي فَمثلُ البُحْتُرِيِّ في أكثرِ قصائدهِ، إلاّ أنَّـهُ إن ختَمَهَـا بحِكْمَةٍ فَحِكَمُهُ رائعةٌ مشهورةٌ، وقد يشعرنا بنهايةِ القصيدةِ في عودهِ إلى مدحِ مَمدوحِهِ، وهذا محمودٌ، لولا أنَّهُ يتعارَضُ مع الوحـدةِ الموضـوعيَّةِ للقصيدة[٢].

ويكفي المُتَنَبِّي في بيانِ إبْدَاعهِ في مبادئ قصائدهِ وحسنِ عرضِـهَا وختامِهَا قولُهُ ابنُ رشيقٍ عَنْهُ: «وقد أربى أبو الطَّيِّب على كُلِّ شاعرٍ جودةً في فصولِ هذا البابِ الثّلاثة»[٣].

هذا، ومن جهةِ طُولِ قصائدهَما الحربيَّةِ فالبُحْتُرِيُّ أطولُ قصائدَ من المُتَنَبِّي، فبينما نَجدُ للبُحْتُرِيِّ قصيدةً بلغ عددُ أبياتهَا (٨٩) بيتاً[٤]، نَجـدُ أطولَ قصيدةٍ للمُتَنَبِّي بَلَغَ طُولُهَا خمسة وستِّين بيتاً[٥]، وأكثـرُ قصـائدهِ

---

(١) (ص:٥٩٩)، من الرّسالة.

(٢) (ص:٧٥٥-٧٥٧)، من الرّسالة.

(٣) العمدة (١٦٦/١).

(٤) ديوانه (٨٠٥/٢)، ومثلها في الطّول (١١٦٥/٢، ١٤٤٥/٣).

(٥) ديوانه (٢٠٢/٢).

تتراوحَ بين خمسة وثلاثينَ وخمسة وأربعينَ بيتاً.

كما أَنَّ لَهُمَا قصائدَ حربيَّةً قصيرةَ النَّفَسِ لقلَّة عدد أبياتِهَا، ولَكنَّهَا قصائدُ لا تتجاوزُ خمسَ قصائدَ للبُحْتُرِيِّ وثَمَانُ قصائدَ للمُتَنَبِّي[1].

(١) قصائد البُحْتُرِيّ في ديوانه (١/٥٨، ٧٨، ٤٥٠، و٢/٦٦٧، و٣/١٨٧٤).
وقصائد المُتَنَبِّي في ديوانه (١/٢٣٤، ٢٦١، ٣٥٩، ٣٨٤، و٢/٨٦، ١٨٥، و٣/٢٨٢، و٤/٢٩٩).

المبحث الثّاني:
خصائص المضمونِ

أوّلاً:
في التّجربةِ الشِّعْرِيَّة

تَجربتا الشّاعرَينِ المسيطرتان على قصائدهمَا الحربيَّة تَجربتان شَخْصيَّةٌ واجتماعيّةٌ، لَكِنَّ تَجربةَ المُتَنَبِّي الشَّخْصيَّةَ أكثرُ ظهوراً في قصائده الحربيَّة، وذلك لمَا يعانيه في نَفْسه منْ أمورٍ ذاتيَّة وجدانيَّة.

والذي يَهُمُّنَا هُنا هو الموازنةُ بَيْنَهُمَا في التّجربةِ الاجتماعيَّة؛ لأَنَّهَا هي التِي تُمَثِّلُ شعرَ الحربِ فعلاً، ومَنْبَعُهَا لَديهِما واحدٌ، وهو أَنَّهُمَا يتأثّرانِ بِحروبِ ممدوحِيْهِمَا، فيصفانِهَا، بيدَ أنَّ المُتَنَبِّي مُخالطٌ لِهذه التّجاربِ ومعايشٌ لَهَا في أكثرِهَا، يصفُ شيئاً رآه وتأَثَّرَ به.

أمّا البُحتُرِيّ فيصفُ -في الأكثرِ- تَجاربَ لَم يَرَهَا وإنّما سَمِعَ عَنْهَا، وقد نَصَّ -هو- على ذلكَ في شِعْرِهِ مراراً[1]، أعني: أَنَّهُ يشيرُ إلى عدمِ رؤيَتِهِ هذهِ الحروبَ، وإِنَّمَا تَصِلُهُ الأخبارُ، فَيصُوغُهَا لَحناً شاعريّاً، ويُحمَدُ لَهُ إجادَتُهُ تَجسيدِ هذه الأخبارِ، حتّى يَجعلَهَا كَأَنَّهَا مَاثلَةٌ أمَامَهَا.

---

(١) (ص: (٦٠٢) من الرّسالة.

هذا، والمُتَنَبِّي يفضلُ البُحْتُرِيَّ في استيفائه تَجارِبَهُ، أمَّا البُحْتُرِيُّ فكثيراً ما تُقَصِّرُ قصائدُهُ عن وصف تَجاربه، ويُبْتَرُ التّجربةَ، وأنتَ تودُّ لو أَنَّهُ أسهبَ في الحديثِ عَنْهَا، مع أنَّ قصائدَهُ أطولُ من قصائد المُتَنَبِّي.

وكمثالٍ على تَجاربِهِمَا الحربِيَّةِ نأخذُ هذينِ النَّصَّينِ لَهُمَا، في وصفِ بعضِ مواقعِ مَمدوحِيْهِمَا؛ فقد وصفَ البُحْتُرِيُّ بعضَ معارِكِ أبي محمَّدٍ الثَّغْرِيِّ، فقال[1]:

في كُلِّ دربٍ قد أباتَ جيادَهُ ... تَهوي هُوِيَّ جنادبٍ في حَرجَفِ
جازتْ على الجوزاتِ وانكدرت على ... ظهرٍ من الصَّفْصَافِ قاعٍ صَفْصَفِ
صبحنَ من طَرَسُوسَ خرشنة التي ... بَعُدَتْ على الأملِ البعيدِ الموجِفِ
وتركن ماوة وهي مأوى للصّدى ... مشفوعةً بصدى الرِّياحِ العُصَّفِ
وعلى قُذَاذيَةَ انحطَطْنَ برايةٍ ... أوفتْ بقادمَتي عُقَابٍ مُنْكَفِ
جزنَ الخصيَّ وقد تَقَحَّمَ طالباً ... ثأرَ الخصيِّ بركضِ جَدٍّ مُقْرِفِ
بَهَتتْهُ أهوالُ الوغَى فلو أنّه ... عينٌ لشدّةِ رعْبِهِ لَمْ تَطْرِفِ
يا يوسفُ بنُ محمّدٍ ما أحمدَ الرّ ... ومُ انصلاتَكَ بالحسامِ المُرْهَفِ
ودوا وِدَاداً لو جَدَعْتَ أُنُوفَهُمْ ... جدعَ الرّؤوسِ خلافُ جَدعِ الأنفِ
خَطبتْ إليك السّلمَ رَبَّةُ مُلْكِهِمْ ... لو كانَ يُطلبُ نائلٍ من مُسْعِفِ

(١) ديوانه (٣/١٤١٥-١٤١٦).

وفي قولِهِ: «أنزلت بالإنجيل...»، ما يتنافَى وطبيعة التّوجيه الإسلاميّ الدّاعي إلى الإيمانِ بالكتبِ السّماويَّةِ واحترامها، والقائدُ لم يذكر في الإنجيل، فلو اكتفى بإذلاله لأهل الإنجيلِ لأَحْسَنَ.

وكأنّني بكَ قد أُتِيتُ بعرشِها ... والسّيفُ أسرعُ هبةً من آصِفِ
أنزلت بالإنجيلِ ثُمَّ بأهَلِهِ ... ذُلاًّ أراهُمْ عَزَّ أهلِ المُصْحَفِ
أسخطتهُ بالبارقاتِ وإنَّمَا ... أرضيتَهُ لو كانَ غيرَ مُحَرِّفِ
فتحٌ سبقتَ به الفتوحَ فجاء في ... ميلادِ مُلْكِ العاشِرِ المستَخْلَفِ

وقال المُتَنَبِّي في وصفِ بعضِ معارِكِ سيفِ الدّولة[1]:

عقبى اليمينِ على عقبى الوغى ندمٌ ... ماذا يزيدُك في إقدامكَ القسمُ
وفي اليمينِ على ما أنتَ واعِدُهُ ... ما دَلَّ أنَّكَ في الميعادِ مُتَّهمُ
آلَى الفتَى ابنُ شُمَشْقِيقٍ فأحنَثَهُ ... فتًى من الضَّرْبِ تُنْسَى عنده الكَلِمُ
وفاعلٌ ما اشتهى يغنيه عن حَلِفٍ ... على الفعالِ حضورُ الفعلِ والكَرمُ
كُلُّ السُّيوفِ إذا طالَ الضِّرابُ بها ... يَمَسُّهَا غيرَ سيفِ الدّولةِ السَّأمُ
لو كَلَّتِ الخيلُ حتّى لا تَحَمَّلَهُ ... تَحَمَّلَتْهُ إلى أعدائِهِ الهِمَمُ
أينَ البطارِيقُ والحلفُ الذي حلفوا ... بمفرَقِ المَلْكِ والزّعمُ الذي زعمُوا
ولَّى صوارِمَهُ إكذابَ قولِهِم ... فَهُنَّ ألسنةٌ أفواهُهَا القِمَمُ
نواطقٌ مُخبراتٌ في جماجمِهْ ... عنهُ بما جهلوا منه وما علموا
الرّاجعُ الخيلَ مُحْفَاةً مُقَوَّدَةً ... من كُلِّ مثلِ وَبَارِ أَهلُهَا إرَمُ
كَتَلِّ بطريقِ المغرورِ ساكنُهَا ... بأَنَّ داركَ قِنِّسرينُ والأَجَمُ
وظَنِّهِمْ أنّكَ المصباحُ في حلبٍ ... أذا قصدتَ سواها عادَهَا الظُّلَمُ
والشّمسُ يعنونَ إلاّ أنَّهُمْ جهلوا ... والموتُ يدعونَ إلاّ أنَّهُمْ وَهِمُوا

---

(١) ديوانه (٤/١٢٩-١٣٦).

فلم تتمَّ سروج فتح ناظرها إلا وجيشك في جفنيه مزدحمُ
والنّقعُ يأخذُ حَرّاناً وبقْعَتَهَا والشّمسُ تسفر أحياناً وتَلْتَثِمُ
سحبٌ تَمرُّ بحصنِ الرّانِ ممسكةٌ وما بها البُخلُ لولا أنّها نقَمُ
جيشٌ كأنّك في أرضٍ تطاوِلُهُ فالأرضُ لا أَمَمٌ والجيشُ لا أَمَمٌ
إذا مضى علمٌ منها بدا علمٌ وإنْ مضى علمٌ منه بدا علم
وشُزَّبٍ أحمتِ الشِّعري شكائمَهَا ووسَّمَتْهَا على آنافِهَا الحَكَمُ
حتّى وردن بسمنينِ بَحيْرَتَهَا تَنشُّ بالماءِ في أشداقِهَا اللُّجُمُ
وأصحبتْ بقُرى هِنْزِيطَ جائلةً ترعى الظّبى في خصيب نبتُهُ اللِّمَمُ
فما تركنَ بِها خُلْداً له بَصَرٌ تحت التّرابِ ولا بازاً له قَدَمُ
ولا هِزَبراً له من درعِهِ لِبَدٌ ولا مهاةً لَها من شِبْهِهَا حَشَمُ
ترمِي على شفراتِ الباتراتِ بِهِمْ مكامنُ الأرضَ والغيطانُ والأكَمُ
وجاوزوا أَرْسَنَاساً مُعْصِمِينَ بِهِ وكيف يَعْصِمُهُم ما ليس يَنْعَصِمُ
وما يَصُدُّكَ عن بَحْرٍ لَهم سَعَةٌ وما يُرُدُّكَ عن طُودٍ لَهُم شَمَمُ
ضَرَبْتَهُ بصدور الخيلِ حاملةً قوماً إذا تَلفُوا قدماً فقد سَلِمُوا
تَجفَّلَ الموجُ عن لَبَّاتِ خيلِهِمُ كما تَجفَّلَ تَحتَ الغارّةِ النَّعَمُ
عَبَرْتَ تقدُّمُهُمْ فيه وفي بَلَدٍ سُكَّانُهُ رِمَمٌ مَسْكُونُها حِمَمُ

فَنجدُ بوناً شاسعاً بينَ الشّاعِرَينِ في استقصاءِ وقائعِ المعركةِ وآثارها في كُلِّ بلدٍ، فالبُحْتُرِيُّ أفردَ لِكُلِّ بلدٍ مَرَّ بِهَا ممدوحُهُ بيتاً واحداً، وقد يجمعُ في البيتِ الواحدِ الحديثَ عن بلدَينِ حديثاً مُجملاً لا تفصيلَ فيه، لا يُبرِزُ آثارَ المعركةِ حقيقةً، كما يُبْرِزُهَا المُتَنَبِّي، فهاهو يقولُ:

وتركن ماوة وهي مـأوى للصّـدى   مشفوعةً بصدى الرِّياحِ العُصَّـفِ

فَدَلَّ على أَنَّ "مأوَةَ" قد أصبحتْ خراباً، ولكنْ لم يُبيِّنْ آثارَ هـذا الخرابِ، وهذا يَدلُّ على أنّ ثوبَ القصيدةِ عندَهُ كانَ أقصرَ من جسـدِ التّجربةِ، وسببَ ذلكَ عائدٌ إلى عدمِ المشارَكَة الفعليّة في الوقائعِ الحربيَّة.

بينما نَجدُ المُتَنَبِّيَ لَمَّا تَحَدَّثَ عنْ (هَنْزِيْطَ) قال:

وأصحبتْ بِقُرى هنْزِيطَ حائلـةً   ترعى الظّبى في خصيبٍ نبتُهُ اللِّمَمُ

فما تركنَ بِها خُلْداً لـه بَصَـرٌ   تحت التّرابِ ولا بازاً لـه قَـدَمُ

ولا هِزَبِزاً له مـن درعِـه لِبَـدٌ   ولا مهاةً لَها من شبْهِهَا حَشَـمُ

ترمِي على شفراتِ الباتراتِ بِهِمْ   مكامنُ الأرضَ والغيطانُ والأكَمُ

معانٍ كثيرةٌ وأحداثٌ ضتَّى فَصَّلَهَا المُتَنَبِّيُ لو استغلَ البُحْتُرِيُّ مِثْلَهَا لأجادَ وأفادَ.

وأكثرُ ما رأيتُ البُحْتُرِيَّ يُجيدُ فيه حديثَهُ عن القائدِ وجندِهِ أو عن الفارِّينِ والمصلوبينَ؛ فَإِنَّهُ يستقصي جوانبَ تَجربَتِهِ، ويقعُ علـى صُـوَرٍ جميلةٍ، ومعانٍ بديعةٍ.

ثانياً:

في العاطفَة

عاطفةُ الشّاعِرَين في قصائدهِمَا الحربيّةِ عاطِفَةُ الفَرِحِ النّشوان، بمــا حَقّقَهُ مَمدوحُوهُما من انتصاراتٍ، ويصاحِبُ هذهِ العاطِفَةَ عاطِفَةٌ دينيَّــةٌ ناجمةٌ عن إيمانِهَا العميقُ بأنَّ انتصارَ مَمــدوحَيْهِمَا وانتصــارَ جُنْــدِهِمْ وخُذلانِ أعدائِهِمْ فيه عزٌّ للإسلامِ ومنعَةٌ لَهُ، وإذلالٌ للكفرِ وأهلِه.

وهناكَ عاطفةٌ ثالثةٌ ولَكنَّهَا قليلةُ الظّهورِ —وهي عاطِفَةُ الحزن، ممّا يرى من تقتيلِ الأقاريبِ بعضَهم بعضاً، ولَم تظهرْ هذهِ العاطِفَــةُ لــدى البُحْتُرِيِّ إلاّ في قصيدَتَيهِ اللّتين وصفَ فيهما حــروبَ ربيعــةَ وتغلــبَ، وظهرت لدى المُتَنَبِّي في قصيدَتيهِ اللّتينِ وصفَ فيهِمَا بعضَ حروبِ سيفِ الدّولةِ الدّاخليَّةِ مع بعضِ الأعرابِ.

ونتيجةً لِهذه العاطِفَةِ الحزنيَّة؛ فَإنَّ كلا الشّــاعِرَين شــفعا لــدى مَمدوحَيْهِمَا في هؤلاءِ القومِ، وذكَرَاهُمْ بقرَابَتِهِمْ مِنْهُمْ، وحَقّهِمْ عليهِمْ.

وكَمثالٍ على عاطِفَةِ الفرحِ بالنَّصرِ نأخذُ قولَ البُحْتُرِيِّ[1]:

لله دُرُّكَ يــومَ بَابَــكَ فارِســاً   بطلاً لأبوابِ الفتــوحِ قروعــا
لَمّا أتاك يقــودُ جيشــاً أرعنــاً   يُمْشَى عليــه كثافــةً وجموعــاً
وَزَّعْــتَهُمْ بــينَ الأَســنةِ والقَنَــا   حتّى أَبَدْتَ جمــوعَهُمْ توزيعــا

---

(١) ديوانه (٢/١٢٥٦)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أبا سعيد الثّغرِيّ.

في مَعْرِكٍ ضَنْكٍ تخَالُ بِه القنا ... بين الضّلوعِ إذا انحنينَ ضلوعا
ما إن تني فيه الأسنةُ والظُّبا ... لطُلَى الفوارسِ سُجّداً وركوعاً
حَلّيتَهُ بشعاعِ رأسٍ ردَّه ... لُبْسُ التّرائكِ للهياجِ صليعا
لَمّا رأوكَ تَبَدَّدَتْ آراؤُهُمْ ... وغدا مُصَارِعُ حَدِّهِمْ مصروعا
فدعوتَهُمْ بظبا الصّفيحِ إلى الرّدى ... فأتوكَ طُرّاً مهطعينَ خشوعا
حتّى ظفرتَ بِبَذِّهِمْ فتركتَهُ ... للذُّلِّ جانبُهُ وكانَ منيعا
وبذي الكُلاعِ قدحتَ من زَنْدِ القنا ... حَرْباً بإتلافِ الكماةِ وَلُوعا
لَمّا رَميتَ الرُّومَ فيه بضُمَّرٍ ... تعطي الفوارسَ جَرْيَهَا المرفوعا
كنت السّبيلَ إلى الرّدى إذكُنْتَ في ... قبضِ النّفوسِ إلى الحمامِ شَفيعا
في وقعةٍ أبقى عليهم غِبّها ... رَخَمُ الفيافي والنّسورَ وقوعا
هذا وأيُ معاندٍ ناهضتَهُ ... لَمْ تَجْرِ من أوداجِهِ ينبوعا؟!

وقال المُتَنَبّي(١):

أَلْهَى الممالكَ عن فخرٍ قفلتَ به ... شُرْبُ المَدامَة والأوتارُ والنَّغَمُ
مُقَلَّداً فوقَ شكرِ اللهِ ذا شُطَبٍ ... لا تستدامُ بأمضى منهما النَّعَمُ
ألقتْ إليك دماءُ الرّومِ طاعَتَهَا ... فلو دعوتُ بلا ضرب أجابَ دَمُ
يسابقُ القتلُ فيهم كلَّ حادثةٍ ... فما يصيبُهُم موتٌ ولا هَرَمُ
نَفَتْ رقادَ عليّ عنِ مَحاجرِهِ ... نفسٌ يُفَرِّجُ نفساً غيرَهَا الحُلُمُ

(١) ديوانه (٤/١٤١)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

وقال[١]:

فَوتُ العَدُوِّ الـذي يَمَّمْتَـهُ ظَفَـرٌ   في طَيِّـهِ أَسَـفٌ في طَيِّـهِ نَعَـمُ
قد ناب عنك شديدُ الخوفِ واصْـ   ـطنَعَت لك المهابةُ ما لا تصنع البُهَمُ
ألزمتْ نفسك شيئاً لـيس يلزمُهَـا   ألاّ يُـوَارِيَهُم أرضٌ ولا عَلَـمُ
أَكُلَّما رُمْتَ جيشاً فـأنثنَى هَرَبـاً   تَصَـرَّفَتْ بِـكَ في آثـارِهِ الهِمَـمُ
عليكَ هَـزْمُهُم في كُـلِّ مُعْتَـرِكٍ   وما عليكَ بِهِـمْ عَـارٌ إذا انهزمـوا

فَنَجِدُ عاطفةَ الفرحِ ظاهرةً في قولِ البُحْتُرِيِّ عن طريقِ التَّعْجُبِ في قولِه: ((للهِ دُرُّكَ...))، والاستنكارِ: ((هذا وأي معاند...)).

وفي أبياتِ المُتَنَبِّي في عِدَّةِ انتصاراتِ سيفِ الدّولةِ فخـراً بـه، وفي كونِ سيفِ الدّولةِ قَدْ أكثرَ القتلَ فيهِمْ، وفي تصوُّرِهِ انهزامَ المنهزمينَ، منهُمْ نصراً لَهُ.

فهذا ما ظَهَرَ من هذهِ العاطفَةِ، وأمّا ما بَطَـنَ منـها؛ فـيكْمُنُ في مُتَابَعتِهِما لأحداثِ المعارِكِ، والمُتَنَبِّي أشَدُّ إعجاباً مـن البُحْتُـرِيّ بِهـذهِ الأحداثِ، ولذا ظهرتْ قصائِدُهُ حاويةً كثيراً من دقائقِ وأحـداثِ هـذه المعارِكِ.

وكَمثالٍ لعواطِفِهِما حينَ الانتصارِ على عدوٍّ قريبٍ من الممـدوحِ نَجِدُ البُحْتُرِيَّ يقولُ مُخَاطِباً المتوكِّلَ حينَ انتصرَ على ربيعةَ[٢]:

---

(١) ديوانه (٤/٨١-٨٢)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

(٢) ديوانه (٤/٢٢٥٣-٢٢٥٤).

لَمَّا رأوا رهجَ الكتائبِ ساطعاً ... قالوا الأمانَ ولاتَ حين أمانِ
يئلونَ من حَرِّ الحديدِ وخلْفَهُمْ ... شُعَلُ الظُّبا وشواجرُ الخِرْصانِ
يومٌ من الأيّام طالَ عليهِمُ ... فكأنَّهُ زمنٌ من الأزمانِ
أُيِّدْتَ بالنَّصرِ الوشيكِ واتّبعوا ... في ساعةِ الهيجاءِ بالخذلانِ
راموا النّجاةَ وكيف تنجو عُصبةٌ ... مطلوبةٌ باللهِ والسّلطان؟!
جاءتكَ أسرى في الحديدِ أذلّةً ... مشدودةُ الأيدي إلى الأذقانِ
لك في بني غُنْمِ بن شغلبَ نعمةٌ ... فَهَلُمَّ أخرى في بني شيبانِ
أعمامُ نَتْلَةَ أُمِّكُمُ وهي التي ... شَرُفَتْ وأخوةِ عَامِرِ الضّحيانِ
نِمْرِيَّة ولدتْ لكم أسدَ الشّرى ... والنِّمْرُ بعدُ ووائلُ أَخَوَانِ
مَنْ شَاكِرٌ عَنِّي الخليفةَ في الذي ... أولاهُ من طَولٍ ومِنْ إحسانِ

ويقولُ المُتَنبِّي(١):

بنو كعبٍ وما أَثَّرْتَ فيهِمْ ... يدٌ لم يُدْمِها إلاّ السّوارُ
بِها من قطعِهِ ألَمٌ ونقصٌ ... وفيها من جَلالَتِهِ افتخارُ
لَهم حقٌّ بِشْرككَ في نَزارٍ ... وأدْنَى الشِّرْكِ في أصلٍ جِوارُ
لعلَّ بنيهِمُ لبنيكَ جندٌ ... فأوّل قُرَّحِ الخيلِ المِهَارُ
وأنت أَبرُّ من لوعق أفنَى ... وأعفى مَنْ عقوبَتُهُ البَوَارُ
وأقدرُ من يُهَيِّجُهُ انتصارٌ ... وأحلَمُ من يُحَلِّمُهُ اقتدارُ
وما في سطوةِ الأربابِ عيبٌ ... ولا في ذِلَّةِ العُبْدَانِ عارُ

(١) ديوانه (٢١٥)، من قصيدةٍ يَمدح بِها سيفَ الدّولةِ.

فَنَجِدُ عاطِفَةَ المُتَنَبِّي أَشَدَّ حَزَناً على مصيرِ هؤلاءِ؛ لأَنَّهُ لَمَّا شفعَ لَهُمْ ضربَ الأمثالَ؛ فقال: «يدٌ لَم يدمِهَا إلاّ السِّوارُ...»، وبَيَّنَ قرابَتَهُمْ مِن مَمدوحِهِ وحقوقِهِم عليهِ من قرابةٍ وجوارٍ، وبَيَّنَ ما يُرجَى لَهُمْ مِن الصّلاحِ ومسانَدَتِهِ ومسانَدَةَ أبنائه، وذكَّرَهُ بكرمِ أخلاقه.

أمّا البُحْتُرِيُّ فلم يَذْكُرْ مِنْ ذلكَ إلاّ قرابَتَهُمْ مِنْ ممدوحِهِ وهذا وحدَهُ لا يكفِي.

هذا، وقصائدُ المُتَنَبِّي التِي اختلطتْ فيها الأغراضُ كثيراً ما تكونُ عاطِفَتُهُ في مطالِعَها عاطفةً شخصيَّةً، حزينةً يائسَةً، لِعَظَمِ ما يلاقيهِ مِنْ حسادِه، ولعدمِ تَحَقُّقِ مطامِعُهُ وآرابُهُ.

وأمّا قُوَّةُ العاطِفَةِ لَدَيْهِمَا، فالمُتَنَبِّي أقوى عاطفةً من البُحْتُرِيّ في أكثرِ قصائدِهِ الحربِيَّةِ، إذا علمنا أنّ البُحْتُرِيَّ يَمدَحُ كثيراً من القادة، واختصَّ بِمدحِ عددٍ من الخلفاء، إلاّ إذا استثنينا قصائِدَهَ في أَبِي سعيدٍ وابنِه؛ فإنَّ عاطِفَتَهُ فيهِمَا قَوِيَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ.

وأمّا ثباتُ العاطِفَةِ وصِدْقُهَا لَدَيْهِمَا؛ فَهُمَا فيه سواءٌ؛ إذْ كُلُّ قصائدهِمَا تَجْعَلُنَا نُتَابِعُهَا بشوقٍ شديد، لِمَا ينقلانِ لَنَا مِنْ صُوَرِ الحربِ، كَما تَتْرُكُ في أَنْفُسِنَا أَثَراً عظيماً بِحيثُ لا نَمَلّ استعادَتَها.

ثالثاً:

في الأفكارِ

الأفكارُ التي عَالَجَهَا الشَّاعِرَانِ في قصائدهِمَا الحربيَّةِ متقاربةٌ جدًّا، وأكثرُ قصائدهِمَا متوائمةُ الأفكارِ، ويدعو بعضُها بعضاً، وإن وجـدَ في بعضِهَا ما يُشعرُ التّفكُّكَ[١].

أمّا من حيثُ الوضوحُ والغموضُ فالبُحْتُريُّ أكثرُ وضوحاً في معانيه من المُتَنَبِّي، وهذا راجعٌ إلى مذهبِهِ الشِّعْرِيِّ، وأنَّهُ لم يكنْ ممَّنْ يُـدَقِّقُونَ عندَ عرضَ أَفْكَارِهِم، ولا مِمَّنْ يَنْحُونَ مناحِي فلسفيَّة، كذلك لم يكـنْ ممَّنْ يعاظِلُ بين ألفاظهِ بالتّقديمِ والتّأخيرِ غير البليـغِ، أو ممَّـنْ يَحشُـدُ الضّمائرَ، مع عدمِ مراعاةِ مرجعِ كُلٍّ منها؛ لأَنَّ كُلَّ ذلكَ ممّا يزيـدُ في الغُموضِ، ومثالُ ذلكَ لِمعرفةِ الفرقِ فيما بينَهُمَا في ذلك نأخـذُ قـولَ البُحْتُرِيِّ في وصفِ ممدوحِهِ وانبهارِ الأعداءِ حينَ رؤيَتِهِ[٢]:

لَمّـا رأوكَ تَبَـدَّدَتْ آراؤُهُـمْ وغدا مُصَارِعُ حَدِّهِمْ مصـروعا
فدعوتَهُمْ بظبا الصّفيحِ إلى الـرّدى فأتوكَ طُرّاً مهطعـينَ خشـوعا

---

(١) (ص:٦١٧-٦٣٥، ٧٨٧-٨٢٠)، من الرّسالة.

(٢) ديوانه (١٢٥٦/٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أبا سعيد الثّغرِيّ.

وقال المُتَنَبِّي في مثلِ هذه الحالِ(١):

لَمّا رأوكَ رأوا أباكَ محمّداً ... في جوشنٍ ورأوا أخاكَ معاذا
أعجلتَ ألسنَهُمْ بضربِ رِقَابِهِمْ ... عن قولِهِمْ لا فارسٌ إلاّ ذا

فالبُحْتُرِيُّ ذكر من علاماتِ هذا الانبهارِ تَفَرُّقُ الكلمةِ ووقوعِ الهزيمةِ عليهمْ وإكثارُ القتلِ فيهِمْ، وكَأَنَّمَا جاؤوا بإرادتِهِم.

والمُتَنَبِّي ذَكَرَ مِن علاماتِ هذا الانبهارِ: أَنَّهُمْ لَمَّا رأوه تَصَوَّرُوهُ أباهُ أو أخاهُ، وليسَ في مشابَهتِه لَهُمَا في الشّجاعة -مثلاً- كبيرُ فخرٍ بل الفخرُ أن لا يكون له مثلٌ، وذكر أيضاً أَنَّهُمْ لو مكّنُوا من الكلامِ لقالوا: لا فارسٌ إلاّ ذا، وهذا جَيِّدٌ.

وكَمِثالٍ آخرَ نَأْخُذُ وصْفَهُمَا للفرسانِ المقتالينَ فالبُحْتُرِيُّ يقول(٢):

سمونا لهم في عصبةٍ بحتريَّةٍ ... يُكرُّونَ ليسوا يَعْرِفُونَ سوى الكرِّ
إذا وَتَرُوا خَلَّوا جفونَ سيوفِهِمْ ... خلاءً ولا يُغْضُونَ جفناً على وُتْر

والبُحْتُرِيّ يقولُ(٣):

وإذا أشفقَ الفوارسُ من وقْعِ القنا ... أشفَقُوا من الإشفاقِ
كُلُّ ذِمْرٍ يزيدُ في الموتِ حُسناً ... كبدورٍ تمامُهَا في المَحَاقِ

(١) ديوانه (١٨٦/٢)، من قصيدةٍ يَمدح بِها مساور بن محمّد الرّومي.
(٢) ديوانه (١٠٨٣/٢)، من قصيدةٍ فخريّةٍ.
(٣) ديوانه (١٠٦/٣)، من قصيدةٍ يَمدح بِها أبا العشائر.

فالبُحْتُرِيُّ وَصَفَهُمْ بالإقدامِ، وأَنَّهُمْ لا يعرِفونَ سوى الكَرِّ فلا يَخافُونَ ويفرُّونَ، والمُتَنَبِّي أراد أن يَصِفَهُمْ بالإقدامِ والثّباتِ في ميدانِ المعركةِ، ولَكِنَّهُ لَم يجيءْ بِصورٍ واضحةٍ، بل جاءَ بِهَا غامضةً معقّدةً، فَجَعَلَهُمْ في المواطِنِ التي يُخافُ فيها الفرسانُ من الفرارِ، هم يَخافونَ من هذا الخوفِ أن يقعَ في قلوبِهِمْ، ،فلا يُمْكِنُ أن يَحصلَ لَهُمْ أصلاً، فَهُمْ ثابتونَ دائماً، فقد احتاجَ تسفيرُهَا إلى هذا الكُمِّ من الكلماتِ، وتفسيرُ البيتِ التّالي لَهُ، أشدُّ تعقيداً وقد تَقَدَّمَ الحديثُ عنه وَعَمَّا فيه من غموضٍ(١).

١-أفكاره من حيثُ العمقُ والسّطحيّةُ:

فالمُتَنَبِّي أشدُّ عُمْقاً من البُحْتُرِيِّ، خاصّةً إذا علمنَا أَنَّهُ ينقلُ الصُّورَةَ الواحدةَ إلى عدَّةِ أشياءَ دونَ أن نشعرَ أَنَّهَا مَرَّتْ عَلَينا من قبلُ، مثالُ ذلكَ معنَى عدمِ نفعِ أيِّ سلاحٍ أو عتادٍ حربِيٍّ إذا لم يكنْ مستخدمُهُ شجاعاً مِقْداماً؛ فَإِنَّ البُحْتُرِيَّ لَم يثبتْ هذا المعنَى إلاّ للسَّيفِ فقال(٢):

وما السّيف إلاّ بزُّغادٍ لزينَةٍ إذا لم يكنْ أمضى من السّيفِ حَامِلِهْ

وقال(٣):

فلا تُغْلِيَنْ بالسّيفِ كلَّ غَلائِهِ ليمضِي فإنّ القلبَ لا السّيفَ يقطعُ

(١) (ص: ٧٩٧) من الرّسالة.

(٢) (ص: ٢٣٢) من الرّسالة.

(٣) (ص: ٢٣٢) من الرّسالة.

لَكِنَّ المُتَنَبِّيَ أَثْبَتَهُ للسَّيفِ وكَرَّرَهُ مراراً؛ فقال(١):

إنّ السّيوفَ مع الذين قلــوبُهُمْ كقلوبهنَّ إذا التقــى الجمعــانِ

وقال(٢):

تلقى الحسامَ على جراءةِ حَدِّه مثلَ الجبانِ بكفّ كلِّ جَبَــانِ

وقال(٣):

إذا ضَرَبَتْ بالسّيفِ في الحربِ كَفّه تبينت أنّ الكَفَّ بالسّيف يضربُ

وأَثْبَتَهُ للفرسانِ فوقَ الخيلِ ومعهم الرِّماحُ؛ فقال(٤):

وما تنفعُ الخيلُ الكرامُ ولا القنا إذا لم يكن فوقَ الكــرامِ كــرامُ

كما أَنَّهُ أيضاً قد يفتقُ من المعنَى الواحدِ عِــدَّةَ معــانٍ بخــلافِ البُحتُرِيّ، فَمَثلاً: معنَى زيارةِ الأعداءِ لَم يستخرجْ منه البُحتُرِيُّ إلاّ معنًى واحداً، وهو عدمُ الشَّوقِ إليها؛ فقالَ(٥):

نزورَ بلا شوقٍ تذورةَ وابنــها وق صَدَّ عنها توفلٌ بن مُخَــايِلا

بينما المُتَنَبِّي قد استخرجَ منه معنَيَين:

الأوّلَ: عدمُ الشّوقِ.

---

(١) (ص:٣٦٢، ٨٠٢)، من الرّسالة.

(٢) (ص:٣٦٢)، من الرّسالة.

(٣) (ص:٨٠٣)، من الرّسالة.

(٤) (ص: ٨٠٣)، من الرّسالة.

(٥) (ص:١٨٨) من الرّسالة.

والثّانِي: الجرأةُ والإقــدامُ اللّذين اتّصفَ بِهِمَا مَمدوحُــهُ؛ فقــد قال[١]:

نزورُ دياراً ما نحبُّ لها مغنَــى   ونسألُ فيها غيرَ سَاكِنِهَا الإِذْنــا

وهذا لا يعني عَدَمَ عُمْقِ أفكارِ البُحْتُرِيِّ؛ فَإِنَّ لَهُ أفكاراً عَميقةً يَدُلُّ عليها ما يَحشدُهُ في قصيدِهِ من معانٍ شتَّى؛ فهو مثلاً يَمدحُ الخليفــةَ أو الأميرَ بالشجاعةِ والكرمِ والدّيانةِ وسدادِ الرّأيِ وحسنِ الخلقِ، وهيبةِ النّاس لَهُ، وعراقةِ نسبِهِ وجمالِ وجهِهِ، ولَمِّ شعثِ الأُمَّةِ، ثم يصــفُ معارِكَــهُ ونَتَائِجَهَا، غيرَ ما يَحشُوهُ في مقدِّمةِ قصائدِهِ من المعانِي البديعة[٢].

٢-أفكاره من حيثُ التّقليدُ والتّجديدُ:

فَمَعَانِي البُحْتُرِيِّ كُلُّهَا تَقليديَّةٌ إلاّ إذا استثنينا تَنَاوَلَهُ لِحربِ البَحــرِ وأحوالِ الأسرى المسجونين[٣].

أمّا المُتَنَبِّي فَلَهُ معانٍ كثيرةٌ جديدةٌ لَم يُسْبَقْ إليهــا، ومــن ذلــك استخدامُهُ معانِيَ الغزلِ في حديثِ الحربِ،و مَدْحُهُ سيفَ الدّولةِ بِجــنسِ السّيفيَّة[٤].

(١) (ص: ٣٠٤)، من الرّسالة.

(٢) (ص: ٦٢٦)، من الرّسالة.

(٣) (ص:٦٢٦، ٦٢٩-٦٣٢)، من الرّسالة.

(٤) (ص:٨٠٩-٨١٢)من الرسالة.

٣-أفكّاره من حيثُ المبالغةُ والاقتصادُ:

فالبُحْتُرِيُّ -في الغالبِ- مقتصدٌ لا يُبالِغُ كثيراً، وإن بَالَغَ لا يفـرطُ أو يحيلُ، بينَمَا نَجِدُ المُتَنَبِّيَ يَعمَدُ إلى المبالغةِ دائماً، حتّى عَدَّهَا الدّكتورُ طه حسين من مقوِّماتِ فَنِّه[١]، ومن ذلك معنَى كثرةِ غزواتِ الممدوحِ؛ فإنَّ البُحْتُرِيَّ يقول[٢]:

ووصلت أرضَ الرّومِ وصل كُثَيِّرٍ   أطلالَ عَزَّةٍ في لـوى تَيمـاءِ

والمُتَنَبِّيُ يقولُ[٣]:

أنتَ طولَ الحياةِ للـرّومِ غـازٍ   فمتَى الوعدُ أن يكونَ القُفُـولُ

وقال[٤]:

أخو غزواتٍ ما تَغِبُّ سـيوفُهُ   رقـابَهُمُ إلاّ وسَـيْحَانُ جامـدُ

فالبُحْتُرِيُّ جَعَلَ إكثارَ ممدوحِهِ للغزوِ ككثرةِ وصلِ كُثَيِّـرِ أطـلالَ عِزَّةَ؛ فالمعنَى قريبٌ لا مبالغةَ فيه.

وأمّا المُتَنَبِّي فَبَالَغَ بِجَعْلِه غازياً لَهُمْ طولَ الحياة.

وعموماً؛ فَمُبَالَغَاتُ أبي الطَّيِّبِ أكثرُهَا مقبولٌ؛ لأَنَّهَا تزيدُ المعنَـى الحربِيَّ تهويلاً، وهذا لا بأسَ به في شِعْرِ الحرب.

(١) (ص: ٨١٦)، من الرّسالة.

(٢) (ص: ١٦٩)، من الرّسالة.

(٣) (ص: ٣١٢)، من الرّسالة.

(٤) (ص: ٣١٢)، من الرّسالة.

وبِهذا نأتِي إلى ختَامِ الموازنَةِ بيْنَ الخصائصِ الفنِّيَّةِ لِشعْرِ الحربِ لَدَى الشَّاعِرَين، والحمد لله على ذلك.

الخَاتِمَةُ

بعد هذا التّجوالِ في ديوانَي البُحْتُرِيِّ والمُتَنَبِّي الذي اسـتطعتُ – بِحمد الله– من خلالِه الوقوفَ على الشِّعْرِ الحرْبيِّ لَدَيْهمَا، والتَّعرُّفَ على مدى متابَعَتِهمَا لِخطواتِ الحربِ خطوةً خطوةً؛ فَإِنِّي أوجزُ هذه الدّراسةَ، وأُبَيِّنُ أَهَمَّ النُّقَاطِ التِي توصَّلْتُ إليها فيما يلي:

١– قامتْ هذه الدِّرَاسةُ على ثلاثةِ أبواب، في كلِّ باب ثلاثةُ فصـولٍ، فأمّا البابُ الأوّلُ، وكانَ بعنوانِ: (عصرُ كُلٍّ من الشَّاعِرَين وحياتُهُ)، فقد تَحدَّثْتُ في الفصل الأوّل منه عن: (عصر البُحْتُرِيّ وحياتِـه)، بادئاً بالحديث عن عصرِه وما كان فيهِ من أحداثٍ سياسيّة؛ فذكرتُ خلفاءَهُ العشرةَ، وكان أَوَّلَهُمْ المأمونَ وآخرَهُم المعتضدُ، كما ذكرتُ أشهرَ ما كان فيهِ من حروبٍ داخلية منها: حربُ بَابَكَ الخرمِـيِّ، ومساوِرِ الشّارِي، ويعقوبِ الصَّفَارِ، والعلويِّ قائد الـزِّنْجِ، ومـن حروبٍ خارجيَّة منها: فتحُ المعتصمِ عموريَّةَ ومحارَبَةُ بغا الكبيرِ لأهل أرمينية، وغزوةُ محمّد بن عبد الله القَمِّيّ للبُجاة بِمصر، وبعضُ حربِ ولاةِ الثّغورِ وولاةِ صقلية[1].

٢– ثم تَحَدَّثتُ عن الحياة الاجتماعيةِ ومظاهرِهَا المتمثّلة في تعدّدِ أجناسِ الشّعبِ، وتكوّنِ المنجتمعِ من طبقاتٍ نظراً لتغيّرِ ظـروفِ المعيشـةِ

(١) الرّسالة (ص:٢١–٣٥).

واضطرابهَا، وتنوّع الدِّيانات من يَهوديَّة، ونصـرانيَّة، ومَجوسـيَّة، وصابئة، ممن كان يعيشُ في ظلِّ سَماحة الإسلام وذمَّته.

٣- كما تَحدَّثْتُ عن تشكلِ صورِ الحياة العامّة تبعاً للظّروف التي تَمُـرُّ بها الخلافةُ من أمنٍ وما يَحلقهُ من رخاءٍ وثراءٍ أو اضطرابِ أحوال، وما يَتبعُهُ من فقرٍ وبؤس، وما نَجَمَ عن الحالة الأولى؛ مـن كثـرة الرّقيقِ والجواري والمجونِ والتَّهتُّكِ لَدى بعضِ الطّبقات، وما ترتَّـبَ على الحالة الثّانية: من شعوبيّة وعداءٍ مَقيْت للعرب[1].

٤- ثُمَّ تَحدَّثْتُ عن الحالةِ الثّقافيّة، وكيفية طلـب النّـاس العلـمَ، في الكتاتيبِ وحلقِ المساجد، وما كانَ من اهتمامِ الخلفاءِ ووزرائهـم بالعلمِ وأهله، وما نَجَمَ عن ذلكَ من كثرةِ العلماء والشّعراء، وقـد ذكرتُ أشهرَهُمْ صيتاً ثم آثارَ هذه الثّقافة، وما نشأ عنها من تَنـوّع المذاهبِ وتعدّدِ الفرقِ كأهلِ السّنة، والمعتزلة والشّـيعة والصّـوفية والزّنادقة[2].

٥- وبعد حديثي عن العصرِ تَحدَّثْتُ عن حياةِ البُحْتُريِّ وعَرَّفْتُ بِنَسبه، وأَنَّهُ طائيٌّ قحطانيٌّ من مواليدِ أرضِ الشّامِ بالقربِ من حمص، وقد نشأ بينَ أهلهِ وعشيرَته، ثم ارتحلَ أوّلاً إلى الشّامِ، وبه تعرَّفَ على أبي سعيدِ الثّغريِّ، وابنِهِ وأبي مسلمِ بن حميدِ الطّوسيّ وإخوتِه، وعلـى

---

(١) الرّسالة (ص: ٣٦-٤٤).

(٢) الرّسالة (ص: ٤٥-٥٣).

الفتح بنِ خاقانَ الذي وصلَهُ فيما بعدُ بالخليفةِ العبَّاسيِّ المتوكِّلِ على اللهِ، وقد ارتَحلَ -أيضاً- إلى العراقِ مرّاتٍ عديدةٍ، كان أَهَمُّهَا رحلَتَهُ التي نالَ القربَ والحظوةَ بها منَ الخليفةِ المتوكِّلِ، ومن ثَمَّ اتِّصَالُهُ بمَن بَعدَهُ من الخلفاءِ والوزراءِ، وأشهرِ وجهاءِ العصرِ، وبَيَّنْتُ أَثَرَ هذه الرّحلاتِ عليه من شهرةٍ وثروةٍ ورقَّةِ ديباجةٍ، وإجادةِ فنونِ المنادَمَةِ، وفخرِه بذلكَ[1].

٦- ثُمَّ تَحدَّثْتُ عن شَخصيَّته المتمَثّلة في صفاته الخَلْقية والخُلْقية التي كان من أشهرِهَا أَنَّهُ كان ذَكِيّاً يعرفُ نَفْسيَّةَ مَمدوحه، فيقفَ في شِعْرِه على رَغباتِه، كما كانَ وَفيّاً لأصدقائه، كثيرَ الفخرِ بنسَبِه وشِعرِه، وشَاعِرِيَّتِه، وبما لقيَهُ منْ جاهٍ، كما تَحَدَّثْتُ عن علاقَته بصفة عامّة بالخلفاءِ والوزراءِ، وما ترتّب على ذلك من وجودِ قرابة مُحبِّين له، وأعداءَ مُبْغِضِين له، بعضهم من أترابِه ومعاصريه من الشُّعراءِ؛ كابنِ الرّومي وبعَضُهُمْ من قراباتِه وأبناءِ عمومَته[2].

٧- ثُمَّ تَحدَّثْتُ عن شِعْرِه وأشهرِ أغراضِه من المديحِ والغزلِ والوصفِ والهجاءِ والعتابِ والرّثاءِ والفخرِ والتّهنئة والتّوديعِ وذمِّ الزّمانِ، والإخوانيّاتِ، ثُمَّ ذكرتُ محاسنَ شعرِه المُتَمَثّلة في رِقّةِ الدّيباجَةِ وحسنِ سبكِ اللّفظِ على المعنَى، وجمالِ الموسيقي وحسنِ

(١) الرّسالة (ص: ٥٤-٦٨).

(٢) الرّسالة (ص: ٦٩-٧٧).

الاستهلالِ، وما عيبَ عليهِ من عدمِ تنسيقِ أفكارِه، وعدمِ إحســانه التّخلُّصَّ والخروجَ، وما اتُّهِمَ بِهِ منِ السَّرق، ثُمَّ تَحدَّثْتُ عن شَاعرِيَّتِه وما قالَهُ النُّقَّادُ من الشّهادةِ له بالشّاعرِيَّةِ حتّى عدوه صاحبَ طريقةٍ نسبتْ إليه[1].

٨- كما تَحَدَّثْتُ عن وفاتِهِ مكاناً وتاريخاً وعن أشهرِ آثارِه المُتمَثِّلــةِ في ديوانِهِ ومن رواه أو شرحَهُ، وعن تأليفهِ كتابَ حماسةٍ، على غــرارِ حماسةِ أبي تَمامٍ، وكتاباً اسمه (معانيَ الشّعر) لم يصلْ إلينا[2].

٩- وقد تَحَدَّثْتُ في الفصلِ الثّاني عن: (عصر المُتَنَبِّي وحياتــه)، علــى غرارِ حَديْثي عن البُحْتُرِيّ، ففي حديثي عن عصرِهِ، تَحَدَّثْتُ عــن أشهرِ الأحداثِ السّاسيةِ، من تعاقبِ ستّة خلفاء علــى الخلافــة، أَوَّلُهُم: المقتدرُ باللهِ وسادِسُهُمْ المطيعُ للهِ، ومــن تَعــدُّدِ إمــاراتٍ، وأشهرُها خمــسُ إمــاراتٍ، هــي: (الحمــدانيّون، والبويهيّــون، والإخشيديّون، والفاطميُّون، والسّامانيّون)[3].

ومن كثرة الحروبِ الدّاخليةِ والخارجيةِ؛ حيثُ تَمثَّلتِ الدّاخليةُ في خروجِ القرامطةِ والخوارجِ أوَّلَ العصرِ على الخلافــةِ في باديــةِ العــراقِ والشّامِ، ثم في تنازُعِ الإماراتِ، كُلٌّ تَنَازَعُ جارتَها ما قارَبَها من البلدانِ،

(١) الرّسالة (ص: ٧٨-٩٠).

(٢) الرّسالة (ص:٩٠-٩٢).

(٣) الرّسالة (٩٥-٩٩).

كما تَمَثَّلتِ الحروبُ الخارجيَّةُ في صَدِّ هَجماتِ الفرنجة التي استشرتْ هذا العصرُ وقوِيَ أوارُها أو في بعضِ غزواتِ المسلمين، وأشهرِ من وَلِيَ ذلكَ من أمثالِ سيفِ الدّولة[1].

١٠- ثُمَّ تَحدَّثْتُ عن الحياةِ الاجتماعيةِ وملامحِهَا المُتَمَثِّلـةِ في تعـدّد أجناسِ الشّعب من عربٍ وتركٍ وفرسٍ وأفارقة، وقد قَوِيَ نُفـوذُ الفسِ في هذا العصرِ، نظراً لِتولِّيْهِم زمامَ الأمورِ في بغدادَ، بحكـمِ دولتِهُمْ البويهيّةِ الدّيلميّة، كمنا تَمَثَّلَتْ هذه الملامـحُ في تعـدّد طبقاتِ الشّعبِ استمراراً لِمَا كان في العصرِ السّـابقِ، وذكـرتُ بعض صورِ الحياةِ العامّةِ، وما فيها من ترفٍ تعدّدَتْ مراكزه، نظراً لِتعدُّدِ مراكز الإماراتِ، وما فيها من فقرٍ وبؤسٍ لكثـرةِ الفـتنِ والحروبِ، وآثارِ كُلٍّ على الحياةِ من كثرةِ المجانِ والباذخين والزّهّادِ والمتصوِّفة[2].

١١- ثُمَّ تَحَدَّثْتُ عن الحياة الثّقافيةِ، وكيفيةِ طلبِ العلـمِ في المسـاجدِ والكتاتيبِ، والمجالسِ الخاصّةِ والكتباتِ والمنتدياتِ وفي الحـدائقِ، وذكرتُ صوراً من اهتمامِ الخلفاء ووزرائِهِمْ والوجهـاء بـالعلمِ وأهلِهِ، وما ترتَّبَ على ذلكَ من كثرةِ العلماءِ والأدباءِ والشّعراءِ، وقد ذكرتُ أشهرَهُمْ، ثُمَّ ذكرتُ أشهرَ الفرقِ والمـذاهبِ، وقـد

---

(١) الرّسالة (ص: ١٠٠-١١).

(٢) الرّسالة (ص: ١١٢-١١٧).

لوحظَ عليه قوَّةُ سلطانِ الشّيعة لمناصرةِ الإماراتِ الشّيعيةِ المُتَمَثِّلة في البويهيِّين والحمدانيِّين لَهُمْ(١).

١٢- ثُمَّ تَحَدَّثْتُ عن حياة المُتَنَبِّي ذاكراً أَنَّهُ جعفيٌّ صريحُ النَّسبِ، من مواليدِ الكوفةِ، نشأ في عصرٍ كثرتْ فيه الفتَنُ، وقويَتْ شوكةُ القرامطةِ، وقد تعَّلم في كتاتيبِ الكوفةِ، كما ارتحلَ إلى الباديةِ لإفادةِ الفصاحةِ من أهْلِهَا، وقد صبّغته هذه الرّحلةُ بثوريةٍ ظاهرةٍ في شِعْرِهِ، كما ظهرَ أثرُ تعلُّمهِ في حرصهِ على الغريبِ في شِعْرِهِ، وفي اطّلاعهِ على شِعْرِ مَنْ سَبَقَهُ وحفظِهِ الكثيرَ منهُ، كما بدأ بالرّحلات إلى الشّام؛ فَمَدحَ أمراءَهَا، وسجنَ هناكَ مُتَّهماً بالثّورةِ، وقيل لادّعائه النُّبوَّةَ، ثم عادَ إلى الكوفةِ مَرَّةً ثانيةً؛ لَكنَّهُ لم يلبثْ أن عادَ إلى الشّامِ مادحاً بعضَ الأمراءِ، كانَ من أشهرِهِمْ: بدرُ بن عمّارٍ الأسديُّ، وأبو العشائرِ ابنُ عَمِّ سيفِ الدّولةِ، إلى أن تَمكَّنَ من مدحِ سيفِ الدّولةِ، فاستأثر به إلى أن فارَقَهُ مغاضباً بعدَ مُكْثٍ دامَ تسعَ سنينٍ، مُصَوِّباً أطرافَ الشّامِ ممّا يلي الرّملةَ، ومنها تَوَجَّهَ إلى الفسطاط استجابةً لرغبةِ كافور الإخشيديِّ الذي لم يَلقَ عندَهُ ما يُؤَمِّلُهُ ففارَقَهُ فارًّا، إلى أَنْ دخلَ الكوفةَ، فأقامَ متنقلاً بينها وبين بغدادَ، ثم رَحلَ إلى ابن العميدِ في أَرَّجَانَ من الإقليمِ الفارسيِّ الذي أغزاه بالوفودِ على عُضَدِ الدّولةِ في شيرازَ؛ حيثُ مَكَثَ عندَهُ

---

(١) الرّسالة (ص: ١١٨-١٢٩).

مُكَرَّماً إلى أن رغبَ في العودةِ إلى العراقِ فعادَ، وقبلَ أن يصلَ قُتِلَ في الطَّريقِ على مشارفِ بغدادَ سنة: (٣٥٤هـ)[١].

١٣- ثُمَّ تَحَدَّثْتُ عن شَخْصِيَّتِهِ ذاكراً أشهرَ صِفَاتِه الخُلُقِيَّةِ من الذَّكاءِ وقوَّةِ الحافظةِ والطُّموحِ والتّعاظمِ وآثارَ ذلكَ من كثرةِ الأعداءِ وقلَّةِ الأصدقاءِ، وكذا حُبُّهُ الغربةِ، واعتزازِهِ بعربيَّتِه[٢].

١٤- ثُمَّ تَحَدَّثْتُ عن شِعْرِهِ، وظهورِ شَخصيَّتِه فيه، وما يُلَوِّنُهُ به من فخرٍ بنفسِهِ أو بشاعريَّتِهِ أو بذَمِّهِ الزّمانَ وأهلَهُ، ذاكراً أشهرَ أغراضِ شعرِهِ من المديحِ والفخرِ والوصفِ والهجاءِ والرّثاءِ والحكمةِ، والغزلِ وقد لوحظَ عليه، قلَّةُ وصفِهِ لمشاهدِ الطّبيعةِ، وقلَّةِ غزَلِهِ، وذلك لذَمِّهِ العشقَ وأهلَهُ، وإن وُجدَ له شيءٌ من ذلكَ فهو نسيبٌ في الأعرابيّاتِ في بعضِ ماطَلِعِ قصائدِهِ، يَتَميَّزُ بالعفَّةِ والطّهْرِ.([٣])

١٥- ثُمَّ ذكرتُ أشهرَ مَحاسنِ شِعْرِهِ، والتي لَخَّصَهَا الثَّعالَبِيُّ بِحسنِ المطلعِ، وأجادةِ التّخلُّصِ وجمالِ التّشبيهِ، وعذوبةِ التّقسيمِ، وإرسالِ الحِكَمِ والأمثالِ، كما ذكرتُ أشهرَ ما عيبَ عليه من التّعميةِ

---

(١) الرّسالة من: (١٣٠-١٤٩).

(٢) الرّسالة من: (١٥١-١٥٥).

(٣) الرسالة من : (١٥٦-١٦٠)

والتّفاوتِ بينَ الجيِّدِ والرّديءِ، وإتيانه بالشّاذ من اللغةِ والغريبِ الوحشيِّ، والمبالغاتِ المقوتَة شرعاً أو عقلاً[1].

١٦- ثُمَّ تَحدَّثْتُ عن شَاعِرِيَّتِهِ وأشهرِ أقوالِ النُّقَّادِ فيها، وأنَّهُ بَلَغَ شهرةً لم يَبلغْهَا شاعرٌ قبلَهُ ولا بعدَهُ ملأ بِهَا الدّنيا وشغَلَ النّاسَ[2].

١٧- وقد وازنتُ في الفصلِ الثّالث (بين عصرَيِ الشَّاعِرَين وبينَ حياتِهِمَا)، وقد اتَّضحَ لِي من خلالِ الموازنة بينَ العصرينِ ما يأتي:

- قوَّةُ سلطانِ الخلافةِ في عصرِ البُحتُرِيّ عنهُ في عصرِ المُتَنَبِّي، لِمَا نَجَمَ عن ذلكَ في عصرِ المُتَنَبِّي من استقلالِ الإماراتِ عن الخلافة، ممّا كان سبباً في اتّجاهِ أنظارِ النّاسَ -ومن بينهم المُتَنَبِّي- إلى أمراءِ هذه الدّويلاتِ، وعدمِ مَدحِهِ الخليفةَ قَطّ[3].
- أنّ الحروبَ الدّاخليّةَ في عصرِ البُحتُرِيِّ كان يقومُ بِها أفرادٌ ضدَّ الخلافةِ من أمثالِ بَابَكَ الخرمِيِّ، وقائدِ الزَّنْجِ والقرامِطَة، بيدَ أَنَّهَا في عصرِ المُتَنَبِّي كانتْ حروباً بينَ أمراءِ الإماراتِ، إلاّ إذا استثنينا حروبَ القرامِطَةِ أوَّلَ القرنِ[4].

---

(١) الرّسالة من: (ص:١٦٣).

(٢) الرّسالة من: (ص:١٦٤-١٦٥).

(٣) الرّسالة من: (ص:١٩٦-١٧٠).

(٤) الرّسالة من: (ص:١٧٠).

- أنّ الحروبَ الخَارجيَّةَ -أو بالأحرى- (الجهادَ) في عهد البُحْتُـرِيِّ كانتْ موكولةً إلى قادة أفذاذ، ولَم يَتولَّ قيادَتَهَا الخلفاءُ وخاصّـةً مذ عهد الواثق بالله، ولِهَذا لَمّا مدحَ البُحْتُرِيُّ الخلفاءَ لَم يَمدَحْهُمْ كقادة محاربِينَ، وإنّما أشارَ إلى حروبِ قوادهِمْ ونَتَائجِهَا، أمّـا في عهد المُتَنَبِّي فقد كانَ سيفُ الدّولةِ هو القائدُ لَهَا، ولِهذا لَمّا مَدَحَهُ المُتَنَبِّيُ أبرز هذه الصِّفَةَ فيه وَأَلَحَّ عليها[1].
- أنّ الحياةَ الاجتماعية متشابِهَةٌ في أكثرِ أحوالِهَا في هذينِ العصرينِ إلاّ أنَّ سيطرةَ التّركِ في عهد البُحْتُرِيّ كانتْ أكثرَ، بينما ضَـعُفَ سُلطانُهُمْ في عهدِ المُتَنَبِّي لِتولّي الفرسِ زِمامَ الأمورِ، كما تعدَّدَتْ مراكزُ التّرفِ نظراً لِتعدُّدِ عواصمِ الإمارات[2].
- أنّ الحياةَ الثّقافيةَ قد زادَ نشاطُهَا في عهدِ المُتَنَبِّي لِتعدُّدِ مراكزِ العلومِ تبعاً لِتَعدُّد عواصمِ الإماراتِ، وظهرَ في كلا العصـرينِ شـعراءُ فحولٌ، لَكِن شهرةَ البُحْتُرِيِّ والمُتَنَبِّي غَطَّتْ على أكثرِهِمْ.([3])
- ومن حيثُ المذاهبُ والفرقُ، فقد ضَعُفَ سلطانُ المُعْتَزِلَة منذُ عهدِ البُحْتُرِيِّ لإضعافِ المتوكِّلِ لَهُ، بينما نَجدُ نفوذَ الشّيعةِ قد زادَ في

(١) الرّسالة من: (ص:١٧١).

(٢) الرّسالة من: (ص:١٧١-١٧٢).

(٣) الرسالة ص : (١٧٢).

عصرِ المُتَنَبِّي لِوجودِ البويهيِّين والحمدانيِّين والفاطميِّين(١).

١٨- أمّا من حيثُ الموازنةُ بين حياتَي الشّاعِرَين؛ فقد ظهر لِي:

- أنّ المُتَنَبِّي أعمقُ ثقافةً من البُحْتُرِيِّ لِكونِه درسَ في كتاتيبِ الكوفةِ، وخالَطَ الأعرابَ وجالَسَ العلماءَ وناقَشَهُمْ، وشِعْرُهُ شاهدٌ على ذلك.

- كما ظهرَ لِي أيضاً من خلال الاطلاعِ على ملابساتِ نشأتِهِمَا ورحلاتِهِمَا أنّ حياةَ البُحْتُرِيِّ كانتْ مستقرّةً هادئةً، فلم يَرحلْ إلاّ لطلبِ مزيدٍ من الثّروةِ، وكانَ ذا منعةٍ في قومِه، بخلافِ المُتَنَبِّي الذي كانتْ حياتُهُ حياةً مضطّرِبَةً لاقَى فيها كثيراً من الأعداءِ وصنوفاً من العناءِ(٢).

وأمّا الباب الثّاني: فكان بعنوان: (موضوعات شعر الحربِ عند الشّاعِرَين)، ويتكوّن من ثلاثةِ فصولٍ:

الفصلُ الأوّلُ في: (موضوعاتِ شعرِ الحربِ عند البُحْتُرِيّ).

١٩- وقد قمتُ لَهُ بِتَمْهِيد أثبتُ فيه مشاركَتَهُ في الحرب مرحلةً مرحلةً، منذُ الإعدادِ لَهَا، بادئاً بِما جاءَ لهُ من وصفِ القائدِ بطولِ القامَةِ وبهاءِ الطّلعةِ وجمالِ الوجهِ وهيبةِ النّاسِ لَهُ وعراقةِ النّسبِ والكرمِ

(١) الرّسالة من: (ص:١٧٣-١٧٤).

(٢) الرّسالة من: (ص: ١٧٥-١٧٦).

والشّجاعةِ ودلائِلِهَا وسدادِ الرّأي، والكيدِ وكتمانِ السِّرِّ وحسنِ التّدبيرِ والعزمِ والحزمِ وخشونةِ العيشِ وقلّةِ النّومِ[١].

٢٠- ثُمَّ ذكرتُ ما جاءَ له في وصفِ الجندِ من وصفِ صِفَاتِهِمُ الخَلْقيَّةَ كقوّةِ الأجسادِ وطولِ القامةِ، وبُعْدِ ما بينَ المنكبينِ وابيضاضِ الوجهِ، ثم ما ذَكَرَّ من صفاتِهِمُ المكتسبةِ؛ كالدّربةِ على القتالِ وإجادةِ الرَّمْيِ، ثُمَّ ما ذَكَرَ من صِفَاتِهِمْ الخُلُقيَّةِ؛ كالشُّجاعةِ ودلائِلِهَا من حبِّ القتالِ والإقبالِ على المعارِكِ دونَ رهبةٍ[٢].

٢١- ثُمَّ ذكرتُ ما لَهُ من شعرٍ في الإعدادِ للمعركةِ، سواءً في وصفِ الجيشِ أو وصفِ الخيلِ، وأكثرُ ما وجدتُ لَهُ من وصفٍ وصفٌ لِخيولٍ بِعينِهَا، ركَزَ فيه على جمالِ هيئتِهَا حسنِ شَكْلِهَا، أمّا وصفُهُ للخيلِ التي خاضَتْ الحروبَ فقليلٌ، كما أبنتُ عمّا جاءَ في شِعْرِهِ من وصفِ السُّفُنِ الحربيَّةِ -وهو قليلٌ-، ووصفِ السُّيوفِ والرِّماحِ والنّبالِ والقِسيِّ والدّروعِ، وأكثرُ ما لَهُ من ذلكِ كانَ في السُّيوفِ والرِّماحِ، أمّا وصفُ البَيْضِ والرّاياتِ والمنجنيقِ فقليلٌ موجزٌ[٣].

---

(١) الرّسالة من: (ص:١٨٨-٢٠٦).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٢٠٦-٢١٥).

(٣) الرّسالة من: (ص:٢١٥-٢٤٧).

٢٢- ثُمَّ ذكرتُ مَا لَهُ من شعرٍ في المرحلةِ الثّالثة، وهــي التّحــرُّكُ إلى ميدانِ القتالِ، ووصفُهُ مسيرَ الجيشِ، ووصفُ الفرسانِ حالَ السّير، ومصاحبةُ المنايا للقائد(١).

٢٣- ثُمَّ ذكرتُ مَا لَهُ من شعرٍ يُمَثِّلُ المرحلةَ الرّابعةَ، وهو ما يَحدثُ في ميدانِ القتالِ من كثرةِ الغبارِ، وشِدَّةِ الحربِ، وضربِ السُّــيُوفِ، وطعنِ الرّماحِ ورمْيِ النِّبالِ(٢).

٢٤- ثُمَّ ذكرتُ مَا لَهُ من شعرٍ يُمَثِّلُ المرحلةَ الخامسةَ، وهو تصويرُ مــا يكونُ في أعقابِ المعركة، وإبرازِ آثارِهَا من خســارةٍ للأعــداء، بكثرةِ القتلى وكثرةِ الدّماءِ، ووقوعِ الطّيرِ والسّباعِ على جُثَــثِهِمْ، ووصفِ الفارِّينَ والمأسورينَ منهمْ، ووصفِ السَّبْيِ والسُّــجونِ، ووصفِ المصلوبِينَ وفرحِ النّاسِ بذلكَ، ثُمَّ بيانِهِ آثارَ الانتصــاراتِ أو الهزائمِ على نفوسِ المتحارِبينَ، وما يعقبُ ذلــكَ مــن بعــثِ البشرى بالنّصرِ إلى الخليفةِ، كُلُّ هذا بِمتابعةٍ دقيقــةٍ وتســجيلٍ أمينٍ(٣).

---

(١) الرّسالة من: (ص:٢٤٨-٢٥١).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٢٥٢-٢٧٠).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٢٧١-٣٠٠).

والفصلُ الثّاني في: (موضوعاتِ شعرِ الحرب عندَ المُتَنَبِّي)، وقدْ سرتُ فيه على غرارِ ما ذكرتُ آنفاً في موضوعاتِ شعرِ الحربِ عند البُحْتُرِيِّ.

٢٥- فقد أثبتُ مشاركَتَهُ في الحروبِ، وما ذَكَرَ من صفاتِ القائدِ الخَلْقيَّةِ والخُلُقيَّةِ[١]، وما ذَكَرَ من صفاتِ الجند[٢]، وما لَهُ من شعرٍ يُمَثِّلُ إعدادِ المعركة ؛ حيثُ وَصَفَ الجيوشَ وأطالَ في ذلك، وَوَصَفَ الخيولَ وأبدعَ في إثباتِ كفاءتِها القتاليةِ، وَوَصَفَ السُّيوفَ والرِّماحَ وعملَهَا، وكذا وَصْفُ سائرِ أدواتِ القتالِ إلاّ أنَّ حديثَهُ عن الخيلِ والسُّيوفِ والرِّماحِ يُعَدُّ أكثرَ شيءٍ تَحدَّثَ عنه[٣].

٢٦- ثُمَّ ذكرتُ شِعْرَهُ الذي يُمَثِّلُ مرحلةَ التّحرّكِ إلى ميدانِ القتالِ ووصفِهِ الجيوشَ حالَ التَّحرُّكِ وكثرةَ غبارِهَا[٤].

٢٧-ثُمَّ ذِكْرُ مَا لَه من شعرٍ صَوَّرَ فيه ما يَحدُثُ في ميدانِ المعركةِ من شِدَّةِ الحربِ وكثرة الغبار والضّربِ بالسُّيوفِ والطّعنِ بالرّماحِ[٥].

(١) الرّسالة من: (ص:٣٠٣-٣٢٦).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٣٢٦-٣٣١).

(٣) الرّسالة من: (ص:٣٣٢-٣٧٧).

(٤) الرّسالة من: (ص:٣٧٨-٣٨٤).

(٥) الرّسالة من: (ص: ٣٨٥-٣٩٦).

٢٨- وما يعقبُ ذلكَ وصف للقلاع [١].

٢٩-و بيان آثرِ المعاركَ، من كثرةِ قتلى وجرحى وأسرى وسيلانِ دماءَ وفرارِ فارِّينَ وإحراقِ ديارٍ، وآثارِ ذلكَ على أنفسِ المتحاربينَ، و طلب الصلح من ممدوحه ،والشّفاعةِ لبعضِ الخارجِينَ على مَمدوحِهِ من الأعرابِ[٢].

٢٧- وفي الفصل الثّالث وازنتُ بينَ موضوعاتِ شِعرِ الحربِ عندَ الشَّاعِرَينِ، وقد سرتُ في كُلِّ موضوعٍ بذكرِ ما اشتركا فيه، مع محاولةَ إبرازِ وجهِ التّفوّقِ لدى كُلٍّ منهما،ثم ذِكْرُ ما انفردَ به كُلُّ واحدٍ عن الآخرِ، ثم ذِكْرُ ما اقتفى به المُتَنَبِّي آثارَ البُحْتُرِيّ بِحُكْمِ تقدّمِ عَهْدِه.

فبدأتُ في ذِكرِهِمَا المشاركةَ في الحروبِ، واقتفاءِ المُتَنَبِّي البُحْتُرِيّ في عَدِّه غزاتِ مَمدوحِهِ زيارةَ لِديارِ الأعداءِ[٣].

٢٨- ثُمَّ ذكرتُ ما اشتركا فيه من الحديثِ عن صِفاتِ القائد، وإبرازُ انفرادَ البُحْتُرِيِّ بِذكرِ بعضِ الصِّفاتِ الخُلُقِيَّةِ ككتمانِ السِّرِّ وخشونةِ العيشِ، وقِلَّةِ النّومِ، وانفراد المُتَنَبِّي بالإشادةِ بلقبِ سيفِ

(١) الرسالة ص : (٣٩٦-٣٩٩).

(٢) الرّسالة من: (ص:٤٠٠-٤٣١).

(٣) الرّسالة من: (ص:٤٣٥-٤٣٦).

الدّولة، وإِسْهَابِهِ في إبرازِهِ إخافةَ مَمدوحِهِ الأعداء، ثُمَّ ذكرتُ بعضَ منا اقتفى به المُتَنَبِّي آثارَ البُحْتُرِيّ من إخافَةِ مَمدوحِهِ أطفالَ الرّومِ والستباحَتِهِ ذرارِيْهِمْ، وتَعَوُّدَهُ لبسَ الدّروعِ[١].

٢٩- ثُمَّ ذكرتُ ما اشتركا فيه من صفاتِ الجندِ، وما انفردَ به البُحْتُرِيُّ عن المُتَنَبِّي من ذكرِ صفاتِهِمُ الخَلْقِيَّةَ أنواعِهِمْ وطولِ قاماتِهِمْ وسباطَةِ أنامِلِهِمْ وسعةِ صدورِهِم، وكذا ما انفردَ به -أيضاً- من صفاتِهِمُ المكتسبةِ، كبيانِهِ الرّوحَ القتاليةَ العاليةَ لَهُمْ، وكونِهِمْ حريصينَ على إعلاءِ كلمةِ اللهِ، وكونِهِمْ مُجيدينَ للرَّمْيِ بالنّارِ، ثُمَّ ذكرتُ ما انفردَ به المُتَنَبِّي من جَعْلِهِمْ فرساناً يُرْهبونَ أعداءَهُمْ، وعَلّقتُ على بيتينِ لَهُمَا فيها الإشادةِ بحذقِ هؤلاءِ الفرسانِ، ظهرَ لِي فيها أنّ مشربَ الشّاعِرَينِ فيهما واحدٌ[٢].

٣٠- ثُمَّ ذكرتُ اشتراكَهُمَا في الحديثِ عن أشهرِ عتادِ الحربِ، من إعدادِ الجيشِ عامّةً، ومن وصفِ الخيلِ والسُّفُنِ الحربيّةِ والسُّيُوفِ والرّماحِ والنّبالِ والقسي والدّروعِ، وانفرادِ البُحْتُرِيِّ التّروسِ والبَيْضِ والرّاياتِ والمنجنيقِ، أمّا المُتَنَبِّي فلم ينفرد بذكر عتاد منها.[٣]

(١) الرّسالة من: (ص: ٤٣٦-٤٤١).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٤٤٢-٤٤٥).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٤٤٦-٤٧٢).

٣١- ثُمَّ ذكرتُ ما اشتركا فيه من شعرٍ يُمَثِّلُ وصفَ التّحرُّك إلى ميدانِ القتالِ من حيثُ اختيارُ الوقتِ المناسبِ، وكيفَ تكونُ هيئةَ الخيلِ عندَ المسيرِ، وما يُحدِثُهُ الجيشُ من جَلَبَةٍ وأصواتٍ حالَ المسيرِ، وذكرتُ ما انفردَ به البُحْتُريُّ في بيانِ مكانِ القائدِ عند الإغارةِ أو القُفُولِ، وكذا وصفُهُ سيرَ الجندِ إلى الأعداءِ، وأعقبتُهُ بذكرِ ما انفرد به المُتَنَبِّيُ من إيضاحِهِ -أكثرَ من البُحْتُرِيّ- حالَ الخيلِ عند الإغارةِ، وكذا انفرادُهُ ببيانِ أهمّيّةِ الرّأيِ، ووضعِ الخطط القتاليةِ قبلَ الوصولِ إلى ميدانِ المعركةِ، وبيانِ مرافقةِ الطّيرِ للجيشِ، وحركةِ الجيشِ المتموِّجَةِ، كما وقفتُ على معنًى اقتفى به المُتَنَبِّي آثارَ البُحْتُرِيِّ وهو اكتساءُ الخيلِ بالغبار[1].

٣٢- ثُمَّ ذكرتُ ما اشتركا فيه من المعاني التي تُمَثِّلُ المرحلةَ الرّابعةَ وهي وصفُ ما يَحدثُ في ميدانِ القتالِ من كثرةِ الغبارِ، واقتفاءِ المُتَنَبِّي أثرَ البُحْتُرِيِّ في معنًى إضاءةِ السُّيوفِ ميدانَ المعركة[2].

وكذا اشتراكهما في وصفِ شدَّةِ الحربِ وبدءِ القتالِ، وانفرادِ البُحْتُرِيِّ بالحديثِ عن طُرُقِ القتالِ، وكذا وصفُهُمَا شدَّةَ الضّربِ وقوّةَ

(١) الرّسالة من: (ص:٤٧٣-٤٧٩) .

(٢) الرّسالة من: (ص:٤٨٠-٤٨٣).

الطّعن ومواقِعُهَما، وما انفردَ به كُلٌّ منهما، وما اقتفى به المُتَنَبِّي آثارَ البُحْتُرِيّ(١).

ووصفُهما الرَّمْيَ بالنّبالِ والقسيِ، وانفرادِ المُتَنَبِّي بِوصفِ القلاعِ الموجودة في ميادينِ المعارك(٢).

٣٣- ثُمَّ ذكرتُ ما اشتركا فيه من المعانِي مِما يُمَثِّلُ المرحلةَ الخامسةَ – وهي الأخيرة- من مراحلِ الحربِ، أو ما سَمَّيْتُهُ (في أعقابِ المعركةِ) منْ تصويرِمْ لِحجمِ الخسائرِ، وكثرةِ القتلى والدّماءِ ووقوعِ الطّيرِ السّباعِ على جُثَثِهِمْ، ووصفِ الأسرى والسَّبْيِ، ووصفِ المنهزمينَ وبيانِ آثارِ الفرحِ بالنّصر(٣). والشّفاعة لِبَعْضِهِمْ لَدى الممدوحِ(٤)، وما انفردَ بِهِ البُحْتُرِيَّ من وصفِ السَّجن(٥)،وما انفردَ به المُتَنَبِّي من وصفِ إحراقِ الدّيارِ(٦)، وصلب المصلوبينَ

(١) الرّسالة من: (ص: ٤٨٣-٤٩٥).

(٢) الرّسالة من: (ص:٤٩٦-٤٩٧).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٤٩٨-٥٢١).

(٤) الرّسالة من: (ص: ٥٢٣-٥٢٤).

(٥) الرّسالة من: (ص: ٥٠٩).

(٦) الرّسالة من: (ص:٥١٢).

ومراسلةِ الخليفةِ بأخبارِ النّصرِ[١]،وتهديـدِ الأعـداءِ والتّحـريضِ عليهِمْ، وطلبِ الأعداءَ الهدنةَ ومراسلتِهِمْ مَمدوحه في ذلك[٢].

وأمّا البابُ الثّالثُ فكان بعنوانِ: (الخصائصُ الفنّيّةُ لشعْرِ الحربِ عندَ الشّاعِرَين)، وفيه ثلاثةُ فصولٍ:

الأوّلُ منها في: (الخصائصِ الفنّيّةِ لشعْرِ الحربِ عند البُحتُريّ)، وقد تَحَدَّثْتُ فيه عن خصائصِ الشّكلِ من حيثُ الألفاظُ والتراكيبُ والصّورةُ البيانيةُ والقيمُ الصّوتيةُ والبناءُ الفنّيُّ لقصيدةِ الحربِ، ثم عـن خصـائصِ المضمونِ من حيثُ التّجربةُ الشّعريَّةُ والعاطفةُ، والأفكارُ.

٣٤- فأمّا ألفاظ شعر البُحتُريِّ الحربيّ فَمن خلالِ المقـاييسِ النّقديّـةِ للألفاظِ ظهرَ لِي أنَّ البُحتُريَّ كانَ حريصاً على اختيـارِ ألفـاظِ شعرِهِ عامَّةً والحربيّ خاصّةً، وأنّها ف الغالـبِ ألفـاظٌ مألوفـةٌ مأنوسةٌ، جامعةٌ بينَ الجزالةِ والفصاحةِ والمناسبةِ للغرضِ، ولا يعنِي هذا عدمُ وجودِ غريبِ فيها، أو ألفاظٍ قوِّيةِ الجرسِ، فقد يستدعي المقامُ ذلكَ أحياناً[٣].

٣٥- أمّا تراكيبُ شعرِهِ الحربيِّ فقد اتّضحَ لِي أَنّهَا حسنَةُ السّبك جيِّدَةُ التّأليفِ ذاتَ دلالةٍ ظاهرةٍ لديه، تَدلُّ على انتقائِهِ لَهَا بحيثُ لـو

---

(١) الرّسالة من: (ص:٥٢١-٥٢٣).

(٢) الرّسالة من: (ص:٥٢٣).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٥٣٦-٥٤٧).

وضعَ غيرَهَا بدلاً عنها لم يفِ بالمعنَى المرادِ، كما أَنَّ جُمَلَ تراكيبِهِ تتراوحُ بين الخبريّةِ والإنشائيّةِ، والخبريةُ لَديه أكثرُ، كما يُحمدُ له خلوَّ تراكيبِهِ من التّقديمِ والتّأخيرِ الذي يؤدِّي إلى تعقيدِ الكلامِ[1].

٣٦- وأمّا الصور البيانيةُ في شعر البحتري فقد وقفتُ عندَ دراسة التّشبيه والاستعارةِ والكنايةِ في شعرِهِ الحربيِّ، وقد وجدتُ لَهُ قدراً من الصّورِ الدّالّةِ التي تشتركُ في رسمِ لوحاتِ كُلِّ موضوعٍ من موضوعاتِ شعرِ الحربِ، ممّا يدلّ على متابعة منهُ لخطواتِ المعارِكِ، وإعطائِهِ كُلَّ مرحلةٍ منها ما تستحقّهُ من التّصويرِ والإبداعِ، وقد مثلتُ لذلك[2].

٣٧- وأمّا القيمُ الصّوتيَّةُ فقد أجريتُ دراسةَ الوزنِ على خمسٍ وخمسينَ قصيدةَ له اتّضحَ من خلالِهَا أنّ أكثرَ قصائده الحربيّة كانتْ على بُحورٍ قويّةٍ تناسبُ شعرَ الربِ، وهي الطّويلُ والكاملُ والخفيفُ، وقد جاءَ على (قلّةٍ) بقصائدَ من بُحورٍ سريعةِ الحركةِ مثلِ: الرَّمَلِ، وقد أبرزتُ من خلالِ تلكَ الدّراسةِ بالمثالِ مدى استثمارِ البُحْتُرِيّ لتلكَ الأوزانِ، حسب منا يستدعيهِ المقامُ[3].

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٥٤٧-٥٢٢).

(٢) الرّسالة من: (ص:٥٢٢-٥٦٩).

(٣) الرّسالة من: (ص:٥٧٠-٥٨٠).

٣٨- كما أنَّ قوافيهِ جاءتْ على حروفِ رويِّ الباءِ والنّون ثم الدّالِ والرّاءِ واللامِ والميمِ، وهذه قوافٍ ذاتُ جرسٍ فَخمٍ يتناسبُ وشعرَ الحربِ، وبالأحرى إذا جاءتْ في بُحورٍ طويلةٍ، وأكثرُ قوافيه مطلقةٌ، والمقيّدُ منها لا يأتِي به إلاّ من بُحورٍ خفيفة، وقد يصلُ قوافيهِ شديدةِ الجرسِ بهاءِ وصل مقيّدةٍ تُزيِّنُ القافيةَ، كُلُّ ذلكَ بالشّاهد والمثال(١).

٣٩- ومن حيثُ الموسيقي الدّاخليةُ وجمالُهَا؛ فالبُحْتُرِيُّ شيخُ الصّناعةِ في هذا البابِ، وقد ذكرتُ بعضَ أقوالِ النُّقّادِ حول ذلكَ، ثُمَّ ذكرتُ أمثلةً لِهذا الجمالِ من شعرِهش الحربيّ، مع بيانِ أسبابِه كقِصَرِ المفرداتِ وترديدُ بعضِ الحروفِ، والكلماتِ، واستغلالِ الثّلاثيِّ المنونِ من اللكلماتِ، واستثمارِ ظاهرةِ الإشباعِ، والتّقسيمِ واختيارِ أعذبِ المحسِّنات البديعية، دونَ تكلُّف أو عناء(٢).

٤٠- وأمّا البناءُ الفنِّيُّ لقصائِد البحتري التِي تتّصلُ بالحربِ فهي قصائدُ مختلطةٌ بالأغراضِ الأخرى، وذاتُ مقدِّماتٍ طلليَّة أو غزليةٍ تطولُ وتقصرُ، وقد عُنِيَ بابتداءاتِ تلكَ القصائدِ كثيراً، ومِن حيثُ تَخلُّصُهُ حينَ الانتقالِ من غرضٍ إلى آخر، فلمْ يَكنْ من المشهورينَ بِحسنِهِ، ولم يَكنء يَتَكَلَّفْهُ، ولَهُ منه مواطنُ حسنةٌ، ومِنْ حيثُ

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٥٨٠-٥٨٣).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٥٨٣-٥٩٣).

ختامُهُ فهو —أيضاً– غيرُ حسنٍ —في أغلبه–؛ لأنَّهُ يقفُ بجاءةً دونَ تَمهيد، وإن مَهَّدَ فبثناءٍ على شَاعِرِيَّتِه وشعرِه، أو بدعاءٍ للممدوحِ أو بِحكمةٍ، وأحسنُهُ عودُهُ إلى مدحِ الممدوحِ، وقد ذكرتُ أمثلـةً لختامِه الحسنِ وضدِّه(١).

٤١– وأمّا عن الخصائص الفَنِّيَّة من حيثُ المضمونُ فقد درستُ التّجربةَ الشِّعْرِيَّةَ في شعرِه الحربيّ واتَّضَحَ لِي أنَّ تَجارِبَهُ تَجَارِبٌ ناضـجةٌ نابعةٌ عن دافعٍ صادقٍ، وقد أوفاها حَقَّهَا من الصّياغةِ في أكثرِ الأحيانِ، بينما يقصرُ في ذلك أحياناً.

٤٢– وأمّا العاطفةُ فقد اتَّضَحَ لِي أنَّ عاطِفَةَ البُحْتُـريّ عاطفـةٌ دينيَّـةٌ تُصَاحِبُهَا ثورةٌ عارمةٌ على الأعداءِ، وقد تتبدَّلُ وتَرِقُّ إذا كانتْ في وصفِ الحروبِ الدّائرةِ بين الأهلِ والأقاربِ كعاطفةِ حالَ وصفِهِ حروبَ ربيعةَ(٢).

وتكتملُ لقصائدِ البُحْتُرِيِّ الحربيَّةِ مقاييسُ العاطِفَةِ الأربعة: الثّباتُ، والسّموُّ، والقوّةُ، والصِّدقُ(٣).

٤٣– وأمّا الأفكارُ فقد تَحدَّثْتُ عن أشهرِ مقاييسِها النّقديّةِ، وقد اتَّضحَ لِي من خلالِ هذه الدّراسةِ ما يلي:

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٥٩٤–٦٠٠).

(٢) الرسالة ص (٦٠١–٦٠٩).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٦٠٩–٦١٥).

- أنّ أغلبَ أفكارِ البُحتُريّ جامعةٌ لعناصرِ الملاءَمَة، وهي: التّـواؤمُ، والتّقسيمُ، وعطفُ المناسباتِ، فقد كانَ حريصاً على أن يقرِنَ كُلّ معنًى بِلَفْقه.
- أنّها معانٍ جليةٌ واضحةٌ، وهذا ما يستدعيهِ شعرُ الحـربِ؛ فإنّـهُ بمثابةِ تقريرٍ وافٍ بما كانَ في حومةِ الوغى، وقد أعـانَ علـى وضوحِ معانيهِ خُلُوُّ شِعرِهِ من التّعقيدِ اللّفظيِ المعنويِّ.
- أَنَّ جُلَّهَا عَميقٌ بعيدٌ عن السّطحية، وقد دَلَّ على ذلكَ بما يَجمعُهُ فيها من المعانِي الحسنةِ والصّفاتِ المستحسنة.
- أنّ أكثرَ معانيه تقليديةٌ، قد اقتفى فيها آثارَ السّابقينَ، وإن كـانَ يُعرِضُهَا عرضاً جديداً يُحْسَبُ لَهُ، وقد وجدتُ له بعضَ المعـانِي الجديدةِ، مثلُ: وصفُهُ حربَ البحرِ والمصلوبِينَ والسّجونَ.
- أنّهَا في الغالبِ مقتصدةٌ لا غلوَّ ولا إغراقَ فيها، وإن وُجدَ لهُ شيءٌ من المبالغاتِ؛ فإنّهُ لا يصلُ حَدَّ الإسرافِ(١).

وأمّا الفصل الثّاني ففي: (الخصائصُ الفَنّيَّةُ لِشِـعْرِ الحـربِ عنـدَ المُتنبِّي).

وقد تَحَدَّثْتُ فيه على غرارِ حديثي في الفصل السّابقِ، مستغنياً عن إعادةِ التّعايفِ والمقاييسِ البلاغيةِ والنّقديّة، بالإشارةِ إلى ما تَقَدَّمَ.

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٦١٦-٦٣٥).

٤٤- فأمّا ألفاظ شِعْرِ أبي الطَّيِّبِ الحربيةِ فقد اهْتَمَّ بها وانتقاهـا حتّى شَكَّلَ لِنَفْسه ما يُشبهُ المعجمَ من الألفاظِ والمصطلحات، وقد اتّضفتْ ألفاظُهُ -غالباً- بالجزالةِ والألفِ والأنسِ والملاءمةِ للغرضِ في معناها ومبناها، كما اختصَّ باستعمالِ بعضِ الألفاظِ في أوصافِ الحربِ كاستعماله فيها ألفاظَ الغزلِ والنَّسيبِ، هذا وإن عيبَ عليه شيءٌ من الغريبِ الوحشيِّ أو استكثارِهِ من قولِ: (ذا)، أو تركرارِهِ اللّفظَ لغيرِ مان علّةٍ جماليةٍ، لَكِنَّهَا في شِعْرِهِ الحربيِّ قليلةٌ[1].

٤٥- وأمّا تراكيبُ شِعْرِهِ الحربيِّ فَحسنةُ التّأليفِ، جَيِّدَةُ السّبكِ، تتراوَحُ جُمَلُهَا بينَ الخبرية والإنشائيّة، والخبريةُ أكثرُ لكونِ القصائد تَسجيلٌ لِوقائعَ مَضَتْ، مَجالُ الإخبارَ فيها أرحبُ، ومن خصائصِ تراكيبِهِ حسنُ استثمارِهِ أسلوبَ التّقديمِ والتّأخيرِ، وإكثارُهُ ما عَبَّرَ عنه الثّعالِبيُّ بـ: (حسنِ سياقةِ الأعداد)، ومِمّا وردَ له في شِعْرِهِ الحربي على قلّةِ التّواءُ العبارةِ، وتكرارُ ما لا ضرورةَ لَهَ[2].

٤٦- وأمّا الصّورةُ البيانيةُ فقد أبدعَ في أكثرِ صورِهِ حتّى عَدَّ الثّعالِبيُّ التّشبيهَ من حسناتِهِ، وصورُهُ تَدلُّ على دِقّتِهِ في متابَعَتِهِ خطواتِ

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٦٣٩-٦٥٣).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٦٥٣-٦٦٤).

الحربِ مع تَخيُّلٍ عميقٍ وخيالٍ مبتكرٍ، مع تفتيقٍ للصّورِ الواحدةِ وتكرارِهَا أو نقلِهَا إلى عدّةِ موصوفات[١].

٤٧- وأمّا القيمُ الصّوتيَّةُ فَمِنْ حيثُ الوزنُ فقد نظمَ أبو الطَّيِّبِ على البُحورِ الرّصينةِ أكثرَ شِعْرِهِ الحربِي كالطّويلِ والكاملِ والوافرِ والخفيفِ والبسيطِ، وله عددٌ من القصائدِ على بعضِ البُحورِ السّريعةِ الوقعِ كالمتقاربِ والرَّملِ[٢].

٤٨- ومن حيثُ القافيةُ فأكثرُ قوافيه اللامُ والميمُ والدّالُ وبالباءُ والقافُ، وُجُلُّهَا قوافٍ مطلقةٌ، وله القليلُ من القوافِي المقيّدة، هذا وقد كانَ نظمُهُ على بعضِ القوافِي الحوشِ مدعاةً لطعنِ الطّاعنينِ عليه، لتَكَلُّفِهِ بعضَ قوافِيها أو لقبحِ معانيها[٣].

٤٩- ومن حيثُ الموسيقي الدّاخليةُ فإنّ أبا الطَّيِّبِ مِمَّن بَرَعَ، في اختيارِ ألفاظِ شِعْرِهِ، وبَرَعَ في صياغَتِهَا مع مقاطعِ البيتِ، فجاءتْ أكثرُ قصائدِهِ ذاتَ هزيجٍ مطربٍ وجرسٍ عذبٍ، ويبدو جمالُ هذه الموسيقي لديهِ في التّناظرِ والمحسِّنات البديعية، فجاءَ من التّناظرِ بمايشبهُ التّقسيمَ الهندسيَّ للبيت؛ فَإِنَّهُ ناظرٌ بينَ بعضِ الألفاظِ، وكَرَّرَ بَعْضَهَا سواءً فيكلا الشّطرينِ أو في شطرٍ واحدٍ في بيتٍ أو

---

(١) الرّسالة من: (ص:٦٦٥-٧١٣).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٧١٤-٧١٩).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٧١٩-٧٢٨).

أكثرَ، وجاءَ من المحسِّنات البديعية بما عرفَ بالتّقسيمِ بأبدعَ فيه، ولم يَخلُ منه –إلاّ فيما نَدَرَ– قصيدةٌ من قصائده، وجاء –أيضاً– ببعضِ الطّباقاتِ والجناساتِ، ولَكنَّهُ قد يَتَكَلَّفُ بعضَها[١].

٥٠- وأمّا البناءُ الفني لقصيدةِ الحربِ لَدَيه؛ فمن حيثُ افتتاحاتُهَا فعلى الإجمالِ حسنةٌ، وقد يعابُ عليه بعضُهَا، ومقدِّماتُ هذه القصائد على نوعينَ ذاتَ مقدِّماتٍ إمّا طللية أو غزليةٍ أو تَجديدية، وقصائدُ أخر بدونِ مقدِّماتٍ، هَجَمَ فيها على الغرضِ مباشرةً، واتَّضَحَ لِي أنَّ أكثرَ مقدِّماتِه التّجديديّة أو القصائدِ التي ليسَ لَهَا مقدِّماتٌ أصلاً تَتَمَثَّلُ في مقدّماتِ سيفيّاته.

٥١- ومن حيثُ العرضُ فقصائدُهُ التي تعدَّدَتْ أغراضُهَا تحتاجُمنهُ إلى تَخَلُّصٍ، وقد أَبْدَعَ فيه وأجادَ، وشهر بِهِ، وإن وقعَ فيما هو معيبٌ منه، والقصائدُ التِي ليس لَهَا مقدِّماتٌ تُعَدُّ كُلاًّ متكاملاً فلا تستدعِي منه هذا التَّخَلُّصَ؛ لَكِنَّهُ قد يفصلُ بينها بالفخرِ بِنَفْسِهِ والثّناءِ على شَاعِرِيَّتِهِ وشِعْرِه.

٥٢- ومن حيثُ الخاتمَةُ فقصائدَهُ على نوعينِ: قصائدُ ذاتُ خاتمَةٍ لا تشعرُنا بِنِهَايَتِهَا، وأخرُ ذاتُ خاتمَةٍ أشعرَتَا بنهايَتِهَا، هي أجملُ خاتِماتِهِ؛ إذ خَتَمَهَا بدعاءٍ أو حِكْمَةٍ أو فخرٍ بِشَاعِرِيَّتِهِ وشِعْرِه[٢].

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٧٢٨–٧٤٠).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٧٤١– ٧٦٠).

٥٣- وأمّا التّجربةُ الشِّعْريَّةُ لَديه فهي: إمّا شَخصيَّةٌ وإمّـا اجتماعيَّـةٌ، ولكون أكثرِ قصائده مَدحاً تَختَلطُ معه بعضُ الأغراضِ الأخرى، فإنَّ التّجربةَ في أكثرِهَا خليطٌ من الشّخصيةِ والاجتماعيةِ، وقـد ظهر لِي من خلالِ تَحليلِ بعضِ النّصوصِ صدقُ تَجاربِهِ وتـواؤمُ الصّياغة مَعَهَا[1].

٥٤- وأمّا العاطفةُ فقد ظهر لِي أنّ عواطِفَهُ الشّخصيَّةُ نارٌ داخليةٌ تُلْهبُ اللّفظَ وتوقدُ الصّورةَ الشِّعريَّةَ، وقد كانَ يضفي على شِعْرِهِ منها ما يُبْرِزُ لنا رؤيتَهُ للحياةِ، وموقفَهُ منها، فكانَ ذلك سبباً في صِـدْقِهَا وقوَّتِهَا وثباتِها، كما كانت العاطفةُ الدِّينيّةُ كثيراً ما تظهرُ في ثنايا هذه العاطفةِ الشّخصيةِ؛ لأنَّهَا في وصفِ حروبٍ بـينَ الإسـلامِ والكفرِ[2].

٥٥- وأمّا الأفكارُ فقد درستُ أفكارَهُ، عن طريقِ أشهرِ مقاييسِ الأفكارِ فَمِنْ حيثُ التلاؤمُ والتَّفكُّكُ ظهرَ لـي أنَّ أفكـارَهُ متلائمـةٌ في أكثرِهَا، ومعانيها آخذٌ بعضُهَا برقابِ بعضٍ، وقد يحدثُ شيءٌ من التَّفَكُّكِ عندما يُدْخِلُ بينَ الفكرةِ والفكـرةِ فخـراً بِنَفْسِـهِ أو شَاعرِيَّتِهِ.

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٧٦١-٧٧٢).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٧٧٣-٧٨٦).

٥٦- ومن حيثُ الوضوحُ والغموضُ تَبيَّنَ لِي بُعْدُهَا عـن الغمـوضِ والالتواءِ، وإن وجد غموضٌ في بيتٍ واحدٍ بينَ عددٍ من القصائدِ، فمردهُ لتعقيدٍ في التّركيبِ أو لعدمِ نضجِ الفكرةِ قبلَ التّعبيرِ عنهَا.

٥٧- ومن حيثُ العمقُ والسّطحيَّةُ فقد عُرِفَ عنهُ عُمْقُ أفكارِهِ ودقَّـةُ معانيهِ، ولقد ظهرَ هذا جَليّاً متمثّلاً في كثرةِ الحِكَـمِ، وتفتيقِـهِ الصّورةَ الواحدةَ، وغوصُهُ في أعماقِ النّفسِ الإنسانية.

٥٨- ومن حيثُ التّقليدُ والتّجديدُ فله معانٍ تقليديَّةٌ، وخاصّةً في طـالعِ قصائدِهِ، بيد أنَّ معانِيَ شعْرِهِ الحربيِّ أكثرُهَا جديدٌ ظهرتْ فيـهِ براعتُهُ، ومن ذلك استعمالُهُ معانِيَ الغزلِ والنّسيبِ في أوصـافِ الحربِ، ومنها: حسنُ تصرُّفِهِ في مديحِ سـيفِ الدّولـةِ بِجـنسِ السّيفيَّة.

٥٩- ومن حيثُ المبالغةُ والاقتصادُ فأكثرُ معانيهِ مبنيَّةٌ على المبالغةِ المقبولةِ والمذمومُ منها في شعرِ الحربِ قليلٌ(١).

وأمّا الفصلُ الثّالثُ ففي الموازنةِ بينَ الخصائصِ الفنِّيَّةِ لشعْرِ الحـربِ عندَ الشّاعرَينِ، كانتْ هذه الموازنةُ على عِدَّةِ نقاطٍ تبعاً لِمَا درسناه مـن خصائصِ الشّكلِ والمضمونِ، بادئاً بالموازنةِ بينَهما من حيثُ الألفاظُ.

(١) الرّسالة من: (ص: ٧٨٧-٨٢٠).

٦٠- وقد اتَّضحَ لِي أَنَّ المُتَنَبِّي أجزلُ ألفاظاً مــن البُحْتُــرِيّ، وأنّ شِعْرَ البُحْتُرِيّ خالٍ من غريبِ اللّغة ووحشيها(١).

٦٠- ومن حيثُ التّراكيبُ عندَهُمَا فَكُلُّهَا حسنةُ السَّبكِ جيِّدَةُ التّأليف منتقاةٌ، الجزالةُ غالبةٌ عليها، بيدَ أَنَّهَا لَدى البُحْتُــرِيِّ تختفــي وراء حسنِ النّغمِ، ويُحمَدُ للبُحْتُرِيّ خلوٌّ تراكيبِهِ من التّقديمِ والتّــأخيرِ المُخِلِّ، وقدْ وازنتُ بينَهُمَا في قصيدتينِ من البُحورِ الطّويلةِ، فظهرَ لِي خلالَهَا سلامةُ تراكيب البُحْتُرِيِّ من التّقديمِ والتّأخيرِ المخــلِّ، ومن الحذفِ المبهمِ.

كذلك ظهرَ لِي جمالُ شعرِ المُتَنَبِّي حينما استثمرَ هــذينِ الأولــبينِ بوعيٍ إدراكٍ(٢).

٦١- من حيثُ الصّورةُ البيانيةُ فقدْ أحسنَ الشَّاعِرَانِ تصويرَ الحربِ عن طريقِ التّشبيهِ والاستعارةِ والكنايةِ، وظهر لِي من خلالِ ذلــكَ أنّ المُتَنَبِّي أَدَقُّ تصويراً من البُحْتُرِيّ في رسمِ الصّورةِ، وأعمقُ غوصاً منه في خبايا الخيالِ(٣).

٦٢- ومن حيثُ القيمُ الصّوتيةُ فقد ظهرَ لِــي في دراســةِ الــوزنِ أنّ البُحْتُرِيّ لَم يَصُغْ بكثرةٍ على أوزانِ الشِّعْرِ، كما صاغَ المُتَنَبِّــي،

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٨٢٣-٨٢٥).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٨٢٥-٨٣١).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٨٣٢-٨٣٨).

وهذا له دلالةٌ فَنِّيَّةٌ تعودُ إلى امتزاجِ نَفَسِ المُتَنَبِّي بالحربِ من ناحيةٍ، وإلى ما هُيِّئَ له من ممدوحِينَ كثيري الحروبِ من ناحيةٍ أخرى[1].

٦٣- ومن حيثُ القافيةُ فقد انفردَ المُتَنَبِّي بالنّظمِ، على حروفِ رويِّ التّاءِ والذّالِ والزّاي والشّين، وفي هذا دلالةٌ على قدرَتِهِ على النّظمِ في هذهِ القوافِي الحوشِ، حتّى في الأغراضِ الجادّة.

وقد وازنتُ بينهما في قصائدَ ذاتَ رويٍّ لا يَسْلُسُ قيادُهُ إلاّ لِشاعرٍ مغلقٍ وهو الحاءُ، فاتَّضَحَ من خلالِ ذلك سلاسَةُ قيادِ القافيةِ للبُحْتُرِيِّ ونفرتُهَا لدى المُتَنَبِّي، كما فارنتُ بينهما في القصائدِ التي اتّفقا فيها من حيثُ الوزنُ والقافيةُ؛ فوجدتُ أنّ المُتَنَبِّي قد وافقَ البُحْتُرِيَّ في عددِ قوافِي كلِّ قصيدةٍ، بلغَ بعضَ الأحيانِ خمسَ عشرةَ كلمةَ، ممّا يدلُّ على أثرِ البُحْتُرِيّ في المُتَنَبِّي، وتتلمذَ المُتَنَبِّي على شِعْرِ البُحْتُرِيّ[2].

٦٤- ومن حيثُ الموسيقي الدّاخليةُ فقوامُ موسيقا البُحْتُرِيّ حرصُهُ على جِنَاسِ الاشتقاقِ والتّكرارِ وعطفِ النّظيرِ على نظيرِهِ، وقوامُ موسيقي المُتَنَبِّي حرصُهُ على التّكرارِ، بيدَ أنّه ليسَ على نسقٍ واحدٍ، كما هو عندَ البُحْتُرِيّ، ممّا يُفْقِدَهُ نوعاً من الموسيقي العذبةِ، وَلَكِنَّ فيه دلالةً على قدرَتِهِ على الصّنعةِ وحرصِهِ عليها،

---

(١) الرّسالة من: (ص:٨٣٩).

(٢) الرّسالة من: (ص:٨٤٠-٨٤٧).

كما برزَ في التّقسيمِ الذي أكثرَ منــهُ، ولم تخــلُ منــه قصــيدةٌ واحدةٌ[١].

٦٥- ومن حيثُ بناءُ القصيدةِ الحربيَّةِ؛ فإنَّهَا لم تستقلَّ عن سائرِ أغراضِ الشِّعرِ إلاّ لَدَى المُتَنَبِّي في بعضِ قصائده، وابتداءاتُ البُحتُــريّ في عمومِهَا أحسنُ من ابتداءاتِ المُتَنَبِّي، ويندرُ أن نَجدَ له ابتداءً معيباً بِخلافِ المُتَنَبِّي.

وقصائدُ البُحتُرِيّ كُلُّهَا ذواتُ مقدِّمات تقليديَّة، أمّا قصائدُ المُتَنَبِّــي فَما كان منها بِمقدِّمةٍ فقد تكونُ هذه المقدِّمةُ تقليديَّــةً، وقــد تكــونُ تَجديديةً، وقد يَخلي القصيدةُ من المقدِّماتِ أصلاً فيَهْجُمُ بِها على الغرضِ مباشرةً[٢].

٦٦- أمّا عَرْضَهَما للقصيدةِ وما يَحتاجانِ فيــه إلى تَخَلُّــصٍ منــها، فالبُحْتُرِيُّ لم يكنْ مشهوراً بِحسنِ التَّخَلُّصِ، وإن أجادَ في بعضِه، وأمّا المُتَنَبِّي فكان مشهوراً بِحسنه وبِتَكَلُّفه، وقد يقعُ منه بِمواطِنَ قبيحةٍ، وقد لا يحتاجُ إلى هذا التّخلُّصِ في القصائدِ ذواتِ الغــرضِ الواحدِ، أي التِي لا يقدمُ لَهَا بِمقدِّمةٍ، وإنَّمَا يبدأ بالحديثِ عــن غرضِهِ لأوَّلِ وهلَةٍ[٣].

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٨٤٧-٨٥١).

(٢) الرّسالة من: (ص:٨٥٢-٨٥٩).

(٣) الرسالة من ص : (٨٦٠-٨٦١)

٦٧- وأمّا الخاتِمَةُ؛ فَهُمَا متقاربانِ في عدمِ حسنِ الخاتِمَـــةِ في أغلـــبِ قصائدِهِمَا؛ لأنَّهُما قد يقفانِ بكَ فجاءةً دون تَمهيدٍ، وقد يمهدَانِ لذلكَ بِما لا يشعِرُ بِنِهَايَةٍ قاطعةٍ، بيدَ أنّ المُتَنَبِّي قد يُختِمُ بِحكمـــةٍ جميلةٍ مؤثِّرةٍ[١].

٦٨- ومن حيثُ التّجربةُ الشّعرِيَّةُ لديهما فقدْ سيطرتْ على قصائدِهما التّجربةُ الشّخصيَّةُ والاجتماعيةُ، لَكِنَّ تجربة المُتَنَبِّي أكثرُ ظهوراً في قصائدِه، وقد وازنتُ بين تَجارِبِهِمَ من خلالِ قصيدتَينِ؛ فظهرَ لِي أنَّ المُتَنَبِّي أشدُّ استقصاءً واستيفاءً لِتَجاربِه[٢].

٦٩- ومن حيثُ عاطِفَتُهَما؛ فقد سيطرَتْ عَلَيْهِمَـــا العاطِفَـــةُ الدِّينيّـــةُ المشوبةُ بالفرحِ والنّشوةِ، بِما حَقَّقَهُ مَمدوحوهُما من انتصـــاراتٍ، وهناكَ عاطفةٌ أخرى قد تظهرُ لَدى الشّاعِرَين حـــينَ وصـــفِهِمَا حروبَ الأقاربِ، أو الخارجينَ على الممدوحِ من العربِ، وهـــي عاطفةُ الحزنِ على مآلِهِمَا، فيرقّانِ لَهُمْ، ويشفعانِ فيهم، وعاطفَـــةُ المُتَنَبِّي أكثرُ ظهوراً من عواطفِ البُحْتُرِيّ.

هذا، وتظهرُ على قصائدِ المُتَنَبِّي عاطفةٌ شَخْصِيَّةٌ لِمَا يُلاقيـــهِ مـــن أعدائِهِ، والشّاعِرَانِ في ثباتِ العاطِفَةِ وصِدْقِهَا سواءٌ[٣].

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٨٦٢-٨٦٣).

(٢) الرّسالة من: (ص: ٨٦٤-٨٦٨).

(٣) الرّسالة من: (ص: ٨٦٩-٨٧٣).

٧٠- ومن حيثُ الأفكارُ التي عَالَجَهَا كُلٌّ منهما؛ فـالبُحْتُرِيُّ أكثـرُ وضوحاً من المُتَنَبِّي، والمُتَنبِّي أشَدُّ عمقاً من البُحْتُرِيّ، ولذلك فهو ينقلُ المعنَى الواحدَ إلى عِدَّةِ صورٍ كما يفتِّقُ من المعنَى الواحدِ عِدَّةَ معانٍ.

٧١- ومعانِي البُحْتُرِيّ كُلُّهَا تقليديَّةٌ، إلاّ إذا استثنينا تناولَهُ لِحربِ البَحرِ وأحوالِ المسجونينَ والمصلوبين، أمّا معانِي المُتَنبِّي فَلَهُ فيها الكثيرُ من المعانِي الجديدةِ، كَمدحِهِ سيفَ الدّولـةِ بِجـنسِ السّـيفيّة، واستخدامِهِ معانِيَ الغزلِ في حديثِ الحروب.

والبُحْتُرِيُّ في الغالبِ مقتصدٌ لا يبالغُ كثيراً، وإنْ بَالَغَ لا يفـرطُ أو يحيلُ، بينما نَجِدُ المُتَنبِّي يعمدُ إلى المبالغةِ دائماً[1].

وبعدَ هذا التّلخيصِ الذي احتوى على كثيرٍ من النّتـائجِ الخاصّـةِ ببعضِ الجزئيّاتِ أذكر هنا بعضَ النّتائجِ العامّةِ وهي:

- أنّني قد أمطتُ اللّثامَ عن شاعِرِيَّةِ البُحْتُرِيّ في هذا الجانب، الـذي لم يحظَ بالدّراسةِ التي يستحقُّهَا، وقد وجدتُهُ مجيداً وصفَ الحروبِ متابعاً لِكُلِّ خطواتِهَا.
- أنّ شعرَنا العربيَّ زاخرٌ بملاحمَ تَخلُدُ أمجادَ الأمّةِ وتصفُ أعظمَ القادةِ وأشهرَ الحروبِ، ولَكِنَّهُ مُفَرَّقٌ في الدّواوينِ لم يجمعْ، وقد تمكنْتُ هنا

---

(١) الرّسالة من: (ص: ٨٧٤-٨٧٩).

من جمعِ ما تفرَّقَ في ديوانَي البُحْتُرِيّ والمُتَنَبِّي على حسبِ مراحلِ الحروبِ وخطواتِهَا.

- أنَّ هذينِ الشَّاعِرَينِ لَم يكونا بِمنأىً عمّا يدورُ حولَهُمَا من أحداثِ الحروبِ، فصوّرَاهَا خطوةً خطوةً، بِدِقَّةٍ وأمانةٍ، شعراً خالداً وسجلاً حافلاً.

- أنَّني تَمكَّنْتُ من أنْ أثبتَ اقتفاءَ أبي الطَّيِّبِ أثرَ البُحْتُرِيّ في بعضِ الصُّوَرِ الجزئيَّةِ، مِمّا أرى أنَّ أحداً من الدّارسينَ لم يعرضْ له مِن قبلُ، وليسَ في ذلكَ إثباتُ تفوّقِ البُحْتُرِيّ على المُتَنَبِّي، وإنَّمَا فيه إثباتُ تَتَلْمَذِ المُتَنَبِّي على شِعْرِهِ، وأنَّهُ لم يَكنْ بعيداً عن هذا الشِّعرِ والاطّلاعِ عليهِ.

هذا، وأنَّني أدعو الدّارسينَ إلى تَتَبُّعِ شعرِ الحربِ في شعرِ الشّعراءِ – غير هذين– ليكون لنا من وراءِ ذلك سجلٌّ حافلٌ بصورِ الجهادِ الإسلاميِّ على مَرِّ العصورِ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالَمين، والصّلاةُ والسّلامُ على خيرِ النَّبِيِّيْنَ سَيِّدِنَا محمّدٍ الأمينِ.

الفهـــارس

١- فهرس المصادر والمراجع

٢- فهرس الموضوعات

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم
١-أبو الطّيب المُتَنَبِّي للمستشرق د/ ريجيس بلاشير.
ترجمة د/ إبراهيم الكيلاني.
الطّبعة الثّانية ١٤٠٥هـ - دار الفكر - دمشق.
٢-أبو الطّيب المُتَنَبِّي حياته وخلقه وشعره وأسلوبه: محمّد كمال حلمي بك.
الطّبعة الثّانية ١٤٠٦هـ - مكتبة سعد الدِّين - دمشق.
٣-أبو الطّيب المُتَنَبِّي حياته وشعره، (مجموعة مقالات لعددٍ من الأدباء).
الطّبعة الأولى ١٩٨٢م - المكتبة الحديثة للطّباعة والنّشر - بيروت.
٤-أبو الطّيب المُتَنَبِّي في مصر والعراقين، د/ مصطفى الشّكعة.
الطّبعة الأولى. ١٤٠٣هـ - عالم الكتب، بيروت.
٥-اتّجاهات الشّعرِ العربي في القرنِ الرّابع الهجري من خلالِ كتاب: يتيمة الدّهر. د/ نبيل خليل أبو حاتم.
دار الثّقافة - الدّوحة، ١٤٠٥هـ.
٦-أخبار أبي تَمام، لأبي بكر محمّد بن يحيَى الصولِي.
تحقيق/ محمّد عبده عزام وآخرين.
الطّبعة الثّانية ١٤٠٠هـ، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
٧-أخبار البُحتُرِيّ، لأبي بكر محمّد بن يحيَى الصولِي.
تحقيق/ صالح الأشتر.
الطّبعة الأولى، عام ١٣٧٨هـ - المجمع العلمي العربِي - دمشق.
٨-أدباء العرب في الأعصر العبّاسيّة، بطرس البستانِي.
دار الجيل - بيروت ١٩٧٩م.

٩- أسرار البلاغة، للإمام عبد القاهر الجرجانِي.
تعليق/ محمّد رشيد رضا.
دار المعرفة - بيروت ١٤٠٣هـ.
١٠- الأشباه والنّظائر من أشعار المتقدِّمين والجاهليّة والمخضرمين للخالديَّين.
تحقيق: د/ محمّد يوسف نجم.
الطّبعة الأولى للمجلد الأوّل، ١٩٥٨م، والمجلد الثّانِي عام: ١٩٦٥م.
لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر - القاهرة.
١١- أصول النَّقد الأدبِي، للأستاذ / أحمد الشّايب.
الطّبعة الثّامنة ١٩٧٣م - نشر مكتبة النَّهضة المصرية - القاهرة.
١٢- إعجاز القرآن، لأبِي بكر محمّد بن الطّيب الباقلانِي.
تحقيق / عماد الدِّين أحمد حيدر.
الطّبعة الأولى ١٤٠٦هـ - مؤسّسة الكتب الثّقافية - بيروت.
١٣- الأعلام، لِخير الدِّين الزِّركليّ.
الطّبعة السّادسة ١٩٨٤م - دار العلم للملاّيِين - بيرووت.
١٤- الأغانِي، لأبي الفرج الأصبهانِي.
طبعة دار إحياء التّراث العربِي - نشر مؤسّسة جمال للطّباعة والنّشر، بيروت (د.ت).
١٥- أمالِي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، للشّريف المرتضى الموسوي.
تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم.
الطّبعة الأولى ١٣٧٣هـ دار الكتب العربية - القاهرة.
١٦- أمراء الشّعر العربِي في العصر العبّاسي، د/ أنيس المقدسيّ.
الطّبعة الخامسة عشر ١٩٨٣م - دار العلم للملاّيِين - بيروت.

١٧- الأوراق (أخبار الرّاضي والمتقي لله)، لأبي بكر الصّولِي.

نشر ج - هيورث- رن -.

الطّبعة الثّالثة ١٤٠٣هـ - دار المسيرة - بيروت.

١٨- البداية والنّهاية، لابن كثير.

الطّبعة (الرّابعة) (١٤٠٢هـ) - مكتبة المعارف - بيروت.

١٩- بلدان الخلافة الإسلامية للمستشرق كي لسترنج.

ترجمة: بشير فرنسيس، وكوركيس عواد.

الطّبعة الثّانية ١٤٠٥هـ - مؤسّسة الرّسالة - بيروت.

٢٠- البيان والتّبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ.

تحقيق/ عبد السّلام هارون.

الطّبعة الرّابعة ١٩٧٥م - نشر مكتبة الخانجي، القاهرة.

٢١- تاريخ ابن خلدون (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر).

عبد الرّحمن بن محمّد بن خلدون.

طبعة مصوّر عام ١٣٩١هـ - من طبعة دار الطّباعة الخديوية ببولاق - القاهرة ١٢٨٤هـ.

٢٢- تاريخ الأدب العربي، د/ عمر فروخ.

الطّبعة الرّابعة ١٩٨١م - دار العلم للملايّين - بيروت.

٢٣- تاريخ الإسلام السّياسيّ والدِّيني والاجتماعِي والثّقافِي.

د/ حسن إبراهيم حسن.

الطّبعة السّابعة ١٩٦٤م - مكتبة النّهضة المصرية - القاهرة.

٢٤- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

دار الكتب العلمية – بيروت (د. ت).

٢٥– تاريخ الخلفاء، لجلال الدِّين بن عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ.
تَحقيق/ محمّد محيي الدِّين عبد الحميد.
الطّبعة الأولى ١٣٧١هـ – المكتبة التّجارية – القاهرة.

٢٦– تاريخ الرّسل والملوك، لأبِي جعفر محمّد بن جرير الطّبري.
تحقيق/ محمّد أبو الفضل إبراهيم.
الطّبعة الثّالثة ١٩٧٩م – دار المعارف – القاهرة.

٢٧– التحفة البهيَّة والطّرفة الشّهيَّة (مجموعة رسائل).
الطّبعة الأولى عام ١٤٠١هـ.
دار الآفاق الجديدة – بيروت.

٢٨– جواهر البلاغة في المعانِي والبيان والبديع، أحمد الهاشمي.
الطّبعة الثّانية عشرة – دار إحياء التّراث العربِي – بيروت (د. ت).

٢٩– الحرب في شعر المُتَنبِّي، د/ محمود حسن عبد ربّه.
الطّبعة الأولى ١٣٩٨هـ – دار الشّروق – جدّة.

٣٠– حسن المحاضرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة، جلال الدِّين السّيوطِي.
تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم.
الطّبعة الأولى ١٩٦٧م – دار إحياء الكتب العربية – القاهرة.

٣١– الحماسة، لأبِي تَمام.
تحقيق د/ عبد الله عبد الرّحيم عسيلان.
الطّبعة الأولى – نشر جامعة الإمام – الرِّياض ١٤٠١هـ.

٣٢– حياة البُحتُرِيّ وفنُّه، د/ أحمد بدوي.
مكتبة الأنجلو المِصريَّة – القاهرة – عام ١٣٧٥هـ.

٣٣- خزانة الأدب ولبّ لبابِ لسانِ العرب، عبد القادر البغدادي.
الطّبعة الأولى - دار صادر - بيروت.
٣٤- الخيال الشّعري عند أبِي الطّيِّب المُتَنَبِّي، د/ طه مصطفى أبو كريشه.
الطّبعة الأولى ١٣٩٨هـ - دار التّوفيقيّة - القاهرة.
٣٥- الخيال الشّعري، في شعر الوصف عند البُحْتُرِيّ، د/ طه مصطفى أبو كريشه.
الطّبعة الأولى ١٩٨٣م - توزيع مكتبة الملك فيصل الإسلامية - القاهرة.
٣٦- دلائل الإعجاز، عتبد القاهدر الجرجانِي.
تحقيق/ محمود محمّد شاكر.
مكتبة الخانجِي - القاهرة ١٩٨٤م.
٣٧- ديوان ابن الرّومِي.
تحقيق: حسين نصار.
الهيئة المِصريَّة العامّة للكتاب - مركز تحقيق التّراث - القاهرة ١٣٩٣هـ.
٣٨- ديوان أبِي تَمام.
شرح وتعليق: د/ شاهين عطية.
الطّبعة الأولى ١٣٨٧هـ - مكتبة الطّلاب وشركة الكتاب اللّبنانِي - بيروت.
٣٩- ديوان أبِي الطّيِّب المُتَنَبِّي بشرح أبِي البقاء العكبري (التّبيان في شرح الدِّيوان).
تحقيق/ مصطفى السّقا وآخرين.
مكتبة الرِّياض الحديثة - الرّياض. (د. ت).

٤٠- ديوان أبِي فراس الحمداني.
شرح وتعليق/ عبّاس عبد السّاتر.
الطّبعة الأولى ١٤٠٤هـ - دار الكتب العلميّة - بيروت.
٤١- ديوان البُحتُرِيّ.
تحقيق/ حسن كامل الصّيرِفي.
الطّبعة الثّالثة - دار المعارف - القاهرة.
٤٢- الدّيوان في الأدب والنّقد، لعبّاس محمود العَقّاد، وإبراهيم عبد القادر المازِني. الطّبعة الثّالثة - دار الشّعب - القاهرة (د. ت).
٤٣- ديوان المعانِي، لأبِي هلال العسكري.
مكتبة القدسِيّ - القاهرة - (د. ت).
٤٤- الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسامٍ الشّنترِينِي.
تحقيق: د/ إحسان عبّاس.
الدّار العربية للكتاب - ليبا، تونس - عام ١٣٩٥هـ.
٤٥- الذّيل -ذيل وفيات الأعيان-، لِمحمّد بن شاكر الكتبِي.
تحقيق: د/ إحسان عبّاس.
دار صادر - بيروت ١٩٧٤م.
٤٦- رسائل الجاحظ.
تحقيق: د/عبد السّلام هارون.
الطّبعة الأولى ١٣٩٩هـ - مكتبة الخانَجِيّ - القاهرة.
٤٧- الرّسالة الحاتِمية، لأبِي عليّ محمّد بن الحسين الحاتمي.
ضمن: (كتاب التّحفة البهيَّةِ والطّرفة الشّهيّة).
الطّبعة الأولى ١٤٠١هـ - دار الآفاق الجديدة - بيروت.

٤٨- رسالة الغفران لأبي العلاء المعرّي.
تحقيق: د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشّاطيء).
الطّبعة السّادسة ١٩٧٧م - دار المعارف - القاهرة.
٤٩- الرّسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطّيّب وساقط شعره، لابن عليّ الحاتميّ.
تحقيق/ محمّد يوسف نجم.
دار صادر، ودار بيروت ١٣٨٥هـ - بيروت.
٥٠- سرّ الفصاحة، لابن سنان الخفاجي.
الطّبعة الأولى ١٩٨٢م - دار الكتب العلمية - بيروت.
٥١- سَرْحُ العيون بشرح رسالة ابن زيدان، لجمال الدّين بن نباتة المصري.
تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم.
المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ - صيدا - لبنان.
٥٢- شذرات الذّهب في أخبار مَن ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي.
المكتبة التّجارية للطّباعة والنّشر - بيروت - (د. ت).
٥٣- شرح ديوان أبي الطّيّب المُتَنَبّي (معجز أحمد)، لأبي العلاء المعريّ.
تحقيق: د/ عبد المجيد ذياب.
الطّبعة الأولى ١٩٨٦م - دار المعارف - القاهرة.
٥٤- شرح ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري، عبد الرّحمن البرقوقي.
دار الأندلس - الطّبعة الثّالثة - بيروت عام ١٩٨٣.
٥٥- شرح ديوان المُتَنَبّي، عبد الرّحمن البرقوقي.
دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان، الطّبعة الأولى ١٤٠٠هـ.

٥٦- شعر المُتَنَبِّي دراسة فَنِّيَّة، د/ مصطفى أبو العلاء.
مكتبة نهضة الشّرق - القاهرة - ١٩٧٦م.
٥٧- الصّبح المُنَبِّي عن حيْثِيَّةِ المُتَنَبِّي، يوسف البديعي.
تحقيق: مصفطى السّقا، و آخرين.
الطّبعة الثّانية ١٩٧٧م - دار المعارف - القاهرة.
٥٨- الصّناعتين (الكتابة والشّعر)، لأبي هلال العسكري.
تحقيق: محمّد أبو الفضل إبرهيم، وعليّ محمّد البجاوي.
الطّبعة الأولى - ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م - دار إحياء الكتب العربي - القاهرة.
٥٩- الصّنعة الفنِّيَّة في شعر المُتَنَبِّي، دراسة نقدية، د/ صلاح عبد الحافظ.
الطّبعة الأولى عام ١٩٨٣م - دار المعارفِ - القاهرة.
٦٠- ضُحى الإسلام، لأحمد أمين.
الطّبعة العاشرة - دار الكتاب العربي - بيروت. (د. ت).
٦١- الطّراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، لِيحيَى بن حمزة العلوي.
دار الكتب العلميّة - بيروت - ١٤٠٢هـ.
٦٢- ظهر الإسلام، أحمد أمين.
الطّبعة الخامسة - دار الكتاب العربي - بيروت - (د. ت).
٦٣- عبث الوليد في الكلام على شعر أبي عبادة الوليد بن عبيد البُحتُرِيّ الطّائيّ، لأبي العلاء المعرّي.
تحقيق وتصحيح: محمّد عبد الله المدنِي.
الطّبعة الثّالثة ١٤٠٥هـ - دار الرّفاعي بالرّياض - الرّياض.

٦٤- العرف الطّيِّب بشرح ديوان أبي الطّيِّب، للشّيخ ناصيف اليازجِي (طبعة غير موثّقة).

٦٥- العصر الجاهلي، د/ شوقي ضيف.
الطّبعة العاشرة ١٩٨٢م - دار المعارف - القاهرة.

٦٦- العصر العبّاسي الأوّل، د/ شوقِي ضيف.
الطّبعة الثّامنة ١٩٨٢م - دار المعارف - القاهرة.

٦٧- العصر العبّاسي الثّانِي، د/ شوقِي ضيف.
الطّبعة الثّالثة ١٩٧٧م - دار المعارف - القاهرة.

٦٨- العمدة في صناعة الشّعر ونقده، لأبي عليّ الحسن بن رشيق القيرانِي.
تحقيق: د/ مفيد قميحه.
الطّبعة الأولى ١٤٠٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.

٦٩- عن اللّغة والأدب والنّقد، (رؤيةٌ تاريخيةٌ ورؤيةٌ فنّيّةٌ).
د/ أحمد محمّد العَزَب.
الطّبعة الأولى - المركز العربِي للثّقافة والعلوم - بيروت (د. ت).

٧٠- العوامل السّياسيّة في شعر أبِي الطّيِّب المُتَنبِّي، عصام السّويفي.
الطّبعة الأولى ١٩٨١م، دار الفكر - بيروت.

٧١- الفخري في الآداب السّلطانية والدّول الإسلامية، لمحمّد بن عليّ بن طباطبا، المعروف بابن الطقطقي.
نشر مكتبة محمّد عليّ صبيح وأولاده - القاهرة ١٣٨١هـ.

٧٢- الفنّ ومذاهبه في الشّعر العربِي، د/ شوقي ضيف.
الطّبعة التّاسعة ١٩٧٦م - دار المعارف - القاهرة.

٧٣- فوات الوفيّات والذّيل عليها، لِمحمّد بن شاكر الكتبِي.

تحقيق: د/ إحسان عبّاس.
دار صادر - بيروت ١٩٧٤م.
٧٤- في ميزان النّقد الأدبي، د/ طه أبو كريشة.
الطّبعة الأولى، ١٣٩٦هـ - مطبعة المليجي - الجيزة، مصر.
٧٥- في النّقد الأدبي، د/ شوقي ضيف.
الطّبعة الخامسة ١٩٧٧م - دار المعارف - القاهرة.
٧٦- في النّقد الأدبي الحديث، د/ محمّد عبد الرّحمن شعيب.
الطّبعة الأولى ١٩٦٧م - دار التّأليف -القاهرة.
٧٧- قصيدة المديح عند المُتَنبّي وتطوّرها الفنّيّ، أيْمن محمّد زكِيّ العشماويّ.
الطّبعة الأولى ١٩٨٣هـ - دار النّهضة العربية - بيروت.
٧٨- قضايا النّقد الأدبي، د/ بدوي طبانة.
طبعة دار المريخ ١٤٠٤هـ - الرّياض.
٧٩- قلب كافوريات أبي الطّيّب المُتَنبّي من المديح إلى الهجاء، لعبدالرّحمن بن حسام الدّين زاده الرّومي.
الطبعة الأولى ١٣٩٢هـ -دار الأمانة و مؤسسة الرسالة -بيروت.
٨٠- الكامل في التّاريخ، لابن الأثير.
الطّبعة الخامسة ١٤٠٥هـ - نشر دار الكتاب العربي - بيروت.
٨١- الكامل في النّقد الأدبي - كمال أبو مصلح.
الطّبعة الخامسة ١٤٠٣هـ - المكتبة الحديثة - بيروت.
٨٢- الكشف عن مساوئ المُتَنبّي، للصّاحب بن عباد.
رسالة ضمن كتاب (الإبانة عن سرقات المُتَنبّي) للعميديّ.
تحقيق: د/ إبراهيم الدّسوقي.

الطّبعة الثّانية عام ١٩٦٩م – دار المعارف – مصر.
٨٣– لسان العرب، لابن منظور الأفريقيّ.
دار صادر بيروت (د. ت).
٨٤– لغة الحبّ في شعر المُتَنَبّي، د/ عبد الفتّاح صالِح نافع.
الطّبعة الأولى ١٤٠٣هـ – دار الفكر للنّشر والتّوزيع – عمان الأردن.
٨٥– المُتَنَبّي، لخليل شرف الدّين. (ضمن الموسوعة الأدبية الميسّرة).
منشورات دار مكتبة الهلال – بيروت – ١٩٨٤م.
٨٦– المُتَنَبّي، محمود محمّد شاكر.
مطبعة المدنِي – القاهرة – (د. ت).
٨٧– المُتَنَبّي بين ناقدَيه في القديم والحديث، د/ محمّد عبد الرّحمن شعيب.
الطّبعة الأولى ١٩٦٤م – دار المعارف – القاهرة.
٨٨– المُتَنَبّي مالئ الدّنيا وشاغل النّاس، د/ محمّد التّونجي
الطّبعة الأولى عام: ١٩٧٥م. (د– ت).
٨٩– المثل السّائر في أدب الكاتب والشّاعر؛ لضياء الدّين بن الأثير.
تحقيق د/ أحمد الحوفي ود/ بدوي طبانة.
الطّبعة الثّانية ١٤٠٤هـ – نشر دار الرفاعي – الرياض.
٩٠– مجمع الأمثال للميدانِي.
تحقيق: محيي الدّين عبد الحميد
دار المعرفة، بيروت.
٩١– المرشد إلى فهم أشعار العرب، د/ عبد الله الطّيّب.
الطّبعة الثّانية عام ١٩٧٠م – دار الفكر – بيروت.
٩٢– مروج الذّهب ومعادن الجوهر، لأبِي الحسن المسعودي.

تَحقيق/ محمّد محيي الدِّين عبد الحميد.
الطّبعة الخامسة عام: ١٣٩٣هـ - القاهرة.
٩٣- مطالعات في الكتب والحياة، عبّاس محمود العقّاد.
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت (د. ت).
٩٤- المعانِي الكبير في أبيات المعانِي، لابن قتيبة الدّينوري.
الطّبعة الأولى ١٤٠٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.
٩٥- معجز أحمد، تحقيق: د/ عبد المجيد دياب.
الطّبعة الأولى ١٩٨٦م - دار المعارفِ - القاهرة.
٩٦- معجم الأدباء، لياقوت الحموي.
الطّبعة الثّالثة ١٤٠٠هـ - دار الفكر - بيروت.
٩٧- معجم البلدان، لياقوت الحموي.
دار إحياء التّراث العربِي - بيروت - ١٣٩٩هـ.
٩٨- معجم قبائل العرب القديمة والحديثة - لِعمر رضا كحالة.
الطّبعة الثّانية ١٣٩٨هـ - مؤسّسة الرّسالة - بيروت.
٩٩- المعجم الوسيط، مجمع اللّغة العربية.
الطّبعة الثّانية ١٣٩٣هـ - دار المعارف - مصر.
١٠٠- مع المُتَنَبِّي، طه حسين.
الطّبعة الثّانية عشرة ١٩٨٠م - دار المعارف - القاهرة.
١٠١- مع المُتَنَبِّي في شعره الحربِي، د/ هادي نهر.
الطّبعة الأولى ١٩٧٩م - الجامعة المستنصرية - بغداد.
١٠٢- مقدِّمات سيفيّات المُتَنَبِّي - أحمد عبد الله المحسن.
الطّبعة الأولى ١٤٠٣هـ - دار العلوم - الرّياض.

١٠٣- مقدّمة ابن خلدون.
الطّبعة الرّابعة – دار إحياء التّراث العربِي – بيروت (د. ت).
١٠٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لِحازم القرطاجنِي.
تحقيق: محمّد الحبيب بن الخوجه.
الطّبعة الثّالثة ١٩٨٦م – دار الغرب الإسلامي – بيروت.
١٠٥- الموازنة بين شعرَي أبِي تَمام والبُحْتُرِيّ، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدِي.
تحقيق: السّيّد أحمد صقر.
جـ ١، الطّبعة الثّانية ١٩٧٢م – دار المعارف – القاهرة.
جـ ٢، الطّبعة الثّانية ١٩٧٣م – دار المعارف – القاهرة.
١٠٦- الموشح في مآخذ العلماء على الشّعراء، لأبي عبد الله محمّد بن عمران للمرزبانِي.
أشرف على طبعه: محبّ الدِّين الخطيب.
الطّبعة الثّانية، عام: ١٣٨٥هـ – القاهرة.
١٠٧- النّجوم الزّاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي.
نشرها المؤسّسة المصرية العامّة، وزارة الثّقافة والإرشاد القومِي.
نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب – القاهرة.
١٠٨- الوساطة بين المتنَبِّي وخصومه، للقاضي عليّ بن عبد العزيز الجرجانِي.
تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، وعليّ محمّد البجاوي.
دار القلم – بيروت (د. ت).
١٠٩- وفيات الأعيان وأنباء الزّمان، لابن خَلّكان.
الطّبعة الأولى ١٩٤٩م – مكتبة النّهضة المصرية – القاهرة.

١١٠- يتيمة الدّهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك بـــن محمّـــد الثّعالَبِي.
الطّبعة الأولى ١٩٧٩م - دار الكتب العلمية - بيروت.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصّفحة